

دراسات فنية

في الأدب

عبد الكريم البياضي

عبد الكريم البياضي



مكتبة لبنان ناشرون

رَأْسُكَ فِيهِ
فِي الْأَجْبَلِ الْعَرَبِيِّ

دُرِّ اسْتَلَتْ فَنِيَّةٌ فِي الْأَرْبَعِ الْعَرَبِيَّةِ

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْكَيْمِ الْيَافِي

أستاذ بجامعة دمشق وعضو مجمع اللغة العربية

كتابٌ حاز جائزة الدولة

مكتبة لبنان ناشرون

مَكْتَبَةُ لَبْنَانَ نَاشِرُونَ شَرِكَة

زقاق البلاط - ص.ب. ٩٢٣٢ - ١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الحقوق الكاملة محفوظة

لمكتب لبنان ناشرون شركة

الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

رقم الكتاب 01R160374 .

طبع في لبنان

استهلال

هذا الكتاب الذي أقدّمه بطبعته الجديدة تعبير عن عاطفة الولاء للأدب العربي، وتنويع ببعض القيم التي اعتلجت في قلوب طائفة من الشعراء والمفكرين العرب، وتوكيد لمزايا لغة تفتحت في ظلها حضارات رفيعة.

وكما يحلو شعاع الشمس حين يتلألأ في الضحى والأصيل على لازورد السماء الصافي كذلك يتلألأ اللفظ العربي الشريف في خاطري وفي سمعي وبصري، فأنعّم بطلاوته وأقنأت من حلاوته وأزشف من معين روائه وأحلم في آفاق جزيه.

وقد وضعت عنوانات صغيرة لأطوار الشعر العربي حين تلمس البحث ملامحها إيضاحاً لتلك الملامح، وتيسيراً للإحاطة بها. ومع توجّه الكتاب شطر تاريخ الأدب الماضي توهّت بأضواء حرة ناشئة نددت بالعدوان على البلاد العربية. لقد فتح أصحابها جفونهم على ظلمه وظلامه، فقاوموا شبا السنان بسنا البنان، وحديد الحراب بحدائمه الإهاب، وقابلوا النار بالثور، والبغي والاضطلام بالصبر وأمل انطواء الظلام. ذلك أن شرف الحرف متصل أبداً بشرف دلاليته، ومجده مقترب نبيل مضمونه.

وثمة تيارات أدبية وفكرية أخرى لم أعرض لها. وهي ناشئة تحتاج إلى عطف ورعاية، كما تحتاج إلى دُرّية ودراية، إلا ما أصاب منها الصلف والغرور، فانقطعت عن تراثها الأصيل أو ادّعت انقطاعاً عنه. أصحاب هذه كالأطفال: إذا تركهم إخوانهم الكبار يمشون أمامهم حسبوا أنهم سبقوهم، وإذا حملوهم على الأكتاف توهّموا أنهم يرون أبعد منهم.

هذا، وقد اعتمدت على الاستشهاد بكثير من النصوص المتفرقة رغبة في جلاها، وتخبيها لمصادرها، لعل القارئ الكريم يتذكر غنى تلك المصادر، ويجد في الرجوع إليها متاعاً أيّ متاع.

وقد ترد في تلك النصوص ألفاظ نادرة، أردت أن يشاركني القارئ في ضبطها

بالاعتمادِ على مُعْجَمَاتِ اللُّغَةِ الوافرةِ المُفيدةِ، لم أَشرَحْ منها إلا ما رأيتهُ مُستَغْلَقاً أو يَحْتَاجُ إلى تَنْبِيهِ.

والتَّجَاحُ الذي لَقِيَهُ هَذَا الكِتَابُ دَلِيلٌ على اسْتِمْرَارِ تَذَوُّقِ الأَجْيَالِ لِلأَدَبِ الأَصِيلِ في النُّصُوصِ الوارِدَةِ فيه. وهي لَيْسَتْ إلا أَمْوَاجاً تَتَكَسَّرُ على شاطئِ البَحْثِ يُشِيرُ ارْتِفَاعُهَا إلى اتِّسَاعِ الخِصْمِ وَعُمقِ لُجَجِهِ، أو نُجُوماً وَشُهَباً يُدْرِكُهَا الخَاطِرُ تَشَفُّ بَعْضَ الشَّيْءِ عن مَدَى الرُّحْبِ في سَمَاءِ الفِكْرِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٢٢: الحج : ٢٤].

للغة العربية مكانة خاصة بين اللغات جميعاً، وصلتها بالشعب العربي وبغيره من الشعوب صلة فريدة في التاريخ. ومن المفيد أن نبين تلك المكانة وأن نجلو أطرافاً من هذه الصلة ما اتسع لنا المجال في هذا الاستهلال.

أما مكانة اللغة العربية بين اللغات فينبغي أن نعرف أنه لا توجد في القديم ولا في الحديث لغة تضاهيها في المزايا وتحاكيها في الخصائص والفضائل. وليس كلامنا من وحي العاطفة، وإن كنا نجل العاطفة، ولا هو من قبيل الفخار ولا الحماسة، وإن أصبحا سائعين لغرض التشجيع في هذا العصر المضطرب البين، ولكن كلامنا مبني على تلمس الصفات الموضوعية.

فاللغة العربية من أقدم اللغات الحية بل هي أقدمها على الإطلاق^(١). وقدّمها لهذا يحبوها ثرائاً ثرياً ويهب لها مرونة واسعة ويؤوّدّها بتجارب كثيرة كبيرة. ولقد نشأت وعاشت واكتملت وعمرت واستمرت الأحقاب الطوال وهي لا تزال في ريعان القوة والتموّ على رغم ما قد تصادف من صعاب، وما ذلك إلا لأنها تحوي فضائل ضمنية ليست للغات ماتت وانقرضت كاللغة اليونانية واللاتينية وأمثالهما.

والحق أن اللغة العربية مرّت بمراحل نشوء طويلة وكبيرة. ولقد دلت الكشوف الأثرية الحديثة التي حصلت في مدينة ماري (تل حريري) بالجزيرة أن الكتابات الوافرة التي عُثِرَ عليها في تلك المدينة القديمة، وهي ترجع إلى نحو من ثلاثة آلاف سنة قبل

(١) اللغة الصينية تشارك العربية في القدم ولكن اللغة الصينية تطورت تطوراً كبيراً في بداية القرن العشرين بحيث أصبحت اللغة الصينية الحديثة تختلف عن اللغة القديمة.

المسيح، إنما كانت مكتوبةً بلغةً قريبةً جداً من العربية. وفي تلك العصور الطوال الخالية اكتملت اللغة العربية اكتمالاً أصيلاً وجميلاً، فطابت خلاصتها كما تطيب السلافة المعتقد في حجر القرون، وخلص جواهرها كما يخلص الذهب الإبريز بيران التجارب.

ولما جاء الدين الإسلامي ونزل القرآن الكريم قيض لها منذ هذه المرحلة الحاسمة الصون والاستمرار والتأييد والتأييد مع التطور المناسب للملائم. وإذا كان التطور التاريخي الطويل يهب للغة كمالاً حين تكون اللغة أهلاً له بما فيها من مرونة ومن مزايا فإن اللغة العربية لها مثل هذا الكمال المفرد بين جميع اللغات.

بيد أن لهجة قرش البلغة هي التي كتبت لها البقاء والاستمرار^(١). ولقد خرجت مع العرب من بلادهم، وتدفقت كالسيل المخصب المخرج في بلاد العالم. ولمرونتها وزوايتها وروقيها ومائها واتساع دلالتها ودقة بيانها وملاءمتها غلبت جميع اللغات التي صادفتها، بل أمدت تلك اللغات بشع قوي حي وأعطتها حياة جديدة طيبة. ولا غرو أن أصبحت بعد أمد لغة الأدب ولغة العلم ولغة السياسة ولغة التجارة ولغة الدين ولغة الحضارة ولغة الحديث المهدب لشعوب كثيرة تكلمت بها عصوراً طوالاً لا للشعب العربي وحده، وبذلك شادت بالفاظها كالجواهر الكريمة أعظم بيان لثقافة الدهر. ولم يتخ مثل ذلك للغة من اللغات حتى اليوم.

وليس غريباً أن تستهوي اللغة العربية أبناء شعوب كثيرة وتأخذ يقلوبهم وتغوسهم وتتلقي ثمرات عقولهم وقرايحهم، فلم يكونوا يفضلون عليها لغة من اللغات، مع أنهم كانوا يتقنون إذ ذاك عدة لغات شائعة في زمانهم. ومن الطريف أن نذكر إقبال شعوب آسية وإفريقية وأوربية على دراسة اللغة العربية والكتابة بها وإتقانها والنظر إليها على أنها اللغة الفكرية والأدبية والعلمية الممتازة، وذلك في العصور التي تآلفت فيها الحضارة العربية. وفي كتاب «الإمتاع والمؤانسة» للتوحيدى فصل يشير إلى إعجاب عبد الله بن المقفع

(١) «قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف: كانت قرش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند التلطي، وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس. والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب وهم قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومُعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصرف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم». المزهر، ١ ص ٢١١ انظر أيضاً مقدمة ابن خلدون: «فصل في أن اللغة ملكة صناعية».

الفارسيّ بِالْعَرَبِ وَيَلْعَنُهُمْ ثُمَّ يَتَضَمَّنُ تَعْقِيباً لِلْمُؤَلِّفِ يَشْرَحُ فِيهِ مَزَايَا لُغَتِهِمْ شَرْحاً بَدِيعاً^(١).

بَيِّدَ أَنَّ هُنَاكَ عَالِماً وَمُؤَرِّخاً وَجُغْرَافِياً وَفَيْلَسُوفاً وَرِیَاضِیّاً وَفَلَکِیّاً کَبِیْراً، بَرَزَ فِي عُلُومٍ کَثِیرَةٍ، قَلَّ مِثْلُهُ فِي تَارِیخِ الْفِکْرِ الْإِنْسَانِیِّ، وَهُوَ أَبُو الرِّیْحَانِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْبِیْرُونِیِّ (٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م = ٤٤٣ هـ - ١٠٥١ م)^(٢) کَانَ یَتَقَنُّ التُّرْکِیَّةَ وَالْفَارْسِیَّةَ وَیَعْرِفُ الْهِنْدِیَّةَ وَالشَّرِیَانِیَّةَ وَالْبِیْزَنْتِیَّةَ زِیَادَةً عَلَى الْعَرَبِیَّةِ. وَفِي بَعْضِ کُتُبِهِ یَذْکُرُ الشَّيْءَ وَالْأَلْفَاظَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ اللُّغَاتِ. وَفِکْرُهُ الْعِلْمِیُّ وَاطَّلَاعُهُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الشَّائِعَةِ فِي عَصْرِهِ یُحَوِّلَانِهِ أَنَّ یَحْکُمَ حُکْماً صَحِیحاً عَلَى مَزَايَا اللُّغَاتِ. وَلَقَدْ جَاءَ فِي کِتَابِهِ «الصِّدْنَةُ»^(٣) قَوْلُهُ:

«وَالِی لِسَانِ الْعَرَبِ ثَقَلَتِ الْعُلُومُ مِنْ أَقْطَارِ الْعَالَمِ فَازْدَادَتْ وَحَلَّتْ فِي الْأَفْنِیَّةِ، وَسَرَتْ مَحَاسِنُ اللُّغَةِ مِنْهَا فِي الشَّرَائِینِ وَالْأَوْرِدَةِ، وَإِنْ کَانَتْ کُلُّ أُمَّةٍ تَسْتَحْلِي لُغَتَهَا الَّتِي أَلْفَنَتْهَا وَاعْتَادَتْهَا وَاسْتَعْمَلَتْهَا فِي مَآرِبِهَا مَعَ الْأَفْهَامِ وَأَشْكَالِهَا. وَأَقِيسُ هَذَا بِنَفْسِي، وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ عَلَى لُغَةٍ لَوْ خُلِدَتْ بِهَا عِلْمٌ لَاسْتُغْرِبَ اسْتِغْرَابَ الْبَعِیْرِ عَلَى الْمِیْزَابِ، وَالزَّرَافَةِ فِي الْعِرَابِ، ثُمَّ مُتَنَقِّلَةٌ إِلَى الْعَرَبِیَّةِ وَالْفَارْسِیَّةِ فَأَنَا فِي کُلِّ وَاحِدَةٍ دَخَلْتُ^(٤) وَلَهَا مُتْکَلِّفٌ. وَالْهَجُورُ بِالْعَرَبِیَّةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَدْحِ بِالْفَارْسِیَّةِ. وَسَیَعْرِفُ مِصْدَاقُ قَوْلِي مِنْ تَأَمُّلِ کِتَابِ عِلْمٍ قَدْ نُقِلَ إِلَى الْفَارْسِیَّةِ کَیْفَ ذَهَبَ رَوْنَقُهُ، وَکَسَفَ بَالُهُ، وَاسْوَدَّ وَجْهُهُ، وَزَالَ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ، إِذْ لَا تَصْلُحُ هَذِهِ اللُّغَةُ إِلَّا لِلْأَخْبَارِ الْکِشْرُویَّةِ، وَالْأَسْمَارِ الْیَلِیَّةِ».

وَيَسْتَبِیْنُ مِنَ النَّصِّ أَنَّ الْعُلُومَ أَنْفُسَهَا لَمَّا نُقِلَتْ إِلَى الْعَرَبِیَّةِ اِزْدَادَتْ جَمَالاً وَدِقَّةً وَطِلَافَةً؛ کَمَا یَسْتَبِیْنُ الْبَوْنُ الشَّاسِعُ بَیْنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِیَّةِ وَبَقِیَّةِ اللُّغَاتِ إِذْ ذَاکَ، وَهَذَا عَلَى

(١) ج ١، ص ٧٠ - ٨٥، القاهرة، ١٩٣٩.

(٢) وَلِدَ فِي ضَوَاحِي مَدِیْنَةِ خَوَارِزْمَ، وَمِنْ هُنَا سُمِّيَ الْبِیْرُونِیُّ مِنْ بِیْرُونَ بِمَعْنَى الْخَارِجِ. یَقُولُ السَّمْعَانِیُّ فِي کِتَابِ الْأَنْسَابِ: «الْبِیْرُونِیُّ بِکَسْرِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَسُکُونِ الْیَاءِ آخِرِ الْحُرُوفِ وَضَمِّ الرَّاءِ وَبَعْدَهَا الْوَآءُ فِي آخِرِهَا التَّوْنُ هَذِهِ النُّسْبَةُ إِلَى خَارِجِ خَوَارِزْمَ فَإِنْ بِهَا مِنْ یَکُونُ مِنْ خَارِجِ الْبَلَدِ وَلَا یَکُونُ مِنْ نَفْسِهَا یُقَالُ لَهُ فَلَانٌ بِیْرُونِیٌّ...» وَالمشهورُ بهذه النُّسْبَةِ أَبُو الرِّیْحَانِ الْمُتَنَجِّمُ الْبِیْرُونِیُّ، ظَهَرَ الْوَرَقَةُ ٩٨. تُؤْفَى فِي غَزَنَةِ. وَکُتِبَتْ مُتَعَدِّدَةً وَمَشْهُورَةً. وَخَوَارِزْمَ: أَوَّلُهُ بَیْنَ الضَّمَّةِ وَالْفَتْحَةِ وَالْأَلْفِ مُسْتَرْقَةً مُخْتَلَسَةً لَیْسَتْ بِالْأَلْفِ صَحِیْحَةً، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْوَآءَ وَالْأَلْفَ تَقَابِلَانِ حَرْفِ هَ بِالْفَرَنْسِیَّةِ.

(٣) نَسْخَةٌ مَخْطُوطَةٌ فِي دَارِ الْکُتُبِ الْمِصْرِیَّةِ بِرَقْمِ ل/ ٣٠١٤ وَ ١٠٨٤/ ١٩٣٦.

(٤) هُکَذَا فِي الْأَصْلِ، وَالذَّخْلُ الْقَوْمُ الَّذِینَ یَنْتَسِبُونَ إِلَى مَنْ لَیْسُوا مِنْهُمْ. وَیَجُوزُ أَيْضاً أَنْ یَکُونَ دَخِیلٌ أَوْ دَاخِلٌ، سَقَطَ حَرْفُ الْعَلَّةِ فِي النُّسَخَةِ، أَوْ (لِی) فِي کُلِّ وَاحِدَةٍ دَخَلِ.

لِسَانِ عَالِمٍ مَارَسَ التَّفَكِيرَ الْعِلْمِيَّ الْمَحْضَ، وَكَانَ عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ. وَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ اللُّغَةَ الْفَارْسِيَّةَ مِنْ أَجْمَلِ اللُّغَاتِ نُطْقًا وَأَكْثَرُهَا بِلَاغَةً وَأَنَّ اللُّغَاتِ الْحَدِيثَةَ كَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ وَالْأَلْمَانِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ انْحَدَرَتْ مَعَهَا مِنْ أُرُومَةٍ وَاحِدَةٍ انْضَحَتْ مَكَانَهُ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي لَا تَكَادُ تَبْلُغُ شَأُوهَا لُغَةً^(١).

وَلَا يَكْفِي هُنَا مُجَرَّدُ الثَّنَاءِ وَالْإِطْرَاءِ. بَلْ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ بَعْضِ تِلْكَ الْمَزَايَا. وَلَا يَتَسَعُّ الْمَجَالُ فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ لِعَرْضِ طَائِفَةٍ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي امْتَارَتْ بِهَا الْعَرَبِيَّةُ. وَقَدْ يَكُونُ أَصَحُّ بَرَهَانٍ يُقَدَّمُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ تَدَارُسُهَا وَتَعَلُّمُهَا وَمُطَالَعَةُ آيَاتِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ فِي ثَرَايِهَا الْوَاسِعِ الْخِصْمِ الضَّخْمِ. ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ وَالْحَبَّ صِنَوَانِ مُتَلَازِمَيْنِ يَرِيدُ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ وَيَعْضُدُهُ. وَمَعَ هَذَا فَلَا بُدَّ مِنْ إِيرَادِ بَعْضِ الْأَمْثَلَةِ عَلَى مَقَائِسِهَا الدَّائِيَّةِ الصَّحِيحَةِ وَأُصُولِ وَضْعِهَا الَّتِي تَفَرَّعَتْ مِنْهَا الْأَلْفَاظُ وَالْكَلِمُ.

نُورَةٌ قَدِيمًا بِتِلْكَ الْمَقَائِسِ اللُّغَوِيَّةِ أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ فَارَسٍ بْنِ زَكْرِيَا (٣٢٩ هـ - ٩٤١ م = ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) حِينَ وَضَعَ كِتَابَهُ الْجَيِّدَ «مُعْجَمَ مَقَائِسِ اللُّغَةِ». قَالَ فِي مُقَدِّمَتِهِ:

«إِنَّ لِلُّغَةِ الْعَرَبِ مَقَائِسَ صَحِيحَةً وَأُصُولًا تَتَفَرَّعُ مِنْهَا فُرُوعٌ. وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي جَوَامِعِ اللُّغَةِ مَا أَلْفَوْا وَلَمْ يُعَرِّبُوا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مِقْيَاسٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَائِسِ وَلَا أَصْلٍ مِنْ تِلْكَ الْأُصُولِ. وَالَّذِي أَوْثَقْنَا إِلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ جَلِيلٌ، وَلَهُ خَطَرٌ عَظِيمٌ. وَقَدْ صَدَرْنَا كُلَّ فَصْلٍ بِأَصْلِهِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَسَائِلُهُ حَتَّى تَكُونَ الْجُمْلَةُ الْمُوجِزَةُ شَامِلَةً لِلتَّفَصِيلِ، وَيَكُونُ الْمُجِيبُ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مُجِيبًا عَنِ الْبَابِ الْمَبْسُوطِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَقْرَبِهِ».

وَيَعْمِدُ الْمُؤَلِّفُ فَيُوضِحُ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي جَمَعَهَا فِي مُعْجَمِهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَرُدُّهَا إِلَى أُصُولِهَا وَمَقَائِسِهَا فَيَسْرَحُ فِي بَدَايَةِ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ مَعَانِي

(١) مَلَاءَمَةُ الْعَرَبِيَّةِ لِلْأَغْرَاضِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ انْتَبَهَ لَهَا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ الْمُشْتَرِقُونَ أَنْفُسُهُمْ. وَلَقَدْ سَمِعْنَا مِرَارًا الْمُشْتَرِقَ الْفَرَنْسِيَّ مَاسِينِيونَ يُنَوِّهُ بِقُدْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى التَّعْبِيرِ الْمُجَرَّدِ الْفَلَسْفِيِّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا. وَكَذَلِكَ أَشَارَ الْمُشْتَرِقُ الْبَرِيطَانِيُّ بَرَاونَ الَّذِي أَكَّبَ عَلَى دِرَاسَةِ الْأَدَبِ الْفَارْسِيِّ إِلَى صِلَاحِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْأَغْرَاضِ الْعِلْمِيَّةِ فِي كِتَابِهِ «تَارِيخُ الْأَدَبِ فِي إِيرَانَ مِنَ الْفِرْدَوْسِيِّ إِلَى السَّعْدِيِّ» فَقَالَ: «وَالْعَرَبِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَصْلَحِ اللُّغَاتِ لِتَادِيَةِ الْأَغْرَاضِ الْعِلْمِيَّةِ فَهِيَ غَنِيَّةٌ بِالْأُصُولِ وَبِالْمُسْتَنْقَاتِ النَّاتِجَةِ عَنْ هَذِهِ الْأُصُولِ. وَالْمُسْتَنْقَاتُ فِيهَا كَثِيرَةٌ. وَهِيَ تَتَّفَقُ مَعَ الْأَصْلِ فِي اتِّصَالِهَا بِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَإِنْ تَحَوَّرَ مَعْنَاهَا قَلِيلًا بِحَسَبِ اسْتِيفَائِهَا أَوْ صِيَاقِهَا». تَرْجَمَةُ الدُّكْتُورِ أَمِينِ الشُّوَارِيِّ.

البَسْطِ، لَأَن بَسْطَهَا يَحُولُ دُونَ شَرْحِهِ الْمُفَصَّلِ لِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الْكَثِيرَةِ وَيُنْذِرُ بِإِذْخَالِ نَصِيبٍ مِنَ الْإِبْهَامِ إِذَا اقْتَصَرَ الْمُتَادِّبُونَ عَلَى مُلَاحَظَةِ الْأُرُومَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنِ الْأَصُولِ. وَهَذَا خِلَافُ مَا يَقْصِدُهُ عَالِمُ اللُّغَةِ مِنْ ضَبْطِ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ لِلأَلْفَاظِ وَاسْتِقْرَاءِ دَلَالَتِهَا كَمَا وَرَدَتْ عَنْ أَصْحَابِهَا وَرُوتَاتِهَا. وَالذَّلِيلُ عَلَى إِذْرَاكِهِ ذَلِكَ تَقْدِيمُهُ فِي كِتَابٍ كُلِّ حَرْفٍ بَابًا لِلْمُضَاعَفِ وَالْمُطَابِقِ.

أَمَّا اللُّغَوِيُّ الْفَيْلَسُوفُ فَإِنَّهُ يَطْمَحُ إِلَى التَّعْميمِ وَيُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَنْشِفَ الْأَصُولَ الْكُبْرَى الَّتِي لِلأَلْفَاظِ وَأَنْ يَرِيبَ بَيْنَهَا وَيَبَيِّنَ مَعَانِيهَا فِي جُمْلَةٍ مَا يَقْصِدُ إِلَيْهِ. وَمِنْ هُنَا تَتَفَاوَتْ مَزَايَا اللُّغَاتِ.

ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ لُغَةٍ تَتَأَلَّفُ فِي أَصُولٍ وَضَعَهَا مِنْ أَلْفَاظٍ وَمِنْ مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا تِلْكَ الْأَلْفَاظُ. وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ كَذَلِكَ تَتَأَلَّفُ مِنْ أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ. فَهِيَ تَشْتَرِكُ فِي هَذَا الشَّأْنِ الطَّبِيعِيِّ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ. وَلَكِنَّهَا زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ تَمْتَازُ حِينَ تُثِيرُ بِأَلْفَاظِهَا حَرَكََةَ الْحَيَاةِ النَّابِضَةِ فِي دَلَالَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَحِينَ تُصَوِّرُ بِأَلْفَاظِهَا الْأَخْيَلَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِمَعَانِيهَا^(١).

بَلْ يَكَادُ كُلُّ حَرْفٍ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَحْمِلُ دَلَالََةً حَرَكَتَهُ وَيُثِيرُ صُورَةً مُتَّصِلَةً بِلَفْظِهِ وَخِيَالًا يَتَضَمَّنُهُ التُّطْقُ بِهِ. تَأْمَلْ حَرْفَ الْغَيْنِ وَهُوَ مَهْمُوسٌ رَخْوٌ مَخْرُجُهُ أَعْلَى سَقْفِ الْحَلْقِ إِلَى الْأَمَامِ تَجِدُ أَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ تُشِيرُ إِلَى الْعُمُوصِ وَالْإِبْهَامِ وَالتَّغْطِيَةِ وَالسُّرِّ^(٢). وَلَيْسَ كِتَابُنَا مُعْجَمًا لِنَعْرِضَ أَبْوَابَ كِتَابِ الْغَيْنِ فِيهِ وَإِنَّمَا نَكْتَفِي بِالْإِيْمَاءِ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ: مِثْلَ غَلٍّ، فَالْغَيْنِ وَاللَّامِ يَدُلُّانِ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، تَقُولُ غَلَّلْتُ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ إِذَا أَثْبَتَهُ فِيهِ كَأَنَّكَ غَرَزْتَهُ، وَالْغُلَّةُ وَالْغَلِيلُ الْعَطَشُ، وَقِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَالشَّيْءِ يَنْغَلُّ فِي الْجَوْفِ بِحَرَارَةٍ، يُقَالُ بَعِيرٌ غَلَانٌ أَيْ ظِمَانٌ. وَالْغَلْلُ الْمَاءُ الْجَارِي بَيْنَ الشَّجَرِ. وَمِنْهُ الْغُلُولُ فِي الْغَنَمِ وَهُوَ أَنْ يُخْفَى الشَّيْءُ فَلَا يُرَدُّ إِلَى الْقَسَمِ كَأَنْ صَاحِبَهُ قَدْ غَلَّهُ بَيْنَ ثِيَابِهِ.

(١) هَذِهِ نَظَرِيَّةُ الْأَسْتَاذِ زَكِيِّ الْارِسُوذِيِّ. وَلَمْ يُنَوِّهِ مُفَكِّرٌ حَدِيثٌ بِهَذِهِ الْمَزِيَّةِ الَّتِي لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِثْلَمَا نَوَّهِ بِهَا هَذَا الْمُفَكِّرُ الْأَصِيلُ. انْظُرْ كِتَابَهُ: «الْعَبْقَرِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي لِسَانِهَا». وَقَدْ تَنَاوَلَ الْبَحْثَ أَيْضًا الْأَسْتَاذَانِ الصَّدِيقَانِ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ فِي كِتَابِهِ «فِقْهُ اللُّغَةِ»، وَالدَّكْتُورُ صَبْحِي الصَّالِحُ فِي كِتَابِهِ «دَرَسَاتُ فِي فِقْهِ اللُّغَةِ». وَقَبْلَهُمَا نَوَّهَ بِمَزَايَا الْعَرَبِيَّةِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ الْحَدِيثِينَ أَهْمُهُمْ مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِيِّ فِي كِتَابِهِ «تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ» وَلَا سِيَّمَا فِي فَصْلِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ اللَّذِينَ عَنَّا هُمَا «تَمْدُنُ الْعَرَبِ اللُّغَوِيُّ»، وَ«أَسْرَارُ النَّظَامِ اللُّغَوِيِّ». وَثَمَّةُ مُؤَلِّفُونَ آخَرُونَ عَالِمُونَ جَوَانِبَ مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ.

(٢) انْظُرْ مَخَارِجَ الْحُرُوفِ فِي «مِفْتَاحِ الْعُلُومِ» لِلْسَّكَّاكِيِّ: الْفَصْلُ الثَّانِي مِنْ عِلْمِ الصَّرْفِ، ص ٥، ٦. وَثَمَّةَ فِيهَا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بَعْضُ الْاِخْتِلَافِ.

وَمِنَ الْبَابِ الْغُلُّ وَهُوَ الضِّغْنُ يَنْغُلُ فِي الصَّدْرِ، وَالْإِغْلَالُ الْخِيَانَةُ، وَالْغُلَانُ الْأَوْدِيَةُ الْغَامِضَةُ وَاحِدُهَا غَالٌ وَذَلِكَ أَنَّ سَالِكَهَا يَنْغُلُ فِيهَا، وَالْإِغْلَالَةُ شِعَارٌ يُلبَسُ تَحْتَ الثَّوبِ وَبِطَانَةٌ تُلبَسُ تَحْتَ الدَّرْعِ. وَمِنَ الْبَابِ الْغُلَّةُ وَهُوَ الْفِدَامُ يَكُونُ عَلَى رَأْسِ الْإِبْرِيْقِ وَالْجَمْعُ غُلُلٌ، وَالْغُلْغُلَةُ سُرْعَةُ السَّيْرِ. وَرِسَالَةٌ مُغْلَغَلَةٌ مَحْمُولَةٌ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَهُوَ الْقِيَاسُ لِأَنَّهَا تَتَخَلَّلُ الْبِلَادَ وَتَنْغُلُ فِيهَا. وَمِنَ الْبَابِ الْغَلِيلُ التَّوَيُّ يَغُلُّ فِي الْقَتِّ يُخَلِّطُ بِهِ تُغْلَفُهُ الْإِبِلُ^(١).

فَإِذَا أَخَذْتَ الْغَيْنَ وَاللَّامَ وَمَا يَتْلِيهِمَا وَجَدْتَ غَلَبَ وَيَفِيدُ الْإِطْبَاقَ وَالتَّغْطِيَةَ مِنْ جِهَةِ الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ، وَغَلَتَ بِمَعْنَى غَلَطَ، وَغَلَتْ خَلَطَ، وَغَلَجَ بَغَى وَسَطًا، وَالْغَلَسَ وَهُوَ ظَلَامٌ آخِرُ اللَّيْلِ وَغَلَسَ سَارَ غَلَسًا، وَغَلَطَ، وَغَلَفَ، وَغَلَقَ، وَغَلِمَ، وَغَلَا.

وَكَذَلِكَ الْغَيْنَ وَالْمِيمَ أَشَدُّ دَلَالَةً عَلَى التَّغْطِيَةِ وَالْإِطْبَاقِ، تَقُولُ غَمَمْتُ الشَّيْءَ أَغَمُّهُ أَيْ غَطَّيْتُهُ. وَالْغَمَمُ أَنْ يُعْطِيَ الشَّعْرَ الْقَفَا وَالْجَبْهَةَ فِي بَنَائِهِ، يُقَالُ رَجُلٌ أَغَمَّ وَجْهَهُ غَمَاءً. وَالْغَمَامُ جَمْعُ غَمَامَةٍ وَهُوَ السَّحَابُ وَقِيَاسُهُ وَاضِحٌ وَمِنْهُ الْغِمَامَةُ وَهِيَ الْخِرْقَةُ تُشَدُّ عَلَى أَنْفِ النَّاقَةِ شَدًّا كَيْلَا تَجِدَ الرِّيحَ. وَغَمَّ الْهَلَالُ إِذَا لَمْ يَرَّ، وَيَوْمَ غَمٍّ وَلَيْلَةُ غَمَّةٍ إِذَا كَانَ مُظْلِمِينَ. وَغَمَّهُ الْأَمْرُ يَغُمُّهُ غَمًّا وَهُوَ شَيْءٌ يَغْشَى الْقَلْبَ.

فَإِذَا أَخَذْتَ الْغَيْنَ وَالْمِيمَ وَمَا يَتْلِيهِمَا وَجَدْتَ غَمًا وَغَمَى وَغَمَجَ وَغَمَدَ وَغَمَرَ وَغَمَزَ وَغَمَسَ وَغَمَصَ وَغَمَضَ وَغَمَطَ وَغَمَقَ وَغَمَلَ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهَا جَمِيعًا. . . وَهَلْ نَحْتَاجُ أَنْ نُشِيرَ أَيْضًا إِلَى الْأَصُولِ الْأُخْرَى مِثْلَ غَابَ وَغَارَ وَغَاصَ وَغَاضَ وَغَالَ وَغَامَ وَغَانَ وَغَدَرَ وَغَدَفَ وَغَرَّ وَغَرَزَ وَغَرَسَ وَغَسَقَ وَغَشَّ وَغَشَى وَغَطَسَ وَغَطَّسَ وَغَطَّ وَغَطَى وَغَفَرَ وَغَفَلَ وَغَوَى وَغَيْرَهَا؟

مِنَ الْمُفِيدِ حَقًّا الْمُضَيِّ فِي هَذَا السَّبِيلِ فَلَا بَدَّ عِنْدِي مِنْ أَنْ يَنْتَهِيَ السَّيْرُ فِيهِ إِلَى إِبْرَازِ أَصُولِ الْمَعَانِي فِي الْأَلْفَافِ وَإِلَى تَلَمُّسِ مُخْتَلَفِ الْعَلَاqَاتِ الْوَاشِجَةِ بَيْنَهَا.

بَيِّنَا أَنَّ غَمُوضَ مَعَانِي تِلْكَ الْأَصُولِ مَعَ كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ أَوْ قِلَّتِهِ يَرْجِعُ إِلَى أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ. مِنْهَا الْقَلْبُ، وَمِنْهَا الْإِنْدَالُ، وَمِنْهَا زِيَادَةُ بَعْضِ الْحُرُوفِ الَّتِي تُدْخِلُ تَغْيِيرًا عَلَى الْمَعْنَى مِثْلَ هَمْزَةِ الْقَلْبِ. وَهِيَ الَّتِي تَقْلِبُ أَصْلَ الْمَعْنَى كَمَا فِي أَثَرِ بِمَعْنَى مَنَعَ وَأَعْطَى، فَمَعْنَى الْعَطَاءِ هُنَا مَا تُخَوِّذُ مِنْ كَوْنِ الْهَمْزَةِ قَدْ عَكَّسَتْ مَعْنَى الْبَرِّ فَصَبَّرَتْهُ بِمَعْنَى الْوَصْلِ الْمُرَادِفِ لِلْعَطَاءِ، وَكَقَوْلِهِمْ أَخَصَدَ الْحَبْلُ أَيْ فَتَلَهُ وَأَصْلُهُ يَدُّ عَلَى الْقَطْعِ، وَأَسَدَفَ اللَّيْلُ أَظْلَمَ وَالْفَجْرُ أَضَاءَ، وَأَشَبَّ الثَّوْرَ أَيْ أَسَنَّ وَغَيْرَ ذَلِكَ. وَهِيَ غَيْرُ هَمْزَةِ السَّلْبِ الَّتِي تَسْلُبُ

(١) انظر الباب في «مُعْجَم مَقَائِسِ اللُّغَةِ».

المعنى مثل أعتبه أزال ما يُعتبه أي أَرْضاه وَأَشْكَاه أزال ما يَشْكُو منه . وكذلك بعض صيغ التصريف التي تُفيد البعد عن المعنى مثل تَفَعَّل^(١) تقول تأثم بمعنى اجتنب الإثم ، وتَحَوَّبَ اجتنب الحوب أي الذنب ، وتَنَجَّسَ بِمَعْنَى تَطَهَّرَ زِيَادَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَعَارَفِ .

وَكَذَلِكَ نَقُلُ الْمَعَانِي مِنَ الْأَشْيَاءِ الْحِسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْعَقْلِيَّةِ . فَالْتَهْذِيبُ مَاخُذٌ مِنْ تَهْذِيبِ الشَّجَرَةِ ، وَالْفَصَاحَةُ مِنْ أَفْصَحَ اللَّبَنِ إِذَا ذَهَبَتْ رَغَوْتُهُ ، وَالْجَزَالَةُ فِي الرَّأْيِ وَالْكَلَامِ مِنَ الْجَزْلِ لِلْحَطَبِ الْغَلِيظِ ، وَالْمَجْدُ مِنْ مَجْدَتِ الدَّابَّةِ إِذَا وَقَعَتْ فِي مَرْعَى كَثِيرٍ ، وَالشَّرَفُ وَالْعُلَا مِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُزْتَفِعَةِ وَهَلُمَّ جَرًّا^(٢) .

وَكَمَا أَنَّ الْبَحَرَ يَتَلَقَّى رَوَافِدَ مُخْتَلِفَةٍ كَالسَّوَاقِي وَالْأَنْهَارِ كَذَلِكَ اللُّغَةُ ذَاتُ التَّارِيخِ الْحَافِلِ الزَّائِرِ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَتَلَقَّى بَعْضُ الْأَلْفَافِ مِنَ اللُّغَاتِ الْمُجَاوِرَةِ الَّتِي لَهَا بِهَا اتِّصَالٌ .

وَيَصِحُّ أَنْ نَأْتِيَ بِأَمْثَلَةٍ كَثِيرَةٍ عَلَى مَزَايَا اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي سَلَامَةِ الْوَضْعِ وَاتِّسَاعِ التَّصْرِيفِ وَسُهولةِ الْاِسْتِقْفَاقِ وَطَوَاعِيَةِ التَّعْبِيرِ وَدِقَّةِ الدَّلَالَةِ وَمُرُونَةِ التَّرْكِيبِ . وَلَكِنْ ذَلِكَ يَهْمُ اللُّغَوِيِّينَ وَحَدَهُمْ . وَكَتَابُنَا هَذَا لَا نُرِيدُهُ كِتَابَ لُغَةٍ ، وَنَخْشَى أَنْ يُؤَدِّيَ التَّفْصِيلُ إِلَى مَظَنَّةِ الصُّعُوبَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنْ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ كُلِّهَا مَصَاعِبٌ . وَهَذِهِ الْمَصَاعِبُ تُدَلِّلُ وَتَحْتَجِبُ وَتَكَادُ تَخْتْفِي إِذَا كَانَتِ اللُّغَةُ حَيَّةً يَتَحَدَّثُ بِهَا أَبْنَاءُ الْمُجْتَمَعِ ، وَتُلْقَنُ النَّاشِئَةَ تَلْقِينًا ، وَلَا يُعَلِّمُونَهَا تَعْلِيمًا فَحَسَبَ . وَالْمَصَاعِبُ الَّتِي تَعْتَرِضُ إِثْقَانِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ مَرْدُّهَا كُلُّهَا إِلَى الْمَرْحَلَةِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي يَجْتَازُهَا الشَّعْبُ الْعَرَبِيُّ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِهَا وَلَا يُتَّقِنُهَا تَمَامَ الْإِثْقَانِ .

وَإِذَا كَانَتْ جَمْعُورَةُ النَّاسِ يَكْفِيهِمْ مُجَرَّدُ الْبَيَانِ لِلْإِعْرَابِ عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَأُمُورِهِمْ فَإِنَّا نَدْعُو الْأُدْبَاءَ وَاللُّغَوِيِّينَ أَلَّا يَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ الْإِطْلَافِ وَالتَّنْقِيبِ وَالْعِلْمِ فِي مِيدَانِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، بَلْ يَتَأَمَّلُوا فِيهَا الْأَلْفَافَ وَالْكَلِمَاتَ وَيَتَخَيَّلُوا مَعَانِيهَا وَيَحْلُمُوا مُلَاوَةً بِالصُّورِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي تُوحِي بِهَا إِلَيْهِمْ ، فَهَمَّ وَاجِدُونَ عِنْدُذِ أَنْ مَلَامِحَ الْحَيَاةِ وَمَعَالِمَهَا فِي لُغَتِهِمْ أَرْهَفُ أَصَالَةٍ وَأَشَدُّ عَمَقًا وَأَكْثَرُ نُبَلَاً مِنْهَا فِي اللُّغَاتِ الْأُخْرَى . إِنَّهُمْ يَجِدُونَ تِلْكَ الْمَلَامِحَ وَالْمَعَالِمَ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ لُغَتِهِمْ . يَجِدُونَهَا حَتَّى فِي لَفْظِ الشَّيْءِ الْمُشْتَقِّ مِنَ الْمَشِيئَةِ كَأَنَّهُ مُرَادٌ ، وَفِي لَفْظِ «الْمَعْرُوفِ» الدَّالِّ عَلَى الْخَيْرِ لِأَنَّهُ خَيْرٌ مُتَعَارَفٍ بَيْنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الْمُجْتَمَعِ الْوَاحِدِ ، وَفِي لَفْظِ «الْمُنْكَرِ» أَيِ الشَّرِّ الَّذِي يَجْدُرُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُنْكَرَهُ عَلَى

(١) لكل صيغة صرفية عدة معانٍ لا معنى واحد .

(٢) انظر الشدياق في «سر الليال» ص ١١ ، ١٢ .

فاعله، وأمثال ذلك^(١). إنهم يجدونها حتى في حركات التصريف والاشتقاق لأن الطوعية والمرونة أبرز علامات الحياة، وحتى في حركات الإعراب التي يضيّق بها المبتدئون، ولكن هذه الحركات تنير الفكر المبين وتوجيه وترشده وتكون تعبيره كما تكون ألوان الأنوار الفنية معالم البناء الجميل، لا ك بعض اللغات التي تقذف الألفاظ في جملة دون إعراب يزيّن أوضاعها ويهدي إلى علاقاتها وشائجها العميقة بمفاصل جسم الجملة. إن من أجمل خصائص اللغة العربية حركات الإعراب التي ترفع فتضم وتنصب فتفتح (الاسم والمضارع) وتجر فتكسر (الاسم) وتجزم فتسكن (المضارع) وتبث في الألفاظ حركات الفكر نفسه وتجسدها فيها^(٢). حتى التذكير والتأنيث المجازيان لهما شأن في حياة الفكر العميقة وفي سر النظر إلى أغوار الكائنات يجعل اللغة التي تعتمدهما ألصق بالطبيعة وأشرف عن أخيلة الكون من هذه اللغات الهجينة التي تنظر إلى الأشياء نظرة قصيرة نفعية جامدة.

هذا كله دون ذكر الخط العربي الجميل الرشيق الذي يسم في إيجازه واختصاره ورشاقته على تطوّر كبير في تاريخ الكتابة.

وكل من مارس النظر في أمور اللغة العربية ازداد يقيناً بمزاياها وفوائدها ومآثرها.

(١) تأمل الجميل وهو في الأصل أيضاً صفة أخذت محل الاسم أي المعروف، والخلق والخلق من أصل واحد كأن الخلق إنشاء وإبداع، والجربة أي الذنب كأن المعجم يجره وراءه، وغيرها تجد وراء تلك الألفاظ أخيلة أصيلة مقترنة بالمعاني التي تفيدها. وهكذا أغلب الألفاظ العربية.

(٢) لا يخفى شأن حركات التصريف في الألمانية بين اللغات الأوربية الحديثة، وربما يرجع إلى هذا الشأن في جملة الأسباب أصل تقدم الفكر والعلم عند الشعب الذي يتكلم بها على رغم الانحرافات التي أصابته. وكذلك اللغة الروسية.

هذا وإن لحركات الإعراب في العربية فلسفة يصح توسعتها. إن الرفع يفيد التأثير أو الإسناد أو التكافؤ، والنصب يفيد التأثير أو التنبيه على أمر من الأمور، والجر يفيد الإلحاق والأنقياد والإضافة وما في معناها، والتسكين عامة يشف عن الميل إلى التخفيف.

والذي يتأمل حركات الأفعال يجد لكل صيغة معنى خاصاً مفيد الدلالة. فباب ضرب يضرب مثلاً غير باب شرف يشرف في أصل الدلالة، وهلم جرا. ولذلك جاء أكثر من صيغة في الأصل الواحد. انظر مثلاً طوى يطوي بمعنى تعمد الجوع، وطوي يطوى جاع ولم يجد قوتاً. إن هذا بحث واسع مستفيض جداً حسبنا أن نشير إليه هنا.

أما حركات الفروق التي تنوع المعاني فمن مزايا اللغة العربية أيضاً. ولا بد من إيراد بعض الأمثلة فخلف بالتحريك الولد الصالح أو الولد مطلقاً وبالتسكين إن كان فاسداً والإدلاج السير أول الليل، والإدلاج السير آخر الليل.. الخ.

وقد يفيد تغيير الحركة في التفريق بين المفرد والجمع كالشعاع والشعاع، وهكذا.

ولا شك أن عظمة اللغة متصلة من بعض الوجوه بمكانة الشعب الذي يتكلم بها وبدرجة الحضارة التي وصل إليها. ومزايا العربية وفصائلها ومآثرها تتجلى واضحة ناصعة عند النظر في تعابرها ومفرداتها إبان الحضارة العربية الإسلامية. ولا يخفى ما للغات الحية في العصور الحديثة من رواج ومكانة ولا سيما لغات الأمم المتقدمة. ومع ذلك فقد نجد في تبشير النهضة العربية بين العلماء والأدباء من اطلع على لغات الغرب ولم تصرفه هذه اللغات عن الافتتان بلغة العرب على رغم مرحلتها التاريخية الحاضرة، وخاصة لدى النظر في باب الاشتقاق وسعته ومرونته فيها. نذكر هنا ما كتبه الأديب الكبير واللغوي الخطير أحمد فارس الشدياق (١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م - ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م) في كتابه «سر الليال في القلب والإبدال». فهو يقول:

«أما الاشتقاق وسائر الأساليب الأخرى فليس لسائر اللغات كما للعربية، فمن ينظرهن بها فقد جاء نكراً. فهي بذلك أفضلهن وأشرفهن وأكملهن، فهن الفقيرات وهي الغنية، وهن المتشاكسات وهي السوية، كيف لا وفي غيرها ترى اسم الفاعل من مصدر واسم المفعول من آخر. فما مثلهن إلا مثل الثوب المرقع والوجه القبيح المبرقع. وما مثل العربية إلا مثل دوحه ذات أفنان، في كل فن منها أفنان، لا يزال ظلها ظليلاً صافياً، وموردها عذباً صافياً. بيد أن العرب، والحق أقول، لم يقدروها حق قدرها، ولا عرفوا أنها الفاضلة وغيرها المفضولة. ألا ترى أنهم عدلوا عنها إلى لغات العجم^(١) فأتخذوا من هذه ألفاظاً، وهي في لغتهم أفصح وأحكم وأعدب منطوقاً وأبهى رونقاً. حتى لو فرضنا أن تلك الألفاظ لم توجد فيها لكان لهم مندوحة عنها إلى التحت الذي هو من بعض مبانيها. وللعربية مزايا أخرى فاقت بها غيرها فضلاً وقدرًا وشأنًا وفخرًا...» ثم يقول: «فأحمد الله تعالى على أنها لغتي التي نشأت عليها، وصبوئت إليها، وفيها لذتي تعبي، وطاب لي نصبي ودأبي، ثم أحمده سبحانه عز وجل على أن أتاني نصيباً من غيرها وإن قل، حتى صبح لي أن أقول بتفضيلها عن يقين في النفس، لا عن تخمين وحس، إذ الدعوى بالترجيح تقضي بإيراد الدليل الصحيح، ولا سيما إذا كان الخصم اللد، والمدعي به حجة وسند».

ولقد أخذ بعض الشعوب سبل البيان الصحيح عن اللغة العربية وتأثروا بها إلى مدى

(١) يريد الشدياق اللغات الأوربية لأن لفظ العجم في العربية يقابل لفظ العرب. فالعجم كل من ليس بعربي، والنص في ص ٣، ٤. وقوله: ينظرهن بها: يجعلهن نظيرات لها.

بَعِيدٍ، كما أَشْرنا إلى ذلك منذ قليل. فاللُّغة الفارسيَّة بَلَّغَتْ أَوْجَ كمالِها في ظلِّ الحضارةِ العربيَّة حين نَشَأَ شُعراؤها العِظامُ أمثالُ فريدِ الدِّين العِطار ونظامي الكنجوي وسعدي الشِّيرازي وجلالِ الدِّين الروميِّ وحافظ الشِّيرازي وخاتمة شُعرائها العِظام عبد الرحمن الجامي، وحين تَسَرَّبَ إليها ما يُعادلُ ثُلثَ ألفاظِها من اللُّغة العربيَّة. ولقد كان كلُّ كاتبٍ مُبينٍ أو شاعرٍ مُجيدٍ من الفُرس يُحسِنُ العربيَّةَ وكان واسعَ الاطِّلاعِ على آدابِها وأَساليبِها يَكْتُبُ فيها وَيُنْظِمُ، فَعَبَّرَتْهُ ومَوَاهِبُهُ في الحَقِيقَةِ تَفَتَّحَتْ في ظلِّ العربيَّة وفي رياضِ الثَّقافةِ العربيَّة الإسلاميَّة.

وليس في ذلك غِضاَصَةٌ، لَأَنَّ مُفَكِّرِي الفُرس وأدباءَهُم وَعُلَماءَهُم اشْتَرَكُوا هم أَنفُسُهُم في حِفْظِ اللُّغة وَصَوْنِها وفي زيادةِ ذَخائِرِها وَكُنُوزِها وهذا أَمْرٌ مَعروفٌ وَتَتَدَاوَلُ عندنا نَحْنُ العَرَبُ. وَلَكِنَّ الأَمْرَ الَّذي هو أَقلُّ وَضوحاً حَظُّ الشُّعراءِ الفُرس من الثَّقافةِ العربيَّة، حتَّى إِنَّ كلَّ شاعرٍ فارسيٍّ كَبيرٍ كان يَتَقَنُّ العربيَّةَ إِنْقائاً تامّاً كما كان مُزوِّداً بالثَّقافةِ الإسلاميَّة التي هي مِلْكُ الجَميع. وَمَوْلانا جلالُ الدِّين لَيْسَ إِلا رِيحانةَ عِطَرَةٍ عَبقَةٌ كريمةٌ قَدَمَتْها الثَّقافةُ العربيَّة الإسلاميَّة وفَلَسَفَةُ محيي الدين بن عربي معاً إلى الإنسانيَّة باللسانِ الفارسي^(١).

(١) من المَعْلوم أَنَّ مولانا جلالُ الدِّين كان صديقَ صدرِ الدِّين القونوي تلميذِ الشَّيخ الأكبر وَرَبيبِهِ وأحدِ شُراحِ آرائِهِ، وقد هَبَطَ دِمَشقَ حين كانَ الشَّيخُ العربيُّ الأندلسيُّ يَقْضي فيها أَخْرياتِ أَيَّامِهِ ثم رَجَعَ بعد وفاته هو وصدرُ الدِّين إلى قونية وماتا في سَنَةٍ واحدة.

هَذَا وَإِذا اكْتَمَلَ تَدْرِيسُ الآدابِ العربيَّة في المُسْتَقْبَلِ فلا بُدَّ من أَن يُخَصَّصَ نَصيبٌ من البَرامِجِ لِهَذَا اللُّونِ الفارسيِّ الجَميلِ العَظيم.

على أَنَّ شُعورَ العَرَبِ الخَفِيَّ بِمِزايَا لُغَتِهِم أَصابَهُم بداءُ الكِبَرِ في مِجالِ البَيانِ وهو داءٌ دَوِيٌّ يَحُولُ دونَ التَّقَدُّمِ المُستَمِرِّ. ولما مرَّ المِتنبيُّ الشَّاعرُ الكَبيرُ بِشَعْبِ بوان ضاقَ بِقِلَّةِ بَيانِ سَكَّانِهِ فَادَّعى أَنَّهُم أَخْرَجَ إلى البَيانِ مِنَ الحَمَامِ:

وَمِنَ بِالشَّعْبِ أَخْرَجَ مِنْ حَمَامٍ إِذا غَنَّى وَنَاحَ إِلى البَيانِ
وقد صَرَفَهُم ذَلِكَ الكِبَرُ حتَّى عَنِ النَّظْرِ في آدابِ الأُمَمِ الأُخْرى التي أُرِزَّتْ في حَضارَتِهِم فَضلاً عَنِ آدابِ الأُمَمِ القَدِيمَةِ إِلاَّ ما قَلَّ.

وإِنَّ مِنَ حَسَناتِ وزارةِ الثَّقافةِ والإِرشادِ في سورِيَةِ أَنَّ تَعَهَّدَ إلى الأَمْتادِ الشَّاعرُ المَجدِيدِ مُحَمَّدُ الفِراتي في تَرجِمَةِ أوْابِدِ الأدبِ الفارسيِّ. وقد تَرَجَّمَ كَلِستانِ أَيَّ «رَوْضَةِ الوَرْدِ» لِسَعدي الشِّيرازي تَرجِمَةً هي غايَةُ في الإِنْقائِ وَ«رَوائِعِ» مِنَ الشُّعْرِ الفارسيِّ لِجَلالِ الدين الروميِّ وسَعدي وحافظ الشِّيرازيين، وَكَذَلِكَ «بُوسْتانِ» سَعدي أَكْبَرِ دَوائِينِهِ.

ولقد بذل الشريانُ جهوداً كبيرةً في نقلِ علومِ اليونانِ وفلسفتِهِم إلى العَرَبِيَّةِ في إِيَّانِ العُصُورِ الأولى للدولة العَبَّاسِيَّةِ. وَلَكِنَّهُمْ في سَبِيلِ ذَلِكَ رَفَعُوا لُغَتَهُمْ وَأَنْصَجُوهَا وَبَلَّغُوا بِهَا أَوْجَهَا الدَّهْبِيَّ. وَهَكَذَا اكْتَمَلَتِ اللُّغَةُ الشَّرِيَانِيَّةُ في رِيَاضِ الفِكْرِ العَرَبِيِّ.

واللُّغَةُ العِبرِيَّةُ إِنَّمَا بَلَغَتْ أَعْلَى مَرَاكِحِهَا التَّارِيخِيَّةِ في ظِلِّ الحَضَارَةِ العَرَبِيَّةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ حينَ وَضَعَ عُلَمَاؤُهَا قَوَاعِدَ نَحْوِهِمْ وَحَكَمُوا نَهْجَ العَرَبِ في نَحْوِهِمْ وَأَدَابِهِمْ وَأَوْزَانِهِمْ الشُّعْرِيَّةِ.

والتَّرَكِيَّةُ اسْتَمَدَّتْ أَلْفَاظَ العَرَبِيَّةِ والفَارْسِيَّةِ وَصُورَهُمَا وَبَيَانَهُمَا وَخِيَالَهُمَا وَقَرِيضَهُمَا أَيْ اسْتَمَدَادًا. وَكَذَلِكَ الأَرْدِيَّةُ.

ولقد أَثَّرَ البَيَانُ العَرَبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ في شُعُوبِ أوروپَةِ كُلِّهَا، فَأَخَذَ الأُورُويُونُ حَضَارَةَ العَرَبِ وَنَقَلُوا أَصُولَهَا وَمَا تَحْتَوِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ بَيَانٍ وَمِنْ شِعْرِ. وَمِنْ الْمَعْرُوفِ تَأْثِيرُ الشُّعْرِ العَرَبِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ في شُعراءِ كَتْلُونِيَا وَغَالِيْسِيَا وَالبُروفَنْسِ وَأَمْثَالِهِمْ في ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَتَأْثِيرُ العَرَبِيَّةِ في الإِسْبَانِيَّةِ وَالبُرْتُغَالِيَّةِ كَبِيرٌ، وَإِذَا صَحَّ في الْمُسْتَقْبَلِ التَّنْقِيبُ عَنْ تَأْثِيرِ الحَضَارَةِ العَرَبِيَّةِ في أَغْوَارِ نَهْضَةِ الْغَرْبِ فَإِنَّ تَأْثِيرَ الْبَيَانِ في الْغَرْبِيِّينَ أَمْرٌ عَمِيقٌ.

وَرَبِّمَا كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَالَاتِ الَّتِي تُوحِي بِذَلِكَ أَنَّ الْغَرْبِيِّينَ لَمَّا طَفِقُوا يَنْهَضُونَ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَاجِزِينَ عَنْ مُحَاكَاةِ الْعَرَبِ وَبُلُوغِ شَأْوِهِمْ فِي الْكِتَابَةِ وَالْبَيَانِ. وَنَعَرَفُوا ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْفَقَرَاتِ الَّتِي كَتَبَهَا شَاعِرُ إِيطَالِيَا الْكَبِيرِ بَتْرَارِكُ فِي غُضُونِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ يُنَدِّدُ فِيهَا بِبَنِي قَوْمِهِ وَيُهَيِّبُ بِهِمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّشْجُّعِ وَيُبَيِّنُ فِي نَفُوسِهِمِ الثِّقَّةَ وَالْعَزِيمَةَ. يَقُولُ هَذَا الشَّاعِرُ: «مَاذَا لَقَدْ اسْتَطَاعَ شَيْشِرُونَ أَنْ يَكُونَ خَطِيئاً بَعْدَ دِيْمُوسْتَنَ، وَاسْتَطَاعَ فِيرْجِيلُ أَنْ يَكُونَ شَاعِراً بَعْدَ هُومِيرُوسَ، وَبَعْدَ الْعَرَبِ لَا يُسْمَعُ لِأَحَدٍ بِالْكِتَابَةِ! لَقَدْ جَارَيْنَا الْيُونَانَ غَالِباً، وَتَجَاوَزْنَاهُمْ أَحْيَاناً، وَبِذَلِكَ جَارَيْنَا وَتَجَاوَزْنَا جَمِيعَ الْأُمَمِ، وَتَقُولُونَ إِنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى شَأْوِ الْعَرَبِ! يَا لِلْجُنُونِ! يَا لِلْخَبَالِ! بَلْ يَا لِعَبَقْرِيَّةِ إِيطَالِيَا الْغَافِيَةِ أَوْ الْمُنْتَظَفَةِ»^(١).

لَتَتَأَمَّلَ مِنْ قَرِيبٍ خَصَائِصَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ نَجْدَهَا تَمَازُجَ بَحَوَائِبَ عَجَبِيَّةٍ، وَتُمْتَقِبَلَةً. فَهِيَ تَمِذُكَ بِمَعِينٍ غَزِيرٍ لَا يَنْضَبُ حِينَ تَعَمَدُ إِلَى التَّعْبِيرِ الْعِلْمِيِّ الْمُبْجَرَّدِ الدَّقِيقِ الْمَضْبُوطِ. وَهِيَ

(١) ذَكَرَ النَّصُّ الْبَاحِثُ الْاجْتِمَاعِيُّ غَاسْتُونُ بُوْتُولُ فِي التَّوْطِئَةِ الَّتِي كَتَبَهَا وَقَدَّمَ بِهَا تَرْجَمَةً دُوسْلَانَ لِمُقَدِّمَةِ ابْنِ خَلْدُونِ إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ، بَارِيسَ ١٩٣٤.

تَرَفُّدُكَ وَتَدَعَمُكَ حِينَ تُؤَوِّزُ الْفِكْرَ الْفَلَسْفِيَّ الْوَاضِحَ أَوْ الْغَامِضَ، وَالْجَلِيَّ أَوْ الْقَاتِمَ،
وَالنَّاصِعَ أَوْ الْمُسْتَعْلِقَ، حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ آفَاقُ التَّفَكِيرِ. وَهِيَ تُعِينُكَ وَتُجَنِّحُكَ وَتَحَلِّقُ بِكَ إِذَا
اتَّجَهْتَ إِلَى التَّعْبِيرِ الْأَدْبِيِّ الْخَيَالِيِّ. وَهِيَ تَسِيرُ مَعَكَ بِرَفْقٍ وَتُصَاحِبُكَ وَتُثْرِيكَ الصِّفَاتِ
وَالْأَلْوَانِ وَالْجُمْلَةِ وَالتَّفَاصِيلَ إِذَا فَضَّلْتَ الْوَصْفَ الْحِسِّيَّ الْمُتَّصِلَ بِالرُّؤْيَا وَالْمُشَاهَدَةِ، وَهَلَمْ
جَزَاءً.

وَكَذَلِكَ إِذَا أَلْقَيْتَ بِبَصَرِكَ فِي جَنَابَاتِ الْأَرْضِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ
وَالْإِنْسَانِ وَالْإِضْبَاحِ وَالضُّحَى وَالظُّهَيْرَةِ وَالْأَصِيلِ وَالْغُرُوبِ وَأَجْزَاءِ اللَّيْلِ وَأَنَائِهِ كَانَتْ نِعَمَ
اللسانِ النَّاطِقِ وَالتَّرْجَمَانِ الْأَمِينِ.

وَإِذَا تَعَبْتَ مِنْ تَتَبُّعِ مَا عَلَى الْأَرْضِ فَسَرِّحَتْ بَصَرُكَ فِي الْآفَاقِ وَقَلْبَتْ وَجْهَكَ فِي
السَّمَاءِ كَانَتْ نِعَمَ الدَّلِيلِ، فَأَرَتَكَ النُّجُومَ وَأَبْرَاجَهَا، وَالْمَجَرَّةَ وَأَمْوَاجَهَا، وَسَمَتْ لَكَ
الْكَوَاكِبَ، وَخَيَّلَتْ لَكَ صُورَهَا وَمَاءَهَا، وَمَنَازِلَهَا وَأَنْوَاءَهَا، وَجَلَّتْ لِسَمْعِكَ وَلِبَصَرِكَ
حِلَالُهَا وَلَأْلَآءُهَا.

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ أَوَّلُ اللُّغَاتِ الَّتِي سَبَرَتْ أَغْوَارَ السَّمَاءِ، وَرَصَدَتْ النُّجُومَ
وَالْكَوَاكِبَ، وَبَعَثَتْ بِصَوَارِيخِهَا اللَّفْظِيَّةِ إِلَى تِلْكَ الْبُرُوجِ وَالنُّجُومِ الْبَعِيدَةِ عَنَا بِمَلَائِينَ السِّنِينَ
الضُّوئِيَّةِ، وَدَرَسَتْ مَنَازِلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَخَبَّرَتْ جَوَانِبَ الْقُبَّةِ الزُّزْفَاءِ. وَقَدْ دَمَعَتْ اللُّغَةُ
الْعَرَبِيَّةُ بُرُوجَ السَّمَاءِ وَنُجُومَهَا بِأَسْمَاءٍ أَخَذَتْهَا عَنْهَا اللُّغَاتُ جَمِيعُهَا. فَأَصْبَحَ النَّاطِرُ الْيَوْمَ فِي
الْفَلَكَ أَيَّانَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِأَيِّ لُغَةٍ شَاءَ لَزِمَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ أَسْمَاءَ تِلْكَ النُّجُومِ
وَأَمَاكِنِهَا الْعَرَبِيَّةِ. وَهَكَذَا لَا بَدَّ لِعَالَمِ الْفَلَكَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ.

عَلَى أَنَّ أَهَمَّ مَزِيَّةٍ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَشْرِيفُهَا بِنُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِيهَا حِينَ أَصْبَحَتْ لُغَةً
الْوَحْيِ وَلُغَةً اتِّصَالِ الْأَرْضِ بِالسَّمَاءِ. إِنَّ الْوَحْيَ أَمْرٌ تَارِيخِيٌّ لَا يُمَكِّنُ نُكْرَانَهُ. وَكُلُّ مَنْ
اسْتَهْوَاهُ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ وَالْمُتَدَبِّرِينَ وَالرُّوحَانِيِّينَ هَذَا الْأَمْرُ الْعَجِيبَ وَأَرَادَ أَنْ يَتَدَارَسَهُ مِنْ
قَرِيبٍ فَعَلَّيْنِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِيَطَّلَعَ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ الْمَنْزَلِ كَمَا وَصَلَ إِلَى نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ.
وَلَقَدْ حَفِظَ الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ قُرْآنَهُمْ فَحَفِظَ لَهُمْ لُغَتَهُمْ. وَلَا شَكَّ أَنْ اسْتِمْرَارَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَحُلُودَهَا مُتَّصِلٌ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. انْتَبَهَ لِذَلِكَ الْعُلَمَاءُ مِنْذُ الْقَدِيمِ. يَقُولُ أَبُو الرَّيْحَانِ
الْبِيرُونِيُّ فِي كِتَابِهِ «الصَّبْدَةُ»: «دِينُنَا وَالذُّوْلَةُ عَرَبِيَّانِ وَالذِّينُ وَالذُّوْلَةُ تَوَامِنِ يُرْقَفُ عَلَى
أَحَدِهِمَا الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ وَعَلَى الْآخِرِ الْيَدُ السَّمَاوِيَّةُ، وَكَمْ احْتَشَدَ طَوَائِفُ مِنَ الثَّوَابِعِ وَخَاصَّةً
مِنْهُمْ الْجَبِلُ وَالذِّيلُ فِي إِبَاسِ الذُّوْلَةِ جَلَابِيبِ الْعُجْمَةِ، فَلَمْ يَنْفَقْ لَهُمْ فِي الْمُرَادِ سُوقٌ.
وَمَا دَامَ الْأَذَانُ يَقْرَعُ آذَانَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا وَثَقَامُ الصَّلَوَاتِ بِالْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ خَلْفَ

الْأَيْمَةُ صَفًا صَفًا وَيُخَطَّبُ بِهِ لَهُمْ فِي الْجَوَامِعِ بِالْإِصْلَاحِ كَانُوا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ، وَحَبْلُ
الْإِسْلَامِ غَيْرُ مُنْقَصِمٍ وَحِصْنُهُ غَيْرُ مُنْثَلِمٍ^(١).

كَانَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِذْنًا لُغَةُ الْحَضَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ مَدَّةَ عُصُورٍ طَوَالٍ فِي قَارَةِ آسِيَةِ
وإفريقية وأوروية. وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي آسِيَةِ وإفريقية وفي جزءٍ من أوروية حتى القرنِ
الثَّاسِعِ عَشَرَ حِينَ طَفِقَتْ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ تَحُلُّ مَحَلَّهَا. وَأَكْبَرُ أَسْبَابِ التَّبَدُّلِ يَرْجِعُ إِلَى التَّجَارَةِ
وَالِاسْتِعْمَارِ.

وَلِاتِّسَاعِ مَاضِي الْعَرَبِيَّةِ حَفَلَتْ آدَابُهَا بِالْكُنُوزِ الْغَنِيِّ حُفُولًا قَلَّ مِثْلُهُ فِي تَارِيخِ اللُّغَاتِ
الْأُخْرَى، وَزَخَرَتْ بِحَارِهَا بِاللَّالِئِ السَّنِّيَّةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَزَالُ يَصِلُ إِلَى مَسَامِعِنَا مِنْ خِلَالِ
سُجُوفِ الزَّمَانِ الْغَابِرِ خَفَقُ أُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنَ الْقُلُوبِ الذَّكِيَّةِ الْمَوْهُوَةِ الَّتِي نَبَضَتْ عَلَى
إِيْقَاعِ الْفَاضِلِهَا وَصُورِهَا وَأَخِيلَتِهَا، وَلَا يَنْفُكُ يَتَلَأَّلُ أَمَامَ أَبْصَارِنَا وَبَصَائِرِنَا مِنْ وَرَاءِ سُدُفِ
الْكُتُبِ الْغَزِيرَةِ الْمَجْلُورَةِ وَالْدَّارِسَةِ مَا لَا يُقَدَّرُ وَلَا يُحْصَى وَلَا يُحْصَرُ مِنْ شُهْبِ الْعُقُولِ
الْقَوِيَّةِ وَكَوَاكِبِ الْقَرَائِحِ النَّيِّرَةِ الَّتِي تَطْفُئُ فِي جَمَالِهَا وَرُزْعَتِهَا عَلَى أَمْنِ مَشَاهِدِ السَّمَاءِ فِي
جَمِيعِ آنَاءِ اللَّيْلِ.



مِنْ إِعْجَابِنَا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا، وَمِنْ تَأْمُلِنَا صُورًا فَاتِنَةً مِنْ بَيَانِهَا الْمُلُوكِ الْعَظِيمِ،
وَمِنْ الْأَخْلَامِ وَالْأَخِيلَةِ الَّتِي ابْتَعَثَتْهَا تِلْكَ الصُّورُ فِي آفَاقِ دِرَاسَاتِنَا الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ تَأَلَّفَتْ
عُنَاصِرُ هَذَا الْكِتَابِ، فَإِذَا تَيَسَّرَ لَنَا فِيهِ إِحْسَانٌ فَالْفَضْلُ لِسِحْرِ الْعَرَبِيَّةِ الَّذِي أَوْحَى بِهِ، وَإِنْ
وَقَعَ فِيهِ تَقْصِيرٌ فَتَبِعْتُهُ عَلَى كَاتِبِ سَطُورِهِ.

لَقَدْ رَافَقَ انْبِعَاثَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ نَهْوُضُ الْعَرَبِ فِي بِلَادِهِمْ، وَوَازَى اسْتِعَادَةَ رَوْقِهَا
إِفَاقَتُهُمْ، وَسَايَرَ تَجَدُّدِهَا الْحَدِيثَ تَفْتِيحُ وَغِيهِمْ. وَهِيَ تَبْدُو إِحْدَى رَوَابِطِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ الْمَتِينَةِ.
فَهِىَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَلِمَزَايَاهَا الْكَثِيرَةِ حَرِيَّةٌ بِكُلِّ إِعْجَابٍ وَإِكْبَارٍ، قَمِينَةٌ بِكُلِّ دِرَاسَةٍ وَجُهْدٍ
وَإِيثَارٍ، أَهْلٌ لِكُلِّ مَحَبَّةٍ وَرِعَايَةٍ، وَتَعَهُدٌ وَعِنَايَةٍ.

وَمَعَ التَّقَدُّمِ الَّذِي ظَهَرَ عِنْدَ أُنْبَاءِهَا مِنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهَا وَدِرَاسَتِهِمْ لَهَا لَا تَزَالُ تَقْتَضِيهِمْ
جُهِودًا أَكْبَرَ، وَسَعْيًا أَشَدَّ، وَفَهْمًا أَسَدَّ، وَاهْتِمَامًا أَقْوَى، وَمَعْرِفَةً أَعَمَّقَ، وَتَوَاضَعًا أَرْزَنَ،
وَإِدْرَاكًا لِأَسْرَارِهَا أَبْعَدَ مَدَى.

(١) فِي الْمَخْطُوطَةِ الَّتِي بَدَأَ الْكُتُبِ الْمَصْرِيَّةَ وَالذِّينَ وَالتَّوَامَانَ وَهُوَ خَطٌّ مِنَ النَّاسِخِ فَسَمَحْنَا لَأَنْفُسِنَا
بِتَضْحِيحِهَا كَمَا سَبَقَ. وَقَوْلُهُ لِلْيَدَيْنِ وَالْفَمِ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا دُعِيَ عَلَيْهِ بِالسُّوءِ مَعْنَاهَا كَبَّهَ اللَّهُ
لُوجْهَهُ أَيْ خَرَّ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى يَدَيْهِ وَفِيهِ.

وتَعُودُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ تَبَوُّاً مَكَانَهَا شَيْئاً فَشَيْئاً بَيْنَ غِمَارِ اللُّغَاتِ، إِذْ تَبَرُّزُ
مَعَالِمُ الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْوَاسِعِ نَاصِعَةً كَقَرَصِ الشَّمْسِ مِنْ وَرَاءِ ظِلَامِ الْاِسْتِعْمَارِ الَّذِي غَشِيَ
أَرْضَهُ، وَحَجَبَ سَمَاءَهُ، وَنَهَبَ خَيْرَاتِهِ، وَمَزَقَ أَوْصَالَهُ، وَعَاقَ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ الْأَصْلِيَّةِ فِيهِ،
وَلَا سِيَّماً أَنَّ وَطَنَ ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ أَوْسَعُ الْأَوْطَانِ رُقْعَةً إِذْ يُؤَلَّفُ عَشْرَ مَسَاحَةِ الْمَعْمُورَةِ^(١)،
وَشَعْبُهُ يَنْهَضُ وَيَتَخَلَّصُ مِنْ أَغْلَالِ التَّأَخُّرِ، وَهُوَ يَحْمِلُ شِعَارَ الصَّدَاقَةِ وَالسَّلَامِ لَجَمِيعِ
الشُّعُوبِ الْمُخْلِصَةِ وَيُرِيدُ أَنْ يَشْتَرِكَ مَعَهَا فِي بِنَاءِ إِنْسَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، سَوِيَّةٍ كَرِيمَةٍ.

فَخِدْمَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ خِدْمَةٌ لِلْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَخِدْمَةٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لِلْحَضَارَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ. وَكُلُّ تَهَاوُّنٍ فِي شَأْنِهَا مَعْنَاهُ التَّقْرِيبُ فِي حَقِّ أَعْلَى رَوَابِطِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ
وَالْتَقَاعُ فِي جَنْبِ أَعْلَى كُنُوزِ الثَّرَاثِ الْإِنْسَانِيِّ.

لِذَلِكَ كُلُّهُ لَزِمَ أَنْ نَحْرَصَ عَلَيْهَا حِرْصَنَا عَلَى كَيَانِنَا وَأَنْ نَسْتَمْسِكَ بِهَا اسْتِمْسَاكَنَا
بِحَقِيقَتِنَا. وَكُلُّ جَهْدٍ يُصْرَفُ فِي هَذَا الشَّأْنِ لَنْ يُضَيِّعَ عَثْماً فِي الْمَيْدَانِ الْقَوْمِيِّ وَلَا فِي
الْمَيْدَانِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَلَقَدْ جَاءَ كِتَابُنَا هَذَا يَشْتَمِلُ عَلَى بُحُوثٍ مُتَفَرِّقَةٍ فِي الظَّاهِرِ، كُلُّ بِحْثٍ يَصْلُحُ أَنْ
يَكُونَ مَوْضُوعاً لِرِسَالَةٍ مُسْتَقْلَلَةٍ. وَلَكِنْ بَعْضُهَا مُشْدُودٌ مَعَ ذَلِكَ إِلَى بَعْضٍ بِخَالِجَةِ التَّائُلِ
الْفَنِّي وَبِلَوْنٍ مِنَ النَّظَرِ جَدِيدٍ إِلَى آدَابِنَا الْقَدِيمَةِ، يُحَاوِلُ أَنْ يُنَمِّعَ وَأَنْ يُفْتَحَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى
الِإِقْنَاعِ وَإِلَى الْإِمْتِنَاعِ سَبِيلًا.

وَلَمْ يَكُنْ لَنَا بَدْءٌ فِي الْبِدَايَةِ مِنْ أَنْ نُوضِحَ دَلَالَاتِ «الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ» كَمَا جَاءَتْ مُنْتَثِرَةً
فِي حُقُولِ الْآدَابِ مُسْتَنْدِينَ فِي لَمْ شَتَاتِهَا وَتَنْسِيقِهِ إِلَى مَا آدَتْ إِلَيْهِ فَلَسَفَةُ الْفَنِّ مِنْ دَرَسَاتِ
حَدِيثَةٍ. كَانَ قَصْدُنَا الْأَصْلِيَّ تَجْلِيَّةَ الْأَفْكَارِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَمْ نَعْرِضْ مِنْ نُتَبِ الْفَلَسَفَاتِ الْفَنِّيَّةِ
الْحَدِيثَةِ إِلَّا مَا رَأَيْنَاهُ يَزِيدُ فِي وَضُوحِ تِلْكَ الْأَفْكَارِ. ثُمَّ أَضْفْنَا إِلَى الْعَرَضِ بَعْضَ الْمُنَاقَشَاتِ
الَّتِي وَجَدْنَاهَا لَازِمَةً وَمُفِيدَةً. فَإِذَا نَسَبْنَا الْآثَارَ الْأَدَبِيَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تِلْكَ الْقِيَمِ عَرَفْنَا حَقِيقَةَ
دَلَالَتِهَا.

وَلَقَدْ فَكَّرْنَا مَلِكًا، مِنْذُ أَنْ كُنَّا طُلَّابًا نَدْرُسُ تَارِيخَ الْفَنِّ، فِي الْأَطْوَارِ الَّتِي مَرَّ الشَّعْرُ
الْعَرَبِيُّ الْقَدِيمُ بِهَا. فَقَدَّمْنَا رَأْيَنَا فِي ذَلِكَ حِينَ جَلَوْنَا «مَلَاحِجَ مِنْ أَطْوَارِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ».

(١) مَسَاحَةُ الْاِتِّحَادِ السُّوفِيَّانِيِّ (سَابِقًا) سَدَسُ مَسَاحَةِ الْمَعْمُورَةِ وَلَكِنْ الْاِتِّحَادَ السُّوفِيَّانِيَّ يَشْتَمِلُ عَلَى عِدَّةِ
شُعُوبٍ.

لقد أضحنا في عصر نستطيع أن ننظر فيه إلى حركة ذلك التطور العميقة ترسم على جدران التاريخ دون أن نتقيد بمذهب من المذاهب أو بنظرة من النظرات.

إن التطور سنة الأشياء جميعها وقانونها المبرم. به يبرز تأثير الزمان الموضوعي فيها. ولكننا هنا في الفن أردنا بعد ذلك أن نعكس الأمر، فنبحث في الفكر الفني كيف يُشس هو زمانه الخاص ويُحاول أن يجعله مستقلاً ما استطاع، وكيف يُدلل فكرة الزمان الخارجي من وجهات متعددة، فإما أن يُلونها بطريق الصيغة والتفعيلات والإيقاع، وإما أن يعتمدها لتسريع الزمان أو إبطائه أو التخلص من قيوده واعتباراته وما شابه ذلك لغاية الإمتاع والإعجاب. وقد عرّضنا ذلك كله بإيجاز في بحث «الشعر العربي وفكرة الزمان».

ولما كانت العبارات رُموزاً إلى الأفكار وإلى الصور النفسية والشعرية كان من الطبيعي أن يتأمل كل باحث قضية الرمز في البيان وأن يبلغ إلى تأمله في الشعر على وجه الخصوص. ولم نجد من الباحثين الحديثين من نظر إلى الشعر العربي القديم النظر الكافي في هذا الوجه.

وإذ تناولنا هذا الموضوع بالكتابة وجدناه متسعاً اتساعاً كبيراً اضطررنا إلى تفريعه بوجه عام وإلى الإلمام بالرمز الصوفي أطرف مدارسه وأبدعها فكراً. وربما نكون قد جَلَوْنَا بعض الجوانب المفيدة في هذا الميدان.

وخشينا حين أنهينا هذا الفصل الواسع أن يظن المتأدب أن الأدب العربي كله رُموز، فكان لا بد لنا من تعديل هذا الظن. ولما كان الأدب الواقعي الجلي والتعبير الصريح أكثر استفاضة اختَرنا مثلاً واحداً منه وآثرنا أن يكون ذلك وصف الشعراء القدامى للأزهار والرياحين والبقول والفكاهة، لأن هذه الهبات الطبيعية أقرب الأمور من نفوسنا وأصقها بالتعبير الفني، حتى إنها أصبحت منذ القديم وسائل للتعبير الفني نفسه. ولقد صادفنا من اتساع القول في هذا الموضوع ما جعلنا نكتفي بعرض الشعر تاركين القارئ أن يتفكر في صيغة البيان وأن يحلم مع الشاعر فينظر إلى الأشياء نظرتة الطريفة البديعة النصيرة.

ثم شعرنا بكثرة المواد، فرغبنا في تسليّة القارئ والدخول معه في متحف الضحك والفكاهة العربيين. ومن الطبيعي حين طُفنا في أبهاء ذلك المتحف أن ننتبه لمراحلها التاريخية والاجتماعية بعد إذ تبيننا في صدر الكتاب ماهية الفكاهة والضحك الهزلي. وإذا كان طما غمارهما وطغى وغطى حتى غطى بعضاً من ملامح المجتمع العربي القديم فقد قوينا على ذلك الغمار فأبرزنا، من خلال أمواجه وألوانها الزرق البيض، والمزبدة الصافية، والمزبدة الناصعة، أصناف العلاقات الإنسانية وأشكالها الاجتماعية المتطورة.

بَقِيَ علينا بعد إذ جَلَوْنَا خُطَّةَ الْكِتَابِ أَنْ نَقُولَ شَيْئاً عَنْ طَرِيقَةِ تَأْلِيفِهِ كَيْ يَتَّضِحَ بَعْضُ الْاِخْتِلَافِ فِي مَدَى الْإِيجَازِ وَالتَّفْصِيلِ فِي ثَنَائِهِ.

لَقَدْ بَدَأْنَا الْكِتَابَ سَنَةَ ١٩٦٠ فِي عَهْدِ الْوَحْدَةِ يَخْفِزُنَا عَلَى ذَلِكَ تَهْنِئَةُ بَعْضِ الْمَوَادِّ الَّتِي عُهِدَ إِلَيْنَا فِي تَدْرِيسِهَا بِجَامِعَةِ دِمَشْقٍ. وَكُنَّا شَاعِرِينَ بِجَدَّةِ هَذِهِ الْبُحُوثِ الَّتِي تَسْعَى أَنْ تُبْرِزَ الصِّفَاتِ الْقَوْمِيَّةَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ فِي الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّينَ، فَطَفِقْنَا نُقَيِّدُهَا سَرِيعاً وَنَذْفَعُهَا إِلَى مَطْبَعَةِ الْجَامِعَةِ فَظَهَرَ مِنْهَا حَتَّى أَوَّلَ بَحْثٍ «الرَّمْزُ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ». ثُمَّ اضْطُرَرْنَا إِلَى وَقْفِ الطَّبْعِ اضْطِرَاراً مُفَاجِئاً لَمْ نَكُنْ نَنْتَظِرُهُ، وَلَا نَرِيدُ أَنْ نَدْخُلَ فِي تَفْصِيلِ بَوَاعِثِهِ وَمَصْدَرِهِ. وَلَكِنْ تِلْكَ الْبَوَاعِثُ كَرَّهَتْ إِلَيْنَا الْبَحْثَ فَانْصَرَفْنَا عَنْهُ سَتَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ. ثُمَّ نَظَرْنَا فَكَانَ أَمَامَنَا إِمَّا أَنْ نُغْفَلَ الْكِتَابُ نِهَائِيًّا وَإِمَّا أَنْ نُكْمِلَهُ. وَمِنْ أَهَمِّ مَا رَدَّنَا إِلَى سَبِيلِ الْإِكْمَالِ بَيْتُ الْمُتَنَبِّي:

وَلَمْ أَرْ فِي عِيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ
فَعَمَدْنَا فِي رَبِيعِ هَذِهِ السَّنَةِ ١٩٦٢ إِلَى تَنَاسِيِ السَّفَاسِيفِ وَوَطْئِ الْعِزَمِ عَلَى أَنْ نَنْعَمَ
مَرَّةً ثَانِيَةً بِمَعَاشِرَةِ أَكْبَارِ النَّاسِ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ الْعِظَامِ وَالشُّعْرَاءِ وَالْأُدْبَاءِ وَأَنْ نَفْرَحَ بِفَرَحِهِمْ
وَنَشْعَرَ بِمَشَاعِرِهِمْ وَنَجْرِيَ مَعَ أَفْكَارِهِمْ وَنَضْحَكَ لَصُحُفِهِمْ وَنَتَفَكَّهَ بِنِكَاتِهِمْ وَأَنْ نَتَأَمَّلَ مَعَهُمْ
أَشْرَفَ مَا صَاغُوهُ وَنَجْنِي أَشْهَى مَا أَبْدَعُوهُ مِنْ فُنُونِ الْقَوْلِ وَالْفِكْرِ وَالْخِيَالِ. وَلِهَذَا تَرَكْنَا
لِقَلَمِنَا الْعَنَانَ يَجْرِي فِي مَدَى أَوْسَعِ وَبِحَرِّيَّةٍ أَكْبَرَ فِي الشَّطْرِ الْآخِرِ مِنَ الْكِتَابِ.

وَلَمْ أَتَعَرَّضْ لِلْأَدَبِ وَالشُّعْرِ الْحَدِيثَيْنِ إِلَّا فِي الثُّدْرَةِ وَالْأُفْجَاءِ فِيمَا طُبِعَ مِنْهُمَا عَلَى غِرَارِ
الْجَوْهَرِ الْقَدِيمِ، لِأَنَّهُمَا عَلَى الْجُودَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَشْتَمِلَانِ عَلَيْهَا لَا يُشْبِهَانِ الْأَدَبَ وَالشُّعْرَ
الْقَدِيمَيْنِ. وَأَكْبَرُ الْفُرُوقِ أَنَّ الشُّعْرَ وَالْأَدَبَ الْقَدِيمَيْنِ كَانَا ذُرْوَةَ الْآدَابِ فِي عَهْدِهِمَا
الْمُخْتَلَفَةِ. أَمَّا الْأَدَبُ الْحَدِيثُ وَالشُّعْرُ الْحَدِيثُ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ فَمَعَ مَا فِيهِمَا مِنْ
مُحَاوَلَاتٍ أَصِيلَةٍ يَنْظُرَانِ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ أَوْ صَرِيحٍ إِلَى الْآدَابِ الْعَالَمِيَّةِ الْآخَرَى. فَمَعَايِيرُ
الْبَحْثِ عِنْدُنَا تَخْتَلِفُ اخْتِلَافاً وَاضِحاً. وَلَا يُمَكِّنُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ تُقَاسَ جَمِيعاً
بِمَقَايِسٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِمَا نَظَرَةً مُتَسَاوِيَةً، إِذْ كَانَ كُلٌّ يَنْتَسِبُ إِلَى مَرَاحِلَ مِنَ
الزَّمَانِ شَدِيدَةِ الْاِخْتِلَافِ.

* * *

خِلَاصَةً هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ كَانَتْ لُغَةً الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ وَالْيَدِ لِشُعُوبٍ كَثِيرَةٍ لَا
لِلشَّعْبِ الْعَرَبِيِّ وَحْدَهُ فِي إِبَانِ عُصُورٍ طَوِيلَةٍ. كَانَتْ لُغَةً الْأَرْضِ وَلُغَةً السَّمَاءِ. وَإِنَّمَا كَانَ
الْأَمْرُ فِي لُغَةِ الْحَبِّ الْكُبْرَى فِيهَا مِنَ أَلْوَانِ تَعَابِيرِهِ الرُّوحِيَّةِ... مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا.

وفي منطقٍ سليمٍ إذا تصوّر المسلمون أحوالَ الجنة في الآخرة وما وردَ في حقِّ أهلها من التمثيلِ بأحوالِ أهلِ الدنيا فلا بدَّ من أن يتخيّلوا لهم لغةً. ولَمَّا كان القرآن الكريم كلامَ الله الذي تنزّل على خاتمِ النبيّين كانت لغةُ القرآن خليقةً أن تكونَ لسانَ أهلِ الجنة^(١).

ونحنُ الذين شُغِفْنَا بِسَنَا بِيَانِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَتَبَعْنَا آدَابَهَا فِي بَطُونِ الْكُتُبِ الْغَابِرَةِ لَمْ يُتَخَ لَنَا أَنْ نَشْهَدَ أَسْوَاقَ الْعَرَبِ كَعُكَاظٍ وَمَجَنَّةٍ وَذِي الْمَجَازِ وَالْمِزْبِدِ وَأَمْثَالِهَا وَلَا أَنْ نَخْرُجَ إِلَى الْبَادِيَةِ نَلْتَقِطُ نَوَادِرَ أَلْفَاظِهَا مِنْ أَشْدَاقِ الْأَعْرَابِ.

فهل نأملُ إذا تَغَمَّدَنَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ بِرَحْمَتِهِ فِي عُقْبَى الدَّارِ أَنْ نُعَوِّضَ فَتَسْمَعَ اللَّهْجَةَ الصَّحِيحَةَ الْبَدِيعَةَ الصَّافِيَةَ تَخْتَالُ شَفَافَةً نَاصِعَةً عَلَى تُغُورِ الْخُورِ الْعَيْنِ وَهِيَ بِاسْمَةٍ نَاعِمَةٌ؟ وعندئذٍ قد يُتَأَخَّرُ لَنَا أَنْ نُقَابِلَ بَيْنَ طَرَبِنَا لِتِلْكَ اللَّهْجَةِ فِي طَلَاوَةِ الْجُرْسِ وَرَخَايَةِ اللَّفْظِ وَحَلَاوَةِ الْكَلَامِ وَطَرَبِنَا لِلْمَهْجَاتِ النِّسَاءِ الْعَرَبِيَّاتِ الْمَشْهُورَاتِ أَمْثَالِ سَكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَعَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ؛ إِذْ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ لَهْجَةٍ.

هيهات! بل نَكُونُ يَوْمئِذٍ (ولا زمانَ إِذْ ذَاكَ) طَامَحِينَ بِقُلُوبِنَا إِلَى النِّشْوَةِ الْكُبْرَى، أَلَا وَهِيَ سَمَاعُ الصَّوْتِ الْأَوَّلِ الَّذِي بِهِ بَدَأَ خَلْقُ الْكَوْنِ.

(١) «عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ أنا عربيّ والقرآن عربيّ ولسانُ أهلِ الجنة عربيّ أخرجه الطبراني في الأوسط وقال حديثٌ حسنٌ. وروى الطبراني أيضاً في الكبير والأوسط، والحاكم في المستدرک من حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: أُحِبُّوا الْعَرَبَ لثَلَاثٍ لِأَنِّي عَرَبِيٌّ وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ وَكَلَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ. وَقَالَ بَعْدَ تَخْرِيجِهِ: إِنَّهُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ وَرَوَاهُ أَيْضاً بَلْفَظٍ أَحْفَظُونِي فِي الْعَرَبِ لِثَلَاثٍ». كِتَابُ الْقُرْبِ فِي مَحَبَّةِ الْعَرَبِ لِلْمُحَدِّثِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ بَكْرِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْعِرَاقِيِّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ ٨٠٥ هـ طَبْعَةٌ حَجَرِيَّةٌ سَنَةَ ١٣٠٣، ص ١٤.

وقد وردَ الحديثُ في «الجامع الصَّغِيرِ» للسُّيُوطِيِّ بِرَقْمٍ ٢٢٥: «أَحِبُّوا الْعَرَبَ لثَلَاثٍ لِأَنِّي عَرَبِيٌّ وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ وَكَلَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ». وَذَكَرَ الْمَنَاوِي فِي «فَيْضِ الْقَدِيرِ» قَوْلَ الْمُعْتَمِدِيِّ عَنِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ مُنْكَرٌ لَا أَصْلَ لَهُ، وَقَوْلَ الْهَيْثَمِيِّ أَنَّهُ ضَعِيفٌ، وَقَوْلَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنِ الْجَوْزِيِّ أَنَّهُ مُوَضَّوعٌ، وَظَنَّ الذَّهَبِيُّ فِيهِ أَنَّهُ مُوَضَّوعٌ أَيْضاً. فَلْيَرْجِعْ إِلَى فَيْضِ الْقَدِيرِ لِلإِطْلَاعِ عَلَى مَوَاضِعِ الضَّعْفِ فِي إِسْنَادِهِ. ثُمَّ أَنَّهُ الْمَنَاوِيُّ التَّلْعِيقَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا قَوْلُ السُّلَفِيِّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ فَمُرَّاهُ بِهِ كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ حَسَنٌ مَتْنُهُ عَلَى الْإِصْطِلَاحِ الْعَامِّ لَا حَسَنٌ إِسْنَادُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُحَدِّثِينَ».

الْقِيمُ الْجَمَالِيَّة

ليس الجمالُ بِمُنْزَرٍ فاعلم وإن رُدِّيتَ بُرداً
إنَّ الجمالَ مَعَادُنٌ وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثَنَ مَجْداً
عمرو بن معد يكرب

في كتاب الأغاني القصَّة الآتية: «قالت سُكَيْنَةُ لعائشة بنتِ طلحة أنا أجملُ منك، وقالت عائشة بل أنا. فاخْتَصِمَتَا إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا. أمَّا أنت يا سُكَيْنَةُ فأملحُ منها، وأمَّا أنت يا عائشة فأجملُ منها. فقالت سُكَيْنَةُ قَضَيْتَ لي والله»^(١).

تدلُّنا هذه القصَّة على نوعين للحسن وهما الملاحاة تُصَفُّ بها سُكَيْنَةُ بنت الحسين والجمالُ تتحلَّى به عائشة بنت طلحة. وإذا أردنا أن نتفهَّم معاني كلِّ من هذين النوعين وَجَدْنَا ذلك في أخبارِ هاتين السَّيِّدَتَيْنِ مُدَوَّنًا أيضاً في هذا الكتاب.

فقد جاء فيه: «كانت سُكَيْنَةُ عَفِيفَةً سَلِمَةً بَرْزَةً من النساءِ تُجَالِسُ الأَجِلَّةَ من قريش وتَجْتَمِعُ إليها الشعراءُ، وكانت ظريفةً مَزَاحَةً»^(٢).

رَوِيَ عنها أَنَّهَا قالت عن ليلة زفافها: «أَدْخِلْتُ على مصعبٍ وأنا أَحْسَنُ من النَّارِ الْمُوقَدَةِ»^(٣). وَيُرَوَّى أَنَّهَا كانت «أَحْسَنَ النَّاسِ شعراً وكانت تُصَفِّفُ جُمَّتَهَا تُصَفِّفُاً لَمْ يُرَ أَحْسَنُ منه حتى عُرفَ ذلك وكانت الجُمَّةُ تُسَمَّى السُّكَيْنِيَّةَ»^(٤).

نَسْتَخْلِصُ من هذا النَّعْتِ أن سُكَيْنَةَ كانت تُصَفِّفُ مع العَفَّةِ والفَضْلِ بِتُعُومَةِ الأطرافِ والظُّرْفِ والمَيْلِ إلى المُزَاحِ وبِالْجَاذِبِيَّةِ التي تُشَبُّ النَّارَ المَشْبُوبَةَ في رُوائِها، وَأَنَّهَا كانت حَسَنَةَ الشَّعْرِ تَتَرَيَّنُ فَتُصَفِّفُهَا تُصَفِّفُاً غدا زِيَّاً في عَصْرِهَا يُنْسَبُ إليها.

(١) ج ١٤ ص ١٦٢. مطبعة التقدم.

(٢) ص ١٥٩. السُّلَمَةُ النَّاعِمَةُ الأطرافِ، والبَرْزَةُ بارِزَةُ المَحَاسِنِ والتي تَبْرُزُ للِقُومِ يَجْلِسُونَ إليها وَيَتَحَدَّثُونَ وهي عَفِيفَةٌ.

(٣) و (٤) ص ١٥٩.

وأما عائشة فأخبرها تفيد أنها كانت بديعة مثلاً حقاً في تناسب التكوين واعتدال الملامح وانسجام الأعضاء كما يتصور الذوق العربي إذ ذاك. وفي الجزء العاشر من كتاب الأغاني وصف لعائشة بنت طلحة يكاد يكون كاملاً على لسان امرأة حسنة مغمية كانت بالمدينة تسمى عزة الميلاء يألّفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء، فأتاها مصعب بن الزبير وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر وسعيد بن العاص.

فقالوا: إنا خطبنا فانظري لنا.

ف قالت لمصعب: يا بن أبي عبد الله ومن خطبت؟

ف قال: عائشة بنت طلحة.

ف قالت: فأنت يا بن أبي أحيحة؟

قال: عائشة بنت عثمان.

قالت: فأنت يا بن الصديق؟

قال: أم القاسم بنت زكريّا بن طلحة.

قالت: يا جارية هاتي مُنْقَلِي تعني خفيها.

فلبستهما وخرجت... فبدأت بعائشة بنت طلحة.

ف قالت: فديتك كذا في مادية أو ماتم لقريش فتذاكروا جمال النساء وخلقهن فذكروك فلم أدر كيف أصفك فديتك! فألقي ثيابك. ففعلت... إلى آخر القصة^(١)، ثم ترجع فتصف للخاطبين صفات خطيباتهم. وتصف عائشة بنت طلحة في كمال صورتها وتستنني من ذلك عيين، «أما أحدهما فيواريه الخمار، وأما الآخر فيواريه الخف: عظم القدم والأذن»^(٢).

ونجد في «عيون الأخبار» ما يؤكد هذا التفسير.

قالت امرأة خالد بن صفوان له يوماً: ما أجملك!

(١) ص ٥٢.

(٢) كانت سكينه تسمى عائشة ذات الأذنين. المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٦٢.

قال: ما تقولين ذاك وما لي عمودُ الجمالِ ولا عليّ رداؤه ولا بُرُئسه.

قالت: ما عمودُ الجمالِ وما رداؤه وما بُرُئسه؟

قال: أمّا عمودُ الجمالِ فطولُ القَوامِ وفيّ قِصر، وأمّا رداؤه فاليَاضُ ولستُ بأبيضَ، وأمّا بُرُئسه فسوادُ الشَّعرِ وأنا أصْلَعُ. ولكنّ لو قلتُ ما أحلاك وما أملحك كان أُولَى^(١).

هنا نجدُ أنّ الحلاوةَ صِنُو المَلاحةِ وأنَّهما إلى الأمورِ المَعنويّةِ الخَفِيّةِ أقربُ منهما إلى الأمورِ الحسّيّةِ الظَّاهِرةِ.

وعدّد ابنُ المقفّع في الأدبِ الصَّغيرِ أموراً لا تَصْلُحُ إلا بِقَرائنها. ومنها أنّه لا يَنْفَعُ «الجمالُ بغيرِ حَلاوةٍ»^(٢). ولهذا يَدُلُّ على أنّ الجمالَ غيرُ الحَلاوةِ، وأنّه بها يَتِمُّ نفعُهُ ويكتمَلُ رَونقُهُ.

وقد ذكَرَ صاحبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ طُرفاً من كتابِ جدّه «الحقائق والرِّقائِقُ»، منها «حَقِيقَةُ: الجمالِ رِياشٍ، والحُسنِ صُورَةٍ، والمَلاحةُ رُوحٌ. فذلِكَ سِتْرُهُ عليك، ولهذا سِرُّهُ فيكَ. ﴿لِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾»^(٣). على أنّ هذا الكلامَ يريدُ قائلُهُ أن يُفَرِّقَ بينَ الجمالِ الذي يَعتَبِرُهُ ضَرْباً من الزَّينةِ، والحُسنِ الذي هو صُورَةٌ، ويَلاهُما ظاهِراً خارجيّان، وبينَ المَلاحةِ التي هي باطنٌ خَفِيّةٌ والتي هي منهما بمنزلةِ الرُّوحِ.

وقال المبرِّد: «يُقالُ راعني يَروَعُني أي أَفزَعُني. قال اللهُ تعالى ذِكرُهُ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِرْزَاهِمَ الرُّوعِ﴾. ويَكُونُ الرَّائِعُ الجَميلُ. يُقالُ جَمالٌ رائعٌ، يَكُونُ ذلِكَ في الرَّجُلِ والفَرَسِ وغيرهما. وأحسبُ الأصلَ فيهما واحداً أنّه يُقِرطُ حتى يَروِعَ، كما قالَ اللهُ جلَّ ثناؤُهُ، ﴿يَكادُ سَتَاقِفُهُ يَدْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾»^(٤) للإفراطِ في ضيائِهِ.

ولهذا يَدُلُّ على نوعٍ آخَرَ للجمالِ، نوعٍ ذي هَيْبَةٍ وَجَلالٍ وإِخافَةٍ وهو الرُّوعَةُ.

(١) ج ٤ ص ٢١.

(٢) رسائل البلغاء الطبعة الثالثة ص ٢٨.

(٣) ج ٣ ص ١٦٧ بولاق ١٢٧٩ هـ. يَذْكَرُ المَقْرِي مُقَدِّمَةً جدّه لكتابه:

«هذا كتابٌ شَفَعْتُ فيه الحَقائِقُ بالرِّقائِقِ، وَمَزَجْتُ المَعْنى الفائقَ بِاللَّفْظِ الرائِقِ، فهو زِيْدَةُ التَّذْكِيرِ وخُلَاصَةُ المَعْرِفَةِ وَصَفْوَةُ العِلْمِ وَنَقَاوَةُ العَمَلِ فَاحْتَفِظْ بما يُوحِيهِ إِلَيْكَ فهو الدَّلِيلُ وعلى اللهُ قَصْدُ السَّبِيلِ».

(٤) رَغْبَةُ الأَمَلِ من كتابِ الكامِلِ ج ٧ ص ٨٨ الطبعة الأولى.

وقد جاء في أساس البلاغة: «وفرَّسَ رائِعٌ يَروُغُ الرَّائِي بِجَمالِهِ وكلامٌ رائعٌ رائقٌ وامرأةٌ رائِعةٌ ونساءٌ روائِعٌ ورُؤُوعٌ. قال عمرُ بنُ أبي ربيعة: «فإن يُقَوِّرَ مَغنَهاها فَقَدْ كانَ حِقْبَةً تَمشِي بِه حُور المَدامِيع رُؤُوعٌ» على أَنَّ صاحِبَ فِقه اللُّغة يَعقِدُ فَصلاً «في تَرتيبِ حُسنِ المرأة» جاء فيه: «فإذا كان النَّظَرُ إِلِها يَسِرُّ الرُّوعَ فَهِيَ رائِعة».

والرُّوعُ القلبُ أو سَوادُه أو مَكانُ الفَرَغِ منه. ولا تَمْنَعُ هَذه الفِقرةُ صِحَّةَ الاِشتِقاقِ السَّابِقِ. وقد قال النَّابِغةُ:

فَرِيعَ قَلبي وَكانتْ نَظرةً عَرَضتْ حَيناً وَتَوَفِيقَ أَقْدارٍ لِأَقْدارِ
وَيَتَحَصَّلُ مَعنا أَنَّ لِلجمالِ مَعنَينِ:

مَعنى عامٌّ يَشتمِلُ على أنواعٍ مُختلِفةٍ لِلمَحاسِنِ مِها المَلاحَةُ وَتَقترِنُ بِها الحَلاوَةُ،
ومنه الرِّوَعَةُ أيضاً^(١).

وَمَعنى خاصٌّ وَهو التَّناسُبُ الثَّامُّ المُمتنعُ كما سَلَفَ ذِكرُه في قِصَّةِ عائِشةَ بِنْتِ طَلحَةَ.

وقد كَتَبَ الوَزيز الحافِظُ ابنُ حَزمٍ «رسالةً في مُداوِةِ النُّفوسِ وَتَهذيبِ الأخلاقِ والزُّهدِ في الرِّذائلِ» جاء فيها:

«فَصِلْ في صَباحَةِ الصُّورِ وَقَدْ سُئِلْتُ عَن تَحقيقِ الكَلامِ فيها فَقُلْتُ: الحَلاوَةُ دَقَّةُ المَحاسِنِ وَلُطْفُ الحَرَكَاتِ وَخِفَّةُ الإِشاراتِ وَقَبولُ النُّفْسِ لِأَعراضِ الصُّورِ وإِن لَمْ تَكُنْ ثَمَّ صِفاتٌ ظاهِرَةُ القَوامِ جَمالُ كُلِّ صِفَةٍ على وَحدِها. وَرُبَّ جَميلِ الصِّفاتِ على انفرادٍ كُلِّ مِها بارِدُ الطَّلَعَةِ غَيرِ مَليحٍ ولا حَسَنِ ولا رائِعٍ ولا حُلُوٍ. الرِّوَعَةُ بِها الأَعضاءِ الظاهِرةُ وَهي أيضاً الفَراهِةُ والعَتَقُ. الحُسْنُ هُوَ شَيءٌ لَيس لَه في اللُّغة اسمٌ يعبِّرُ عَنه وَلَكنَّه مَحسوسٌ في النُّفوسِ باتِّفاقٍ كُلِّ مَنْ رآه. وَهو بَرْدٌ مَكسُوفٌ على الوَجهِ وإِشراقٌ يَسْتَميلُ القُلُوبَ نَحوَه فَتَجتمعُ الآراءُ على اسْتِحسانِهِ وإِن لَمْ تَكُنْ هَناكَ صِفاتٌ جَميلَةٌ فَكُلُّ مَنْ رآه راقٍ وَاسْتَحسَنَهُ وَقَبِلَهُ حَتى إذا تَأَمَّلْتَ الصِّفاتِ إفراداً لَمْ تَرِ طائِلاً، وَكانَ شَيءٌ في نَفْسِ المَرثِي يَجِدُه نَفْسُ الرَّائِي. وَهَذا أَجَلُ مَراتِبِ الصَّباحَةِ. ثَم تَخْتَلِفُ الأَهاواءُ بَعْدَ هَذا فَمِنْ

(١) يَقولُ ابنُ المَقفَعِ في «الأَدبِ الكَبيرِ»: «اعلَمُ أَنَّهُ سَتمُرُ عَليكَ أَحاديثُ تُعجِبُكَ إِمّا مَليحَةً وإِما رائِعةً. . .» فَهو يُقابِلُ بَينَ المَليحَةِ والرَّائِعَةِ. رَسائِلُ البُلُغاءِ الطَّبعةُ الثَّالِثةُ ١٩٤٦ ص ٩٣.

مُفَضَّلٌ لِلرَّوْعَةِ وَمِنْ مُفَضَّلٍ لِلْحَلَاوَةِ وما وجدنا أحداً قط يُفَضِّلُ الْقَوَامَ الْمُتَفَرِّدَ. المَلاحَةُ اجتماعُ شيءٍ بشيءٍ ممَّا ذَكَرْنَا»^(١).

هَذَا وفي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَاطُ كَثِيرَةٌ تُفِيدُ الْوَانَا مِنْ الْجَمَالِ مُخْتَلَفَةٌ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالْمَعْجَمَاتِ^(٢) وَلَسْنَا هُنَا بِصَدِّ الْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ الْأَفْظَانِ. وَإِنَّمَا نَرِيدُ أَنْ نَبْحَثَ مَعَانِي الْجَمَالِ وَقِيَمَهُ وَأَنْوَاعَهُ وَنُمَيِّزَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ تَوَاطُفَةً لِدِرَاسَتِنَا الْأَدَبِيَّةِ وَسَعْيًا لِتَحْدِيدِ مَا قَدْ نَسْتَعْمِلُهُ مِنْ مُصْطَلَحَاتٍ وَإِضَاحًا لِمَا قَدْ نَعْتَمِدُهُ مِنْ وَصْفٍ وَتَحْلِيلٍ^(٣). عَلَى أَنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نَمَسَّ بَعْضَ بُحُوثِ الْمُفَكِّرِينَ الْحَدِيثِيِّينَ فَتَتَبَيَّنَ أَطْرَافًا مِنْ تَحْلِيلِهِمْ ثُمَّ نَعُودُ لِتَحْدِيدِ هَذِهِ الْمَعَانِي عِنْدَنَا.

وَأَهْمُ بَاحِثٍ فِي تَارِيخِ الْفَلَسَفَةِ الْحَدِيثَةِ تَنَاوَلَ هَذَا الْمَوْضُوعَ الْفِيلَسُوفُ الْأَلْمَانِيُّ «كَنت» وَذَلِكَ فِي كِتَابِهِ «نَقْدُ الْحُكْمِ». وَلَيْسَ هُنَا مَجَالٌ عَرَضِيٌّ لِأَرَائِهِ وَتَلْخِيصِ كِتَابِهِ هَذَا. وَلَكِنَّا نَحِبُّ أَنْ نَعْتَمِدَ عَلَى كِتَابٍ لَهُ آخَرٌ مُتَقَدِّمٌ عَلَى كِتَابِ «نَقْدِ الْحُكْمِ». وَهُوَ «اعْتِبَارَاتٌ حَوْلَ الشُّعُورِ بِالْجَمَالِ وَبِالرَّوْعَةِ»^(٤) فَيَسْرُدُ فِيهِ أَمْثَلَةً عَلَى الْجَمَالِ وَعَلَى الرَّوْعَةِ كَمَا يَلِي:

من الأمور الجميلة:	من الأمور الرائعة:
المُروِجُ المُرْصَعَةُ بِالْأَزْهَارِ	الْجِبَالُ الشَّامِخَةُ وَالْعَوَاصِفُ
وَصَفُ هُوْمِيروسَ لَزَنَارَ فِينُوسَ	وَصَفُ مِلْتُونِ لِمَمْلَكَةِ الْجَحِيمِ
النَّهَارُ	اللَّيْلُ
الفِكرُ	الذِّكْرُ

(١) مَطْبَعَةُ النَّيْلِ بِمِصْرَ ١٣٢٣ هـ، ص ٣٧، ٣٨. وفي هذه الطُّبْعَةِ نَصِيبٌ مِنَ التَّحْرِيفِ وَقَدْ طُبِعَتْ الرُّسَالَةُ طَبْعَةً ثَانِيَةً فِي مِصْرَ. وَفِي الْمَكْتَبَةِ الظَّاهِرِيَّةِ مَخْطُوطَتَانِ لَهَا فِي قِسْمِ الْأَدَبِ بِرَقْمِ ٣١٨١ وَرَقْمِ ٣١٨٢ وَلَيْسَتَا أَفْضَلَ مِنَ الطَّبْعَتَيْنِ.

(٢) فِي فِقَةِ اللُّغَةِ مِثْلًا «فَصْلٌ فِي تَرْتِيبِ حُسْنِ الْمَرَاةِ» وَقَدْ ذَكَرْنَا آنفًا فِقْرَةً مِنْهُ تَتَعَلَّقُ بِالرَّوْعَةِ. وَفِي هَذَا الْكِتَابِ أَيْضًا «فَصْلٌ فِي تَقْسِيمِ الْحُسْنِ وَشُرُوطِهِ» جَاءَ فِيهِ «عَنْ ثَعْلَبٍ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ وَغَيْرِهِمَا، الصَّبَاحَةُ فِي الْوَجْهِ، الْإِضَاءَةُ فِي الْبَشَرَةِ، الْجَمَالُ فِي الْأَنْفِ، الْحَلَاوَةُ فِي الْعَيْنَيْنِ، الْمَلَاخَةُ فِي الْفَمِ، الظَّرْفُ فِي اللِّسَانِ، الرَّشَاقَةُ فِي الْقَدِّ، اللَّبَاقَةُ فِي الشَّمَائِلِ، كَمَالُ الْحُسْنِ فِي الشَّعْرِ». وَثَمَّةُ فِي الْمَعْجَمَاتِ الْآخَرَى الْفَاطُ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

(٣) فِي كُتُبِ أُصُولِ الدِّينِ فَصُولٌ ضَافِيَّةٌ فِي مَعَانِي الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ وَإِيْهْمَا الْعَقْلِيِّ وَإِيْهْمَا الشَّرْعِيِّ تَخْرُجُ عَنْ بُحُورِنَا هُنَا.

وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ وَلَا سِيَّما عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ الْقَافِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ آراءٌ فِي الْجَمَالِ سَيَتَّحُ لَنَا الْإِلْمَامُ بِهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

(٤) كَتَبَهُ سَنَةَ ١٧٦٤ أَمَّا نَقْدُ الْحُكْمِ فَكَتَبَهُ مُتَأَخِّرًا سَنَةَ ١٧٩٠ بَعْدَ إِصْدَارِ كِتَابَيْهِ الْمَشْهُورَيْنِ «نَقْدُ الْعَقْلِ الظَّرْفِيِّ» وَ «نَقْدُ الْعَقْلِ الْعَمَلِيِّ». وَفِي كِتَابِ «نَقْدِ الْحُكْمِ» يُطَبَّقُ أُصُولُ فِلْسَفَتِهِ الَّتِي أَقَامَ دَعَائِمَهَا عَلَى آرَائِهِ فِي الْجَمَالِ وَفِي الرَّوْعَةِ وَهِيَ الَّتِي عَرَضَهَا فِي كِتَابِ الْآنِفِ.

الرأفة

الفضيلة

العَيْنَانِ الزَّرَقَاوَانِ وَالشَّعْرُ الْأَشْقَرُ

العَيْنَانِ السُّودَاوَانِ وَالشَّعْرُ الْفَاحِمُ

النِّسَاءُ جِنْسٌ جَمِيلٌ

الرُّجَالُ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَتَسَمَّوْا بِالْجِنْسِ النَّبِيلِ^(١) لَوْ

لَمْ تَدْعُهُمْ شَمَائِلُهُمُ النَّبِيلَةُ إِلَى رَفْضِ أَلْقَابِ

الشَّرَفِ فَهُمْ إِلَى مَنْحِهَا أُمِّلُ مِنْهُمْ إِلَى تَلْقِيهَا.

وَيَرَى كَنْتَ أَنَّ النِّسَاءَ يُعْنَيْنَ بِجَمَالِهِنَّ وَلِذَلِكَ يَلْتَمِسْنَ عِنْدَ الرُّجَالِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.

وَالرُّجَالُ يُقَدِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي نُبْلِ الشَّمَائِلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، لِذَلِكَ يَلْتَمِسُونَ عِنْدَ النِّسَاءِ

صِفَةَ الْجَمَالِ. وَغَايَةُ الطَّبِيعَةِ أَنْ تَحِبُّو الرُّجَالَ نُبْلًا فَوْقَ نُبْلِهِمْ وَالنِّسَاءَ جَمَالًا فَوْقَ جَمَالِهِنَّ

حِينَ جَعَلْتُمْ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَمِيلُ إِلَى الْآخَرِ.

وَهَكَذَا تَشْتَبِكُ عِنْدَ هَذَا الْفِيلَسُوفِ الْأُمُورُ الْخُلُقِيَّةُ بِأُمُورِ الْجَمَالِ. وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِهِ

«نَقْدُ الْحُكْمِ»: «شَيْتَانِ يَمْلَأَنِ النَّفْسَ إِعْجَابًا وَجَلَالًا دَائِمَيْنِ يَزِيدَانِ كُلَّمَا اتَّجَهَ الْفِكْرُ إِلَيْهِمَا

وَأَمَعْنَ فِي تَأْمُلِهِمَا وَهُمَا السَّمَاءُ ذَاتُ النُّجُومِ خَارِجَةٌ عَنَّا وَالْقَانُونُ الْخُلُقِيُّ فِي نَفْسِنَا».

بَيِّنْدَ أَنْ كُنْتُ فِي الْأَمْثَلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا قَدْ مَزَجَ بَيْنَ جَمَالِ الطَّبِيعَةِ وَجَمَالِ الْفَنِّ، مَعَ أَنَّهُ

قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ تَفْرِيقًا جَيِّدًا حِينَ قَالَ: «الْفَنُّ لَيْسَ تَمَثِيلًا لَشَيْءٍ جَمِيلٍ وَإِنَّمَا

هُوَ تَمَثِيلٌ جَمِيلٌ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ».

وَيَقُولُ الْمُفَكِّرُ الْفَرَنْسِيُّ شَارْلُ لَالُو: «يُمْكِنُ أَنْ نُضَيِّفَ إِلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَلَوْ كَانَ

هَذَا الشَّيْءُ قَبِيحًا». وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَنَّ قَدْ يُصَوِّرُ الشَّيْءَ الْقَبِيحَ، فَيَكُونُ تَصْوِيرُهُ هَذَا مُمْتَعًا.

عِنْدَنَا إِذَنْ قِيَمٌ فَنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ. وَقَدْ عَمِدَ شَارْلُ لَالُو الَّذِي كَانَ أَسْتَاذًا فِي السُّورِبُونِ إِلَى

تَصْنِيفِ هَذِهِ الْقِيَمِ. فَنَظَرَ فِي هَذِهِ الْقِيَمِ إِلَى التَّنَاسُبِ الَّذِي تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ هَلْ هُوَ حَاصِلٌ

مُتَحَقِّقٌ أَوْ مَبْحُوثٌ عَنْهُ أَوْ مَفْقُودٌ، وَذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ الثَّلَاثَةِ: الْجَانِبِ

الْعَقْلِيِّ وَالْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ وَالْجَانِبِ الْعَاطِفِيِّ أَوْ الْإِنْفِعَالِيِّ. وَعِنْدُنَا يَحْصُلُ عِنْدَنَا تِسْعُ قِيَمٍ

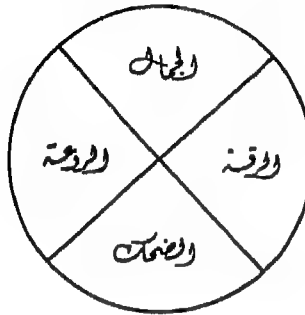
فَنِيَّةٍ وَفَقَّ الْجَدْوَلُ الْآتِي:

التَّنَاسُبُ	مُتَحَقِّقٌ	مَبْحُوثٌ عَنْهُ	مَفْقُودٌ
عَقْلِيٌّ	جَمَالٌ	رَوْعَةٌ	نُكْتَةٌ
عَمَلِيٌّ	جَزَالَةٌ (فَخَامَةٌ)	مَأْسَاءٌ	تَهْرِيجٌ
عَاطِفِيٌّ	رِقَّةٌ	دِرَامَةٌ	فُكَاهَةٌ

(١) يَسْتَعْمِلُ «كَنْتُ» لَفْظَ النَّبِيلِ بَدَلًا مِنَ الرَّائِعِ.

من مزايا هذا التصنيف أنَّ كلَّ قيمة فنيَّة موجودة فيه يتَّعريفها. فالجمال تناسُّب عقليُّ مُتحقِّق والرَّوعة تناسُّب مَبْحُوث عنه أو مُلتَمَس والثَّكَّة تناسُّب مَفْقُود أو مَجْهُود وهلمَّ جرَّاء.

غير أنَّ هذا التصنيف يَحْصُر هذه القِيَم في تِسْع ولا نَجِدُ مُسَوِّغاً لهذا الحَصْر. ثمَّ إنَّ جَوَانِب النَّفْس الإنسانيَّة أشدُّ اشْتِيَاكاً وأكثرُ تَدَاخُلًا من هذا التَّقْسِيم الذي يَبْدُو لنا مُضْطَنَعاً. ولذلك نَقترح تَصْنِيفاً آخَرَ أبْسطَ يَشْمَلُ أَرْبَع قِيَمٍ أَصْلِيَّةٍ مُتَقَابِلَةٍ مِثْنَى مِثْنَى تَقَابُلًا جَدَلِيًّا وهي الجَمال والرَّوعة والرَّقَّة والضَّحْك، وَيَقْسَحُ مَجَالاً لَأَلْوَانٍ كَثِيرَةٍ فَنِيَّةٍ أُخْرَى دُونَ حَصْرِ، فنَضْعُ تلك القِيَم في جَوَانِب دائِرة نَدْعُوهَا بِدَائِرَةِ المَحَاسِن كما في الشَّكْلِ الآتِي:



الجَمال نُعْجَبُ بِهِ وَنَرْفَعُ مَكَانَهُ وَنَوُدُّ لَوْ نَمُتُّ إِلَيْهِ بِسَبَب. وهو يُقَابِلُ الضَّحْك لَأَنَّ المَضْحُوكَ مِنْهُ نَخْفِضُهُ وَنُزْدِرِيهِ وَنُخْرِجُهُ مِنْ جَمَاعَتِنَا لِغَيْبٍ فِيهِ أَوْ قُبْحٍ كَالْغَفْلَةِ أَوْ الْبُخْلِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَكَأَنَّا نَزْجُرُهُ بِضَحْكِنَا مِنْهُ لِيَرْتَدَّ إِلَى دَاخِلِ حَظِيرَةِ الْجَمَاعَةِ.

وَالرَّوْعَةُ جَمَالٌ يُدْهِشُ وَيُخِيفُ كَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ وَالْعَوَاصِفِ الْمُزْمِجَةِ. وهي تُقَابِلُ الرَّقَّةَ الَّتِي هِيَ جَمَالٌ لَطِيفٌ نَخْشَى عَلَيْهِ الْأَذَى وَنُشْفِقُ عَلَيْهِ وَنُرِيدُ أَنْ نَحْمِيَهُ كَجَمَالِ الْأَطْفَالِ أَوْ جَمَالِ الْأُنُوثَةِ.

وَنُفَضِّلُ أَنْ نُحَلِّلَ هَذِهِ الْقِيَمَ الْفَنِيَّةَ الْأَرْبَعَ بَعْضَ التَّحْلِيلِ مُعْتَمِدِينَ عَلَى مَا جَاءَ بِشَأْنِهَا عِنْدَ الْعَرَبِ خَاصَّةً وَمُكْمَلِينَ إِيَّاهُ بِمَا نَرَاهُ نَحْنُ مُنَاسِباً أَوْ بِمَا تَيَسَّرَ مِنَ الدِّرَاسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَذَلِكَ بِأَشَدِّ الْإِيجَازِ، لَأَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْقِيَمِ أَصْبَحَ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ وَاسِعاً وَلِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْقِيَمِ مَجْرَدُ إِضَاحِهَا وَإِشَاعَتِهَا وَتَطْبِيقِهَا فِي دِرَاسَاتِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ لَا بَحْثُهَا وَلَا الاسْتِفَاضَةُ فِيهِ.

الرَّقَّة:

اخْتَرْنَا هَذَا اللَّفْظَ هُنَا لِيَشْمَلَ الْوَنَاءَ مُتَقَابِرَةً مِنَ الْجَمَالِ كَالْمَلَاخَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَقَدْ سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمَا، وَاللُّطْفُ فِي الْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَالرَّشَاقَةُ فِي الْحَرَكَاتِ.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الْعَرَبَ يُفَضِّلُونَ الْمَلَاخَةَ عَلَى الْجَمَالِ. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ عِنْدَ الْمُفَكِّرِينَ الْغَرْبِيِّينَ. يَقُولُ لَافْتَيْنِ: «إِنَّ الرَّقَّةَ لِأَجْمَلُ مِنَ الْجَمَالِ». وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرَّقَّةَ غَيْرُ الْجَمَالِ. وَيَقُولُ الشَّاعِرُ شِيلِرُ مُسْتَغِلاًّ بَعْضَ الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْجَمَالَ عِنْدَ الْيُونَانِ تُمَثِّلُهُ فِينُوسُ وَأَنَّ الرَّقَّةَ يُمَثِّلُهَا زُنَّارُ فِينُوسَ، وَعِنْدَمَا أَرَادَتْ جُونُونُ أَنْ تَسْبِي جُوبْتِيرَ وَتَفْتِنَهُ اسْتَعَارَتْ مِنْ فِينُوسَ زُنَّارَهَا. وَهَذِهِ إِشَارَةٌ أَيْضاً إِلَى أَنَّ الرَّقَّةَ يُمَكِّنُ أَنْ تَنْفَصِلَ عَنِ الْجَمَالِ وَتَنْفَلِكَ عَنْهُ كَمَا يَنْفَصِلُ الزُّنَّارُ وَيَنْفَلِكُ عَنِ الْخَصَرِ، وَإِلَى أَنَّ الرَّقَّةَ مَوْطِنُ الْإِغْرَاءِ.

وَكثِيراً مَا يَزِدَادُ رَوْنَقُ الرَّقَّةِ إِذَا قُرِنَتْ بِالْقُبْحِ. يُرَوَى أَنَّ فِينُوسَ قَلَّدَتْ زَوْجَهَا الْأَعْرَجَ فِي عَرَجِهِ فَكَانَ تَقْلِيدُهَا مَمْلُوءاً بِالرَّقَّةِ. وَقَدْ لَحَظَ أَفْلَاطُونُ مِنْذُ الْقَدِيمِ الْخَاصَّةَ الْآتِيَةَ وَهِيَ أَنَّ الْغِلْظَةَ أَوْ الْجَفَاءَ إِذَا تُعْمِدَتْ أَوْ تُكَلَّفَ يَدُورُ رَقَّةً دَائِماً وَأَنَّ الْغِلْظَةَ الْقُصُوى يَنْبَغِي لَتَسْتَحَقَّ اسْمَهَا أَنْ تَكُونَ غَيْرَ إِرَادِيَّةٍ. ثُمَّ إِنَّ الرَّقَّةَ تُمَثِّلُهَا الْأَسَاطِيرُ الْيُونَانِيَّةُ دَائِماً فِي أَشْكَالِ نِسَاءٍ فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْأُنُوثَةِ وَمُوحِيَّةٌ بِهَا.

عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ الْبَاحِثِينَ يَكَادُونَ يُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الرَّقَّةَ صِنُوعُ الْحَرَكَةِ. وَنَحْنُ عِنْدُنَا نَدْعُوهَا أَيْضاً بِالرَّشَاقَةِ كَمَا ذَكَرْنَا.

الرَّقَّةُ أَوْ الرَّشَاقَةُ صِفَةُ الْحَرَكَاتِ اللَّطِيفَةِ إِذْ تَجْرِي هَذِهِ الْحَرَكَاتُ سَهْلَةً، يَسِيرَةً، هَيْئَةً، لَيْئَةً، لَا أَثَرَ لِلْجَهْدِ فِيهَا وَلَا لِلنَّصَبِ كَأَنَّمَا تَصْدُرُ عَفْوَاءً، تَتَلَحَّقُ أَجْزَاؤُهَا تَلَاخُفًا رَقِيقًا مُتَسَلِّسِلًا جَارِيًا كَالْمَاءِ، كَأَنَّ بَعْضَهَا يُسَلِّمُ بَعْضًا أَوْ كَأَنَّ بَعْضَهَا يُبْنِي عَنْ بَعْضٍ وَيُمَهِّدُ لَهُ فِي حَرِيَّةٍ وَاسِعَةٍ.

وِيرَى الْمُفَكِّرُ رَافِيسُونُ أَنَّ الْحَرَكَاتِ الرَّقِيقَةَ حَرَكَاتٌ مُتَمَوِّجَةٌ تُعَرِّبُ عَنِ الْاسْتِسْلَامِ فَيَقُولُ مَا مَعْنَاهُ أَنَّ التَّمَوِّجَ هُوَ التَّعْبِيرُ الْمَحْسُوسُ عَنِ الْاسْتِسْلَامِ الَّذِي فِيهِ يَبْدُو الطَّيِّبُ وَتَثْوِي الرَّقَّةُ.

الرَّقَّةَ بَعِيدَةً عَنِ الْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ وَنَائِيَةً عَنِ الْعُنْفِ وَالْجَهْدِ الشَّاقِّ. شَاهَدَ الْفِيلَسُوفُ سِينَسِرَ رَاقِصَةً تَرْقِصُ عَلَى الْمَسْرَحِ فَوَجَدَ أَنَّ حَرَكَتَهَا كَانَتْ تَغْدُو رَقِيقَةً رَشِيقَةً عِنْدَمَا تَبْدُو خَفِيفَةً لَطِيفَةً لَا تَتَطَلَّبُ مِنَ الْجُهْدِ إِلَّا أَقْلَهُ وَأَذْنَاهُ، كَأَنَّ ثَمَّةَ اقْتِصَاداً فِي الطَّاقَةِ الْمَبْدُولَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَرْدُودِ الْحَرَكَِيِّ الظَّاهِرِ.

تَتَنَاوَى الرَّقَّةُ إِذْنِ وَالْمَرْدُودِ السَّيِّئِ وَتَبْتَعدُ عَنِ الْحَرَكَاتِ الْعَنِيفَةِ وَالْمُرْتَبِطَةِ بِالْجَافِيَةِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ جُهِدٍ وَتَشْفُ عَنْ ضِيقٍ أَوْ حَرَجٍ.

إِنَّ حَرَكََةَ الْآلَاتِ مَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ الْكَمَالِ وَالْإِتْقَانِ لَا تُضَاهِي الْحَرَكَاتِ الْحَيَّةِ الْمُنْبِعِثَةِ مِنَ الْحَيَاةِ. ذَلِكَ أَنَّ الْحَرَكََةَ الرَّشِيقَةَ الرَّقِيقَةَ حَرَكََةُ صَامِتَةٍ حُلُوةٍ تَحْدُثُ بِلَا اضْطِدامٍ وَلَا جَلْبَةٍ. هِيَ عِنْدَ الْحَيَوَانِ حَرَكََةُ يَسِيرَةٍ وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ حَرَكََةُ الْآلَةِ الْمُجْلِبَةِ الصَّخَابَةِ. لِنَضْرِبَ أَمْثَلًا لِلْحَرَكَاتِ الرَّقِيقَةِ. إِنَّ مَشْيَةَ الْمَرْأَةِ وَحَرَكَةَ الْهَرَّةِ مَلَكَتَا الْحَرَكَاتِ لَا يُنَازِعُهُمَا مُنَازِعٌ لَا عُنْفَ فِيهِمَا وَلَا اضْطِدامَ كَأَنَّ وَرَاءَهُمَا مُرُونَةً تَسْبِغُ الْإِنْسِجَامَ وَتُخْفِي التَّقَطُّعَ.

لِنَتَأَمَّلِ الْهَرَّةَ. حَرَكَاتُهَا تَفِيضُ بِالْخَفَّةِ، تَتَقَدَّمُ تَقْدُماً صَامِتاً لَا صَوْتَ فِيهِ وَلَا ضَوْضَاءَ، تَارَةً تَتَمَهَّلُ تَمْشِي الْهُوَيْنَا وَتَارَةً تُسْرِعُ أَوْ تَقْفُ حَذِرَةً كَأَنَّمَا تُعَلِّقُ خُطَوَاتِهَا فِي الْهَوَاءِ مَادَّةً يَدَّهَا أَفْقِيَةً إِلَى الْأَمَامِ، فَهِيَ تَجْمَعُ بَيْنَ الْحَذَرِ وَالتَّوَانِي وَتَمْزِجُ بَيْنَ الْإِتْيَابِ وَالْإِغْفَالِ ثُمَّ تَنْتَهِي بِوَضْعٍ يَدَّهَا عَلَى الْأَرْضِ. وَقَدْ تَمَدَّدَ جَسْمُهَا نَحْوَ الشَّيْءِ الَّذِي تَرِيدُ بَلُوغَهُ دُونَ أَنْ تَتَقَدَّمَ إِضْبَعاً. وَكَثِيراً مَا تُبَدِّلُ أَتْرَافَهَا وَنِقَاطَ اسْتِنَادِهَا فُتُصَالِبَ بَيْنَ قَائِمَتَيْهَا كَالرَّاقِصَةِ. تَارَةً تَدَوِّرُ حَوْلَ ذَنْبِهَا كَالدَّائِرَةِ، وَطَوَّاراً تَعْطِفُ رَأْسَهَا مُبْصِرَةً ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ مُطْمَئِنَّةً. حَرَكَاتُهَا طَيِّعَةٌ فَلَوْ رَمَى بِهَا لَوُجِدَتْ عِنْدَ وُصُولِهَا إِلَى الْأَرْضِ فِي تَوَازُنٍ وَاعْتِدَالٍ. كَانَ الْعُلَمَاءُ يُنْكِرُونَ فِي السَّابِقِ أَنَّ الْهَرَّةَ إِذَا رُمِيَتْ مِنْ عَلٍ سَقَطَتْ دَائِماً عَلَى قَوَائِمِهَا لَغَرَابَةٍ ذَلِكَ. فَلَمَّا عَرَضَ الْعَالِمُ مَارِي^(١) الصُّورَ الْمُسَجَّلَةَ لِسُقُوطِ الْهَرَّةِ الْمُتَنَوِّعِ فِي الْفَضَاءِ كَانَ الْإِنْتِصَارُ حَلِيفَهَا. فَهِيَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَلْتَوِي فِي الْفَضَاءِ دُونَ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَى شَيْءٍ لِأَنَّ لَدَيْهَا مُرُونَةً آلِيَّةً دَاخِلِيَّةً. هِيَ تَرْتَكِزُ فِي الْفَضَاءِ عَلَى نِصْفِهَا وَتُدِيرُ رَأْسَهَا. إِنَّ سُقُوطَ الْهَرَّةِ لَيْسَ حَرَكََةً بَلْ أُعْجُوبَةٌ.

لِنَتَأَمَّلِ الْآنَ الْغَزَالَ. الْجِدُّ أَتْلَعُ دَقِيقَ مَرْنٍ، وَالْجِسْمُ أَهْيَفُ مَمْشُوقٍ، وَالْأَيْطِلَانُ أَوْ الْخَاصِرَتَانِ نَحِيفَتَانِ، وَالْقَرْنَانِ عَالِيَانِ فِي اسْتِقَامَةِ الْجَبْهَةِ، وَالْقَوَائِمُ دَقِيقَةٌ لَطِيفَةٌ، لَفَتَاتُ الرَّأْسِ وَالْجِدُّ ارْتِعَاشٌ مُتَجَسِّدٌ، الْجِهَازُ الْعَصْبِيُّ حَيٌّ مُتَوَتَّبٌ مُتَهَيِّئٌ لِلنَّقَارِ أَوْ الْإِنْدِفَاعِ

المُفاجئ، دِقَّة المَفاصِل مُلائمة لسُرعة الحركة. كلُّ حيوانٍ يَلوح جسمه كأنَّه اتِّفاقية بين وظائفٍ مُختلفة. أمَّا الغزال فكلُّ ما فيه كأنَّه مُنصَّب في نشاطٍ واحدٍ. حتى إنَّ وُجودَه يَدو أعجوبة. هذا اللُّطف ورَقَّة الأطراف وهذا الهيكل الذي يكاد يَنكسر لأدنى عُنْف كلُّ ذلك يُشير إلى قِلَّة المُقاومة وعدم احتمال الجُهد المُستمر. حتى الرُّكض إذا تَطاولَ نَهَكَ قواه. الغزال كأنَّه خَلِقَ للثَّقار لا للسَّعي الطَّويل.

ومن الحركات الرَّشيقة التَّنزُّج على الجَلِيد. الأرض هنا من نوع طَريف جَدِيد لَأَنَّها جَلِيدٌ. هي مُستوية تمامَ الاستواء مُتجانسة كلُّ التَّجانُس كالمرآة خالية من العُقبات والمُقاومات. كلُّ خطوة إذا ابتدأت تَستمر وتَمُتدُّ وراء حُدودِها المُعتادة. وتَتوالى أَشكالُ الخُطأ والحركات كأنَّ خُطوطَها المَرسومة في الهواء والثُّور بانضمام بعضها إلى بعض طاقة أزهار.

إنَّ وراء الحركة الرَّشيقة الظَّاهرة حركةً نَفسيَّة باطنيَّة مُتصلة بالعَفويَّة المُحبِّبة والفِطرة السَّليمة.

يَرى الشَّاعرُ شيلِر أنَّ الرُّقَّة مزية الثُّفوس المُولودة ولادةً حسنة. هذه الثُّفوس هي التي تَستطيع أن تَتقَّ بِفطرتها السَّليمة وتَستسلم لَنزعاتِها لأنَّ نَزعاتِها لا تكونُ إلا فاضلةً. هي لا تَقوم بعملٍ خُلقيٍّ مسمًى لأنَّ طَبيعتها القانونُ الخُلقيُّ، ولا تملكُ فضائلَ مَعْدودة بل تملكُ الفُضيلةَ ذاتها. الرُّقَّة إذن تَحيا بالتَّوفيق بين كُلِّية الواجب وذاتية الفطرة وبالملائمة بين الجَناب العاطفيِّ والجَناب العقليِّ لدى الإنسان. الرُّقَّة عند شيلِر هي التَّعبير الحِسيُّ للنَّفس الجَميلة أي هي الشَّكل الخُلقيِّ والمَجلى الرُّوحيِّ للجَمال.

ويَرى باحثون آخرون أنَّ الرُّقَّة مُتصلة بالحبِّ وحافِزةٌ عليه. تَلوح كأنَّها مُحبةٌ، لذلك كانت مُحبوبةً.

ويُعلِّق برغسون على رأي رافيسون في الرُّقَّة بما يلي: «نَحصُّ بنوع من الاستسلام لدى كلِّ ما هو رقيقٌ لطيفٌ كأنَّ هذا الاستسلام تَعَطُّفٌ منه وتَنزُّل. فَمَنْ تَأَمَّل الكونَ بعينيَّ فَنَّا استشفَّ الإحسانَ من خلال الرُّقَّة. ولم تُخطئِ اللُّغة حين دَعَتْ رَقَّةَ الحركة التي تُشاهد والتَّكرُّم الذي هو من خواصِّ الإحسانِ الرِّبانيِّ بلفظٍ واحدٍ وهو اللُّطف^(١) وهذان المعنيان هما شيءٌ واحدٌ عند رافيسون».

(١) في اللُّغة الفرنسيَّة اللَّفظ المُقابل هو Grace وله مَعنيان فنيٌّ وهو ما شرَّحنا، ودينيٌّ وعندئذ يُقالُ له بالعربيَّة النُّعمة عند المسيحيِّين. وقد آثرنا استعمالَ لفظِ اللُّطف لأنَّه مُشترك في الجمال، وفي الأمور الدِّينيَّة.

لقد ذكرنا أمثلةً متنوعةً لإيضاح فكرة الرُّقَّة. ولكنَّ ثَمَّةَ مشاهدٍ كثيرةٍ تقتضي التحليل والتَّنويه ولا يتَّسعُ المجالُ لها^(١). والمرادُ هنا تبيينُ فكرة الرُّقَّة في الشعر العربيَّ خاصَّةً.

ولمَّا كانتِ الألفاظُ تَسْتَطِيعُ أن تأتي بدلالاتِها على جميع ما في الكونِ فهي إشاراتٌ ورُموزٌ إليه وصُورٌ له أمكن أن يتَّسعَ الأدبُ لكلِّ أنواعِ الرُّقَّة وأشكالِها وألوانِها.

ثَمَّةُ في الطَّلِيعَةِ الألفاظُ التي تدلُّ على صُور وأشياء تتحلَّى بالرُّقَّة والرَّشاقة واللُّطف أو تُوحى بها. وكانَ صِفةُ الشَّيء تَنَقُّلٌ إلى اللَّفْظ الذي يدلُّ عليه. فإذا اسْتَعْمَلْتَ تلك الألفاظَ اسْتِعْمَالاً مُلَاقِماً أَنْشَأْتَ جَوْاً حُلُواً سائِغاً سَهْلاً. وَيَبْتَدِرُ الذَّهْنُ من تلك الألفاظِ أسماءُ الأزهارِ البديعةِ وغُروس الثِّبَاتِ الطَّرِيَّةِ كالرَّيْحَانِ وغيره والظُّلال والنَّسيم والماءُ المُنسَاب والجداولُ المُتَرَقِّقَةُ والدُّر واليَواقِيتِ والجَواهر والزَّيْنَةُ والأشياءُ المُؤَنِّثَةُ والصِّبَا والرُّونْق وما شابه ذلك، وكذلك ذكر الألفة والخُنُو والحِماية، لأنَّ الكائنات والأشياء الرَّقِيْقَةَ تَسْتَدْعِي العَطفَ عليها والعِناية بها، ثُمَّ السَّدَاجَةُ مع الحَذَر والعَفْوَةُ والبراءة والعاطفةُ المُحِبَّة. تَذَكَّرْ هنا من وَصِيَّةِ أَبِي تَمَّامٍ لِلْبُحْتَرِيِّ قَوْلُهُ: «وإنَّ أَرَدْتَ التَّشْيِيبَ فَاجْعَلِ اللَّفْظَ رَقِيْقاً وَالْمَعْنَى رَشِيْقاً وَأَكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ الصِّبَابَةِ وَتَوَجُّعِ الْكَابَةِ وَقَلِّقِ الْأَشْوَاقَ وَلَوْعَةِ الْفِرَاقِ».

وتاريخُ الشعر العربيَّ يَظْفَحُ بالشَّعر الرَّقِيْق طُفُوْحَهُ بِالْوَانِ الْجَمَالِ الأُخْرَى. ولا بدَّ من ذِكْرِ بَعْضِ الأَبْيَات. قَالَ الشَّاعِرُ^(٢) يَصِفُ وادياً:

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وادٍ	سَقَاه مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا	خُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالٍ	الَّذِي مِنَ الْمُدَامَةِ لِلتَّيْدِيمِ
تَرَوُّعُ حَصَاهِ الْعِذَارَى	فَتَلَمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النَّظِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَتَى وَاجَهَتَنَا	فِيحْبِبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ

إِنَّ لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ خَارِجِيَّةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْوَادِي وَقَدْ حَمَاهُمْ مِنْهَا فَهْمٌ يَسْتَسْقُونَ لَهُ الْغَيْثَ الْمُضَاعَفَ الْعَمِيمَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ فِي أَحْضَانِ الْوَادِي كَالْأَطْفَالِ فِي أَحْضَانِ الْمَرَاضِعِ.

(١) انظر للتفصيل كتاب:

L'esthétique de la grâce, Raymond Bayer, 2 tomes, 1933, Alcan.

(٢) هو أبو نصر المنازلي يصف وادي بُزاعة بين حلب ومنيح (وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ وَمُعْجَمِ الْبُلْدَانِ)، أو هي حمدة بنتُ زياد تصف وادي أش بالأنْدَلُسِ (نَفْحِ الطَّيْبِ).

وهنا عدا الحنوّ والحنان نجدُ فكرةَ التّصغيرِ المُحبَّب الذي تلتصقُ الرِّقّةُ به . ثمّ لا بدّ من التّنويه بهذا الماء الرّلال العذب الذي رشفوه بلذّة تُذكرُ لذّة المُنَادمة والأُنس . وكذلك حصا الوادي يُشبه الدُّرّ في حُسْنه . ويذكرُ الشّاعر العذاري بدلاً من الغواني للإيحاء بالصّبا الغضّ وبما يُوحين به من سداجة وحرارة تحمّلُهُنّ على أن ينسِنَ أنفسَهُنّ فيلمسْنَ عُقودَهُنّ في أجيادهنّ المُتَلعّة خوفاً عليها أن تكون قد انفطرت حين يجدن أشباه جواهرها في الحصا . إنّ الرِّقّة تُشير في الغالب إلى عُنصر الحذر المُتّصل بالخوف كما يُوحى بذلك منظرُ الطّير أو الطّيب . ثمّ إنّ هذا الجوّ البديع الحلو المتألّف من الظّلال الوارفة والحصا المتألّق والينابيع المُترققة والصّبايا الحالّة بالزّينة لا بدّ فيه من نسيم رُخاء وإن رقيق شاتي ليس بالكثير يُنظّمه ذلك الوادي تنظيماً فلا يأذنُ منه إلّا بمقدار . كلُّ ما في هذه الأبيات يُوحى بحلاوة ذلك الوادي وملاحة التّزول فيه .

هذا ما يتعلّق بالمعاني والصّور، وأمّا ما يتعلّق بالصّناعة والقريض فإنّ الشّعر الرّقيق يكونُ غالباً من البحور المَعزّوة والقطع القصيرة السّهلة لا الطويلة ولا المُتكلّفة . إنّ الرِّقّة إلهامٌ مُقتَضِب قصير . فكأنّ القطعة الشّعريّة تشفّ عن باري عذبٍ يرسمُ في النّفس .

الشّعر الرّقيق شعراً صافٍ مُتسلسل فيه غُضارة وعليه طلاوة، لا عنت فيه، كأنّه جاء عفواً الخاطر وطوّع البديهة، يغلب الطّبع فيه على كلّ شيء .

وفي تاريخ الشّعر العربيّ نموذجاتٌ كثيرةٌ من هذا النّوع . نجدُ شعراءَ امتازوا بهذا اللون المطبوع السّهل . ولا شكّ أنّ القارئ يذكُرُ شعرَ أبي العتاهية كلّهُ، ففيه سهولة كبيرة ويتناولُ أموراً تُوحى بالأثوثة واللّين، حتى في زهدياته نجدُهُ يُنوّهُ بمضيّ كلّ شيءٍ والانتباه إلى الزّوال . وهذا كلّهُ يؤكّد فكرةَ الرِّقّة التي تُلائمُ انسيابَ الأمور وجريانها ومُضيّها كما ينساب الماء ويجري ويمضي وكما يهبُّ النّسيم ويتلاشى، وتتناهى مع المقادير الضّخمة الثّابتة الرّاسخة . وكذلك يذكُرُ القارئ العبّاس بن الأحنف وشيئاً من شعرِ أبي نواس وابن المعتزّ والبُحتريّ وابن خفاجة وشعراء الموشّحات .

ولكنّ البهاء زهيراً يأتي في طليعة الشعراء الذين تتسم أشعارهم بالرِّقّة واللّطف والملاحة والسهولة . وكلُّ شعره من هذا النّوع الذي يكاد يُخسبُ عاميًّا ولكنه يبقى صحيحاً فصيحاً . لنستمع إلى هذه القطعة الغزليّة التي تحكي كلامَ الأطفال :

من اليوم تعارفنا	ونطوي ما جرى منّا
فلا كان ولا صار	ولا قلّتم ولا قلّنا
وإن كان ولا بسد	من العتب فبالحسنى

فقد قيلَ لنا عنكم كما قيلَ لكم عَنَّا
كفى ما كانَ من هَجَرٍ وقد دُفُتُم وقد دُفِنَا
وما أحسنَ أن نرجِ سعَ للوصل كما كُنَّا

فالبحرُ قصيرٌ وهو الهَزَج الذي لا يُستعملُ إلا مجزوءاً. وقد دَخَلَهُ زِحَافُ الكَفِّ في كثير من مواضعه فأصبحت مفاعيلن مفاعيل، فزاده ذلك خِفَّة ورَشَاقَة، والألفاظُ غايَةٌ في السَّهولة، وبعضُها شائعٌ يَنُوبُ عن الجملةِ الكاملة، وفي ذلك اقتصادٌ في الجُهد. وكان وصارَ استغنتا عن الاسْمين والخبرين، وقلنم وقلنا وقيلَ ليست في حاجةٍ إلى مَقُول القول، ودُفُتُم ودُفِنَا حُذِفَ مفعولاهما للعلم. ثمَّ إِنَّ اللَّفْظَ يمهِّدُ لِلْفَظِ الآخرِ ويُنَبِّئُ به. فالكلامُ كلُّهُ مُتَسَلِّسٌ مُنْسَجِمٌ هَيِّنٌ لَيِّنٌ يَجري برفقٍ وحركةٍ لطيفةٍ بلا تَكَلُّفٍ ولا صُعوبةٍ.

والأمثلةُ كثيرةٌ في هذا المَيدان. ويكفي أنَّا جَلَوْنَا هَذَا الطَّرَازَ من الشَّعرِ وأوضَحْنَاهُ بهذا المِقدَار، وإن كان البَحْثُ لا يزالُ يحتاجُ إلى استِفاضةٍ وتوسِعةٍ.

وقد انتبهَ الثَّقادُ العربُ لهذا النَّوعِ السَّهل من البیان ودَعَوْه بالسَّهولة. يقولُ ابنُ حِجَّة الحَمَوِيُّ في خزانةِ الأدب: «السَّهولة ذَكَرَهَا التِّيفَاشِيُّ مضافةً إلى بابِ الظَّرَافَةِ، وشَرَكَهَا قومٌ بالانْسِجَام، وذَكَرَهَا ابنُ سِنان الخفَاجِيُّ في كتابِ سرِّ الفصاحَةِ فقال في مُجْمَلِ كلامِهِ هو خُلُوصُ اللَّفْظِ من التَّكَلُّفِ والتَّعْقِيدِ والتَّعَشُّفِ في السَّبْكِ. وقال التِّيفَاشِيُّ السَّهولة أن يأتي الشَّاعرُ بِالْفَظِ سَهْلَةٍ تَمَيِّزُ على ما سواها عند من له أَذْنَى ذَوْقٍ من أَهْلِ الأدب. وهي تَدُلُّ على رَقَّةِ الحاشِيَةِ وحُسْنِ الطَّبَعِ وسلامةِ الرُّويَّةِ. ومن أَلْطَفِ الأمثلةِ قولُ الشَّاعر:

أليسَ وَعَدْتَنِي يا قَلْبُ أَتَنِي إذا ما تُبْتُ عن ليلَى تَتُوبُ
فها أنا تائبٌ عن حبِّ ليلَى فمالك كَلِّمًا ذِكِرْتَ تَدُوبُ

ومنه قولُ أبي العتاهية:

أثنى الخِلافَةُ مُقَادَةً إليه تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا
فلم تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ ولم يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

ومذهبي أن البهاءَ زُهيراً قائِداً عنانِ هذا النَّوعِ وفارسُ مَيدانِهِ. فَمِنْ ذَلِكَ قولُهُ:
وَمُدَامَ مَنْ رَضَابٍ بِحَبَابٍ مِنْ ثَنَايَا
كَانَ مَا كَانَ وَمِنْهُ بَعْدُ فِي النَّفْسِ بَقَايَا

ثم يُورد الحَمَوِيُّ أبيتاً مُتنوعةً كثيرةً للبهاءِ منها هذه الأبياتُ:
أَمَّا تَقَرَّرَ أَنَّهَا فَلِمَ تَأَخَّرَتْ عَنَّا

وما الذي كان حتى
ولم يكن لك عُذْرٌ
فلا تُلْمِنا فلاننا
ومنها قوله:

قالوا كبرت عن الصبا
فَدَعَ الصَّبَا لِرَجَالِهِ
وَنَعَمْ كَبُرْتُ وَإِنَّمَا
وَيُمِلُّنِي نَحْوُ الصَّبَا
وقطعت تلك الثاحية
واخْلَعُ ثِيَابَ الْعَارِيَةِ
تلك الشَّمائل باقية^(٢)
قلب رقيق الحاشية
يَمِ بَقِيَّةٌ فِي الزَّائِيَةِ

ومن الشعراء المتأخرين الذين تصف أشعارهم بالرقعة ولي الذين يكن وإسماعيل صبري.

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن فن الزخرفة العربية في الرسم والتصوير كما مارسه الفنانون الذين نشؤوا في ظل الحضارة العربية الإسلامية من زوايي الهند وجبالها إلى بطاح الأندلس وسهولها يدخل كله في باب الرقعة.

وثمة لون من المحاسن يقال له الظرافة أو الظرف نضمه هنا إلى ميدان الرقعة. وقد مر في كلام الحموي أن التيفاشي يدخل الرقعة في باب الظرافة. والحقيقة أنها كلها ألوان متقاربة.

كتب ابن الجوزي في مُستهل كتابه «أخبارُ الظراف والمُتَمَاجِنين» ما يلي:

«الظرف يكون في صباحة الوجه ورشاقة القَدِّ ونظافة الجسم والثوب وبلاغة اللسان وعُدوبة المنطق وطيب الرائحة والتَّقَرُّز من الأقدار والأفعال المُستَهْجَنَة ويكون في خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمُزاح ويكون في الكرم والجود والعفو وغير ذلك من الخصال اللطيفة. وكان الظرف مأخوذاً من الظرف الذي هو الوعاء، فكأنه وعاء لكل لطيف. وقد يقال ظريف لمن حصل فيه بعض هذه الخصال».

(١) في الديوان بعد هذا البيت الزيادة الآتية:

وقد أتيناك زحفاً
وانظر لنفسك فيما
وأنت تهرب منّا
قد كان منك ودعنا

(٢) في الديوان بعد هذا البيت:

ويقوِّح من عطفسي أن
فاسر الشباب كما هي

والذي يتأمل هذا النصّ يلحظُ ورودَ لفظ الرّشاقة وخِفّة الحركة والخِصال اللّطيفة فيه كما يلحظُ أن بقيّة الصفّات كلّها مما يأخذُ بمجامع القلوب ويستميلها ويستأسرها.

وإذا أردنا أن نخرجَ عن الفنّ بعضَ الشيء استطعنا أن نُلحِقَ بالرّقّة والطّرف الزّينة واتباع الأزياء. نروي هنا القصّة التي وردت في كتاب الأغاني وهي «أنّ تاجراً من أهل الكوفة قدّم المدينة بخمُرٍ فباعها كلّها وبقيت السّود منها فلم تنفُك وكان صديقاً للدارميّ فشكا ذلك إليه وكان قد نسك وترك الغناء وقول الشعر، فقال له: لا تهتمّ بذلك فاني سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع. ثمّ قال:

قلّ للمليحة في الخمارِ الاسودّ ماذا صنعتِ براهبٍ مُتعبِدٍ
قد كان شمّر للصّلاة ثيابَه حتى وفقتِ له ببابِ المَسجدِ

وغنّى فيه سنانُ الكاتب وشاع في النَّاس وقالوا: قد فتك الدارميّ ورجع عن نسكه فلم تبق في المدينة طريفة إلا ابتاعت خميراً أسوداً حتى نفد ما كان مع العراقيّ منها. فلمّا علم بذلك الدّارميّ رجّع إلى نسكه ولزم المَسجد^(١).

الرّقّة في الخلاصة مُتصلة برشاقة الحركة وبالإغراء والأنوثة وبالمقادير الصّغيرة اللّطيفة وتُقابلها الرّوعة.

(١) ج ٢ ص ١٧٣ وفي القصّة إشارة إلى اعتماد الأزياء على الدّعاية والتّرويج وإلى وظيفة الأزياء الاقتصادية التي تكمن وراءها. وقد اتّسعت هذه الوظيفة الاقتصادية التي للأزياء مع ما يُرافقها من دعايات كبيرة في العصر الحاضر وذلك في البلاد الرّأسماليّة التي تتمييز فيها الطبقات الاجتماعيّة بالاستناد إلى الثّراء والغنى.

الرَّوْعَةُ:

الرَّوْعَةُ كما سَلَفَ جَمال مُفْرِط يَدُو مُتْجَاوِزاً لِلْمُحْدودِ مع اخْتِفاظِه بِالْإِمْتاعِ إِلَّا أَنَّهُ إِمْتاعٌ مُحْفوفٌ بِالْهَيْبَةِ وَالْجَلالِ مُتَّصِلٌ بِالرَّهْبَةِ وَالْقَلَقِ. إِنَّهُ يُثِيرُ الإِعْجابَ الْعَميقَ وَيَبْلُغُ حَدَّ الإِذهاشِ وَالإِخافَةِ وَيُوحِي بِالثُّبُلِ وَالسُّمُوِّ. نَحْنُ لَا نَكادُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحِيطَ بِاتِّساعِ الْمَشْهَدِ الرَّائِعِ وَلَا بِإِذْراكِ جَمِيعِ أَجْزائِهِ. نَذْكُرُ هُنَا فِي الطَّبِيعَةِ الْجِبالَ الشَّاهِقَةَ فِي أَجْوَازِ الْفُضَاءِ كما ذَكَرَ «كَنت»، وَالْبَحْرَ الْخِضَمَّ الْواسِعَ الْبَعِيدَ الْمَدَى الْمُتَّصِلَ بِالْأَفْقِ، وَالسَّمَاءَ الْعَمِيقَةَ الْغُورَ الْمُرْصَعَةَ بِالْكَواكِبِ وَالنُّجُومِ، وَالنُّظْمَ الشَّمْسِيَّةَ وَنَهْرَ الْمَجَرَّةِ وَالْمُدُنَّباتِ وَأَمْثالِها، وَكَذَلِكَ الْعاصِفَةُ الَّتِي تَتَشَقَّقُ بِالْبُرُوقِ وَتُدَوِّي وَتُدْمِدِمُ بِالرُّعُودِ، وَالزُّوْبَةَ فِي عِبابِ الْبَحْرِ الْهائِجِ كَأَنَّ الْبَحْرَ أَصْبَحَ هُوَّةً بَعِيدَةً الْأَغْوارِ تَكَادُ تَبْتَلِعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْبَرَائِكِينَ الثَّائِرَةَ الْقاذِفَةَ بِالْحُمَمِ، وَالسَّلَّالَاتِ الْمُتَحَدِّرَةَ الْكَبِيرَةَ.

فَالرَّوْعَةُ فِي هَذِهِ الْمَشاهِدِ تَقُومُ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْمُتْناهِيِ وَاللَّامْتِناهِيِ وَالْمَحْدودِ وَاللَّامْحْدودِ، كما أَنَّ اللَّذَّةَ عِنْدَئِذٍ تَقْتَرِنُ بِالْأَلَمِ وَكَمَا أَنَّ إِمْتاعَ الْمَشاوِعِ تُرافِقُهُ ذَهْشَةُ الْعَقْلِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ نَفْسَهُ ضَعِيفاً تُجَاهَ الطَّبِيعَةِ الْواسِعَةِ مَقْهوراً حَيالَ ظُواهرِها الرَّائِعَةِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْعُرَ مِنْ خِلالِ ضَعْفِهِ بِخُرَّتِيَّتِهِ؛ وَعِنْدَئِذٍ تَكُونُ لِلرَّوْعَةِ رِسالَةٌ وَهِيَ أَنْ تَجْعَلَ الْمَرْءَ يُفَكِّرُ مِنْ خِلالِ الْمَحْسُوسِ فِي اللَّامْحُوسِ، وَمِنْ ثَنائِها الصُّورِ الَّتِي يَشْهَدُها فِي الْغَيْبِ الَّذِي يَتَجَاوَزُها.

وَإِذَا تَلَمَّسْنَا الرَّوْعَةَ فِي الْبَيانِ ابْتَدَرْتُنَا الْكِتَابُ السَّمَاوِيَّةُ وَلَا سِيَّما ما جاءَ فِيها مِنْ وَصْفِ مِشاوِدِ الْقِيامَةِ. هَذَا وَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كِتابٌ دِينِيٌّ لَا كِتابٌ أدِبيٌّ، وَلَكِنْ بِلَاغَتِهِ السَّامِيَّةِ وَبَيانِهِ الْعُلُويِّ وَنَصِّهِ الْمَحْفُوظِ تَجْعَلُ كَلَامَهُ فَوْقَ الشَّعْرِ وَفَوْقَ النَّثْرِ وَفَوْقَ كُلِّ كَلَامٍ. فَإِذَا اسْتَشْهَدْنَا هُنَا بَعْضَ آيَاتِ الْكَرِيماتِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نُشِيرَ إِلَى الْفَرْقِ الْكَبِيرِ بَيْنَها فِي الْعُلُوِّ وَالسُّمُوِّ وَالتَّكْرِيمِ وَالتَّقْدِيسِ وَبَيْنَ جَمِيعِ الشَّعْرِ وَالنَّثْرِ اللَّذِينَ يَشْتَرِكُ فِي صِناعَتِهِما بَنُو الْبَشَرِ.

إِنَّ السَّمَاءَ وَاسِعَةٌ مُؤَنَسَةٌ فِي الْحالِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَالْجِبالُ شامِخَةٌ مُتَطاولَةٌ، وَالشَّمْسُ

والنجوم مُتألقة تجري لمستقر لها، والبحار مُبسِطة؛ وهي جميعاً رائعة لأنها في اتساعها وكبر مقاديرها تشف عن قوة هائلة أبدعتها وكونتها. أمّا في يوم القيامة فإن السماء المؤمنة تشقق كالأبواب وتخف الجبال فتشبه في الخفة والزوال السراب.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿٧٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتَوْنَ أَفْوَاجًا ﴿٧٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٧٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٨٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٨١﴾ لِلطَّالِفِينَ ﴿٨٢﴾ مَتَابًا ﴿٨٣﴾ لِّبَشِيرٍ فِيهَا أَخْقَابًا ﴿٨٤﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٨٥﴾ إِلَّا حِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٨٦﴾ جَزَاءً وَفَاءً ﴿٨٧﴾ لِّأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٨٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٨٩﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٩٠﴾ فَذُوقُوا فَلَنتُزِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٩١﴾﴾ (النبا).

وأي قوة تخسف حينذاك القمر وتجمعه الشمس:

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ إِذَا يَوْمَ أَلْأَبْصَرُ ﴿٢﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٣﴾ رُجِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٤﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْقَمَرُ ﴿٥﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿٦﴾ إِلَيْكَ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَقَرُ ﴿٧﴾ يَبْقَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿٨﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿٩﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٠﴾﴾ (القيامة).

إن الطواهر يوم القيامة مخالفة لكل ما اعتاده الناس وما ألفوه فهي مخيفة حقًا:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُحِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ (التكوير).

والناس في أيام الرُوع يفرعون إلى أهلهم والأقربين والأصحاب، ولكن الهول في ذلك اليوم يطوح بالناس جميعاً فهم يفرّون حتى من أقرب الناس إليهم:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ ﴿١﴾ يَوْمَ يَقَرُّ الْقَرْنُ مِنْ أَجْنُو ﴿٢﴾ وَأُتْبِعُوهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ ﴿٣﴾ وَصَلَّيْنَهُنَّ وَبَنِيَهُنَّ ﴿٤﴾ لِكُلِّ أُمَرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٥﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٦﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٧﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٨﴾ تَرْفَعُهَا قَنَرَةٌ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١٠﴾﴾ (عس).

بل إن المرأة لا يتحكم في حركاته وأعضائه في ذلك اليوم المخيف، مثله حينذاك مثل الذي يرى في النوم كابوساً يهّم بالحركة فلا يستطيع. أي هول أخذ بالنفوس!

﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٦﴾ خِشَعَةً أَبْصَرُهمُ تَرْفَعُهُمْ إِلَهُةٌ ﴿١٧﴾ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (القلم).

يا له من دوار شامل تدل له النفوس وتهلع القلوب وتطير شعاعاً:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

مُرْضِعَةً عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٦١﴾ (الحج).

أي كابوس جائم يرى الخاسر فيه صوراً غريبةً مُفرجة كالتي يراها الهادي في حمّاه:
﴿أَطْلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ أَطْلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ ﴿٦٣﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٦٤﴾
إِنَّمَا تَرَىٰ بُسْكِرًا كَالْقَصْرِ ﴿٦٥﴾ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفَرٌ ﴿٦٦﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٦٧﴾ (المرسلات).

وليست روعة البَيَان مَحْصُورَةٌ فِي مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ بَلْ نَشْعُرُ بِهَا كُلَّمَا اقْتَضَاهَا التَّمَثِيلُ:
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْعَلُهُ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءٌ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٦٨﴾ أَوْ كَطُلُمُوتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُ لَمْ يَكَدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٦٩﴾ (النور).

أو كُلَّمَا اقْتَضَتْهَا بِلَاغَةُ الْوَصْفِ وَالتَّعْبِيرِ كَمَا فِي ذِكْرِ الطُّوفَانِ:

﴿وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَكٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْعَلُهُ مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٧١﴾ وَقِيلَ يَتَارُشُ ابْنُي مَاءُكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُصِّي الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴿١﴾ (هود).

إِنَّ عَظْمَةَ الْمَوْجِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْجِبَالَ لَا تَفُوقُهَا إِلَّا هَذِهِ الْقُدْرَةُ الرَّائِعَةُ الْخَاطِفَةُ الَّتِي تَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَبْلَعُ مَاءَهُ وَالسَّمَاءَ فَتَقْلَعُ وَيَغِيصُ الْمَاءُ وَيَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ.

ومثلُ هَذَا الْبَيَان لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ نَنْزِلَ مَرَاتِبَ كَثِيرَةً حِينَ نَلْتَمِسُ الرُّوعَةَ عِنْدَ أَشْعَرِ الشُّعْرَاءِ وَأَقْوَاهِمِ وَأَمْهَرِهِمْ. وَفِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ صَفَحَاتٌ مَجِيدَةٌ فِي وَصْفِ الْجِبَالِ وَالصَّحَارَى وَالْعَوَاصِفِ وَالسَّمَاءِ وَالْبِحَارِ وَالْحُرُوبِ. وَلَكِنَّ الْمُتَنَبِّيَّ هُوَ شَاعِرُ الرُّوعَةِ الَّذِي يَأْتِي فِي الطَّلِيعَةِ.

وَوَصَفُهُ مَعَارِكَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لَا يَدَانِيهِ شِعْرٌ وَلَا يَقُوقُهُ تَصْوِيرٌ. وَلَقَدْ كَانَتْ مَعَارِكُ

(١) قَالَ ابْنُ أَبِي الْأَصْبَعِ: وَمَا رَأَيْتُ فِيمَا اسْتَقْرَيْتُ مِنَ الْكَلَامِ كَأَيَّةٍ اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا أَحَدًا وَعِشْرِينَ ضَرْبًا مِنَ الْمَحَاسِنِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ...) ثُمَّ يَشْرَحُ هَذِهِ الْمَحَاسِنَ شَرْحًا دَقِيقًا جَيِّدًا. انْظُرْ هَذَا الْقَوْلَ مَعَ الشَّرْحِ فِي نَهَايَةِ الْأَرْبِ لِلتُّورِيِّ الْجُزْءِ السَّابِعِ ص ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧.

سيف الدولة مع الروم رائعة في التاريخ حقاً، ولكن المتنبي استطاع بما أوتي من مهارة البيان أن يخلد بطول ذلك القائد العربي العظيم الذي حمى الثغور الشمالية للبلاد العربية. فروعة البيان تقابل روعة تلك المعارك. ولا بُدُّ لنا ههنا من أن نستشهد بقصيدة من أوابد المتنبي لتبين العناصر التي يعتمدُها للإيحاء بالرّوعة؛ وكلُّ قصائده في تلك المعارك حريّة بالاستشهاد والشرح. ونحن هنا نختارُ القصيدة التي قالها في معركة الحَدَث، نذكرُ أكثر أبياتها، نجدُ الشاعر في مُستهلِّ القصيدة يُهيب باختلاف العزائم مع اختلاف أقدار أصحابها وتتفاوت المكارم مع تفاوت أقدار الكرام ويُقابل بين صغار الأمور وعظامها فيعظم تلك الصغار في عين الصغير ويصغر العظام في عين العظيم:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العزائم

ثم يذكرُ كيف وقعت المعركة وكيف تلوّنت الحَدَث بالدماء من كثرة القتلى فكان جماعهم القتلى المتطيرة سقتها فلوّنتها بعد أن سقتها الغمام بالمطر وكيف بنى سيف الدولة القلعة فأعلى البناء وكأن المنايا إذ ذاك بحر تتلاطم أمواجه.

والشاعر في صيغة الكلام يعتمد إلى الاستفهام لتوكيد التشبيه بين وابل المطر وابل الدماء:

هل الحَدَث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمام
سقتها الغمام الغر قبل نُزولِه فلما دنا منها سقتها الجماع
بناها فأعلى والقنا تفرغ القنا وموج المنايا حولها متلاطم

والجنون من الأمور الرائعة المخيفة ولكن فعل التمايم الخفي التي هي جثث القتلى هو كالسحر من المفروض أنه يسكن الجنون والاضطراب فهو أقوى وأدهى منه:

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمايم

والدَّهر والليل من الأمور التي يعتمدُها العرب في التشبيه للإيحاء بالرّوعة^(١) ولكن بأس البطل العربي كان أشدَّ منهما:

طريدة دهرٍ ساقها فرددتها على الدّين بالخطي والدَّهر راغم

(١) يقول جرير مجيباً للفرزدق:

أنا الدَّهر يفتي الموت والدَّهر خالد
فيقول النابغة:

فلأنك كالليل الذي هو مُذكركي وإن خلعت أن المتأى عنك واسِع

تُفِيْتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ وَهَنْ لَمَّا يَأْخُذَنَّ مِنْكَ غَوَارِمُ
ولا شَيْءٍ أَسْرَعُ مِنْ عَزَمِهِ وَإِنْجَازِهِ:
إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلاً مُضَارِعاً مَضَى قَبْلَ أَنْ تُتْلَقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ
هَذَا وَإِنَّ الْقُوَّةَ أَسَاسُ الْبَيَانِ وَدَعَامَتُهُ فَلَا يُهْذَمُ مَا أَقَامَهُ الطَّعْنُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي يَقْضِي
فِيَعْدِلُ:

وَكَيْفَ تُرْجِي الرُّومَ وَالرُّوسَ هَدَمَهَا وَذَا الطَّعْنُ أَسَاسُ لَهَا وَدَعَائِمُ
وَقَدْ حَاكَمُوهَا وَالْمَنَایَا حَوَاكِمُ فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمُ
وَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ الْمُنْتَبِيَّ فِي رَوْعَةٍ بَيَانِهِ تَنْبَأُ فَتَوَقَّعْ اخْتِرَاعَ الْمُدْرَعَاتِ:

أَتَوَكُّ بِجُرُؤِنِ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ سَرَوْا بِجِيَادٍ مَالِهِنَ قَوَائِمُ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجَوَازِ مِنْهُ زَمَازِمُ

الْجُنُودُ فِيهِ يَمْتَوْنُ إِلَى شُعُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ لِكَثْرَتِهِمْ فَهُمْ يَحْتَاجُونَ عِنْدَ التَّحَدُّثِ إِلَى
التَّرَاجِمِ لِلتَّفَاهَمِ، يَزِيدُ الشَّاعِرُ مِنْ شَأْنِ الْأَعْدَاءِ لِيُبْرِزَ شَأْنَ الْأَمِيرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي غَلِبَهُمْ:

تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ لِسَانٍ وَأُمَّةٍ فَمَا تُفْهِمُ الْحَدَاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ
وَهُنَا يُصَوِّرُ جَوَّ الْمَعْرَكَةِ الْقَلْقِ الرَّاعِبِ الْمُزْهِبِ تَصْوِيرًا قَوِيًّا لِيُخْلَصَ إِلَى أَبْدَعِ صُورَةٍ
مُطَمِّئَةٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ:

فَلَلَّهِ وَقْتُ ذُوبِ الْغِشِّ نَارُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَارِمٌ أَوْ ضَبَارِمُ
تَقَطَّعَ مَا لَا يَقْطَعُ الدَّرْعُ وَالْقَنَا وَفَرَّ مِنَ الْإِبْطَالِ مَنْ لَا يُصَادِمُ
وَقَفَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمَرُّ بِكَ الْإِبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةٌ وَوَجْهَكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسِمُ
تَجَاوَزَتْ مَقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالْثَمَى إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ

وَعَلَى رَغْمِ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ اسْتَطَاعَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ بِسُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ تَشْفِي
عَنْ قُوَّتِهِ وَمَهَارَتِهِ الْحَرْبِيَّةِ:

ضَمَمْتَ جَنَاحِيهِمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً تَمُوتُ الْخَوَافِي تَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ
بِضْرِبِ أَتَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبُ وَصَارَ إِلَى اللَّبَّاتِ وَالنَّصْرُ قَادِمٌ^(١)
حَقَّرْتَ الرِّدْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا وَحَتَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرَّمْحِ شَاتِمُ

(١) سَوْفَ نَعُودُ إِلَى إِيرَادِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ فِي مَنَاسِبٍ أُخْرَى عِنْدَمَا نَتَكَلَّمُ عَلَى فِكْرَةِ الزَّمَانِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ.

ومن طَلَبَ الفَتْحَ الجَلِيلَ فإِنَّمَا مَفَاتِيحُهُ السَّيْضُ الخَفَافُ الصَّوَارِمُ
وقد بَيَّنَّتِ الأَعْدَاءُ لَسِيفَ الدَّوْلَةِ كَمِيناً كَبِيراً فِي طَرِيقِ رُجُوعِهِ فَالْتَقَى بِهِمْ عِنْدَ جَبَلِ
الأَحْيَدِ وَأَظْهَرَ مِنْ مَهَارَةِ الْقِتَالِ فَنَوْناً عَجِيبَةً اسْتَطَاعَ بِهَا أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى عَدَدِهِمُ الضَّخْمِ
الْجَرَّارِ وَأَنْ يَتَبَّعَهُمْ فِي شِعَابِ الْجَبَلِ. وَيَذَكِّرُ الْمُتَنَبِّيَ ذَلِكَ فِي لَمَحَاتِ رَائِعَةٍ كَالْبَرْقِ تُوحِي
بِرَوْعَةِ الْقِتَالِ:

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الأَحْيَدِ كُلِّهِ كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ
تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الدُّرَى وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ
تَظُنُّ فِرَاحُ الْفُتُخِ أَنَّكَ زُرْتَهَا بِأَمَاتِهَا^(١) وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ
إِذَا زَلَقْتَ مَشْيَتَهَا بِطُونِهَا كَمَا تَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ
إِنَّ تَشْبِيهِ نَثْرِ الأَعْدَاءِ عَلَى الْجَبَلِ بِنَثْرِ الدَّرَاهِمِ عَلَى الْعُرُوسِ مِنْ شَأْنِهِ هُنَا أَنْ يُبْرِزَ قُوَّةُ
الْغَلْبَةِ بِرَغَمِ ضَخَامَةِ الْعَدُوِّ.

ثُمَّ إِنَّ تَشْبِيهِ الْجِيَادِ بِالْعُقْبَانِ، وَهِيَ مُصْعَدَةٌ فِي أَعَالِي الْجَبَلِ بَيْنَ جُثَثِ الأَعْدَاءِ الَّتِي
عَدَتْ طَعَاماً لِفِرَاحِ الْعُقْبَانِ فِي وَكُورِهَا حَتَّى لَكَأَنَّ الْفِرَاحَ ظَلَّتْ تِلْكَ الْجِيَادَ أَمَاتِهَا بِسَبَبِ
رَشَاقَةِ أَشْكَالِهَا وَإِتَاحَتِهَا الطَّعَامَ لَهَا، وَذَلِكَ فِي إِيجَازٍ وَتَرْكِيبٍ عَجِيبَيْنِ، مِنْ أَوَّلِهِ مَا نَعْرِفُهُ
فِي الشَّعْرِ قَاطِبَةً لَا فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَحْدَهُ. وَهُوَ يُشِيرُ فَوْقَ كُلِّ مَا ذَكَرْنَا إِلَى مَعْرِفَةٍ عَمِيقَةٍ
بِمَحَاسِنِ الْخَيْلِ وَجَمَالِهَا وَأَلْفَةٍ طَوِيلَةٍ لَهَا. ثُمَّ إِنَّهُ يَعُودُ فَيَشَبِّهُهَا إِذَا زَلَقَتْ فِي التَّصْعِيدِ
بِالْحَيَّاتِ الَّتِي تَمَشَّى عَلَى بَطُونِهَا مُتَلَوِّتَةً فَيُوحِي بِقُوَّةِ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهَا عَلَى
التَّقْدُّمِ وَالصُّعُودِ الْمُسْتَمِرِّينِ.

وَنَحْنُ قَدْ حَاولْنَا أَنْ نَدَلِّ بِعَضْضِ الشَّيْءِ عَلَى جَوَانِبِ مِنْ عَنَاصِرِ الرُّوْعَةِ فِي شَعْرِ
الْمُتَنَبِّيِّ، وَالْأَفْضَلُ قِرَاءَةُ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا دَفْعَةً مَعَ التَّمَعُّنِ فِي أَيْبَاتِهَا الْمُتَتَالِيَةِ وَتَأَمُّلِ عَنَاصِرِ مَا
اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانٍ وَإِيحَاءَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَتَلَاطِمِ مَوْجِ الْمَنَايَا وَالْجُثَثِ الَّتِي
هِيَ بِمَكَانَةِ التَّمَائِمِ تَرْفِي الْجَنُونَ وَهَلَمَّ جَرّاً. أَلَسْنَا نَجِدُ حَيْثُ عِنْدَ الْمُتَنَبِّيِّ ظَلاًّ مِنْ إِعْجَازِ
النُّبُوَّةِ فِي رَوْعَةِ الْبَيَانِ؟

هَذَا وَفِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ عَدَا ذَلِكَ أَوْصَافٌ رَائِعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَوْضُوعَاتٍ شَتَّى، وَهَذِهِ
الْأَوْصَافُ تَقُومُ عَلَى الْجَزَالَةِ وَالْمُبَالَغَةِ وَالصُّورِ الْقَوِيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ وَسَوْفَ تَمُرُّ بِنَا لَمَحَاتٍ مِنْهَا.
يَبْدُو أَنَّ التَّنَاسُبَ الْمُتَّزْنَ الصَّرْفَ الْمُنْسَجِمَ الْأَجْزَاءِ وَالْمَقَادِيرَ إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِالْحُسْنِ أَوْ
بِالْجَمَالِ.

(١) الْأَمَاتُ لِلْحَيَوَانِ كَالْأَمَهَاتِ لِلْإِنْسَانِ.

الجمال:

من صفات الجمال التي حلّلتها الفيلسوف كنت في كتابه «نقد الحكم» أنه موضوع إمتاع نزيه خالص. ويتّضح معنى ذلك عند التفريق بين الشيء الجميل والشيء الشهي أو اللذيذ، وبينه وبين الشيء الجيّد أو النافع.

فقد نحكم على شيء فنقول شهّي أو لذيذ إذا أمكن أن يجلب لذة وسروراً، وقد نحكم عليه فنقول جيّد أو نافع إذا استطاع أن يسدّ عوزاً أو يقضي مأرباً. ولكننا في حكمينا هذين إنّما نصدر عن مطمع أو لبانة فليس كلا الحكمين مبرراً أو نزيهاً لأن اللذيذ والنافع يلازمان رغباتنا ويرضيان ميولنا. بيد أن الحكم الصادر عن الذوق الفني مجرد من هذه السوائب حاصل في حالة تأمل محض. قد نتوق إلى قطف الثمر الشهي للتذوق وإلى هصر الزهر العبي للشم، ولكننا إذ ذاك أولو أغراض غير مبرّين من أوشاب الرغبات. وبالعكس يكون حكمنا نزيهاً إذا نظرنا إلى صورة رسمتها يد صنّاع تمثل ثمرأ أو زهراً تمثيلاً فنيّاً فتملّينا هذه الصورة وآثرنا صنعها على ما دلّت عليه في الطبيعة.

ومن صفات الجمال كما حلّلتها كنت أيضاً أنه يتعيّن بالتناسب القائم بلا هدف أو بحسب تعبير هذا الفيلسوف هو «غائية تلمح في الشيء الجميل دون تصوّر أي غاية». وتوضيح ذلك أننا ننعت الشيء بالجمال حين نفترض له غاية على ألا نفكر في هذه الغاية تفكيراً جليّاً ودقيقاً. ينظر المرء إلى زهرة مثلاً فإن كان عالم نبات فكر في وظائف الكأس والتّويج وأعضاء الزهرة المذكرة والمؤنثة ولم يشعر بجمال الزهرة إذ كانت نظرته مشتملة على غاية واضحة ومعيّنة. وعلى العكس قد يحسب ناظر آخر أن وجود هذه الاجزاء معاً مجرد اتفاق ومصادفة دون أي غاية أو أي وظيفة، فيبتعد كذلك عن الاحساس بالجمال. والحكم الفني بالجمال واقع بين بين، فهو يفترض الحدس بغائية دون إيضاحها وتعيينها. الغاية فيه موجودة بيد أنها مبهمّة كأنما تغشاها سحابة من التملّي الفني.

وينبغي التنبّه إلى أن المُقابلة في قول كنت ليست بين الغائية والآلية بل هي بين وُضوح الغائية وإبهامها. وتحسن الإشارة إلى أن هذا القول قالبٌ جديدٌ تلوح منه الفكرة

القَدِيمَةُ الزَّاعِمَةُ أَنَّ الْجَمَالَ هُوَ الْوَحْدَةُ الَّتِي تُلْمَحُ مِنْ خِلَالِ الْكَثْرَةِ أَوْ الْفِكْرَةِ الْقَدِيمَةُ الزَّاعِمَةُ أَنَّ الْجَمَالَ هُوَ الْكَمَالُ الْمَلْمُوحُ لِمَحَا مُبْهِمَا^(١). يَقُولُ لِبَيْتَر: «إِنَّ الْجَمَالَ تَصَوُّرُ مُبْهِمٍ لِلْكَمَالِ».

وقد أشار الشاعر بودلير إلى صِفة الهدوء والسكون للجمال وهو هدوء وسكون من نوع عقليٍّ مُتَّزِنٍ رَزِينٍ. إِنَّ الْجَمَالَ فِي رَأْيِهِ جَمَالٌ تَمَثَّلِيٌّ سَاكِنٌ بَارِدٌ الْعَاطِفَةُ. ففِي دِيَوَانِهِ «أَزْهَارُ الشَّرِّ» قَصِيدَةٌ يَجْعَلُ الْجَمَالَ يَتَكَلَّمُ فِيهَا وَيَقُولُ مَا مَعْنَاهُ:

«أَكْرَهُ الْحَرَكَةَ الَّتِي تُزِيحُ الْخُطُوطَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، لَا أَبْكِي وَلَا أَضْحَكُ قَطُّ».

وَفِي تَنَاسُبِ الْأَجْزَاءِ يَقُولُ الْحَكَمُ بْنُ قُنْبَرٍ:

لَيْسَ فِيهِ مَا يَقَالُ لَهُ كَمَلْتُ لَوْ أَنَّ ذَا كَمَلَا
كُلُّ شَيْءٍ مِنْ مَحَاسِنِهَا كَائِنٌ فِي حُسْنِهِ مَثَلَا
لَوْ تَمَثَّلَتْ فِي مَتَاعَتِهَا لَمْ تُرَدِّ مِنْ نَفْسِهَا بَدَلَا

فَالْجَمَالُ وَالْحُسْنُ صِنَوَانٌ. وَرَبَّمَا كَانَ لَفْظُ الْجَمَالِ أَقْرَبَ إِشَارَةً إِلَى نَاحِيَةِ الْكَمَالِ وَالتَّنَاسُبِ الْعَقْلِيِّ، وَلَفْظُ الْحُسْنِ أَشَدَّ مَسًّا لَجَانِبِ التَّعْبِيرِ الْحِسِّيِّ. وَالْحُرُوفُ فِي الْأَلْفَاظِ ذَوَاتٌ وَشَائِعٌ خَفِيَّةٌ.

وَلِهَذَا التَّنَاسُبُ كَانَ الْفِكْرُ وَالْبَصَرُ لَا يَنْفَدُ تَأَثُّلُهُمَا لِلْجَمَالِ وَكَانَا يَسْتَشْفَانِ دَائِمًا فِيهِ مَعَانِي جَدِيدَةٌ مُتَوَلِّدَةٌ وَيَجْتَلِيَانِ تَرْدِيدًا وَإِقَاعًا بَيْنَ أَجْزَائِهِ الْمُتَنَاسِبَةِ.

يَقُولُ أَبُو نُوَّاسٍ فِي ذَلِكَ:

وَذَاتٍ خِلْدٌ مُورَدٌ قُوْهِئَةً^(٢) الْمُتَجَرَّدُ
تَأْمَلُ الْعَيْنُ مِنْهَا مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْفَعِدُ
فَبَعْضُهَا قَدْ تَنَاهَى وَبَعْضُهَا يَتَوَلَّدُ
وَالْحُسْنُ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا مُعَادٌ مُرَدَّدُ

(١) عَرَضْنَا صِفَتَيْنِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَذْكُرُهَا كُنْتُ عِنْدَ تَحْلِيلِهِ لِلْحَكَمِ الْفَنِّيِّ الْمُتَعَلِّقِ بِالْجَمَالِ وَهُمَا الصِّفَتَانِ اللَّتَانِ يَبْحَثُهُمَا مِنْ حَيْثُ الْكَيْفِيَّةُ وَمِنْ حَيْثُ الْإِضَافَةُ. وَثَمَّةٌ فِي رَأْيِهِ صِفَةٌ ثَالِثَةٌ وَهِيَ كَلِيَّةُ الْحَكَمِ الْفَنِّيِّ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْكَمِّيَّةُ، وَصِفَةٌ رَابِعَةٌ وَهِيَ ضَرُورَةُ الْحَكَمِ الْفَنِّيِّ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْجِهَةُ. وَاقْتَصَرْنَا عَلَى الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا لِأَنَّهُمَا كَانَتَا أَقْلَ اسْتِهِدَافًا لِلْمُنَاقَشَةِ وَالْإِتْقَادِ.

(٢) نِسْبَةُ إِلَى قُوْهِسْتَانَ بَيْنَ نَيْسَابُورَ وَهَرَاةَ مَشْهُورَةٌ بِالثِّيَابِ الْبَيْضِ النَّاعِمَةِ، كَخِلَاطِ الْبَيْضِ «النِيلُونِ» الْمَعْرُوفَةِ الْيَوْمَ.

والخلاصة أنَّ الجمال تناسب كامل هادئ من دون إفراط ولا تفريط، قد بلغ كلُّ جزء فيه حدَّه المناسب التامَّ واختلفت مُنسجماً مع بقية العناصر الأخرى.

هذا ويتحقَّق الجمال في الشعر حين يُطابق لفظه معناه دون زيادة ولا نقصان وحين تُوافق الفكرة الشكل على حدِّ تعبير الفيلسوف الألماني هيجل. وذلك حاصلٌ في أغلب الشعر الجاهليِّ ولا سيَّما في شعر زهير بن أبي سلمى، وسنذكر في الفصل المُقبل أمثلةً من شعره الجميل، وكذلك شعر النابغة والحطيئة وجَرير وبشار.

ولمَّا كان الجمال يتَّصف بالتناسب التامَّ بين الأجزاء كان لكلِّ لفظٍ مكانه في القصيدة حتى إنَّه ليتعدَّر استبدالُ لفظٍ بلفظ.

ونحبُّ هنا أن نذكرَ هذه القطعة المشهورة لأبي نواس مثلاً على جودة التصوير وجمال الأداء:

ودارٍ نَدَامَى عَطَّلُوها وأذْلَجُوا	بها أثَرٌ منهم جَدِيدٌ ودارِسُ
مَسَاحِبُ من جَرَّ الزُّفَاقَ على الثَّرَى	وأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بها صَحْبِي فَجَدَدْتُ عَهْدَهُم	وإِنِّي على أَمْثَالِ تلكَ لَحَابِسُ
أَقَمْنَا بها يَوْماً وَيَوْماً وثَالِثاً	ويوماً له يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ
تُدَارِ عَلَيْنَا الرِّاحُ في عَسْجَدِيَّة	حَبَّتْهَا بأنواعِ النَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتِها كَسَرَى وفي جَنَبَاتِها	مها تَدْرِيها بِالْقِسِيِّ الفَوَارِسُ
فَللخمرِ ما زَرَّتْ عليه جِوْبُها	وللماءِ ما دارَتْ عليه القَلَانِسُ

وربَّما يحسب القارئ أنَّ البيت الذي يُعدَّد الشاعر فيه الأيام يشتمل على حشوٍ ولكنَّا نرى أنَّ الأيام التي أقاموها كانت عندهم جميلة. كلُّ يومٍ له في رأيهم شأنه، فهم يعيشونها حقاً يوماً بعد يومٍ ويعُدُّونها وهي تنقضي يوماً بعد يومٍ. على أنَّ مهارةَ التصوير في الأبيات الثلاثة الأخيرة هي غايةُ الاستشهاد، إذ هي تامةُ الأداء مُتقنةُ التعبير^(١).

هذا وشعرُ البُحتريِّ يتوزَّع بين الرِّقة والجمال. وهذه قطعةٌ معروفةٌ من قصيدته السَّيِّئَةِ الجميلة التي يصف فيها إيوانَ كسرى:

(١) هذه الأبياتُ الجميلةُ لقيَ مضمونها انتقاداً لا ذعاً على لسانِ حافظ الشيرازيِّ حين يقول:

أَيُّها المحتسبي بكأس ابن هاني	بنست كرم كمثل لعل مذاب
أفلا جُذْتُ بالثُّضار على من	الصبقُ الفقِرُ أنفه بالثُّضارِ

«ترجمة محمد الفراتي»

والمنايا موائيل وأنوشر
في اخضرار من اللباس على أصد
وعراك الرجال بين يديه
من مشيح يهوي بعامل رمح
تصف العين أنهم جد أحياء
يغتلي فيهم ارتيابي حتى

وأن يُزجي الصفوف تحت الدُرس
فر يختال في صبيغة وزس
في خفوت منهم وإغماض جرس
ومليح من السنان بترس
لهم بينهم إشارة خرس
تتقراهم يداي بلمس

إن هذا الشاعر البار يصف لنا الحركة المُنقنة التصوير في تلك الآثار، ولكنه يدُلنا
في الوقت نفسه على صفتها الشكليّة الخافئة المغمضة الجرس أي الهادئة التي قد تجمّدت
في الحجر، ويشير إلى الصمت الذي يرين على الأشخاص المُمثلين برغم أن العين
تحسبهم جد أحياء.

ولو عمدنا إلى هذا الشعر فحاولنا تبديل بعض الألفاظ فيه بشرط الإبقاء على جماله
والمحافظة على صورته ومعانيه لم نستطع إلى ذلك سبيلاً. لنقل مثلاً: «تنتعت» عوضاً من
«تصف»، أو نقل:

«تغتلي» فيهم «شكوكي» حتى «تتقّصّاهم» يداي «بمس»
تذهب الطلاوة والانسجام وينفّر الذوق.

وكلّما كان الفن قوياً تعذر التبدّل فيه واستحال التّغيير.

وفي مقابل التّناسب التّام الذي يؤلّف ماهيّة الجمال نجد الضحك الذي يقوم على
اختلال في تجمّع الأجزاء ونشوز بينها.

الضَّحِكُ:

في الضَّحِكِ يَتَشَنَّجُ الْحِجَابُ الْحَاجِزُ تَشْنُجاً عَفْوِيّاً، وَيَتَقَطَّعُ النَّفْسُ عَلَى شَكْلِ دَفْعَاتِ زَفِيرِيَّةٍ مُتَسَلِّسِلَةٍ مُصَوِّتَةٍ تَتَخَلَّلُهَا فتراتٌ قَصِيرَةٌ مِنَ الشَّهيقِ، وَيَزْدَادُ الضَّغْطُ الرِّثْوِيُّ الدَّاخِلِيُّ. وَإِذَا اشْتَدَّ الضَّحِكُ عَاقَ الدَّوْرَةَ الدَّمَوِيَّةَ فِي الرِّثْمَيْنِ، فَاحْتَقَنَ الْعُنُقُ وَالْوَجْهَ. وَيُرَافِقُ الضَّحِكُ تَقَلُّصَ فِي عَضَلَاتِ الْوَجْهِ، وَتَكَادُ تَشْتَرِكُ جَمِيعُ مَلَاحِجِ الْوَجْهِ فِيهِ. فَالْفَمُ يَنْفَرِجُ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً، وَالصَّامِغَانِ أَوْ مُلْتَقِيَا الشَّفَتَيْنِ يَنْسَحِبَانِ فِي الْجَانِبَيْنِ إِلَى خَلْفٍ وَإِلَى أَعْلَى. وَعِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ لَا تَنْتَهِي أَلْيَافُ الْعَضَلَةِ الصَّاحِكَةِ جَمِيعُهَا إِلَى الصَّامِغَيْنِ حَيْثُ تَرْتَكِزُ عَادَةً، بَلْ يَقِفُ بَعْضُهَا فِي طَرِيقِهِ فَيَرْتَكِزُ عَلَى جِلْدِ الْخَدِّ فَتَحْصُلُ عِنْدَ الْإِيْتِسَامِ غُنْبَةٌ^(١) فِي الْخَدِّ عَلَى حِينِ تَنْفَرِجِ الشَّفَتَيْنِ قَلِيلاً، وَهُوَ أَخْفُ دَرَجَاتِ الْإِيْتِسَامِ وَالطَّفُّ أَشْكَالُهُ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُبْدِلُ خَطَّ الْقِمِّ الْمُتَمَوِّجِ.

وَعِنْدَ الْقَمِّ يَرْتَفِعُ الْخَدَّانِ وَتَتَّسِعُ صَفْحَةُ الْوَجْهِ وَكَأَنَّ الْوَجْهَ يَتَنَاقَصُ طُولاً، وَيَرْتَسِمُ عَلَى الْخَدِّ لَارْتِفَاعِهِ خَطَّانِ أَوْ غَضْنَانِ^(٢) أَحَدُهُمَا يَصِلُ بَيْنَ جَنَاحِ الْأَنْفِ وَالصَّامِغِ وَالثَّانِي وَرَاءَهُ يَنْتَهِي بِبَعْضِ الْغُضُونِ الدَّقِيقَةِ فِي مُؤَخَّرِ الْعَيْنِ.

وَيَبْزُزُ الْأَنْفُ إِلَى الْأَمَامِ وَإِلَى الْأَسْفَلِ. وَرَبَّمَا كَانَ بَرُوزُهُ نَاشِئاً عَنْ تَخَلُّفِ الْخَدَّيْنِ إِلَى الْوَارِءِ وَالْأَعْلَى، وَيَنْبَسِطُ الْمِنْخَرَانِ قَلِيلاً إِلَى الْجَانِبَيْنِ، وَتَتَشَكَّلُ لَدَى بَعْضِ النَّاسِ عَلَى ظَهْرِ الْأَنْفِ خُطُوطٌ عَمُودِيَّةٌ.

وَتَلْمَعُ الْعَيْنَانِ لِمَعَانَاً خَاصّاً زَائِداً وَتَصْغُرَانِ قَلِيلاً وَتَتَطَاوَلَانِ حَتَّى يَكَادُ الْبَيَاضُ فِيهِمَا يَحْتَاجِبُ وَحَتَّى لَا يَكَادُ يَبْدُو غَيْرُ الْقِسْمِ الْمُلَوَّنِ مِنْهُمَا، غَيْرُ إِنْسَانِ الْعَيْنِ. وَتَنْبَسِطُ أَسَارِيرُ

(١) هِيَ مَا نَدْعُوهُ الْغَمَازَةَ بِالْعَامِيَّةِ. وَالصَّامِغَانِ طَرَفَا الشَّفَتَيْنِ.

(٢) هَذِهِ الْغُضُونُ تُسَمَّى أَيْضاً الصَّفَارِيطُ وَهِيَ كُسُورٌ بَيْنَ الْخَدِّ وَالْأَنْفِ وَعِنْدَ اللَّحَاطَيْنِ وَاحِدُهُمَا ضُفْرُوطٌ، وَكَذَلِكَ الصَّمَارِيطُ. وَهِيَ أَلْفَاظٌ لَيْسَتْ رَشِيقَةً.

الجبين حتى أصبح هذا التعبير في اللغة من باب الكناية دالاً على الابتهاج. وأحياناً تشتريك الأذنان في الضحك فتتحركان قليلاً.

وأشدُّ هذه الملامح تعبيراً عن الضحك الفم لأنه إذا صُوِّر الوجه صورتين إحداهما عابسةً والأخرى ضاحكةً وقطعت الصورتان قطعاً نصفياً أفقياً ثم خولفت بين القطعتين السفليتين وألصقت الصورتان بعد المخالفة تبين منهما أن الصورة الضاحكة ما كان الفم الضاحك فيها. ومع ذلك فإن التصوير لا يستطيع أن ينقل لآلاء العين وبريقها.

يُصنّف داروين الضحك في ثلاث مراتب: الابتسام، والضحك المعتدل، والضحك المفرط. ولكن اللغة العربية أكثر مواتاة في تبين أصناف الضحك وأشدُّ دقة في حسن الدلالة عليها. جاء في فقه اللغة للثعالبي ما يلي:

«التبسم أول مراتب الضحك، ثم الإهلاس وهو إخفاؤه^(١)، ثم الافترار والانكلال وهما الضحك الحسن، ثم الكتكتة أشدُّ منهما، ثم القهقهة والقرقرة والكركرة، ثم الاستغراب، ثم الطخطة وهي أن تقول: طبخ طبخ، ثم الإهراق والزهرقة وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب^(٢)».

يضحك المرء بأسباب متعددة. فهو يضحك ببعض التأثيرات الحسية كاللدغدة أو بفعل بعض المخدرات^(٣) وفي بعض الحالات العصبية وبعض الأمراض^(٤). ولكن

(١) بالعامية نقول ضحك بعينه إذا أخفى الضحك.

(٢) ثمة ألفاظ أخرى في اللغة العربية تذكرها المعجمات وكتب اللغة والأدب. انظر مثلاً «المخصص» و«الساق على الساق» فيما هو الفارياق.

(٣) مثل الغاز المضحك وهو أكسيد الآزوتي أو أول أكسيد الآزوت N_2O فإذا استنشقه الإنسان تخدر وسراً وغلب عليه الضحك.

(٤) يُعَلَّل ضحك الإنسان في بعض الحالات العصبية بصرف نصيب من الطاقة العصبية في أسهل طرق المقاومة وهو تقلص بعض العضلات اللطيفة في الوجه. وعند ذلك يكون تفرغاً للشحنة العصبية، فهو بذلك تنفيس وتفريج. وكذلك الأمر في الهزل. وهذا هو السر الذي يربط بين الضحك والبكاء لأن في كل تخفيفاً، فقد يؤدي الشرور الهاجم إلى البكاء، كما قد يضحك الإنسان من الألم. أمّا الأمراض التي تستدعي الضحك فكتوبة الهستيريا. والضحك غب الوقوع على قمة الرأس إنذار خطر. هذا وفي سياق الموت قد تلو وجه المائت رعدة قريبة من الانسامة. وقد يعمد فن المداواة إلى الإضحاك إذ يستعمل الضحك منظفاً للصدر أو لإدخال بعض الأدوية إلى أقاصي الرئة. إلا أن التعميل على ذلك خطر في بعض الأحوال كآفات القلب وذات الجنب والنهاب الصفاق إلخ.

الضَّحِكُ يَتَأْتِي خَاصَّةً مِنَ الْفَرَحِ وَالِابْتِهَاجِ وَالْفَوْزِ وَالِانْتِصَارِ وَالْبِشَارَةِ السَّارَةِ. إِلَّا أَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَضْحَكُ دُونَ أَنْ يَكُونَ فَرِحًا. فَلِلضَّحِكِ أَسْبَابٌ نَفْسِيَّةٌ تَسْتَدْعِيهِ غَيْرُ الْفَرَحِ. نَحْنُ نَضْحَكُ حِينَ نَسْمَعُ نُكْتَةً أَوْ نَادِرَةً أَوْ فُكَاهَةً، وَهَذَا هُوَ التَّنَوُّعُ الَّذِي يَهْمُنُنَا هُنَا وَهُوَ الَّذِي يَحْصُلُ مِنَ الشُّعُورِ بِالْهَزَلِ أَيْ حِينَ يَكُونُ الْمَوْضُوعُ هَزْلِيًّا. حِينَئِذٍ يَدْخُلُ الضَّحِكُ فِي الدِّرَاسَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَنَجِدُ لَهُ قِيَمَةً جَمَالِيَّةً فَنِيَّةً.

هَذَا وَثْمَةٌ أَحْوَالٌ مُوَاتِمَةٌ لِلضَّحِكِ تُسِرُّهُ وَتَحْفَظُ عَلَيْهِ كَالصِّحَّةِ وَالطَّعَامِ الْجَيِّدِ السَّائِغِ الْخَفِيفِ وَالْهَوَاءِ الطَّلَقِ وَالسَّيْرِ وَالْجَوِّ الْوَدِيِّ. وَهِيَ كُلُّهَا أُمُورٌ تُسَيِّرُ طَلَاقَةَ الْفِكْرِ وَعَبَثُهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَأْسِرَهُ شُغْلٌ شَاغِلٌ أَوْ تَسْتَبِدُّ بِهِ حَاجَةٌ مُلْحَةٌ أَوْ أَلَمٌ دَفِينٌ. وَكَذَلِكَ الْجَوُّ الْاجْتِمَاعِيُّ يُقَوِّي الْمِيلَ إِلَى الضَّحِكِ وَيَزِيدُ مِنْ شِدَّتِهِ عَلَى طَرِيقِ الْإِيْحَاءِ وَالْمُحَاكَاةِ وَالْعَدْوَى النَّفْسِيَّةِ. ثُمَّ إِنَّ الظُّفْرَ وَالتَّجَاحَ يُغْرِيَانِ الْفِكْرَ وَيَحْفِزَانِهِ، وَمِنْهُمَا الْإِفْلَاطُ مِنْ خَطَرٍ كَادَ أَنْ يَقَعَ. النَّاسُ الثَّقَلَاءُ قَلَمًا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا ضَحِكُوا كَانَ ضَحِكُهُمْ ثَقِيلًا. يَقُولُ مَلْتُونُ: الْإِيْتِسَامُ نَاشِئٌ عَنِ الْعَقْلِ لَا تَعْرِفُهُ الْعُلُوجُ.

الْثَّرِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ تُجَبِّدُ الْبَشَرَ وَالْبَشَاشَةُ. وَيَسْتَمْسِكُ بِهِمَا الْيَابَانِيُّونَ حَتَّى فِي أَشَدِّ الْحَالَاتِ الشَّخْصِيَّةِ أَلَمًا وَأَسَى. يَبْدُو أَنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ دَلَالَةٌ عَلَى الْخِفَّةِ وَالطَّيْسِ وَقِلَّةِ التَّهْلِيلِ.

وَعَلَى الْعَكْسِ ثَمَّةٌ أَحْوَالٌ عَاقِقَةٌ لِلضَّحِكِ. الْخَيْبَةُ وَالْإِخْفَاقُ يُدْهِبَانِ الرُّوَاهُ، وَيُخَمِّدَانِ جَذْوَةَ النَّفْسِ، وَالْخَوْفُ يَغْيِضُ الْإِبْتِهَاجَ. وَالْأَسَى وَالْحُزْنُ يَسْدِلَانِ السُّتَارَ دُونَ خِفَّةِ الْمَرَحِ. إِنَّ نَسْيَانِ الضَّحِكِ أَكْبَرُ عِلَامَاتِ التَّرَحُّبِ.

لَنَسْتَمِعَ إِلَى أَمِيرِ الضَّحِكِ الْجَاحِظِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ «الْبُخْلَاءُ»، يَشْرَحُ بَعْضَ فِضَائِلِ الضَّحِكِ:

«وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مَوْقِعُهُ مِنْ سُرُورِ النَّفْسِ عَظِيمًا وَمِنْ مَصْلَحَةِ الطَّبَاعِ كَبِيرًا، وَهُوَ شَيْءٌ فِي أَصْلِ الطَّبَاعِ وَفِي أُسَاسِ التَّرْكِيبِ لِأَنَّ الضَّحِكَ أَوَّلُ خَيْرٍ يَظْهَرُ مِنَ الصَّبِيِّ، وَبِهِ تَطْيِبُ نَفْسِهِ، وَعَلَيْهِ يَتَبَتُّ شَحْمُهُ، وَيَكْثُرُ دَمُهُ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ سُرُورِهِ وَمَادَّةُ قُوَّتِهِ.

وَلِفَضْلِ خِصَالِ الضَّحِكِ عِنْدَ الْعَرَبِ تُسَمَّى أَوْلَادُهَا بِالضَّخَاكِ وَبِسَّمَامٍ وَبِطَلَقٍ وَبِطَلِيقٍ. وَقَدْ ضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَزَحَ، وَضَحَكَ الصَّالِحُونَ وَمَزَحُوا. وَإِذَا مَدَحُوا قَالُوا:

= ثُمَّ إِنَّ الضَّحِكَ الْمُتَوَاصِلَ إِذَا أَفْرَطَ وَاشْتَدَّ قَدْ يَجْلِبُ الْمَوْتَ وَلَا سِيمًا عِنْدَ الْأَطْفَالِ وَالشُّبُوحِ. وَيُظَنُّ أَنَّ الْمَوْتَ يَحْصُلُ إِذَا ذَاكَ مِنْ انْقِطَاعِ بَعْضِ الْأَوْعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ فِي الْقَلْبِ.

هو ضحك السنن، وبسام العشيات، وهش إلى الصيف، وذو أريحية واهتزاز. وإذا ذُثوا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهو شتيم المضحك، وهو مكفهر أبدأ، وهو كربه، ومقبض الوجه، وحامض الوجه، وكأثما وجهه بالخل منضوح.

وللضحك موضع وله مقدار. وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد وقصر عنهما أحد صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً. فالتاس لم يعيوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيوا المزح إلا بقدر. ومتى أريد بالمزح النفع؛ وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك صار المزح جدّاً، والضحك وقاراً.

ولقد عمد كثير من المفكرين والفلاسفة الوقورين منذ قديم الأزمان إلى تفهيم ماهية الضحك. وكأنهم كانوا يستغربون أن يضحك الإنسان أو يعجبون له كيف ولم يضحك؟ الضحك يبدو لهم مثلثاً بسر غامض. وأي الأشياء لا يبدو ذا سر غامض في نظر الفلاسفة! ذلك أن للضحك من جهة صفة ما يُدعى في علم الغريزة بالمُنْعَكْس كما يظهر ذلك عند الدغدغة ولكنه من جهة ثانية مُنْعَكْس عامله عقلي نفسي وليس حسياً كما في الدغدغة. وعامله العقلي هذا مُشْتَبِكُ العناصر. تارة يشتمل على خروج عن العادة والمألوف، وطوراً يدل على عيب في الطباع كالغفلة أو الحمق أو البخل وهلم جزاً، وحيناً يَفْجَأُ بمخالفته آداب اللياقة والسلوك، ومرة يؤمى إلى تحقير وهجاء، وهلم جزاً. ولكننا إذا أقبلنا على هذه النظريات الفلسفية التي تلتبس للضحك الهزلي تفسيراً، وجدناها تكاد تشترك جميعاً في بيان أن المضحك يشمل في ثناياه وبين عناصره مُبَايَنَة أو نُشُوزاً.

وليس بين القيم الفنية التي نوهنا بها أو أشرنا إليها ما استرعى انتباه الباحثين واستأثر بأفكارهم وأقلامهم كالضحك بأنواعه. ويتعذر علينا هنا أن نعرض آراء جميع المفكرين منذ الزمن القديم حتى العصر الحديث، ممن بحثوا في المضحك وحاولوا أن يجدوا له تفسيراً جلياً ولكن لا بد من أن نذكر بعض الأمثلة.

كتب أرسطو في كتاب «الببوطيقا» أو «فن الشعر» أن المأساة أو التراجيديا تمثل الناس أعلى ممّا هم، وأنّ المَهْزَلَة أو الكوميديا تمثلهم أسفل ممّا هم في الواقع. فالمضحك يكون جزءاً من القُبْح، وهو عيب خاص أو هو قُبْح لا يُؤْلَم ولا يَضُرُّ. وهكذا يكون القناع الهزلي الذي يلبسه المهرج مضحكاً لأنه تشويه بدون ألم.

ويذكر أبو حيان التّوحيد في «المقابسات» أنّه سأل أستاذه أبا سليمان المَنْطِقِيّ عن الضحك ما هو فأملى عليه فقال:

«الضحك قوة ناشئة بين قوّتي الطّلق والحَيَاثِيَة. وذلك أنّه حالّ النّفس باستِطراف

وارِدَ عليها. وهذا المعنى مُتعلّق بالتَّطَلُّق من جهة. وذلك أنَّ الاسْتِطْرَافَ إِنَّمَا هو تَعَجُّبٌ، والتَّعَجُّبُ هو طَلَبُ السَّبَبِ والعِلَّةِ للأمرِ الوارِدِ. ومن جهة تَتَبُّعِ القُوَّةِ الحيوانِيَّةِ عندما تَنبَعِثُ من النَّفْسِ فَإِنَّهَا إِنَّمَا أَنْ تَتَحَرَّكَ إِلَى دَاخِلٍ، وَإِنَّمَا أَنْ تَتَحَرَّكَ إِلَى خَارِجٍ. وإذا تَحَرَّكَتْ إِلَى خَارِجٍ فَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ دَفْعَةً فيحْدُثُ مِنْهَا الغَضَبُ، وَإِنَّمَا أَوَّلًا فَأَوَّلًا وَبَاغْتِدَالٍ فيحْدُثُ الشُّرُورُ والفَرْحُ، وَإِنَّمَا أَنْ تَتَحَرَّكَ مِنْ خَارِجٍ إِلَى دَاخِلٍ دَفْعَةً فيحْدُثُ مِنْهَا الخَوْفُ. وَإِنَّمَا أَوَّلًا فَأَوَّلًا فيحْدُثُ مِنْهَا الاستِهْوَالُ. وَإِنَّمَا أَنْ تَتَجَاذَبَ مَرَّةً إِلَى دَاخِلٍ وَمَرَّةً إِلَى خَارِجٍ فَتَحْدُثُ مِنْهَا أحوالٌ إحداها الضَّحِكُ عندَ تَجَاذُبِ القُوَّتَيْنِ فِي طَلَبِ السَّبَبِ، فيَحْكُمُ مَرَّةً أَنَّهُ كَذَا وَمَرَّةً أَنَّهُ لَيْسَ كَذَا، وَيَسِيرُ ذَلِكَ فِي الرُّوحِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى العَصَبِ فيَتَحَرَّكَ الحَرَكَتَيْنِ الْمُتَضَادَّتَيْنِ، وتَعْرِضُ مِنْهُ القَهْقَهَةُ فِي الْوَجْهِ لِكثْرَةِ الحَوَاسِّ وتَعَلُّقِ العَصَبِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا^(١).

ولا شَكَّ أَنَّ أمثالَ هؤلاء الفلاسفة الجادِّينَ الوَقُورِينَ عندما يَبْحَثُونَ فِي حَقِيقَةِ الضَّحِكِ وَيَتَبَيَّنُونَ أسبابَهُ يُعِدُّونَنَا عَنْ ظَاهِرَةِ الضَّحِكِ. وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الظَّاهِرَةِ وَتَفْسِيرِهَا الفَلَسَفِيِّ.

ويُشِيرُ أَبُو العَلَاءِ المَعْرِيُّ عَرَضاً فِي مَرثِيَةِ المَشْهُورَةِ إِلَى أَنَّ تَزَاخُمَ الْأَضْدَادِ سَبَبٌ لِلضَّحِكِ:

رَبِّ لِحَدِّ قَدْ صَارَ لِحَدًّا مِرَاراً ضاحِكٍ مِنْ تَزَاخُمِ الْأَضْدَادِ
يَبْدَأُ أَنَّ مُجَرَّدَ التَّضَادِّ لَا يَكْفِي لِلإِضْحَاحِ. وَيَنْبَغِي أَنْ نُقَدِّرَ فِي ذَهَنِ المَعْرِيِّ الَّذِي يُعْمِرُ شَفَتِي اللَّحْدِ ابْتِسَامَتَهُ السُّودَاءَ الحَزِينَةَ أَمراً آخَرَ وهو اختِلَاطُ القِيمِ الرِّفِيعَةِ بِالْقِيمِ الدُّنْيَةِ. فَاللَّحْدُ نَفْسُهُ قَدْ وَارَى الْعَالِمَ وَالْجَاهِلَ وَالْفَاضِلَ وَالسَّافِلَ وَالتَّقِيَّ وَالْفَاتِكَ وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ؛ وَكَمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُخْتَلِفِينَ مُتَفَاوِتِينَ! إِنَّ هَذَا الضَّحِكَ الْمُظْلَمَ تَنْفُجُ بِهِ شَفَتَا اللَّحْدِ لَهُوَ ضِحْكُ الفِيلَسُوفِ الَّذِي فُجِعَ بِصَدِيقِهِ الْفَقِيرِ الَّذِي يَتَأَمَّلُ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ. فَهُوَ فِي مُسْتَهْلٍ مَرثِيَةِ كَأَنَّمَا يُنَوِّهُ بِزَوَالِ كُلِّ شَيْءٍ وَبِتَعَادُلِ الْأُمُورِ كُلِّهَا تِلْقَاءَ ذَلِكَ الزَّوَالِ. إِنَّهُ عِنْدَمَا يُسَوِّي نَوْحَ الْبَاكِي بِتَرْتُّمِ الشَّادِي وَصَوْتِ النَّعِيِّ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ وَبُكَاءَ الْحَمَامَةِ بِغِنَائِهَا يَرِيدُ أَنْ يَنْفِي الْفَرْحَ مِنْ أَصْلِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ. وَهُوَ بِذَلِكَ لَا يَرْتِي صَدِيقَهُ الْمُتَوَفَّى وَإِنَّمَا يَرْتِي الْإِنْسَانِيَّةَ جَمْعَاءَ.

(١) الْمُقَابَسَاتُ نَسْخَةٌ مَخْطُوطَةٌ فِي الْمَكْتَبَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِدَمَشَقَ رَقْمُهَا ٤٨٠٣ عَامَ. أَمَّا الْمُقَابَسَاتُ الْمَطْبُوعَةُ فَمَشْحُونَةٌ بِالْأَخْطَاءِ. وَتَكْفِي مُقَابَلَةُ هَذَا النَّصِّ الْمَأْخُوذِ عَنِ الْمَخْطُوطَةِ بِالنَّصِّ الْمَطْبُوعِ لِيَتَبَيَّنَ لِلْقَارِئِ مَدَى التَّحْرِيفِ الْفَاحِشِ فِي نَصِّ فِلَسْفِيٍّ دَقِيقٍ.

فالفاجعةُ في نفس كلِّ إنسان. وتنتجُه القصيدةُ هذا الاتجاهَ الحزينَ الواسعَ المُشتمِلَ على عناصرِ المأساةِ العامّةِ:

صاح هُذي قبورُنَا تَمَلُّ الرَحـ ب فأيّن القبورُ من عهدِ عادِ
خَفُّفِ الوطءِ ما أَظُنُّ أديمَ الـ أرضِ إلّا من هـذه الأجسادِ

والرثاءُ يمتدُّ إلى الماضي فيتناولُ الآباءَ والأجدادَ في شموله:

وقبيلُ بنا وإن قَدُمَ العهد د هـوانُ الآبَاءِ والأجدادِ
سُرَّ إن أسطَغَت في الهَوَاءِ رُوَيْدًا لا اختيالاً على رُفَاتِ العبادِ

وكما يتّصل الفرخُ أحياناً بالبكاءِ فتدمعُ العينُ في إفراطِ الشرورِ كذلك بالمُقابلِ نجدُ هذا الألمَ الدفينَ الذي تَعَلَّجَ به نفسُ الشاعرِ الفيلسوفِ يتّصل بالصَّحِيحِ المُخيفِ وأيَّ صَحِيحٍ! إنّه انفراجُ أفواهِ اللُحودِ لتلقّي المَوْتى على تَبَائِنِ منازلِهِم واختلافِ أَقدارِهِم وتفاوتِ أعمالِهِم منذ تاريخِ الإنسانيّةِ. ولا ندري هل تشعرُ بِمَجِيئِهِم وذهابِهِم وآلامِهِم تلكَ الكَوَاكِبُ التي هي أيضاً من لقاءِ الردى على ميعاد:

ودفينَ على بقايا دفينِ في طويلِ الأزمانِ والآبادِ
فاسألِ الفرقَدينِ عَمَّن أحسّا من قَبيلِ وأنسا من بلادِ

إلى آخرِ هذا البيانِ يَبْضُ بِعمقِ العاطفةِ المروّعةِ وحيرةِ الفكرِ المَشْدُوهِ الذي يَلْجأُ في النّهايةِ إلى الإذعانِ المحاذِرِ كما ينتهي الموجُ المُصْطَخِبُ في أعماقِ البحارِ مُتَكَسِّراً مُستسلماً إلى السّاحلِ:

والذي حارَتِ البَرِّيّةُ فيه حيوانٌ مستحْدَتٌ من جمادِ
واللَّيْبِ اللَّيْبِ مَنْ لَيْسَ يَغْتـ رُ بكونِ مَصِيرُهُ للفسادِ

لقد اسْتَطَرَدْنَا بعضَ الشَّيءِ في شرحِ جوانِبِ من هذه القصيدةِ القويّةِ على عمد، وذلكَ لكي نُشيرَ إلى أنّ تلكَ القِيمَ التي حَلَّلْنَاهَا وَوَصَفْنَاهَا لا تكونُ دائماً مُتَفَصِّلَةً مُسْتَقْلَلَةً، بل تَبْدُو في بعضِ الأحيان مُشْتَبِكَةً مُتداخِلَةً. وللأشْباكِ والتَّدَاخُلِ هذينِ آثرنا التَّصنيفَ الدَّائِرِيَّ الذي يَشِفُّ عن اتّصالِ جوانِبِ النَّفسِ ببعضها ببعضِها ويبيدها على رَغمِ التَّفَرُّقِ والاختلافِ كلّاً واحداً. وبيتُ أبي العلاءِ كانَ فرصةً انْتَهَزْنَاهَا لبيانِ معنى الصَّحِيحِ عنده وإظهارِ لونِ من اشتباكِ تلكَ القِيمِ وتداخُلِها، وإن كانتِ المَرثيةُ في حدِّ ذاتها بعيدةٌ جدّاً من الصَّحِيحِ مُتَصِلَةٌ بالمأساةِ والرَّوعةِ.

وكتبُ الأدبِ العربيِّ القديمِ أَكثَرُها لا يَخْلُو من بابِ يِبحُثُ في الفُكاهةِ والنَّوادرِ عدا الكُتُبِ المَقْصُورَةِ عليها. وقد صَحِّحَ العربُ القُدَماءُ ما اسْتَطَاعُوا أن يَضْحَكُوا على رَغمِ

الجِدَّة الذي اتَّصفوا به. وألَّف أبو إسحاق الحُصْرِيُّ القَيروانيُّ «ذيل زهر الآداب أو جَمْع الجواهر في المُلح والنَّوادر». وعُنوان هذا الكتاب كافٍ في الدَّلالة على موضوعه. عمدَ المؤلِّف في مُقدِّمته إلى بيان أصولِ المُضحك وشروطه فأشارَ إلى قيمةِ القُح في النَّادرة وذكر أنَّهم «قالوا: إنَّما مَلَح الفرد عند النَّاس لإفراطِ قُبْحه». وكما أنَّ الفنَّ بوجه عامٍّ لا يَقْبَلُ الوَسَط بل يَرُدُّه كذلك لا يَقْبَلُ النَّادرةُ القُتور. ويذكرُ الحُصْرِيُّ القَيروانيُّ قولهم أيضاً: «من التَّوْقِي تركُ الإفراطِ في التَّوْقِي». ويُعقَّب على ذلك بقوله: «وإنَّما الموتُ المُحبَّب والسُّقْمُ المُغبَّب أن تقع النَّادرةُ فاترةً فتخرجُ عن رُتبة الهزل والجِدَّة ودرجة الحرارة والبرد إلخ...»، كما يُورِدُ: «من أمثال البَغدادِيِّين هو أثقلُ من مُغْنٍ وَسِطٍ ومن مُضحك وَسِطٍ».

هذا ويُصنَّف الفيلسوفُ اسبينوزا الضَّحِك في ثلاثة أنواع: الضَّحِك الفيزيولوجيُّ، والضَّحِك الدَّالُّ على الفرح وعلى الشُّعور بالخير، وضَّحِك السُّخْرية والمُزاح. ويرى أنَّ الضَّحِك الأخيرَ إمَّا أن يأتي من خطأ في حسابنا حين نَظُنُّ أنَّ الشَّخص الذي نضحك منه حرٌّ مُختار مع أنَّه في الواقع مُضطرٌّ مُجبرٌ لأنَّ كلَّ شيء صادرٌ عن الله، وإمَّا أن يأتي من نقص في السَّاخر أو المَسخور منه، وذلك أنَّ الذي يُسخرُ منه ويُستهزأُ به إنَّ كان يَسْتَحِقُّ ذلك فهو للرَّحمة أشدُّ استحقاقاً منه للسُّخْرية، وإنَّ كان لا يَسْتَحِقُّ ذلك فالنَّقص قائمٌ في الشَّخص السَّاخر المُستهزأ.

وهكذا نجد أنَّ هذا الفيلسوفَ يُفضي إلى القضاء على الضَّحِك الهزليِّ.

وتكثرُ النَّظريَّات التي تَتفهَّم الضَّحِك في الفلسفة الحديثة. ونجتزئ بالإشارة إلى رأي برغسون فيه فقد كتب هذا المُفكِّر كتاباً صغيراً في هذا الموضوع^(١).

وهو يجد للضَّحِك ثلاثَ صفاتٍ:

١ - إنَّه إنسانيُّ. لقد وجدَ الفلاسفة القدماء أنَّ الضَّحِك خاصَّة الإنسان أو عرضه اللَّازمُ فعرفوا الإنسان بأنَّه حيوانٌ ضاحكٌ (ودعوا هذا التعريف رسماً تاماً وهو ما تركَّب من جنس الشَّيء القريبِ وخواصِّه اللَّازمة). ويزيد عليهم برغسون أنَّه حيوانٌ مُضحكٌ إذ لا يضحك الإنسانُ من الجمادِ ولا من النَّبات ولا من الحيوان. وإذا اتَّفَق أن ضحك من الحيوان أو من غيره فبِمقدار ما يُشبه الإنسانَ في بعضِ الحالات^(٢).

(١) تَرجمه إلى اللُّغة العربيَّة الأستاذان سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم.

(٢) قلَّما يضحك الإنسانُ من غير الإنسانِ ويَتبدَّرُ اللُّهْن هنا بعض المُلح المرويَّة في كتب الأدب =

٢ - الضحك بعيدٌ من الانفعالِ والتأثر، قريبٌ من اللامبالاة. وذلك لأن الضحك عقلي، يضحك المرءُ وصفحة نفسه هادئةً.

٣ - الضحك اجتماعي، المجتمعُ بينه الطبيعيّة. يضحك المرءُ خاصّة إذا كان بين فريقٍ من النَّاس يضحكون، كما يشتدُّ صوتُ الرّعد ويَقَعَقع بين الجبال.

هذه صفاتٌ ثلاثٌ للضحك. ولكن ما منشأ الضحك؟ إن برغسون يجده آتياً من نوع من الصّلافة كالذي يركضُ فيتعثّر ويسقط، وكالخرق في العمل والغفلة والمعاييب التي هي عوائقُ تقفُ دون مرونة الحياة. ثم ينتهي إلى دستورٍ عامٍّ للضحك وهو أنّه «آليّةٌ مُلبّسة للحياة». ويعمدُ بعد صَوْنُ هذا الدّستور إلى بيان تطبيقاتِ المضحك في الأشكال والإشارات والحركات والظروف والكلمات والطّباع. ويستطيع القارئ أن يجد تفصيل ذلك في الكتاب نفسه.

بحَثُ برغسون مكتوبٌ بلغة شائقة تتخلّلها الاستعارات البديعة. قيل عن فنه أنّه رفع الاستعارة من رتبة الإمتاع إلى رتبة الإقناع. وكتاب برغسون في الضحك مُزوّدٌ بتلك الاستعارات الممتعة، وإن كانت في بعض الأحيان مُتكلفة أو ناقضها العلم^(١).

إنّ دستورَ المضحك الذي انتهى برغسون إليه يُشير إلى التّباين بين الآليّة والحياة. وهو جانب من جوانبِ المضحك لا يسوغُ تعميمه ولا يصحّ.

يذكرُ برغسون أنّ الرّاكض إذا تعثّر فسقط كان مُضحكاً، ولهذا غير صحيح، لأنّ التّعثر لا يضحك في كثيرٍ من الأحيان ولا سيّما إذا سقط المتعثّر وجرح جرحاً بليغاً.

= العربي، مثل هذه: كانت أفعى نائمة على حُزْمَةِ شوك فحملها السّيل والأفعى عليها إذ نظرَ إليها ثعلبٌ فقال: مثلُ هذا الملاح يصلحُ لهذه السفينة. أراد ثعلبٌ أن يصعدَ حائطاً فتعلّقَ بعُرسجة فعقرت يده فقال: أنا أخطأتُ لأنّي تعلّقتُ بما يتعلّقُ بكلّ شيء.

قيل للّبغل: من أبوك؟ قال: خالي الفرس... وهلمّ جزاً. إلّا أنّ كلّ شبيه للحيوان بالإنسان أو بالعكس ليس بمضحك بل قد يكون مُوجِهاً بالرقّة كالتّظبي وبالرّوعة كالأسد!

(١) يضرب برغسون في ختام كتابه تشبيهاً قوياً وهو أن الضحك ينشأ في الحياة الاجتماعية كما ينشأ الزبد من اصطفاق الأمواج في البحر، ويرى أن الزبد يتألف من ماء أشد ملوحة وأكثر مرارة من ماء الموج، وكذلك الضحك الفاتر من المرح إذا أقبل عليه الفيلسوف ليتذوقه وجد في مادته مقدراً غير يسير من المرارة. ولكن التحليل الكيموي أثبت أن ماء الزبد أقل ملوحة وأدنى مرارة من ماء الموج نفسه.

وليس الآلي المُلبَس للحياة يضحك دائماً وبالضرورة. بل على العكس قد يُرهب كالجيش عند العرضِ حركته الآلية هي المطلوبة، ولو شدَّ عنها أحدُ الجنودِ فكان مرناً لاستهدف للضحك. وقد تكون الآلية المُلبسة للحياة سبباً للرقة كفوج الرافعات في المسرحِ يَمَنَّ بحركاتٍ مرسومة.

إن عكسَ دستورِ برغسون يصحُّ أيضاً لسببٍ ما تقدّم، فقد يكون المضحك الحياة مُلبسة للآلية.

ثمَّ إن فكرة عدم التأثير في المضحك غيرُ صحيحة، لأنَّ المرءَ يضحك أحياناً ممَّن يحبه، كالأمِّ قد تضحك من ولدها والأب قد يضحك من ابنه حَدَباً عليه ورفقاً به، قد يضحك المرءُ إذن وعينه مُغرورتان بالدموع.

يُفرَّق برغسون بين جانبيين مُتقابلين في المضحك: الحياة من جهة والآلية من جهة ثانية. فالضحك عنده ثأرُ الحرية من الآلية. ثم هو ذا يجدُّ في الضحك صراعاً بين الفرد والمجتمع أي ثأراً للمجتمع من شدوذ الفرد. ولكنَّ في هذا تناقضاً خفياً لأنَّ المجتمع يقرض على الأفراد القسْرَ ويحاول الحدَّ من حريَّاتهم بمقابل العادات الجارية فيه والعرف القائم لديه، وبهذا الاعتبار يبدو الضحك ثأراً للآلية من الحرية.

ثمَّ إننا نجد برغسون يُوسِّع معنى الآلية ومعنى الحياة وفقاً لما يريد أن يطبِّقهما فيه. يستبين لنا من هذا التقدُّم الكفاية في نظرية برغسون التي تبحثُ دلالة المضحك. وعدم الكفاية لهذا لا يمنع من التحليل البارِع الذي صنعه هذا المُفكِّر الكبير في كتابه.

ولو تابَعنا فعرَضنا آراء المُفكِّرين الآخرين في حقيقة الضحك لوجدنا كلاً منها يَمَسُّ جانباً من جوانب تلك الحقيقة دون أن يُحيطَ بها.

ويمكننا أن نقترح رأياً انتقائياً في تعريف الضحك يشتملُ على عناصرٍ مُختلفة أشار إليها المُفكِّرون ومسَّوها فيه، إذا توافرَ بعضها أو جميعها بحسب الأحوالِ حصل الضحك. ويكونُ شأننا في ذلك شأنَ العالم الإيجابي الذي إذا أرادَ أن يُعرِّف التَّيارَ الكهربائيَّ المتَّصل مثلاً وصفَه بالظواهر الجارية لدى انطلاقه كانحرافِ الإبرة المغناطيسية وتحلُّل المادة القابلة للتحليل الكهربائي واستنارة المصباح الضوئي.

وكذلك في حقيقة الضحك. فنحن نرى أنه مُباينةٌ فجأةً الفكر سليمة العاقبة بالنسبة إلى الضاحك، يخفُض الضاحك بها المضحك منه عن رُتبته. إنَّ هذه المُباينة أو التَّضادَّ

أو التُسوز تُشير إليها أكثرُ النظريَّات، وسلامة العاقبة نجد الإشارة إليها منذ القديم في كلام أرسطو حين قال: إِنَّ المُضحك تشوّه غير مُؤلم. ثم إِنَّ خَفَض المَضحوك منه أيّا كان شكلُ هذا الخَفَض شرط يكادُ يوجد في جميع أنواع المُضحك. ذلك أَنَّ الضَّحك يمسُّ عالم القِيم في الصِّميم. ففي كُلِّ ضَحك عبثٌ وهميٌّ أو حقيقيٌّ ببعض القِيم. ولذلك كان الضَّحك ذا وظيفة اجتماعيّة وخلقِيّة، فهو يَرُدُّ المَضحوك منه إلى سِواء السَّيل ويكَبِّح سُذُوذَه كما أشار إلى ذلك برغسون وغيره. ولذلك أمكن في الوقت نفسه أن يكون أيضاً غير خُلقيٍّ إذ قد يُستهزأ بالفضيلة وبالصلاح. فالضَّحك إذن سلاح ذو حدّين: هو وازنٌ اجتماعيٌّ ولكِنَّه قد يعيثُ فساداً في بعض الأحوال.

إن برغسون يذكّر أمثلة كثيرة على المُضحك في كتابه تطبيقياً للدُّستور الذي صاغه وأفضى إليه، يأخذها من الأدب الفرنسيّ وهذا أمرٌ طبيعيٌّ. يَبْدُ أَنَّ القارئ العربيّ تتّثال عليه الأمثلة من تاريخ الأدب العربيّ ولا سيّما في بعض المواضع. لقد ذكرَ الفيلسوفُ الفرنسيّ حين بحث في مُضحك الأشكال أن كُلَّ تشوّه يُمكن للشخص السَّليم أن يُقلِّده فهو مُضحك. هيئَةُ الأحَدب مُضحكة لأنَّه يبدو وكأنَّه مُتكلِّف سوء الوقفة، وكأنَّ حديثه تَصَلَّب قد اعتاده ورضي به. من ذا الذي يقرأ هذا الوصف ولا يذكر قولَ ابن الروميّ:

قَصُرَتْ أَحَادِئُهُ وَطَالَ قَدَالُهُ فكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُضْفَعَا
وَكَأَنَّمَا صِفَعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَنُ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

ويطوّل بنا الكلام لو تَعَقَّبنا برغسون أو أمثاله من الباحثين في تحليلهم وأرَدْنَا أن نُوردَ في مناسباتِ هذا التحليل مُلحاً ونوادرَ من الأدب العربيّ، ولكنَّنا لا بدّ من أن نذكرَ هنا نادرتين مما أورده الجاحظُ في كتابه «البخلاء»:

أمّا الأولى فهي تُظهِر أَنَّ الجاحظَ منذ القديم قد عرفَ للضَّحك صِفته الاجتماعية. هذا عدا ما في القِصّة من جودة عَرَضٍ وحُسنِ بيانٍ وإِضحاكٍ من طبعِ البخيلِ ومحاكَمته وهي هذه: قال الجاحظُ:

«صَحِبَنِي مَحْفُوظُ النَّقَاشِ مِنْ مَسْجِدِ الْجَامِعِ لَيْلاً. فَلَمَّا صَرَتْ قَرَبَ مَنْزِلِهِ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ أَقْرَبَ إِلَى مَسْجِدِ الْجَامِعِ مِنْ مَنْزِلِي، سَأَلَنِي أَنْ أَبَيِّتَ عِنْدَهُ، وَقَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ فِي هَذَا الْمَطَرِ وَالْبَرْدِ، وَمَنْزِلِي مَنْزِلُكَ، وَأَنْتَ فِي ظُلْمَةٍ، وَلَيْسَ مَعَكَ نَارٌ، وَعِنْدِي لَبٌّ لَمْ يَزَلِ النَّاسُ مِثْلَهُ، وَتَمَرُّ نَاهِيكَ بِهِ جُودَةٌ، لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ، فَمِلْتُ مَعَهُ. فَأَبْطَأَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَنِي بِجَامٍ لَبّاً وَطَبَقٍ تَمَرٍ. فَلَمَّا مَدَدْتُ قَالَ: يَا أَبَا عَثْمَانَ، إِنَّهُ لَبٌّ وَغِلْظُهُ، وَهُوَ اللَّيْلُ وَرُكُودُهُ، ثُمَّ لَيْلَةُ مَطَرٍ وَرُطُوبَةٍ. وَأَنْتَ رَجُلٌ قَدْ طَعَنْتَ فِي السَّنِّ، وَلَمْ تَزَلْ تَشْكُو مِنَ الْفَالَجِ طَرَفًا،

وما زال الغليل يُسرِع إليك. وأنت في الأضل لست بصاحبِ عشاء. فإن أكلت اللَّبَّاء ولم تُبالغ كنت لا آكلًا ولا تاركًا، وحرشتَ طباعك ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك. وإن بالغت بُشنا في ليلةٍ سوء من الاهتمامِ بأمرِك، ولم نعدْ لك نبيدًا ولا عسلًا. وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقولَ غداً كان وكان. والله قد وقعتُ بين نايي أسد. لأنِّي لو لم أجتك به، وقد ذكرته لك، قلت، بخلَ به وبدا له فيه. وإن جئتُ به ولم أُحدِّثك منه ولم أذكرك كلَّ ما عليك فيه قلت لم يُشفق عليّ ولم ينصَح، فقد برئتُ إليك من الأمرين جميعاً. فإن شئت فأكلته وموتته، وإن شئت فبعض الاحتمالِ ونومٌ على سلامة.

فما ضحكك قط كضحكي تلك الليلة. ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والشُّرور فيما أظنُّ. ولو كان معي من يقهم طيب ما تكلم به لأنِّي عليّ الضحك أو لقصي عليّ. ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطَرِ مشاركةِ الأصحاب.

والثَّادرة الثانية تُبرز الفرقَ بين عالم الفنِّ وعالم المادَّة والواقع. ولكنَّ هذا الإبراز يتمُّ بطريقة سلبية: فمن المعلوم أنَّ عالم الفنِّ وهو عالم الفكر النَّير أعلى من عالم المادَّة المظلم. ولكنَّ البَخل يَقلب الأمرَ ويُعلي شأنَ المال فوق شأنَ الشعر ويبيعُ الشاعر الذي جاء يمدِّحه كلاماً بكلام، وعلى حدِّ تعبيره هو، كذباً بكذب. فهو يُدني قيمةَ الشعر إلى ما يُعادل كلامه العاديّ الذي هو مُجرَّد وعد كاذب، وهو يُحقِّر نفسه حين لا يستطيع الشعر أن يَخدعه عنها فيعتبره كلاماً مُزجى خالياً من أيِّ قيمةٍ ومن أيِّ صناعةٍ زيادةً على ما في القِصَّة من مُفاجأةٍ تُخرج عن العُرف ومن شُحٍّ يتجسَّد حتى في التعبير.

لقد ذكرنا فيما سلف كلمة جيِّدة للفيلسوف كنت يُفرِّق فيها بين الفنِّ والطبيعة تفرقةً مباشرة، وهنا في هذه القِصَّة تحسُّل التفرقة بينهما بصورة غير مباشرة وعلى طريق الفكاهة. كتب الجاحظ:

«ومثلُّ هذا الحديث ما حدَّثني به محمد بنُ يسيرٍ عن وائلٍ كان بفارس إمَّا أن يكون خالداً (أخا) مهرويه^(١) أو غيره، قال:

بينما هو يوماً في مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره، وقد احتجب بجُبهه، إذ نجم شاعرٌ من بين يديه، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرَّظه ومجَّده. فلما فرغ قال: قد أحسنت. ثمَّ أقبلَ على كاتبه فقال: أعطه عشرة آلاف درهم. ففريح الشاعر فرحاً قد يُستطار له. فلما رأى حاله قال: وإنِّي لأرى هذا القول قد وقعَ منك هذا الموقِع! اجعلها عشرين ألفاً

(١) في بعض النسخِ خو مهرويه.

درهم. فكاد الشاعر يخرج من جلده. فلما رأى فرحه قد أضعف قال: وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول أعطه يا فلان أربعين ألفاً. فكاد الفرح يقتله.

فلما رجعت إليه نفسه قال له: أنت، جعلت فداك! رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدّدتني في الجائزة، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر^(١). ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان الله! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً، تأمر له بأربعين ألف درهم؟! قال: وتريد أن تعطيه شيئاً؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بُدّ؟ قال: يا أحمق! إنما هذا رجل سرّنا بكلام، وسرّناه بكلام. هو حين زعم أنني أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لساني أقطع من السيف، وأن أمري أنفذ من السنان، جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب، ولكنه سرّنا حين كذب لنا، فنحن أيضاً نسرّه بالقول ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً. فيكون كذب بكذب، وقول بقول. فإما أن يكون كذب يصدق وقول يفعل فهذا هو الخسران المبين الذي ما سمعنت به^(٢).

هذا ونعتقد أن القارئ قدّر مهارة الجاحظ في عرضه القصة ولم تذهب عليه من خصائص بيانها هذه الجملة على لسان الوالي: «جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى بيتي» وهي تشير إلى أي مدى كانت الحياة المادية تستأثر به وتستأسره وتشغل عليه فكره وحواسه ويده وتملؤه حرصاً واستمساكاً وحجاً للتملك يدك عليه قوله «في يدي» و«إلى بيتي». وأمثال هذا الوالي بين جمهرة الناس من كل طبقة كثير. ولكن مثل الجاحظ في غمار الأجيال نادر قليل.

إن عالم الضحك عالم واسع لم نجل إلا ملامح عامة منه. وهو كالبحر هازج الجنبات، مزيد الأمواج، صحابها، يمتد من جانب حتى يصل بالملحة والتأدرة المحببة اللطيفة الطريفة إلى عالم الملاحة والظرف والرقة، ويمتد من جانب آخر حتى يصل بالتهكم والهجاء والسخرية إلى عالم المأساة والرؤعة، ويشتمل فيما بين ذلك على ألوان من الابتسام وصنوف من الضحك متفاوتة في درجات الخفة والثقل، ومقادير الحلاوة والمرارة، ومراتب الرفق والعنف، وعناصر الفكر والعاطفة والنشاط، وأساليب التلميح والتصریح، وما إلى ذلك من طيوف وجواء وأفوايه وطُيوب.

(١) في بعض النسخ الشكر له.

(٢) في بعض النسخ «الذي سمعنت به».

وما نَوَّهنا به من اتِّساعِ عالمِ الضَّحِكِ واقتصارِنا على إبرازِ ملامحه العامَّةِ يَنْطَبِقُ أيضاً على بَقِيَّةِ القِيَمِ الجَمالِيَّةِ الأَصليَّةِ التي سَلَفَ بَيانُها. وهي في جُمليتها أربَعٌ كما ذَكَرنا بعددِ الجهاتِ الأربَعِ، ويُمكنُ أن يَتَفَرَّعَ عنها قِيَمٌ إضافيَّةٌ كثيرةٌ، قد يَشْتَبِكُ بعضها ببعضٍ، وقد تَسْتَقِلُّ وتَنفَصِلُ. ولعلَّ هذا الشَّرْحَ المُتقدِّمَ المُوجَزَ المُستفيضَ يكونُ لنا عَوْناً ولو بعضَ الشَّيءِ في بُحوثنا المُقبِلَةِ، ولا سيَّما في دراسةِ تطوُّرِ الشُّعرِ العربيِّ.

مَلامِح مِن أَطْوَارِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ

لا يُعْجِبُكَ مِنْ خُطِيبٍ خُطْبَةٌ حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْكَلَامِ أَصِيلاً
إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاً
منسوبان إلى الأخطل

ماضي الشعر العربيّ طويلٌ وواسعٌ مُشْتَبِك. ولقد درسَ مؤرِّخو الأدب تطوُّرَ الشعر العربيّ دراسةً مُتفاوتةً تترجَّح بين البساطة والعُمق، وجَرَوْا في الغالبِ على ما جَرى عليه القُدماء من نسبةِ الشعراء إلى العُصور التي عاشوا في عُصُوبِها، أو الأماكن التي نشؤوا في ربوعها، ففرَّقوا بين شعراء الجاهليَّة والمُخضرمين وشعراء الدَّولة الأمويَّة وشعراء الدَّولة العبَّاسيَّة وهلمَّ جرَّاء، وتكلَّموا في الأدبِ الأندلسيِّ كما تكلَّموا في شعراء الشَّام وغير ذلك، أو صنَّفوهم بحسب الأغراض التي تناوَلها الشعراء في أشعارهم فدَعَوْهم بالغَزَلين والسيَّاسيين وشعراء البلاطِ وأمثالهم، أو عَمَدوا إلى تصنيفهم في طبقاتٍ وفُق درجاتٍ الإِجَادَةِ أو التَّقْدِيمِ الزَّمَنِيِّ وأشباه ذلك. وَلَئِنْ ذَهَبَ الْمُفَكِّرون القُدماءُ هَذَا المذهبَ في دراسةِ الشعراء وتصنيفهم فلا تُهمُّهم كانوا قَرِيبِي العَهْدِ بِهِمْ، لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَجَاوَزُوا ذَلِكَ العَهْدَ ولا الوَشَائِج التي تَصِلُهُمْ بِهِ. والشَّعْرُ وَإِنْ تَطَوَّرَ إِلَّا أَنَّ هَذَا التَّطَوُّرَ كَانَ بَطِيئاً وَلَكِنَّهُ كَانَ حَقِيقِيّاً وَعَمِيقاً. وَنَحْنُ سَنُحَاوِلُ أَنْ نُبْرِزَ مَلامِحَ واضِحَةٍ مِنْ هَذَا التَّطَوُّرِ العَمِيقِ الَّذِي مَسَّ بَنِيَّةَ الشعر العربيّ في خِلالِ عَصُورِهِ السَّالِفَةِ.

إِنَّ ماضِي الشعر بوصفه ماضياً قد تَمَّ وانفَصَلَ. وَلَكِنَّ ذَلِكَ الماضِي كَانَ مُتَّصِلاً ومُلتَصِقاً بالمراحلِ التَّارِيخِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ التي مَرَّ بِهَا اتِّصَالاً وَالتِّصَاقَ عَمِيقِينَ. فَهُوَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لا يَزَالُ قائماً في الحَاضِرِ ومُلابِساً لَهُ تُخَامِرُهُ رُوحُهُ وَتَكْمُنُ فِيهِ وَتَسْتَسِرُّ فِي ثَنَائِهِ.

ثُمَّ إِنَّ ماضِي الشعر بوصفه ماضياً لا نَسْتَطِيعُ فِيهِ تَأْثِيراً ولا لَهُ تَغْيِيراً كَشَانِ كُلِّ ماضٍ وَقَعَ وَتَمَّ وانقَضَى وانفَصَلَ. وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَبْدُلَ وَنَغَيِّرَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الوَعْيِ والإِدْرَاكِ وَمِنْ جِهَةِ الفَهِمِ والتَّأْوِيلِ والشَّرْحِ والتَّفْسِيرِ. مِثْلُنَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ الشَّخْصِ فَهُوَ

يستفيد من تجاربه السابقة في تنظيم حاضره وتوجيه مستقبله ولكنه بالخبرة التي يكتسبها والمعرفة التي يُحيط بها والاتصالات التي يتعرض لها والتجارب التي يُزاولها إذا نظر إلى ماضيه فهم من جديد مغزى الحوادث التي مرّ بها وأحاط بفحواها ووعى معناها وأدرك تأويلها وعلم تعليلها أو زاد على الأقل علمه بها. وزيادة فهم المرء لتاريخ حياته ولتجاربه السابقة بمثابة الثور الذي يُضيء بين يديه سبيله الذي يسلكه.

إنّ علاقة الماضي والحاضر والمستقبل أشدّ اشتباكاً وأعمقّ اتِّحاماً ممّا يتصوّر كثير من الناس.

وكذلك الشعر العربيّ إذا نظرنا إلى عُصوره المتطاولة التي مرّ بها نستطيع بالخبرة العلميّة التي قد تتزوّد بها أن نتعرّف خطوط تطوّره الكبرى ونتفهّم معنى هذا التطوّر. وعندئذ يزداد إدراكنا للمراحل الأدبيّة السالفة كما يزداد إدراكنا للمرحلة الأدبيّة الحاضرة التي نعيشها، ويَجُود استشفافنا للمستقبل الآتي القريب الذي نُطلّ عليه. بل إنّ ذلك يُخوّلنا أن نكون أكثر سيطرة على هذا المستقبل الجديد وأقوى توجيهاً له.

إنّ بين الفنون جميعها أواصر عميقة وشائج خفيّة وصلاتٍ نسب بحثها المُفكّرون الحديثون وأبانوا أطرافاً وجوانب منها. وكذلك في تطوّر الفنون خطوطٌ مُتشابهة كبرى. فدراسة تاريخ طائفة من هذه الفنون يَجُوز أن يُلقي أضواءً على تاريخ طائفة أخرى منها ولو تَفاوَت هذه الفنون في مَوَضعاتها وأغراضها تَفاوُتاً كبيراً.

ولذلك إذا أردنا أن ندرُس تطوّر فنّ إنسانيّ ضخمٍ واسعٍ ومُتعدّد المراحل والعُصور كالشعر العربيّ فلربّما استطعنا أن نبيّن خطوط ذلك التطوّر من تاريخ فنّ آخر عالميّ أجنبيّ كفنّ العمارة أو النحت أو التصوير مثلاً.

والذي أقصد إليه ههنا هو بيان ما ذكره مؤرّخو الفنون في إبراز نموذج خاصّ له سماته وخصائصه في فنون العمارة والنحت والتصوير دَعَوْه بفنّ الباروك إلى جانب الفنّ الاتباعيّ المدرسيّ المُسمّى بالكلاسيكيّ.

ولا غرابة في هذا التّقريب بين فنّ الشعر العربيّ وبين فنون العمارة والنحت والتصوير الغربيّة لأنّ الشعر العربيّ بوصفه فنّاً قد تطوّر في عُصوره السالفة ما شاء له التطوّر ولأنّ التّقريب بين أمور تبدو بحسب الظّاهر مُتباعدة هو أساس الكشف العلميّ.

ألَسنا نرى العالمَ الكيمويّ لا يُفرّق بين لحاء الشّجر والورق والثّياب القطنيّة لأنّ القسم الأكبر منها جميعاً إنّما يتألّف من مادّة السّليلوز؟! وهو كذلك لا يُفرّق بين الفحم

والماس ولو اختلفا في القيمة والمظهر لأنهما يتألفان من شبه معدن واحد. ثم إنه كذلك يُقرب مثلاً بين الذهب والزئبق المتجاورين في تصنيف مندلييف وذلك لعدم اختلافهما إلا بأويل واحد قائم في النواة.

بل هو لا يُفَرِّق بين الذرات جميعها إلا بعدد البروتونات والنيوترونات في نواها أو الأوتيلات والأوتيمات كما ندعوها نحن وهلمَّ جراً^(١).

وكذلك الفن يُقرب بالتشبيه والاستعارة والمجاز بين أمور متباعدة ليُفْضِي من هذا التقريب إلى الإمتاع الفني وإلا فالفرق بين كبير بين الورد ووجنات الحبيب وبين الترجس وعينه وبين الظبي ورشاقتة وبين الدر وبهائه إلى ما هناك من اعتبارات مُتَفَاوِة.

ولذلك لا بد لنا هنا، لإيضاح تطوُّر الشعر العربي في مراحل السَّابِقة وإبراز خُطُوط هذا التطوُّر، من أن نتفهَّم في البداية مُوجِزاً من تطوُّر فنون العمارة والنحت والتَّصْوِير، ومعنى النَّمُوذَج الاتباعي الكلاسيكي فيها من جهة ومعنى نَمُوذَج الباروك فيها من جهة ثانية. فإذا تمَّ لنا ذلك رَجَعْنَا إلى الشعر العربي لنتفهَّم تطوُّره الخاص.

(١) الأويل تصغير الأول مُقابل البروتون والأوَيْم مُصْطَلَح اقترحناه لترجمة النوترون. واللفظ مأخوذ من الأويل مع إبدال الميم المأخوذ من المُعْتَدِل بِاللَّام. وفي سوريه كنَّا نقول الجوهَر الفرد بدلاً من الذَّرة.

الطَّور الاتِّباعيُّ والطَّور البرَّاق :

إنَّ لفظ الباروك شاعَ في السَّنين الأخيرة في تاريخ الفنون . ومع شهرته وشُيوعه وكثرة استعماله نجدُ مؤرَّخي الفنون يَختلفون في تحديدِ معناه . وفي عرض اختلافهم هذا إبرازٌ لما نريدُ بيانه في هذا المجال .

لفظ الباروك عندهم يُمكن أن يُطلق على ثلاثة أمورٍ : على عصرٍ مُسمًى ، وعلى أسلوبٍ فنيٍّ ، وعلى حالةٍ أو مرحلةٍ من مَراحل الأسلوب الفنيِّ .

١ - فحين يُطلَق على عصرٍ ، يُراد به العصرُ الذي تلا مَجْمَع ترانت الدِّيني^(١) والذي يَبْدأُ بنهاية القرن السَّادسَ عشرَ وَيَسْتغْرِقُ القرن السَّابعَ عشرَ كُلَّهُ ويمتدُّ حتى أوائل القرن الثَّامنَ عشرَ وهو حين يُطلَق على هذا العصرِ إنَّما يَقْصِدُ منه الفنُّ الذي ازدهرَ في إِيَّانِهِ .

عصرُ الباروك هذا بفنِّه يُخَالِفُ فنَّ عصرِ النَّهضة ذا النَّزعة الإنسانيَّة المُستَقاة من أصولٍ وثنيَّة ، ويُخَالِفُ فنَّ العصورِ الوُسطى البسيطِ المألوف . تَشْتَبِكُ في فنِّ الباروك عناصرُ البطولة والصُّوفيَّة والظُّفر .

De Michel Ange à Tiepolo 1911

(١) انظر مؤرخ الفن ريمون Reymond في كتابه :

ومؤرخ الفن فابسباخ Weisbach في كتابه : Der Barock als Kunst der Gegenreformation, Berlin, 1921.

وفي كتابه أيضاً : Die Kunst des Barocks in Italien, Frankreich, Deutschland und Spanien, Berlin, 1924

L'art religieux après le Concile de Trente 1932

Male, مال

هذا ولفظ الباروك في اللُّغات الاجنبيَّة يأتي اسماً لهذا النوع من الفنِّ ويأتي وصفاً له وقد استعملناه في العربيَّة بمثابة الاسم .

٢ - ثم إنَّ الباروك عند باحثين آخرين^(١) أسلوبٌ فنيٌّ لا يختصُّ بعصرٍ دون عصرٍ بل هو يوجد في مختلف الأزمنة. وهؤلاء الباحثون إنما يطبق تحليلهم خاصّة على التصوير مع أنهم يريدون تحليلهم عامّاً. وكلُّ أثر فنيٍّ في رأيهم لا بدّ له من أن يمتّ بنسبه إلى أحد نموذجين:

إمّا أن يكون خطيّاً،	وإمّا أن يكون تصويريّاً،
سطحاً مُستويّاً	أو ذا عمق
شكلاً مُغلَقاً	أو شكلاً مُفتوحاً
مُتعدّداً	أو ذا وحدة
ذا إضاءة مُطلَقة	أو ذا إضاءة نسبيّة.

فالفنُّ الاتِّباعيُّ أو الكلاسيكيُّ هو الذي تغلب العناصر الخمسة الأولى فيه، وهي الخطُّ المُتّصل بالرَّسْم الدَّقِيق، والاستواء، والشَّكل المُغلَق، والتَّعدّد، والإضاءة المُطلَقة. وفنُّ الباروك ما غلبت فيه العناصر الخمسة الأخرى المُقابِلة وهي الصِّفَة التَّصويريّة، والعمق، والشَّكل المُفتّح، والوحدة، والإضاءة النّسبيّة.

ويرى باحثون آخرون في هذا السَّبيل أنَّ الباروك شيءٌ أكثر من أسلوب^(٢)، أنّه حالة فكريّة خاصّة تظهر في بعض العُصور لدى بعض الفنّانين. فالأسلوب الاتِّباعيُّ قائمٌ على الدِّقَّة والإحكام والمُحاكاة والاتِّزان الرّصين على حين أنَّ الباروك موسيقى وجُمُوح وحيويّة مُتفجّرة.

الباروك أخيراً مرحلةٌ من مراحل تطوُّر كلِّ أسلوبٍ فنيٍّ. فالمرحلة الاتِّباعية ومرحلة الباروك حالتان تتعاقبان في كلِّ أسلوب. في المرحلة الاتِّباعيّة يكون الانسجام تامّاً بين عناصر الفنِّ المُختلفة، أمّا في مرحلة الباروك فلا يتهيأ هذا الانسجام^(٣).

(١) مؤرّخ الفن فولفيلين Wölfflin في كتابه: Kunstgeschichtliche Grundbegriffe, München 1915 ثم في طبعة الكتاب الثامنة 1943

(٢) المؤرّخ الاسباني أُوخينيُو دورس Eugenio d'Ors في كتابه المُترجم إلى الفرنسيّة بعنوان Du Baroque, 1935

(٣) نجد هنا أيضاً فولفيلين في كتابيّهِ الآنفين. وقد تناوَل الفكرة فوسيون الفرنسيُّ في كتابه «حياة الأشكال»: Focillon. La vie des formes, 1936 ويرى أنَّ كلَّ أسلوب يمرُّ بثلاث حالات: الحالة الأولى التكوينيّة، والحالة الاتِّباعيّة، والباروك. =

بعد هذا التلخيص الموجز لمعاني الباروك أبحث أن أعرض لمشكلة هذا اللفظ اللغوي. فهو مستعمل في اللغات الأوروبية كلها. وقد نقّب عن أصله العلماء فلم يهتدوا، وذهبت محاولاتهم عبثاً. وكل ما يعرفونه هو أنه مأخوذ عن اللغة الإسبانية، أو عن اللغة البرتغالية، ومعناه الأصلي في هاتين اللغتين الشيء المزخرف أو اللامع أو الجوهرة غير المنتظمة. وقد حاولنا أن نعرّب هذا اللفظ أو نترجمه أو ننقله إلى اللغة العربية وذلك لأهميته في تاريخ الفنون ولشيوخ استعماله في اللغات الحديثة، ونظن أننا قد عثرنا في محاولتنا هذه على أصله العربي الحقيقي الذي انتقل إلى اللغتين الإسبانية والبرتغالية. فنحن نرى أن اللفظ الأجنبي إنما انحدر من لفظ البراق العربي ولا سيما أن اللفظين الأجنبيين البرتغالي والإسباني يشتملان على راء مكررة^(١). ولعل مؤرخي الفن يُشيدون في كتبهم المقبلة إلى أصل الكلمة العربي بعد حيرتهم الطويلة. أمّا لفظ الكلاسيكي فهو آت كما هو معروف من لفظ Class, classe، ومعناه الفصل أو المدرسة. ويُرَادُ به في الأصل النموذج يُدرّس ليُحتذى ويُتبع. ولكنه يتخصّص أيضاً بالمعنى الذي شرحناه عند مقابلته بالفرن البراق.

نأتي الآن بعد هذه المقدمة الطويلة الاستطردائية التي لم يكن لنا بدّ منها إلى دراسة التطور الذي حصل في الشعر العربي، ونحاول أن نُبرز في خلال عصوره الأسلوب الاتباعي والأسلوب البراق حسب الإيضاحات السابقة، ونعتمد في ذلك على دلالات الألفاظ خاصة. فالألفاظ بتنوع دلالاتها ويمدّ دقة هذه الدلالات عند الاستعمال وبمقدار ما يؤاكبها من إحياء تقابل الخطوط والألوان وإغلاق الأشكال وانفتاحها وما شابه ذلك.

فالشعر الجاهلي نموذج تام للفرن الاتباعي. ويأتي زهير بن أبي سلمى في طبيعة الشعراء الاتباعيين. لتأمل في شعر هذا الشاعر الكبير نجد ألفاظه التي يستعملها تعني معانيها بالضبط بلا زيادة ولا نقصان. فدلالة ألفاظه دقيقة. مثله في ذلك مثل الرسام الذي يرسم الشكل فيولي اهتمامه الخط الدقيق الذي يحدّ جوانب الشكل، أو مثله مثل النحات الذي يعنى بصقل تمثاله ومناسبه التامة للموضوع الذي يمثله ويُسَخِّصه. ونشعر من خلال فن زهير باتزان رصين وتناسق صميم وإتلاف عميق وهُدوء مطمئن وأداء مُحكَم وتجانس في التركيب وأكاد أقول تجانس في الإضاءة. الفكرة لقيت عنده التعبير المطابق لها تماماً،

P. Lavedan, Histoire de l'art, P. U. F. 1950

انظر أيضاً لبحث الباروك كتاب:

Encyclopedia of the Arts, edited by Runes and Schrikel. في baroque لفظ

Barrueco, barroco.

(١)

والصُّورة مَلَأَتْ بالضَّبْط شكلها المُلَائم. ولهذا يَتَّسِم هذا النَّمُودَجُ الشَّعْرِيُّ بصفة الجمال حين يَتَطابَق المعنى والشَّكل تماماً وَيَأْتِلِفَانِ على حَدِّ تعبير الفيلسوفِ الأَلماني هِغَل. ولعلَّ المِثَال يُوضِح ما نَقْصِدُ إليه. أَذْكَرُ هُنا قِطْعَتَيْنِ لَزَهِيرٍ لا أَكاد أَجد لَهِنَّ مِثِلاً في جمال الشَّعر الكلاسيكيِّ برغم قِدَمِهما إِذِ ترجعانِ إِلى أربعةَ عَشَرَ قرناً من قِبل وِبرغم اختلاف العادات والتَّعابير وأنماط الحياة. ونحن مع ذلك كُلِّهِ نَسْتَطِيعُ بِشيءٍ من التَّأَمُّلِ أَنْ نَتَمَلَّى جمالهما وَأَنْ نَنفِذَ إِلى ما فيهما من أداء كامل الصَّنعة وَأَنْ نَتَبَيَّنَ دلالات الألفاظ فيهما مع أَنَّ بعضاً من هذه الألفاظ أَصبحَ غيرَ مُستعمَلٍ.

أَمَّا القِطْعَةُ الأُولَى فهي مأخوذة من مُعلِّقته المَشهُورَةِ يَذْكَرُ فيها أَحبَّابَه ورحلتهم حين يَقِفُ بالأَطلالِ التي تَرَحَّلُوا عنها بعد عِشرينَ حِجَّةً، فَتُطِيفُ به الأحلام وَيَتَبَّعُهُمْ في تلك الرِّحْلَةَ ماراً بِخِيالِهِ معهم بالأَماكنِ التي مرُّوا بها، فهو يُعَدِّدها بِأَسْمائِها لِلتَّعْيِينِ والدَّفْعَةِ كجُرْثُمٍ والقَنانِ والشُّوبانِ ووادي الرِّسِّ. كما يَشِيرُ إِلى منازلهم التي نزلوها والمُخَيَّماتِ التي خَيَّمُوا فيها. وأَسْماءُ الأَماكنِ تلكِ التي يَذْكَرُها رَبِّمًا ضِيقَنا بِها في عِصرِنا الحَدِيثِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ نَتَصَوَّرَ وَقَعَهَا عند السَّامِعِينَ إِذِ ذاكَ لِأَنَّها كانت بِمَنْزِلَةِ المُتَنَزِّهاتِ عِندَنا، فهي جَمِيلَةٌ الوَقْعِ والأَثَرِ لما تَسْتَدْعِيهِ من صُورٍ مَعْرُوفَةٍ في ذلكِ العَهدِ. ثُمَّ هو يَصِفُ بالضَّبْطِ الأنماطَ الكَرِيمَةَ التي فَرَشوها على الطَّعائِنِ والكِللِ الوردِيَّةِ الأَلوانِ وَيَذْكَرُ الرِّحالَ الواسِعَةَ الجَدِيدَةَ المُطَرَّزَةَ المَعْرُوضَةَ تحت الهِوَادِجِ، ولا يَنْسَى حَرَكَةَ الدَّلَالِ النَّاعِمِ تَتَنِي بِعُضْ الشَّيْءِ قُدُودَ الأَحْبابِ وَهِنَّ يَمْضِينَ لِطِيبَتِهِنَّ في الهِوَادِجِ، ولا ألوانَ الصُّوفِ الأَحْمَرِ المَصْبُوغِ الَّذِي كانَ يَبْقَى فُتَاتٌ مِنْهُ في كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلَتْهُ، ولا لونَ الماءِ الصَّافِي الأزرقِ غيرَ المُعَكَّرِ الَّذِي خَيَّمَنَ عِنْدَهُ في نَهايةِ الشُّوطِ:

تَحْمَلْنَ بِالْعِلياءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ	تَبْصُرُ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعائِنِ
وَرادِ حِواشِيها مُشاكِهَةَ السَّدَمِ	عَلَوْنَ بِأَنْماطٍ عِناقٍ وَكِلَّةِ
وَكَمِ بِالقَنانِ مِنْ مُحَلٍّ وَمُحَرِّمِ	جَعَلْنَ القَنانَ عَنِ يَمِينِ وَحَزَنَ
عَلَى كُلِّ قِنيٍّ قَشِيبٍ وَمُقَامِ	ظَهَرْنَ مِنَ الشُّوبانِ ثُمَّ جَزَعَنَّهُ
عَلِيهِنَّ دُلُّ النَّاعِمِ المُتَنَعِّمِ	وَوَرَّكْنَ فِي الشُّوبانِ يعلُونَ مَتْنَهُ
نَزَلْنَ بِهِ حَبِّ الفِنا لَمْ يُحْطَمِ	كَأَنَّ فُتاتِ العِهنِ فِي كُلِّ مَنْزِلِ
فَهُنَّ ووادي الرِّسِّ كَاليدِ لِلقَمِ	بَكْرُنَ بِكَوراً وَاشْتَحَرْنَ بِشُحرةِ
وَضَعْنَ عِصْيَ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ	فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ
أَنِيقَ لَعِينِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ	وَفِيهِنَّ مَلهى لِلصَّديقِ وَمَنْظَرِ
عَلَيْهِ خَيالاتُ الأَحَبَّةِ يَحْلِمِ	تُذَكِّرُنِي الأَحلامُ لَيْلى وَمَنْ تُطِفِ

والقطعة الثانية من قصيدة مشهورة يصف فيها الصيد، ليست أقلّ جمالاً من مُعلّفته، يذكرُ حين كانوا يبحثون بجُهد عن الطرائد إذا بُغلامهم يقتربُ برفقٍ ليعلنَ لهم أنّه قد لمح شيئاً على مقربة منهم في مجارٍ للسَّيل طال النَّبات فيها واشتدَّ حتى ضرب إلى السَّواد، وتلك الشَّياء ثلاثُ أَثْنٍ وَحَشِيَّةٍ ومَعَهَا عَيْرُهَا الَّذِي تَلَوَّنَتْ شِفَتَاهُ بِالْخَضِيرِ (الكلوروفيل) من تَنَاوُلِهِ ذَلِكَ النَّبَاتِ الْكَثِيفِ، ثُمَّ يَصِفُ مُدَاكَرَتَهُمْ كَيْفَ يَطَارِدُونَ حِمَارَ الْوَحْشِ هَذَا دُونَ أَثْنِهِ اخْتِلَاً أَمْ مُصَاوَلَةً وَجَهْرًا؟ وَكَانَ الصَّيَّادُ مِنْ قَبْلِهِمْ صَادُوا الْجِحَاشَ الصَّغَارَ وَأَعْجَزَهُم الْعَيْرُ. ثُمَّ يَصِفُ الْجَوَادَ الْأَرْنَ النَّشِيطَ الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ لَصِيدِ هَذَا الْمِسْحَلِ، كَمَا يَدْعُوهُ، جَهْرًا وَمُصَاوَلَةً، وَكَيْفَ مَضَى الْوَلِيدُ عَلَى ظَهْرِ هَذَا الْجَوَادِ كَدْفَعَةِ الْمَطَرِ الْمُفَاجِئَةِ تَجَرَّفُ الْأَرْضَ بَانْهَمَارِهَا السَّرِيعِ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَلَى بَعْدِ فَيَصُوِّرُ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ بَبَيَانِهِ تَصْوِيرًا أَدَقَّ مِنْ تَصْوِيرِ الْعَدْسَةِ لَهُ، تَثِيرُ الشَّيْءِ الْحَصَا مِنْ شِدَّةِ الْعَذْوِ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ بِهَا، أَوَائِلُهُ تَنْصَبُّ صَائِبَةً أَنْصَابًا وَتَوَالِيهِ فِي أَقْصَى السَّرْعَةِ^(١):

<p>يَدِبُّ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ بُسْتَأْسِدَ الْقَرِيَانِ حُوءَ مَسَائِلِهِ قَدْ اخْضَرَ مِنْ لَسَنِ الْغَمِيرِ جَحَافِلُهُ فَلَمْ يَتَّقْ إِلَّا نَفْسَهُ وَحَلَائِلُهُ أَنْخِثِلُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوِلُهُ يَزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَتُزَاوِلُهُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنْامِلُهُ عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٍ مَقَاصِلُهُ وَمَا هُوَ فِيهِ عَنْ وَصَاتِي شَاغِلُهُ وَالَا تُضَيِّعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ كَشُؤْبُوبٍ غَيْثٍ يَحْفِشُ الْأُكْمَ وَابِلُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَّةً هُوَ حَامِلُهُ سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ عَلَى رَغْمِهِ يَذْمِي نَسَاءً وَقَائِلُهُ</p>	<p>فَبَيْنَا نَبْغِي الصَّيْدَ جَاءَ غَلَامُنَا فَقَالَ شَيْءًا رَاتِعَاتٍ بِقَفَرَةٍ ثَلَاثَ كَأَقْوَاسِ السَّرَّاءِ وَمِسْحَلٍ وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَقَالَ أَمِيرِي مَا تَرَى رَأْيِي مَا نَرَى فَبَثْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا وَنَضْرِبُهُ حَتَّى اِطْمَأَنَّ قَدَائِلُهُ وَمُلْجَمُنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَدَائِلُهُ فَلَأَيًّا بَلَأِيٍّ مَا حَمَلْنَا وَلِيدَنَا وَقُلْتُ لَهُ سِدْدٌ وَأَبْصُرْ طَرِيقَهُ وَقُلْتُ تَعْلَمُ أَنْ لِلصَّيْدِ غُرَّةً فَتَبَّعَ أَثَارَ الشَّيْءِ وَلِيدُنَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ يُثْرَنُ الْحَصَا فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونَ إِيَّاهُ</p>
---	---

(١) انظر هذه الأبيات في شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لتعلب، دار الكتب المصرية ١٣٦٣ هـ
١٩٤٤ م، والنسخة المصورة عنها (وزارة الثقافة والارشاد القومي) ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م.

نحن من هذه القطعة أمام رسم خطي دقيق تام الأداء متقن التعبير حسن التلوين،
يعتمد حتى إلى صوت انطلاق الجواد وحفشه الأرض فيسجل كل ذلك دون زيادة ولا
نقص حيث كل كلمة تعطي دلالتها كاملة ولا سيما في هذا البيت الذي يصور حركة انتهت
منذ حوالى أربعة عشر قرناً ولا نزال نرى فيها الشياة مذكورة تعدو بسرعة كبيرة والجواد
الذي عليه الغلام يطاردُها ويكاد يُسيطر عليها:

يُمرّن الحصا في وجهه وهو لاحق سِرَاعَ تَوَالِيهِ صِيَابٍ أَوَائِلِهِ
تعالوا معي الآن نترك زهيراً وشعراء الجاهلية جملةً ونَتَخِطُّ القرون حتى نُفْضِي إلى
عصرٍ ازدهر وتألّق فيه الشعر الذي وصفناه بالباروك وتأمّل فنّاً أكبر مُثْلِيهِ وأعظمهم على
الإطلاق أبو تمام، نجد أنّ الأمر قد تغيّر في شعر هذا الشاعر العظيم. فالألفاظ هنا لا
تؤدي دلالتها ومعانيها بالضبط بل هي تَطْمَح إلى شيء أكثر. إنّها أصبحت تُستعملُ لا
لمعانيها الموضوعية لها بالتدقيق بل لتناسيبها ومراعاة نظائرها وأضدادها. المعنى الشعريُّ
العالم لا يحصل كما في الرسم الدقيق من اتصال هذه الدلالات الجزئية بعضها ببعض بدقة
ولطف واستمرار بل من تقاطع هذه الدلالات تقاطعاً عفيفاً متضاداً في كثير من الأحيان.
هنا لا يهتمُّ الشاعر المصور بالرسم والخط وإنما يهتمُّ بمناطق الدلالات وتناسيبها وتضادها
كما يهتمُّ مصوِّرو الباروك بلطخات الألوان وتعادلها وما بينها من إيقاع وتناسب.

لنأخذ أولاً قصيدته المشهورة التي قالها في وقعة عمورية، وهي كلها جديرة أن
يُستشهدَ بها هنا، ولكننا نجتزئ منها ببعض الآيات:

السيف أصدقُ إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهنّ جلاء الشكّ والرّيب
والعلم في شهب الأرماح لامة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

نجد منذ هذا الاستهلال أنّ التعبير اختلف تماماً عما كان قبلاً.

الألفاظ تحمّل أكثر من معانيها. وكلّ لفظ ليس مُستقلاً في حدّ ذاته، وإنما جاء به
ما بينه وبين غيره من تناسب وتجانس وتضاد.

فالسيف استعمل هنا رمزاً إلى القوة والحرب، والكتب وُردت رمزاً إلى التّجيم
وليس المراد بها سائر الكتب، والحدّ الثاني ومعناه الفصل بين الشيئين إنّما أتت به
مجانسته للحدّ الأول حدّ السيف. والحدّ الأول إنّما أتى به جناس التّصحيّف مع الجدّ.
ولفظ الجدّ هذا استدعى اللفظ المضادّ وهو اللّعب. والبيت الثاني توكيداً لمعنى البيت
الأول بشكل مزخرف متألّق خطابيّ أتت بالألفاظ المطابقة بين البيض والشود، وتجنّس

القلب في الصَّفائح والصَّحَاف. والبيت الثالث توكيدٌ ثانٍ للفكرة نفسها فهو يريد أن يقول: صحيحُ العلم في الحرب لا ما استندَلْتُم عليه بالثُّجُوم، ولكِنَّه يختار للدَّلالة على الثُّجُوم لفظَ الشُّهْب التي هي أخصُّ منها ويستعير اللفظ نفسه لأسِنَّة الرِّمَاح للزُّخْرَفَة والتَّزْوِيق، فنرى أنَّ ألفاظ البيت ليست دقيقة الدَّلالات كما في شعر زهير بن أبي سلمى ولكنها مُختارة لتناسبها أو لتضادها. التَّضادُّ هنا يَتَبَوَّأ مكانة كبيرة في هذا النَّوع من الفنِّ الشعريِّ. إنَّه تلوين بالأضداد إذا أردنا أن نَعتمد التَّشبيه. وإنَّما يحصل الغرض الشعريُّ هنا مِنْ تقاطع الفكر المتضادَّة واشتباكها. ويُسمَّى علماء البديع ذلك طَباقاً إذا وقع بين لفظين ومُقابله إذا وقع بين جُمْلتين. وإنَّما القضية هنا أعمقُ من ذلك. فتفكيرُ أبي تَمَّام قائمٌ على مُراعاة التَّضادِّ في جميع الأمور تقريباً. إنَّ تفكيره يصحُّ أن نَصِفَه في العصر الحديث بكونه جَدَلِيًّا «ديالكتيكياً»، فهو في الشعر يجمع غالباً بين الأضداد والعناصر المُتنافِرة المُتغايرة.

لنستمع إلى هذه المُقابلات ذات الإضادات النَّسبيَّة المتضادَّة، إنَّ صحَّ هذا المجاز، في القصيدة نفسها وهو يَصِف حريقَ عُمُوريَّة:

غادرتَ فيها بهيمَ اللَّيل وهو ضُحى	يَسْلُهُ وَسَطَها صَبَح من اللَّهب
حتى كأنَّ جلايبَ الدُّجى رَغِبَتْ	عن لونها أو كأنَّ الشَّمس لم تَغِبْ
ضوء من النَّار والظُّلُماء عاكِفَة	وظُلْمَة من دخان في ضُحى شَحِبْ
فالشَّمس طالعة من ذا وقد أَفْلَتْ	والشَّمس واجبة من ذا ولم تَجِبْ

والقصيدة كُلُّها تتَّجه لهذا الاتِّجاه وتنزع هذا المنزع وتسير في هذا النَّهج وتعتمدُ في بلوغ غرضها الفنيِّ اشتباك المعاني العنيف وتقاطع الدَّلالات المُضادَّة وتقابل الصُّور والأفكار ومُراعاة نِسبها الفنيَّة كما يَعمدُ إلى ذلك بعض المُهندسين أو المُصوِّرين، فدلالة اللفظ مَفتُوحَة وليست مُغلَّقة، والإيحاء قويٌّ بقدر التَّعبير.

إنَّ أبا تَمَّام أكبرُ مُجدِّد في الشعر العربيِّ القديم. وتَجديدهُ هذا إنَّما تناوَل بِنِيَّة الشعر وتركيبه أو عَموده كما كان يقول الثَّقَاد القَدَماء الذين انتَبهوا لهذا التَّجديد ووعوه تماماً. فلقد تناوَل أبو تَمَّام الأغراضَ الفنيَّة القديمة فوقف بالطلول وبكائها وشَبَّ ومدح ورثى ووصف واستعمل كثيراً من الألفاظ العربيَّة الغريبة. وكلُّ ذلك ممَّا مَوَّه على بعض الباحثين الحديثين في الأدب العربيِّ فلم يُدركوا حركة التَّجديد العميقة التي حملَ رايَتها هذا الشَّاعر، وإنَّما نَسبوا التَّجديد إلى أبي نُواس الذي أراد أن يُعالج بعض الأفكار الجديدة الخارجة على العُرف والعادات ولكنَّه كان اتِّباعيًّا كلاسيكيًّا في شعره بخلاف أبي تَمَّام.

والدَّلِيل هو أنَّ الثَّقَاد القَدَماء كانوا راضين عن أبي نُواس جملةً ما عدا إفحاشه في

القول وجُرأته على العُزف وخروجه عن العادات الحميدة، فهو لم يَتَنَكَّب عن عمود الشعر العربي.

ولقد قال فيه الجاحظُ: «ما رأيتُ رجلاً أعلمَ باللغة من أبي نُوَاس ولا أفصحَ لهجةً مع مُجَانِبَةِ الاستِكرَاه». وقال ابنُ السَّكَيْتِ: «إِذَا رَوَيْتَ مِنْ أَشْعَارِ الْجَاهِلِيِّينَ فَلَا تَمُرْ الْقَيْسَ وَالْأَعَشَى، وَمَنِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلْجَرِيرَ وَالْفَرَزْدَقَ، وَمَنِ الْمُحَدِّثِينَ فَلْأَبِي نُوَاسٍ فَحَسْبُكَ».

أما أبو تَمَّامٍ فالقدماء مُجَمِّعون على خُروجه عن عمود الشعر العربي، لهذا مع اطلاعِه الواسع على اللغة وعلى أساليب العرب. يُروى أنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ قَصِيدَتَهُ: طَلَّلَ الْجَمِيعَ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدًا وكفى على رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدًا وسُئِلَ كَيْفَ تَرَى هَذَا الشَّعْرَ؟ فَقَالَ: فِيهِ مَا اسْتَحْسَنُهُ وَفِيهِ مَا لَا أَعْرِفُهُ وَلَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهِ. فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ أَشْعَرَ النَّاسِ جَمِيعًا وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ جَمِيعًا أَشْعَرَ مِنْهُ. وَيُروى أَيْضًا أَنَّ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ سَمِعَ شِعْرَهُ فَقَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا شِعْرًا فَكَلَامُ الْعَرَبِ بَاطِلٌ.

وقد قال له أبو العُمَيْثِلُ بَعْدَ إِذْ سَمِعَهُ يُنْشِدُ إِحْدَى قَصَائِدِهِ: لِمَاذَا لَا تَقُولُ مَا يُنْهَمُّ؟ فَأَجَابَهُ عَلَى الْبَدِيهِ: وَأَنْتَ لِمَاذَا لَا تَفْهَمُ مَا يُقَالُ؟ ويقول إسحاقُ الموصليُّ، وكان شديدَ العصبيَّةِ للأوائلِ كثيرَ الاتِّباعِ لهم، بعدَ إِذْ اسْتَمَعَ إِلَى بَعْضِ قَصَائِدِهِ: «يَا فَتَى مَا أَشَدُّ مَا تَنَكَّبُ عَلَى نَفْسِكَ!» يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَسْلُكُ مَسْلَكَ الشُّعْرَاءِ قَبْلَهُ وَإِنَّمَا يَمْتَنَحُ مِنْ مَعِينِ نَفْسِهِ.

ولهذا الاتِّجَاهُ الدِّيَالَكِيكِيُّ وَلَدَ أَبُو تَمَّامٍ كَثِيرًا مِنَ الْمَعَانِي. وَقَدْ عَرَضَ فِيهِ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ رَأْيَهُ فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ فَقَالَ: «كَانَ صَاحِبَ طَرِيقَةٍ مُبْتَدِعَةٍ، وَمَعَانٍ كَاللُّؤْلُؤِ مُتَّبِعَةٍ، يَسْتَخْرِجُهَا مِنْ غَامِضٍ بِحَارٍ، وَيَقْضُ عَنْهَا الْمُسْتَغْلِقَ مِنَ الْمَحَارِ». وَيَذْكُرُ رَأْيَهُ أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الرِّسَالَةِ عَلَى لِسَانِ عِنْتَرَةِ الْعَبْسِيِّ حِينَ وَقَفَ بِهِ ابْنُ الْقَارِحِ فِي الْجَحِيمِ فَقَالَ: «وَإِنِّي إِذَا ذَكَرْتُ قَوْلَكَ: هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ، لِأَقُولَ: إِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ وَدِيَوَانُ الشَّعْرِ قَلِيلٌ مَحْفُوظٌ. فَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ كَثُرَتْ عَلَى الصَّائِدِ الضُّبَابُ، وَغَرَّقَتْ مَكَانَ الْجَهْدِ الرَّيَابُ^(١). وَلَوْ سَمِعْتَ مَا قِيلَ بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ لَعَتَبْتَ نَفْسَكَ عَلَى مَا قُلْتَ وَعِلِمْتَ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ:

(١) فِي الطَّبْعَةِ الَّتِي حَقَّقْتُهَا بَنَتْ الشَّاطِئُ: «وَعَرَفْتُ مَكَانَ الْجَهْلِ الرَّيَابِ». وَنَظَرْتُ الْجُمْلَةَ مُحَرَّفَةً عَمَّا أَتَيْتَاهُ. وَإِنَّمَا أَوْحَى إِلَيَّ أَبِي الْعَلَاءِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ بَيْنَا أَبِي تَمَّامٍ الْآتِيَانِ.

فلو كان يَقْنِي الشعرُ أفناه ما قَرَّتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي العُصُورِ الدَّوَاهِبِ
ولكنَّه صَوَّبَ العُقُولَ إِذَا انْجَلَتْ سَحَابُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابِ

فَيَقُولُ: وَمَا حَبِيبُكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: شَاعِرٌ ظَهَرَ فِي الإِسْلَامِ. وَيُنْشِئُهُ شَيْئاً مِنْ نَظْمِهِ،
فَيَقُولُ: أَمَّا الأَصْلُ فَعَرَبِيٌّ وَأَمَّا الْفَرْعُ فَنَطَقَ بِهِ غَيْبٌ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَذْهَبُ عَلَى مَا تَعْرِفُ
قِبَالُ الْعَرَبِ. فَيَقُولُ وَهُوَ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ: إِنَّمَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ المُسْتَعَارُ وَقَدْ جَاءَتِ الْعَارِيَّةُ
فِي أَشْعَارِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ كاجْتِمَاعِهَا فِيمَا نَظْمَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ.

هَذَا وَقَدْ التَزَّمَ أَبُو تَمَّامِ النَّهْجَ الَّذِي سَلَكَهُ فِي جَمِيعِ شِعْرِهِ. وَلَا بَدَّ لَنَا مِنْ بَيَانِ ذَلِكَ
بَعْضُ الشَّيْءِ فِي مُخْتَلِفِ الْأَغْرَاضِ الشُّعْرِيَّةِ لِأَهَمِّيَّتِهِ فِيمَا نَقْصِدُ إِلَيْهِ.

يَقُولُ حَبِيبٌ:

ولكنني لم أخوِ وَفراً مُجْمَعاً ففَزْتُ بِهِ إِلَّا بِشَمْلِ مُبَدَّدٍ
ولم تُعْطِنِي الْإِيَّامُ نَوْماً مُسْكناً أَلِدُ بِهِ إِلَّا بَنُومَ مُشَرَّدٍ
وطولُ مقامِ المرءِ فِي الْحَيِّ مُخْلَقٌ لِدِيَاغَتِيهِ فَاغْتَرَبَ تَتَجَدَّدُ
فإنني رأيت الشمسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

فَالْوَفَرُ الْمُجْمَعُ وَالشَّمْلُ الْمُبَدَّدُ وَالنُّومُ الْمُسْكَنُ وَالنُّومُ الْمَشَرَّدُ كُلُّ مِنْهَا لَا يَتِمُّ وَلَا
يَتَهَيَّأُ إِلَّا بِالْآخِرِ. وَالْإِقَامَةُ وَالْإِغْتَرَابُ، وَالْإِخْلَاقُ وَالتَّجَدُّدُ كُلُّهَا تَجْرِي مُشْتَبِكَةً مُتْسَانِدَةً
بَعْضُهَا آخِذٌ بِبَعْضٍ. حَتَّى الشَّمْسُ يَنْبَغِي أَنْ تَغِيبَ وَأَنْ تُشْرِقَ وَأَنْ تَظْهَرَ وَأَنْ تَحْتَجِبَ حَتَّى
تَزِيدَ مَحَبَّتِهَا. التَّضَادُّ هُنَا أَسَاسُ التَّفْكِيرِ كَمَا يَقُولُ الْجَدَلِيُّونَ.

وَيَصِفُ أَبُو تَمَّامِ الرَّبِيعَ فَيَجْلِبُ انْتِبَاهَهُ أَنَّهُ خِتَامُ الشِّتَاءِ وَمُقَدِّمَةُ الصَّيْفِ، فَهُوَ يُعْرِفُهُ
بِالتَّضَادِّ، وَيَبِينُ أَنَّ الشِّتَاءَ بِمَا احْتَوَى مِنْ أَمْطَارٍ هُوَ الَّذِي هِيَ ثَمَرَاتِ الصَّيْفِ، فَالشِّتَاءُ
مَحْمُودٌ بِرَغَمِ عَوَادِي بَرِّهِ وَوَبْلِهِ، إِنَّمَا نَجِدُ فِي الرَّبِيعِ مَطْراً يَشْتَمِلُ عَلَى صَحْوٍ وَصَحْوٍ
يُشْبِهُ فِي غَضَارَتِهِ الْمَطَرَ، فَالرَّبِيعُ إِذَنْ مَطَرٌ فِي صَحْوٍ وَصَحْوٍ فِي مَطَرٍ، وَالْغَيْثُ غَيْثَانُ:
غَيْثٌ ظَاهِرٌ وَهُوَ الْمَطَرُ وَغَيْثٌ مُضْمَرٌ وَهُوَ الصَّحْوُ. إِنَّمَا فِي نَثَرِنَا نَظْمِ أَبِي تَمَّامٍ يُخَيَّلُ إِلَيْنَا
كَأَنَّمَا نُلَخِّصُ كَلَامَ هِغَلٍ فِي الدِّيَالِكْتِيكِ الَّذِي صَنَعَهُ، وَلَوْ عَالَجَ هَذَا الْفِيلَسُوفُ هَذَا
الْمَوْضُوعَ لَمَا أَتَى بِشَيْءٍ أَكْثَرَ:

نزلت مُقَدِّمَةُ المَصِيفِ حَمِيدَةً وَيَدُ الشِّتَاءِ جَدِيدَةً لَا تُكَفَّرُ
لَوْلَا الَّذِي غَرَسَ الشِّتَاءَ بِكَفِّهِ لَاقَى المَصِيفُ هَشَائِماً لَا تُثْمَرُ
كَمْ لَيْلَةٍ آسَى الْبِلَادَ بِنَفْسِهِ فِيهَا وَيَوْمٌ وَبَلَهُ مُنْعَجِرُ

مطر يذوبُ الصَّحو منه وبعده صَحْو يكادُ من الغضارة يُمطرُ
غَيْشانٍ فالأنواءُ غَيْثَ ظاهر لك وجهه والصَّحو غَيْثَ مُضمَرُ
حتى البيت الثالث ينبغي أن يُقابل الشاعر فيه اللَّيل بالنَّهار بحيث تبدو لنا هذه
الطَّريقة في البيان يتعمَّدها الشاعر تعمُّداً.

وهو يرى من خلال التَّضادَّ أنَّ الحَرَكَة هي الأصل في حُسْن الطَّبيعة وجَمال الأرض
على خلاف الأشياء المَصنوعة الثَّابتة:

أولا ترى الأشياء إنَّ هي غُيِّرَتْ سَمُجَتْ وحُسِنَ الأرض حين تَغَيَّرُ
وقد تتجمَّع الأضدادُ بسَخاء، فإجابة الشاعر الطُّلل الذي لا يدعوه كدُعائه إِيَّاه وهو
لا يجيبه، ثُمَّ إنَّ التَّعب يُؤدِّي إلى الرَّاحة، والعناء يُفضي إلى النَّفع، والشُّحوب يَجْلُبُ
النَّضرة، كما يستدعي الضُّدُّ ضِدَّهُ في الجدل:

فَسِواءُ إجابتي غيرَ داعٍ ودُعائي بالقفر غيرَ مُجيبٍ
رَبِّ خَفَضَ تحت السُّرى وغنَّاءٍ من عَناءٍ ونُضرة من شُحوبٍ

بل نحن حين نطالع شعرَ أبي تَمَّام نجد أنَّه قد سَبَقَ هيغل وأمثالَه من الفلاسفة
بُعضُهم طويلاً فشقَّ طريقَ الديالكتيك المُستندِ إلى صراع الأضدادِ. فهو في الحقيقة أبو
الجدل الحديث. ولكنَّ أبا تَمَّام انتهجَ هذا في شعره. كان ذا مذهبٍ شعريٍّ مُبتَكِرٍ وإنَّ
مَسَّ هذا المذهب الشعريَّ الفلسفةَ، كما أنَّ هيغل بعده بأحقابٍ كان ذا مذهبٍ فلسفيٍّ
جديدٍ وإنَّ كانت دعائمه تَسْتندِ إلى بعضِ الاعتباراتِ الفنيَّةِ.

إنَّ الشَّعر العربيَّ في الحقيقة لم يَخُلْ في يوم من الأيام من هذه المُقابلات المتضادَّة
التي هي من خصائصِ الفكر. ولكنَّ الفرقَ كبيرٌ بين إبرازها حين تَشِفُّ عن حركةٍ طبيعيَّةٍ
دون أن يتجاوزَ التَّعبيرَ هذه الحركة وبين اعتمادِ التَّضادَّ وتصالُّبِ الأفكار وتقاطُّعِها في
أغلبِ الأحيان إنَّ لم يَكُنْ في جميعها لِبُلُوغِ الغرضِ الفنيِّ.

إنَّ الشُّجاع الحقَّ والمِقْدَامَ الواعي يَلوحُ له الإحجامُ كما يَلوحُ له الإقدامُ، ولكنَّه بعد
التَّردُّدِ الطَّبيعيِّ ولو كالبرق يرفضُ الإحجامَ لأنَّ فيه الدُّلَّ ولأنَّه لا يَلِيقُ بالحياة الإنسانيةِ
الكريمة، ويختارُ الإقدامَ لأنَّه الأجدرُ والأَقَمُّ ولأنَّه الحياة الكريمة الإنسانية الصَّحيحة.
فالإنسانُ كلُّ الإنسان يُقَدِّم ولا يَفَرُّ ولو لاحَ له في الخيال سبيلُ الفرارِ. هذه هي جدليَّة
الإقدام، وقد عبَّرَ عنها الشاعر العربيُّ القديم الحُصَيْنُ بنُ الحمامِ أجملَ تعبيرٍ وأوجزَه حين
قال:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحِياةَ فلم أَجِدْ لِنَفْسِي حِياةَ مِثْلَ أن أَتَقَدِّمًا

فرسم الشاعر العربي القديم هذه الحركة النفسية بعبارات دقيقة كاملة الدلالة مُثَقَّنَةً الأداء، وبقي كلاسيكياً في تعبيره لأنه كان رقيقاً بهذه العاطفة النفسية ولم يُصوِّرْها بعنف ولا باستعارات مُتَعَمِّدَة كما يصنع أبو تمام.

لقد أراد أبو تمام أن يمدح الخليفة المُعْتَصِم في قصيدته التي على اللام وأن يصفه بالشدة واللين معاً فهو يعتمد لفظي السهل والجبل، يستعملهما مجازاً: شَرَسْتَ بِل لِنْتَ بِل قَانَيْتَ ذَاكَ بَذَا فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيكَ السَّهْلُ وَالْجَبْلُ وَهَذَا مَا يَخْتَلِفُ نَمَاماً عَنْ تَعْبِيرِ أَبِي نُوَاسِ الَّذِي نَظَرَ إِلَيْهِ أَبُو تَمَّامٍ كَمَا يَقُولُ الْمُتَقَدِّمُونَ:

كَالذَّهْرِ فِيهِ شِرَاسَةٌ وَلَيَانٌ

إن من صفات الديالكتيك طرح الفكرة ثم نقضها ثم جمع الفكرة والتقيض معاً فيما يدعى بالتركيب. ومع أن هذا البيت السالف لا يُحِبُّهُ علماء البلاغة العربية لما فيه من تكلف نجده يشفئ عن هذه المراحل الثلاث من الإثبات والتثني ونفي التثني، أو الفكرة وطبقها وتركيبها. ونجد مثل ذلك في هذا الاستهلال:

مَنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَلَّا تُجِيبَا فَصَوَابٌ مِنْ مُقْلَتِي أَنْ تَصُوبَا
فَاسْأَلْنَهَا وَاجْعَلْ بِكَافٍ جَوَاباً تَجِدِ الدَّمْعَ سَائِلاً وَمُجِيباً
وهكذا يتجلى الفكر الديالكتيكي بأبرز صورته عند أبي تمام في إطار فنه الذي رفع لواءه.

وإذا كان الجمال يحصل من مطابقة اللفظ للمعنى والمعنى للفظ وكانت هذه المطابقة حاصلة في الفن الاتباعي غالباً كان الجمال من أخص صفات الشعر الاتباعي كما ذكرنا آنفاً. ولكننا هنا نجد في فن الباروك أن اللفظ أحياناً يريد أن يتحمل أكثر من المعنى المُخَصَّص هو له. ولذلك كان هذا الفن قريب الصلة بإيحاء شعور الروعة والسمو والفخامة وأشد شفوفاً عن المأساة لاضطرار العناصر التي يشتمل عليها. وهذا هو السبب الذي من أجله برز أبو تمام في المدائح والمراثي، لأن الأولى أقرب إلى جو الفخامة والروعة ولأن الثانية مُلتَصِقة بالمآسي أشد الالتصاق. وقد ذكر القدماء قيمة مدائحه ومراثيه ونوّهوا بها دون أن يُبيّنوا لنا سبب ذلك ولا صلته بطبيعة تفكير الشاعر ولا أصرته بفنه الذي رفع أركانه. فالمُقابلة بين الأضداد من شأنها أن تُظهر مشقة الجهد وبلوغ المدى البعيد.

هذه الحدود المتغيرة تؤثر بعضها في بعض. ويُشير الشاعر أحياناً إلى هذا التأثير

المُتَبَادَل الذي يُدْعَى في الفلسفة الحديثة بالفعل الجدليّ، وفي العلم الحديث بالفعل ورْدُ الفعل (أو الارتكاس).

قال يصفُ جملة مبيئاً أنه نشأ وسَمِن من رَعِيهِ الْفَيَافِي والغِيَاضَ ثم نَحَلَ وضَعُف من جَوْبِهِ تلك الْفِقَارَ والرِّيَاضَ فكأنَّما رَعَتَهُ بعدما رَعَى نَبَتَهَا:

رَعَتَهُ الْفَيَافِي بعدما كان حِقْبَةً رَعَاهَا ومَاءُ الرِّوَضِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ

وهو حين يُمهِّد للمديح بالنَّسِيبِ يَعْتَمِدُ على التَّضَادِّ. وقبل أن نَخْتَارَ أَيْبَاتاً من مَدِيحِهِ نجد أَنفسنا مَسْرُوقِينَ إِلَى الْأَلَا تُغْفَلُ مَا نَجِدُهُ فِي نَسِيبِهِ مِنَ التَّالِيفِ بَيْنَ الْعُنَاصِرِ الْمُتَضَارِبَةِ وَلَا سِيَّماً فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا الشَّيْبَ. فهو يُولِّدُ فِيهَا أَفْكَاراً جَدِيدَةً جَمِيلَةً بِالْاعْتِمَادِ عَلَى تَضَادِّ الْعُنَاصِرِ وَتَضَارُبِهَا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً. وَيَكْفِي الْمَرْءَ أَنْ يَتَأَمَّلَ قَلِيلاً هَذِهِ الْأَيْبَاتَ لِيَسْتَشْفَ بِوُضُوحٍ طَرِيقَتَهُ الَّتِي سَلَكَهَا فِي تَوَلِيدِ الْمَعَانِي:

أَصْبَحْتُ رَوْضَةَ الشَّبَابِ هَشِيمَا	وَعَدْتُ رِيحَهُ الْبَلِيلِ سَمُومَا
شُعْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعْتَنِي	فِي صَمِيمِ الْفَوَادِ تُكَلَا صَمِيمَا
تَسْتِيرُ الْهُمُومَ مَا اكْتَنَنْ مِنْهَا	صُعْدَاً وَهِيَ تَسْتِيرُ الْهُمُومَا ^(١)
غَرَّةٌ بِهَمَّةٍ إِلَّا إِنَّمَا كُنْ	تَ أَغْرَاً أَيَّامَ كُنْتَ بِهَيْمَا
دَقَّةٌ فِي الْحَيَاةِ تُذْعَى جَلَالَا	مِثْلَمَا سُئِيَ اللَّيْدِغُ سَلِيمَا
حَلَمْتُنِي زَعْمَتُكُمْ وَأَرَانِي	قَبْلَ هَذَا التَّحْلِيمِ كُنْتَ حَلِيمَا

ثم يَنْتَقِلُ إِلَى الْمَدِيحِ وَيُشَدُّ فِي ثَنَائِهِ:

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثاً	وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِجاً وَقَلِيماً	وَرَغِينَاهُ بَارِضاً وَجَمِيماً
فَعَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ إِلَّا بِشَقِّ الدِّ	تُفْسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُذْعَى كَرِيماً
طَلَبُ الْمَجْدِ يُورِثُ الْمَرْءَ خَبَالَا	وَهُمُوماً تُقْضِقُضُ الْحَيَازِومَا
فَتَرَاهُ وَهُوَ الْخَلِيُّ شَجِيماً	وَتَرَاهُ وَهُوَ الصَّحِيحُ سَقِيماً
تَجِدُ الْمَجْدَ فِي الْبَرِّيَّةِ مَنَشَا	رَأً وَتَلْقَاهُ عِنْدَهُ مَنَظُومَا
تَيَمِّثُهُ الْعَلَا فَلَيْسَ يَعْدُ الْـ	جُؤْسَ بؤْساً وَلَا التَّعِيمَ نَعِيمَا
كَلَّمَا زَرْتَهُ وَجَدْتَ لَدَيْهِ	نَشِياً ظَاعِناً وَمَجْدَاً مُقِيمَا

إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْأَيْبَاتِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى التَّضَادِّ.

(١) الفعل الجدليّ في هذا البيت واضح.

ولا شكَّ أنَّه كان واعياً لفنِّه هذا المُستند إلى الحدود المُتغايِرة المُتقابِلة، إذ كان يجدُّها في الواقع حين يَصِفُه. يَذكر في مَدِيح له لفظَ نوافِرِ الأُضدادِ ليصفِ مجدَّ الممدوحين الغريب في فنِّ كان حقاً غريباً في عصره:

قد بَشَّتم غرس المَوَدَّة والشَّحْ ناء في قلب كلِّ قار وباد
أبغضوا عزَّكم وودُّوا نداكم فقروكم من بغضة ووداد
لا عدمتُم غريبَ مجد رَبَّقُم في عُراه نوافِرِ الأُضدادِ^(١)

وهو القائل يصف قصيدة له فُيَشِّبُها بالعقد ولكنَّ هذا العقد ذو سِمطين:
جاءتكَ من نظم اللِّسان قِلادة سِمطان فيها اللُّؤلؤ المَكْنُونُ
إنسيَّة وحشيَّة كَثُرَتْ بها حركاتُ أهل الأرض وهي سُكُونُ
يَبْوعُها خَصِلٌ وحَلِي قريضها حَلِي الهَدْيِ ونَسْجُها مَوْضُونُ
أما المعاني فهي أَبْكارُ إذا نُصَّت ولكنَّ القوافي عُونُ
والقِلادة النَّفيسة من شأنها أن تُقلِّدَ جيَدَ الممدوح ولكنَّه يلبسها مع إحسانه قَدَمي الخليفة:

أحداكها صَنَعَ اللِّسان يَمُدُّه جَفَرٌ إذا نَضَبَ الكلامَ مَعِينُ
ويُسيءُ بالإحسان ظَنًّا لا كَمَنُ هو بابنُه وبشعره مَفْتُونُ

ولا يُتاح لنا أن نَسْرِيلَ في هذا المجال. وحسبنا أنَّنا نُمَهِّدُ للباحثين نهجه ونُدلِّلُ لهم سبيله. ونحبُّ أخيراً أن نُوكِّدَ اعتمادَ أبي تَمَّامَ للحدود المُتناقِضة حتى في أغربِ الأحوال. فهو في مَوْقفِ المديح مثلاً يَتَصَوَّرُ الممدوح غريباً وهو بين عَشيرته وأقربيه وكثرة المُحيطين به، كما يَتَصَوَّرُه أيضاً وهو يَقِيعُ بالحياة مَيَّناً. ولولا مَهارةُ أبي تَمَّامَ وحِدْقُه لَسَمَّحَ ذلك سَماجة كبيرة. ولكنَّ فنَّه الذي نَظُنُّ أنَّنا جَلَّونا أصله يَشْفَعُ بذلك كلُّه:
غَرَّبَتْه العلا على كَثرة النَّاسِ س فاضحى في الأقربين جَنِيها

(١) يقول المُتنبِّي:

ونَدِيمهم وبهم عرفنا فضلَه وبضدِّها تَبَيَّنَ الأشياءُ
وفي القصيدة البتمة:

فالرَّجَه مثل الصُّبحِ مَبْيَضُ والفَرع مثل اللَّيْلِ مُسْوَدُ
ضِدَّانَ لما استجمعا حَسْناً والضُّدُّ يظهر حُسْنَه الضُّدُّ

ولكنَّ التَّضادَّ لم يَعمدْ أحدٌ عناصره في الشَّعر مثلما اعتمدها أبو تَمَّامَ.
هذا وفي اللُّغة العربيَّة طائفةٌ من الألفاظ يُفيد كلُّ منها مَعْنِيَيْنِ مُتقابِلَيْنِ تُدعى «الأُضداد».

فليُطْلَ عمره فلو مات في مر و مُقيماً بها لمات غريباً
وكأنَّ أبا تَمَّامٍ يَحْمِلُ في نفسه مأساته الخاصَّة، وكأنَّما نعى نفسه في هذا البيت.
فلم يطلَّ عمره هو ومات غريباً في هذا المجدِّ الشَّعْرِيَّ الشَّامخِ الغريب الذي رفع قواعده
ووضع أصوله ونهَجَ سبيله وقلَّده فيه كثيرون دون أن يَبلغوا شأوه.
بيدَ أنَّ أبا تَمَّامٍ في مجده هذا الذي شادَه وأثَّلَه قد نثر في طريق الشَّعر العربيِّ في
الحقيقة بُذور الانحطاط.

فَمَنْ أتى بعده من الشُّعراءِ الكِبارِ تقصَّصوا آثاره في أوَّل طريقهم ثمَّ غلب عليهم
طبعهم الشَّعْرِيُّ وثقلهم الخاصُّ.

ومن المَعروف أنَّ المُتنبِّيَّ كان من هؤلاء الذين جَرَّبوا طريقة أبي تَمَّامٍ، ولكنَّه لم
يلبث أن وجدَّ شخصيَّته الفنِّيَّة الجبَّارة. وهو عندنا أيضاً من شُعراء الباروك ولكنَّ شعره
عنوانُ الحركة المُتوتِّبة والحَيويَّة المُتدفِّقة ومُلتقى مواكب الإحياءات المُترافقة. كلُّ لفظ
عنده يُطلق أمواجاً مُتعدِّدة قويَّة من المعاني والإحياءات، ومن النِّقاء هذه الأمواج يتألَّف
بيانه الأصيل. ويَسْتَسْطِ بنا المدى لو عَمَدنا إلى فنِّ المُتنبِّي نَحُلُّه وإن كان ذلك مُفيداً.
لذلك نكتفي بما أسلفناه من الكلام في فنِّ أبي تَمَّامٍ الذي بلغ الدُّروة في التَّجديد، والذي
كان المَسْؤول الأوَّل عن تَطوُّر الشَّعر في عصره، ثمَّ عن انحِداره ولو على غير عَمَد.

وذلك أنَّ الشُّعراء الآخرين من بعده رَكَنُوا إلى ظاهر الصَّنعة في شعر أَسْتَذِهِم
وبَهَرَهُم بَرِيقها فراحوا يَحْكُونُها دون أن يكون للصَّنعة هذه عندهم اتِّصال بالمَوْضوع
المُعالَج ودون أن يكون للأشكال البرَّاقة جُذور عميقة ضاربة في تفكيرهم، ودون أن
يَفْتَنُوا إلى الطَّرِيقَةِ الدِّيالكتيكيَّة المُولَّدة للأفكار، فاتَّجِه الشَّعر إلى حِذْق الزَّينة الخارجِيَّة
والإكثار من الطَّلَاء المُمَوِّه المَزخَرَف القائم على مُحسِّنات البديع من كلِّ نوع وضرب.

ولقد أُتيح لهذا الفنِّ أن يَتَطوَّر وَيَبْلُغ حَدًّا أَصْبَحَتْ الألفاظ فيه تَبَتُّعاً عن مَعانيها التي
وُضِعَتْ لها، أَصْبَحَتْ الألفاظ مَقْصُودَةً لذاتها ولما بينها من مُناسبات وأواصِر وما يَصحبها
من إحياء، وأصبحنا معها تُجَاه فنِّ أقرب إلى الرَّمز والإشارة منه إلى التَّعبير الأصيل،
أصبحنا تُجَاه زُخْرَفٍ شَكْلِيٍّ يَبْهَرُ الأبصار أكثر ممَّا يثير العاطفة والخيال، وهو ما نَدَّعوه
بالفنِّ البرَّاق المُتهالك إذ يَتَهالك على الزَّينة الشَّكْلِيَّة الصَّرف. ومن عجائب المُصادفات
وغرائب الأحوال أن يُمثِّل هذا النُّوع من الشَّعر شاعراً مُتصوِّفَ جاء بعد أبي تَمَّامٍ بعدة
عُصور وهو ابن الفارض.

نحن هنا لا نريد أن نمسَّ مُشكلة التَّعبير الصُّوفيِّ فلِهذه المُشكلة مَوْضِعها الخاصُّ

بها. ولكنّا نعرف أنّ اتّجاه التّصوّف إنّما هو العناية بالباطن لا بالظاهر وبالمعنى لا بالمبنى. ولكنّ العجيب أنّا هنا تُجاه شاعر مُتصوّف صادق في تصوّفه. ومع ذلك فهو يُضمّر هذا التّصوّف ويَتغنّى بعاطفته الصّوفيّة تَغْنِيّاً يَبْرع فيه بالنّسبة إلى الذّوق الأدبيّ الشائع في عهده. وهو في هذا التّغنيّ يكاد يُوجّه كلّ اهتمامه إلى الزّخرفة والزّينة والبريق فيبدو لنا في شعره صنّاعاً أيّ صنّاع. إنّ ابن الفارض يُمثّل القمّة في هذا الفنّ المزخرف التّزيينيّ البراق المُتَهالك.

وإذا وجدنا في شعر أبي تمام الزّخرفة مَنوَرَة بِحُكْمٍ طريقتها التي اختطّها فإنّا نجد طريقة ابن الفارض كلّها زخرفة مُتراكِبة غزيرة ذات طبقات تُبَعِّدُها في النّهاية عن المعنى الحقيقيّ المُباشر التّابع من الدّات وهو الذي كان يُمكن للشّاعر أن يعتمد إليه للإعراب عن عاطفته الصّوفيّة العميقة. ونظنّ أنّ الشّاعر الصّوفيّ الذي يُؤلّف في البيت الواحد عدّة أشكال من البديع المُتعارَف في علوم البلاغة إنّما كان خارجاً من حال وَجْدِه وسُكْرِه ومُنْصَرِّفاً إلى ثقافته البديعيّة الخالصة التي كانت أمثالها رائجةً وسائدةً في ذلك العصر. وهو في ذلك يُوفّق في أغراضه الفنيّة التي كان يقصدها إلى حدٍّ بعيد جعله إماماً في الشّعر طوال عصور يُدرّس شعره إبانها ويُشرح ويُحتلّى مثاله.

استمعوا إلى أبيات مختارة من قصيدته النّائية الصّغيرة التي هي آية في فنّ الزّخرفة البديعيّة:

نعم بالصّبّ قلبي صَباً لأحبّتي فيا حبّذا ذاك الشّذا حين هبّت
سَرَتْ فأسرّت للفضّادِ غُدِيّة أحاديث جيرانِ العُذَيبِ فسَرَتْ
مُهَيِّمَة بِالرّوض لَدُنْ رِداؤها بها مرض من شأنه بُرء علّتي

ولا تَخْفَى في هذه الأبيات براعةُ الاستِهلال والجِناس والتّسميط في شطري البيت الأوّل وكذلك أنواعُ الجِناس في البيت الثّاني وتَصْغِيرُ الغداة ثمّ الاستعارة التّخييليّة في البيت الثّالث مع التّرشيح، والطّباق بين المرض والبُرء. فإذا تابَعنا الأبيات وجدنا الشّاعر يَزِدُّ تَفَكُّناً في الزّخرفة حين يَتحدّث عن حبيبته:

متى أوْعدتْ أوْلَتْ وإنْ وعدتْ لَوْتُ وإنْ أقسمتْ لا تُبريء الشّقْمِ بَرَّتْ
في هذا البيت وحده سبعة أشكالٍ من المُحسنات البديعيّة مُشْتَبِكَة يُمكن المُبتدئ في علوم البديع أن يَتَمَرَّن وأن يجدّها بسهولة.

يَبْدُ أنّ القضيّة أبعدُ من ذلك فالألفاظ عنده تكاد تَفْقد مَعانيها. فهو مُتصوّف يُشَبِّه حبيبته بالبدر ويُشَبِّه ذاته بالسّماء ثم يَذْكُرُ الدُّرّاع لتَوْسُدَ الحبيبة والقلب لسُكْنِها والطّرف

لرؤيتها عند التجلي ويريد في الوقت نفسه التورية أو إيهامها حين يوحى من وراء هذه
الالفاظ بمنازل القمر وهي ذراع الأسد وقلب العقرب وعين الأسد. وفي البيتين الآتين
عدا ذلك زخارف بديعة متعددة من مراعاة نظير مضاعفة ومن جناس ولف ونشر وطباق:
هي البدر أوصافاً وذاتي سماؤها سمت بي إليها همتي حين همت
منازلها مني الذراع توسداً وقلبي وطرفي أوطنت أو تجلت
وكذلك يقول:

فجسمي وقلبي مستحيل وواجب وخدي مندوب لجائز عبرتي
وفي هذا البيت الالفاظ لها معان لغوية ومعان شرعية للتورية أيضاً وفيه اللف والنشر
ومراعاة النظير المضاعفة.

يصف أيضاً في أغرب تعليل أمراً خيالياً لا يمكن أن يقع:
وقالوا جرث حمراً دموعك قلت عن أمور جرث في كثرة الشوق قلت
نحرت لضيء الطيف في جفني الكرى قرئ فجرى دمعي دماً فوق وجنتي
هذا كلام لا تكاد تكون له صلة بالعاطفة الصوفية المشبوبة في قلب متصوفنا الصادق
ولنأما هي الالفاظ اختارها الشاعر للتزيين الصرف وإبراز مهارته في هذا التزيين. ولقد
فقدت الالفاظ في هذه الأمثلة دلالتها الحقيقية.

إن أسلوب التعبير متصل بالفكر. ولا شك أن من صفات الشعر الاتباعي وصف
الواقع أو بعض عناصره وصفاً دقيقاً حاذقاً، وأن من صفات شعر الباروك على حد تسميتنا
له تلوين هذا الوصف بالأضداد وزخرفته بالمحسنات البديعية مع ما يتصل بذلك من تغيير
وتبديل للواقع أو لعناصره تبديلاً يتطلبه الإغراب والإعجاب والطرافة والتفخيم والمبالغة
والإغراق والغلو^(١) وما إلى ذلك من اتجاهات.

* * *

وربما كان من المناسب لتوكيد هذا التطور الذي طرأ على الشعر العربي القديم أن
نأخذ الفكر التي عالجها الشعراء وأن نتبين اختلاف أنماط التعبير عنها. ولا شك في أن

(١) المبالغة في اصطلاح علماء البديع إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة، والإغراق
فوقها في الرتبة وهو في الاصطلاح إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة، والغلو فوقهما
وهو الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلاً وعادة؛ وقد تعتبر المبالغة والإغراق والغلو
نوعاً واحداً فلا يفرق بينها.

هذا البحث موضوع قائم بذاته ويحتاج إلى معالجة مستقلة . ومع ذلك فلا بدّ لنا ههنا من أن نأخذ فكرة واحدة من الفكر الكثيرة التي ترددت في جوانب الشعر العربي وأنكأ عليها الشعراء وزاولوها في أشعارهم . ولتكن هذه الفكرة متصلة بالنسب والحب ولنخصصها بأثر من آثار الحب وهو تحول العاشق . نجد أنفسنا من هذه الفكرة تجاه فيض من الأشعار التي تصف التحول وتفتن في التعبير عنه .

أمّا الأسلوب الاتباعي فيكتفي بأن يقول: إنّ التحول من علامات الحب وذلك بتعبير صادق دون دعوى ولا إغراب .

يقول قيس بن ذريح في فجر الإسلام:
وللحب آيات ثين بالفتى شحوب وتعرى من يديه الأشاجع
وقد يصطنع الشاعر الكناية برفقٍ ويتعبّر بليغ:

يقول عمر بن أبي ربيعة:
قليلًا على ظهر المطيّة ظلّه سوى ما نفى عنه الرداء المحبّر
ثم يتغيّر الأمر فيصبح الشاعر لنفسه أن يدعي التحول ليسترجم حبيبه أو يسرّ السامع ولو كان كالجاموس قوّة . تعرفون قصّة بشار، فقد حدّث عنه بعض الكوفيّين، قال: «مررت ببشار وهو متبطّح في دهليزه كأنّه جاموس، فقلت له يا أبا معاذ من القائل: في حلّتي جسم فتى ناحل لو هبت الرّيح به طاحا
قال: أنا . قلت فما حملك على هذا الكذب؟ والله إني لأرى أن لو بعث الله الرّيح التي أهلك بها الأمم الخاليّة ما حرّكتك من موضّعك! فقال بشار: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة . فقال: يا أهل الكوفة لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كلّ حال» .

ويُخيّل إلينا أنّ الشعر بعد أن كان معيار الجودة فيه:
وإنّ أحسن بيت أنت قائله بيت يُقال إذا أنشدته صدقاً
أصبح معيار الجودة قولهم: أعذب الشعر أكذبّه .

ولا يقف الأمر عند المبالغة البسيطة وإنّما يعمد الشعراء إلى الإتيان بالصّور البديعة الطريفة ولو ابتعدت من الواقع كلّ الابتعاد . يقول القاضي الأرجاني:
ولولا سناها لم يروني من الضنى ولا أصبحوا من أجلها غرمائي
ولكن تجلّت مثل شمس منيرة فلّخت خلال الضوء مثل هباء

وَيَقُولُ الْقَاضِي الْأَرْجَانِيُّ أَيْضاً مُسْتَعْمِلاً مَا يُسَمِّيهِ عِلْمَاءُ الْبَدِيعِ بِالْإِسْتِدْرَاكِ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمُحْسِّنَاتِ، زِيَادَةً عَلَى الطَّبَاقِ:

غَالَطْتُنِي إِذْ كَسَتْ جِسْمِي ضَنْى كِسْوَةً أَغْرَثَ مِنَ الْجِلْدِ الْعِظَامَا
ثُمَّ قَالَتْ أَنْتَ عِنْدِي فِي الْهَوَى مِثْلَ عَيْنِي صَدَقْتَ لَكِنْ سَقَامَا
وَيَقُولُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ مُسْتَعْمِلاً مَا يُسَمَّى الْقَوْلَ بِالْمُوجِبِ:

رَأَيْتُنِي وَقَدْ نَالَ مِنِّْي التُّحُولُ وَفَاضَتْ دُمُوعِي عَلَى الْخَدِّ فَيَضَا
فَقَالَتْ بَعَيْنِي هَذَا السَّقَامُ فَقُلْتُ صَدَقْتَ وَبِالْخَصَرِ أَيْضَا
وَلَكِنَّ الْمُبَالَغَةَ كَانَتْ هِيَ الشَّكْلُ الْمُعْتَمَدُ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ الْمُتَنَبِّي، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ قَالَهَا وَهُوَ فَنَى وَهِيَ تَخْتَلِفُ عَنْ قِصَائِدِهِ الرَّائِعَةِ الْعَظِيمَةِ:

أَبْلَى الْهَوَى أَسْفَا يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ
رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الْخَيَالِ إِذَا أَطَارَتْ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبُ لَمْ يَبْنِ
كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي

فَالرِّيحُ إِذَا هَبَّتْ تُطَيِّحُ بِجِسْمٍ بَشَّارٍ لِنُحُولِهِ، وَالْأَرْجَانِيُّ يَبْدُو فِي نَوْرِ حَبِيبَتِهِ كَالْهَبَاءِ فِي أَشْعَةِ الشَّمْسِ، وَالْمُتَنَبِّي لَا يَكَادُ يَظْهَرُ لِلنَّظَرِ لَوْلَا الثُّوبُ الَّذِي يَلْبَسُهُ وَلَوْلَا مُخَاطَبَتُهُ إِيَّاهُ. وَكُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئاً بِالنِّسْبَةِ إِلَى ابْنِ الْفَارُضِ الَّذِي أَصْبَحَ مَوْطِنُهُ فِي الْهَوَاءِ كَبُخَارِ الْمَاءِ:

صَرِيحٌ هُوَ جَارِيْتُ مِنْ لُطْفِي الْهَوَا سُحِيرَا فَاَنْفَاسُ السَّيْمِ لِمَامِي
صَحِيحٌ عَلِيلٌ فَاطْلُبُونِي مِنَ الصَّبَا فَبَيْهَا كَمَا شَاءَ التُّحُولُ مُقَامِي

إِنَّ هَذِهِ بَهْلَوَانِيَّةٌ فِي الْأَفْكَارِ تَتَّصِلُ بِهَا خَفَّةٌ عَجَبِيَّةٌ تَرْفَعُ الشَّخْصَ مِنَ عَلَى الْأَرْضِ، وَذَلِكَ، قَبْلَ كَشْفِ الْهَيْدَرُوجِينَ وَالْهَلِيُومِ، يَسْتَرُّ ذَلِكَ الْجِنَاسَ وَالطَّبَاقَ وَمُحْسِّنَاتِ بَدِيعِيَّةٍ أُخْرَى. وَلَكِنَّ الْمَرْءَ وَرَاءَ هَذِهِ الْمُحْسِّنَاتِ يَنْظُرُ فَلَا يَكَادُ يَرَى شَيْئاً. وَلَا شَكَّ أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ. وَلَكِنَّ غَايَتَهُ فِي أَشْعَارِهِ كَانَتْ الْإِیْحَاءَ بِعَاطِفَتِهِ لَا التَّعْبِيرَ الدَّقِيقَ عَنْهَا فِي عَصْرِ كَانَ يَسْتَجْمِلُ هَذِهِ الزَّيْنَةَ وَالزَّخْرَفَةَ. وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي مَنَ أَجْلَهُ تَبَوَّأَ ابْنُ الْفَارُضِ مَكَانَةً كَبِيرَةً فِي أَدَبِ عَصْرِ الْإِنْحِطَاطِ، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ اشْتِدَادُ تَيَّارِ التَّصَوُّفِ فِي عَهْدِهِ وَحَاجَةُ الْمُتَصَوِّفِينَ إِلَى أَمْثَالِ هَذَا الشَّاعِرِ الصَّارِخِ بِالْحُبِّ الْإِلَهِيِّ وَلَوْ بَدَأَ فِي زِيِّ الْحُبِّ الْإِنْسَانِيِّ.

عَلَى أَنَّ الْمُبَالَغَةَ إِذَا بَدَتْ غُلُوءاً فِي الظَّاهِرِ فَهِيَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ لَدَى الصُّوْفِيِّ الَّذِي يَرَى وُجُودَهُ عَدَمًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَجُودِ الْحَقِّ.

ارتباط التعبير الشعري بحال المجتمع :

ويطيب لنا ههنا ألا نغفل مدى ارتباط الشعر بالمجتمع الذي نشأ فيه والعصر الذي ازدهر في جوه. فالشعر الاتباعي والشعر البراق في عهده الأول عهد العنف والتأليف بين الأضداد وقوة الإيحاء كانا بطبيعة الحال متصلة جذورهما بشؤون الشعب والمجتمع، فكانا في كثير من الأحيان، إلا ما انحرف منهما، تعبيراً عن أغراض المجتمع وأهدافه.

فزهير بن أبي سلمى نوه في معلقته بعقد الصلح بين عبس وذبيان، وصور بشاعة الحروب وأهوالها:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
وكذلك أغلب شعراء الجاهلية.

ولما جاء الإسلام اتجهت نفوس العرب وقلوبهم وعقولهم عند نجاح الدعوة إلى تفهم الرسالة السامية الجديدة، وتجمعت طاقاتهم وقواهم المختلفة حولها، وتبدلت حياتهم وتغيرت مثلهم العليا وأهدافهم وأحلامهم، وانتظمت شؤونهم بنظام محكم، واستناروا بنور جديد لا عهد لهم بمثله ولا بمثل لألائه وآلائه وخيره العميم وخضبه الواسع العميق المتجدد المقيم. وتشرفت اللغة العربية بالتنزيل الكريم، وقُيِّض لها منذ ذلك العهد الحفظ والصون والخلود، وكانت مرحلة حاسمة في تاريخ العرب وتاريخ اللغة العربية وتاريخ الإنسانية. أصبح الشعر والبيان والأدب والفن كل ذلك تابعاً للرسالة وملحقاً بها ولو إلى حين.

أصبح الجمال قريناً للحق وللخير وغدا سناهما المتلامح في حياة العرب. فالشعر إن هدأت حوافزه بعض الشيء في تلك المرحلة أو لم تهدأ فلكني يدعم الحضارة الجديدة أو يفسح لها المجال حتى تتمكن جذورها في الأرض، وكذلك ليفسح المجال أمام اللغة العربية حتى تنطلق بطريق الذين كالسيل المخصب المسرع الهدار في جوانب المعمورة، وأمام الشعر نفسه كي يوتي ثماره الشهية من كل نوع ومن كل صنف فيما بعد.

ولقد اشتدَّ في ظهور الإسلام الاعتمادُ على البيان وسيلةً من وسائل الإقناع والتأثير والمُنافحة للتأليف بين العرب وهدايتهم. وحسبنا هنا أن نُشير إلى القرآن الكريم ومكانته وأثره العميق في نفوس العرب. وهو كما أسلفنا ليس بالشعر ولا هو بالنثر. ولكنه فوق الشعر والنثر. ومع ذلك كان حسان بن ثابت شاعرُ الرسول يُؤيد الدعوة بلسانه العُصب.

ولقد أدرك الخلفاء الراشدون بثاقب بصيرتهم وبنور عقيدتهم هدف الشعر إذ ذاك فلم يحفلوا منه إلا بما يخدم المجتمع الجديد ويوطد دعائمه وصدفوا عن كل انحراف أو ضلال فيه. ولعلَّ القصة الآتية تظهر ما نَقصِدُ إليه:

«استعمل عمر (بن الخطاب) الثُّعْمان بن عدي بن نضلة على ميسان، فبلغه عنه الشعر الذي قاله وهو:

وَمَنْ مُبْلِغُ الْحَسَنَاءِ أَنَّ خَلِيلَهَا (١)
إِذَا شَتَّ غَتِّي دَهَاقِينَ قَرِيَّة
بِمِيسَانَ يُسْقَى مِنْ زُجَاجٍ وَحَتَّتُمْ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي
وَصَنَاجَةٌ تَجْدُو عَلَى كُلِّ مَنْسِمٍ (٢)
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ
وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ
تَنَادُّمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَلِّمِ

فكتب إليه:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٦٥﴾ حَمَّ ﴿٦٦﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٧﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٦٨﴾﴾.

أما بعد فقد بلغني قولك: لعلَّ أمير المؤمنين يسوؤه. البيت. وأيم الله إنَّه ليسوؤني. فاقدم فقد عزلتُك. فلما قدِم عليه، قال: يا أمير المؤمنين! والله ما شربتها قط، وإنَّما هو شعرٌ طَفَحَ على لساني، وإني لشاعرٌ. فقال عمر: أظنُّ ذاك، ولكن لا تعمل لي على عمل أبداً» (٣).

إنَّ الشاعر قد دافع عن نفسه أمام عمر بكونه شاعراً، وللشاعر مُتَّسِعٌ في القول، فهو قد يقول ما لا يفعل؛ ولا يلزم من وصفه أمراً أو تغنيه به وقوع هذا الأمر. وعمر يعلم ذلك حقَّ العلم وإلا لأقام عليه الحدَّ، ولكنه كان يرى في الشعر على حدِّ تعبيرنا اليوم

(١) يروى أيضاً خليلها.

(٢) في الأصل يحدو وهو تضحيف. ومعنى تجدو ترقص قائمة على أطراف أصابعها.

(٣) شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة ج ٣ ص ٩٨، جُمهرة رسائل العرب في عصور العربيَّة الزاهرة، جمع أحمد زكي صفوت ج ١ ص ٢٨٢.

«الالتزام» الإيجابي ولا سيما بالنسبة إلى والٍ مسؤول يُتَهَجُّ مثاله وتُحتذى شمائله. كان عمر يرى لزوم اقتران الجمال والخير معاً والصدوف عن الفضول وعمّا لا خير فيه ولا نفع. كان مُتَحَسِّساً لأعباء المُجتمع الجديد، مُتَشَوِّفاً إلى آفاقه ومَراميه البعيدة.

ومرَّ الزَّمان وتَوَطَّدَتِ اللُّغة العربيَّة وأصبحت لغة حضارة متألِّفة واستطاعت أن تَصُون بِتَوَطُّدها ماضيها وأن تَحْفَظ تراثها في الشَّعر الجاهليِّ على اختلافِ أنواعه ما أمكنها هذا الحِفْظ، كما نَشَأَ فيها شعراء كبارٌ تناوَلوا أغراضاً فَنِّيَّةً مُتَعَدِّدة ولكنَّهم لم يَغْفُلُوا عن رسالة الشَّعر القوميَّة العميقة.

فهذا أبو تَمَّام أشدُّ ما يكونُ ابتهاجاً بانتصارِ العرب على الرُّوم في وَقْعة عُمُورِيَّة:
أَبَقْتُ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمُصَفَّرَ كَأَسْمِهِمْ صَفَرَ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ
وهو في مدائحه ومَراثيه مِثْلُهُ مِثْلُ النَّحَاتِ يُمَثِّلُ الشَّمَائِلَ الْحَمِيدَةَ وَالْخِصَالَ
الكَرِيمَةَ، وَيُصَوِّرُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ. وقد أدرك غاية الشَّعر هذه، فهو القائل:
وَلَوْلَا خِلَالُ سِتْهَا الشَّعْرِ مَادَرَى بُغَاةُ الْعَلَا مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

ولقد غَنَّى حَبِيبُ اتِّسَاعِ الْبِلَادِ العربيَّة وحضارتها الرَّحْبَةَ الْفَيْنَانَةَ غِنَاءً رَقِيقاً شَائِقاً حين
شَبَّبَ وَنَسَبَ وَذَكَرَ الْأَهْلَ وَالْأَخْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وأشار إلى تَشَتُّبِهِمْ فِي رُبُوعِ تِلْكَ الْبِلَادِ
الْمُطْمِئِنَّةِ الْمُتْرَامِيَةِ. وفي نَغَمَاتِ أَبْيَاتِهِ عَاطِفَةٌ حُلُوةٌ مُحِبَّةٌ شَجِيَّةٌ مُتْرَفَةٌ:

ما اليَوْمُ أَوَّلُ تَوْدِيعِي وَلَا الثَّانِي	الْبَيْنُ أَكْثَرُ مِنْ شَوْقِي وَأَحْزَانِي
دَعِ الْفِرَاقَ فَإِنَّ الدَّهْرَ سَاعِدَهُ	فَصَارَ أَمْلُكَ مِنْ رُوحِي بِجُثْمَانِي
خَلِيفَةُ الْخِضَرِ مَنْ يَرْبَعُ عَلَى وَطَنِ	فِي بَلَدَةٍ فَظُهُورُ الْعَيْسِ أَوْطَانِي
بِالْشَّامِ أَهْلِي وَبِغَدَادِ الْهَوَى وَأَنَا	بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي ^(١)
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ	حَتَّى تُشَافِفَ بِي أَقْصَى خِرَاسَانِ
خَلَفْتُ بِالْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ لِي سَكْنَا	قَدْ كَانَ عَيْشِي بِهِ حُلُوءاً بِحُلُوانِ
غَصْنٌ مِنَ الْبَانِ مُهْتَزٌّ عَلَى قَمَرِ	يَهْتَزُّ مِثْلَ اهْتِزَازِ الْغُصْنِ فِي الْبَانِ
أَفْنِيْتُ مِنْ بَعْدِهِ فَيُضُّ الدَّمُوعَ كَمَا	أَفْنَيْتُ فِي هَجْرِهِ صَبْرِي وَسُلُوانِي
وَلَيْسَ يَعْرِفُ كُنَّةَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ	حَتَّى يُغَادِيَ بِنَايَ أَوْ بِهَجْرَانِ

كَانَتْ مَطَايَا السَّفَرِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ الْعَيْسِ وَالْخِيلِ. وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَصْقَاعَ
الْبِلَادِ وَيَتَجَوَّلُونَ فِي رُبُوعِهَا وَيَتَفَيَّوْنَ ظِلَالَهَا وَيَهْصِرُونَ ثَمَرَاتِ تِلْكَ الْحَضَارَةِ الشَّهِيَّةِ مِنْ

(١) وَيُرْوَى «بَغْدَاد»، وَ «الرَّقْمَتَيْنِ»، وَمَا أَظُنُّ النَّوَى عَنِي بِرَاضِيَةٍ، وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَلْقَى مَرَايِيهَا.

كلّ نوع ويتذوّقون أطيبها. ونحن اليوم في عصر الطائرات النفاثة ولا يعرف ابن القطر العربي أجزاء البلاد العربيّة الأخرى، لأنّ السياسة الاستعماريّة قد جزّأتها وأقامت بينها سدوداً وأستاراً حديديّة. بعضنا يعرف الغرب والشرق ولا يكاد يعرف بقية بلاده العربيّة. وهيهات لشاعر اليوم أن يُغنّي مثل هذا الغناء إلا أن يبكي الماضي ويندب التّجزئة ويتحمّس للمستقبل.

كانت البلاد العربيّة إذ ذاك أغنى بلاد العالم وأكثرها عُمراناً وأشدّها تقدّماً والمعها حضارة. كانت كنوز الدنيا تُحمّل إليها وتُجبي لها. وكان عصر أبي تمام عصر خلافة الرّشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، بلغ الفكر والعلم والثّقافة فيه أوج الاتّساع والرّقّي والقوّة.

أمّا غنى ذلك العصر فربّما يكفي إيراد مثل واحد بارز معروف لتذكير ألبهة الحضارة وتزف المميّسة وتفشّ ألوان الحياة. ففي عصر أبي تمام، في سنة ٢١٠ هجرية حصل عرس المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل. ويذكر المؤرخون كيف فرّش له يوم العرس حصير من ذهب وثيّر عليه ألف حبة من الجواهر وأشعل بين يديه شمعة عنبر وزنها مائة رطل وثيّر على القواد رقاع بأسماء ضياع، فمن وقعت بيده رقعة أشهد له الحسن بالضيعة. وكان أبو تمام متّصلاً بأمراء عصره ورجال الدّولة، وهو الفقير الذي بدأ حياته حاكماً بدمشق، ثم صار يسقي الماء في جامع عمرو؛ فاطلع على ألوان تلك الحياة المثرفة وأفانيتها. ومن جملة من اتّصل بهم ونال جوائزهم الحسن بن سهل هذا حمو المأمون والخليفة المأمون نفسه وكذلك المعتصم من بعده ثمّ الواثق وطائفة من قادة الثّغور وأمراء البلاد. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون شعره موشى بأنواع الزينة توشية الحياة التي يحيها أولئك الرّجال، موشحاً بالوان البديع والصّناعة توشيح مجالي العيش الذي يعيشونه. ولا عجب إذا انتبه الشّاعر لتلك المحسّنات البديعيّة في صنعة متعمّدة تظهر فيها أحياناً آثار الدّأب والجهد فهو القائل في المديح:

يَمْدُون من أيّد عواصٍ عواصمٍ تصول بأسيافٍ قواصٍ قواصِبِ
مُجانساً بين عواصٍ وعواصمٍ وقواصٍ وقواصِبِ جناساً مُذيّلاً.

وكذلك يقول في النّسيب:

وأنجدنكم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد
مُعتمداً على جناس الاشتقاق بين إنجاد الأحياء وإنجاد الدّمع ومكان نجد وعلى الطّباق بين الإنجاد والإتهام.

وأما الثقافة والعلم والفكر في ذلك العصر فلقد كانت العبقريات تفتح كالنجوم في كل أفق، وكانت البلاد كلها تعج بالآئمة في كل ميدان من ميادين المعرفة كالفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو والأدب والشعر والتاريخ والرياضة والفلك والموسيقى والفلسفة وأمثالها. ولا شك أن أبا تمام قد صادف فريقاً من أولئك الآئمة في دمشق ومصر وبغداد وبقية أرجاء الدولة العربية واستمع إليهم وأنشدتهم من شعره. ولذلك لا غرو إذا حمل شعره ثمرات تلك المعرفة الواسعة، والتقت في مؤنق قوافيه ظلال تلك الثقافة المتفتنة، وانعكست في مشرق حروفه أشعة تلك الحضارة الوهاجة، واضطرَّ مطالع شعره إلى ثقافة كبيرة تتصل بجوانب تلك الحضارة. قد يبدو لهذا الشعر معقداً وغراً صعباً، ولكنه لا يلبث أن يتجلى لدى الإذمان وإعمال الفكر.

ونعجه الفكري الشعري القائم على صراع الحدود متصل في ذلك العصر بصفة التمايز بين طبقات الشعب وفئاته على خلاف ما كان الأمر عليه في فجر الإسلام وريته من تضامن عميق بين الناس. فلقد تكونت في العصر العباسي طبقات اجتماعية مستندة إلى فروق اقتصادية بارزة بعضها متمول مثرف مجدود، وبعضها فقير مكدود مجهود. كذلك تكونت طبقات عرقية عنصرية طفقت تنافس ظاهراً وباطناً على الحكم. وأهمها الفرس الذين كانت تتألف منهم غالبية موظفي الإدارة والدواوين، وكانوا يدخلون على الدولة عاداتهم وأزياءهم وآيينهم القديمة التي ورثوها عن أجدادهم. وكان بعضهم يتحلون الشيع كائناً يريدون أن يدلوا على الخلفاء العباسيين ويشيروا من طرف خفي إلى اغتصابهم حق الخلافة وينالوا لقاء سكوتهم درجات أعلى في الدولة. وقد بدأت تتوطد في زمن المعتصم طبقة الترك التي كانت تؤلف أغلبية الجيش وقواده. أما العرب فكان منهم بيت الخلافة والأمراء والعلماء والقسم الأكبر الأعم من الشعب. وأصبح الخليفة القوي بعد ذلك من يستطيع أن يحد من نفوذ الفرس المهيمنين على جهاز الإدارة ومن سيطرة الترك الذين كانوا يملكون زمام الجيش. ولم يكن بذ لهذا العصر المعقد من أن تلوح صور عناصره المتشادة المتضادة المشتبكة في فن شاعر صناع ملهم عاش حياة عصره وصروف ذلك العصر. فالشعر ليس مجرد فن كملت عناصره وأتقنت أدائه وبلغ الأوج في الإبداع والصناعة الفنية، وإنما هو وسيلة للمشاركة في الأحداث وإضاءتها بنور البيان والتزام الشاعر فيها موقفاً يختاره أو يدفع إليه. وهكذا تألق أبو تمام بمشاركته في قضايا زمنه، زيادة على مواهبه العالية.

ثم إن المتنبي خلّد مواقع سيف الدولة في الثغور الشمالية للبلاد العربية، وقد كان متعجباً ببطولة هذا القائد العربي الكبير الذي رد هجمات الروم خائبة يائسة ذليلة. ومدح

المُتنبِّي لسيف الدولة ليس مجرد مديح وإنما هي حوافز القومية العربية التي كانت انتصاراتها في بلاد الشام تحمي في الوقت نفسه العراق ومصر:

كيف لا يأمن العراق ومصر
وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الأعادي
ربط الصدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه
فيهما أنه الحقيق الدليل
أنت طول الحياة للروم غاز
فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى أي جانبيك تميل
ما الذي عنده تدار المنايا
كالذي عنده تدار الشمول

كان الشعر إذ ذاك يُصاهي في روعته وقوة بيانه شأو تلك الأمجاد وشموخ تلك البطولات، وكان الشعراء فخورين بفنهم مدركين روعة بيانهم وقوة تعبيرهم. فأبو تمام في مواضع من شعره يعتز ببيانه، وهو القائل في ممدوحه:

غربت خلأثقه وأغرب شاعر
فيه فأبدع مغرب في مغرب

والمُتنبِّي لا يقل إعجابه بنفسه وبيانه عن إعجابه بممدوحه الأبطال الذين تفوقوا في البطولة كما تفوق هو في الشعر. كان الشعر من المجد كإشراق الثور بالنسبة إلى الشمس. فهو القائل:

ليس قولِي في شمسِ فعلك كالشم
س ولكن كالشمس في الإشراق
شاعر المجد خذنه شاعر اللف
ظ كلانا رب المعاني الدقاي^(١)

ولقد كادت تكون حياة العرب كلها نضالاً وكفاحاً وتحقيقاً لقيم إنسانية كأثما دعاهم القدر لإنجازها وسأهم لتحقيقها. وإذا كان رد قوى الشر عن العرب في زمن المعتصم وفي زمن سيف الدولة سهلاً وسريعاً فإن البلاد العربية عانت شراً مستطيراً وعانت رزية كبيرة وذات أذى وبيلاً في العصور الأخيرة من حضارتها المتألقة حين اشتعلت هجمات الصليبيين عليها واشتعلت بردها وبأطفائها وبالتخلص من وباثها. وامتدت تلك الحروب أحقاباً متطاولة حتى كاد الأمل يغور في النفوس. ولكن الانتصار في النهاية دائماً للشعوب مهما طال الأمد. وملاحم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي في انتصاراتهما المتوالية لا يزال لها هزج في أذن الدهر وصليل في سمع الزمان. إلا أن الشعر العربي كان قد

(١) يُدكرنا هذان البيتان بتحليل المفكر كز كغرد لموقف البطل وموقف الشاعر في كتابه «الخوف والرجف».

انحدر إذ ذاك بعض الانحدار. ومع أن شعراء القرن السادس الهجري عاصروا نور الدين وصلاح الدين، ودوى العالم بمواقعهما الجبارة وانتصاراتهما الرائعة، فالغريب أننا لا نكاد نجد أثراً عميقاً وبلغاً في الشعر العربي يضاهي مكانة تلك الانتصارات أو يحكي صداها إلا أن يكون ذلك الأثر قد حصل بصورة غير مباشرة وعلى طريق التصوف والنظريات الفكرية والفلسفية المختلفة. ولكن ذلك غير كاف. وإيا كان الأمر فإننا نجد الشعر العربي في ذلك الوقت قد ضعفت روابطه بالشعب وبالقومى التي كانت متصلة بالدفاع عن البلاد.

ذلك أن الأدب الأصيل والشعر الأصيل والتعبير الأصيل متصلة بالإيمان القومى الأصيل وبتحسس أمانى الشعب العميقة وأغراضه الاجتماعية وأهدافه السامية. فجدور الفن العميق تضرب عميقة في حياة الأمة.

لقد طفحت قلوب الشعراء والناس جميعاً بالابتهاج لانتصارات نور الدين وصلاح الدين، ولكن تلك الانتصارات كانت أروع من بيان جميع الشعراء الذين عاصروهما. والشعراء أنفسهم كانوا يدركون أن أشعارهم لا تلحق بتلك البطولات على خلاف ما سبق عند المتنبي وأبي تمام.

يقول محمد بن القيسراني منوهاً بانتصار الملك العادل نور الدين في وقعة حارم سنة ٥٥٩ هجرية:

هذي العزائم لا ما تدعى القُضْب وذى المكارم لا ما قالت الكتبُ
وهذه الهممُ اللاتي متى خطبتُ تعثرت خلفها الأشعار والخطبُ

فهذه القصيدة الجيدة تُذكر من بعيد قصيدة أبي تمام، فهي من البحر نفسه وعلى الروي نفسه ما عدا حركته. يبدو أن الشاعر منذ الاستهلال يدرك أن الشعر يتعثر وراء شأو تلك الانتصارات والبطولات. لنستمع إليه يمدح نور الدين:

صافحت يا بن عماد الدين ذروتها براحة للمساعي دونها تعبُ
ما زال جلدك يبنى كل شاهقة حتى ابنتى قبة أوتادها الشهبُ
له عزمك ما أمضى وهُمك ما أفضى اتساعاً بما ضاقت به الحقبُ
يا ساهد الطرف والأجفانُ هاجعةً وثابت القلب والأحشاء تضطربُ
أغرث سيفوك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجبُ

ويصف الوقعة وصفاً بارعاً:

حتى استطار شرار الزند قاده فالحرب تُضرم والآجال تُختطبُ
والخيل من تحت قتلها تقر لها قوائم خانهن الركض والخببُ

والثَّعْبُ فوق صَقَالِ الْبَيْضِ مُنْعِدٍ
والسَّيْفِ هَامٍ عَلَى هَامٍ بِمَعْرَكَةٍ
والنَّبْلِ كَالْوَبْلِ هَطَّالٍ وَلَيْسَ لَهُ
وَالظُّبَى ظَفَرٌ حَلَوٌ مِذَاقَتَهُ
وَالْأَسْنَةُ عَمَّا فِي صَدُورِهِمْ

كَمَا اسْتَقَلَّ دَخَانٌ تَحْتَهُ لَهَبٌ
لَا الْبَيْضُ ذُو ذِمَّةٍ فِيهَا وَلَا الْيَلْبُ
سِوَى الْقِسِيِّ وَأَيْدٍ فَوْقَهَا سُحْبٌ
كَأَنَّمَا الضَّرْبُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ
مِصَادِرُ أَفْلُوبٍ تِلْكَ أَمْ قُلُوبٌ

ثُمَّ يَسْتَحِثُّهُ عَلَى تَحْرِيرِ الْقُدْسِ . وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّعْبَ الْعَرَبِيَّ كُلَّهُ كَانَ مُتَطَلِّعًا
إِلَى تَحْرِيرِهِ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى ذَلِكَ :

فَانْهَضْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِذِي لَجَبٍ
وَأَنْذَنْ لِمَوْجِكَ فِي تَطْهِيرِ سَاحِلِهِ
يَا مَنْ أَعَادَ ثَغُورَ الشَّامِ ضَاحِكَةً
مَا زِلْتَ تُلْحِقُ عَاصِيَهَا بِطَائِعِهَا
حَلَلْتَ مِنْ عَقْلِهَا أَيْدِي مَعَاقِلِهَا

يُؤَلِّيكَ أَقْصَى الْمُنَى فَالْقُدْسُ مُرْتَقِبٌ
فَإِنَّمَا أَنْتَ بَحْرٌ لُجَّةُ لَجَبٍ
مِنَ الظُّبَى عَنْ ثَغُورِ زَانِهَا الشَّنْبِ
حَتَّى أَقَمْتَ وَأَنْطَاكِيَّةَ حَلَبٍ
فَاسْتَجَفَلْتَ وَإِلَى مِثَاقِكَ الْهَرَبُ^(١)

أَمَّا تَحْرِيرُ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ فَقَدْ تَمَّ عَلَى يَدِي صَلَاحِ الدِّينِ . وَكَانَ قَدْ مَضَى عَلَى
اِحْتِلَالِ الْفَرَنْجِ لَهُ نَحْوُ تِسْعِينَ سَنَةً فَفَرَّحَ النَّاسُ حَتَّى حَسِبُوا ذَلِكَ حَلَمًا .

يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْعَدِ الْحَلَبِيِّ قَصِيدَةً يَسْتَهْلِكُهَا بِهَذَا الْبَيْتِ :

أَتَرَى مَنَامًا مَا بَعَيْنِي أَبْصُرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ

وَيَقُولُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّعَاتِيُّ :

أَعْيَا وَقَدْ عَايَيْتُمُ الْآيَةَ الْعُظْمَى لِأَيَّةِ حَالِ نَذْخَرِ النَّشْرِ وَالنَّظْمَا
وَقَدْ سَاغَ فَتْحُ الْقُدْسِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ وَشَاعَ إِلَى أَنْ أَسْمَعَ الْأَسَلَ الصُّمَّا

(١) كِتَابُ الرُّوضَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ ص ٥٨ ، ٥٩ مَطْبَعَةُ وَادِي النِّيلِ سَنَةِ ١٢٨٧ هـ . يَقُولُ الشَّاعِرُ
نَفْسُهُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى مُشِيرًا إِلَى قُصُورِ الشَّعْرِ وَالنَّشْرِ عَنْ تَصْوِيرِ تِلْكَ الْاِنْتِصَارَاتِ :

وَمِنْ رَاهِنِ الْأَقْدَارِ فِي صَهْوَةِ الْعُلَا فَلَنْ تَدْرِكَ الشُّعْرَى مَدَاهُ وَلَا الشُّعْرُ
إِذَا الْحِجْدُ أَمْسَى دُونَ غَايَتِهِ الْمُنَى فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ النَّظْمُ وَالنَّشْرُ
وَفِي الْحَقِيقَةِ عَدَمُ اسْتِطَاعَةِ الْبَيَانِ الْإِحَاطَةَ بِالْوَصْفِ أَوْ التَّعْبِيرِ عَنْ دَقَّةِ الْمَشَاعِرِ فَكِرَةٌ يَتَدَاوَلُهَا الشُّعْرَاءُ
وَالْكَتَّابُ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ . يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ نَفْسَهُ فِي وَقْعَةٍ عَمُورِيَّةٍ :

فَتُحُ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظْمٌ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ نَشْرٌ مِنَ الْخُطْبِ
وَلَكِنَّ التَّنْوِيهِ الْمُتَكَرِّرَ بِتِلْكَ الْفِكْرَةِ يَبْدُو لَنَا سِمَةً فِي أَشْعَارِ ذَلِكَ الْعَصْرِ تَجَاهَ اِنْتِصَارَاتِ نَوْرِ الدِّينِ
وَصَلَاحِ الدِّينِ .

ولَهج الشعراء من جميع بلاد العرب بهذا الفتح المُبين .

يقولُ أبو عليّ الحسنُ الجويني من أهل بغداد وكان مُقيماً بمصرَ قصيدة :
 متى رأى الناس ما نحكيه من زمن وقد مضت قبلُ أزمانٌ وأزمانُ
 أضحى ملوكُ الفرنج الصيد في يده صيداً وما ضَعفوا يوماً وما هانوا
 تسعون عاماً بلادُ الله تصرُخُ والد اسلام أنصاره صُـمٌّ وعُميانُ^(١)
 فالآن لبى صلاحُ الدين دَعوتهم بأمر من هو للمِغوانِ مِغوانُ
 للناصر اذْخِرَتْ هُذي الفتوح وما سمَتْ لها هِمُّ الأملاك مذ كانوا

وكذلك يقول ابن جُبَيْر المَغرِبِيّ في صلاح الدين قصيدة أولُها :
 أَطَلَّتْ على أَفْئِكَ الزَّاهِر سُعود من الفلك الدَّائِر

ويقولُ البهاءُ زهير عند انْتِزاع ثغر دِمياط من الفرنج :
 وما فرحت مصرُ بهذا الفتح وحدها لقد فرحت بغداد أكثرَ من مصر
 ولقد كانت البلاد العربية يَجْمَعُ بينها تضامُن عميق تُجاه الصليبيين .

ومن المَعروف أن الملك لويس التاسع بعد انْهزامه في مصرَ شاء أن يَنْتَقِم من العرب
 بفتح تونس فقال أحدُ شعرائها :

يا فرنسيس هذه أختُ مصر فتأهَّب لما إليه تصيرُ
 لك فيها دارُ ابنِ لقمان قبرا وطواشيك مُنْكَرٌ ونَكيرُ^(٢)

حصلَ إذ ذاك اتِّجاه عامٌّ شامل في مَشاير العرب نحو نور الدين وصلاح الدين
 وانتِصاراتهما- التي كانت ترفعُ راية العرب عاليةً وتُخلِّصُ البلاد من رِجس أسلاف
 المُستعمرين . وذلك الاتِّجاه العامُّ الشَّامِل تَشَفُّ طائفة من أشعار الشعراء عنه في ذلك
 العهد . يَبْدُ أنَّ خصائصَ ذلك الشعر كُلِّه لا تُؤَهِّلُه لكي يكونَ حقاً في مُستوى ذلك المجد
 القوميِّ المؤثِّل . إن شاعريَّ المجد إذ ذاك لم يكنْ لهما خِذن من شعراء اللَّفظ على حدِّ
 تعبير المُتنبِّي . ذلك لأنَّ البيان العربيَّ عامَّة كان قد اتَّجه نحو زُخرف القول والعناية
 بالشَّكل وقلَّ اتِّصاله بالينابيع العميقة في القلوب ليَمْتَنَحَ منها مَعِينَه الأصيل .

(١) هكذا في الأصل وهو صحيح ويجوز أن نقولَ تسعين على الظرفية .

انظر كتابَ الرُّوضتين من أجل الأشعار المُستشهد بها في العصر الأيوبيّ في مواضع مُتفرقة . وانظر
 كذلك «خريدة القصر» للعماد .

(٢) المقرئزي السلوك ج ١ قسم ثان ص ٣٦٥ .

على أن تلك الملامح من أطوار الشعر العربي حاولنا إبرازها لدى بعض الشعراء الذين هم أجود تمثيلاً لها ممن سواهم، وذلك في الأحقاب السالفة المتطاولة.

بيد أن مناقشات مؤرخي الفنون حول معاني فن الباروك واختلافهم في تفهيمها وتخليدها وهل هي تنحصر في عصر مُسمّى أو توازي أسلوباً فنياً أو مرحلة من الأسلوب الفني كل ذلك يُشير إلى اشتباك المسألة وصعوبة ضبطها واختلاط عناصر الباروك أحياناً بعناصر أتباعية. وإننا لنرى أن أمزجة الشعراء وطبائع تفكيرهم وملكاتهم الفنية تختلف اختلافاً يوازي تباین خصائص الفن الاتباعي وفن الباروك. وذلك الاختلاف يؤكد ويوطده تطوّر الحياة الاجتماعية وتطوّر أساليب التعبير فيها وفقاً لها. ولذلك لا عجب إذا وجدنا عند ازدهار الفن البراق، كما دعّونه في مرحلته الأولى لدى أبي تمام ولدى المُننبي، شعراء كانوا أقرب إلى عمود الشعر الاتباعي على رغم تأثرهم العميق بالحياة الاجتماعية وتطوّر أسلوب التعبير وعلى رغم اشتغال أشعارهم على عناصر بَرّاقة، وإن كانت هذه العناصر تكاد تختفي وراء الطبع وتحتجب خلف أصالة التعبير البسيط، إلا على الفاحص المتأمل والمُدقق المُمحص. نذكر هنا البُحترّي الذي أخذ عن أستاذه أبي تمام الشيء الكثير، ولكن شعره مع ذلك ذو جمال اتباعي سافر. وكذلك في مرحلة الفن البراق الثانية عندما اشتدّت العناية بتزيين الشكل وزخرفته نجد إلى جانب ابن الفارض الذي هو ممن يُمثلون أوج هذه المرحلة بهاء الدين زهيراً الذي وصفنا أشعاره بالبرقة والسهولة والطبع، وهي إلى هذه الخصائص وإلى ما فيها من عناصر بَرّاقة تبدو ذات جمال اتباعي واضح. ولكننا مع هذا الاشتباك الذي نجده في خصائص التعبير، ومع هذا الاختلاف الذي نجده في أمزجة الشعراء وطبائعهم حاولنا أن نوضح سمات الأطوار التي مرّ بها الشعر العربي من حيث دلالات الألفاظ، وطراز التعبير، وأسلوب البيان، ضاربين صفحاً عن تطوّر أغراض الشعر وصادفين عن تطوّر المعاني والأفكار إلا ما تعلّق بتلك الدلالات وبطراز التعبير وأسلوب البيان، وهو ما كنّا بصدد بحثه والكشف عنه.

وربما كان أبو تمام من أشدّ الشعراء استمساكاً بالأغراض التي عالجهما الشعراء الاتباعيون ولا سيما في الجاهلية وأكثرهم مُراولة للأفكار الفنية التي عالجوها من وقوف بالأطلال وسؤال الدّم وبكاء الرُسوم وادّكار الأيام والليالي السّوالف وتشبيب يجري هذا المجرى ومن استعمال ألفاظ غريبة وبدوية أحياناً. ومع ذلك فقد أعجب به كثيرون، ونَدّد كثيرون آخرون بهجه الذي سلكه في استعمال الألفاظ وفق دلالات مجازية مُتضادة في الغالب، ووفق نسب هذه الألفاظ بعضها إلى بعض، ووفق مواكب الإيحاء التي تحمّلها تلك الألفاظ في أطوارها.

إننا وصفنا بعض أطوار الشعر العربي، ولم نصِف كيف انتقل الشعر العربي من طور إلى طور، لقد ذكرنا خصائص تلك الأطوار التي ميّزنا بعضها من بعض دون أن نسجل حركة التطور. ولا شك أن التماس العناصر التي تؤلف تلك الحركة يستدعي قصر البحث على مرحلة زمنية قصيرة معينة ويستلزم دراسات لغوية وتاريخية وفكرية وحضارية مستقصية. وهذا يخرج عن موضوعنا العام الذي قصدنا بيانه وإيضاحه.

على أن بعض أطوار الشعر العربي التي وصفناها إنما كانت تتمثل خاصّة في الشعر الرائج المعتمد لدى بلاط الخلفاء والأمراء والولاة ولدى الطبقة المثقفة الراقية الواسعة النطاق في البلاد. ولكن المجتمع العربي الإسلامي قد نشأت فيه طبقات متميزة ودخلته عناصر فكرية وفنية أجنبية. وربما كان نشوء هذه الطبقات وتمايزها ودخول تلك العناصر الفكرية والفنية والأجنبية من العوامل التي أدت إلى ذلك التطور الشعري أو على الأقل من الظواهر التي وازت ذلك التطور.

ليس الفن ملك طبقة دون طبقة ولكنه ثمرة من ثمرات القرائح والمكاث والمواهب الفنية والثقافية الموزعة في الأمة والشعب توزع النجوم على صفحة السماء الواسعة، ولذلك لزم أن يتفرع فن عالمي ضخم نبضت على إيقاعه قلوب ملايين الناس هو الشعر العربي فتشأ عنه أشكال متعددة وألوان مختلفة كما تنطلق نيران الزينة عند إشعالها فتفرع شعباً وأشكالاً وطاقات بديعة مزهوة في الجو البعيد.

ولا غرو إذا أدى تطور الحضارة العربية الإسلامية بجانب ما ذكرناه من اختلاف أساليب البيان الشعري إلى إدخال أوزان شعرية جديدة.

ويجب هنا أن نظهر لهذا التطور في العروض إذ ذاك لأننا نشهد في عصرنا الحديث تطوراً في العروض أيضاً. ومن المفيد أن نتذكر تلك التجربة الواسعة التي مرّ بها الشعر العربي في السابق، ولو تناول البحث كيلاً نغفل عن المقابلة بين التجريبتين.

الأوزان المُستحدثة :

من المعلوم أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي قد نظر فيما ورد عن العرب من الشعر واستطاع أن يضبطه وأن يردَّ أوزانه إلى خمسة عشر أصلاً سماها بُحور الشعر. ثم زاد الأخفش عليها بحر المُتدارك أو الخَبَب فصارت ستة عشر بحراً.

فكلُّ ما خرج عن هذه الأوزان فليس بشعر عربي.

ولكنَّ المؤلِّدين من الشعراء الذين عاشوا في ظلال الحضارة العبَّاسية رأوا أنَّ الإيقاع الشعريَّ أوسع من أن يُحدَّ في أوزانٍ مَحْصُورَةٍ ووجدوا أنَّ حصر الأوزان في عددِ البُحور السابقة يضيق عليهم مجالَ القول. ثمَّ إنَّهم عدا ذلك كانوا يُجرون كلامهم في بعض الأحيان على الأنغام الموسيقيَّة التي نقلتها إليهم الحضارة، وهذه كثيرة. ثمَّ إنَّ فريقاً منهم من أصلي غير عربيٍّ، فإذا قرَّض الشعر في اللُّغة العربيَّة فرَّبما نظَّمه على الإيقاع الذي ألفه واعتاده في لغته الأصليَّة.

وقد رُوي أنَّ أبا العتاهية نظَّم على أوزانٍ لا تُوافق ما استنبطه الخليل، إذ جلس يوماً عند قَصَّار، فسمع صوت المِدْق فحكى وزنه في شعره وهو:

للمنــــــــــــــــونِ دائــــــــــــــــرا تٌــــــــــــــــيدِرنَ صــــــــــــــــرفهــــــــــــــــا
حتــــــــــــــــى يَنْتَقِيَنَّــــــــــــــــا واحــــــــــــــــداً فــــــــــــــــواحداً

فلما انتقَد في هذا قال: أنا أكبرُ من العروض.

ولا شكَّ أن رَحابة الحياة وفَيْضها وتَغْيِيرُ الظُّروف والأذواق وعبقريَّة الإنسان ومواهبه أوسع من أن تحصرها حدودُ مرسومة وقوالبُ مَسْكُوبَة مَصْنُوعَة أيَّا كان جمالها ومُرونتها. ولذلك لم يُطَقِ المؤلِّدون أن يلتزموا تلك الأوزان الموروثة من العرب، فأحدثوا أوزاناً جديدة كثيرة الأشكال شاعت إذ ذاك في مختلف البلاد العربيَّة والإسلاميَّة وجرب شعراء كثيرون أن ينظِّموا فيها. وربَّما كنَّا في العصر الحاضر لا نُقدِّر ذلك التَّجديد المُتَشعِّب

الواسع في عروض الشعر لقلة مُمارستنا تلك الأوزان المُستحدثة. ولكن الذي يُنقَّب في أوزان العروض إذ ذاك يعجَّب لكثرتها.

طائفة من هذه الأوزان يصحُّ اعتبارها مُستنبطة من قلب بعض البحور العربيّة المعروفة. انظر إلى هذا البيت:

لقد هاجَ اشتياقي غريزُ الطرفِ أخورَ أديرُ الصُّدغَ منه على مسكٍ وعنبرِ وتأمَّل وزنه تجذّه مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مرّتين.

ومن المعروف أنَّ بحر الطَّويل وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن مرّتين. فهو إذن مقلوبه، ولذلك سَمَّوه بالمستطيل. وليس المجال هنا مُتسعاً لعرض الأوزان المُستحدثة إذ ذاك، وهي التي تُعتبر مأخوذة من الأوزان المُتعارفة، ولا لضرب الأمثلة عليها، وإنَّما تُمكن مراجعتها في كتب العروض. ولكن لا بدَّ من تذكير أسمائها لبيان كثرتها وأنواعها.

فلإلى جانب المُستطيل هذا الذي ذكرناه استحدثوا المُمتدَّ وقيلَ له ذلك لأنَّه مقلوب المديد.

والمُتوافر وهو مأخوذ من الوافر أو هو مُحَرَّف الرَّمَل؛ والمُتَّمد، والفُرس يُسمُّونه الجديد، وهو مأخوذ من المُجْتَثِّ؛ والمُنسَرِد، والفُرس يُسمُّونه القريب، وهو مأخوذ من المضارع؛ والمُطرَّد وهو صورة أخرى من مقلوب المضارع، والفُرس يُسمُّونه المشاكل.

وقد تُسمَّى هذه الأوزان المُستحدثة أسماءً أخرى. ولأكثرها فروع مُثَمَّنة ومُرَبَّعة وأشكال مُتعدِّدة.

وكذلك أخذوا أوزاناً جديدة كالسُّلسلة والقُوما وكان وكان والمَواليا والدُّوبيت والمُوشَّح والزَّجل. بعضها يرجع إلى البحور العربيّة وبعضها لا يرجع. ومنها ما كان يُستعمل مَلحوناً في الغالب ومنها ما كان يُستعمل مُعرباً. إلَّا أنَّ المُعرب كان لا يَشتمِل إلَّا على ألفاظ سهلة بسيطة مألوفة تكاد تكون قَريبة من العاميّة. ويذكرُ العروضيون أحياناً البلدان التي نشأت فيها تلك الأوزان الجديدة لأوّل مرّة والمناسبات التي استدعتُ نشوءها. وكان الفنُّ الشعريُّ الجديد إذا شاع في بلد أسرعَ فانتشر في بقية البلدان العربيّة. كما أنَّ الشاعر إذا نبغَ في فنٍّ من هذه الفنون تداولَ النَّاسُ أشعاره في كلِّ مكان. بعض تلك الأوزان كان ذا نَزعة شعبيّة واضحة. ولهذا هو السَّبب الذي من أجله كان مَلحوناً أو قريباً من العاميّة، ينظَّم فيه فريق من النَّاس بلُغيتهم التي كانوا يتكلَّمون بها ويُعربون فيه عن مَشارِعهم التي كانت تَعْتَلج في نفوسهم والتي كانت تتَّصل بحياتهم القريّة يُصوِّرون فيه

أوهاّمهم وأخيلتهم وعواطفهم كالموالي^(١) والقوما وكان وكان^(٢). ثم إنّ فريقاً من العلماء كانوا ينظمون في هذه الأوزان للتأثير في بعض طبقات الشعب. كانوا يُخاطبونهم بالفاظهم والأوزان التي يميلون إليها والإيقاع الذي يتأثرون به.

على أنّ المتأمل في هذه الأوزان الجديدة سرعان ما يشعر شعوراً عارماً باختجاب الإيقاع البارز التّأثير الذي ألفه في البحور العربيّة والذي هو من خصائص تلك البحور. ويستند هذا الاختجاب في الرّباعي أو الذّوبيت. وإنّما سُمّي بذلك لأنّهم يقتصرون فيه على أربعة مصاريع أي بيتين ويجعلونهما على قافية واحدة. وأوزان الرّباعي هذا كثيرة تبلغ أربعة وعشرين نوعاً. ولهذه الكثرة ولما يدخله من زخافات وعِلَل لا تكاد نُشعرُ بإيقاع بارز فيه ويبدو لنا أنّه شاع كردّ فعل لإيقاع البيت العربيّ الشّديد الذي يكاد يحجب في بعض الأحيان جمال الفكرة الشعريّة أو يكاد يشغل مكانها ويُلهي السّامع عنها. فالشّعراء مارسوا هذا النوع من الوزن الفارسيّ في اللّغة العربيّة وكأنّهم يُريدون أن تظهر فكرتهم الشعريّة تتّموّج على غور خفيف من الإيقاع كما يتّموّج اللّحن في الفضاء أو أن تبرز صنتهم البديعيّة كالحليّة العاريّة المنفردة. وكثير من أئمة الفكر والشعر أقبلوا على هذا الوزن. وينبغي لنفهم قيمته وجماله أن نتمرّس به بعض الشيء، وأن نتخيّل وقّع هذه العبارات الحلوة البسيطة التي كانت مُتداولة وقريبة من أفهام النّاس. هذا الشّاعر الصّوفيّ المتأنق في الزّخرفة والزّينة الشّكليّة ابن الفارض يشتمل ديوانه على واحدٍ وثلاثين رباعياً.

استمع منها إلى هذا الذّوبيت الجميل البسيط التّعبير المُعتلج العاطفة، تتّموّج الفكرة الحلوة فيه كالنّغم فوق قاع من الألفاظ السّهلة:

روحي لك يا زائر في اللّيل فدا يا مُؤنس وحشتي إذا اللّيل هدا
إن كان فراقنا مع الصّبح بدا لا أسفّر بعد ذاك صُبح أبدا
بيد أنّ المُوشح كان من أكثر هذه الأوزان الجديدة حظاً في الانتشار وفي

(١) هذا من البحر البسيط ولا يلزم فيه مُراعاة قوانين العربيّة. ويذكرون فيه سبب نشأته أنّ الرّشيد لما نكب البرامكة أمر ألا يُرثوا بشعر فرثهم جارية بهذا الوزن وجعلت تُنشد وتقول ياموالي ليكون ذلك منجاة لها من الرّشيد لأنّها لا ترثهم بالشعر المنهيّ عنه، أو يذكرون أنّ الذي اخترعه أهل واسط تعلّمه عبيدُهم المُسلمون لِمَمارتهم وغلمانهم صاروا يُغنّون به في رؤوس النّخل وعلى سقي المياه.

(٢) اخترعهما البغداديون. أمّا القوما فاسمه مأخوذ من قول بعضهم لبعض «قوماً نسحر قوماً». وأمّا كان وكان فقد نظموا فيه الحكايات والخرافات فكان قائله يحكي ما كان، ثم ظهر بعض الرّعاظ والأئمة فنظموا فيه الحِكَم والمواعظ.

الاستعمال. ويحسنُ بنا هنا أن نَعْتَمِدَ على عالم اجتماعيٍّ ومُفَكِّرٍ عميقٍ يشرح لنا نُشوء المَوْشَح. يقولُ ابنُ خلدون في مُقدِّمته:

«وأما أهلُ الأندلس فلَمَّا كثر الشعر في قُطْرِهِم وَتَهَدَّبَتْ مَنَاحِيهِ وَفَنُونُهُ وَبَلَغَ التَّنْمِيقُ فِيهِ الْغَايَةَ اسْتَحْدَثَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ فَنًّا مِنْهُ سَمَّوْهُ بِالْمَوْشَحِ يَنْظُمُونَهُ أَسْمَاطًا أَسْمَاطًا وَأَغْصَانًا أَغْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْهَا وَمِنْ أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَيُسْمُونُ الْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا بَيْتًا وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عَدَدَ قَوَافِي تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْرَازِهَا مُتَتَالِيًا فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ. وَأَكْثَرُ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ آيَاتٍ، وَيَسْتَمِيلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ عَدَدُهَا بِحَسَبِ الْأَغْراضِ وَالْمَذَاهِبِ وَيَسْبُونَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ. وَتَجَارَوْا فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ لِسُهولةِ تَنَاوُلِهِ وَقَرْبِ طَرِيقِهِ. وَكَانَ الْمُخْتَرِعُ لَهُ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مُقَدِّمُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْقَبْرِيِّ مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعِقدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لِهَما مَعَ الْمُتَأَخَّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مَوْشَحَاتُهُمَا، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عُبَادَةُ الْقَزَّازِ شَاعِرُ الْمُعْتَصِمِ بْنِ صُمَادِحِ الْمَرْيَةِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلَيْوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرَ بْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ: كُلُّ الْوَشَّاحِينَ عِيَالٌ عَلَى عُبَادَةِ الْقَزَّازِ فِيمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ:

بَذَرْتُكُمْ	شمس ضحى	غصن نقا	مِسْك شَم
مَا أَتَيْتُمْ	مَا أَوْضَحَا	مَا أَوْزَقَا	مَا أَتَيْتُمْ
لَا جَرَمَ	مِنْ لَمَحَا	قَدْ عَشِقَا	قَدْ حَرَمَ

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ عُبَادَةُ وَشَّاحٌ مِنْ مُعَاصِرِيهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَائِفِ وَيَقُولُ الْمُؤَلِّفُ فِي الْفَصْلِ ذَاتِهِ: «ثُمَّ جَاءَتِ الْحَلْبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي دَوْلَةِ الْمُلُثِّمِينَ فَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبِدَائِعُ؛ وَسَابِقُ فُرْسَانَ حَلِبَتِهِمُ الْأَعْمَى التُّطِيلِيُّ ثُمَّ يَحْيَى بْنُ بَقِيٍّ». وَيُورِدُ ابْنُ خَلْدُونِ قِصَّةَ تَدَلُّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ وَالْعِنَايَةِ بِالْمَوْشَحِ وَالتَّبَارِي فِي تَجْوِيدِهِ: «وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْوَشَّاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِأَشْبِيلِيَّةٍ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ صَنَعَ مَوْشَحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا، فَتَقَدَّمَ الْأَعْمَى التُّطِيلِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ بِقَوْلِهِ:

ضاحكٌ عن جُمانٍ	سافر عن بدرٍ
ضاق عنه الزَّمانُ	وحواه صُدري

خرق ابنُ بَقِيٍّ مَوْشَحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْآخَرُونَ».

وَيَطِيبُ لَنَا أَنْ نُنَوِّهَ بِافْتِنَانِ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ وَبِتَجْوِيدِهِمْ فِيهِ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ

وذلك بأن تُتابع ابنَ خلدون في كلامه: «قال ابن سعيد: وسابق الحلبة التي أدركتُ هو أبو بكر بن زهر. وقد شَرَقَتْ مُوشَّحاته وَغَرَبَتْ. قال: وسمعتُ أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيلَ لابن زهر لو قيلَ لك، ما أبدعُ وأرفع ما وقع لك في التَّوشيح؟

فقال: كنت أقول:

ما للمُؤلِّغ من سُكره لا يفِيقُ ياله سَكَران
من غير خمر ما للكَّيب المَشوق يندُب الأوطان
هل تُستَعادُ أيَّامنا بالخليج وليالينا
إذ يُستَفاد من التَّسيم الأريج مِنك دارينا
وإذ يَكْـسَدُ حَسَنُ المكان البهيج أن يُحِيننا
نهر أظْلَمَ دَوَّح عليه أنيق مُسورِق فينان
والماء يجري وعائم وغريق من جنى الرِّيحان»

ولا يخفى في مثل هذه الأمثلة التي إنَّما قَصَدنا من كلام ابن خلدون إلى ذكرها التَّغْمُ الحُلُو والموسيقى العذبة واللفظ المُختار المنضود كاللؤلؤ والتَّرف السَّافر في اللفظ والمعنى مع البساطة والرِّقَّة والسَّهولة. عندما نقرأ هذه المُوشَّحات لا بدَّ من أن نُغْنِيها غناء. ومن المعلوم أن أكثرها إنَّما كان يُعَنَّى به. والشَّعر الذي يُعَنَّى به يَبْغِي أن يكون بسيطاً رقيقاً سهلاً واضح المعنى قريباً من الأفهام سائِغاً على اللسان وفي الآذان. وكلُّ هذا ممَّا تَنَصَّف به المُوشَّحات. وقد دَرَجَ هذا الفنُّ الشُّعريُّ في بعض العصور وانتشر وساعَ وشاعَ وامتزج بالقلوب والطِّباع وانتقل إلى المَشْرِقِ فعالجه بعض شعرائه مُحْتَدِّين إخوانهم في الأندلس. ونرى من الفائدة أن تُدَقَّق في صِناعة هذا الفنِّ بعض الشيء وفي جوهر التَّجديد الذي يَحْتويه ولا سيَّما أنَّه من الشَّعر الصَّحيح المُعَرَّب الذي هو مَوْضوع بَحْثنا الرَّئِيسِي.

ولذلك نَعْتَمِد على شاعر ومؤلف أُعْجِب بهذا الفنِّ ولَهَج به وصَنَّف في صِناعته كما نَظَم وَحَكى واخْتَرَعَ في مِضمَّارِه وهو ابنُ سَناء المُلك الذي عاش في مصر في النِّصْف الثاني من القرن السَّادس الهجريِّ وشهد السَّنات الأولى من القرن السَّابع. لِنُقَلِّب بِسرعة صفحات كتابه «دار الطَّراز في عمل المُوشَّحات» فأول ما يَسْتَرعي النَّظَر قولُه في المُقَدِّمة: «وبعدُ فإنَّ المُوشَّحات ممَّا ترك الأوَّل للآخر، وسبق بها المُتأخِّر المُتَقَدِّم، وأجْلَبَ بها أهل المَغْرِب على أهل المَشْرِق، وغادر بها الشُّعراء من مُتَرَدِّم، مُلحة الذَّهر، وبابل السَّحر، وعَبر السَّحر، وعُود الهند، وخمر القُفُص، وتَبَرَّ الغُرب، ومِغْيَار الأفهام، ومِيزان الأذهان، ولُبَّاب الألباب، تُلْهي وتُطرب، وتُؤسِّس وتُطعم، وتُخَلِّب وتُجَلِّب، وتُفَرِّغ

وتشغل، وتؤنس وتُنْفِر، هزل كلُّه جِدًّا، وجِدًّا كأنه هزل، ونَظَم تشهد العين أنه نثر، ونثر يَشهد الدُّوق أنه نَظَم. صار المَغرب بها مَشْرِقاً لَشُروقها بأفقه، وإِشراقها في جَوْه، وصار أهله بها أغنى النَّاس لظَفَرهم بالكَنز الذي ذَخَرته لهم الأيَّام، وبالمَعْدِن الذي نام عنه الأنام».

ثم يذكر المؤلِّف شَغَفه بها منذ صباه. وفي كلامه ما يُشير إلى اسْتِهوائها في ذلك العصر لقلوب النَّاشئة وعقولهم على الشَّكل الذي نَجَدُه في عَصْرنا الحاضر من مِثْل الشَّبيبة إلى الشَّعر الحديث واستِساغَتهم له، وفَهْمهم إيَّاه، مع فرق أنَّ أولئك النَّاس كانوا يَقْهَمون الشَّعر القديم ويُعْجَبون به وَيَنْظِمون فيه ويُحارِلون مع ذلك أنَّ يَتَكَبَّرُوا وأنَّ يأتوا بأمور جديدة وبأوزان مُخترَعة وأنَّ يَجْروا على قواعد خَفِيَّة من الأوزان والقوافي. فهو يَقول:

«وكنْتُ في طَلِيعَة العَمر وفي رَعيل السَّنِّ قد هِمْتُ بها عِشْقاً، وشُغِفْتُ بها حُبًّا، وصاحَبْتُها سَماعاً، وعاشَرْتُها حِفْظاً، وأحطْتُ بها علماً، واستخرجْتُ خَباياها، واستطلعتُ خَفاياها، وفَلَبْتُ ظُهورها وبُطونها، وعانَقْتُ أبْكارها وعُوثَها، وغصْتُ على جواهرها المَكْنونَةِ، وتخطَّيْتُ من أخبارِها المَعلومَة إلى أسرارها المَكْتومَة، ولَبِثْتُ فيها من عمري سَنين، إلى أنَّ عَرفتُ أنَّ مَعرِفَها تَزَكِيَة للعَقل، وتَعدِيل للفَهم، وجَهلها تَجْريح للطَّبع، وتَفْسيق للذَّهن، وأنَّه لا أدلَّ على أنَّ الذَّهن لَطيف والفَهم شَريف والطَّبع فائق والعَقل راجِح إلَّا مَعرِفَها. فإنَّ العارف بها قد شَهدتْ له مَعرِفَته بذكاء الحسِّ، وضياء النُّفس، وإِشراق نور الفَهم، ورَقَّة حاشية العَلم، كما أنَّه لا أدلَّ على أنَّ الفَهم قَدم والعَقل غُفْل والذَّهن عَهن والطَّبع طَبع والخُلُق خَلَق إلَّا جَهلها. فإنَّ الجاهل بها بعد سَماعِها قد شَهد جَهلُه بأنَّه كُرَّ الغَريزة، جاسي الطَّبيعة، غليظ الحاشية، فَطير الفِطْرة، عامِّي الفِكرة، بَهِيمِي الهِمَّة، لم يَخْرُج بعد إلى وُجود الأدب، ولا يَبيِّن ويَبيِّن الفَضل نسب. ولم أَعْنِ بالجاهل بها من لم يصنعها، بل من إذا سَمِعَها فكأنَّه لم يَسمِعها. ولَمَّا كانَتِ المُوشَّحات بَهلَهِ المَثابَة، ولها في سوق الأدب هُذه القِمة، ولم أرَ أحداً صَنَّفَ في أَصولها ما يَكون للمُتعلِّم مِثالاً يُحتَدَى وسَبِيلاً يُقْتَفَى جَمَعْتُ في هُذه الأوراق ما لا بَدَّ لَمَن يُعانيها ويُعنى بها من مَعرِفَته، ولا غناء به عن تَفصيله وجُمْلته، ليَكون للمُنْتَهِي تَذَكُّرَة، وللمُبْتَدِئ تَبَصُّرَة، وبالله التَّوفيق».

ثمَّ يَبدأ المؤلِّف بعد هُذه المُقَدِّمة التي حَرَضنا أنْ نَذكرَها كامَلة شرحَ صِناعة المُوشَّح وبيانها، ويَرى أوَّل ما يَرى أنَّ «المُوشَّح كلامَ مَنظوم على وزن مَخْصوص». ثمَّ يَوضِّح عَناصره. وهو يَرى أيضاً في مَوْضِع آخَر من الكِتاب أنَّ المُوشَّحات تَنقَسِم إلى قِسمين: الأوَّل ما جاء على أوزان أشعار العرب، والثَّاني ما لا وزن له فيها ولا إِمَام له بها.

والذي على أوزان الأشعار ينقسم قسمين: أحدهما ما لا يتخلل أفعاله وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري، وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو المرذول المخذول^(١) وهو بالمخمّسات أشبه منه بالموشحات ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف ويتشيع^(٢) بما لا يملك . . . والقسم الآخر ما تخللت أفعاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة تخرجه عن أن يكون شعراً صريحاً وقريضاً مخضاً. فمثال الكلمة قول ابن بقي:

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني: معذبي كفاني

فهذا من المنسرح وأخرجه منه قوله: «معذبي كفاني».

ومثال الحركة هو أن تجعل على قافية ووزن وتكلف شاعرهما أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها كقوله:

يا ويح صب إلى البرق لـه نظـر
وفي البكاء مع الوزني لـه وطـر

فهذا من البسيط، والتزام إعادة القافية في وسط الوزن على الحركة المخفوضة هو الذي أشرنا إليه.

والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب. وهذا القسم منها هو الكثير والجَمُّ الغفير، والعدد الذي لا يحصر، والشارد الذي لا ينضبط. وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دَفْراً لحسابها، وميزاناً لأوتادها وأسبابها، فعز ذلك وأعوز، لخروجها عن الحصر، وانفلاتها من الكف. وما لها عروض إلا التلحين، ولا ضرب إلا الضرب، ولا أوتاد إلا الملاوي، ولا أسباب إلا الأوتار. فهذه العروض يُعرف الموزون من المكسور، والسالم من المزحوف. وأكثرها مبنّي على تأليف الأُرْغُن، والغناء بها على غير الأُرْغُن مُستعار وعلى سواه مجاز.

ولسنا نرى أنفسنا نُسرف في الاستشهاد إذا كان من شأنه أن يبرز اتساع المحاولات الفنية الغنية السابقة في تنوع العروض وابتكار أنغام جديدة واستحداث إيقاعات طريفة. يقول ابن سناء الملك: «الموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين: قسم لأبياته وزن

(١) يُريد أنه لا ابتكار فيه من جهة الوزن لأن سياق البحث في الأوزان المخصوصة الجديدة المُبتكرة.

(٢) في الأصل يتشيع وهو تحريف.

يُدرِّكُه السَّمْعُ وَيَعْرِفُه الذَّوْقُ كَمَا تُعْرِفُ أَوْزَانُ الْأَشْعَارِ وَلَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى وَزْنِهَا بِمِيزَانِ
الْعَرُوضِ وَهُوَ أَكْثَرُهَا، وَقِسْمُ مُضْطَرِبِ الْوِزْنِ مُهْلَهْلُ السَّجِّ مُفَكِّكَ النَّظْمِ لَا يُحَسُّ الذَّوْقُ
صَحَّتَهُ مِنْ سَقَمِهِ وَلَا دُخُولَهُ مِنْ خُرُوجِهِ كَالْمُوشَّحِ الَّذِي أَوَّلُهُ:

أَنْتَ اقْتَرَا حَا حِي	لَا قَرَّبَ اللَّهُ اللَّوَا حِي
مَنْ شَاءَ أَنْ يَقُولَ	فَأَنْتِي لَسْتُ أَسْمَعُ
خَضَعْتُ فِي هَوَاكَ	وَمَا كُنْتُ لِأَخْضَعُ
حَسْبِي عَلَى رِضَاكَ	شَفِيعَ لِي مُشَفِّعُ
نَشَوَانُ صَا حَا حِي	بَيْنَ ارْتِيَا حِي وَارْتِيَا حِي

فَهَا أَنْتَ تَرَى نُبُوَ الذَّوْقِ عَنْ وَزْنِ هَذَا الْكَلَامِ، وَمَالَهُ عِنْدَ الطَّبَعِ الضَّعِيفِ نِظَامٌ، وَلَا
يَعْقِلُهُ إِلَّا الْعَالَمُونَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْفَنِّ، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، وَمِثْلُ
هَذَا الْكَلَامِ لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا مِثْلُ الْأَعْمَى^(١)، وَإِلَّا فَالْبَصِيرُ يَحْدَرُهُ، وَلَا يَنْظُرُهُ. وَمَا كَانَ مِنْ
هَذَا التَّمَطِّ فَمَا يُعْلَمُ صَالِحُهُ مِنْ فَاسِدِهِ وَسَالِمُهُ مِنْ مَكْسُورِهِ إِلَّا بِمِيزَانِ التَّلْحِينِ، فَإِنَّ مِنْهُ مَا
يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِزُحَافِهِ بَلْ بِكَسَرِهِ فَيَجْبُرُ التَّلْحِينُ كَسْرَهُ، وَيَشْفِي سَقَمَهُ وَيَرُدُّهُ صَحِيحاً مَا بِهِ
قَلْبُهُ وَسَاكِناً لَا تَضْطَرِبُ فِيهِ كَلِمَةٌ.

وَيَعْرِضُ الْمُؤَلِّفُ فِي نَهَايَةِ كِتَابِهِ نَمَازِجَ جَمِيلَةٍ مِنْ مُوشَّحَاتِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَمِنْ
مُوشَّحَاتِهِ الَّتِي عَارَضَهُمْ فِيهَا وَالَّتِي اخْتَرَعَهَا هُوَ وَلَمْ يَجِرْ فِيهَا عَلَى مِثَالِ. وَفِي الرَّجُوعِ إِلَى
كِتَابِهِ فَوَائِدُ لِمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَزِدَّادَ خُبْرَةَ فِي الْمُوشَّحَاتِ.

وَلَكِنْ كُلٌّ فَنٌّ رَهْنُ التَّطَوُّرِ الدَّائِمِ. وَكَانَ التَّطَوُّرُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ إِذْ ذَاكَ مُتَّجِهاً إِلَى
تَنْوِيعِ الْأَعَارِضِ وَالْإِفْتِنَانِ فِي الْمَوْسِيقَى وَالْغِنَاءِ، وَتَسْهِيلِ الْكَلَامِ وَالِاقْتِرَابِ مِنَ الْعَامِّيَّةِ.
وَقِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْ تِلْكَ الْمُوشَّحَاتِ كَانَ يَنْتَهِي بِخَرْجَةٍ عَامِّيَّةٍ أَوْ بَيْتِ شَعْرِ مَعْرُوفٍ أَوْ جُزْءٍ مِنْهُ
أَوْ بِقَوْلٍ ظَرِيفٍ أَوْ مَثَلٍ مُتَدَاوِلٍ، أَوْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ بِالْأَفَافِ إِسْبَانِيَّةٍ يَجْعَلُهَا الشَّاعِرُ عَلَى
لِسَانِ حَبِيبَتِهِ الْإِسْبَانِيَّةِ. يَبْدُو أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْمُوشَّحَاتِ، فَلَمْ يَلْبَثْ هَذَا الْفَنُّ حِينَ
شَاعَ أَنْ أُورِثَ فَنّاً جَدِيداً مَلْحُوناً كُلُّهُ هُوَ الزَّجَلُ. نَعُودُ الْآنَ إِلَى الْمُؤَلِّفِ الْاجْتِمَاعِيِّ ابْنِ
خُلْدُونٍ بَعْدَ إِذْ تَرَكَنَاهُ فَيَنْتَهِ، فَنَجِدُهُ يَقُولُ:

«وَلَمَّا شَاعَ فَنُّ التَّوْشِيحِ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ لِسَلَاَسَتِهِ وَتَنَمَّقِي كَلَامَهُ

(١) فِي هَذَا اللَّفْظِ تَوْرِيَّةٌ، فَالْمَعْنَى الْقَرِيبُ الضَّرِيرُ وَالْمَعْنَى الْبَعِيدُ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْمُؤَلِّفُ الْأَعْمَى التَّطْلِيلِيُّ
أَحَدُ كِبَارِ الْوَشَّاحِينَ وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُ.

وَتَرْصِيعُ أَجْزَائِهِ نَسَجَتِ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْأَنْصَارِ عَلَى مَنَوَالِهِ وَنَظَمُوا فِي طَرِيقَتِهِ بُلْغَتَهُمُ الْحَضَرِيَّةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَزِمُوا إِعْرَاباً وَاسْتَحْدِثُوا فَنَاءً سَمَوَهُ بِالزَّجَلِ وَالتَّزَمُوا التَّنْظِيمَ فِيهِ عَلَى مَنَاحِيهِمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ فَجَاؤُوا فِيهِ بِالْغَرَائِبِ وَاتَّسَعَ فِيهِ لِلْبَلَاغَةِ مَجَالٌ بِحَسَبِ لُغَتِهِمُ الْمُسْتَعْجَمَةِ. وَأَوَّلُ مَنْ أَبْدَعَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الزَّجَلِيَّةِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ قُزْمَانَ، وَإِنْ كَانَتْ قِيلَتْ قَبْلَهُ بِالْأَنْدَلُسِ، لَكِنْ لَمْ تَطْهَرْ حِلَالُهَا وَلَا انْتَسَبَتْ مَعَانِيهَا وَاشْتَهَرَتْ رِشَاقَتُهَا إِلَّا فِي زَمَانِهِ، وَكَانَ لِعَهْدِ الْمُتَمُكِّينَ، وَهُوَ إِمَامُ الزَّجَالِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: وَرَأَيْتُ أَزْجَالَه مَرْوِيَّةً بِبَغْدَادٍ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهَا بِحَوَاضِرِ الْمَغْرِبِ. قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنِ جَعْفَرٍ الْإِسْبِيلِيَّ إِمَامَ الزَّجَالِينَ فِي عَصْرِنَا يَقُولُ: مَا وَقَعَ لِأَحَدٍ مِنْ أُنَمَّةِ هَذَا الشَّانِ مِثْلُ مَا وَقَعَ لِابْنِ قُزْمَانَ شَيْخِ الصَّنَاعَةِ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى مُتَنَزَّهٍ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فَجَلَسُوا تَحْتَ عَرِيشٍ وَأَمَامَهُمْ تَمَثَالُ أُسْدٍ مِنْ رُخَامٍ يَصُبُّ الْمَاءُ مِنْ فِيهِ عَلَى صَفَائِحٍ مِنَ الْحَجَرِ مُدْرَجَةً فَقَالَ:

وَعَرِيشٍ قَدْ قَامَ عَلَى دُكَّانٍ	بِحِـ_____الِ رِوَاقٍ
وَأُسْدٌ قَدْ ابْتَلَعَ ثُجْبَانَ	فِي غِلَظٍ سِقَاقٍ
وَفَتَحَ فَمُو بِحَالِ إِنْسَانٍ	بِـ_____الِ الْفِصَاقِ
وَانْطَلَقَ يَجْرِي عَلَى الصُّفَاحِ	وَالْقِصَى الصَّيَّاحِ

وَكَانَ ابْنُ قُزْمَانَ مَعَ أَنَّهُ قُرْطُبِيُّ الدَّارِ كَثِيراً مَا يَتَرَدَّدُ إِلَى إِسْبِيلِيَّةٍ وَيَتَنَابُ نَهْرَهَا^(١).

ثُمَّ يَقُولُ الْمُفَكِّرُ الْاجْتِمَاعِيُّ وَالْأَدِيبُ الْكَبِيرُ ابْنُ خَلْدُونٍ:

«وَجَاءَتْ بَعْدَهُمْ حَلْبَةٌ كَانَتْ سَابِقُهَا مَدْغَلِيسُ^(٢) وَقَعَتْ لَهُ الْعَجَائِبُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ

فَمِنْ قَوْلِهِ فِي زَجَلِهِ الْمَشْهُورِ:

وَرِذَاذٌ دِقٌّ يَنْـ_____زِلُ	وَشُعَاعُ الشَّمْسِ يَضْرِبُ
فَتَرَى السَّوَاحِدَ يُقْضَضُ	وَتَرَى الْآخِرَ يُذْهَبُ
وَالنَّبَاتُ يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ	وَالْغُصُونُ تَرْقُصُ وَتَطْرَبُ
وَتَرِيدٌ تَجِي إِلَيْنَا	ثُمَّ تَسْنَحِي وَتَهْرَبُ

هَذَا وَيَطِيبُ لَنَا أَنْ نُشِيرَ هُنَا إِلَى أَنَّ الْأَوْرَبِينَ إِذْ ذَاكَ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى نَقْلِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي وَجَدُوهَا فِي الْأَنْدَلُسِ وَعَلَى اقْتِبَاسِهَا بَلْ كَانَتْ تَأْتُرُهُمْ عَامًّا بِجَمِيعِ جَوَانِبِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ. فَلَقَدْ أَثَّرَ الشُّعْرُ الْعَرَبِيُّ وَلَا سَيِّمًا مُوشَّحَاتُهُ وَأَزْجَالُهُ فِي الشُّعْرِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ وَبَيَّتُ بِنَهْرِهَا.

(٢) فِي بَعْضِ النُّسخِ مَدْغِيسٌ وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

المَقْرُوض بُلُغَة أوك أي في شُعراء قَتَلُونِيَا وَغَالِيْسِيَا وَالبَرْوْفَنس وَإِيْطَالِيَا فِي غَضُون تَلَك الْعُهُود، وَكَان أَكْثَر الشُّعراء أَثْرًا فِيْهِمْ ابْن قُزْمَان بِأَزْجَالِه الشَّعْبِيَّة، كَمَا تَأَثَّر بِالشُّعْر الْأَنْدَلُسِيَّ غَلْهَلَم النَّاسِع مِنْ بَوَاتِيْه، وَغَوِيْدُو غَوِيْنَزَلِي ذُو الْأَسْلُوب الْعَذْبِ الْجَمِيْل، وَهُوَ أَسْتَاذ الشَّاعِر الْإِيْطَالِي الْكَبِيْر دَانْتِي.

وَالْغَرِيْب أَنَّ الْإِسْبَانِيَّيْنَ كَانُوا إِذْ ذَاكَ يَسْتَقْبِلُون الْحُرُوف اللَّاتِيْنِيَّة الطَّوِيلَة أَمَام حُرُوف اللُّغَة الْعَرَبِيَّة الْمُوجَزَة الْمُخْتَصَرَة، وَقَدْ وَجِدَتْ مَخْطُوطَات بِاللُّغَة الْقَشْتَالِيَّة مُحَرَّرَة بِالْأَبْجَدِيَّة الْعَرَبِيَّة، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَدَى مَا بَلَغَ التَّأَثُّر الْعَرَبِيَّ فِي أَوَّلِئِكَ الْمَتَأَدِّبِيْنَ الْإِسْبَانِيَّيْنَ فِي تَلَك الْعَصُور.

وَلَقَدْ أَخَذ الْيَهُود اثْنِي عَشَرَ وَزْنًا مِنْ أَوْزَانِ الْبُحُور الْعَرَبِيَّة السَّنَّة عَشَرَ، وَجَرَوْا عَلَيْهَا فِي أَشْعَارِهِمْ؛ كَمَا تَأَثَّرُوا بِالْمُوشَّحَاتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَبِأَغْرَاضِهَا وَنَسَجُوا عَلَى مِثْلِهَا، وَصَاغُوا عَلَى غِرَارِهَا.

وَمِنْ الْجَدِيْر بِالتَّنْوِيْهِ أَنَّ اللُّغَة الْعِبْرِيَّة قَدْ بَلَغَتْ فِي ظِلَالِ الْحَضَارَة الْعَرَبِيَّة الْأَنْدَلُسِيَّة عَصْرَهَا الذَّهَبِيَّ إِذْ ذَاكَ بِفَضْلِ مُحَاكََاةِ الْأَدْبَاءِ وَالشُّعراء الْيَهُود لِنَمَازِجِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ وَأَوَابِدِهِ الْمَصْقُولَةِ الْبَدِيْعَة، كَمَا كَانُوا قَدْ تَأَثَّرُوا بِالنَّخْوِ الْعَرَبِيِّ فِي وَضْعِ قَوَاعِدِ لُغَتِهِمْ.

وَرَبِّمَا نَسْمَعُ كَلَامًا عَامًّا فِيْ عِبْرِيَّةِ الْيَهُودِ وَذِكَاثِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ تَرْوِيْجٌ وَدَعَاوَةٌ لَا يَلْبَثَانِ أَنْ يَزُولَا عِنْدَ الْفَحْصِ وَالتَّمْحِيصِ كَمَا يَنْقَشُ الضُّبَابُ عِنْدَ سَطُوعِ قُرْصِ الشَّمْسِ. وَهَذَا نَجْدٌ مِثْلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا تَقَدَّمُوا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَلْحَقَ بِشَأْوِهِمْ قَوْمٌ. بَلْ إِنَّ عَصُورَ بَعْضِ الْأَقْوَامِ التَّارِيْخِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ إِنَّمَا حَصَلَتْ عَلَى هَامِشِ حَضَارَتِهِمْ وَتَابِعَةٍ لِعُلَاهِمِ. وَبِنَبْغِي أَنْ نُدْرِكَ ذَلِكَ لَكِي نَكُونَ وَاثِقِيْنَ بِأَنْفُسِنَا فِي نَهْضَتِنَا الْحَاضِرَة وَالْمُقْبِلَة.

يَقُولُ النَّاقِدُ الْعِبْرِيُّ يَهُوذَا الْحَرِيْزِيُّ الَّذِي شَهِدَ الْحَضَارَة الْأَنْدَلُسِيَّةَ وَاسْتَفَادَ مِنْ إِخْوَانِهِ مِنْ خَيْرَاتِهَا فِي كِتَابِهِ «تَحْكُمُونِي» مَا يَأْتِي بِأَسْلُوبِ حِمَاسِيٍّ:

«اعْلَمْ أَنَّ الشُّعْرَ الْبَدِيْعَ الْحَافِلَ بِاللَّأَلَى قَدْ كَانَ فِي بَادِيِ الْأَمْرِ مِلْكًا مَقْصُورًا عَلَى الْعَرَبِ وَحْدِهِمْ، وَقَدْ وَزَّنُوهُ بِمَوَازِيْنٍ مَضْبُوطَة. وَهُمْ يَقُوْقُونَ فِي الشُّعْرِ شِعْرَاءَ الْعَالَمِ قَاطِبَة. . . وَمَعَ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ شُعْرَاءَهَا فَإِنَّ جَمِيْعَ شِعْرِ الْأُمَمِ لَا قِيَمَة لَهُ فِي مُقَابِلِ شِعْرِ الْعَرَبِ. فَالْعَرَبُ وَحْدَهُمْ هُمُ الْمُسْتَأَثَّرُونَ بِالشُّعْرِ الْعَذْبِ اللَّفْظِ الْجَمِيْلِ الْمَعْنَى»^(١).

(١) انظر كتاب الأستاذ ربحي كمال «دروس اللغة العبرية».

ولهذا كله عدا تأثير الشعر العربي وأوزانه وأغراضه في أشعار شعوب كثيرة في آسية وإفريقية .

على أن الأوزان العربية المعروفة كان لها سوقٌ رائجة في الأندلس . وأشعار ابن هانئ وابن زيدون وابن خفاجة وابن أخته ابن الزقاق والمُعتمد بن عباد كلها جواهر بديعة وثمينة في تراث الشعر العربي؛ حتى إن بعض الذين زاولوا فنَّ الموشح ومارسوه إنما تداول الناس من أشعارهم ما صاغوها على الأوزان العربية المعروفة كابن عبد ربّه . ومنذا الذي لا يُعجّب بأبياته الرقيقة الأنيقة الرشيقة التي يصف فيها نوعاً من الغرق خاصاً :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً ورشاً بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله دُرّاً يعودُ من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناء غريقاً
يا من تقطّع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

وبعضهم بلغ الذروة وأوفى على الغاية في فنَّ الموشح . ولكنه نظم في الأوزان العربية القديمة وبرع فيها براعة فائقة وأبدع فيها إبداعاً كبيراً . يقول ابن بقي هذه الأبيات الفريدة اللطيفة المشهورة في النسب :

بأبي غزال غازلته مقتلتي بين العذيب وبين شطّي بارقي
عاطيته والليل يسحب ذيله صهباء كالمسك الفتيق لناشقي
وضممتُه ضمّ الكمي سيفه وذؤابتاه حمائل في عاتقي
حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان مُعانقي
باعذته عن أضلع نشتاقه كيلا ينام على وساد خافقي
ويقول ابن زهر واصفاً ليلة أنس :

وموسدين على الأكف خدودهم قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلتُ أسقيهم وأشربُ فضلهم حتى سكرتُ ونالهم ما نالني
والخمر تعلم كيف تأخذ ثأرها إنني أملتُ إناءها فأمالني

ونرى أن قائل هذه الأبيات حين قالها كان صاحياً من سنة الترم وصاحياً من نشوة الخمر، وواعياً لفنّه أشدّ الوعي، ولذلك استطاع أن يأتي بفنّ جميل متناسب متناظر متناسق، متّزن الحركة، حلو الترتيب، مختار الألفاظ، أنيق اللّمسات، موجزها .

ويتذكّر ابن قزمان الرّجال الكبير شبابه الممشوق المستقيم ويصوّر هرمة المنحني في هذين البيتين اللطيفين :

وعهدي بالشباب وحسن قدي حكى ألف ابن مقله في الكتاب
فصرت اليوم منحنياً كأنني أفتش في الثراب على شبابي

هذا وبين يدي طائفة من الشعر الأندلسي تتناول أغراضاً شتى كل منها غاية في
الجودة. ولولا خوف الإطالة لرغبت في جلوتها على القارئ وإمتاعه بروائها وزونتها
وطلاوتها ومائها. أمّا المواليا والأزجال في الشرق والغرب فقد انحدرت إلى ميدان
الفلكلور الشعبي واستمرت متصلة به حتى العصر الحاضر.

إنّ ذلك النشاط الطويل الواسع الرّحْب الذي عرفه الشعر العربي في مختلف
الميادين، من تفنّن في التعبير، وتفاوت في دلالات الألفاظ، وتعدّد في الأغراض، وتنوّع
في الأوزان، وتنقيب عن الصّور والأخيلة والعواطف، وحذق في الصّوغ والتّكوين
والزّخرفة والعرض، ومهارة في الموسيقى والأنسجام والغناء، لم يعرفه عند التّدقيق شعر
آخر حتى اليوم في العالم كلّ، ولهذا مع الاستمرار والتّداول وإمتاع الثّقوس والقلوب
والعقول. وكلّ نشاط شديد واسع متطاوّل لا بدّ من أن يقضي إلى جُنوح نحو الراحة
والاستجمام ولو بعض الوقت. ولما اقترب أصيل تلك الحضارة العربيّة المجيدة المزهوّة
المتألّقة جنّح فنّ الشعر إلى الخمود والسّكون وأخلد إلى التّغني بالمُتّع العابرة والمآرب
القريبة وابتعد عن مَساس القضايا الاجتماعيّة والأُمور الإنسانيّة. ثمّ ما لبث ظلام الانحطاط
أنّ شمل البلاد العربيّة شيئاً فشيئاً، وعصفت بشعلة الشعر رياح قاسية وزعازع نُكبت
وسُحبت دُكن سود حملتها حروب الصّليبيّين، وغارات المغول، وعُجّمة في البياض بعيدة
عن السّلائق العربيّة، ثم فساد الاستعمار الغربيّ حين ذرّ قرنه ووقعت مآسيه الفاجعة
وشُروره المُستطيّرة. ومع ذلك فقد بقي في ظلام اللّيليّ الحالك سنا مُتلامح للبيان العربيّ
وللشعر يعلّج مُتصلاً بالمراكز العلميّة والدّينيّة على تأخّرها؛ كان يبصّ فيها كما يبصّ
وميض النّار خلل الرّماد، أو كما تبصّ الجواهر المكنونة في الكنز المخبوء المُستور
المسحور.

إشراق البيان في تباشير النهضة العربية:

ولَمَّا بدأتِ النهضة العربية الحديثة لَاحَ في طلائعها إشراقُ البيان العربيِّ الصَّافي الضَّافي. وكما يَسْطَعُ في غُور اللَّيلِ عمود الفجر الصَّادق صَدَعَ عمود الشُّعر العربيِّ بتعبيره النَّبيل الأصيل يُوقِظُ نوره النَّائمين ويُهيب بالغافلين ويَحْفِزُ الخاملين ويَهْدِي السَّادِرِينَ وَيَدْفَعُ الْمُتَخَلِّفِينَ.

هناك أحوال اجتماعية وحركات فكرية هيأت ذلك الإشراق لا نريد أن ندخل في تفاصيلها، ولكنَّ تلك الأحوال والحركات اقترنت بصفاء التعبير العربيِّ وخلوصه من الشَّوائب والكُدُورة وخلُوه من العُجْمة والركَّابة. وإنَّه لَمِنْ دلالات التَّاريخ القوميِّ والاجتماعيِّ والأدبيِّ أن يَتِمَّثلَ هذا البيان في شاعر ومُحاربٍ معاً، خَصَّصَ القسم الأكبر من حياته ومن شعره للقضايا العربية، وخاض معركة النهضة بقلمه وسيفه، ببيانه وسنانه، وهو محمود سامي البارودي الذي تأثَّر إلى حدٍّ بعيد بحلقات جمال الدِّين الأفغانيِّ.

يقولُ الشَّيخ محمد عبده في جمال الدِّين: «لا يَسْأَمُ من الكلام فيما يُنير العقل أو يُطَهِّر العقيدة أو يَدَهِّب بالنفس إلى مَعالي الأمور أو يَلِفُ الفكر إلى النَّظر في الشُّؤون العامَّة ممَّا يَمَسُّ مَصْلَحة البلاد وسُكَّانها. فاستيقَظت مَشاعِر وتنبَّهت عقول وخَفَّ حجاب الغفلة في أطراف مُتعدِّدة من البلاد خُصوصاً في القاهرة».

وقد اشترك الباروديُّ في ثورة عرابي ١٨٨١ وخاضها في طليعة الخائضين، ثم نُفيَ مع زُعماء الثَّورة إلى سَرَنْدِيب وبَقِيَ بعيداً عن وطنه سبعةَ عَشَرَ عاماً كان يَهفو بقلبه فيها إليه ويتغنَّى بحبِّه ويردِّد محاسنه.

يقولُ الشَّيخ حسين المرصفيُّ في «الوسيلة الأدبية» عن تلميذه الباروديِّ: «لم يقرأ كتاباً في فنٍّ من فنون العربية، غير أنَّه لَمَّا بلغ سنَّ التَّعَقُّل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشُّعر وعمله؛ فكان يَسْتَمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدَّواوين أو يقرأ بحضرتَه حتى تصوَّر في بُرْهة يسيرة هيئات التَّراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات

والمخفوضات حَسْبما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يُلحَن... ثم استقلَّ بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حَفِظَ الكثير منها دون كُلفة واستثبَت جميع معانيها نافِداً شريفها من خسيسها واقفاً على صوابها وخطئها مُذكرًا ما كان يَنبغي وفق مقام الكلام وما لا يَنبغي، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء.

ويقول البارودي نفسه في الشعر: «إنَّ الشعر لمعة خياليَّة يتألَّق وميضها في سماءِ الفكر فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بلالائها نوراً يتصل خطه بأسئلة اللسان فينثُر بالوان من الحكمة ينبليج بها الحالِك، ويهتدي بدليلها السالك. وخير الكلام ما اختلفت ألفاظه واثقلت معانيه وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، سليماً من وُضمة الكُلف، بريئاً من عشوة التَّعسُّف، غنيّاً عن مُراجعة الفكرة». ثم يقول: «ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلاَّ تهذيب الثُّقوس، وتدريب الأفهام، وتنبية الخواطر إلى مكارم الأخلاق، لكان قد بَلَغ الغاية التي ليس وراءها لذي رغبة مَسرح، وارتبأ الصَّهوة التي ليس دونها لذي همّة مَطْمَح»^(١).

لنستمع إليه يدعو إلى الثورة في لفظ جَزَل مَنضود وأسلوب مُبين بليغ وجَزَس يَرُدُّنا إلى الصَّوت العربي القديم:

فيا قومُ هَبُوا لئَما العمر فرصة	وفي الدَّهر طُرُق جَمَّة ومنافعُ
أصبراً على مسِّ الهوان وأنتمُ	عديد الحَصا لئنِّي إلى الله راجعُ
وكيف تَروُن الدُّدَّ دار إقامه	وذلك فضل الله في الأرض واسِعُ
أرى أَرؤُساً قد أُنِعت لحِصادها	فأين ولا أين السُّيوف القواطِعُ
فكونوا حَصيداً خامدين أو افزعوا	إلى الحرب حتى يَدفع الضَّيم دافعُ
أهْبْتُ فعاد الصَّوت لم يقضِ حاجة	إلَيَّ ولَباني الصَّدى وهو طائعُ
فلم أدرِ أنَّ الله صوَّر قبلكم	تمائيلَ لم يُخلَقْ لهنَّ مَسامِعُ
فلا تَدعوا هذه القلوب لئنَّها	قواريرُ مَحنيٍّ عليها الأضالِعُ

ويفتخر بقصيدته هذه فيقول:

ودونكموها صَعْدَة مَنطقيَّة
تسير بها الرُّكبان في كلِّ منزل
إلخ...

(١) مُقدِّمة ديوانه.

ولنستمع إليه وهو يتوقع الثورة:

تَنَكَّرْتُ مَصْرُ بَعْدَ الْعُرْفِ واضطربت
فَأَهْمَلَ الْأَرْضَ جَرًّا الظُّلُمَ حَارِثَهَا
وَأَسْتَحْكَمَ الْهَوَلَ حَتَّى مَا يَبِيتُ فَتَى
وَيَلْمُهُ سَكَنًا لَوْلَا الدَّفِينُ بِهِ
أَرْضَى بِهِ غَيْرَ مَغْبُوطٍ بِنِعْمَتِهِ
يَا نَفْسُ لَا تَجْزَعِي فَالْخَيْرُ مُنْتَظَرُ
لَعَلَّ بَلَجَةَ نَوْرٍ يُسْتَضَاءُ بِهَا
إِنِّي أَرَى أَنْفَسًا ضَاقَتْ بِمَا حَمَلَتْ
شَهْرَانٍ أَوْ بَعْضَ شَهْرٍ إِنَّ هِيَ اخْتَدَمَتْ
فَإِنْ أَصَبْتُ فَعَنْ رَأْيِ مَلَكْتُ بِهِ

قَوَاعِدُ الْمُلْكِ حَتَّى رِيحِ طَائِرُهُ
وَاسْتَرْجَعَ الْمَالَ خَوْفَ الْعَذْمِ تَاجِرُهُ
فِي جَوْشَنِ اللَّيْلِ إِلَّا وَهُوَ سَاهِرُهُ
مِنَ الْمَآثِرِ مَا كُنَّا نُجَاوِرُهُ
وَفِي سِوَاهِ الْمُنَى لَوْلَا عَشَائِرُهُ
وَصَاحِبِ الصَّبْرِ لَا تَبْلَى مَرَائِرُهُ
بَعْدَ الظَّلَامِ الَّذِي عَمَّتْ دِيَاجِرُهُ
وَسَوْفَ يَشْهَرُ حَدَّ السَّيْفِ شَاهِرُهُ
وَفِي الْجَدِيدِينَ مَا تُغْنِي فَوَاقِرُهُ
عِلْمُ الْغُيُوبِ وَرَأْيُ الْمَرْءِ نَاطِرُهُ

وكما يعتمدُ المصوِّرون في استكمال ثقافتهم الفنيَّة إلى لوحات الأساتذة القدماء في
المتاحف فيروِّضون ريشاتهم على محاكاتها كذلك نجدُ في عهد التَّهْضَةِ كِبَارَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ
جَدَّدُوا فنَّ الشُّعْرِ وَأَخْيَوْا عَمُودَهُ الْقَدِيمَ وَبَعَثُوا لَفْظَهُ النَّبِيلَ وَتَرْكِيبَهُ الْفَصِيحَ يَعْمَدُونَ إِلَى
بَعْضِ الْقِصَائِدِ الْقَدِيمَةِ الْمَشْهُورَةِ فَيُعَارِضُونَهَا وَيَنْظِمُونَ فِي وَزْنِهَا وَعَلَى رَوِّيَّهَا. وَقَدْ عَمِدَ
الْبَارُودِيُّ إِلَى ذَلِكَ مَرَّاتٍ. وَفِي هَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا مَدَى نَسْجِهِ عَلَى مَنَوَالِ الْقَدَمَاءِ. وَرَبِّمَّا أَفَادَ
ضَرْبُ بَعْضِ الْأَمْثَلَةِ.

يُعَارِضُ الْبَارُودِيُّ رَائِيَّةَ أَبِي نُوَّاسِ الْمَشْهُورَةَ فِي مَدْحِ الْخَصِيبِ:

أَجَارَةَ بَيْتِنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمِيسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
فَيَقُولُ مُسْتَهْلًا:

أَبَى الشُّوقُ إِلَّا أَنْ يَجِنَّ ضَمِيرٌ وَكُلُّ مَشُوقٍ بِالْحَنِينِ جَدِيرٌ
وَيَقُولُ أَبُو نُوَّاسٍ يَمْدَحُ الْأَمِيرَ مُحَمَّدَ بْنَ الرَّشِيدِ (الأمين):

يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامُ ضَامَتُكَ وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ^(١)
ويقول البارودي:

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَوَلَّتِ الْأَيَّامُ فَعَلَى الصَّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامٌ

(١) في رواية: لم تبق منك بشاشة تستام.

وَيَقُولُ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ:

لغير العُلا مني القِلا والتَّجُلب ولولا العُلا ما كنت في الحبِّ أرغبُ

ويعارضه البارودي:

سِوَايَ بَتَحْنَانِ الْأَغَارِيدِ يَطْرُبُ وَغَيْرِي بِاللَّذَاتِ يَلْهُو وَيُعْجَبُ

وَيَقُولُ أَبُو فِرَاسٍ:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتِكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلْهُوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

فَقَالَ الْبَارُودِيُّ فِي الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ:

طَرَبْتُ وَعَادَتْنِي الْمَخِيلَةُ وَالشُّكْرُ وَأَصْبَحْتُ لَا يَلْوِي بِشَيْمَتِي الزُّجْرُ

وَيَقُولُ النَّابِغَةُ:

أَمِنْ آلِ مِئَةٍ رَائِحٍ أَوْ مُغْتَدٍ عَجَلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مُزَوَّدٍ

فِيْمَشِي الْبَارُودِيُّ عَلَى أَثَرِهِ:

ظَنَّ الظَّنُّونَ فَبَاتَ غَيْرَ مُوسَّدٍ حَيْرَانَ يَكْلَأُ مُسْتَنِيرَ الْفَرْقَدِ

ذكر هذه المعارضات الشيخ حسين المرصفي في «الوسيلة الأدبية»، وأشار الشاعر إليها في ديوانه وقد أوردنا مطالع هذه القصائد لنبرز أن هدف الشعر في بداية النهضة هو معارضة الفحول الأقدمين ومباراتهم بالنسج على منوالهم وعدم التقصير عن مداهم. ونحن في الخلاصة إنما نجد في شعر البارودي الأسلوب الجزل والدَّيَّاجَة العربية الخالصة والبيان الصافي الذي يُذكرنا بقصائد القدماء على بُعد عهودهم.

لقد أعاد البارودي الشاعر المُبرِّز في عصره إلى التعبير أصالته وإلى البيان رَونقه وقوته وماءه، ولذلك خصصناه بالذكر وأثرناه بالتَّنويه.

وعرف الشعر العربي الصحيح القوي منذ ذلك الوقت نشاطاً بالغاً في البلاد العربية ونشأ شعراء نوابغُ بعثوا في هيكَل الشعر حياة جديدة قويَّة، وغنَّوا فيه ما شاء لهم الغناء، وغنَّوا بالأمور الاجتماعية والقضايا القومية والأهداف الإنسانية، كما سجَّلوا الأحداث التاريخية، وكان كلُّ حادث في بلد عربي يستدعي بطبيعة الحال تنويعاً على لسان الشعراء. كانت الصحافة قد انتشرت في البلاد العربية، وكانت نار القومية التي تتقد في قلوب الشعراء يبدو سناها في أشعارهم.

هذا الشاعر القاهريُّ أحمد مُحَرَّم قد غنَّى منذ عهد تَضامُن الشَّام ومِصر:

رعى الله الشَّامَ فكم حَبَانَا أيادي مَالَهَا عَنَّا انْصِرَامُ

لنا من أهله أهل كرام
هم أعوان مصر وناصروها
وهم إخواننا الأدنون فيها
يؤلف بيننا نسب قريب
يُصان العهد فيهم والذمام
إذا نزلت بها الثوب الجسام
نُصافيههم وإن كرهه الطغام
ويجمعنا التودد والوئام

وكان هذه الآيات التي تَشِفُّ عن حقيقة عميقة قد قِيلَتْ منذ قريب عشيّة العدوان على بور سعيد ونسف العمال السوريين أنابيب النفط أو كأنّها قِيلَتْ عشيّة الوحدة.

ولهذا الشاعر قصائد قوميّة وإنسانيّة كثيرة. ولا بدّ لنا من أن نشير إلى قصيدته الحائيّة التي تُندد بالحرب والطُغيان والتي تُنادي بالتعاون والسلام، كما نسمع مثل ذلك خاصّة في أيّامنا هذه:

الحرب هادِمة الشعوب وإنّها
تخبو وتقتدح الحقود رمادها
صَدْع وإن طال المدى مُتفاقم
للشّر بين العالمين لَقاح
كالنار هاج كمينها المُفداح
ودم وإن جف الثرى نَضاح

وتبلغ الثّبرة الإنسانيّة غايتها حين يَقول:

عالجت أدواء الشعوب وسُنتها
وبكوت أسباب الحياة وقُنتها
من للمالك والشعوب بمؤئل
ومتى يردّ الحائرين إلى الهدى
دَجَتِ العصور فما يمين لأهلها
فلإذا الدّواء تَوُدّد وصفاح
فلإذا التّعاون قوّة ونجاح
تاوي النفوس إليه والأزواح
نهج أسدّ وكوكب لَمّاح
نور الحياة وما يَحين صَباح

ولو عاش مُحَرَّم إلى هذا العصر لبدا أكثر تَفَاؤُلاً.

على أنّ الشّعر في هذا الطّور لم يلبث أن بلغ الأوج عند أحمد شوقي في جمال البيان، وبلاغة التّعبير، ومهارة الصّوغ، ورزق الأسلوب، واتّساع الأغراض. وقد ورث شوقي جواهر كنوز الشّعر العربيّ في عُصوره الحافلة السّالفة مُتَقَبّاً عن مشهوره وخَفِيّهِ مُرْجِعاً لأصدائه صاقلاً دُرَرَ ألفاظه ماسحاً لآلئ معانيه وإعياً لأسرار صناعته وسُبُل دلالته. ويحقّ له أن يَقول على لسان الكاهن أنوبيس في مَصْرَع كليوباترة:

إلى أن نجحت نعم قد نجحت وعاقبة الصّابرين الظّفّير

شوقي كاهن الشّعر العربيّ في النّهضة الحديثة وسادِ «بيته» العتيق المُقدّس. وقد قَصَرَ حياته كلّها على تَمَعُّن الشّعر العربيّ في جميع عُصوره وتأمّل محاسنه وأسراره والتّأثّر

بذلك الثراث الغنيّ الزّاهر ومُحاكاته والزّيادة في نغماته. والذي يُطالع هذا الشّاعر ويتصفّح أشعاره ليعجب إلى أيّ مدى كان مُتأثراً بالأقدمين. فهو يُعارضهم في قصائد كثيرة كما صنّع الباروديّ ويجري معهم في سباق الفنّ الأصيل ويوفّق فلا يتخلّف عنهم في أشواط كثيرة. وعدا ذلك يتحقّق المُلمّ بالأدب العربيّ القديم هذا التّأثّر بالأفكار والصّور والخيال والألفاظ والتّعبير ونغمة الوتر الخلّاب. ولم يكتفِ بذلك، بل شابّههم في مديح الأمراء والخلفاء والحكّام والبكاء عليهم أيّما كانوا. ويلوح لنا أنّه كان يقصد في ذلك إلى التّشبه بهم قبل كلّ شيء دون الانتباه لتطوّر الزّمان وتجدّد الإنسانيّة وواجبات الشّعراء الجديدة في العصر الحديث. ولكنّه مع ذلك لم تقعّ حادثة في البلاد العربيّة إلا ونوّه بها وسجّلها في ديوان شعره الحافل. وهو إذا غنى القُسطنطينيّة والسّلاطين والوُلاة وبكاهم فقد بكى مجدّ مصر الفرعونيّ وآثار الأمويّين الأندلسيّة، وغنّى ماضي البلاد العربيّة والإسلاميّة، وبكى حاضرها وأهابَ بمن كانت له أذنان. إنّ أشعار شوقي معروفةٌ مُتداوِلة. وثمّة دراسات كثيرة حديثة لشعره. ومع ذلك فيطيب لنا أن نستمع إلى مُستهلّ غنائه الجميل في مصر بمناسبة إقامة تمثال نهضتها:

جعلتُ جِلاها وتمثالها	عيون القوافي وأمثالها
وأرسلتها في سماء الخيال	تجرّ على النّجم أذيالها
وإنّي لغريّد هلي البطاح	تغذّي جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره	وكلّ مُعلّقة قالها
وتلمح بين بيوت القصيد	حجال العروس وأحجالها
أدار النّسيب إلى حبّها	وولّى المدائح إجلالها
أرنّ بغابرها العبقريّ	وغنّى بمثل البكا حالها
ويروي الوقائع في شعره	يروض على البأس أطفالها
وما لمحو بعد ماء السيوف	فما ضرّ لو لمحو آلهـا

إلى آخر القصيدة^(١).

إلا أنّ أبناء الكِنانة في هذا العصر قد لمحو ماء السيوف وكابدوا نار الغارات والقنابل بعد إذ لمحو سرابها في أشعاره، فحدّثت الثّورة وخاضوا معركة من أكبر المعارك

(١) يُعرّف الشّاعر الفنّ في هذه القصيدة قائلاً:

وما الفنّ إلا الصّريح الجميل إذا خالط النّفس أوحى لها

الحديثة التاريخية، وانتصروا في العدوان الثلاثي على دولتين من أكبر دول العالم وعلى مَطيَّهما الثالثة ربيبة الاستعمار.

وقد ناجى شوقي دمشقَ أجملَ نجوى ووصف رُبوعها وبكى ماضيها بأعذب بيان وأبرع صيغة فنيّة. هذه أبيات من قصيدة مُتطايِّرة على الأفواه ومُتردّدة في الصدور:

قم ناجِجِ جَلَّقْ وانشدْ رسم من بانوا
هذا الأديم كتاب لا كِفَاءَ له
الذين والوحي والأخلاق طائفة
بنو أميّة للانباء ما فُتِحُوا
كانوا مُلوَكاً سريرُ الشرق تحتهم
عالين كالشمس في أطراف دَوْلَتها
ثم يقول:

مَعَادِنِ العزِّ قد مال الرِّغام بهم
لولا دمشق لما كانت طُلُيْطَلَةٌ
مررتُ بالمسجد المحزون أسأله
تَغَيَّرَ المسجد المحزون واخْتَلَفَتْ
فلا الأذان أذان في مَنَارَتِه

هذا وإنَّ الشُّوريَّين العرب قد عادوا يَكْتُبُون سَطُوراً مَجيدة طريفة تحت ذلك العُنوان الثَّالِد الذي أشار الشَّاعر إليه.

ثم يَتَغَنَّى بِدِمَشقَ وَيَتَرَنَّم بِجَمالِها:
أَمْسَتْ بِاللَّهِ وَاسْتَنْبِثَتْ بَحَّتِها
قال الرِّفاق وقد هَبَّتْ خَمائلُها
جرى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِها بَرْدِي
دَخَلَتْها وَحِواشِيها زُمُرْدَة
والْحَوْرُ فِي دَمْرٍ أَوْ حَوْلَها مَتها
وَرَبْوَة الوادِ فِي جَلَبابِ راقِصَة
والطَّيْرُ تَصَدِّحُ مِنْ خَلْفِ العُيُونِ بِها
وأَقْبَلْتُ بِاللِّبَاتِ الْأَرْضَ مُخْتَلِفاً
وقد صَفَا بَرْدِي لِلرَّيْحِ فَابْتَرَدَتْ

دِمَشقُ رَوْحٌ وَجَنَّاتٌ وَرِيحان
الأَرْضُ دارُ لَها الفَيْحاءُ بُسْتان
كما تَلَقَّاكِ دُونَ الخُلْدِ رِضْوان
والشَّمْسُ فَوْقَ لُجَيْنِ المَاءِ عَفْيان
حُورٌ كَواشِفٌ عَنِ ساقِ وَلِدان
السَّاقِ كاسِيَة وَالنَّحْرُ عُريان
وَالْعُيُونُ كما لِلطَّيْرِ أَلحان
أَفْوافُه فَهُوَ أَصْباغُ وَأَلوان
لدى سُتُورِ حِواشِيهِنَّ أَفْئان

ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا
خلفت لبنان جنات النعيم وما
جفت من الماء أذبال وأزدان
نبت أن طريق الخلد لبنان
ويختتم الشاعر قصيدته مبيّناً رسالة الشعر:

والشعر ما لم يكن ذكراً وعاطفة
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الجرح والآلام إخوان
والعاطفة القومية العربية الصّادقة متصلة دائماً بالعاطفة الإنسانية السامية التي تكره
الاستعمار والاستغلال وتقصّد إلى السلام وتنبؤ به وتريد إقامة العلائق بين الشعوب على
أساس المودة والإخاء. وهذا ما نسمعه في رثائه بطل ليبيا عمر المختار:

ركّزوا رفاتك في الرمال لواء
يا ويحكمهم نصبوا مناراً من دم
يستنهض الوادي صباح مساء
يُوحى إلى جيل الغد البغضاء
بين الشعوب مودة وإخاء
تتلّس الحريرة الحمراء
يكسو الشيوف على الزمان مضاء
أبلى فأحسن في العدو بلاء
تلك الصحارى غمد كل مهتد

وينبؤ بحضارة العرب في إفريقية ملء الشّهل والجبال وملء البر والبحر، ثم يُشير
إلى البطل المُسنّ الشهيد:

لم تُبق منه رحي الوقائع أعظماً
كرفات نسر أو بقيّة ضيغم
تبلى ولم تُبق الرّماح دماء
باتا وراء السّافيات هباء
وهكذا يُشيد ببطولة المرثي ويندّد بلؤم الاستعمار حتى يُنهي قصيدته البليغة العصماء
مُخاطباً الشعب:

ذهب الزعيم وأنت باق خالد
وأرخ شيوذك من تكاليف الوغى
فانقد رجالك واختَر الزعماء
واحمل على فتیانك الأغباء

لقد سرى في الشعر العربيّ نسغ جديد من ماء الحياة مُتدفّق قويّ، وتكوّنت في
رياض الأدب وخمائله براعم جديدة تُشير إلى عهد جديد برغم الطُروف القاسية والمحن
الاستعمارية الشديدة التي تعرّض لها الوطن العربيّ. كانت نبرات الشعراء كقفعات الرعد
وكانت نيران بيانهم كالبرق المُشقق في الشتاء كلّها وعود بالأمطار السخية والغيوث
الهطّالة التي تحمل الخصب والرّخاء وتحوي الخير والرّجاء على رغم حديد الاستعمار
وعسفه وكَيْده ومؤامراته.

وكان الشعراء في مختلف أجزاء الوطن العربي يُعلنون ضرورة التعاون العربي والتضامن القومي، ويُنددون بالحكم الأجنبي وبالاستعمار، ويتورون بالتخلف والتأخر عن موكب الإنسانية. وهذا الاتجاه القومي عامة من أبرز الأغراض الشعرية على الإطلاق في شعر النهضة، كما أن الأسلوب الصحيح والتركيب البليغ أوضح خصائص البيان فيه. وكان كلُّ شاعر أو أديب أو مفكر يعيش من خياله في وطن مثالي وواقعي معاً يتراءى له في سماء الفكر هو الوطن العربي الحرّ المُتحد. فإذا اشتدَّت وطأة الحكم المحلي الاستعماري عليه هاجر إلى جزء آخر من بلاده العربية.

ألا نستمع قليلاً إلى الشاعر العراقي الشيخ عبد المحسن الكاظمي وكأنَّ خياله هو الذي يُشد اليوم:

فتقرأ فيه أبكار المعاني
مآبٍ أو يُجوب القارِظان
ولا الذُكر الحميد لنا بفان
على أنقاضه صرح الأمان
ثنا في غدٍ للوجد ثانٍ
مجالاً للمرائي والتَّهاني
قيامتها مَواسم مِهرجان
بما فعلت تصاريف الزَّمان
إذا هي في تعاريج حواني
بما تجني الخطوب على الجواني
تَعثُر في التَّسرع والتَّواني
خليق أن يصير إلى أمتهان
فَتاها أو يقرَّ النَّاظران
تَقوُّض بالفقار وبالجِران
إلى أفعالها المُقلِّ الرَّواني
على خوف ونُصب في أمان
فيصدق ثم يكذب في العيان
دَنَّت ساعاتها قبل الأوان

عسى بغداد يُوقظها بياني
مضى أمسٌ فلا يُرجى لأمس
فلا العهد الدَّميم لنا بباقي
إذا ما راعنا الحَدَثان شِدنا
وإما هَزْنا للأنس يوم
عسى بغداد تُدرك كيف أضحت
ورُبَّ مآثم قامت فكانت
عجبتٌ وليس في الدُّنيا عجب
فينا تستقيم فتَرتجيهما
ومن جهلَ اللَّيالي عرَّفْته
ومن كانت مَطيَّته هواه
ومن هدمت نقيته غُلاه
عسى بغداد تسمع من بعيد
وتلفَّتْها عَظَاتٌ من خُطوب
وما كلُّ الخُطوب بلافتات
وما للخطب ميزان فنمسي
يمرُّ الدَّهر في الأسماع مئاً
وكم فات الأوان وكم أمور

ثم يُخاطب العرب ويُعلن ضرورة العمل معاً في بناء البيت العربي الشامخ:
إلى العُرب الكرام بكلِّ أرض أمْدُ يدي وأُطْلِق من لساني

وأرض الشَّامَ إلا جَتَّان
إذا ما قِيلَ فيها صَرَّتَان
وَأَتَتْجَتِ المعالي تَوْأمان
تَأَلَّفَ في السَّمَاءِ الفَرْقدان
على نَصْرِ الحقيقة تَعَمَّان
لهذا في العُلا أقوى ضَمَّان
حِجَازِيٌّ ولا لهذا يَمَّانِي
ويَجْمَعُنَا الشُّرور على خِوان
حواسِدُنَا الأَقاصِي والأَدانِي
بَلَّغْنَا الشَّامِخات من المَبانِي

وما أرضُ العراق لمن جَنَّاها
هما الأختان والعَليَا مَجَال
وإِنَّهُمَا مَتَى لَقِحتُ بَطُون
إِنْ ائْتَلَفَا فقبلهما رأينا
أَوْ ائْتَلَفَا فَلِإِنَّهُمَا يَدان
جميع العُزْب إخوان فهذا
فلا هُناكَ نَجْدِيٌّ ولا ذا
لعلَّ الله يُدْنِينَا جميعاً
ونرجع مثلما كُنَّا وكانت
متى كُنَّا جميعاً في بناء

وَيُخَيَّلُ إلينا حين نقرأ بعض قصائده أنا نستمتع جَلَبَةِ الصُّفوف والمواكب العريَّة
شادِينَ ناثِرِينَ على الظُّلم والطُّغيان والظُّلام شادِينَ سائِرِينَ نحو الحرِّيَّة والمجد والثُّور:

سَيَرُوا بِنَا مُنْسى وَمَغْدَى
والجمع للغايات أَجْدَى
يَوْمٌ يُرِينَا الهَزْلَ جِدًّا
واستحال القُرب بُعْدًا
بَطْلٍ وَإِنْ تُكِلَ الفِرْنَدَا

سَيَرُوا بِنَا عَنقًا وَشَدًّا
سَيَرُوا فِرَادَى أَوْ تُنَّا
لا يَقْعُدَنَّ بعزْمِنَا
ولئن تَخَلَّفَ من تَخَلَّفَ
فالسَّيف يقطع في يَدَي

وكلُّ هذه القصيدة حماسة وتَحَفُّزٌ وَهَمَّةٌ وَخَمِيَّةٌ، وكأنَّها نشيد وطنيٌّ طويل:
وَنَرُدُّ عَنْهُ المُسْتَبِيدَا
وَنَصُونُهَا غَوْرًا وَنَجْدَا
ظَلَمَّا عَلَيْهَا أَوْ تَعَدَّى
وَنُعِيدُهَا عِقْدًا فِعْقْدَا
لِي فِي بَطُون الطَّيْرِ لِحْدَا
ذَاكَ الثُّرَى عَيْنًا وَخَدًّا
ة أَرَى لَدَيْهَا الخَسْفَ وَرَدَا
فِيهِ الكَرِيمَ الحرَّ عِبْدَا
ن رَأَيْتَ طَعْمَ المَوْتِ شَهْدَا
ة بعزُّها فَاَلْمَوْتُ أَجْدَى

سَيَرُوا نَذْبٌ عَنِ الحِمَى
نَحْمِي حِمَى أوطاننا
وَنَرُدُّ عَنْهَا مِنْ عَدَا
سَيَرُوا تُؤَلَّفَ شملها
إِنْ كَانَ حَرْبٌ فابتنوا
أَوْ كَانَ سِلْمٌ فَاجعلوا
تَالله لَا أَرْضَى الحَيَا
أَيَرُوقَ لِي عَيْنُشُّ أَرَى
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى الهَوَا
إِنْ لَمْ تَكُنْ تُجِدِي الحَيَا

ثم يَتَشَوَّفُ إلى وحدة البلاد في ظلِّ علم واحد:

سَيَرُوا قَوَاصِدَ اللُّمْنَى أو تَبْلُغَ الأوطان قصداً^(١)
وتَرى البلاد جميعها علماً طويلاً الظِّلَ فَرْداً

ويقول فؤاد الخطيب:

لَبَّيْكَ يَا أَرْضَ الْجَزِيرَةِ واسمعي
لك في دمي حقَّ الوفاء وإنَّه
أنا لا أَفَرِّقُ بين أهلك إنَّهم
ولقد بَرِئْتُ إِيْلِكَ مِنْ وَطَنِيَّةٍ
فلَكلِّ رُبْعٍ مِنْ رُبُوعِكَ حُرْمَةٌ
ونستمع إلى الشَّاعر السُّوريِّ الموهوب الشَّابِّ النَّاشِئِ إذ ذاك خَلِيلَ مَرْدَمٍ يَتَغَنَّى
بعاطفة وَطَنِيَّةٍ مُخْلِصَةٍ عَمِيقَةٍ:

أنا ما حَيِّتُ فَقَدْ وَقَفْتُ لَأَمَّتِي
فإِذَا قُتِلْتُ وتلك أَقصى غَايَةٍ
بِنْتُ لَتَضْمِيدِ الجراحِ وَيَافِعِ
حتى إِذَا بَلَغَ الأَشَدُّ رَأَتْ بِهِ
نَفْسِي وَمَالِي فِي سَبِيلِ بِلَادِي
لِي فَالْوَصِيَّةُ عِنْدَهَا أَوْلَادِي
يُعْنَى يَتَثَقِفُ القَنَا المِيَّادِ
دُخْرًا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَجِلَادِ

ويطوِّلُ بنا المَدَى إِذَا عَمَدْنَا إِلَى تَقْصِي الشُّعراءِ المُجِيدِينَ الَّذِينَ عَاصَرُوا فَجَرَ النَّهْضَةِ
العَرَبِيَّةِ وَيُلَوِّحُونَ لَنَا كَأَبْرَاجِ التُّجُومِ فِي رُبُوعِ الوَطَنِ العَرَبِيِّ أَمْثَالَ حَافِظِ إِبْرَاهِيمَ وَخَلِيلِ
مَطْرَانَ وَالزَّهَّاءِ وَالرُّصَافِيِّ وَالشَّيْبِيِّ وَالشَّابِّيِّ مِمَّنْ أَدَّاءَ رِسَالَتِهِمْ وَلَحَقُوا بِالْمَلَأِ الأَعْلَى.

على أَنَّ الشُّعْرَ التَّضَالِيَّ القَوْمِيَّ ما زَالَتْ نَارُهُ مَشْبُوبَةٌ مِنْذُ فَجْرِ النَّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ حَتَّى
وَقَتْنَا هَذَا. وَقَدْ مَرَّ بِالْمَراحِلِ الَّتِي اجْتَازَتْهَا قَضَايَا العَرَبِ مِنْ كِفَاحٍ إِلَى كِفَاحٍ وَمِنْ أَزْمَةٍ أَوْ
مُلِمَّةٍ إِلَى ظَفَرٍ وَانْتِصَارٍ وَنَجَاحٍ. فَقَدْ عَاصَرَ الشُّعْرَ الحَدِيثَ طُغْيَانَ العُثمَانِيِّينَ فِي أَوَاخِرِ
الدَّوْلَةِ العُثمَانِيَّةِ وَشَهِدَ مَسَانِقَ الشُّهَدَاءِ فِي دِمَشْقَ وَبِירוْتِ وَغَارَاتِ الطُّليانِ الوَحْشِيَّةِ عَلَى
طَرَابِلُسِ العَرَبِ وَخِذَاعِ المُسْتَعْمِرِينَ فِي مِصْرَ وَخِيَانَةِ الحُلَفَاءِ لُوْعُودِهِمْ الَّتِي أَبْرَمُوهَا
وَلِلشُّعَارَاتِ الَّتِي رَفَعُوهَا وَتَقَاسَمَهُمُ العِرَاقَ وَالشَّامَ وَفِلَسْطِينَ وَالأُرْدُنَّ وَلِبْنَانَ وَسَلَّحَهُمْ لَوَاءَ

(١) أي جماعات قواصد لأنَّ فواعِلَ جمع فاعلة أو فاعل صفة للمؤنَّث أو لغير الآدميين فأمَّا مُذَكَّرٌ ما
يَعْقِلُ فلم يُجْمَعْ عَلَيْهِ إِلَّا فَوَارِسَ وَهَوَالِكَ وَنَوَاصِ شَدُودًا. وَذَكَرَ أَيْضًا شَوَاهِدَ وَغَوَائِبَ، بَلْ أُوصِلْتُ
هَذِهِ الأَلْفَاظَ إِلَى أَحَدٍ عَشَرَ لَفْظًا. انظر خزانة الأدب للبغداديّ.

إِسْكَندرونةً وَتَشْجِيعَهُم الصَّهْيُونِيِّينَ عَلَى إِقَامَةِ وَطَنٍ قَوْمِيٍّ لَهُمْ فِي فِلَسْطِينَ، وَمَا رَافَقَ ذَلِكَ مِنْ عَسْفٍ وَثَوَرَاتٍ شَعْبِيَّةٍ عَنِيفَةٍ وَلَا سَيِّمَا ثَوْرَةَ سُورِيَّةِ الشَّامِلَةِ سَنَةِ ١٩٢٥ وَثَوْرَةَ جَبَلِ الْعَرَبِ وَثَوْرَةَ الْعَلَوِيِّينَ وَمَا لَحِقَ بِذَلِكَ مِنْ إِضْرَابَاتٍ وَمُفَاوَظَاتٍ وَاضْطِرَابَاتٍ، إِذْ أَقَامَ الشَّعْبُ الْعَرَبِيُّ فِي تَارِيخِهِ الْحَدِيثِ صُرُوحَ مَجْدٍ مُشْرِقٍ بِالْبَطُولَةِ وَالْعَزِيمَةِ وَالْإِبَاءِ، وَأَنْشَأَ الشَّعْرُ صُرُوحَ بَيَانٍ نِيرٍ فِي ابْتِعَاثِ ذَلِكَ وَفِي تَصْوِيرِهِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ.

هَذَا وَإِنَّ الشَّعْرَ الْقَوْمِيَّ كَانَ يَتَنَاوَلُ فِكْرًا فَنِّيَّةً مُتَنَوِّعَةً. فَكَانَ طَوْرًا يَنْوِّهُ بِمَاضِي الْبِلَادِ الْمَجِيدِ وَتَارَةً يَخْفِضُ مِنْ شَأْنِ أَعْدَاءِ الْبِلَادِ وَحِينَئِذٍ يُشِيدُ بِشَأْنِ الْعَدَالَةِ وَمَرَّةً يُصَوِّرُ أَحْلَامَ الْعَرَبِ الْعَمِيقَةَ حَيْثُمَا كَانُوا فِي التَّحَرُّرِ وَالْإِتِّحَادِ وَاللِّحَاقِ بِرَكْبِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِشْتِرَاقِ فِي إِنْشَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْبَلَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الشُّعْرَاءَ قَدْ جَمَعُوا فِي قَصَائِدِهِمْ وَأَنَاشِيدِهِمْ عُنْصُرِي الْإِنْفِعَالِ وَالْإِرَادَةِ مَعًا وَضَمُّوا طَرَفِي التَّأَثُّرِ وَالتَّأَثِيرِ. لَقَدْ أَنْفَعَلُوا بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ تَخَلُّفٍ وَاسْتِعْمَارٍ وَتَأَثَّرُوا لِمَا وَجَدُوهُ مِنْ تَجَزُّؤَةٍ وَتَفْرِقَةٍ وَعَمِدُوا إِلَى تَبْدِيلِ مَا شَاهَدُوهُ وَتَغْيِيرِ مَا وَجَدُوهُ بِطَرِيقِ بَثِّ الْوَعْيِ وَالتَّنْبِيهِ بِالْبَيَانِ. ذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا أَنْسَابَتْ إِلَى جَمَاهِيرِ الشَّعْبِ أَصْبَحَتْ قُوَّةً لَا تُقَاوَمُ. وَالْبَيَانُ مِنْ أَفْضَلِ السُّبُلِ لِلْوُصُولِ إِلَى الثُّقُوسِ وَالْقُلُوبِ. وَقَدِيمًا قَالَ الشَّاعِرُ^(١): وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامٌ. وَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْثَلَةٍ شِعْرِيَّةٍ لَيْسَ إِلَّا بِضَعَةِ الْهَانَ اخْتَرْنَاهَا فِي فتراتِ النَّضَالِ الطَّوِيلَةِ الْمُتَفَاوِتَةِ لِنُظْهِرَ اتِّجَاهَاتِ الشَّعْرِ الْحَدِيثِ الْعَامَّةِ وَأَسَالِيهِهِ الصَّحِيحَةِ دُونَ أَنْ نُورِدَ بِالتَّفْصِيلِ مُنَاسِبَاتَهَا دَفْعًا لِلْإِطَالَةِ وَمَنْعًا لِلخُرُوجِ عَنْ نَهْجِ مَوْضُوعِنَا الْأَصْلِيِّ.

وَقَدْ يَتَبَرَّعُ الشُّعْرَاءُ بِمَا يَجِدُونَهُ مِنْ تَمَهُّلٍ فِي الْإِسْتِيقَازِ وَأَنَاءَةٍ فِي الْهُيُوسِ وَرِيثٍ فِي التَّقَدُّمِ فَيَعْمِدُونَ إِلَى التَّبَكُّيتِ الْمُرِّ. يَقُولُ الرَّصَافِيُّ:

إِلَى كَمْ أَنْتَ تَهْتَفُ بِالنَّشِيدِ وَقَدْ أَعْيَاكَ إِيقَازُ الرُّقُودِ

فَلَسْتَ وَإِنْ شَدَدْتَ عُرَا الْقَصِيدِ بِمُجْدٍ فِي نَشِيدِكَ أَوْ مُفِيدِ

لَأَنَّ الْقُومَ فِي غِيٍّ بَعِيدِ

إِذَا أَيْقَظْتَهُمْ زَادُوا رُقُودًا وَإِنْ أَنْهَضْتَهُمْ قَعَدُوا وَثَادًا

فُسُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَا كَأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خُلِقُوا جَمَادَا

وَهَلْ يَخْلُقُ الْجَمَادَ عَنِ الْجُمُودِ

أَطْلُتْ وَكَادَ يُعِينِنِي الْكَلَامُ مَلَامًا دُونَ وَقَعْتِهِ الْحُسَامُ

(١) ابن حجاج يقول: «وربَّ كَلَامٍ تُسْتَارُ بِهِ الْحَرْبُ».

فما انتبهوا ولا نفع الملام كأن القوم أطفال نيام
تَهَزُّ مِنْ الْجَهَالَةِ فِي مُهُودٍ
إلى آخر القصيدة . . .

والحق أن كثيراً من الحكام الذين نصّبهم الاستعمار كانوا يعثون بقضايا الشعب العربي، ويحولون دون تنبّه ونهوضه، ويعيثون فساداً في خيرات البلاد. ولكنّ المنبه الضخم والحافز القوي كان اضطدام الشعب أخيراً بواقعه المرير حين لم تستطع جيوش البلاد العربية التي كان يُشرف عليها الاستعمار أن تحمي قطراً من أعز أقطارها وأقدسها والصّقتها بالثّقوس والقلوب وهو فلسطين. فنصّب الاستعمار رأس جسر له في الدولة المُصطنعة التي أقامها ليحول دون حركة التحرّر في البلاد العربية وقد أوجس خيفة منها وخشي من قوّتها على مصالحه الماديّة وعلى آبار الثّقط التي يلص خيراتها، ويسرق كنوزها، وإنّما هي خيرات الشعب العربي وكنوزه.

وبالجملة كان لكلّ حدّث في أجزاء الوطن العربي، دقّ أو جَلّ، صدّى بعيد في الشعر العربي لأنّ هذا الشعر كان ولا يزال، كما قيل منذ القديم، «ديوان العرب». وقد ألّفَت كُتُب في العصر الحاضر كثيرة تُنوّه بـ «الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر»^(١) أو تتناول الشعر القومي في قُطر عربيّ مثل «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام»^(٢) وما إلى ذلك. إنّ عمل الأديب هنا يتّصل بعمل المؤرّخ اتّصالاً عميقاً. وكذلك أقبل الشعراء الحديثون على تناول الأغراض الاجتماعيّة المتنوّعة في أشعارهم. وليس من المبالغة قول الزّهاوي شارحاً رسالة الشعر العربيّ في قصيدة نختار طائفة من أبياتها:

الشعر ديوان العرب	والشعر عنوان الأدب ^(٣)
هو الذي قامث به	في الشرق نهضة العرب
وهو الذي كان يخد	سفّ ذائداً عن الحسب
ويكشف الحقّ إنّ الـ	حقّ عن العين اختجب
ويشعل النار التي	في أوّل الحرب تُشب
ويحفظ الأخلاق أن	تمسّها يد العطب

(١) الدكتور محمّد محمّد حسين.

(٢) الدكتور أمجد الطرابلسي.

(٣) أبو فراس يقول:

الشعر ديوان العرب أبداً وعنوان الأدب
وقد أخذ الزّهاوي البيت وبَدّل بعض ألفاظه كما ترى فنقله من مجزوء الكامل إلى مجزوء الرّجز.

يُصَوِّرُ الاحساس منهم	في الرُّضا وفي الغضب
يَرُوعُ مَنْ يسمعه	إذا أهَابَ أو عَتَبَ..
الشَّعْرَ زَهْرَ عَطَرٍ	أُنْبَتَهُ أَرْضَ الْعَرَبِ
والزَّهْرَ فِي أَشْوَاكِهِ	كَالْعَيْنِ حَوْلَهَا الْهُدْبُ...
كَمْ خَاضَ فِي حَرْبٍ وَكَمْ	غَالَبَ جَمْعاً فَغَلَبَ
كَمْ مَرَّةً أَفْضَى إِلَى أَنْ	قِلَابَ شَعْبٍ فَانْقَلَبَ
فِيَالِهِ مَنْ بَطَلَ	لَمْ يَنْتَكِضْ عَلَى الْعَقَبِ
السَّيْفِ فِي يَمِينِهِ	مَا إِنَّ نَبَا لَمَّا ضَرَبَ
وَالشَّمْسِ فِي جَبِينِهِ	يُرْسِلُ عَقِيَانِ الدَّهْبِ

ومن المعلوم أنَّ الهجرة العالمية التي مَسَّتْ أوروْبَةَ في القرن التاسع عشرَ وحملت
مئات الألوف المؤلَّفة من المهاجرين إلى العالم الجديد أَفْضَتْ إلى الشَّاطِئِ الشَّرْقِيِّ من
البحر المُتوسِّطِ ومَسَّتْ غربيَّ آسِيَةِ فانتابَتْ سوريَّةَ وحملت منها ومن ساحلها اللُّبْنَانِيَّ أُلُوفاً
من المهاجرين كما يَحْمِلُ السَّيْلُ بذور الأزهار فنثرتهم في جَوَانِبِ أَمْرِيكَةِ الْمُتْرَامِيَةِ فعاشوا
بأجسامهم في هذه البلاد وبأزواجهم في جَوْ وَطَنِهِمُ البعيد، ثم تَفَتَّحَتْ أَكْمامُ بيانهم
السَّاحِرِ البديع فنشأ أدب عربيٌّ مَهْجَرِيٌّ في الولايات المُتَّحِدَةِ وفي البرازيل والأرجنتين
وغيرها. ولقد نَشَطَ المُهاجرون العرب هناك في مَيَادِينِ مُخْتَلِفَةٍ فِكْرِيَّةٍ وساعدوا على تَقْدِيمِ
تلك البلاد، ولكنَّ أَجْمَلَ ما قَدَّمُوهُ إلى بلادِهِمُ الأَصْلِيَّةَ ما كتبوه من بيان وما قَرَضُوهُ من
نَظْمٍ.

كانوا على رغم أُلُوفِ الكيلومترات الفاصِلة وعلى رغم الشُّهول والجبال المُتْرَامِيَةِ
المُنْتَصِبَةِ والبراري والبحار المُعْتَرِضَةِ يُتَابِعُونَ أحداثَ وَطَنِهِمُ الواسع وَيَهْفُونَ بِقُلُوبِهِمُ إِلَيْهِ
وَيَرْجُونَ لِقَاءَهُ مَهْمَا طَالَ النَّأْيُ وَلَا سِيَّما أَنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ تَرَكَوا أَهْلِيَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ وَأَقْرَبَاءَهُمْ
وَأَحْبَابَهُمْ، فاشتدَّ حنينهم وتَسَامَى هَذَا الحنين واضْطَرَمَّتْ عَوَاطِفُهُمُ القُومِيَّةُ واحترقت
حُشاشَاتُهُمْ كما تحترق حُشَاةُ العاشق المُحِبِّ بِالْهَوَى وشَدَّوا بِأَطْيَبِ الْأَغَانِي وَصَدَّحُوا
بَاعْدَبِ الْأَنْغَامِ فِي حُبِّ الْوَطَنِ وَالتَّشَوُّقِ إِلَيْهِ وَفِي بَعْثِ الْوِثَامِ وَحَفْزِ الثُّهُوسِ وَتَعْجِيلِ
الرَّكْبِ الْعَرَبِيِّ الْمُتَقَدِّمِ، مُتَّبِعِينَ مَرَاكِحَ سِيرِهِ الشَّاقَّةَ بِالْقُلُوبِ الْحَوَانِي وَالْأَمَالَ الشَّوَاحِصِ
الرَّوَانِي. أَسْمِعَتْ مَرَّةً فِي فَجْرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الرَّبِيعِ الْحُلُوةِ الْمُخْضَلَّةِ صُدَاحاً شَجِيحاً يَتَسَامَى
إِلَيْكَ مِنْ حَدِيقَةِ قَرِيبة يُرْجِعُهُ بِلْبَلِ شَجِّ حَزِينٍ أَوْ عِنْدَلِيبِ مُلْتَمِعٍ مُلْتَمِحٍ يَذْكُرُ إِلْفَهُ النَّائِي
وَسَكْنَهُ الْبَعِيدَ؟! كَذَلِكَ كَانَتْ أَشْعَارُ أَوْلَئِكَ النَّازِحِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ. أَضْغِ إِلَى الشَّاعِرِ

القروي يهتف وهو يتها للرجوع إلى داره سورّة ولبنان من الوطن العربي بعد غياب طويل، واسع ألا تشجيك هذه العاطفة إن استطعت:

بنت العروبة هيّسي كفني أنا راجع لأموت في وطني
أجود من خلف البحار له بالروح ثم أضن بالبدن
حتى إذا غضب أولئك الشعراء لِمِلمّة أو فاجعة أوقعها المستعمر في بلادهم تبدلت
نبراتهم المُحتَرقة إلى نبرات مُحَرّقة تنصب كالحمم على هامات المستعمرين، فكانت تلك
النبرات المُحتدّمة تجوز القارّات والبحار المحيطة كالصّواريخ عابرة القارّات.

ولقد افتنّ شعراء المهجر في أغراض الشعر وتنازلوا أنواعاً منه طريفة ولطيفة
اشتملت على ألوان جديدة من الفكر والعاطفة والخيال بسبب ما وجدوه في عالمهم
الجديد أو في العالم الغربي على وجه العموم، كما اتّجه بعضهم إلى سهولة الألفاظ
وهلّة الذّياجة بالنّسبة إلى ما رأيناه من جزالة إبان فجر النّهضة. ولكنّ ذلك كان كلّ
سائغاً ومقبولاً ومنظوراً إليه على أنّه عنصّر تجديد وإبداع وطرافة حتى إنّ بعض الأدباء
شبهوا هذا الأدب ببعض وجوه الأدب الأندلسي.

إلا أنّ ثمة شبهاً آخر بين الأدبين. فكما طويّت في الماضي صفحة الأندلس وما فيها
من أدب، كذلك تأخذ أبناء الجاليات العربيّة بالاندماج الشّديد في البيئات البشريّة التي
تعيش بين ظهرانيها مع نسيان هؤلاء الأبناء بالتدريج للغة الأمّ الأصليّة. إنّ الشعب العربيّ
معطاء في مجال الأدب والفكر ومعطاء أيضاً حتى في المجال الدّيمغرافي.

على أنّ الشعر الحديث لم يكن كلّ نضالاً وكفاحاً قوميّين. وإذا كانت النّفس
الإنسانيّة تهيج للحُشف والمذلة وتغضب للهوان والتأخّر وتنزع إلى المجد والشّوّد وتطمح
إلى المكارم والمعالي فهي تطرب لرّيف الشّعاع وميض النّور وبهجة الحياة وزينة الدّنيا
وتخلّولي لها الابتسامة العذبة السّايبة والنّظرة المُحبّة الرّائية والمُقلّة التي تجمع حلك اللّيل
وتلاؤ النّهار أو تضمّ خُضرة الغابات وعمق البحار أو تقرن إلى مُتنوع الضّحى ذهب
الأصيل أو تحوي بهجة الحقول وزونق النّرجس، وهكذا... وكم في الحياة من محاسن
غامضة وظاهرة، وملذّات معنويّة وشكليّة! وكم فيها من مُتّع لا يقدرها حقّ قدرها إلا
القلب الشّاعر والحسّ المُرهّف! فلا غرو إذا لهج بها الشعراء وغنّوها. ولم يخلُ الشعر
العربيّ في يوم من الأيام من هذا النّوع من الغناء على تفاوت كبير في قيمته واختلاف في
درجة سُمّوه.

ومع أنّ اللّغة العربيّة كانت سليقة في العهود العربيّة القديمة فأصبحت يتعلّمها
النّشءُ تعلّماً نجد الشعراء والأدباء والمُفكرين العرب في تباشير النّهضة العربيّة الحديثة

مُعْتَرِين بُلْغَتِهِمْ وَغِنَاهَا وَمُرُوتَهَا وَاتِّسَاع دَلَالَتِهَا لِجَمِيعِ الْأَغْرَاضِ. لَقَدْ ذَكَّرْنَا مَا فِيهِ الْكَفَايَةُ مِنَ الشَّعْرِ الْحَدِيثِ الَّذِي قِيلَ فِي مَطْلَعِ النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ لَنَا أَنْ نَذْكُرَ طُرْفًا مِنْ آرَاءِ الْأَدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ الَّذِينَ فَكَّرُوا فِي خَصَائِصِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَنَظَّمُوا فِيهِ، فَهَمَّ قَدْ جَمَعَ كُلُّ مَنْهُمْ بَيْنَ قَلْبِ الشَّاعِرِ وَفَهْمِ الْأَدِيبِ الْوَاعِي، هَذَا عِذَا أُطْلِعَهُمُ الْوَاسِعُ عَلَى الْأَدَابِ الْأَوْرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ. وَنَخْصُ بِالذِّكْرِ سُلَيْمَانَ الْبُسْتَانِي مُعَرَّبَ الْبَاذَةِ هُومِيروسَ فِي مَطْلَعِ هَذَا الْقَرْنِ. وَلَا بَأْسَ أَنْ نَقْفَ بَعْضَ الْوَقْتِ مَعَ هَذَا الْمُفَكِّرِ الْكَبِيرِ فَنَسْتَمِعَ إِلَيْهِ يَشْرَحُ بَعْضَ خَصَائِصِ الْبُحُورِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَعَارِفَةِ وَاخْتِلَافِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَفَقِ الْأَغْرَاضِ الشَّعْرِيَّةِ فِي التَّوْطِئَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ تَعْرِيهِهِ. وَمِثْلُ هَذَا الشَّرْحِ إِذَا أُثْبِتَ بَعْضُ الْحَقَائِقِ فَإِنَّمَا نَرَاهُ يَشْفُ عَنْ تَأْمُلٍ عَمِيقٍ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَصُحْبَةِ طَوِيلَةٍ لِهَذَا الشَّعْرِ وَمَعْرِفَةٍ بِهِ وَمَحَبَّةٍ لَهُ، وَالْمَعْرِفَةُ وَالْمَحَبَّةُ صِنَوَان. يَقُولُ الْبُسْتَانِي مَا مَوْجَزُهُ:

«فَالطَّوِيلُ بَحْرٌ خِصَمٌ يَسْتَوْعِبُ مَا لَا يَسْتَوْعِبُ غَيْرَهُ مِنَ الْمَعَانِي وَيَتَّسِعُ لِلْفَخْرِ وَالْحِمَاسَةِ وَالتَّشَابِيهِ وَالِاسْتِعَارَاتِ وَسَرْدِ الْحَوَادِثِ وَتَذْوِينِ الْأَخْبَارِ وَوَصْفِ الْأَحْوَالِ. وَلِهَذَا رُبَا فِي شَعْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْبُحُورِ لَأَنَّ قِصَائِدَهُمْ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الشَّعْرِ الْقَصَصِيِّ مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلَّدِينَ... وَالْبَسِيطُ يَقْرُبُ مِنَ الطَّوِيلِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَّسِعُ مِثْلُهُ لَا سِتِّيعَابِ الْمَعَانِي وَلَا يَكِلِينَ لِنَهْجِ التَّنَصُّفِ بِالتَّرَاكِبِ وَالْأَلْفَافِ مَعَ تَسَاوِيِ أَجْزَاءِ الْبَحْرَيْنِ، وَهُوَ مِنْ وَجْهِ آخِرٍ يَقُوقُهُ رِقَّةٌ وَجَزَالَةٌ، وَلِهَذَا قَلَّ فِي شَعْرِ أَبْنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَكَثُرَ فِي شَعْرِ الْمُؤَلَّدِينَ... وَالْكَامِلُ أُنْثَمُ الْأَبْحُرِ الشُّبَاعِيَّةِ، وَقَدْ أَحْسَنُوا بِتَسْمِيَّتِهِ كَامِلًا لِأَنَّهُ يَصْلُحُ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ، وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرًا فِي كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ، وَهُوَ أَجْوَدُ فِي الْخَبَرِ مِنْهُ فِي الْإِنْشَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى الشَّدَّةِ مِنْهُ إِلَى الرِّقَّةِ... وَإِذَا دَخَلَ الْحَدِّذُ وَجَادَ نَظْمُهُ بَاتَ مُطَرِّبًا مُرْقِصًا وَكَانَتْ بِهِ نَبْرَةٌ تَهْيِجُ الْعَاطِفَةَ... وَهُوَ كَذَلِكَ إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ الْحَدِّذُ وَالِإِضْمَارُ... وَالْوَافِرُ أَلَيْنَ الْبُحُورِ يَشْتَدُّ إِذَا شَدَّدَتْهُ وَيَرِقُّ إِذَا رَفَّقَتْهُ، وَأَكْثَرُ مَا يَجُودُ بِهِ النَّظْمُ فِي الْفَخْرِ... وَفِيهِ تَجُودُ الْمَرَاثِي... وَالْخَفِيفُ أَخْفَى الْبُحُورِ عَلَى الطَّبْعِ وَأَطْلَاهَا لِلْسَّمْعِ يُشَبِّهِ الْوَافِرَ لِينًا وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ سُهُولَةً وَأَقْرَبَ انْتِجَامًا. وَإِذَا جَادَ نَظْمُهُ رَأَيْتَهُ سَهْلًا مُمْتَنِعًا لِقُرْبِ الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ فِيهِ مِنَ الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ. وَلَيْسَ فِي جَمِيعِ بُحُورِ الشَّعْرِ بَحْرٌ نَظْمُهُ يَصْحُحُ لِلتَّنَصُّفِ بِجَمِيعِ الْمَعَانِي... وَالرَّزَلُ بَحْرُ الرِّقَّةِ فَيَجُودُ نَظْمُهُ فِي الْأَخْزَانِ وَالْأَفْرَاحِ وَالزَّهْرِيَّاتِ. وَلِهَذَا لَعِبَ بِهِ الْأَنْدَلُسِيُّونَ كُلُّ مَلْعَبٍ وَأَخْرَجُوا مِنْهُ ضُرُوبَ الْمَوْشَحَاتِ، وَهُوَ غَيْرُ كَثِيرٍ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَأَكْثَرُهُ فِيمَا تَقَدَّمَ. وَمَعَ هَذَا فَلَمَعَتِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحِمَاسَةِ، وَلِلْحَارِثِ الْيَشْكُرِيِّ قَصِيدَةٌ إِخْبَارِيَّةٌ أَبْدَعَ فِيهَا... وَالسَّرِيعُ بَحْرٌ يَتَدَقَّقُ سَلَاسَةً وَعُدُودِيَّةً يَحْسُنُ فِيهِ الْوَصْفُ وَتَمَثِيلُ الْعَوَاطِفِ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا فِي

الشعر الجاهلي... والمتقارب بحر فيه رنة ونغمة مطربة على شدة مانوسة وهو أصلح للعتف منه للرفق... والفرس يصرعون كالرجز وعليه نُظِمَت شُهْنَامَةُ الفردوسي. والمحدث أو متدارك الأخفش بحر أصابوا بتسميته الخَبَب تشبيهاً له بخَبَب الخيل، فهو لا يصلح إلا لثكته أو نغمة أو ما أشبه وصف زحف جيش أو وقع مطر أو سلاح، وهو قليل في الشعر القديم والحديث. والرجز ويسمونه حمار الشعر بحر كان أولى بهم أن يسموه عالم الشعر لأنه لسهولة نظمه وقّع عليه اختيار جميع العلماء الذين نظموا المثنون العلمية كالنحو والفقه والمنطق والطب فهو أسهل البحور في النظم ولكنه يقصر عنها جميعاً في إيقاظ المشاعر وإثارة العواطف فيجود في وصف الوقائع البسيطة وإيراد الأمثال والحكم.

وقد اقتصر المؤلف في تعريبه الإلياذة شعراً على اعتماده هذه الأبحر العشرة ولذلك يبين بعضاً من خصائصها كما بدا له. ولا يخفى أن ما ذكره متعلق بتجربته للشعر العربي ويطأطأه عليه. ولكن المتأمل قد يجد أشياء كثيرة يستطيع ذكرها وزيادتها. إلا أن البحث هنا يتناول كيف كان الأدباء والشعراء ينظرون إلى الأوزان العربية ويتفهمون ملأمتها لأغراضهم.

والمؤلف الشاعر يبحث القوافي في لغة العرب أيضاً فيقول: «والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية لأنها لغة قياسية رثانة يجب أن يراعى فيها القياس والرثانة. وفيها من القوافي المتناسبة ما يتعدّر وجود نظيره في سائر اللغات فلا يسوغ لها أن تبرز عطلاً مع توافر ذلك الحلّي الشائق. فإذا اقتصر الإفرنجي على صوغ شعره كالرجز العربي لكل شطرين قافيتان متناسبتان يتنقل منهما إلى غيرهما واضطّر إلى تكرارهما بعد حين أو لو اختار أن يعرّي شعره من القوافي بتاتاً فعُدّه في ذلك أن لغته هكذا خلقت. بل لو أجهد نفسه في مواضع كثيرة لتعدّر عليه تعزيز قافيتين بثالثة. والشاعر العربي بخلاف ذلك فإن كثيراً من ضروب القوافي تنهال عليه انهيار الغيث، وإذا انحبست فلا تنحس إلا لقصر باع أو لقرع باب ضيق أو لتجاوز الحد في إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة».

ثم يُشَبِّه مُعَرَّب الإلياذة الشعر بالموسيقى فيقول: «الشعر كالنغم الموسيقي والقافية رسته أو قراره فحيثما جاد النغم وتناسق إلى مُتَناهٍ حَسَنَ وقَّعه في الأذن وانشرح له الصدر وطربت له النفس فكل نغم أطرب أرباب الصناعة وذوي الأذن السَّمَّاعة فهو الحسن. وهكذا الشعر فلا يحسن وقَّعه في نفوس قرائه وسامعيه ما لم يكن جيّداً». ويقول أيضاً: «إن المعاني الشعرية كالألآئ المَثُورة لا مُرْشِد إلى إحسان نظمها في سِمطها خير من سَلِيْقَةِ النَّاطِم. فإن جادت الصناعة بهرت البصر، وإلا جاءت ركاماً بعضها فوق بعض، وذهب خلل بنائها بنضارة روائها».

وهنا نصل إلى نقطة مُهمّة تتعلّق بالشّعر العربيّ وباللغة العربيّة نريد أن نُبرِّزها بجلّاء، وقد عالجهّا مُعرّب الإلياذة عندما نظر إلى الشّعر اليونانيّ فوجده قد تغيّر وتبدّل وكذلك عندما نظر إلى اللغة اليونانيّة وإلى اللّغات الحديثة كالفرنسيّة والإنكليزيّة وإلى تبدّلها جميعاً على خلاف اللغة العربيّة التي تطوّرت كلّ التطوّر ولكنّها بقيت هي ذاتها، وهذا أفضل أنواع التطوّر الصّحيح. ويبحث عن هذا الاستمرار والتّعمير الطّويل والصّون البعيد فهو يقول:

«وعلى الجملة فقد ظلّ هذا التغيّر يتعاظّم حتى باتت اللغة اليونانيّة الحديثة لغة قائمة بنفسها ولها أصول بعضها أقرب إلى اللّغات الحديثة منها إلى لغة الإلياذة. ولهذا ترى نوابغ كتّاب اليونان العصريّين مع شدّة ما بهم من الغيرة على إحياء اللغة اليونانيّة القديمة والتّشبّه بها في بعض ما يُشثّون لم يُغنيهم كلّ ذلك عن نقل إلياذة هوميروس وأشباهاها بالترجمة إلى اللغة اليونانيّة الحديثة فكأنّهما لغتان مُنفصلتان.

وأما العربيّة فليس هذا شأنها فإنّ أصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهليّة، وغاية ما يُشكّل فهمه على قرائها مُفردات لم تألفها العامّة ومُترادفات مُتشابهات وتعبير غير مأنوسة في عصرنا.

ولكنّ التّباعد بين لغات العامّة محصور في الكلام العامّي. فالحجازيّ واليمنيّ والنّجديّ والعراقيّ والمصريّ والشّوريّ والمغربيّ وإن اختلفت مُصطلحاتهم في كلّ قطر من أقطارهم فهم جميعاً يكتبون بلغة واحدة على أصول لا تختلف شيئاً بين إقليم وإقليم. وجميع هذه الأصول مبنية على أصول لغة القرآن.

وإنّ اختلاف منطوق العامّة غير خاصّ بالعربيّة بل هو يتناول جميع اللّغات الحيّة حتى إذا نظرت إلى أزقاهنّ كالفرنسيّة والإنكليزيّة رأيت فرقاً بيّناً في كلام العامّة بين منطوق أبناء قطر وقطر وإن اتّحدت اللغة الفصيحة بين جميع النّاطقين بها من أبناء تلك اللغة وغير أبنائها...

وخلاصة ما تقدّم أنّ اللغة العربيّة أطول اللّغات الحيّة عمراً وأقدمهنّ عهداً والفضل في ذلك للقرآن. فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علوّ منزلتهما لم تُقَمّ للغة اليونانيّة دعامة ثابتة حتى في بلادها، ولم تقو على مقاومة التّيّار الطّبيعيّ. ولكنّ القرآن وطّد أركان لغة قريش في بلادهم وأداعها في جميع البلاد العربيّة وسائر البلاد التي طال فيها عهد الاحتلال الإسلاميّ أو كثرت مُخالطة العرب الضّاربين في أقطار الأرض للجهاد والتّجارة.

والمؤلف يتحدث عن أسواق العرب ومكانتها في تنقيّة ألفاظ اللّغة وتثبيتها وما كان ينشد فيها من شعر ثم يقول:

«إذا ثبت أن لُكَاظ ونظائرها فضلاً في تمحيص ألفاظ اللّغة فالفضل العظيم في استحيائها واستبقائها إنّما هو للقرآن، فهو الذي أحكم تراكيبها وأبدع في تنسيق أساليبها وصعد بالبلاغة إلى أوج مراقبها. بل هو الذي جمع جامعها وهذب عبارتها. ولما ارتفع منار الدّين الإسلاميّ كانت اللّغة العربيّة تنتشر بانتشاره على وتيرة واحدة في مشارق الأرض ومغاربها. ولا عبرة بما كان يعتزّز لغة العامّة من الرّكّة واللّكنة بمخالطة الأعاجم وبعد عهد الجُمّ الغفير في الجالية العربيّة بالانقطاع عن أصولها. فإنّ القرآن كان ولا يزال رائد الكتّاب يرجعون إليه في مواضع الإشكال ويتمثلون بعبارته ويتفقهون ببلاغته فكان من معجزه حفظ اللّغة العربيّة الفصحى على أسلوب واحد منذ ثلاثة عشر قرناً مع تفرّق حفظها وتشتّت المتكلّمين بها.

وقد فضل القرآن على الشعر العربيّ يكاد يضاهي فضله على لسان العرب لأنّ بلاغة التعبير تهيج الفطرة الشعريّة سواء كانت العبارة نثراً أو شعراً. ولهذا كثر لُغَطُ القائلين في أوائل الإسلام إنّ القرآن كلام شعريّ. فجاءت الآية بتكذيبهم ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُ أَنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾.

ومن المفيد أن نبيّن بمثال كيف حصل صَوْن القرآن الكريم للّغة العربيّة. لقد مرّ في كلام ابن خلدون على الأزجال زجلان جميلان باللّغة المَلْحُونَة التي كانت شائعة في الأندلس. ونذكر أنّا قرأناهما فهمناهما بيّسر ولكنّا لم نعرف اللّهجة المضبوطة التي يجب أن يُشدا بها، ولذلك لم نشعر بوزنهما الدقيق كما نشعر بأوزان الأزجال الشائعة لعهدنا الحاضر، وكذلك صعب علينا ضبط الألفاظ المُستعملة فيهما بالتأكيد كما نضبط الألفاظ العربيّة الصّرف. لهذا مع أنّنا نستطيع أن نقرأ جميع الأشعار العربيّة منذ عهد الجاهليّة حتى اليوم وأن نضبطها أوزاناً وألفاظاً ومعاني ودلالات وأن نعرف مزاياها وخصائصها وعملها وزحافات. وذلك أنّ التّنزيل صان اللّغة والشعر واللفظ وصان اللّهجات أيضاً لأنّه بجانب تدوين العلوم العربيّة كانت تلك العلوم تُتناقل بالرواية الشفهية كما كان ترتيل القرآن الكريم وكيفيّة تلاوته وقراءته تُتناقل من جيل إلى جيل بالتعليم والتلقين والضبط الثام. ولولا ذلك لتشعبت اللّغة العربيّة منذ عصور ولتفرّعت عنها عدّة لغات كما حصل للاتينية وكما حصل للغات شبه الجزيرة الإسكندنافية. إنّ لغات شبه الجزيرة الإسكندنافية من دانمركيّة وسويديّة ونرويجيّة مُتقاربة، ويكفي للسويديّ مثلاً أن يعيش بضعة شهور فقط يستمع اللّغة النرويجيّة حتى يفهمها، وهي جميعاً ذوات صلات

باللغة الألمانية. لقد تَشَتَّتْ هذه اللُّغات وأصبحت لهجات مَحَلِّيَّة تَقِلُّ أَهَمِّيَّتُهَا بالتَّدرِج في المِيدَانِ العَالَمِيِّ لِقَلَّةِ المُتَكَلِّمِينَ بِهَا عَلَى رَغْمِ رُفِيَّتِهِمْ. ويعتمد العلماء منهم إلى أن يكتبوا في اللُّغات العَالَمِيَّةِ الشَّائِعَةِ. وليس كَذَلِكَ اللُّغة العَرَبِيَّةُ الَّتِي بَقِيَتْ زَاخِرَةً وَسَائِغَةً وَمَرِنَةً، كَمَا بَقِيَتْ رَابِطَةً حَيَّةً تَجْمَعُ بِلَاداً وَاسِعَةً كَبِيرَةً يَتَكَلَّمُ بِهَا شَعْبٌ وَاحِدٌ بَرغمِ الظُّرُوفِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَالْوَيْلَاتِ الَّتِي اغْتَوَرَتْهَا. لقد عَمِدَتْ الْبِلَادُ الرَّاقِيَّةُ إِلَى إِقَامَةِ أَكَادِمِيَّاتٍ لَتَنْقِيَةِ لُغَتِهَا وَلِتَمَحْصِصِهَا وَنَظَّمَتْ مَعَاهِدَ عِلْمِيَّةً لَتَسْجِيلِ اللَّهْجَاتِ الْإِتْبَاعِيَّةِ النَّمُوذَجِيَّةِ وَالْإِقْلِيمِيَّةِ. وَهنا يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَعْتَبِرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ «أَكَادِمِيَّةً» دَائِمَةً لِلُّغةِ الْعَرَبِيَّةِ، زِيَادَةً عَلَى كَوْنِهِ كِتَاباً دِينِيًّا. وَمِنْ ثَمَّ تَتَضَيَّحُ مَكَانَتُهُ لِلْعَرَبِ مِنْ مُسْلِمِينَ وَغَيْرِ مُسْلِمِينَ.

بَلْ إِنَّ مِثَالِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَشْرْنَا إِلَيْهِمَا لَيْسَ دَقِيقاً. ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْرَأَهُمَا وَنَفْهَمَهُمَا وَنُقَدِّرَ مَا فِيهِمَا مِنْ صُورٍ حَيَّةٍ وَتَمَثِيلٍ قَوِيٍّ فَسَبَبِ اللُّغةِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمَحْفُوظَةِ الْمَصُونَةِ الَّتِي هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ جَمِيعاً. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَلَفَتْ النِّسْيَانُ حَتَّى تِلْكَ الْأَزْجَالَ الْعَامِّيَّةِ وَالنَّسَابِ الْإِنْقِرَاضِ إِلَيْهَا وَإِلَى أَمْثَالِهَا.

لَقَدْ تَطَوَّرَ الشُّعْرُ الْعَرَبِيُّ وَلَكِنَّهُ فِي تَطَوُّرِهِ الْوَاسِعِ بَقِيَ هُوَ نَفْسَهُ. وَلَقَدْ تَطَوَّرَتِ اللُّغةُ الْعَرَبِيَّةُ وَلَكِنَّهَا فِي تَطَوُّرِهَا الْوَاسِعِ بَقِيَتْ هِيَ نَفْسُهَا. وَإِنَّ أَعْلَى أَشْكَالِ التَّطَوُّرِ هُوَ أَنْ يَتِمَّ مَعَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الذَّاتِ، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ انْقِرَاضاً كَمَا حَصَلَ لِلشُّعْرِ الْيُونَانِيِّ الْقَدِيمِ وَلِلُّغةِ الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَكَمَا حَصَلَ لِلشُّعْرِ اللَّاتِينِيِّ وَلِلُّغةِ اللَّاتِينِيَّةِ.

أَمَّا اللُّغةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالشُّعْرُ الْعَرَبِيُّ فَلَهُمَا مُرُونَةٌ وَحَبِيَّةٌ عَجَبِيَّتَانِ. وَمَعَ أَنَّ شِعْرَاءَ النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ رَجَعُوا إِلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيحَةِ السَّلِيمَةِ فَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ أَطْلَعَ عَلَى الْأَدَابِ الْأَجْنِبِيَّةِ وَتَأَثَّرَ بِهَا إِلَى حَدٍّ فَتَرَكَ هَذَا التَّأَثُّرَ صَدَى فِي أَشْعَارِ بَعْضِهِمْ وَفِي أَسْلُوبِهِ وَأَفْكَارِهِ وَخِيَالِهِ. وَلَيْتَنَ كَانَ هَذَا قَلِيلَ الْوُضُوحِ إِلَى حَدٍّ فِي شِعْرِ خَلِيلِ مَطْرَانَ فَهُوَ ظَاهِرٌ وَوَاضِحٌ فِي أَدَبِ جِبْرَانَ خَلِيلِ جِبْرَانَ وَشِعْرِهِ وَفِي آدَابِ أَمْثَالِ هَذَا الْمُفَكِّرِ وَأَشْعَارِهِمْ، وَهُوَ أَشَدُّ وَضُوحاً فِي آدَابِ طَائِفَةٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْحَدِيثِيِّينَ لَمْ تَأْخُذْ حَتَّى الْآنَ مَكَانَتُهَا فِي مِيدَانِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ الْأَصِيلِ وَلَا فِي مِيدَانِ الْأَدَابِ الْأَجْنِبِيَّةِ.

إِنَّ كُلَّ جَمَالٍ فِي بِدْعَةٍ، وَكُلُّ حُسْنٍ مُفْرَدٍ. وَالذَّوْقُ طَلِيقٌ يَطِيرُ فِي الْجَوِّ الَّذِي يُؤَثِّرُ، وَيَهِيمُ فِي الْوَادِي الْقَرِيبِ مِنْهُ، وَيَرِفُّ حَوْلَ اللَّمْحَةِ الَّتِي تُغْرِيه وَتُلْهِمُهُ، وَيَصْبُو إِلَى الْبَارِقِ الَّذِي يُبْرِيه وَيُوحِي إِلَيْهِ، وَيَسْلُكُ السَّبِيلَ الَّذِي يُقْضِي بِهِ حَقّاً إِلَى الْإِمْتِنَاعِ وَإِلَى الْفَنِّ الْجَمِيلِ الْجَدِيدِ. وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَلَّا يَقِفَ الشُّعْرُ عِنْدَ أَسْلُوبٍ مُعَيَّنٍ وَأَلَّا يَجْمَدَ فِي قَوَالِبِ مَصْنُوعَةٍ مَخْدُودَةٍ. وَقَدْ أَحْسَنَ كَثِيرٌ مِنَ شُعْرَاءِ النَّهْضَةِ الْأَوَّلِينَ هَذِهِ التَّرْعَةَ فِي التَّجْدِيدِ

وَأَذْرَكُوا هَذِهِ الرَّغْبَةَ فِي الْإِثْنَانِ بِفَنِّ طَرِيفٍ وَبِمُحَاوَلَاتٍ حَدِيثَةٍ وَعَبَّرُوا عَنْ تِلْكَ التَّرْزَعَةِ وَأَعْرَبُوا عَنْ هَذِهِ الرَّغْبَةِ، وَلَا سَيِّمًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا قُصَارَى الْمَجِيدِ الْمُجَلِّيِّ مِنْهُمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّ يُحَاكِي الْأَقْدَمِينَ دُونَ أَنْ يَنْفَوْقَ عَلَيْهِمْ.

يَقُولُ الزَّهَّاءِيُّ مُنْذَرًا.

سَمِثْتُ كُلَّ قَدِيمٍ عَرَفْتُهُ فِي حَيَاتِي
إِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنْ الْجَدِيدِ فَهَاتِ

إِنَّ الشُّعْرَ الْعَرَبِيَّ فِي الْعُصُورِ الطَّوِيلَةِ السَّالِفَةِ أَعْطَى الْحَانَا كَثِيرَةً لَا حَدَّ لَهَا؛ وَمَهْمَا بَلَغَتْ مَهَارَةُ الشَّاعِرِ الْحَدِيثِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْلُغَ بَرَاعَةَ الْقُدَمَاءِ وَلَا بَرَاعَةَ شَوْقِي وَأَمثَالِهِ الْقَرِيبِي الْعَهْدِ عَلَى الْأَفْلِّ إِذَا هُوَ اسْتَعْمَلَ آلَةَ الْعَزْفِ الَّتِي عَزَفُوا عَلَيْهَا أَوْ الْقِيْثَارَةَ الَّتِي نَفَثُوا فِيهَا أَوْ الْعَرُوضَ الَّتِي رَتَّلُوا الْحَانَهُمْ عَلَى أَوْزَانِهَا وَتَفْعِيلَاتِهَا وَلَا أَنْ يَبْلُغَ التَّحَكُّمَ فِي طَوَاعِيَةِ الْقَوَافِي الَّتِي تَسَيَّرَتْ لِلْمُتَقَدِّمِينَ. ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثِينَ شَعَرُوا مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ بِأَغْلَالِ التَّعَابِيرِ الْمُتَوَارِثَةِ وَالْمَجَازَاتِ الْمُتَدَاوِلَةِ وَحُدُودِ الْفِكْرِ الْفَنِّيَّةِ الْمُرَدَّدَةِ. وَالْفَنُّ إِنَّمَا هُوَ فِي الْأَصْلِ مَعِينٌ نَابِعٌ مِنْ أَغْوَارِ الْقُلُوبِ وَنُورٌ مُتَبَجِّسٌ فِي أَعْمَاقِ الْبَصَائِرِ وَالْإِلْهَامِ بَارِقٌ فِي أَقَاصِي الضَّمَائِرِ، وَهُوَ أَحْسَاسٌ مُفْرَدٌ غَضِيرٌ وَتَعْبِيرٌ مُبْتَكَّرٌ نَضِيرٌ مُتَّصِلَانِ بِالْحَيَاةِ الَّتِي نَحْيَاهَا وَالْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَهْزَأُ بِالْحُدُودِ وَيَتَوَرَّعُ عَلَى الْقَوَاعِدِ، وَهُوَ يَنْقَعُ وَيُمْتَعُ كُلَّمَا كَانَ أَصِيلًا أَوْ شَفَّ عَنْ مَوْهَبَةٍ فَنِّيَّةٍ أَصِيلَةٍ.

وَإِذَا كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ النَّاشِئِينَ يَعْمِدُونَ إِلَى الْمَتَاحِفِ وَيَطْلَعُونَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ آثَارِ الْأَسَاتِذَةِ الْكِبَارِ فَيُحَاكُونَهُمْ وَيَتَّبِعُونَ طُرُقَهُمْ وَيَجْرُونَ عَلَى غِرَارِهِمْ وَيَتَعَلَّمُونَ فِي مَدَارِسِهِمْ وَيَتَخَرَّجُونَ فِيهَا فَإِنَّ التَّصْوِيرَ الْحَدِيثَ يُشْجِعُ بَعْضَ النَّاشِئِينَ الْحَدِيثِينَ مِمَّنْ لَمْ يُحَرِّزُوا دُرْبَةً وَاسِعَةً فِي هَذَا الْفَنِّ عَلَى أَنْ يَعْمِدُوا إِلَى مُحَاوَلَاتِهِمْ الدَّائِيَّةِ وَيُجَرَّبُوا مَا شَاؤُوا مِنَ التَّجَارِبِ لَعَلَّهُ يَتَّفِقُ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَا يَشْتَمِلُ عَلَى إِمْتِنَاعٍ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ مِنْ تَأْلِيفِ أَلْوَانٍ أَوْ تَنْسِيقِ خُطُوطٍ وَهَلَمْ جَزًّا.

فَلَا عَجَبَ إِذَا وَجَدْنَا بَيْنَ النَّشْءِ مَنْ يَتَّجِهَ اتِّجَاهًا جَدِيدًا فِي الْبَيَانِ الشُّعْرِيِّ.

وَيَتَلَخَّصُ هَذَا الْإِتِّجَاهُ فِي الْخُصَائِصِ الْآتِيَةِ:

يَكْتُبُ الشَّاعِرُ كُلُّ بَيْتٍ فِي شِعْرِهِ كِتَابَةً لَا تَتَقَيَّدُ بِشَطْرِي الْبَحْرِ مَعَ خُضُوعِ شِعْرِهِ هَذَا لِلْوِزْنِ الْعَرَبِيِّ الْمُتَعَارَفِ، وَذَلِكَ حَسَبَ انْتِهَاءِ الْجُمْلَةِ أَوْ اكْتِمَالِ الْفِكْرَةِ الْفَنِّيَّةِ أَوْ كَمَا يُمْلِي عَلَيْهِ ذَوْقُهُ.

وهو يسلك أوزاناً مُستندة إلى تفعيلات بعض البحور العربية القديمة مع عدم التقيّد بعدد التفعيلات كما يتفق ذلك مع تعبيره أو مع انتهاء الصور التي يريد رسمها أو الإيحاء بها .

وكذلك يتحرّر من القافية على غرار الشعر الفرنجيّ .

ثم هو يلجأ إلى تعبيرات بسيطة سهلة المأخذ قريبة المتناول ولكنها في كثير من الأحيان مبهمة الدلالة، حلوة الظلال، غامضة الإيحاء، وإذا صوّرت شيئاً أو أوحث بشيء فإنها تصوّر أشياء متصلة بحياتنا القريبة المباشرة وتوحي بمشاعر وخيالات تبدو حديثة وترمي إلى أزياء وعادات مُستجدة . ومن هنا نشأت نسب غير مألوفة بين بعض الموصوفات وأوصافها وتسربت ألفاظ متداولة بعضها عامي أو أجنبيّ .

ويعمد الشاعر إلى اللمسات المؤثرة في الإحساس والموجية ببعض الأفكار والعواطف المناسبة للموضوع الذي يعالجه وذلك لإحداث نشوة عذبة في النفس بطريق الإيحاء وبتصوير الظلال التي تضيفها الألفاظ المستعملة، ولا سيما أن هذه الألفاظ والصور والإيقاع مقبولة قريبة من الحياة، مفهومة حتى لدى الذين لم تتوافر لهم ثقافة عربية أو أجنبية واسعة أو هي مفهومة خاصة عند هؤلاء .

وربما كان رواج مثل هذا الشعر في طوره الحديث ناشئاً عن ارتكاس أو رد فعل حين أفضى الشعر العربي القديم الصحيح عند فريق من الشعراء إلى مجرد اعتماد على نظم فارغ وإعادة مُملة عديمة الابتكار ماتت فيها جذوة الإلهام وجفت غصارة الإحساس المفرد الحيّ . أصبح الشعر جُثثاً مركومة من الألفاظ لا حياة فيها حيث تبدو العبقرية شاحبة إزاء ثراث الشعر العربي الثمين الواسع الخالد الغنيّ بتجاربه وألوانه وأنواعه . ولما كان يجري في الحياة الإنسانية معين سَرمديّ من الإحساس والعواطف الشعاعية كان من الطبيعيّ أن يتجه فريق من الناشئين إلى معالجة الأغراض الشعرية بحيث يغلب فيما يكتبون الإعراب عن مشاعرهم وإحساساتهم وعمّا يُحبّونه ويحلمون به ويُترجمون ذلك بما تهبّأ لهم من معرفة اللغة العربية يُهذِّدون بما ينظمونه انفعالاتهم الفنية وانفعالات الطبقة القريبة منهم والمتقّفة بثقافتهم . وقد اطلع أولئك الشعراء الناشئون من قريب أو من بعيد على بعض الآداب الأجنبية المعاصرة وتأثروا بها ونظروا إليها على أنها نماذج صالحة للاقتداء والمحاكاة وبلغ بهم التأثر أن عمدوا إلى استعمال بعض الألفاظ الأجنبية الثقيلة الخاوية اجتروها في نفوسهم وهماً وإعجاباً مدّة طويلة .

هذا وإنك تستطيع أن تقول ما تشاء في الشعر من عفوية مُبتكرة وانفعال غصّ غصير

وإحساس طريف جديد مُكهرِب وخيال يهزُّ أغوار النَّفس، ولكنَّك لا تستطيع ما دُمْتَ لا تقبلُ الانحراف ولا الهزيمة أن تفصلَ عن الشعرِ عنصر الثقافة ولا لون الحضارة المُنبعث منها، ولا أن تصرفَ النَّظر فيه عن سعة الاتِّجاه وسُمُو الرِّسالة والتِّصاقه بالأهداف القوميَّة والإنسانيَّة.

والشعر في طوره الأخير مُحتاج إلى نصيب واسع من كلِّ ذلك ولا سيما الاطلاع على اللُّغة العربيَّة وإتقانها. وأمهرُ الشعراء الحداثيين من تيسَّر لهم نصيب مُناسب من الاطلاع على الأدب العربيِّ.

إنَّ تجارب الشعراء الأندلسيين في تاريخ الشعر العربيِّ تدلُّ على أنَّها كانت أكثرَ غنىً وأشدَّ اتِّساعاً وأعمقَ بُعداً وأزحَبَ آفاقاً. إنَّهم لم يكتفوا بتغيير الأوزان وزيادة التفعيلات أو نقصها أو تعديلها بل كانوا كما رأينا يختَرعون الأوزان اختراعاً. فالمُوشحات في كلام ابن سناء الملك الذي أثبتناه آنفاً كان أكثرها مُبتكر الوزن، وما بقيَ منها واستُسيغ حتى الآن إنَّما كان صحيح التَّعبير قويَّ الدَّلالة. أمَّا الأزجال الشَّعبيَّة فانتَهت كما ذكرنا إلى الفلكلور الشَّعبيِّ وبأد أكثرها. لقد كانوا سادة الشعر العالميِّ إذ ذاك.

وتجارب الشعر العربيِّ الواسعة التي مرَّ بها تُفضي إلى عدم المُبالغة في تطوُّر الشعر العربيِّ الحديث، وهي تُلقِي أضواءً على حدود مُحاولاته الضيقة. ولا شكَّ أنَّ في الشعر الذي ندعوه «حديثاً» اليوم أشياء كثيرة بديعة وطريقة مُستَحسنة. بل جهد المُجدِّ هنا أن يُعيدَ كلمة ابن خلدون في الزَّجل: «وجاؤوا فيه بالغرائب» مع الشعور بالمُبالغة عند استعمال هذه الكلمة. بيِّد أنَّ تجارب الشعر العربيِّ السَّالفة تُظهر أيضاً أنَّه لا بدَّ في المُستقبل عندما يتمُّ التطوُّر الحضاريُّ الكافي في البلاد العربيَّة من الإقبال على دراسة اللُّغة العربيَّة والأخذ من أدبها بقطر أوفر وأكمل لكي يكون التَّعبير أصحَّ وأقوى وأبعد عن الرُّكَّة والإسفاف. إنَّ الشعر مُتصل دائماً بالثقافة ويتَّجويد اللُّغة. والشاعر المُثقف يعرف كيف يجد الأسلوب الصَّحيح المُلائم لأفكاره ولشاعريَّته وإلَّا لكان شعره من قبيل الأزجال والأغاني الشَّعبيَّة. هذا ولا يُنكر أحدٌ أنَّ في الأزجال والأغاني الشَّعبيَّة من الصور والعواطف الشَّاعريَّة ما لا يُوجد أحياناً في الشعر الصَّحيح البليغ، ولكنَّها أنواع وألوان فنيَّة تبقى ضيقة ولا تدخل في الثَّراث القوميِّ بلَّة الثَّراث الإنسانيِّ. إنَّ الشعر الحديث برغم لونه البرجوازيَّ اتَّجه في الطُّروف العصبيَّة اتِّجهاً قومياً وسلك سبيل التَّنويه بالقضايا القوميَّة والأهداف الإنسانيَّة. لقد خاضَ ميدان الثَّورة ونوّه بتأميم القناة وانغمس في معركة بور سعيد المُظفَّرة وأشاد بوحدة العرب وغنَّى أحلامهم الحديثة بالتحرُّر والتَّضامن والتَّعاون وأصغى أحياناً إلى هزج الصُّفوف والجماهير الرَّاحفة نحو الحُرِّيَّة والمجد. وكان

الشُّعراء يُدرِّكون دائماً أنَّ أحلامهم تلك مُحتاجة إلى التَّحقيق وأنَّ ذلك الهَزَج الزَّاحف يَبْغِي أن يَبْلُغ النَّصْر.

يقولُ الشَّاعر القرويُّ وهو يُمثِّل أَوْجَ الشَّعر الحماسيِّ المَهْجَريِّ، وهو بعيد من نزعة التَّجديد الأخيرة:

فإنَّ سرَّكم أنَّني شاعر فأعظم ممَّن حكى من فعل
تَضِيع منابر أهل الكلام أمام مَيادين أهل العمل

فيُعلن في هذين البيتين تحرُّق الشُّعراء وتَشوُّفهم إلى صُنْع البطولات وتَأْثِيل الأُمجاد وإنْجاز الأعمال القوميَّة الكبيرة. وقد تكونُ أعمال بعض القادَّة السِّيَاسيِّين أعلى من ترصيع عبارات المُبِينين مع تَفَاوُت أنواع المَيادين. وإذا استطاع البيان الصَّافي القويُّ أن يُنِير ظُلُمات السُّبُل ويُوَرِّث الأحقاد على الاستِعمار ويَحْفِزَ الهِمَم على التَّقَدُّم ويُهْذِهْد آلام الجراح ويضاعِف طاقات الكفاح فإنَّ البطولات القوميَّة، والانْتِصارات الشعبيَّة، ونجاح الأعمال المُنْجِزة، تدعم البيان والأدب والشَّعر وتُعزِّز تَفَحُّحها وتَسْقِي جُذورها خلال أجيال طويلة. فبين قيمتي الجمال والخير تَضامُن شديد واشتِباك عميق.

والشُّعراء الحديثون الذين يَتَلَمَّسون التَّجويد حقًّا يَبْغِي أن يعرفوا أنَّهم أمام مَوْضوعات عربيَّة إنسانيَّة ترفع شأنهم وتزيد عُمق بيانهم ويُقوِّي وَحْيها لإنشاءهم ويُوَسِّع إلهامها مجال تأثيرهم وتُوقِد مُزاوَلتها سَنا مواهبهم الفنيَّة المخبوءة.

إنَّ مَلْحمة الجزائر الدَّائرة التي هي سَطُور مجد لاهب في بطولات العرب ووَضْمَة عار في جبين الاستِعمار والدُّول الغربيَّة^(١)، وإنَّ مأساة فلسطين المَطْبوعة في سُويداء كلِّ قلب عربيٍّ، وإنَّ أحلام التَّقارُب والاتِّحاد بين البلاد العربيَّة، وإنَّ القضاء على الحروب والاستِعمار، وإنَّ أمانِي السَّلام العالميِّ، كلُّ ذلك قصائد مَبْنُوثة في سماء البلاد وفي أرضها نَحْيا نَبْرَاتها كلَّ يوم ونَسْتَمع عند مُرْهِف الإصْغاء نَشِيدها المُقَدَّس في الأجواء كأَنَّما يَهْتَف به هاتف في كلِّ قلب. وهي جميعاً تَرْتَقِب من يَعِياها وَيَجْمَع حُرُوفها المُشْرِقة النُّيرة. وهي في ذلك تَحْتَاج إلى قلوب قوميَّة وإنسانيَّة كبيرة وثقافة بيانيَّة رائعة تنتظر من أصحابها المزيد من الكَدِّ، والمُعْجِز من الجهد، كما تنتظر المواهب الفنيَّة العجيبة.

لقد قلنا إنَّ الشَّاعر يَسْتَوْحِي من واقع حياته القرية مَعِيناً يَسْكبه بياناً يَنْقَع القلوب بِرَوْنَقه ويُمَتِّع الثُّفوس بِرِوائه وَيَرُوع العُقُول بِمُحْكَمه. ولكِنَّا في البلاد العربيَّة نعيش مَلَاحِم الصَّراع مع الاستِعمار والصَّهيونيَّة كلَّ حين. وفي هذه المَلَاحِم من البطولات ما يَرُوع

(١) كُتِبَتْ هَذِهِ السُّطُور فِي لِبَّان ثَوْرَةِ الْجَزَائِر.

وَيُوحِي كَمَا تَرُوعُ وَتُوحِي الْجِبَالُ الشُّمُّ الشَّاهِقَةُ وَالْكَوَاكِبُ الزُّهْرُ النَّيِّرَةُ وَالْأَعَاصِيرُ التُّكْبُ
الْمُكَتْسِحَةُ وَالسُّيُولُ الْهَذَّارَةُ الْمُتَحَدِّرَةُ.

نحن ما زلنا نذكر السَّاعات العسيرة المَعْدُودَةَ عَشِيَّةَ الْعُدُوانِ الثَّلَاثِيَّ عَلَى بَورِ سَعِيدٍ
وَيَوْمِ نَسْفِ الْعَمَالِ أَنْيَابِ النَّقْطِ فِي سُورِيَةِ وَهِيَ شَرِيَّاتُ حَيَاتِهِمْ الْاِقْتِصَادِيَّةِ دُونَ أَنْ
يَحْفَلُوا بِمَصِيرِهِمْ وَبِمَصِيرِ أُسْرِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، عَلَى حِينٍ كَانَ بَعْضُ الطَّبَقَاتِ الْعَائِشَةِ عَلَى
قُتَاتِ الْمَوَائِدِ الْأَجْنِبِيَّةِ تَتَرَدَّدُ فِي مَقَاطِعَةِ الْمُسْتَعْمِرِ خَوْفًا عَلَى مَا كَانَتْ تَزِيدُ بِهِ تَخَمُّتَهَا،
وَحَشْيَةً أَنْ تَفُوتَهَا بَعْضُ الْحَاجَاتِ الْكِمَالِيَّةِ.

كَذَلِكَ الْيَوْمِ وَنَحْنُ نَكْتُبُ هَذِهِ الشُّطُورَ نَشْهَدُ حِينَ ظَهَرَ تَأْمُرُ الصَّهْيُونِيَّةِ وَالِاسْتِعْمَارِ
مِنْ جَدِيدٍ فِي مَقَاطِعَةِ عَمَّالِ نِيُويُورِكِ لِلْبَاخِرَةِ «كَلِيُوبَاتِرَا» بَيْنَ جُمْلَةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ
نَتَوَقَّعَهَا كَيْفَ وَقَفَ عَمَّالُ الْمَوَائِدِ الْعَرَبِيَّةِ كُلُّهَا صَفًّا مَرْصُوصًا كَتِفَ الْعَامِلِ الْعَرَبِيِّ إِلَى
كَتِفِ أَخِيهِ مِنَ الْمَحِيطِ إِلَى الْخَلِيجِ مَتَّحِدِينَ وَمُتَّحِدِينَ أَكْبَرَ قُوَى الشَّرِّ وَالتَّخْرِيبِ وَالطُّغْيَانِ
فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ. وَقَدْ دَلَّ الْاِتِّحَادُ مَرَّةً جَدِيدَةً عَلَى أَنَّهُ السَّبِيلُ الْأَكِيدُ لِلظَّفَرِ وَالِانْتِصَارِ.
وَفِي هَذَا مَا فِيهِ مِنْ رَوْعَةٍ وَجَلَالٍ يَنْبَعَانِ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ قُلُوبِ أَبْطَالِ مَجْهُولِينَ فِي عِمَارِ
الشَّعْبِ الْعَرَبِيِّ.

إِنَّ الْمُسْتَقِظَ النَّاهِضَ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الْعَزِيمَةَ وَالنَّشَاطَ وَالْأَمَلَ وَالْعَمَلَ وَالْإِقْبَالَ
عَلَى الْحَيَاةِ الْمُسْرِقَةِ الْمَاتِعَةِ الْمُتَفَانِلَةِ. وَإِنَّ الْعَرَبِيَّ الَّذِي يَوْمُهُ أَفْضَلُ مِنْ أَمْسِهِ وَغَدُهُ أَفْضَلُ
مِنْ يَوْمِهِ هُوَ ذَلِكَ الْمُسْتَقِظُ النَّاهِضُ الْمُسْمَرُّ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ وَسَاقِ الْعَمَلِ. فَهُوَ لَا يَعْرِفُ
نَوَازِعَ الْقَلْقِ وَالنَّشَاوَمَ وَالْهَزِيمَةَ وَالْوَهْنَ وَالْاِنْحِلَالَ الَّتِي تَجْرِي تَيَّارَاتُهَا بَيْنَ بَعْضِ الطَّبَقَاتِ
الْمُتْرَفَةِ فِي الْغَرْبِ الْاِسْتِعْمَارِيِّ حَيْثُ تَبَدُّوا الدِّيَاغِي تَضْرِبُ أَطْنَابَهَا فِي نُفُوسِ أَبْنَاءِ تِلْكَ
الطَّبَقَاتِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَحْكِمَ فِي آفَاقِ حَيَاتِهِمْ الْفَارِغَةِ الدُّكْنَاءَ. مِنْ هُنَا نَعْلَمُ ضَعْفَ تِلْكَ
الْخَلَجَاتِ وَالْاِنْفِعَالَاتِ الْاِنْحِلَالِيَّةِ فِي بَعْضِ صُورِ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ
الرَّكَائِكَةِ وَالْغَنَائَةِ وَنَدْرِكُ بَعْدَهَا مِنْ أَصَالَةِ حَيَاتِنَا الْجَدِيدَةِ الْبَنَاءَ.

إِنَّ هَذِهِ الْفَقَرَاتِ لَيْسَ الْقَصْدُ مِنْهَا الْغَضُّ مِنْ مُحَاوَلَاتٍ بَيَانِيَّةٍ نَاشِئَةٍ جَمِيلَةٍ، وَإِنَّمَا
الْقَصْدُ دَفْعُهَا إِلَى الْأَمَامِ وَرَفْعُهَا إِلَى الْأَعْلَى وَحَثُّهَا عَلَى التَّنْقِيبِ عَنِ الْيَنَابِيعِ الْبَيَانِيَّةِ الْعَمِيقَةِ
الْأَصِيلَةِ الَّتِي تَمُدُّ كُلُّ فَنٍّ رَفِيعٍ وَتَرْفِدُ كُلَّ جَمَالٍ بِدِيعٍ.

شعر النضال الفلسطيني :

فلسطين والبلاد العربية مَوطن الحضارات الثَّالِدة ومَوْلِد العبقريَّات الأبدية ورُبوع القلوب الرَّاكِيَّة والشَّيَمِ العالية في جميع العُصور على الرَّغم من المَهانة التي صار إليها أَهلُوها، والوَصاعة التي قُدِف فيها بَنوها، واللَّيل الدَّامس الذي تعيش فيه، والكابوس الأسود الذي يُخامِر آفاقها.

وكلُّ عربيٍّ يَنْبض قلبه بالفَخار فلا بدَّ من أن يَشعُر بالخِزي والعار إزاء الوُرطة تَلوِّ الوُرطة تَتَابُ وطنه. ولكن لا بدَّ للكابوس أن يَنْقشع ولَّيل مهما تَطاول أن يَعقُبهُ نور الصَّباح.

ولقد نشأ في فلسطين كما في غيرها لكلِّ عهد تُلِّل من الشُّعراء والأدباء كانوا عُنوان فخر لها. ومن المُناسِب في خِتام بحثنا هذا عن أطوار الشعر العربي أن تُنوّه بعض الشَّيء بشعر المقاومة الحديث ذلك أنَّه لم تَكُذْ أشباح الصَّهْيُونِيَّة والاستِعمار تَتَلامح حتى نهض الشعر يُنبِّه الغافلين ويُنذِر المسؤولين بالخطر الدَّاهم والشَّرُّ المُتطايِر، ويُنافح بنار الحَرْف وحُصَم الإيقاع عن الحِمى المُقدَّس والوَطن المُتوارِث. كان أعلام الشعر في بواكير المُقاومة يَجرون على أساليب التَّعبير المُتعارِفة وبلاغة البيان الأصيل وعمود الشعر القديم. بَيَدَ أن تَغَيَّر وَجوه الحياة والتَّأثُّر بتطوُّر الشعر العالمي ورَغبة التَّعبير بالأساليب الحديثة المُتَّصلة بصَميم الواقع والسَّعي للتَّأثير في الجماهير في حَلبة المَعركة جعلت طائفة من المؤهوبين تَعتمد أسلوب الشعر الحديث المُستند إلى التَّفَعيلات والمُتحرِّر ما أمكن من قَيْد القافية والمُتممُوج مع خَلجات النَّفس ونَوازع الإرادة ومُطامح الإنسانِيَّة، وهم في غَنِيَّة عن التَّرويق والزَّخرفة. يقول محمود درويش:

قصائدنا بلا لون

بلا طَعْم.. بلا صَوْت

إذا لم تحمِلِ المِصباح من بَيْت إلى بَيْت

وإن لم يفهم «البُسطا» معانيها

فأُولَى أَنْ تُذَرِّيَهَا
وَتُخَلِّدَ نَحْنُ لِلصَّمْتِ

هَذَا وَمَعَ أَنَّ مَوْضُوعَنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَى جَلَاءِ الْكُنُوزِ الثَّلِيدَةِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَى التَّنْقِيبِ
عَنِ الْمَوَاهِبِ النَّاشِئَةِ الْجَدِيدَةِ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ التَّطَوُّرَ قَانُونُ الْحَيَاةِ الْمُبْرَمِ، وَأَنَّ سِرَّ الْمَاضِي
مَائِلٌ فِي صَمِيمِ الْحَاضِرِ وَمُسْتَشْرِفٌ إِلَى بِنَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ الْكَرِيمِ.

هُؤُلَاءِ الشُّعْرَاءُ أَمْثَالُ تَوْفِيقِ زَيَادَ وَمَحْمُودِ دَرْوِيشَ وَسَمِيحِ الْقَاسِمِ يَقْرَءُونَ حُرُوفَ
الشُّعْرِ فِي الْوَاقِعِ الْمُؤَلَّمِ فَتَنْقَلِبُ فِي أَفْوَاهِهِمْ رُجُومًا وَجَمْرَاتٍ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَزُرُودًا وَزَهْرَاتٍ
عَلَى سَوَاعِدِ الْفَلَاحِينَ وَأَكْفُ الْعَمَالِ وَصُدُورِ الْمُقَاتِلِينَ. يَقُولُ دَرْوِيشُ:

لَا بَدَّ لِي أَنْ أَرْفُضَ الْوَرْدَ الَّذِي
يَأْتِي مِنَ الْقَامُوسِ أَوْ دِيْوَانِ شِعْرِ
يَنْبُتُ الْوَرْدُ عَلَى سَاعِدِ فَلَاحٍ، وَفِي قَبْضَةِ عَامِلٍ
يَنْبُتُ الْوَرْدُ عَلَى جُرْحٍ مُقَاتِلٍ
وَعَلَى جَنْبِهِ صَخْرٌ.

هُمْ يُعْثُونَ لِلْعَوَاصِفِ، لِلْبُرُوقِ الَّتِي تُشْعِلُ سِرَّ الشَّجَرِ، لِلرُّعُودِ ذَاتِ الْوُعُودِ السَّخِيَّةِ.
يَخْذُونَ الرُّحُوفَ الْمُقَاتِلَةَ، وَيَتَلَمَّحُونَ صُورَ النَّصْرِ وَ«أَوْرَاقَ الزَّيْتُونِ» وَ«آخِرَ اللَّيْلِ»
وَمَخَايِلَ السَّلَامِ مِنْ وَرَاءِ قَتَامِ الْقِتَالِ. بَلْ هُمْ يَخْذُونَ أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي طَلِيعَةِ الصُّفُوفِ
الْمُقَاتِلَةِ. وَلَقَدْ خَلَقُوا لِلْغَنَاءِ كَالْبَلَابِلِ، وَلَكِنَّهُمْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ وَعَلَى أَفْوَاهِ
الْبِنَادِقِ. يَقُولُ دَرْوِيشُ مُنَاجِيًا وَطَنَهُ:

وَلَكِنِّي لَا أَغْنِي
كَكَلِّ الْبَلَابِلِ
فَإِنَّ السَّلَاسِلَ
تُعَلِّمُنِي أَنَّ أَقَاتِلَ
أَقَاتِلَ. أَقَاتِلَ
لَأَتِّي أَحَبُّكَ أَكْثَرًا!

هُمْ يَغْمِسُونَ رِيشَاتِهِمُ الْمَصْنُوعَةَ مِنَ الشَّطَايَا فِي جُرُوحِهِمُ الدَّامِيَةِ فَيَكْتُبُونَ بِدِمَائِهِمْ.
يَقُولُ الْقَاسِمُ:

جَعَلُوا جُرْحِي دَوَاةً وَلِذَا أَنَا أَكْتُبُ شِعْرِي بِشَظِيَّةٍ
إِنَّ السُّلْطَةَ فِي إِسْرَائِيلَ مَخْلُوقٌ خُرَافِيٌّ. وَهِيَ تَغْضَبُ عَلَى الْفَنِّ وَتَرَى الْعَيْبَ فِيهِ

وَتَمْنَعُ الْأَنْشُودَةَ الْحُرَّةَ أَنْ تَنْطَلِقَ، بَلْ تَعْمَدُ إِلَى زَجِّهَا فِي السُّجْنِ أَوْ تَأْمُرُ بِقَتْلِهَا. يَقُولُ
درويش:

غَضِبَ السُّلْطَانُ
وَالسُّلْطَانُ مَخْلُوقُ خُرَافِي
قَالَ إِنَّ الْعَيْبَ فِي الْمَرَاةِ،
فَلْيُخْلَدْ إِلَى الصَّمْتِ مُغْنِيَكُمْ وَعَرْشِي
سَوْفَ يَمْتَدُّ
مِنَ النَّيْلِ إِلَى نَهْرِ الْفُرَاتِ . . .
اسْجُنُوا هَذِي الْقَصِيدَةَ
غُرْفَةَ التَّوْقِيفِ خَيْرَ لِهُدُوءِ الْأَمْنِ
خَيْرَ مِنْ نَشِيدِ . . . وَجَرِيدَةٍ.

ولكن هيهات أن يحبس الحرف. إنَّ ملايين الأشجار تَخْضِرُ لدى لَمَسَاتِ الحروف
وهيهات أن يُقْتَلَ النَّشِيدُ. «ساحة الإعدام ديوان الأناشيد العنيدة!».
«والأغاني كجذور الشجرة»

...

فَإِذَا مَا تَ بَارِضٍ أَزْهَرَتْ فِي كُلِّ أَرْضٍ
وَالشَّاعِرُ يُدْرِكُ عُلُوَّ قِيَمَتِهِ حِينَ لَبَّى الْحَرْفَ وَدَخَلَ حَلْبَةَ الْمُقَاوَمَةِ وَالْكِفَاحِ. ذَلِكَ أَنَّ
النُّضَالَ مِيعَارُ الْقِيَمِ الرَّفِيعَةِ وَسَبِيلُ تَحْقِيقِهَا:
«وَتَلَمَّسْتُ طَرِيقِي بِقَنَادِيلِ الْجِرَاحِ
أَهْ كَمْ كُنْتُ مُصِيباً
عِنْدَمَا كَرَّسْتُ قَلْبِي
لِنِدَاءِ الْعَاصِيفَةِ!»

أشعار هؤلاء الشُّبَّابِ الْمُنَاضِلِينَ مَزِيجٌ مِنَ الْحُبِّ وَالْمَرَارَةِ وَالصَّبْرِ وَرَفَضِ الْقُنُوطِ،
مَزِيجٌ مِنْ حُبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْخُضْرَةِ وَالثُّورِ وَالشَّمْسِ وَالثُّجُومِ وَالطُّفُولَةِ وَعَرَقِ الْفَلَّاحِ
وَجُهدِ الْعَامِلِ وَحَنَانِ الْأُمَمَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَجِهَادِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَمِنْ مَرَارَةِ نَزْفِ الْجُرُوحِ
وَالْتَهَكُّمِ بِالْبَطُولَةِ الَّتِي تَفْتَحُ قَرْيَةَ مُسَالِمَةٍ وَتَسْفِكُ دِمَاءَ الْأَطْفَالِ الْأَبْرِيَاءِ وَتَنْتَصِرُ عَلَى الْعُيُونِ
الْكَحْلَى وَتَنْسِجُ مَعَاطِفَهَا الشَّتَوِيَّةَ الدَّافِئَةَ مِنْ صَفَائِرِ الْبَنَاتِ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ درویش. هِيَهَاتَ
أَنْ تَغِيبَ عَنِ الْبَالِ كَمَرْقَاسٍ! يَا لِلْمَجْدِ الَّذِي يَتَغَدَّى بِالدِّمِّ وَيَقْتَاتُ بِالرَّذِيلَةِ! وَكَذَلِكَ مِنْ

صَمَتَ صَبْرَ المقابرِ وتَبْرِيحَ الثُّكُلِ واليَتِّمَ ورُسُوخَ المقاومةَ كالجُدُرِ المتينةِ الشَّامِخَةِ جاثمةً
على الصُّدُورِ على حَدِّ تعبيرِ زِيَادَ ولو أَرَهَقَهَا العَسْفُ والاضْطِّهادُ:

هنا . . على صُدُورِكم باقون كالجدار

وفي حُلُوقِكم

كقِطْعَةِ الرُّجَاجِ كالصُّبَّارِ

وفي عيونِكم

زَوْبَعَةٌ من نارٍ

هنا . . على صُدُورِكم باقون كالجدار

نُظِّفُ الصُّحُوحَ في الحاناتِ

ونَمْلَأُ الكُؤُوسَ للسَّاداتِ

ونَمْسَحُ البلاطَ في المطابخِ السَّوداءِ

حتى نَسْلُ لُقْمَةَ الصُّغَارِ

من بين أنيابِكم الزُّرقاءِ

هنا على صُدُورِكم باقون كالجدار

نَجُوعٌ . . نَعْرَى . . نَتَحَدَّى

نُنْشِدُ الأشعارَ

ونَمْلَأُ الشُّوَارِعَ الغِضَابَ بالمُظَاهَرَاتِ

ونَمْلَأُ الشُّجُونَ كِبَرِيَاءَ

ونَصْنَعُ الأَطْفَالَ . . جِيلًا ثَائِرًا . . وراءَ جيلٍ

كأنَّا عِشْرُونَ مُسْتَحِيلَ

في اللَّذِّ، في الرَّمْلَةِ، والجليل . . . »

إِنَّ الخُرَافَةَ مَهْمَا اسْتَفْحَلْ أمرها لا بَدَّ أَنْ تَنْقُشَ وتَذْهَبَ جُفَاءً، ولا بَدَّ لِلقِنَاعِ المُمَوِّهِ

أَنْ يُنْزَعَ عَنْ وَجْهِ الوَحْشِ كما يَقُولُ القاسمُ:

«أَيُّهَا الوَحْشُ الخُرَافِيُّ المُقْتَنِعُ

إِنَّ فِي الشَّمْسِ مَخَاضًا . . فَتَطْلُعُ

نَقْمَتِي لَيْسَتْ بِعِيدَةٍ . »

والجذور تحت الثَّرى قوَّةٌ أبدا كأنَّها إلهة:

«إِنْ كَانَ جِذْعِي لِلْفُؤُوسِ ضَحِيَّةً

جَذْرِي إلهٌ فِي الثَّرى يَتَأَهَّبُ»

وكلُّ من هُؤلاءِ الشُّعراءِ لا يَخْشَى السَّجْنَ ولا الاضْطِهادَ بل يَلْمَحُ من خلالهما
انْجاسَ الثُّورِ وعِطاءَ الخِصْبِ. يقولُ درويشُ:

سَدُّوا عَلَيَّ الثُّورَ فِي زِنَازَةِ فَتَوَهَّجَتْ فِي الْقَلْبِ شَمْسُ مَشايلِ
كَتَبُوا عَلَى الْجُدُرِانِ رَقَمَ بِطَاقَتِي فَنَما عَلَى الْجُدُرِانِ مَرْجُ سَنابِلِ

وَشَتَّانَ مَوْقِفَ مَحْمودِ درويشِ من أَرْضِ أمِّه وأُبيه وأَسلافِهِ ومَوْقِفَ ذَلِكَ الجُنْدِيِّ
اليهوديِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَتَلُكَ الأَرْضِ من رابطة. هَذَا الجُنْدِيُّ السَّائِحُ يَحْلُمُ بِالزَّنايِقِ البِيضِ،
يَنْظُرُ إِلَى فِلَسْطِينِ كَمَا يَنْظُرُ السَّائِحُ إِلَى الشَّارِعِ والحِوانِيتِ وكَمَا يُطالِعُ الجِرائِدَ. إِنَّمَا حُبُّهُ
لَتِلْكَ الأَرْضِ «نَزْهَةٌ قَصِيرَةٌ أَوْ كَأْسُ خَمَرٍ أَوْ مُغامَرَةٌ» لا أَكْثَرُ. وَوَسيلَتُهُ لِلسَّيَاحَةِ «بُنْدَقِيَّةٌ
وَعَوْدَةُ الأَعْيادِ من خِرايِبِ قَدِيمَةٍ، وَصَمْتٌ تَمثالِ قَدِيمِ ضائِعِ الزَّمانِ والهَوِيَّةِ». تِلْكَ الزَّنايِقُ
البِيضُ الَّتِي يَحْلُمُ بِهَا تَنْقَلِبُ عَلَى يَدَيْهِ وَبِسَلاحِهِ زَّنايِقُ حُمْراً يُقَجِّرُها «فِي الرَّمْلِ...» فِي
الصُّدُورِ... فِي البُطُونِ». وَهُوَ لَمْ يُحْصِ عَدَدَ قَتْلِهِ وإِنَّمَا نالَ وَساماً واحداً عَلَيْهِم. دَفَعُوهُ
إِذْنًا دَفْعاً إِلَى الحَرْبِ وَزَوَّدُوهُ بِالسَّلاحِ لِيَقْتُلَ الآمِنِينَ الفَلَّاحِينَ أَصْحابَ الأَرْضِ فِي غاباتِ
الزَّيْتُونِ وَبِيارِاتِ البَرْتِقالِ وَاللِّيمونِ. كانَ يُفْتَشُّ مِثْلَ قاطِعِ الطَّرِيقِ فِي جُيُوبِ القَتْلِ فيجِدُ
صُورَ زَوْجاتِهِم وأَطفالِهِم. ثَمَّ هَذَا هُوَ الشَّاعِرُ يُحاوِلُ أَنْ يُثِيرَ فِي قَلْبِ الجُنْدِيِّ البَسِيطِ
المُغْرَّرِ بِهِ صَوْتُ الضَّمِيرِ الإنْسانِيِّ فَهُوَ يَقُولُ عَلَى لِسَانِهِ وَقَدْ أَزْمَعَ الرَّحِيلُ:

إِنِّي أَحْلُمُ بِالزَّنايِقِ البِيضاءِ

بِشارِعِ مُغرَّدٍ وَمَنْزَلِ مُضَاءِ

أُرِيدُ قَلْباً طَيِّباً لا حَشَوَ بُنْدَقِيَّةِ

أُرِيدُ يَوْماً مُشْمِساً، لا لَحْظَةً انْتِصارِ

مَجنونَةٍ... فاشِيَّةِ

أُرِيدُ طِفْلاً بِاسِماً يَضْحَكُ لِلنَّهارِ

لا قِطْعَةً فِي الآلَةِ الحَرِيَّةِ

جِئْتُ لِأَخِيَا مَطْلِعِ الشَّمْسِ

لا مَغْرِبِها

وَإِنِّي أَرَفُضُ أَنْ أَمُوتَ...

أَنْ أَحارِبَ النِّساءَ وَالصِّغارَ

كِي أَحْرَسَ الكُرُومَ وَالْأَبارَ

لِأَثْرِياءِ النَّقْطِ والمِصانِعِ الحَرَبِيَّةِ.

هُؤلاءِ الشُّعراءِ يَرْمُونِ عَن نَزْعَةٍ إنْسانِيَّةِ أَصِيلَةٍ. فَهَمُ يُقابِلُونَ التَّقْتِيلَ بِالنَّشِيدِ،

والتَّجْهِيلُ بِالْعِرْفَانِ، وَالتَّقْيُّ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَالبُغْضُ وَالْكَرَاهِيَّةُ بِالمَحَبَّةِ وَالْحَنَانِ. يَقُولُ زِيَادُ:

وَأُعْطِي نِصْفَ عُمْرِي لِلَّذِي

يَجْعَلُ طِفْلاً بَاكِياً

يَضْحَكُ

وَأُعْطِي نِصْفَهُ الثَّانِي لِأَخِي

زَهْرَةَ خَضِرَاءَ

أَنْ تَهْلِكَ

وَأَمْشِي أَلْفَ عَامٍ خَلْفَ أُغْنِيَّةٍ

وَأَقْطَعُ أَلْفَ وَاِدٍ

شَائِكِ الْمَسْلَكِ

وَأَرْكَبُ كُلَّ بَحْرٍ هَائِجٍ

حَتَّى أَلْمَ الْعِطْرِ

عِنْدَ شَوَاطِئِ اللَّيْلِ

أَنَا بَشْرِيَّةٌ فِي حَجْمِ إِنْسَانٍ

فَهَلْ أُرْتاحُ

وَالدَّمُ الدَّكِيُّ يُسْفِكُ

أُغْنِي لِلْحَيَاةِ

فَلِلْحَيَاةِ وَهَبْتُ كُلَّ قِصَائِدِي

وَقِصَائِدِي

هِيَ كُلُّ...

مَا أُمْلِكُ!

مَثَلُ فلسطين وهي تُعاني الاحتلال الصَّهْيُونِيَّ مَثَلُ رُكْنٍ مِنْ أركان البيت العربيِّ شَبَّ فيه الحريقُ. فالذين لَبَثُوا فِي ذَلِكَ الرُّكْنِ يَسْعَوْنَ لِإِطْفَائِهِ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَى أَمَامِ غَطْرَسَةِ النَّارِ الْهَوِجَاءِ الَّتِي اجْتَنَحَتْ حَتَّى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى.

فَهَلْ يُمَكِّنُ لِمُصَاحِبِ الْبَيْتِ أَنْ يَتَمَلَّى السَّنَا النَّاعِمَ أَوْ يَرَكْنَ لِلخَاطِرِ الْحَالِمِ؟! بَلْ شَأْنُهُ الْجِدُّ وَالْكَدُّ وَتَبَارِيحُ الْجَهْدِ وَتَنْبِيهِ الْغَافِلِ وَإِيقَاطُ النَّائِمِ وَالصَّدْعُ بِالنَّشِيدِ الَّذِي يَرُصُّ الصَّفُوفَ وَيُنْظِمُهَا بِالْإِيقَاعِ الْمُنْدِرِ الدَّائِمِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْخَطَرُ يَتَطَلَّبُ التَّهَضُّصَ لِاقْتِحَامِ الْخَطَرِ وَإِطْفَاءِ الْحَرِيقِ وَقَطْعِ دَائِرِ اللَّصُوصِ وَنَجْدَةِ الْاسْتِصْرَاحِ. هَذَا وَإِنَّ هَلْهَلَةَ

النَّسِج في النَّدَاءِ إِنْ وَقَعَتْ، وَقَلَّمَا تَقَع، تَشِفُّ عَنْ هَوْلِ الْحَرِيقِ لَا عَنْ ضَعْفِ الدَّاعِي
الْمُسْتَضْرِحِ الْمُقَاوِمِ.

هؤلاء الشعراء وأمثالهم يُوحون بتباشير شعر عربيٍّ جديد من نوع إنسانيٍّ رفيع على
الرَّغْم من العُجْمَةِ الْمُنتَشِرَةِ وَالرَّكَائِكَ الشَّائِعَةِ فِي أَسَالِيبِ الْكُتَّابِ، وَيُلَوِّحُونَ بِمِيلَادِ إِنْسَانِيَّةٍ
جديدة في الوطن العربيِّ على الرَّغْم من الغيومِ الْمُتَلَبِّدَةِ فِي الْآفَاقِ^(١).

لقد بيَّنا في هذا الفصل الطَّويل مَلامِح من فعل الزَّمان في الشعر العربيِّ، ورأينا أنَّ
التَّطَوُّر الواسع العميق قد تَنَاقَلَ جَوَانِبَهُ جَمِيعاً. وَلَكِنَّ الشَّعْرَ عَلَى رَغْم ذَلِكَ التَّطَوُّرِ الواسع
العميق بَقِيَ هو ذاته وحافظ على كُنْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ وَأَصُولِهِ وَتَرَاثِهِ بما وَهَبَ لَهُ من مُرُونَةٍ،
وبما قُبِضَ لَهُ من خَصَائِصِ سَرْمَدِيَّةٍ.

ويلوح لنا ونحن على شاطئ أكثر من أربعة عشر قرناً من ماضي الشعر العربيِّ أنَّ
كُلَّ الْإِتِّجَاهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تَنَاقَلَتْ كَانَتْ بِمِثَابَةِ الْأَمْوَاجِ الَّتِي تُجَعَّدُ سَطْحُهُ من دون أنْ
تَمْسُ كُنْهَ مَادَّتِهِ، لِأَنَّ مَادَّةَ بَحْرِهِ الْمُحِيطِ الْوَاسِعِ فِي آفَاقِهِ الْبَعِيدَةِ مُتَّصِلَةٌ بِالسَّمَاءِ.
لَنَرِ الْآنَ وَلَوْ بِصُورَةٍ أَوْجَزَ وَأَشَدَّ اخْتِصَاراً فَعَلَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ فِي فِكْرَةِ الزَّمانِ.

(١) لزيادة الاطلاع على مَراحل شعر النُّضال الفلسطينيِّ وخصائصه انظر الكُتُب: «حياة الأدب الفلسطينيِّ
الحديث من أوَّل النَّهْضَةِ حَتَّى النَّكْبَةِ» لِلدُّكْتُور عبد الرَّحْمَنِ يَاقِي ١٩٦٨ بيروت.
و«أدب المُقاوَمَةِ فِي فِلَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ» من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٦ لَغَسَّان كُتْفَانِي بيروت، و«في شعر
النَّكْبَةِ» لِلدُّكْتُور صَالِح الْأَشْتَر ١٩٦٠ جامعة دمشق.
و«مُحَاضَرَات فِي الشَّعْرِ الْحَدِيثِ فِي فِلَسْطِينَ وَالْأُرْدُن» لِلدُّكْتُور نَاصِر الدِّين الْأَسَد ١٩٦١، مَعْهَد
الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَالِيَةِ - الْقَاهِرَةِ.
وانظر خصوصاً البَحْثَ الْجَيِّدَ الَّذِي كَتَبَهُ يَوْسُفُ الْخَطِيبِ وَقَدَّمَ بِهِ «دِيوانُ الْوَطَنِ الْمُحْتَلِّ» وَهُوَ الَّذِي
جَمَعَهُ وَرَتَّبَهُ، دَمَشَق ١٩٦٨.

الشعر العربي وفكرة الزمان

«الوقت إذا فات لا يُستدرك،

وليس شيء أعز من الوقت.»

الجنيد

لقد علّمتنا التجربة والنَّهج العلميُّ إذا بحثنا فكرة أن نبحثها في نطاق مرسوم وميدان محصور، بدلاً من دراستها بوجه عام وبصورة مُبهِمة. ولهذا أردنا أن نُحدِّد ههنا بحثنا لفكرة الزمان في نطاق الشعر العربي^(١).

ولا تخفى مكانة فكرة الزمان في الفلسفات القديمة والحديثة، كما لا تخفى مكانة الشعر العربي ذي التراث الضخم بين الكنوز الفنيّة العالمية.

وسأعتمد على الشواهد الشعريّة التي تعرّفونها وتعرّفون أمثالها الكثيرة. أختارها من حقول الأدب العربيّ ورياضه التي ورّفت وازدانت إبان القرون المتطاولة، وأعرضها مزهّوة الألوان، أنيقة التعبير، متأرجة العبّير، كالأزاهير، قد جُمعت في طاقة مضمومة، ونُسقت في إضبارة واحدة، هي فكرة الزمان، لتُشِفَّ عن جانب من جوهر الشعر العربيّ وتُكشِف عن طَرف من عمق صناعته وتُظهر لمحة من براعة الشعراء العرب وكيف يستطيعون أن يأخذوا فكرة ولو غمُضت، ويبدّلوها تبديلاً يُخرِجُها عن سنن الطّبيعة المعروف ويُبَعِّدُها من حدّ الأحوال المألوف، فيُوحوا من وراء ذلك بمشاعر فنيّة متعدّدة تعدّد الأغراض كالمأساة والرّوعة والسُّموّ والجمال والطَّرَافَة البديعة والفكاهة والهزل.

من المعلوم أنّ الفنون تُصنّف صِنْفَيْن: فنون زمنيّة وفنون مكانيّة. فالشعر والموسيقى فنّان زمنيّان يَعتمدان على حاسة السَّمْع، ونُدرك عناصرهما تتوالى في خلال

(١) ألقى هذا البحث مُحاضرة في مدرّج جامعة دمشق ١٩ - ١٢ - ١٩٥٩ ولم يدخل عليه من التّعديل إلّا القليل المناسب.

الزّمان. والرّسم والتّصوير والعمارة فنون مَكَائِيَّة آثارها تَشغَل حَيِّراً من المكان وهي تَعتمد على حاسّة البَصَر.

وهناك فنون زَمَانِيَّة ومَكَائِيَّة معاً كالمرسح والرّقص والسّينما نسمع فيها ونرى، وآثارها قائمة في المكان تَشغله وفي الزّمان تتوالى عناصرها فيه.

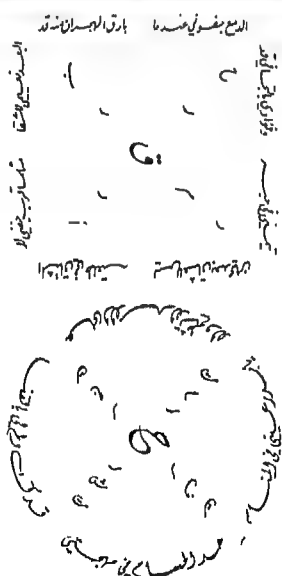
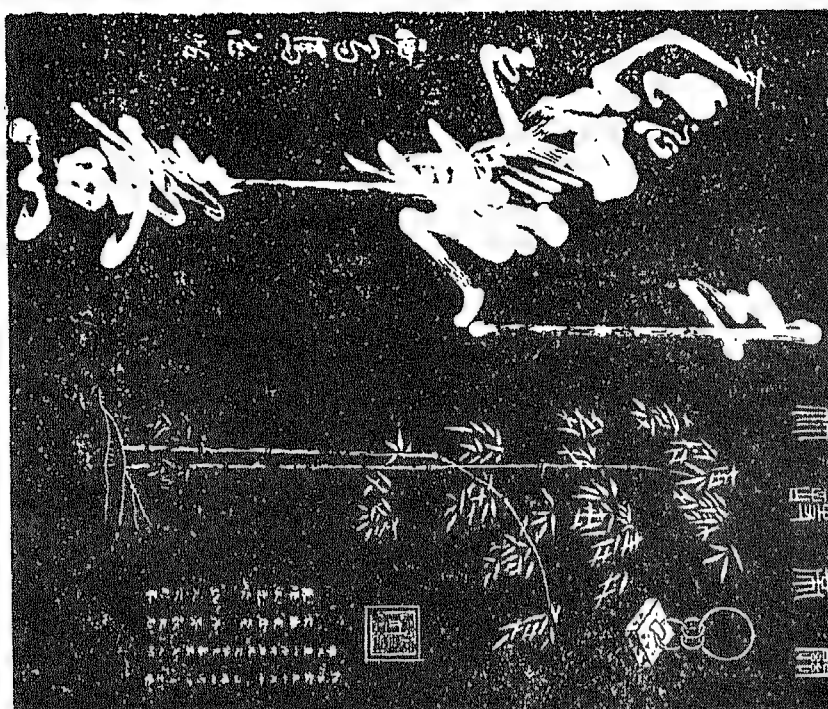
مع ذلك فإنّ هذا التّصنيف لا يَسْلَمُ من المناقشة. فالتمثال ليس شيئاً مَكَائِيّاً صِرْفاً بل هو يحتاج في إدراك جماله إلى نصيب من الزّمان يَمضي في تأمّل أجزائه ونسبه والطّواف حوله لرؤيته من جميع الجوانب. وكذلك القصر الجميل يحتاج إلى مُدّة من الزّمن قصيرة أو طويلة كافية لرؤيته من زوايا مُتعدّدة وللطّواف فيه. والشّعر والموسيقى لا بدّ من أن يشغل تأليفهما حجماً من المكان ولو ضئيلاً، وكذلك إذا أُدركا بالإنشاد أو العزف شَغلاً جسماً وسيطاً كالهواء لا يَتَقَال الأصوات الصّادرة عنهما إلى الأسماع.

ولكنّ هذه الاعتبارات لا تُضعِف التّصنيف لأنّ آثار الفنون التّشكيلية تَنبَسِط في المكان، ولأنّ أجزائها الفنيّة مَكَائِيَّة صِرْف، وهي قائمة ومُسْتَمِرّة في المكان، على حين أنّ الشّعر والموسيقى إنّما لُحِمَتُهُمَا العميقة الزّمان، لأنّ الكلمات والتّغيمات تمضي فيه تَتَرى مُتلاحقة، وليس لتَنظِيم الكلام أو الأنغام في المكان أهميّة فنيّة، وهي إذا شَغَلَتْ مكاناً فالإلى أَمَدٍ محدود وإلى أجل مُسمّى.

وهكذا نجد أنّ الشّعر الجميل لا تَتَغَيَّر قيمته إذا كان الخطّ المكتوب به رَدِيئاً. الخطّ، وهو عنصر مَكَائِيٍّ للشّعر، لا أثر له في قيمة الشّعر.

إلّا أنّ هذا التّعميم قد يَلْقَى استثناء. فالشّعر اليابانيّ والشّعر الصّينيّ في بعض الأحيان عَرَضُهُمَا وكتابتُهُمَا قد يُؤَلَّفَان عُنْصراً هاماً في قيمتهما الفنيّة. ولقد لَقِيَ الشّعر العربيّ في مَدَى تَطَاوُلِهِ مثل ذلك. ففي بعض العُصور عمد بعض الشّعراء إلى قَرَضِ أشعار ترجع قيمتها خاصّة إلى ترتيب الكلمات المَكَائِيّ فيها^(١).

(١) في المكتبة الظّاهريّة بدمشق مخطوطة بعنوان المُدَبِّجَات أُعْجوبة في هذا الباب. وهي ناقصة من أولّها، نَظَمَهَا عَبْدُ الْمَنَعَمِ الْأَنْدَلُسِيُّ في مدح صلاح الدّين الأيوبيّ، وهي مكتوبة بخطّ محمّد مراد الشّطّيّ الدّمشقيّ، كما أنّ في كتاب «تُحَفَةُ أَهْلِ الْفَكَاهَةِ فِي الْمُنَادِمَةِ وَالزَّهَاهِ» لجامعه محمّد أفندي سعيد أشعاراً من هذا النوع. والصّورة المعروضة الآتية تُمثّل شعراً صينيّاً بعنوان «شعر الخيزران» على لسان شجرة الخيزران. وأوراق الشّجرة أَلْفَاظُ الشّعر وهي رمزيّة تُنوّه بوفاء الشّاعر الأسير وبطلوته. وتأتي بعدها صورة لإنسان أو بطل أو إله مُؤَلَّفَةٌ من عدّة أَلْفَاظٍ حَكِيمَةٍ لا تُؤَلَّفُ شعراً وإنّما أردنا من عرضها بيان المرونة التي للكتابة الصّينيّة. ثم تأتي أبيات عربيّة مُرتَبَةٌ على هيئة الشّجرة، ثمّ أبيات =

[illegible]

عربية منضوذة في شكل مربع هندسيّ بقطريه ثم أبيات أخرى على هيئة دائرة مرسومة فيها أربعة أنصاف أقطار بداية قراءتها ونهايتها في المركز.

يَبْدُ أَنْ هَذَا إِنَّمَا حَصَلَ فِي عُصُورِ الْإِنْحِطَاطِ وَقَدْ ابْتُعِدَ بِالشَّعْرِ عَنْ رِسَالَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ.

الشَّعْرُ إِذَنْ فَنُ زَمَانِيٌّ. وَلَكِنَّ هَذَا الْفَنُّ الزَّمَانِيَّ يَأْخُذُ الزَّمَانَ الْجَارِي الْمُتَجَانِسَ فَيُدْخِلُ عَلَيْهِ تَغْيِيرًا صَمِيمًا وَيَجْعَلُهُ غَيْرَ مُتَجَانِسٍ إِذْ يَقْطَعُهُ تَقْطِيعًا تَتَعَاقَبُ فِيهِ الْحَرَكَاتُ وَالسَّكَنَاتُ وَالْأَصْوَاتُ الْقَصِيرَةُ وَالطَّوِيلَةُ وَتَتَوَالَى فِيهِ الْأَسْبَابُ وَالْأَوْتَادُ وَالْفَوَاصِلُ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْعَرُوضِيِّينَ؛ وَهِيَ الَّتِي تُمَثِّلُهَا التَّفْعِيلَاتُ. وَلَسْنَا هُنَا بِحَاجَةٍ إِلَى بَيَانِ أَوْزَانِ الشَّعْرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَأَشْكَالِهَا الَّتِي تَزِيدُ زِيَادَةً كَبِيرَةً إِذَا عَابَرْنَا الْأَوْزَانَ الْمَجْزُوءَةَ إِلَى جَانِبِ الْأَوْزَانِ الثَّاقَةِ وَاعْتَبَرْنَا أَشْكَالَ الزُّحَافَاتِ وَالْعِلَلِّ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَيْهَا جَمِيعًا. وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ نُشِيرَ إِلَى مَكَانَةِ الْوِزْنِ.

إِنَّ هَذَا الْوِزْنَ هُوَ إِعَادَةُ نَمَطٍ مِنَ التَّفْعِيلَاتِ مَرَّاتٍ فِي الْبَيْتِ، فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ دَوْرٍ أَوْ إِيْقَاعٍ. وَهَذَا الدَّوْرُ أَوْ الْإِيْقَاعُ يُؤَلَّفُ عُنْصَرًا عَمِيقًا مِنْ صِبْغَةِ الشَّعْرِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا التَّأثيرُ. وَهَذَا حَاصِلٌ أَيْضًا فِي الْمَوْسِيقَى.

عَلَى أَنَّ مَكَانَةَ الدَّوْرِ وَالْإِيْقَاعِ تَتَجَاوَزُ الشَّعْرَ وَالْمَوْسِيقَى إِلَى جَمِيعِ ظَوَاهِرِ الْحَيَاةِ. فَالْأَيْلُ وَالنَّهَارُ ضَرْبٌ مِنَ الدَّوْرِ. وَالْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ ضَرْبٌ مِنَ الدَّوْرِ أَيْضًا. وَنَبْضَاتُ الْقَلْبِ وَحَرَكَاتُ التَّنَفُّسِ وَبَعْضُ الْإِفْرَازَاتِ الصُّمِّ أُمُورٌ دَوْرِيَّةٌ. بَلْ إِنَّ الصَّوْتِ نَفْسَهُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ حَرَكَةٌ اهْتِزَازِيَّةٌ دَوْرِيَّةٌ. وَالتُّورُ كَذَلِكَ مِنْ طَبِيعَةِ اهْتِزَازِيَّةٍ بِجَانِبِ طَبِيعَتِهِ الْجُسْيمِيَّةِ «الْكُونَتِيَّةِ». حَتَّى الْمَادَّةُ كَمَا عَلَّمْتُنَا نَظَرِيَّةَ الْمِيكَانِيكِ الْمَوْجِيَّةِ ذَاتِ طَبِيعَةِ اهْتِزَازِيَّةٍ فَوْقَ طَبِيعَتِهَا الْجُسْيمِيَّةِ، إِذْ كَانَتْ عُنَاصِرُهَا الدَّقِيقَةُ الضَّئِيلَةُ تُقَرَّنُ بِهَا أَمْوَاجٌ مُحَسَّوَةٌ الدَّوْرِ.

وَلَمَّا كَانَتْ الطَّبِيعَةُ ذَاتِ بَنِيَّةٍ دَوْرِيَّةٍ عَمِيقَةٍ كَانِ التَّأثيرُ فِيهَا يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ بِصُورَةٍ دَوْرِيَّةٍ. لِذَلِكَ كَانَ التَّعْلِيمُ يَتِمُّ فِي شَكْلِ دَوْرِيٍّ بِأَنْ تُخَصَّصَ دُرُوسٌ تُعَادُ كُلَّ أُسْبُوعٍ، وَكَانَ التَّدْرِيبُ أَيْضًا يَتِمُّ فِي شَكْلِ دَوْرِيٍّ. فَالْسَّبَاحَةُ مِثْلًا لَا يُمَكِّنُ تَعَلُّمَهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ مُعَاوَدَتِهَا فِي الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ. وَكَذَلِكَ كَانَ الطَّبِيبُ يَصِفُ الدَّوَاءَ عَلَى أَنْ يَتَنَاوَلَهُ الْمَرِيضُ جُرْعَاتٍ مِثْلًا فِي مَوَاقِيتِ مُسَمَّاةٍ. وَكَانَ الْفَنَّانُ بِوَجْهِ عَامٍّ وَالشَّاعِرُ وَالْمَوْسِيقِيُّ بِوَجْهِ خَاصٍّ يَعْتمِدُونَ جَمِيعًا عَلَى الْإِيْقَاعِ فِي سَبِيلِ التَّأثيرِ الْفَنِّيِّ وَإِنْجَازِ الْمُتَمَتِّعِ الْفَنِّيِّ.

إِنَّ التَّنَفُّسَ مَهْدُ الْإِيْقَاعِ الشَّعْرِيِّ. وَالشَّعْرُ فِي شَكْلِهِ الْأَوَّلِ الْبَسِيطِ الطَّبِيعِيِّ حِينَ نَتَصَوَّرُهُ مُجَرَّدًا مِنَ الْمَعَانِي الْفَنِّيَّةِ لَيْسَ إِلَّا عِبَارَةٌ عَنْ نَفْسٍ مُتَمَوِّجَةٍ مَعَ نَبْضِ الْعَاطِفَةِ وَالشُّعُورِ. إِنْ «نَفْسُ الشَّاعِرِ» لَفْظٌ هُوَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ اسْتِعَارَةٍ. إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى جَانِبٍ مِنْ حَقِيقَةِ الشَّعْرِ وَمَاهِيَّتِهِ. وَلَمَّا كَانَ النَّفْسُ يَتَبَدَّلُ بِالرَّفَقِ وَالْحَنَانِ وَالنَّجْوَى وَالرُّضَا وَالسَّخَطِ وَالْفَرَحِ وَالْغَضَبِ وَالْأَلَمِ وَالشَّكْوَى وَالْمُؤَاسَاةَ كَانَتْ حَرَكَتُهُ تَتَغَيَّرُ رَفَقًا وَهَمْسًا وَلِينًا وَشِدَّةً

وانسياباً وتهذّباً. وكان لكلّ ذلك أثر في إيقاع الشعر وأوزانه وبُحوره. إلّا أن تقطيع هذه الأوزان التقليديّة المتعارفة يُوشك أن يَنقلب في بعض الأحيان إلى مُجرّد إحصاء كميّ يتعد عن غَضارة «النّفحة الشاعريّة». ولهذا نجد عند الشّاعر المطبوع حركة تَمْوِجِيّة في النّفس ذات إيقاع خاصّ تُضاف إلى ذلك التّقطيع حتى لتكاد تحجبه. إنّ شعر البُحترّي كلّ دليل ناطق بذلك. أليس قد قيل عنه إنّهُ أراد أن يَشعرُ فغَنّى!؟ هذا مثل يَنثال عليّ أذكره دون اختيار مُتعمّد:

ذاك وادي الأراك فاخِيس قليلاً مُقصرّاً من صِباة أو مُطيلاً
قف مَشوقاً أو مُسعداً أو حزيناً أو مُعيناً أو عاذِراً أو عاذولاً
وخلاف الجميل قولك للذا كر عهد الأحباب صبراً جميلاً

والذي يتلو شعر البُحترّي يشعر بشيء من الارتياح لا يكاد يجد له مثيلاً عند الشّعراء الآخرين بسبب هذا النّفس الغنائيّ المُتموّج الطّلق الذي يتّبع برغم طلاقته نسق الأوزان المتعارفة.

فإذا قدّرنا مكانة الطّبع في الشعر حقّ قدره وأدركنا خِصْب الحناجر الشاعريّة التي تَطمح إلى الإنشاد السّاحر المُمتع استطعنا في بعض الأحيان أن نفهم نُشوء التّناقض في العصر الحاضر بين خِصْب هذه القوَى الشاعريّة النّاشئة وبين ضغط الأوزان التقليديّة المتعارفة، إذ تكاد تبدو هذه الأوزان ضيّقة بالنّسبة لقوَى غُصّة حديثه لا تزال مُبهِمة تلمّس سُبُل تَفْشُحها، أو تبدو تلك الأوزان وكأنّها أعطت في الماضي كلّ ما تستطيع أن تُعطيه من نغمات ولا يَسعُ الشّعراء الحديثين أن يمارسوها بمهارة الشّعراء القُدماء؛ فهم يبحثون عن قيّارات عَروضيّة جديدة تُلائم أنفاسهم ذات الأشجان الجديدة، وتُناسب حناجرهم وقد بَعُدَ العهد بها عن حناجر القُدماء.

قُضيّة الوَزن الشّعريّ وصيغته الإيقاعيّة الصّميّة واتّصال ذلك بالزّمان أمر عامّ في الشعر كلّهِ وليس خاصّاً بالشعر العربيّ وحده.

وئمّة شؤون أخرى مُتّصلة بالزّمان وهي عامّة في الشعر والأدب، نريد أن نَمسّها مسّاً رقيقاً لاستيفاء البحث. من هذه الشّؤون أنّ الحادثة التي تروِيها القصيدة لا يُساوي زمان روايتها زمان الحادثة الفعليّ. فقصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نُعم أنت غادِ فمُبَكِّرُ غداة غدٍ أم رائحٍ فمُهَجَّرُ

يَقصُّ علينا فيها مغامرته المشهورة:

وليلّة ذي دُورانٍ جَشَمَني السُّرى وقد يَجشَمُ الهولُ المُحبَّ المُغرَّرُ

ويصف كيف انتظر حتى غاب القمر الصغير الذي رَصَدَ غيابه وحتى رجع الرُّعاة بعضهم على أَثَرِ بعض، ونام السَّامرون تِباعاً:
 وغاب قُمْيَرُ كُنْتُ أَرْجُو غُيُوبَهُ وَرَوَّحَ رُعيَانُ وَنَـوْمٌ سَمَّـرُ
 وَخَفُضَ عَنِّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الـ حُجَابِ وَرُكْنِي خِيفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ
 هذه الحادثة التي ربَّما كانت خَيَالِيَّةً اسْتَعْرَقَ زَمَانُهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ:
 فما راعني إلا مُنَادٍ تَرَحَّلُوا وقد لاح مَفْتَوِّقٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ
 ونحن نَقْرؤها في رُبْعِ سَاعَةٍ.

وكذلك مَوْقِعَةُ عُمْرِيَّةً، فقد حَصَلَتْ فِي أَيَّامٍ، وَلَكِنَّ أَبَا تَمَّامٍ يَصِفُهَا وَيُشِيرُ ذِكْرَهَا وَيُنَوِّهُ بِهَا فِيمَا تَقَرَّبَ مُدَّتُهُ مِنْ رُبْعِ السَّاعَةِ أَيْضاً، إِذْ لَا يُعِيدُ الشَّاعِرُ جَمِيعَ تَفَاصِيلِ الْحَادِثَةِ، بَلْ يَكْتَفِي بِالنَّقْطَاتِ الَّتِي تَهْمُهُ وَتَسْتَرْعِي انْتِبَاهَهُ وَيَكُونُ لَهَا أَثَرٌ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي نَفْسِ السَّامِعِ، كَمَا أَنَّ الْوَصْفَ الْأَدْبِيَّ أَمْرٌ فِكْرِيٌّ مُجَرَّدٌ عَنْ ثِقَلِ الْمَادَّةِ الَّتِي تَشْمَلُهَا الْحَادِثَةُ وَلِلذَلِكَ كَانَ أَقْصَرُ وَأَسْرَعَ حَرَكَةً وَأَدَاءً.

ثُمَّ إِنَّ الشُّعْرَ الْجَمِيلَ شَأْنُهُ كَشَأْنِ سَائِرِ الْمُتَعِ الْفَنِّيَّةِ عِنْدَمَا نَتَأَمَّلُهَا نَنْسَى أَنْفُسَنَا وَنَغْفُلُ عَنِ الزَّمَانِ نَفْسِهِ. لَقَدْ نَوَّهَ الْفِيلَسُوفُ شُوبِنَهَاورُ بِطَبِيعَةِ التَّأَمُّلِ الْفَنِّيِّ وَاعْتَبَرَهُ كَالْبَلَسَمِ الَّذِي يُنْسِنَا تَبَارِيحُنَا وَشَوَاغِلُنَا وَيُسَلِّينَا عَنْ وَطْأَةِ الْإِرَادَةِ. وَقَدْ اسْتَغْلَى الْفِيلَسُوفُ بَعْضَ الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ فِي بَيَانِ ذَلِكَ.

مَا أَشْبَهْنَا حِينَ نَتَأَمَّلُ أَثَرًا فَنِّيًّا بِسِيزِيفٍ حِينَ يُخَيَّلُ لَهُ أَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي يَرْفَعُهَا إِلَى أَعْلَى وَتَتَحَدَّرُ أَيْدًا إِلَى أَسْفَلٍ قَدْ اسْتَقَرَّتْ فَيَنَّةً، وَبَاكْسِيُونَ حِينَ يَحْسِبُ أَنَّ الدُّوَلَابَ الَّذِي يُدِيرُهُ فِي الْجَحِيمِ قَدْ تَوَقَّفَ مَلَاوَةً، وَبَفَتِيَّاتِ الدَّانِيدِ حِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْبِرَامِيلَ الَّتِي يَمْلَأُهَا وَلَا غُورَ لَهَا قَدْ امْتَلَأَتْ هُنَيْهَةً. نَحْنُ بِالتَّأَمُّلِ الْفَنِّيِّ نَخْرُجُ عَنْ قَبْدِ الزَّمَانِ، نَشْعُرُ كَأَنَّنَا فِي حَالَةٍ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالْخُلُودِ. «أَبْهَمُنَا - عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ شُوبِنَهَاورِ - فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ أَتُنَّا فِي قَصْرِ أَوْ فِي سَجَنٍ حِينَ نَتَمَلَّى غُرُوبَ الشَّمْسِ؟».

ثُمَّ إِنَّ الْحَرَكَاتِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي يُصَوِّرُهَا الْفَنُّ أَوْ الشُّعْرُ تَرْتَفِعُ مِنْ صِفَةِ الْعُبُورِ وَالزَّوَالِ إِلَى صِفَةِ الْبَقَاءِ وَالذَّوَامِ وَلَوْ بِصُورَةٍ شَكْلِيَّةٍ. وَلَوْلَا الشُّعْرُ وَالْفَنُّ لَبَادَتْ وَتَلَاشَتْ، كَمَا بَادَ وَتَلَاشَى الْأُلُوفُ مِنْ أَمْثَالِهَا. فَالْفَنُّ يَخْلُدُ وَلَوْ نِسْبًا مَا يَصِفُهُ وَيُصَوِّرُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْمَشَاعِرِ وَالذِّكْرِيَّاتِ.

لِنَلْخُصَّ هَذِهِ النِّقَاطَ الَّتِي مَرَزْنَا بِهَا. إِنَّ صِیْغَةَ الشُّعْرِ الزَّمْنِيَّةَ تَطْبَعُ الزَّمْنَ الَّذِي تَعْتَمِدُهُ

في العروض بنَفَسِ الشَّاعر ومِزاجه وشخصيَّته ونَبْضِ عاطفته وخياله وفكره. إنَّها تُدخِل على الزَّمن الخارجيّ تَغْييراً في الكَيْفِيَّة والإيقاع واضحاً ومؤثراً. ثمَّ إنَّ رِواية الشَّعر للحوادث تستغْرِق زَمناً خاصّاً يَخْتَلِفُ عن أَزْمِنَةِ الحوادث اختلافاً كبيراً، وكذلك قراءة الشَّعر أو التَّأَمُّلُ الفنِّيُّ بوجه عامٍّ يَصْرِفُنا عن الإحساس بالزَّمن الخارجيّ ويُشْعِرُنا بحالة كَأَنَّ الزَّمن فيها قد وَقَفَ مَجْراه، حالة تُشَبِّه الخلود والأبدية، كما أنَّ الشَّعر يرفع بعض الأفعال والحركات من صِفة الزَّوال إلى صِفة البقاء الطَّويل والاستمرار.

نتنقل الآن إلى دلالة الألفاظ ونفحص مجال المعاني الفنِّية المتَّصلة بالزَّمان في الشَّعر العربيَّ وربَّما ننتهي إلى نتائج ليست أقلَّ أهمِّية.

نحن هنا لا نُولي عنايتنا الأفكار الفلسفيَّة التي جاءت منظومة على ألسنة بعض الشعراء فهي لا فرق عندنا بينها وبين أمثالها التي وردت في الشَّعر. نحن هنا نُغفل أمثال قول المَعْرِيَّ:

ثلاثة أيَّام هي الدَّهر كُلُّه وما هنَّ إلَّا الأَمْس واليوم والغد
ونُغفل كذلك أمثال قول الأعرابيِّ:

مَنع البقاء تَقَلُّبُ الشَّمْسِ وطلوعها من حيث لا تُسمي
وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالوَرَسِ
تَجْري على كِبَدِ السَّمَاءِ كما يَجْري حِمَامُ الموت في النَّفْسِ
اليوم يُعَلِّم ما يجيء به ومضى بفضْل قضاائه أَمْسِ

وكذلك مثل قول المُتَنَبِّي:

مُشَبَّ الذي ييكِي الشَّبَاب مُشِيه فكيف تَوَقَّيه وبانيه هادِمه
وبيتِي ابن الرُّومِيَّ:

تُضَعِّضُه الأَوْقَات وهي بَقاؤه وتَغْتالُه الأَفْوَات وهي له طَعْمُ
إذا ما رأيت الشيء يُبْلِيه عمره ويُقْنِيه أن يبقَى ففي دائه عُقْمُ

على جمال هذه الأبيات وبلاغة حكمتها ورَّوعة معانيها. ونَهْتُمُ خاصَّةً بالعواطف والأفكار الشعريَّة المتَّصلة بالزَّمان وبدراسة سُبُل التَّعبير التي يسلكها الشَّاعر في الدَّلالة عليه.

من أهمِّ العواطف التي اعتمدَها الشعراء العرب فيما يتَّصل بالزَّمان ما تُشيرُهُ رُؤية الطُّلول والرُّبُوع الدَّارسة والآثار الباقيَّة من ذكريات عاطفيَّة وما تَتَضَمَّنُه من رِثاء وتَحَسُّر

على الماضي. يأتي الشعر العربي في طليعة الشعر العالمي الذي وُصف الأطلال وبكاها. لقد نَوَّه الفيلسوف شوبنهاور بتأثير الأطلال الجمالي في النفس. ذلك أنَّها صارت الزَّمن في معالِمها الباقية. إنها تُعبِّر عن نضال إرادة مَضَى أثرها الحي. فهي كما يقول زيمل تُؤثِّر في الإنسان كما يُؤثِّر صراع البطل من خلال المأساة. فلا غَرَوْا إذا وجدنا العرب القدماء يَقِفون بالطلول التي تَحْمِلُ عنها الأحباب ويَبْكُونها في جوٍّ من الذِّكريات الحُلوة الحالمة.

ولا غَرَوْا إذن إذا وَجَدنا الشعراء العرب الحديثين يَتَغَنَّون بِأَثَارِ أجدادهم المَجيِّدة الخالدة تهيب بهم وتُوحِي إليهم بعَظَمة البُنيان السَّامِق السَّابِق.

يقف زهير بن أبي سُلمى بعد عشرين حِجَّةً بأطلال أمِّ أُوْفَى فيَعرِف الدِّيار بعد جهد ويَصِف ما صارت إليه ويُصوِّر العين والآرام في الرُّبوع وهي تَمضي جيتة وذهاباً، وأطلاؤها ينهَضن من مَجاثِمهنَّ:

أَمِنْ أُمِّ أُوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ	بَحْوَمانَةَ الدَّرَاجِ فالْمُتَّكَلِّمِ
ديار لها بالرقميتين كأنها	مراجِع وَشَم في نواشِر مِعصَمِ
بها العين والآرام يمشين خِلْفَةً	وأطلاؤها يَنهَضن من كلِّ مَجْثَمِ
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجَّة	فَلأَيَّا عَرفتُ الدَّارَ بعد تَوَلُّمِ
أنا في سَفْعاً في مُعرَسٍ مِرْجَلِ	وَأُؤَيَّا كَجِدَمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَلَّكِمِ

هذه الرُّسوم الشَّاخِصة تعود بالشَّاعر إلى الماضي فيتذكَّر أحبابه حين غادروها ويَصِف رحلتهم ويتبَّعهم بخياله حين رحلوا تَتَبُّعاً جَميلاً في شِعْر قلَّ أن يُصارِعَه بيان في دَقَّة الدَّلالة وِصْدق الشُّعور ومَهارة المُلاحَظة:

تَبَصَّر خَليلي هل ترى من طعائن تَحْمَلُنَ بالعلِياء من فوق جُرُثُمِ

إلى آخر هذه الأبيات البديعة.

وليس لدينا المجال الكافي لنعرِّض تَفَنُّن الشعراء في وَصْف الرُّسوم والأطلال. وَلَكِنَّا نَحِبُّ أن نُشير إلى أنَّ الزَّمن عادة يَعمُف الآثار ويَدْرُس الطُّلول ويُبلي الدِّيار، حتى إنَّها تُقوي وتُغفِر وتَزِدُّاد بِلَى على الأَيَّام. وَلَكِنَّ الشَّاعر العربيَّ بحسِّه المُرَهَف وعاطفته المُحِبَّة ولاعتياده الطُّلول والآثار يعكس الآية أحياناً فيجدُّ الزَّمن كأنَّه قد خلع على الطُّلول حُسناً وثوبَ نعيم وزادها طيب نسيم، فهو في شعوره هُذا كأنَّما يثار من الزَّمن.

يقول أبو نُوَاس:

لَمَنْ دِمْنٌ تَزْدَاد طِيبَ نَسِيمِ على طول ما أَقْوَتْ وَحُسْنَ رَسومِ

تجافى البلى عنهنَّ حتى كأنما لبسنَ على الإقواء ثوب نعيم
نعرف أبا نواس قد نغم على الشعراء قبله وقوفهم بالأطلال وبكاءهم إياها وتهكّم
عليهم تهكّمًا لا ذعاً. ولكنّا نعرفه أيضاً شاعراً موهوباً يُقدّر الفكرَ الفتيّةَ قَدْرَها ويُوليها
عنايته ولا يمنع نفسه من أن يأخذها إذا وجدها عند غيره ممّن سبقه أو عاصره. وقد أبان
الثّقاد القدماء أن أبا نواس قد أخذ هذا المعنى من قول الأعرابي:

شَطَّلت بهم عنك نيّة قُدُفٍ غادرت الشعب غير مُلتبِثٍ
واستودعت سرّها الدّيارُ فما تزداد طيباً إلّا على القِدَمِ

لهذا الشعور الغائم الحالم المُتنوّع عند تأمّل الأطلال يتلوّن بالرّثاء والأسى والحسرة
حين يُفجّع الشّاعر بالأحباب والأعزّة لا بالدّيار وحدها. فالزّمان الغائب لا يعود، والموت
خِتام الزّمن بالنّسبة إلى الحيّ، والهالك يُودع أعمق الحسرة نفوس الأهل الباقيين ولو إلى
حين. ومن هنا تنبع المأساة في فقدّ الأحباب والأعزّة ويُخامِر الهلّع والرّثاء القلوب
المُلتاعة عند تذكّر الزّمان الماضي والعادات والشّمائل والصفّات والذّكريات المُتصلة به.

من آسى الشّعور وأحزنه ممّا نعرفه ويتصل بفكرة الزّمن قول مُتّم بن نُؤيرة:
وكُنّا كندمانيّ جديمة حِقبةً من الدّهر حتى قيلَ لن يتصدّعا
فلمّا تفرّقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نَبْث ليلة معا
فالزّمن الطّويل الماضي الذي عاشه مُتّم وأخوه مالك معاً صِنوين قد ضاع كلّهُ
بهلاك مالك، حتى إنّه لَيبدو وكأنّه أقلُّ من ليلة واحدة أو كأنّه لا شيء. هذه المُقابلة بين
الزّمنين تُشعّرنا بعُمق المأساة. يَبْدُ أن هذا الشّاعر المجيد كما انتبه لضَياع الزّمن السّالف
سُدَى على سابق توطّده ومَنَعته وطيبه ينتبه انتباهة قويّة في أبيات أخرى لا تقلُّ مأساة عن
تلك. ولكنّها تتعلّق هذه المرّة بالمكان. لقد مات أخوه ولم يبقَ منه إلّا هذا القبر يَشْغَل
حيّزاً صغيراً في المكان. فهو يُعمّم تعميماً واسعاً: ينظر فيرى في كلّ قبر قبر مالك. إنَّ
كلَّ قبر أصبح يصله بالموت بعد إذ أضاع كلّ زمان قضاة مع أخيه الهالك:

لقد لامني عند القبور على البكا صحابي لتذراف الدّموع السّوافك
وقالوا أتبكي كلّ قبر رأيته لقبر ثوى بين اللّوى والدّكادك
فقلت لهم إنّ الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كلّهُ قبر مالك

إنَّ أبا العلاء المَعريّ يُدرك هذا كلّهُ. فهو إذا رثى إنساناً رثى الإنسانيّة كلّها وصوّر
مأساتها القائمة على الزّوال وعلى عدم استرداد الغائب. وإذا مرَّ بيتاً مُتّم قلوبنا بما
فيهما من مضمون عاطفيّ استطاع رهين المَحْسِسين أن يُؤثّر في النفوس من جهة إحكام

الفكرة الذي يشبه الضبط الرياضي برغم الغرابة الظاهرة: لما استحال رُدُّ الماضي تساوى في الأبد عمر الطفل الذي عاجله الموت في المهد وعمر الشيخ الهمم الهرم الذي نُسئ له في الأجل، إذ يبدو هذان العمران أو الزمانان متساويين إذا نُسبا إلى الأبد كما يتساوى في حساب الكسور عددان مخرج كل منهما اللانهاية:

أمس الذي مرَّ على قُربه يعجز أهل الأرض عن رده
أضحى الذي أجل في سنه مثل الذي عُوجل في مهده

إنَّ الشعور بالمأساة لدى الأطلال ورناء الأحباب وذكرى الماضي ترتفع جميعاً إلى درجة الروعة عند وصف الآثار القومية الخالدة. وقد تَفَنَّ في ذلك الشعراء الحديثون وفي الطليعة أميرهم شوقي. هذا الشاعر الكبير انتبه لفكرة الزمان فاستغلَّها إن جاز هذا التعبير استغلالاً واسعاً في أشعاره بمناسبات شتى ولا سيما في وصف الآثار الفرعونية والأوابد العربية.

فإذا استمعنا إليه مثلاً يُناجي أبا الهول شَعَرْنَا بالروعة تنساب في نفوسنا أمام أثر باقي
لم يستطع الزمان برغم تقادُّمه أن ينال منه:

أبا الهول طال عليك العصر
فيا لدة الدهر لا الدهر شبَّ
إلام رُكوبك مثن الرُّمال
تسافر مُنتَقِلاً في القرون
أبينك عهد وبين الجبال
تزولان في الموعد المُنتظر
وبلغت في الأرض أقصى العمر
ولا أنت جاوِزت حدَّ الصُّغر
لطي الأصيل وجوب السَّحر
فأيَّان تلقى غبار السَّفر
إلى آخر القصيدة

وكأنما قصد شوقي من خلال وصفه الرائع للزمان الماضي إلى الحكمة والموعظة والعبرة زيادة على المُنعة الفنيَّة. فهو يُخاطب في نهاية القصيدة أبا الهول وهو يرمز عنده إلى مصر إذ أحزنه إذ ذاك جمودها الذي كاد يشبه جمود التمثال فهو يهيب به للحركة، وكأنَّه يتشوّف الثَّورة من وراء الغيب:

تحرك أبا الهول هذا الزمان
تحرك ما فيه حتى الحَجَر

ويَعمد شوقي إلى وصف آثار الأندلس العربية فينظم قصيدته السَّنيَّة على غرار قصيدة أستاذه البُحتري، ولكنَّه خلافاً لأستاذه هذا يبدأ قصيدته بداية تُناسب موضوعها ويدلُّ في ذلك على أنَّ التلميذ كان أحرص من الأستاذ على التَّقيد بقواعد البلاغة وبراعة الاستيهال وإن كان الأساتذة الكبار قد يهزؤون بالقواعد الموضوعية ويخرِّجون عنها.

يقول شوقي مُتذكراً صباه:

اختلافُ النَّهارِ واللَّيلِ يُنسي
وصفا لي مُلاوةً من شباب
عَصَفْتُ كالصَّبا اللَّعوبَ ومرَّت
وسلا مصر هل سلا القلب عنها
كلَّما مرَّت اللَّيالي عليه
اذكرا لي الصَّبا وأيام أنسي
صُورْتُ من تصوُّراتٍ ومَسَّ
سِنَّة حُلوة ولذَّة خَلَس
أو أسا جرحه الزَّمان المُؤسِّي
رقِّ والعهد في اللَّيالي تُقسي

ثم يذكر تَقْلُب الدَّهر واختلاف الأزمنة والليالي:

وليالٍ من كلِّ ذاتِ سِوار
حَكَمْتُ في القرون خوفاً ودارا
أين مروان في المشارق عرش
سَقَمْتُ شمسهم فرداً عليها
ثم غابت وكلُّ شمس سوى ها
لَطَمْتُ كلَّ ربِّ روم وفُرس
وعَفْتُ وائلا وألوت بعبس
أموئٍ وفي المغارب كرسى
نورها كلُّ ثاقب الرُّأي نطس
تيك تَبلى وتَنطوي تحت رَمَس

ويشير إلى مُعارضته قصيدة البُحترى ويُنوه بعاطفته العربيَّة القوميَّة:

وعظَّ البُحترى أيوان كسرى
وشَفَّتني القصور من عبد شمس

وهنا يصف رحلته وهو في الأندلس على جَنَاح الخيال إلى بلده في سُرعة البرق لا يكاد يَسْتغْرِقُ زمناً شأن كلِّ خيال، ويَتَنَقَّلُ إلى وَصف الآثار العربيَّة الأندلسيَّة:

ربَّ ليل سَريْتُ والبرق طِرفي
أنظِمُ الشُّرق في الجزيرة بالغر
في ديار من الخلائف دَرس
ورُباً كالجنان في كَنَفِ الزَّي
لم يَرُعْنِي سوى نرى قُرطبي
وبساط طويْتُ والرَّيح عَنسي
ب وأطوي البلاد حزنأ لَدَفس
ومَنار من الطَّوائف طَمَس
تُون خُضر وفي ذرا الكَرَم طَلَس
لَمَسْتُ فيه عِبرة الدَّهر خَمسي

ويبلغ التَّصوير في بعض المقاطع غاية الإبداع والرَّوعة. ويختتم قصيدته هذه خِتاماً فيه شيء من التَّكَلُّف لِيُشير إلى وجه النَّاسِي من الماضي:

وإذا فاتك التَّفَاتُ إلى ما
ضى فقد غاب عنك وجه النَّاسِي

ومن دَواعي الشُّعور بالرَّوعة والسُّموِّ فكرة الزَّمان البعيد الأعماق على الشَّكل الذي صَوَّره الصُّوفيَّة في حديثهم عن الحبِّ الإلهيِّ المُتَقَدِّم على كلِّ زمان ومكان. ولا شكَّ أنكم تذكرون معي قصيدة ابن الفارض الخَمريَّة الرَّمزيَّة الرَّائعة:

شربنا على ذكر الحبيب مُدامة
سكرنا بها من قبل أن يُخلَق الكَرَم

هلال وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجْم
ولولا سَنَاهَا ما تَصَوَّرَهَا الْوَهْم
كان خَفَاهَا في صُدُورِ الْهُي كَثْم
خبير أجل عندي بأوصافها عِلْم
ونور ولا نار وروح ولا جِسْم
قديمًا ولا شكل هناك ولا رَسْم
بها احتَجَبَتْ عن كلِّ من لا له فَهْم
اتِّحَادًا ولا جِزْم تَخَلَّلَه جِزْم
وَكَزْم ولا خمر ولي أمُّها أُمُّ
للُطف المعاني والمعاني بها تَنمو
فأزواحنا خمر وأشباحنا كَرْم
وقَبْلِيَّةُ الأبعاد فهي لها خَتْم
وعهد أينما بعدها ولها اليُثم
معي أبداً تبقى وإن بَلَى العَظْم
تري الدَّهر عَبْدًا طائعاً ولك الحُكْم
وليس له فيها نصيب ولا سَهْم

لها البدر كَأْس وهي شمس يُدِيرُهَا
ولولا شَذَاهَا ما اهْتَدَيْتُ لِحَانِهَا
ولم يُثَيِّقِ مِنْهَا الدَّهر غير حُشَاة
يَقُولُونَ لي صفها فأنْتَ بَوَضَّفَهَا
صَفَاء ولا ماءً ولُطْف ولا هوا
تَقْدَمُ كلَّ الكائنات حديثها
وقامتُ بها الأشياء ثُمَّ لِحِكْمَة
وهامتُ بها رُوحِي بحيث تَمَازَجَا
فخمر ولا كَزْم وآدم لي أب
ولُطف الأواني في الحقيقة تابع
وقد وقع التَّفريق والكلُّ واحد
ولا قَبْلَهَا قَبْلٌ ولا بعدُ بعدها
وعصر المدى من قبله كان عصرها
وعندي مِنْهَا نَشْوَة قبل نَشَاتِي
وفي سَكْرَة منها ولو عُمَرَ سَاعَة
على نفسه فليُنكِ من ضاع عمره

لقد تَلَوْتُ أبياتاً مُتَفَرِّقَة من القصيدة لنظر كيف يعمد هذا الشَّاعر المُجيد إلى فكرة الزَّمن في القصيدة من حين إلى حين ليُوحِي إلينا بِشُعُورِ الرُّوعَة والسُّمُو، وهذا كُلُّهُ في صَنعة عجيبة نراه فيها يَتَقَنَّ مُنْتَقِلًا بين مُسْتَوِيَّات ثَلَاثَة: مُسْتَوَى الخمرَة المَادِّيَّة وَأَنْيَتَهَا وَسُقَاتِهَا وَحَبَابِهَا، وَمُسْتَوَى التَّشْبِيهَاتِ الحَسِّيَّة التي اعتاد الشُّعراء أن يَظْلِقُوهَا في هذا المَجال من شمس وبدر وهلال ونجم، وَمُسْتَوَى الأُمُورِ المَعنَوِيَّة التي هي المَقصُودَة في الرَّمز من حُبِّ إلهيِّ وأقطاب ومُبْلَغِينَ ومُرِيدِينَ.

هذا بِصَرَفِ النَّظَر عن أَشْكال البديع الكثيرة التي تُرْصَع هُذِه القصيدة في عصر كان يَميل إلى هَذَا النُّوع من التَّعبير.

ولَكِنَّ الْمُتَصَوِّفِينَ كما بَرَعُوا في وَصْفِ الزَّمان الطَّويل المُتَقَادِم^(١) الذي نشأ منذ

(١) يقولُ فخر الدِّين الرَّازِي أو ابن سينا:

لِكُلِّ قَدِيمٍ أَوَّلٌ هِيَ أَوَّلُ
هِيَ الْعِلَّةُ الْأَوَّلَى الَّتِي لَا تُعْلَلُ =

شَرَبْنَا عَلَى الصُّوْتِ الْقَدِيمِ قَدِيمَة
فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَيْزٍ قَلْتُ إِنَّهَا

الخلق لِيَتَجَاوَزُوهُ كَذَلِكَ بَرَعُوا فِي تَأْمُلِ حَالَاتِ الضَّمِيرِ وَتَدْقِيقِ الْأَحْوَالِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي تَمُرُّ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ. هَذَا وَفِي تَدْقِيقِ الْأُمُورِ الْمُتَنَاهِيَّةِ فِي الصَّغَرِ وَتَأْمُلِ الْأَزْمَنَةِ الْمُتَنَاهِيَّةِ فِي الْقِصَرِ مَا يُقَابِلُ الْأُمُورَ الْعَظِيمَةَ الْوَاسِعَةَ الْهَائِلَةَ وَالْأَزْمَنَةِ الْمُتَطَاوِلَةَ الْبَعِيدَةَ. وَكَمَا نَظَرَبَ فِي الْعِلْمِ لِدَرَاةِ نَظَرِيَّةِ النَّسِيْبَةِ وَنَشْعَرُ عِنْدَ دَرَاةِهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّوْعَةِ كَذَلِكَ نَظَرَبَ لِدَرَاةِ الْفِيْزِيَاءِ الدَّقِيقَةِ وَالتَّمَعُّنِ فِي بَنِيَّةِ الذَّرَّةِ وَالْكَهَارِبِ وَأَمْثَالِهَا.

فَهَذَا الْجُنَيْدُ عِنْدَمَا يَنْظُرُ فِي ضَمِيرِهِ يُمَيِّزُ بَيْنَ حَالِ الْوَجْدِ الْخَاطِفَةِ وَبَيْنَ الْفَنَاءِ بِشُهُودِ الْحَقِّ الَّذِي يَلِي حَالِ الْوَجْدِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى فَاصِلَةٍ كَافِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ لِلتَّفَرِيقِ بَيْنَ الْوَحْشَةِ وَالْأُنْسِ فِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ فَهُوَ يَسْتَوْحِشُ بِالْوَجْدِ مَهْمَا قَصُرَ لِأَنَّهُ يَقْصِلُهُ عَنْ حَبِيبِهِ وَيَأْنَسُ بِالْفَنَاءِ لِأَنَّهُ فَنَاءُ الشُّهُودِ، عَلَى خِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ لِمُجَرَّدِ رُؤْيَا الْوَجْدِ.

يقول^(١):

الْوَجْدُ يُؤْنِسُ مَنْ بِالْوَجْدِ رَاحَتْهُ وَالْوَجْدُ عِنْدَ شُهُودِ الْحَقِّ مَفْقُودُ
قَدْ كَانَ يُوحِشُنِي وَجْدِي وَيُؤْنِسُنِي لِرُؤْيَا الْوَجْدِ مِنَ بِالْوَجْدِ مَوْجُودُ
هَذَا وَقَدْ اهْتَمَّ الْمُتَصَوِّفَةُ بِالزَّمَانِ عَامَّةً وَبِالْوَقْتِ وَاللَّحْظَةِ الْحَاضِرَةِ خَاصَّةً. قَالَ
الْجُنَيْدُ: «الْوَقْتُ إِذَا فَاتَ لَا يُسْتَدْرَكُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ الْوَقْتِ»^(٢).

وَمِنْ دَوَاعِي إِحْسَاسِ الرَّوْعَةِ فِي الشُّعْرِ أَنْ يَعْمِدَ الشَّاعِرُ إِلَى زَمَنَيْنِ أَحَدُهُمَا طَوِيلٌ وَالْآخَرُ قَصِيرٌ فَيَقْرِنَ الزَّمْنَ الْقَصِيرَ بِالطَّوِيلِ لِيُسْرَعَ الطَّوِيلُ. وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ الدَّقِيقَةُ مِنْ جُمْلَةِ أَسْرَارِ فَنِّ الْمُتَنَبِّيِّ. وَمَعَ أَنَّهُ مَلَأَ الدُّنْيَا وَشَغَلَ النَّاسَ نَجَدَ الْبَاحِثِينَ لَمْ يُوفُوا فَتَهُ الشُّعْرِيِّ حَقَّهُ مِنَ الدَّرَاةِ.

= عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ الْمَادِّيَّةَ يَصْنَعُهَا شُعْرَاؤُهَا بِطَوْلِ الْقِدَمِ وَيَتَغَنُّونَ بِهَذَا الْوَصْفِ أَيْضاً وَشَتَّى مَا بَيْنَ الْخَمْرَيْنِ.

(١) هَذَا الْبَيْتَانِ مَنسوبَانِ أَيْضاً إِلَى الْحَلَّاجِ.

(٢) طَبَقَاتُ الصُّوفِيَّةِ لِلْسَّلْمِيِّ، تَرْجَمَةُ الْجُنَيْدِ.

وَيَقُولُ الْحَلَّاجُ: مِنْ لَاحِظِ الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ وَغَمَّضَ عَيْنَهُ عَمَّا بَيْنَهُمَا فَقَدْ أَثْبَتَ التَّوْحِيدَ، وَمِنْ غَمَّضَ عَيْنَهُ عَنِ الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ وَلَا حَظَّ مَا بَيْنَهُمَا فَقَدْ أَتَى بِالْعِبَادَةِ، وَمِنْ أَعْرَضَ عَنِ الْبَيْنِ وَالطَّرْفَيْنِ فَقَدْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ الْحَقِيقَةِ (أَخْبَارُ الْحَلَّاجِ).

وَلِبَعْضِ الْمَشَايِخِ تَشْبِيهَاتٌ رَاقِعَةٌ. فَابْنُ شَاطِرٍ يَقُولُ: «اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَرَسِيَانِ أَحَدُهُمَا أَسْوَدُ وَالْآخَرُ أَيْضُ فَقَدْ أَخَذَا بِمَجَامِعِ الْخَلْقِ يَجْرَانَهُمَا إِلَى الْقِيَامَةِ، وَإِنْ مَرَدُّنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» نَفَحَ الطَّيْبُ بَوْلَاقٍ ج ٣ ص ١٣٣.

لقد برّز المُتنبّي في وَصفه معارك سيف الدّولة، وكان هذا البطل حُصْن العروبة الشّامخ في الشّمال تَنحسِر عنه تيّارات الرّوم العُدوانيّة مُستميّة يائسة. ومن أهمّ معاركه وقعة الحَدَث. وقد بيّنت له العدوّ كمائن كثيرة لَجبة عند رُجوعه فأظهر في التّحامه معهم من براعة القتال ما ليس يُضاهيه إلّا بلاغة المُتنبّي الذي كان يُرافقه ويُعجّب به. وقد وَصف شاعرنا تلك الوقعة في قصيدة لا نزال نَسْتَمِيعُ بِجمالها الفَنّي وإنّ نسينا قيمة تلك المعركة القوميّة. ومن المعروف أنّ المُتنبّي امتاز بالجزالة والرّوعة والفخامة في قصائده، وهو يَعتَمِدُ على عناصر شعريّة للإيحاء بالرّوعة، فهو مثلاً يُنوّه بالقوى والمقادير الكبيرة ويُقَابِلُ بينها وبين القوى والمقادير الصّغيرة:

على قذر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قذر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصّغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وقد تقدّمت طائفة كبيرة من هذه الأبيات في فصل سابق.

والقصيدة كلّها رائعة حقّاً وكلُّ بيت له في سياقها مكانه الذي يملؤه، ونحن نريد أن نَسْتَشْهَدَ بِهِذين البيتين:

ضُمَّتْ جناحيهم على القلب ضَمّة تموت الخوافي تحتها والقوادِم
بضرب أتى الهامات والنّصر غائب وصار إلى اللَّبّات والنّصر قادم

ضمُّ جناحي الطّائر في البيت الأوّل بيد قويّة لا يحتاج إلى مدّة طويلة، ولكنّ ضمُّ جناحي الجيش العدوّ إنّما يتمُّ بعد قتال عنيف وفترة طويلة من الزّمان، فتَمَثِيلُ لَفٍّ مَيِّمَةِ الجيش وميسرته بضغط جناحي الطّائر يَشْفِئُ عن قُدرة ضخمة لا يُصوِّرها إلّا شعر المُتنبّي.

وكذلك البيت الثّاني: إنّ حُصول النّصر الثّهائيّ يَحْتَاجُ إلى مُدّة طويلة تَسْتَغْرِقُ على الأقلّ ساعات طويلاً إنّ لم تَسْتَغْرِقْ أيّاماً، وضرب الرأس لفلّقه حتى الصّدر حركة تقع في بضع ثوانٍ، ولكنّ المُتنبّي يقرن بين الحادثتين ليُوحِي بِسُرعة النّصر، هذا إلى بساطة مُتناهية في التّعبير مع طواعيّة كبيرة بالألفاظ المُلائمة للتّمثيل في البيت الأوّل ومع التّرتيب والطّباق الواضحين في البيت الثّاني^(١).

(١) في القصيدة نفسها نجد من هذا القبيل البيت الآتي:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تُلقَى عليه الجوازم
على أنّ الألفاظ التّحويّة تكاد تَسُرُّ إبداع الفكرة التي تُعرب عن سرعة الإنجاز إذ يَقلُّ عنها لفظ حُرُوف الجزم مُدّة.

والمعهود أنَّ حِصار الجيش للمدينة ودُخوله فيها لا يَتِمَّانِ بِسُهولة ويُسْر وفي مُدة قصيرة، بَيِّدَ أنَّ المُتَنَبِّيَ في قصيدة ثانية يُشَبِّه مدينة سروج بالحسنة التي تَسْتَقِظ وتَفْتَح ناظرها، وفتح النَّاظِرِ إِنَّمَا يَتِمُّ في أَقلِّ من الثَّانية، فهو يَقْرِن بين هُذين الزَّمنين ويجريهما معاً:

فلم تُتِمَّ سروج فتح ناظرها إلا وجيشك في جَفْنِيهِ مُزْدَحِمٌ^(١)

هنا يبدو لنا الشَّاعر في هذا المجال كالمُخرج السِّينمائي يستطيع أن يُسَرِّع عرض الشَّرِيط أو يَتَمَهَّل فيه. فهو سيّد الزَّمان يتصرَّف به كما يشاء وفق ما يقتضيه الغرض الفنِّي المقصود.

إِنَّ المُتَنَبِّيَ ينظر إلى الزَّمان على أَنَّهُ وسيلة للغنى الرُّوحيِّ فهو لا يُغْفِل ما يتَّصل به من كَيْفِيَّة، زيادةً على مقداره وكمِّيَّته. أليس هو القائل:

«فلا عَبَرَتْ بي ساعة لا تُعْزِنِي»! كلُّ ساعة إذن سبب إلى الرُّفعة ومَطيَّة إلى العِزَّة عنده. فلا غَرْوَ إذا تَصَرَّف بِفِكْرة الزَّمان كيف شاء. فهو يَبْقَى صناعاً فناناً إلى جانب حِكْمَتِهِ.

ولكنَّ حَكِيم المَعْرِاة إذا نظر ببصيرته العميقة إلى الزَّمان المُتَّصل بحياة النَّاس نظر إليه من أعلى واستصغره بالقياس إلى الأبدِ الواسع اللامتناهي الذي تَغْرَق فيه جميع الأزمنة وتُتلاشى الأعمار.

لنتأمَّل كيف يُعالج هذا الشَّاعر الفيلسوف الضَّخْم هذه الفِكْرة في الشَّعر وكيف يجمع عندئذ في تعبيره عناصر الرِّثاء والمأساة والرَّوعة والاستصغار والتَّهْكُم كلها. ويزيد الفِكْرة قُوَّة بساطة التَّعبير التي تكاد تُخفي التَّأثُّر العميق المُعتلج النَّافذ وتَصَرِّف النَّظْر إلى ألفاظ تَتَلَهَّى بِلُزوم ما لا يَلْزَم في القافية. إِنَّ هذه الأبيات الثلاثة التي نُرِيد أن نذكرها تبدو لأوَّل وهلة وكأنَّها مُتفرِّقة وليس بينها وحدة مع أنَّها مُتَّصلة بأقوى أسباب المُحاكَمَةِ الفِكْريَّة ومُرتبطة بأمتن التَّرتيب.

فهو يرى أنَّ السَّاعات بِمَثابة مَطايا جامحة تَحْمِلُ الأحياء وتَمْضي بهم إلى الفناء دون تَوَقُّف ودون استجابة لرغبتهم في المَكْث والتَّلبُّث، ثُمَّ هي تَجتمع لتؤلِّف اللَّيْل والنَّهار اللَّذَيْن يَتَعاقَبان. ويُحاول الرَّاكِب عِبْثاً أن يَسْتَمْسِكَ منهما للباث ولو بخيط فلا يَقْبِض بيديه

(١) في القصيدة نفسها:

نِتاج رَأْيِكَ في وقت على عَجَل كَلَفَظ حَرْف وَعاه سامع فيهم

إِلَّا عَلَى بَاطِلٍ وَوَهُمْ. وهما باختلافهما يُؤَلِّفَانِ الزَّمانَ. وعندئذ يبدو الزَّمانُ بِجُمْلَتِهِ وَبِكَوْنِهِ
وَفَسَادِهِ كَالوَلِيدِ الَّذِي يَعْبَثُ بِالثَّرَابِ. أَوْ لَيْسَ الْإِنْسَانُ قَدْ كُوِّنَ مِنَ الثَّرَابِ؟ فَحَيَاتِهِ هِيَ
ذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي يَعْبَثُ الطُّفْلُ دُونَ تَمَيُّيزِ حِينَ يَبْدَأُ هُوَ مِنْ تُرَابٍ وَيَنْتَهِي إِلَى تُرَابٍ. إِنَّ
الْمَعْرِيَّ يُصَوِّرُ صِغَرَ شَأْنِ الزَّمانِ وَهَوَانَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي نَظَرِ الْأَبَدِ وَاللَّانْهَائِيَّةِ:

مَنَاكِبَ سَاعَاتِي رَكِبْتُ^(١) فَأَبْتَغِي لِبَائِئاً وَسِيرَ الدَّهْرِ لَا يَتَلَبَّثُ
نَهَارٌ وَلَيْلٌ عُوقِبَا أَنَا فِيهِمَا كَأَنِّي بِخِطْيٍ بَاطِلٍ أَتَشَبَّثُ
أُظُنُّ زَمَانِي كَوْنَهُ وَفَسَادَهُ وَلَيْدَأْ بِتُرْبِ الْأَرْضِ يَلْهُو وَيَعْبَثُ

كَانَ يُرْتَلُّ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ قَلْبَ كَبِيرٍ لَمْ يَعْرِفْ تَارِيخَ الْأَدَبِ وَالْفِكْرَ لَهُ شَبَهاً فِي الْعَطْفِ
وَالشُّمُو وَالْإِحْسَاسِ النَّبِيلِ وَالرِّثَاءِ لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ لَا لِلْإِنْسَانِ وَحْدَهُ. كَانَ كَأَنَّمَا يُوحَى إِلَيْهِ
مِنْ عَالَمٍ آخَرَ يَعِيشُ فِيهِ بِخَيَالِهِ حِينَ كَانَ يَنْظُمُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ.

(١) مِنَ الطَّرِيفِ دَرَاةٌ إِحْسَاسِ الْمَعْرِيَّ لِلزَّمَنِ. فَهُوَ فِي الْغَالِبِ يَشْعُرُ بِهِ شُعُوراً حَرَكَتِياً بَاطِئاً يَتِمَثَّلُ فِي
الرُّكُوبِ. وَلِلَّذَلِكَ يَسْتَعِمِرُ لَفْظَ الرُّكُوبِ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ فِي الْغَالِبِ. إِنَّ تَجَرُّبَةَ الرُّكُوبِ عِنْدَمَا كَانَ صَغِيراً
وَهُوَ ضَرِيرٌ لَمْ يَنْسَهاً فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا: رُكُوبَهُ مَثْنً آدَمِيٍّ آخَرَ يَنْقُلُهُ أَوْ رُكُوبَهُ مَثْنً الْمَطَايَا:
مَطَيَّيَ الْوَقْتِ الَّذِي مَا امْتَنَّتْهُ بُوْدِي وَلَكِنَّ الْمُهَيِّمِينَ أَمْطَانِي
وَفِي هَذَا الرُّكُوبِ انْفِعَالٌ وَاسْتِسْلَامٌ وَانْقِيَادٌ يَقْتَضِيهَا ذَهَابُ الْبَصَرِ وَمِيلُهُ الدَّائِمُ إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ،
وَهُوَ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَيْتِ:

وَمَا أَحَدٌ مُعْطِيٌّ وَاللَّهُ حَارِمِي وَلَا حَارِمِي شَيْئاً إِذَا هُوَ أَعْطَانِي
وَفِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ مَوَاضِعٌ مُتَعَدِّدَةٌ يَصِفُ فِيهَا أَنْوَاعاً مِنَ الرُّكُوبِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَارِئَ يَتَذَكَّرُ فِي
هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْقِطْعَةَ الْآتِيَةَ إِذَا كَانَ قَدْ قَرَأَهَا قَبْلًا:
«فَلَمَّا خَلَصْتُ مِنَ الطُّمُوشِ قِيلَ لِي: هَذَا الصُّرَاطُ فَاعْبُرْ عَلَيْهِ. فَوَجَدْتُهُ خَالِياً لَا عَرِيبَ عِنْدَهُ، فَلَبُوتُ
نَفْسِي فِي الْعُبُورِ فَوَجَدْتُني لَا أَسْتَمْسِكُ. فَقَالَتِ الزَّهْرَاءُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا لِجَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِيهَا: يَا فُلَانَةَ
أَجِيزِيهِ. فَجَعَلْتُ تَمَارِسُنِي وَأَنَا أَسَاقِطُ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، فَقُلْتُ: يَا هَذِهِ إِنْ أَرَدْتَ سَلَامَتِي
فَاسْتَعْمَلِي مَعِيَ قَوْلَ الْقَاتِلِ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ:

سَيِّئْتُ إِنْ أَعْيَاكَ أَمْرِي فَاحْمِلِينِي زَقْفُونِي
فَقَالَتْ: وَمَا زَقْفُونَةٌ؟ قُلْتُ: أَنْ يَطْرَحَ الْإِنْسَانُ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفِي الْآخَرِ وَيُمْسِكُ الْحَامِلُ بِيَدَيْهِ، وَيَحْمِلُهُ
وَبَطْنُهُ إِلَى ظَهْرِهِ. أَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَ الْبَحَّاجِلُولِ مِنْ أَهْلِ كَفَرِ طَابَ:
صَلَحْتُ حَالَتِي إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى صَرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَا زَقْفُونِي

فَقَالَتْ: مَا سَمِعْتُ بِزَقْفُونَةٍ وَلَا الْبَحَّاجِلُولِ وَلَا كَفَرِ طَابَ إِلَّا السَّاعَةَ. فَتَحْمِلُنِي وَتَجُوزُ كَالْبَرْقِ
الْخَاطِفِ، فَلَمَّا جُرْتُ، قَالَتِ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامَ: قَدْ وَهَبْنَا لَكَ هَذِهِ الْجَارِيَةَ فَخُذْهَا كَيْ تَخْدِمَكَ
فِي الْجَنَانِ».

ويَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ مُجَرَّدُ الْمَقَابِلَةِ بَيْنَ مُدَّتَيْنِ، وَقَدْ نَجَدَ هَذَا فِي الشَّعْرِ الْحَدِيثِ،

يَقُولُ إِيْلِيَا أَبُو مَاضِي:

كُنْ شَعَاعاً يَبِينُ فِيهِ كَيْانِي لَا ظُلَاماً وَلَا رَغَاماً
وَلَأَعِشْ فِي الشَّعَاعِ بَضْعَ ثَوَانِي فَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ عَامٍ

وَيَقُولُ أَيْضاً:

إِنَّ حَيَا يَهَابُ أَنْ يَلْمَسَ الثُّو رَ كَمَيْتٍ فِي ظُلْمَةِ الْأَكْفَانِ
وَحَيَاةً أَمَدًا فِيهَا التَّوْقِي لَا تُوَاظِي فِي الْمَجْدِ بَضْعَ ثَوَانِي^(١)

الشَّعْرُ يَسْبِقُ نَظْرِيَةَ النَّسَبَةِ الرِّيَاضِيَّةِ حِينَ يُنَوِّهِ بِاخْتِلَافِ مُدَدِ الْأَوْقَاتِ لِاخْتِلَافِ
الاعتبارات. وَفِي التَّنْزِيلِ الْكَرِيمِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

وَتَمَّةُ أَبُو تَمَّامِ السَّاحِرِ... السَّاحِرُ لِأَنَّهُ يُوقِفُ حَرَكَةَ الشَّمْسِ أَوْ يَرُدُّهَا بَعْدَ الْغِيَابِ؛
وَنَحْنُ نَقْبَلُ ذَلِكَ رَاضِينَ مُسْتَمْتِعِينَ بِهَذِهِ الْبَرَاعَةِ السَّحَرِيَّةِ. فَهُوَ يَصِفُ لُحُوقَهُ بِأَحْبَابِهِ
الْمُرْتَحِلِينَ لَتَوَدِّعِهِمْ وَقَدْ شَفَّ الشَّوْقُ فَوَادِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَيْهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَرَأَى حَبِيبَتَهُ
شَعَرَ بِبَهْجَةٍ لَا تُعَادِلُهَا إِلَّا بِهْجَةُ طُلُوعِ الشَّمْسِ الَّتِي تَغْمُرُ بُنُورَهَا ثَوْبَ اللَّيْلِ الْمُرْصَعِ
بِالنُّجُومِ فَاسْتَفْرَبَ حُصُولَ ذَلِكَ وَتَجَاهَلَ تَحِيَّراً وَتَذَلُّهاً. وَلِتَوْكِيدِ شَعُورِهِ بِتِلْكَ الْبَهْجَةِ قَالَ
إِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلُمًا أَرَاهُ فِي النَّوْمِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الرِّكَبِ يَوْشَعَ النَّبِيِّ الَّذِي رَدَّ
الشَّمْسَ.

(١) تَبْدُو دِيَابِجَةُ أَبِي مَاضِي شَاجِبَةً بِالْقِيَاسِ إِلَى الشُّعْرَاءِ الْقَدَمَاءِ وَلَوْ قَالَ فِي الْبَيْتِ: «وَحَيَاةً قَدْ مَدَّ فِيهَا
التَّوْقِي» لَكَانَ أَلْصَقَ بِالطَّبَعِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ لَفْظِ أَمَدٍ الْمُسْتَعْمَلِ فِي الْخَيْرِ وَلَفْظِ مَدٍّ الْمُسْتَعْمَلِ
فِي غَيْرِهِ. هَذَا وَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مَاضِي فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ شَاعِراً كَلَّاسِيكِيًّا بِالنَّسَبَةِ إِلَى الشُّعْرَاءِ
«الْمُجَدِّدِينَ».

هَذَا وَإِنَّ الشَّاعِرَةَ الْمُجِيدَةَ الْمَوْهُوبَةَ نَازَكَ الْمَلَائِكَةُ مَسَّتْ فِكْرَةَ الزَّمَانِ مَسًّا مُتَفَنِّئًا مُؤَفَّقًا مُتَكَرِّراً،
وَيَضُوعٌ فِي ظِلَالِ أَشْعَارِهَا حَنِينٌ شَعْرِيٌّ دَائِبٌ إِلَى الزَّمَانِ السَّرْمَدِيِّ الْمُطْلَقِ بِلَا حُدُودٍ:

... حَيْثُ يَقْبِى الضُّيَاءُ وَلَا تَفْرُبُ الشَّمْسُ أَوْ تُغْلِبُ
وَحَيْثُ يَظْلُلُ عَيْبَرُ الْبَنْفَسِ حَيْثُ لَا يَذْبُلُ النَّجْمُ
وَحَيْثُ تَضْبِيعُ حُدُودِ الزَّمَانِ وَحَيْثُ الْكَوَاكِبُ لَا تَنْعَسُ

(٢) سُورَةُ الْحَجِّ. وَفِي سُورَةِ السَّجْدَةِ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

يقول أبو تمام:

لَحِقْنَا بِأَخْرَاهِمَ وَقَدْ حَوَّمِ الْهَوَى
فَرَدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمِ
نَضًا ضَوْؤَهَا صَبَغَ الدُّجَّةَ وَأَنْطَوَى
فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَأَحْلَامُ نَائِمِ
قُلُوباً عَهْدُنَا طِيرَهَا وَهِيَ وَقَعَ
بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِذْرِ تَطْلُعِ
لِبَهْجَتِهَا ثُوبَ السَّمَاءِ الْمُجَرَّعِ
أَلَمْتُ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرِّكْبِ يُوشَعِ

كَانَ يَحْرِصُ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى تَوَلِيدِ الْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةِ وَهُوَ الْقَائِلُ فِي قَصِيدَةِ لَهُ:
يَقُولُ مَنْ تَقَرَّعَ أَسْمَاعَهُ كَمَ تَرَكَ الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ

وَقَدْ تَرَكَ ثَرَاتًا خَصِيْبًا وَطَرِيقَةً جَدِيدَةً لِمَنْ أَتَى بَعْدَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ. وَلَمْ تَذْهَبْ عَلَى
شَوْقِي الَّذِي تَخَرَّجَ فِي مَدَارِسِ الشُّعْرَاءِ الْأَقْدَمِينَ هَذِهِ الْإِلْفَاتَةُ الْفَنِّيَّةُ، إِذْ يَحْرِصُ عَلَى
إِعَادَتِهَا حِينَ يَتَيَسَّرُ لَهُ ذَلِكَ فَهُوَ يُخَاطِبُ الشَّمْسَ مُسْتَهْلًا:

قَفِي يَا أُخْتِ يُوشَعِ خَبْرِينَا أَحَادِيثَ الْقُرُونِ الْغَابِرِينَا
وَيَقُولُ فِي رِثَاءِ سَعْدِ زَغَلُولٍ:

شِيعُوا الشَّمْسَ وَمَالُوا بِضِحَاهَا وَانْحَنَى الشَّرْقُ عَلَيْهَا فَبَكَاهَا
لَيْتَنِي فِي الرِّكْبِ لِمَا أَفْلَتَ يَوْشَعُ هَمَّتْ فَنَادَى فَنَاهَا
وَفِي هَذَا الْبَيْتِ لَا يَكْتَفِي شَوْقِي بِالِاسْتِفَادَةِ مِنْ شَعْرِ أَسَاتِذِهِ أَبِي تَمَّامٍ وَالتَّلْمِيحِ إِلَى
قِصَّةِ يَوْشَعِ بَلْ يَأْخُذُ لَفْظَ الرِّكْبِ أَيْضًا^(١).

وَقَدْ وَصَفَ الشُّعْرَاءُ اخْتِلَافَ الزَّمَنِ النَّفْسِيِّ وَتَقَاصُرَهُ عِنْدَ الْمَسَرَّةِ وَالْفَرَحِ وَتَطَاوُلَهُ عِنْدَ

(١) ابْنُ السَّبْكِ يَأْخُذُ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ تَلْمِيحَهُ إِلَى قِصَّةِ يَوْشَعِ:

وَرَدَّتْ إِلَيْكَ الشَّمْسُ بَعْدَ مَغْيِبِهَا كَمَا أَنَّهَا قَدِمَا لِيَوْشَعَ رَدَّتْ
وَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ زُهْرٍ الْأَشْبِيلِيُّ فِي مَوْشَعِهِ الَّذِي أَوَّلُهُ:

سَلِّمِ الْأَمْرَ لِلْقَضَا فَهُوَ لِلنَّفْسِ أَنْفَعُ
مُلَمَّحًا أَيْضًا إِلَى قِصَّةِ يَوْشَعَ وَمَا شِئْنَا عَلَى أَثَرِ أَبِي تَمَّامٍ:

مَا تَرَى حَيْثُ أَظَعْنَا وَسَرَى الرِّكْبُ مَوْهِنَا
وَكَتَسَى اللَّيْلُ بِالسَّنَا نَوْرَهُمْ ذَا الَّذِي أَضَا
أَمْ مَعَ الرِّكْبِ يَوْشَعُ

هَذَا وَيَسْتَعْمِلُ شَوْقِي لَفْظَ يَوْشَعَ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يُعَارِضُ فِيهَا قَصِيدَةَ ابْنِ سِينَا فِي النَّفْسِ. فَهُوَ يَقُولُ:

هَذَا مَقَامُ كُلِّ عَزْ دُونِهِ شَمْسُ النَّهَارِ بِمِثْلِهِ لَمْ تَطْمَعِ
فَمَحَمَّدُ لَكَ وَالْمَسِيحُ تَرَجَّلَا وَتَرَجَّلَتْ شَمْسُ النَّهَارِ لِيَوْشَعَ

الانتظار والضجر. ونحن نستملح بيتي ابن بسام الذي يُفَرِّقُ فيهما بين الزمان الخارجي
الموضوعي وبين الزمان النفسي فيقول:

لا أظلمُ اللَّيْلَ ولا أدّعي أنْ نجوم اللَّيْلِ ليستْ تَغور
ليلي كما شئتَ فإنْ لم تَزُرْ طال وإنْ زارتْ فليلي قصير

دون أنْ يتجاوزَ هذا الاستِملاح إلى الإعجاب. وثمة شعر كثير في طول اللَّيْلِ وفي
قصره يتردّد بين الجودة والإبداع. وإنّما تحوّل الجودة والإبداع حين تشتمل الفكرة الفنيّة
على صورة تُلوّنُها أو صنعة خفيّة تخدمها وتؤيّدُها كما في بيت الشريف الرضي:

يا ليلة كاد من تقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر

فكما أن المرء يتعثر بحجر قرب قدمه أو حاجز يفجؤه لم ينتبه له كذلك تعثر اللَّيْلِ
بالسحر القريب المفاجئ. لهذا زيادة على ما في معنى العنار من الإزعاج والكراهية. ففي
هذه اللَّفظة الحسيّة استطاع الشاعر أن يُعجل مرور اللَّيْلِ كلّهُ تعجباً عجيباً.

وقد يخفى معنى البيت الذي يُعبّر عن سرعة مرور اللَّيْلِ فيزيده خفاؤه جمالاً...
فبيت شوقي الذي يُتغنّى به:

ما العمرُ إلا ليلة كان الصّباح لها جبينه

جماله حاصل من بعض خفاء المعنى فيه، ولولا هذا الخفاء لكانت الفكرة بسيطة
ولكادّث تكون مُبتدلة وهو أن الحبيب لمّا زار أشرق جبينه فلم أشعر بالوقت إلا وقد مضى
وطلع الصّبح، فكان الصّبح لاح سنّاه من جبينه حين أتى^(١).

ومثله في الغموض والخفاء قول أبي صخر الهذلي:
عجبتُ لسغي الدّهر بيني وبينها فلمّا انقضى ما بيننا سَكَن الدّهر
على شهرة هذا البيت^(٢).

(١) يقول العباس ابن الأحف في طول اللَّيْلِ:
أيّها الرّاقدون حولي أعينوا
حدّثوني عن النّهار حديثاً
ويقول شوقي:

سألنّي عن النّهار عيوني
قلنّ نبيكه قلنّ هاتي دموعاً
رحم الله يا عيوني النّهارا
قلنّ صبراً فقلت هاتي اضطبارا

(٢) في القصيدة البيت الثّاني الجميل المتّصل بفكرة الزّمان أيضاً:
فيا حبّها زدنّي جوى كلّ ليلة
وبسا سلوة الأيّام موعِدك الحشر

وهو «يَحْتَمِل وجهين من التَّأْوِيل - كما يقولُ صاحبُ المَثَل السَّائِر - أحدهما أنَّه أرادَ بِسَغْيِ الدَّهْرِ سُرْعَةَ تَقْضِي الأَوْقَاتِ مُدَّةَ الوِصَالِ فَلَمَّا انقَضَى الوِصْل عاد الدَّهْر إلى حالته في الشُّكُونِ والبُطْءِ. الآخر أنَّه أرادَ بِسَغْيِ الدَّهْرِ سَغْيَ أَهْلِ الدَّهْرِ بالنِّمَامِ والوِشَايَاتِ فَلَمَّا انقَضَى ما كانَ بينهما سَكَنُوا وتركوا السَّعَايَةَ».

وقد نجد بين الشعراء من يَهْتَمُّ بالألوان. فإذا ذَكَرَ أَيَّامَ أَحبابِهِ ذَكَرَ قِصَرَهَا وهي مُلَوَّنة بألوان مُتَعَدِّدة تَعَدَّد الأَصْبَاغُ في هِنْدَامِ أولئك الأحبابِ وثيابهم وما يُحِيطُ بهم. هنا نجد أنفُسنا تُجَاهِ نوعٍ من الشَّعْرِ مُلَوَّنٍ كما نجد أنفُسنا تُجَاهِ شَرِيطٍ من السَّيْنِما مُلَوَّنٍ، فالشَّعْرُ يَكْتَسِبُ بهذا التَّلَوِينِ عُنْصُرَ الطَّرَافَةِ والإِبْدَاعِ. يقول العلويُّ الحِمَّاني لازِماً في القافية ما لا يَلْزَمُ:

فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوْسٍ يُسَمَّى قُرَحَ
تَلَوَّنَ مُعْتَرِضاً فِي السَّمَاءِ فَمَا تَمَّ ذَلِكَ حَتَّى نَزَحَ

وهذا كُلُّهُ بِصَرْفِ النَّظَرِ عن تَنَوِيهِ بعضُ الشعراءِ باغْتِنَامِ الحَاضِرِ والإِقْبَالِ على لَذَّاتِهِ. وأبرزهم في ذلك بَشَّارٌ وديكُ الجِنِّ وأبو نُؤاسٍ في الشَّعْرِ العَرَبِيِّ وعمرُ الخِيَّامِ في ظِلَالِ الحضارةِ العَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ؛ وكذلك بِصَرْفِ النَّظَرِ عن الآمالِ والأَمَانِي وتَشَوُّفِ الآتِي.

إنَّ الشَّعْرَ إِذْ يُظْهِرُ حُرِّيَّةَ كَبِيرَةٍ في سَيِّطَرَتِهِ على الزَّمانِ. فهو يَسْتَطِيعُ أنْ يُعَجِّلَهُ أو يَجْعَلَهُ بَطِيئاً حَسَبَ الغَرَضِ الفَنِّيِّ لِيَبْلُغَ الإِمْتَاعَ وإِخْدَاتِ الشُّعُورِ بِالمَأسَاةِ كما في وَصْفِ الطُّلُولِ والرِّثَاءِ أو بِالرَّوْعَةِ والشُّمُوءِ كما في وَصْفِ الآثَارِ والمَعَارِكِ والحالاتِ الصُّوفِيَّةِ أو إِخْدَاتِ الجَمَالِ والطَّرَافَةِ والإِبْدَاعِ كما في وَصْفِ لِقَاءِ الأحبابِ.

ولَكِنَّ الشَّعْرَ يُمَكِّنُهُ أنْ يُؤَثِّرَ في حَوَادِثِ الزَّمانِ فَيُبَدِّلُهَا تَبْدِيلاً لِيُحْدِثَ بِذلكَ تَأْثِيراً هَزَلِيًّا مُضْحِكاً. وإذا ذَكَرْنَا الهَزْلَ والإِضْحَاكَ المُتَّصِلِينَ بِفِكْرَةِ الزَّمانِ فَمَعْنَى ذلكَ أنَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ تَشْمَلُ تَنَافُراً وَتَنَاقُضاً مُخْلِئِينَ يَخْفِضَانِ مِنْ قِيَمَةِ الإنسانِ الهَازِلِ الَّذِي نَضْحَكَ مِنْهُ. نحنُ نَضْحَكَ بِوَجْهِ عَامٍّ مِنَ الغَفْلَةِ وَمِنَ المُغْفَلِينَ. وَمِنَ التَّغْفِيلِ الخَلْطُ بَيْنَ الأَزْمَنَةِ. نَعْرِفُ أَنَّ المُحَامِلِينَ لِيَجْرَحُوا الشُّهُودَ يَسْأَلُونَهُمْ بَعْضُ الأَسْئَلَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالزَّمانِ فإذا ظَهَرَ اخْتِلَاطٌ أَجَوِبَتَهُمْ كانَ ذلكَ مَدْعَاةً لِرَفْضِ شَهَادَتِهِمْ. فَوَعْيُ الزَّمانِ إِذْ نَدْلِيلُ الحِصْنِ الطَّبِيعِيِّ المُشْتَرَكِ. وقد نجدُ بَعْضَ التَّوَادِرِ المُتَّصِلَةِ بِالزَّمانِ فِي كُتُبِ الأدبِ. سَأَلْتُ بَعْضَ المُغْفَلِينَ عَنْ مِيلَادِهِ فَأَجَابَ: وَلَدْتُ هَلالَ رَأْسِ رَمْضَانَ لِلنَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ بَعْدَ العِيدِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَاحْسِبُوا كَيْفَ شِئْتُمْ. وَرَبِّمَا كانَ المُجِيبُ وإِعْيَاً وَلَكِنَّهُ خَلَطَ بَيْنَ الأَزْمَنَةِ على عَمَدٍ لِلْهَزْلِ والإِضْحَاكِ. وَيُورِدُ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ فِي «الإِمْتَاعِ وَالْمُؤَانَسَةِ» رِسَالَةً كَتَبَهَا مَجْنُونٌ إِلَى

مجنون أغرب ما فيها تاريخها، وهي: «بسم الله الرَّحْمَنُ الرَّحِيم، حفظك الله، وأبقاك الله، كتبت إليك ودجلة تَطغى، وسُفن المَوْصل ها هي، وما يزداد الصَّبيان إلا شراً، ولا الحجارة إلا كُفراً، فيأْك والمَرَق فَإِنَّهُ شَرُّ طعام الدُّنيا، ولا تَبِتْ إلَّا وعند رأسك حَجَر أو حَجَران فَإِنَّ الله يَقُولُ: ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وكتبت إليك لثلاث عشرة وأربعين ليلة خَلَّتْ من عاشوراء سنة الكمأة»^(١).

والشُّكر كالْتغْفِيل وكالاختلاط من الأمور التي تجعل الإنسان يُضَيِّع حَسَّ الزَّمان.

قال رجل لبعض أصحاب النَّبِيذ: وَجَّهْتُ إليك رَسولاً عَشِيَّةً أمس فلم يجذك فقال: ذلك وقت لا أجِد فيه نفسي.

وقد تَخْتَلِط الأزمنة على السَّكران فلا يُمَيِّز الحاضر من الماضي، ولا من المستقبل. والسَّكران دائماً مَوْضِع الضَّحْك والسُّخْرِيَّة إن لم يكن مَوْضِع الرُّثَاء. وربَّما عمد الشَّاعر إلى وصف حالة الشُّكر بما يبدو من آثارها هذه. ولعلَّ هذا التَّوَع من التَّعبير أقوى بياناً من مُجَرَّد دَعْوَى الشُّرب. استمعوا إلى هذا الشَّاعر الذي يَزعم أنَّ النَّشْوَةَ تسبق الشُّرب فهو سَكْران في الماضي قبل أن يشرب في المستقبل:

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الـ شُّرْبِ غَدًا إِنْ ذَا مِنَ الْعَجَبِ
وسواء أَشْرَبَ هَذَا الشَّاعر أم لم يشْرَبْ فنحن نجده فَنَّا نعرف سيطرة الشُّعر على الزَّمان فزعم تَقَدُّم المستقبل على الحاضر وتأخُّر الحاضر عن المستقبل لِيَصِفَ لنا وَصْفاً بارِعاً هَزَلِيًّا حالة السَّكْرِ، وَصْفاً قَلَّ أَنْ يُبَارِيهِ وَصْفٌ فِي الْبَرَاةِ وَطَرَاةِ التَّعبير حين خَلَطَ على عَمْدٍ بَيْنَ الْأَزْمَنَةِ. هنا نجد أَنَّ الزَّمانَ أَصْبَحَ مَقْلُوباً. وإذا اسْتَحَالَ الأمرُ فِي الزَّمانِ الْخَارِجِيِّ فَاَلْمُسْتَحِيلُ مُمَكِّنٌ فِي الزَّمانِ الشُّعْرِيِّ الْغَرِيبِ.

لقد باعد العلم بين تَصَوُّر المكان وتَصَوُّر الزَّمان. وَلَكِنْ نَظَرِيَّةُ النَّسْبِيَّةِ الرِّيَاضِيَّةِ عَادَتْ فَفَرَنْتَ بَيْنَهُمَا؛ وَرَبَّما كان اقترانهما قَرِيباً فِي الْوَاقِعِ مِنَ الْحَسِّ الْإِنْسَانِيِّ. فإذا رَأَيْنَا صُورَةَ حَقْلِ مِنَ الْحَقُولِ اسْتَطَعْنَا عِنْدَ الْإِقَاءِ أَبْصَارَنَا عَلَيْهَا أَنْ نُدْرِكَ أَبْعَادَهُ وَالْأَشْجَارَ فِيهِ وَالْحَيْرَ الَّذِي يَشْغَلُهُ فِي الْمَكَانِ. وَلَكِنَّا فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْكُمَ فِي أَيِّ فَصْلِ مِنْ فَصُولِ السَّنَةِ أُخِذَتِ الصُّورَةُ بِمُجَرَّدِ تَأْمُلِ شَكْلِ الشَّجَرِ أَوْ حَالَةِ الْحَقْلِ. وَكَذَلِكَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى إِنْسَانٍ قَدَّرْنَا عَمْرَهُ الزَّمَانِيَّ حين نَنظُرُ شَكْلَهُ الْمَكَانِيَّ. فَاَلْمَكَانُ وَالزَّمَانُ أَكْثَرَ اقْتِرَاناً وَأَشَدُّ اتِّحَاماً مِمَّا يَتَصَوَّرُ الْفَلَسَافَةُ.

وهذا ما يَتَضَحُّ فِي الشُّعْرِ. فَالشُّعْرَاءُ بِسَبَبِ هَذَا الْاِقْتِرَانِ كَثِيراً مَا يَسْتَعِيرُونَ الصُّورَ

(١) ج ٢، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

المكانية للدلالة على الزمان، وبالعكس قد يستعبرون الألفاظ الدالة على الزمان للتعبير عن المكان. هذا امرؤ القيس في فجر الشعر العربي يصف طول الليل فيعمد إلى استعارات مكانية في أبياته المشهورة:

وليل كمزوج البحر أرخى سدوله
فقلت له لَمَّا تَمَطَّى بصلبه
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
فيا لك من ليل كأن نجومه
كأن الثريا علقت في مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل

وكذلك حندج بن حندج المري يصف ليله في صول فينسب إلى الليل بعدين طولاً وعرضاً ويدعو لو لاح له الصبح لأمسك به حرصاً عليه ويرى الليل كأنه مسرول أو كالفرس المشكول وأن نجومه ثابتة في الجؤ كالقناديل كل ذلك في بلاغة عاطفية مؤثرة:

في ليل صول تنهى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول^(٢)

(١) المثنبي يمثل الزمان بالإنسان حين يقول:

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناها على الهرم
وكذلك بشار:

ترجو غداً وغداً كحاملة
في الحي لا يدرون ما تلد
هذا وعند المثنبي فكر متعددة أخرى تتعلق بالزمان باختلاف الأيام وتكون بعضها كالأعياد أفضل من بعض دليل وجود الحظ ولا فهي سواء:

هو الجدة حتى تفضل العين اختها
وحتى يكون اليوم لليوم سيّدا
هذا التفاضل بين الأيام أشار إليه المحبون من جهة أخرى إذ وجدوا أن الأيام تكتسب ملاحاة لصلتها بالأحباء الملاح:

وما تفضل الأيام أخرى بلداتها
ولكن أيام الملاح ملاح
وقال المتصوفون: لصاحب الوقت يومان:

يوم بأرواح يباع ويشتري
وأخوه ليس يسام فيه يذره
هذا ويقول المثنبي يشبه مشي الإبل في البيد بمشي الأيام في الآجال:
من بنات الجدیل تمشي بنا في الـ
وهو كذلك يقول:

ويوم كليل العاشقين كمثته
أراقب فيه الشمس إيان تغرب
(٢) يقول أبو تمام:

يوم كطول الدهر في عرض مثله
ويقول شوقي في تمثال نهضة مصر عن أبي الهول:
وقد جاب في سكرات الكرى
عروض الليالي وأطوالها

لا فارق الصُّبح كُفِّي إن ظَفَرْتُ به
لساهر طال في صُؤل تَمْلُله
متى أرى الصُّبح قد لاحت مَخائِلُه
ليل تحيّر ما يَنحط في جهة
نجومه رُكد ليست بزائِلَة
وإن بَدَتْ غُرّة منه وتَخجِيل
كأنّه حيّة بالسُّوط مَقْتول
واللّيل قد مُزَقَّت عنه السِّراويل
كأنّه فوق مَنّ الأرض مَشْكول
كأنّما هنَّ في الجوّ القَناديل

طول هذا اللَّيل سبَّبه البُعد المكانيُّ عن الأهل والأحباب لا تَطويه إلّا قُدرة الله .

ما أَقدَر الله أن يُدني على شَحَط
من داره الحزن ممَّن داره صُول
الله يَطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الرِّيع منه وهو مأهول

ويستطيع الشَّاعر بأساليب شتى أن يبلِّغ التَّصوير الهزليَّ أو الكاريكاتور، وذلك بأن يُبالغ في تغليب الطَّابع الشَّخصيِّ على الطَّابع التَّوعِّيِّ على حدِّ تعبير شوبنهاور، فهو لكي يُصوِّر لنا أنف ابن حرب يتصوَّر فعِلين يَجريان في زمن واحد يصدَّران عن شخص واحد في مكانين مختلفين:

لَكَ أنْف يا بن حرب أنْفَتُ مِنْهُ الأنسوف
أنت بالذَّار تُصلِّي وهو بالبيت يَطوف

وهناك شيء لا يقلُّ غرابة عن هذا. فالمعروف أنَّ الشَّخص إذا دخل من باب دخل جملة واحدة في وقت واحد. ولكنَّ الشَّاعر أراد أن يُداعِب حبيته مُداعبة تدعو إلى الابتسام. ويبدو أنَّها كانت ذات أُرذاف ضخمة، فصوَّر ضخامتها المكانية بالفاظ زمانية:

مَنْ رأى مثل حَبْتي تُشبهه البسدر إذ بسدا
تدخل اليوم ثم تد خمل أُرذافها غدا

لقد عرضنا نماذج شعريَّة كلُّها تمسُّ فكرة الزَّمان وتنفّات دلالاتها وقيمتها الفنِّية وتترجَّح بين مثلجِر المأساة والرَّوعة والسُّمُو والجمال والطَّرافة والفكاهة والتَّصوير الهزليِّ. وَوجدنا أنَّ الشَّعر في تعبيره لا يَصِف ما هو واقع بالضَّبَط في الزَّمان الخارجيّ بل إنّه يُظهر حرِّيَّة في تصرُّفه بفكرة الزَّمان إذ يُسيطر عليها سيطرة ويُنشئها إنشاءً جديداً يُناسب غرضه الفنِّيَّ. وهنا يبدو جانب الإنشاء والخلْق في الفنِّ، إذ يبدو الزَّمان عُنصراً من عناصر الفنِّ وهو بذلك يبدو عُنصراً من عناصر الفكر عامّة.

إنَّ الفيلسوف الألمانيَّ هيغل يضع الشَّعر في ذُروة الفُنون عند تصنيفه لها وذلك لاعتبارات مُختلفة تتعلَّق بفلسفته وبمبدأ التَّصنيف الذي يعتمده. وخلاصتها أنَّ الشَّعر أَشْفُ الفُنون عن حياة الفكر وألصقها به وأكثرها مرونةً واتِّساعاً في الدَّلالة. وقد رأينا جانباً من

هذه المرونة والانساع. وهو يقول في ماهية الفن: «ليست المحاكاة هي التي تمتعنا وإنما هو الإنشاء. وأقلُّ اختراع يفوق أكبر آثار المحاكاة. فعَبَثُ إذن أن نقولَ ينبغي للفن أن يُحاكي الطبيعة الجميلة. واختيار الفن لبعض العناصر ليس محاكاة لأن رسالة الفن أعلى ولأن نهجه أكثر حرّية من ذلك. إنّه يُباري الطبيعة. وهو يُعبّر عن الأفكار مثلها بل يفوقها في التعبير. إنّه يستعمل الأشكال الطّبيعيّة رموزاً ليشرح تلك الأفكار، وهو لذلك يُكيّف تلك الأشكال على غرار أصفى وأكمل».

على أن الفن عند هيغل كما هو معروف ليس إلّا مرحلة من مراحل تحقّق الفكر. يعرض الفكر في هذه المرحلة قواه الخاصّة بحرّية كبيرة، وتكون الفكرة إذ ذاك مُتّصلة بالصّورة ومُلتحمة معها التّحاماً صميماً. ولكنّها ليست إلّا مرحلة تُؤدّي فيما بعد إلى الدّين وإلى الفلسفة.

الرَّمز في الشَّعر العربيّ

بها لم يُبح من لم يُبح دمه وفي الـ إشارة معنى ما العبارة حَدَّتْ
ابن الفارض

في زيِّ مُقدِّمة:

يقولُ الفيلسوف الألمانيُّ هيغل: «الرَّمز الصَّرْفُ إلغاز في ذاته، ومعنى ذلك أنَّ الوصف الخارجيَّ الذي يَشِفُّ عن المعنى العامِّ يبقى مُتميِّزاً عن هذا المعنى تَميِّزاً يَحوم الشُّكُّ معه دائماً حول حقيقة الدَّلالة التي تَرْتَبِط بالشَّكل. بَيِّدَ أنَّ اللُّغز يُؤَلَّف قسماً من الرَّمزيَّة المقصودة وهو يَخْتَلِف عن الرَّمز الصَّرْف في أنَّ الذي يضع اللُّغز يعرف معناه بالضَّبْط وأنَّه اختار على عَمْدِ الشَّكل الذي أراد أن يَحْجُب المعنى وراءه ويطرحه من خلاله للحَلِّ. فالرَّمز الصَّرْف يبقى أبداً من دون حلٍّ (تأمُّ) على حين أنَّ اللُّغز يحمل في ذاته حَلَّهُ. وهذا هو السَّبب الذي جعل سانشو بانسا يقولُ إنَّه يُفضِّل أن يعرف الحَلَّ أولاً ثم يسمع اللُّغز»^(١).

ومن المُناسِب في بحثنا هذا أن نَحْدُو حَذُوَ هيغل أوَّل الأمر فَنُميِّز بين اللُّغز والرَّمز الصَّرْف. ولقد عمد الشعراء العرب منذ القديم إلى اللُّغز فاضطَّعوه في أشعارهم على أحوال مختلفة ولأسباب مُتفاوتة. ثم اتَّسع بحث اللُّغز فتناوَله الأدباء والمؤلِّفون وأفردوا له فصلاً في كُتُبهم أو كُتِّباً كاملة.

يقولُ الشُّيوطيُّ في «المُزهر» فصل الألغاز: «وهي أنواع، إلغاز قَصَدَتْها العرب والغاز قَصَدَتْها أئمَّة اللُّغة وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها، وإنَّما قالتها فصادَف أن تكون إلغازاً. وهي نوعان، فإنَّها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها وأكثر أبيات المعاني

(١) كتاب الاستيكل بحث اللُّغز، التَّرجمة الفرنسيَّة الجزء الثَّاني ص ١١١. وسانشو بانسا الذي ذكره هو مُرافق دون كيخوت بطل رواية سرفنتس المشهورة.

من هذا النوع. وقد ألف ابن قُتيبة في هذا النوع مُجلِّداً حسناً، وكذلك ألف غيره. وإنَّما سمَّوا هذا النوع أبيات المعاني لأنَّها تحتاج إلى أن يُسأل عن معانيها ولا تُفهم من أوَّل وهلة. وتارة يقع الإلغاز بها من حيث اللَّفظ والتركيب والإعراب. ثمَّ يذكر المؤلف أمثلة مُتعدِّدة من كلِّ نوع.

وقد جرى الباحثون على مثل هذا التَّصنيف ففرَّقوا بين اللَّغز المعنويِّ وهو ما يُشار فيه إلى الموصوف بذكر صفاته وبين اللَّغز اللَّفظيِّ وهو ما يُشار فيه إلى الموصوف بذكر كلمات تتضمَّن اسمه أو بعض أحرفه تَضْمُنًا خَفِيًّا ويكون ذلك بالتَّصحيف أو القلب أو الحذف أو التَّبديل وما أشبه ذلك.

ولا بأس أن نذكر بعض الأمثلة لإيضاح ما نريد.

فمن المعنويِّ قول أبي العلاء المَعريِّ في الإبرة:

سَعَتْ ذات سُمٍّ في قميصي فغادرتُ به أثراً والله شافٍ من السُّمِّ
كسَتْ قَيْصراً ثوب الجمال وتُبعا وكسرى وعادتُ وهي عارية الجسم
وقول الآخر في الإبرة أيضاً:

وذا ذوائب تنجرُّ طولاً وراها في المجيء وفي الذهاب
بَعَيْنٍ لم تَلِدْ لِلثَّوم طعماً ولا ذَرَفَتْ لدمع ذي انسكاب
وما لبست مدى الأيام ثوباً وتكسو النَّاس أنواع الثِّياب
ويقول بهاء الدِّين زهير في القُفْل:

وأسودَّ عارٍ أَنَحَلَ البرد جسمه وما زال في أوصافه الجِرْص والمنع
وأعجب شيء كونه الدَّهْر حارساً وليس له عين وليس له سَمْع
ويذكر الأدباء القدماء حواراً جرى بين عبيد بن الأبرص وامرئ القيس حين لَقِيَ
الأوَّل الثَّاني فقال له: كيف مَعْرِفَتِكَ بالأوابد؟ فقال: ألَّتِي ما أَحَبَّبْتَ. فقال عبيد:

ما حَيَّة مَيْتَةٌ أَحْيَتْ بِمَيْتَتِهَا درداء ما أَنبَتَتْ سِنًا وأضراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الشَّعيرة تُسْقَى في سنابلها فأخرجتْ بعد طول المُكْث أَكْثاداسا

فقال عبيد:

ما السُّود والبِيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهنَّ النَّاس تَفْساسا

فقال امرؤ القيس:

تلك السَّحاب إذا الرَّحْمَن أرسلها رَوَى بها من مُحول الأرض أُنْياساً...

ثم قال عبيد بعد مُحاورَات بينهما:

ما الحاكمون بلا سَنع ولا بصر
ولا لسان فَصيح يُعجِب النَّاسا
فقال امرؤ القيس:

تلك الموازين والرحمن أنزلها ربُّ البرية بين الخلق مقياسا
وربما كان هذا الحوار كله منحولاً إذ لا يخفى اختلاف أسلوب هذه الأبيات عن
شعر امرئ القيس وعبيد، ومع ذلك فلا بُدَّ من الإشارة إلى ما كان يدور بين رِواة اللغة
والأدب من مُختلف أغراض الشعر.

ويقول أسامة بن مُنقذ في ضرس له سقط وقد جرى مجرى اللغز:
وصاحب لا أمل الدهر صُحبته يشقى لنفسي ويسعى سعي مُجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت عيني عليه افترقنا فُرقة الأبد

ويُلغز الحريري في الخمر أو حلب الكرم كما يدعوها:
وما شيء إذا فسدا تحوّل غيظه رشدا
وإن هو راق أوصافاً أنار الشر حيث بدا
زكي العرق والده ولكن بئس ما ولدا

وإذا كُتِم الموصوف في الشعر الوصفي عن السامع ولم يكن عنده سابق علم به ظهر
الشعر في زيّ اللغز ولا سيّما إذا كانت الأوصاف خفية. وذلك أنّ الشعر يعتمد في كثير
من الأحيان على الاستعارة والمجاز والتشبيه وأمثالها، وكلّما كانت هذه غريبة وبعيدة
وجاءت الألفاظ من صفات المستعار والمُشبه به أي ترشيحية لا من صفات المستعار له
والمُشبه أي تجريدية كان ذلك أقرب للغز وألصق بالرمز. انظر هذه الأبيات المشهورة التي
هي لأبي تمام:

لُعابُ الأفاعي القاتلات لعابه وأزى الجنى اشتارته أيدٍ عواسل
له ريقة طلّ ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وإبل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل

تعلّم أنّ هذا الوصف يتناول القلم الذي يذكره الشاعر في بيت سابق:
لك القلم الأعلى الذي شبّاته تُصاب من الأمر الكلى والمفاصل

لكن جاء الكلام كالإلغاز.

وربما لا يذكر الشاعر موضوع وصفه ويُبعد في التشبيهات التي يعتمدُها فيخرج ذلك

في مظهر اللُّغز تماماً. ويكفي أن ترجع إلى ديوان القاضي الأرجاني، وتأمل القصيدة التي يمدح بها ممدوحه ويستهديه فيها خيمة لتجد أن وصفه الخيمة دون ذكرها لا يختلف في شيء عن اللُّغز:

فيا شمسُ بل يا وِبل هل أنت مُنقِذي
بَحْدَاءَ إِنْ قَوَّضْتَ خَرَّتْ لَدَى الْفِنَاءِ^(١)
وليسَتْ بَفَتْلَاءِ الْيَدَيْنِ عَلَى الشَّرَى
من الْبُلُقِ يعلو ظهرها هامَ أهلها
وتصلح عند النَّاسِ لِلضَّرْبِ وحده
ومن عجب أن لم تقم قط قَوْمَة
وأعجب من ذا الحال أن لرجلها

والشاعر اضطلع بهذا النحو من الكلام تَلَطُّفاً في الطلب وقدم لشعره بدعاية تَشَفُّعاً عن الغرض أيضاً^(٢).

فهناك إذن أَلغاز مقصودة، «وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها وإنما قالتها فصادف أن تكون أَلغازاً» كما جاء في تعبير مؤلف المُرْهَر.

ومن اللَّفْظِي أَلغازُ ابن الفارض في صَفَر:

ما اسم طير إذا نطقت بحرف
منه مبداهُ كان ماضي فعله
وإذا ما قلبته فهو فعلي
طرباً إن أخذت لُغْزِي بِحَلِّهِ

ولقد مَهَر هذا الشاعر الصُّوفيُّ في صُنْع الأَلغاز الشَّعْرِيَّة التي من هذا النوع. وهو في الغالب يمزج اللُّغز اللَّفْظِيَّ بالمعنوي. وكأنما كان ينظم هذه الأَلغاز لَطُرَحَ في مُجْتَمَعات الأصدقاء اللطيفة فهي في غاية التهذيب والحذق. وفي ديوانه تسعة عشر لُغْزاً وهي كثير بالنسبة إلى شعره القليل. ولتُورِد بعض الأمثلة منها.

(١) في الديوان: الفتى وهو جائر.

(٢) الحَزَم بالفتح الغليظ من الأرض كالْحَزَن.

(٣) الشُّكْل كُتِبَ وُسُكُن الثاني جمع شكال وهو حيل تُشدُّ به قوائم الدابة.

(٤) للشاعر قصيدة جميلة يصف في بدايتها الشَّمعة لا يُسمِّيها بل يتفنَّن في إيراد أوصافها وخصائصها وهي تجري هذا المجرى مَطْلَعُها:

نَمَتْ بِأَسْرَارٍ لَيْلٍ كَادَ يُخْفِيهَا وَأَطْلَعَتْ قَلْبَهَا لِلنَّاسِ مِنْ فِيهَا

قال مُلغزاً في هذيل:

سَيْدِي مَا قَبِيلَةٌ فِي زَمَانٍ مَرَّ فِيهَا فِي الْعُرْبِ كَمْ حَيٍّ شَاعِرٍ
أَلْقِي مِنْهَا حَرْفًا وَدَغِ مُبْتَدَاهَا ثَانِيًا تَلَقَّ مِثْلَهَا فِي الْعَشَائِرِ
وَإِذَا مَا صَحَّفْتَ حَرْفَيْنِ مِنْهَا كُلُّ شَطْرٍ مُضَعَّفًا اسْمَ طَائِرٍ^(١)
ويقولُ في حلب:

مَا بِلْدَةٌ فِي الشَّامِ قَلْبَ اسْمِهَا تَصْحِيفُهُ أُخْرَى بِأَرْضِ الْعَجَمِ
وَتُلْتُكُهُ إِنْ زَالَ مِنْ قَلْبِهِ وَجَدَتْهُ طَيْرًا شَجِيًّا التَّغَمِ
وَتُلْتُكُهُ نَصْفَ وَرِيْعٍ لَهُ وَرَبْعُهُ ثُلْثَاهُ حِينَ انْقَسَمِ

فالقارئ لا بدَّ أن يتأمل ويحسب ويتفهَّم ما طَرَحَ عليه الشَّاعر المُتَفَنُّنُ في هذا اللُّغز. وإذا استبانَتْ له بَلَخٌ في البيت الأوَّل وبع في البيت الثَّاني وهو طير كان معروفاً بهذا الاسم وَرَدَ ذِكْرُهُ في مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُلْتَمًا بِحِسَابِ الْجُمْلِ فيعرف أنَّ حَلَبَ بَارْبَعَيْنِ وَأَنَّ اللَّامَ وَحْدَهَا بِثَلَاثِينَ وَهِيَ ثُلُثُ الْكَلِمَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا حُرُوفُ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ أَيْضاً تُسَاوِي نِصْفَ الْارْبَعَيْنِ وهو عشرون ورُبْعُهَا وهو عشرة. ثُمَّ إِنَّ رُبْعَ حَلَبٍ يُعَادِلُ ثُلْثِي اللَّفْظِ وهما الحاء والباء اللَّذَانِ هما بعشرة.

ولا شكَّ أنَّ حِذْقَ هَذَا الشَّاعرِ فِي صُنْعِ الْأَلْغَازِ يَشْفَعُ عَنْ اسْتِعْدَادِ خَاصِّ لِلرَّمْزِ سَتَبِيْنٍ أَثَرُهُ وَمَدَاهُ عَمَّا قَرِيبَ.

وسَلَّكَ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ وَالْمُفَكِّرِينَ وَالصُّوْفِيَّةِ أَحْيَانًا هَذَا التَّهْجِ. وَقَدْ عَالَجَ ابْنُ عَرَبِيٍّ إِمَامُ الْفَلَّاسِفَةِ الصُّوْفِيَّةِ النَّاتِرِينَ مَوْضُوعَاتٍ فِكْرِيَّةً مُتَعَدِّدَةً فِي الشُّعْرِ زِيَادَةً عَلَى الشَّرِّ جَاءَتْ فِي أَشْكَالِ الْأَلْغَازِ وَالرُّمُوزِ وَهِيَ كُلُّهَا مُتَّصِلَةٌ بِجُمْلَةٍ فِلْسَفَتِهِ الْوَاسِعَةِ. يَخْتَمُ كِتَابُهُ «عَنْقَاءُ مَغْرِبٍ» بِأَبْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا الْخِيَالَ وَهِيَ مِنْ بَابِ اللَّغْزِ الْمَعْنَوِيِّ:

(١) لَا يَخْفَى عَلَى الْقَارِئِ أَنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي يُرِيدُ بِهِ الشَّاعرُ قَبِيلَةَ ذُهْلٍ وَالبَيْتَ الثَّلَاثَ يُرِيدُ بِهِ لَفْظِيَّ هَدَهْدٍ وَبَلْبَلٍ وَكِلَاهُمَا طَيْرٌ.

هَذَا وَالتَّصْحِيفُ تَغْيِيرُ صُورَةِ اللَّفْظِ فَقَطْ. وَالْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا تَقْبَلُ التَّصْحِيفَ إِلَّا ثَلَاثَةً وَهِيَ الْأَلِفُ وَالْهَاءُ وَالْمِيمُ وَيَجْمَعُهَا كَلِمَةُ هَامٍ. فَالْبَاءُ وَالتَّاءُ وَالثَّاءُ وَالتَّوْنُ وَالْيَاءُ يُصَحَّفُ كُلُّ مِنْهَا بِالْآخِرِ وَيَجْمَعُهَا قَوْلُكَ ثُبْنِي. وَكُلُّ ثَلَاثَةٍ مِنْهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ سِوَاهُ كَانَتْ مُشَابِهَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً يَجُوزُ تَصْحِيفُهَا بِالسَّيْنِ وَالشَّيْنِ وَذَلِكَ مِثْلُ تَبَتَّلَ يَصْحُ تَصْحِيفُهُ إِلَى سَلٍ وَشَلٍ كَمَا يَصْحُ تَصْحِيفُ كُلِّ مِنَ السَّيْنِ وَالشَّيْنِ بِثَلَاثَةٍ مِنْهَا. وَالْجِيمُ وَالْحَاءُ وَالْخَاءُ يُصَحَّفُ كُلُّ مِنْهَا بِالْآخِرِ، وَالدَّالُّ تُصَحَّفُ بِالذَّالِّ، وَالرَّاءُ بِالزَّايِ، وَالسَّيْنُ وَالشَّيْنُ، وَالصَّادُ وَالضَّادُ، وَالطَّاءُ بِالظَّاءِ، وَالْعَيْنُ بِالْغَيْنِ، وَالْفَاءُ بِالْقَافِ، وَالْكَافُ بِاللَّامِ؛ وَبِالْعَكْسِ فَتُصَحَّفُ الدَّالُّ بِالذَّالِّ وَالزَّايُ بِالرَّاءِ وَهَلَمْ جَرًّا.

عجبتُ لموجود حَوَى كُلَّ صُورَةٍ
ومن عالم أدنى ومن عالم عَلا
وليسَتْ سِوَاهُ لَا وَلَا هِيَ عَيْنُهُ
وَيَبْدُو إِلَى الْأَبْصَارِ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهُ
فَتَجَهَّلُهُ الْأَبَابُ مِنْ حُكْمِ فِكْرِهَا
هُوَ الْحَيُّ لَكِنْ لَا حَيَاةَ بِذَاتِهِ
فَمَنْ هُوَ خَبَّرَنِي الَّذِي قَدْ ذَكَرْتُهُ
فَهَا هُوَ مَخْفِيٌّ وَلَيْسَ بِغَائِبٍ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ سَمِعْتُمْ بِمِثْلِهِ
وَمَا يَدْرِي مَا جِئْنَا بِهِ غَيْرَ وَاحِدٍ
وَمَا مِثْلُهُ إِلَّا شَخِصٌ وَإِنِّي

من المَلَأَ الْعُلُويَّ وَالْجِنَّ وَالْبَشَرَ
ومن حيوان كان أو نَبَتٌ أو حَجَرٍ
وفي أَيِّ شَيْءٍ شَاءَ مِنْ صُورَةٍ ظَهَرَ
وَيَخْفَى عَنِ الْأَبَابِ ذَاكَ وَيَسْتَرُ
وَتُظْهِرُهُ الْأَوْهَامُ لِلسَّمْعِ وَالْبَصَرِ
تَقُومُ كَمَا قَامَتْ بِهَا سَائِرُ الصُّورِ
بِمَا قَدْ وَصَفْنَاهُ وَتَرْمِي بِهِ الْفِكْرُ
وَهَا هُوَ مَنظُورٌ وَيَخْفَى عَنِ النَّظَرِ
أَلَا فَاخْبِرُونِي إِنَّ هَذَا هُوَ الْعَبْرُ
هُوَ اللَّهُ لَا تَدْرِي بِهِ سَائِرُ الْفِطْرِ
عَجِبْتُ لَهُ مِنْ كَامِلٍ وَهُوَ مُخْتَصَرٌ^(١)

على أَنَّ الْأَلْغَازَ قَدْ تَجَاوَزَ مِيدَانَهَا مَا قَدَّمَاهُ إِذْ مَسَّتِ النَّحْوُ وَالْقَرِيبُ وَالْفِيقُ
وَالْفَرَائِضُ وَالْحِسَابُ وَأَمْثَالُهَا وَقَدْ أَشَارَ الشُّيُوطِيُّ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ حِينَ قَالَ: «وَتَارَةً يَقَعُ
الْإِلْغَازُ بِهَا مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالتَّرْكِيبُ وَالْإِعْرَابُ».

وَكُلُّ ذَلِكَ مُسْتَفِيزٌ فِي تَارِيخِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ اسْتِفَاضَةَ الْأَنْهَارِ، وَمُتَبَيِّنٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ
وَالْعِلْمِ انْتِشَارِ الْأَزْهَارِ وَالرِّيَاحِينَ فِي الْحُقُولِ الْوَاسِعَةِ. وَحَسْبُكَ أَنْ تَتَصَفَّحَ مَقَامَاتِ بَدِيعِ
الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيِّ وَمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ لِتَجِدَ فِي ذَلِكَ الْعَجَبَ الْعُجَابِ الَّذِي يُمْتَعُ الْأَبَابُ.
هَذَا كُلُّهُ عَدَا الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ خِصَّيْصِي فِي هَذَا الْبَابِ^(١).

(١) ابن عربي يَهْتَمُّ خَاصَّةً بِالْأَلْكَارِ. وَأَشْعَارُهُ خُلَاصَاتُ لِفَلْسَفَتِهِ وَأَفْكَارِهِ وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ يُرِيدُ بِهِ الْإِنْسَانَ
وَهُوَ الْعَالَمُ الْأَصْغَرُ الْمُخْتَصَرُ.

(٢) انْظُرْ كِتَابَ شَرْحِ الْأَبْيَاتِ الْمُشْكِلَةِ الْإِعْرَابِ لِلْفَارُقِيِّ الَّذِي نَشَرَهُ الْأَسْتَاذُ سَعِيدُ الْأَفْغَانِيُّ.
هَذَا وَأَخْصُ فِي مَقَامَاتِ الْهَمْدَانِيِّ الْمَقَامَةِ الْمِغْزَلِيَّةِ تُلْغِزُ فِي الْمِغْزَلِ نَثْرًا وَفِي الْمُشْطِ شِعْرًا وَهُمَا مِنْ
الْأَلْغَازِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

وَتَشْتَمِلُ الْمَقَامَةُ الْعِرَاقِيَّةُ عَلَى أَحَاجٍ فِي بَعْضِ الْأَشْعَارِ: هَلْ قَالَتِ الْعَرَبُ بَيْتًا لَا يُمْكِنُ حُلُّهُ وَهَلْ
نَظَمْتُ مَدْحًا لَمْ يَعْرِفْ أَهْلُهُ... إلخ.
وَمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ أَوْسَعُ صَدْرًا لِلْأَلْغَازِ. فَالْمَقَامَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ الْفَرَضِيَّةُ تَعْرِضُ لَغْزًا فِي مَسْأَلَةِ
فَرَضِيَّةِ.

وَالْمَقَامَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعَشْرُونَ الْقَطِيعِيَّةُ (وَالنَّحْوِيَّةُ) تَتَضَمَّنُ مَسَائِلَ مُلْغِزَةً فِي النَّحْوِ.
وَالْمَقَامَةُ الثَّانِيَّةُ وَالثَّلَاثُونَ الطَّبِيعِيَّةُ أَوْ الْحَرِيرِيَّةُ فِيهَا مِائَةُ مَسْأَلَةٍ فِقْهِيَّةٍ مُلْغِزَةٍ.

ولقد تَفَنَّنَ الْمُتَفَنُّونَ فَأَفْضَوْا إِلَى أَلْوَانٍ جَدِيدَةٍ فِي الْأَلْغَازِ، مِنْهَا هَذَا اللَّوْنُ الَّذِي يَعْرِضُهُ الْحَرِيرِيُّ فِي الْمَقَامَةِ الْمَلَطِيَّةِ وَهِيَ السَّادَسَةُ وَالثَّلَاثُونَ، وَبِمَا كَانَ هُوَ مُخْتَرَعُهُ، وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ السَّائِلُ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ وَيَطْلُبُ بَدْلَهُ لَفْظاً مُفْرَداً لَوْ جَزئِيَّ انْقَسَمَ إِلَى مَا يُعَادِلُ ذَلِكَ الْمُرَكَّبَ فِي الْأَجْزَاءِ وَيُرَادِفُهَا فِي الْمَعْنَى كَأَنْ يَسْأَلَ السَّائِلُ: مَا مِثْلُ (النَّوْمِ فَاتٍ) وَيَعْنِي بِهِ (الْكِرَامَاتِ) كَمَا يَضْرِبُ الْحَرِيرِيُّ نَفْسَهُ هَذَا الْمِثْلَ فِي مَقَامَتِهِ تِلْكَ، وَيُورِدُ عَشْرِينَ أُحْجِيَّةً مِنْ هَذَا النَّمَطِ كُلِّ أُحْجِيَّةٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ بَيْتَيْنِ مِنَ الشُّعْرِ يَجْعَلُهَا عَلَى لِسَانِ أَبِي زَيْدٍ السَّرُوجِيِّ.

لِنَسْتَمِعَ إِلَى أَبِي زَيْدٍ هَذَا يَتَحَدَّثُ فِي بَهْلَوَانِيَّةٍ عَجَبِيَّةٍ: «اعْلَمُوا يَا ذَوِي السَّمَائِلِ الْأَدَبِيَّةِ، وَالشُّمُولِ الدَّهْيِيَّةِ، أَنَّ وَضْعَ الْأُحْجِيَّةِ لِامْتِحَانِ الْأَلْمَعِيَّةِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْحَبِيَّةِ الْخَفِيَّةِ، وَشَرْطُهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتَ مُمَائِلَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، وَالْفَاظَ مَعْنَوِيَّةٍ، وَلَطِيفَةٍ أَدَبِيَّةٍ، فَمَتَى نَافَتْ هَذَا النَّمَطُ، ضَاهَتِ السَّقَطُ، وَلَمْ تَدْخُلِ السَّفَطُ، وَلَمْ أَرْكُمُ حَافِظَتُمْ عَلَى هَذِهِ الْحُدُودِ، وَلَا مِزْتُمْ بَيْنَ الْمَقْبُولِ وَالْمَرْدُودِ، فَقُلْنَا لَهُ: صَدَقْتَ، وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ، فَكُلُّ لَنَا مِنْ لُبَابِكَ، وَأَفْضَلُ عَلَيْنَا مِنْ عُبابِكَ. فَقَالَ: أَفْعَلْ لَثَلًا يَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ، وَيَطْفُؤُوا بِي الطُّنُونُ، ثُمَّ قَابِلٌ نَاضِرَةٌ الْقَوْمِ وَقَالَ:

يَا مَنْ سَمَا بِلَذْكَاءِ	فِي الْفَضْلِ وَارِي الزُّنَادِ
مَاذَا يُمَائِلُ قَوْلِي	جُوعَ أُمْدٍ بِزَادِ

ثُمَّ ضَحِكَ إِلَى الثَّانِي وَأَنْشَدَ:

يَا ذَا الَّذِي فِاقَ فَضْلًا	وَلَمْ يُدْثِشْهُ شَيْنٌ
مَا مِثْلُ قَوْلِ الْمُحَاجِي	ظَهَرَ أَصَابَتَهُ عَيْنٌ

ثُمَّ لَحَظَ الثَّلَاثَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا مَنْ تَنَائَجَ فِكْرُهُ	مِثْلَ الثُّقُودِ الْجَائِزِ
مَا مِثْلَ قَوْلِكَ لِلَّذِي	حَاجَبَتْ صَادَفَ جَائِزَهُ ^(١)

= وَالْمَقَامَةُ السَّادَسَةُ وَالثَّلَاثُونَ الْمَلَطِيَّةُ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَازِ بِالْمُقَابِضَةِ أَيْ بِمَا يُمَائِلُهَا مِنَ الْكَلَامِ.

وَالْمَقَامَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْأَرْبَعُونَ النَّجْرَانِيَّةُ تَحْوِي الْغَازَ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ.

وَالْمَقَامَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ الشَّتَوِيَّةُ تُسَمَّى اللَّغْزِيَّةَ.

هَذَا وَإِنَّ فَرْقَ الْمَقَامَاتِ قَرِيبٌ مِنْ فَرْقِ الْأَلْغَازِ: أَلَيْسَ أَبْطَالُهَا تَبْدُو فِي الْغَالِبِ مُتَخَفِيَةً مُسْتَرَّةً ثُمَّ تَكْشِفُ عَنْ حَقَائِقِهَا فِي خَوَاتِيمِهَا؟

(١) جَوَابُ الْأَوَّلِ طَوَامِيرُ وَالثَّانِي مَطَاعِينَ وَالثَّلَاثُ الْفَاصِلَةُ وَهَلَمْ جَرًّا.

إلى آخر هذه الأسئلة المُسلّية. ولا يخفى ما في ذلك من مهارة وتَرْفٍ لُغويّين يَمْلَآن
المَقامات.

إِلَّا أَنَّ العرب استعملوا نوعاً آخر من الألغاز أوسع ممّا سَبَقَ وأقرب إلى الرّمز الأدبيّ
الخالص. ولقد عقد الجلال السيوطيّ في المزهَر فصلًا في الملاحن قبل فصل الألغاز
الذي أوردنا نُتفة منه، وهو قد عَنَى بهذا اللفظ ما عناه أبو بكر بن دُرَيْدٍ إِذْ أَلَفَ كتاباً في
هذا الموضوع. «قال أبو بكر: معنى قولنا الملاحن لأنّ اللّحن عند العرب الفِطْنة. ومنه
قولُ النَّبِيِّ (ﷺ): لعلّ أحدكم أن يكونَ اللّحنَ بحُجَّتِهِ من بعض أي أفطن لها وأغوص
عليها. وذلك أن أصل اللّحن أن تُريد شيئاً فتُوري عنه بقول آخر كقول العنبريّ وقد كان
أسيراً في بكر بن وائل حين سألهم رسولاً إلى قومه فقالوا: لا تُرسل إلّا بحَضْرَتنا، لأنّهم
كانوا قد أزمعوا غَزَوْ قومه فخافوا أن يُبْذَرهم فجِيءَ بعبد أسود. فقال له: أتعقِل؟ قال:
نعم إني لعاقِل. قال: ما أراك كذلك فقال: بلى، فقال: ما هذا؟ وأشار بيده إلى اللَّيْلِ.
فقال: هذا اللَّيْلِ. قال: ما أراك عاقِلاً. ثمّ ملأ كَفَّيْهِ من الرَّمْل فقال: كم هذا؟ فقال: لا
أدري وإنّه لكثير، قال: أيما أكثر النُّجوم أم الثُّراب؟ قال: كلٌّ كثير. قال: أبلغ قومي
الثَّحِيّةَ وقلّ لهم: ليُكْرِموا فلاناً- يعني أسيراً كان في أيديهم من بكر- فإنّ قومه لي
مُكْرِمون، وقلّ لهم: إنّ العَرَفَج قد أدبى، وقد شَكَّتِ النِّساء. وأمرهم أن يُغروا ناقتي
الحمراء فقد أطلوا ركوبها وأن يركبوا جَملي الأَصْهَبَ بِأَيّة ما أكلتُ معكم حيساً واسألوا
الحارث عن خَبْري.

فلَمّا أَدَّى العبد الرسالة قالوا: لقد جُنَّ الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا
جَملاً أصْهَب. ثم سَرَّحوا العبد، ودَعَوْ الحارث فَقَصُّوا عليه القِصّة. فقال: قد أنذركم،
أمّا قوله قد أدبى العَرَفَج يريد أن الرُّجال قد اسْتَلَّامُوا ولبسوا السِّلاح، وقوله شَكَّتِ النِّساء
أي اتَّخَذت الشِّكَاةَ للسِّفر، وقوله الثَّاقَة الحمراء أي ازْتَحَلوا عن الدَّهْناء وازْكَبُوا الصَّمان
وهو الجمل الأصْهَب، وقوله بِأَيّة ما أكلتُ معكم حيساً يريد أن أخلاطاً من النَّاس قد
غَزَوْكم لأنّ الحيس يجمع الثَّمَر والسَّمَن والأَقِط.

فامْتَثَلُوا ما قال وعرفوا لَحَن كلامه.

وأخذ هذا المعنى أيضاً رجل كان أسيراً في بني تميم فكتب إلى قومه شعراً:
حُلُّوا عَنِ الثَّاقَةِ الحمراء أَرْحَلْكُمْ والبازل الأصْهَب المعقول فاضْطَبِعُوا
إِنَّ الدُّثَّاب قد اخْضَرَّتْ بِرَائِثِهَا والنَّاس كلُّهم بكر إذا شَبِعُوا

يريد أن الناس إذا أخصبوا أعداء لكم كبر بن وائل^(١).

وإذا كنت قد ذكرت القصّة كاملة فليان هذا النوع من الأدب الرّمزيّ الذي تشتمل عليه ولايضاح معنى هذين البيتين الرّمزيّين اللّذين يصحّ حملهما على التّلميح أيضاً.

ويدخل في الباب من الشعر الرّمزيّ ما جاء في أخبار أعشى همدان، وهو شاعر فصيح كوفيّ من شعراء الدّولة الأمويّة. فقد ذكر كتاب الأغاني عنه الخبر الآتي^(٢):

«وكان خالد (بن عتاب الرّياحيّ) يقول للأعشى في بعض ما يُمْنِيهِ إِيَّاه وَيَعِدُّهُ به: إن وُلِّيتُ عملاً كان لك ما دون النَّاسِ جميعاً، فمتى استعِمتُ فَخُذْ خاتمي واقض في أمور النَّاسِ كيف شئت. قال: فاستعِمتُ خالد على أَصْبَهان وصار معه الأعشى فلَمَّا وصل إلى عمله جَفَاه وتَنَاسَاهُ، ففارقَه الأعشى ورجع إلى الكوفة وقال فيه:

تُمْنِيَنِي إِمَارَتَهَا تَمِيم	وما أُمِّي بَأُمِّ بني تميم
وكان أبو سليمان أخاً لي	ولكنَّ الشُّراك من الأديم
أَينَا أَصْبَهان فَهَزَلْتُنَا	وكُنَّا قبل ذلك في نعيم
أَتَذْكُرْنَا ومُرةً إذ غَزَوْنَا	وأنت على بُعْدِكَ ذي الوُشوم
ويركب رأسه في كلِّ وَحَل	ويُعْثِر في الطُّريق المستقيم
وليس عليك إلا طَيْلسان	نصيبني وإلا سَخَق نيم
فقد أصبحت في خَزٍّ وقزٍّ	تَبْخُتر ما ترى لك من حميم
وتحسب أن تلقّاها زَمَاناً	كذبت وربُّ مَكَّة والحطيم

هذه رواية ابن النُّطاح وزاد العَنَزِيُّ في روايته:

وكانت أَصْبَهان كخير أرض	لَمُغْتَرِب وصُعلوك عديم
ولَكِنَّا أَتَيْنَاهَا وفيها	دَوْر الأَضْغان والجِقد القديم
فأنْكَرْتُ الوُجوه وأنْكَرْتُنِي	وُجوه ما تُخْبِر عن كريم
وكان سفاهة مني وجَهلاً	مسيرِي لا أسير إلى حميم
فلو كان ابن عَتَّاب كريماً	سَمَّا ^(٣) لرواية الأمر الجسيم

(١) المُزْهِج ج ١ ص ٥٦٨ - ٥٧٠.

(٢) مطبعة دار الكتب ج ٦ ص ٤٣، ٤٤ ومطبعة التَّقْدِيم ج ٥ ص ١٤٣، ١٤٤.

وقد ذكر القصّة الأستاذ شفيق جبري في كتابه «دراسة الأغاني» ونَبّه على الشعر الرّمزيّ فيها.

(٣) يقول مُحَقِّقُ الأغاني في طبعة دار الكتب لعلّها: «لذَوَابَةِ الأمر الجسيم».

وكيف رجاء من غلبت^(١) عليه تنائي الدار كالرحم العقيم
قال ابن الطّاح فبعث إليه خالد: من مرّة هذا الذي ادّعت أنّي وأنت غزونا معه
على بغل ذي وشم؟ ومتى كان ذلك؟ ومتى رأيت عليّ الطّيلسان والنّيم اللّذين وصفتهما؟
فأرسل إليه: هذا كلام أردتُ وصفك بظاهره، فأما تفسيره فإنّ مرّة مرارة ثمرة ما غرست
عندي من القبيح، والبغل المركّب الذي ارتكبه منّي لا يزال يعثر بك في كلّ وغل وجدد
ووغر وسهل؛ وأما الطّيلسان فما ألبسك أيّاه من العار والذّم، وإن شئت راجعت الجميل
فراجعتك لك. فقال: لا، بل أراجع الجميل وتراجعه. فوصله بمال عظيم وترضاه.

ولقد جاء في كتاب الأغاني أيضاً: «كان الشّعبيّ عامر بن شراحيل زوج أخت أعشى
همدان وكان أعشى همدان زوج أخت الشّعبيّ. فأتاه أعشى همدان يوماً وكان أجد القراء
للقرآن فقال: إنّي رأيتُ كأنّي أدخلت بيتاً فيه حنطة وشعير وقيل لي: خذ أيهما شئت،
فأخذتُ الشعير. فقال: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقراءته وقلت الشعر، فكان كما
قال^(٢)».

وهذه الرؤيا التي يقصّها أعشى همدان تدلّ فيما تدلّ على ميله الطّبيعيّ إلى الخيال
والرّمز. فلا عجب إذا وجدناه في شعره الذي أوردناه يُصوّر صديقه تصويراً هزليّاً في غزوة
خياليّة يقصد منها التّعريض والتّهديد والوعيد، وقد نجح في ذلك إذ ترضاه ذلك الصّدق
المُتغيّر.

يقول الفيلسوف الصّوفيّ الكبير مُحيي الدّين بن عربيّ: «إنّ الرّموز والألغاز ليست
مرادةً لنفسها وإنّما هي مرادة لما رمزت له ولما ألغز فيها^(٣)». فالتّعبير فيها إذن ليس
مباشراً والألغاز التي تتألف منها تكاد تكون مُستعملة في غالب الأحيان في غير ما وُضعت
له أو غير ما شاع استعمالها فيه.

ونحن نتناول موضوعنا من هذه الوجهة، فننظر إلى التّعبير عن الأفكار والمعاني
بأسلوب من الأساليب غير المباشرة ونَتَسَمَّح باستعمال الرّمز ونَتَوَسَّع بدلالته مُتجاوِزين
نطاقه الخاصّ. ولقد فرّق كثير من المُفكرين الحديثين بين الإشارة والرّمز فاعتبروا الرّمز
حاصلاً عندما يقع شبه بين المرموز به والمرموز إليه^(٤). بل يُقابل بعضهم بين الرّمز

(١) التّائيت لإضافة الفاعل وهو تنائي إلى الدّار المؤنّثة.

(٢) مطبعة دار الكتب ج ٦، ص ٣٤، مطبعة التّقْدُم ج ٥، ص ١٣٩.

(٣) فتوحات ج ١، ص ١٨٩. نَعْتَمِد على طبعة ١٣٢٩ هـ.

(٤) انظر لفظ Symbole في مُعْجَم لاند الفلسفيّ.

والإشارة. فالرّمز عند هؤلاء يُمثّل تصوّراً ولكنّ الإشارة تدلّ على أمر مُفرد أو شيء مُعيّن أو تحفّز على فعل^(١). وسنرى عمّا قليل كيف عمد علماء البلاغة العرب إلى تخصيص الرّمز في نطاق ضيق عند بحثهم للكناية وأنواعها. بيدّ أنّنا هنا نأخذ الرّمز بوجه عامّ على أنّه أسلوب من أساليب التّعبير لا يُقابل المعنى ولا الحقيقة وجهاً لوجه. فنحن هنا نجري بهذا الاعتبار مع ابن عربيّ، ومع الفيلسوف هيغل الذي قدّمنا قولاً له في هذا الشّأن، ومع المُفكّر الأمريكي الحديث توماس مونرو في عدَم تفرّيقه بين الرّمز والإشارة عند بحثه لقضيّة الرّمز^(٢).

لنتأمّل الآن في الشّعْر العربيّ عناصر التّعبير التي لا تُواجه الفكرة مباشرة وإنّما تُخاطبها من وراء حجاب وتعبّرُ إليها على طَوف أو رمث من الألفاظ أو تُفضي إليها بأساليب أنيقة مُختارة وبسُبل طريفة جانيّة. هنا في الحقيقة يكمن سرّ من أسرار الإبداع الفنّي والابتكار الأدبيّ وهو أنّ تلك الأساليب والسُبل هي من اختراع الشّاعر تتّصل بخياله وإحساسه وثقافته كما تتّصل بطبيعة الموضوع ونوعيته وبهذا الحوار الخفيّ الفنّي بينهما وهو الذي يبدو في أشكال تعابير أصيلة مُبتكرة مُفردة تنقل ذلك الموضوع من صفته الطّبيعيّة العاديّة إلى رفعة الفنّ وتصوغه صوغاً ممتازاً. ولكنّ الفنّ ليس كلّ ذلك الابتكار المُفرد الأصيل دائماً، بل هو يشتمل على نصيب كبير من الصّناعة وعلى ما تُؤدّي إليه هذه الصّناعة الفنّيّة من تأكّد بعض الطُّرُق في التّعبير لا تلبّث أن تُصبح بمثابة القواعد والأصول. وتكون هذه الطُّرُق أوّل الأمر جديدة فيستفيد الفنّانون من جذّتها في استفاد ما تُؤدّيه من مُتّع فنّيّة وطُرق جماليّة لأنّ سلوك هذه الطُّرُق أسهل دائماً من الابتكار المُتّصل بظروف اجتماعيّة وثقافيّة عامّة وبمواهب الفنّانين وعَبَقريّاتهم الغامضة العميقة الخاصّة.

من تلك الطُّرُق المسلوكة المُتداوِّلة في الشّعْر ما نجده من قواعد بيانيّة وبديعيّة في كلّ أدب تُفيد في التّثقيف وفي الدّراسة بمقدار ولكنّها تنأى بمُجرّد كونها قواعد عن أصالة البيان وروح الفنّ. ثمّة تنافض بين هذه الأشكال الأدبيّة المرسومة والحليّ البيانيّة المصوّغة وهي جامدة كالقوالب وكالأجسام وبين الرّوح الجماليّة التي تُعطي تلك الأجسام حياتها الخاصّة المُفردة والتي لا يُمكن رَجْعُها إلى تلك القواعد ولا حَضْرُها في تلك القوالب المُقيّدة. ومع ذلك تصبح تلك الأشكال جانباً من الثّراث الأدبيّ لا بدّ من الاطّلاع

E. Cassirer, An Essay on Man, p.30.

(١)

Thomas Munro, Suggestion and Symbolism in the Arts, in «Journal of Aesthetics and Art Criticism» (٢) dec., 1956.

عليه لتبيين مراحل تطوره العام وخصائصه. وهكذا لا بد لنا من تأمل تلك العناصر البيانية التي هي طرق غير مباشرة للتعبير والتي كان لها شأن كبير في الشعر العربي عامة وفي الشعر الرمزي خاصة.

لقد درس علماء البيان والبدیع تلك الطرق واستقصوا أشكالها استقصاء بعيداً وهي معروفة عند المتأدبين. وإننا نورد بعضها ونغفل على عمد اختلاف علماء البلاغة في اعتباراتهم التفصيلية في كل نوع من أنواع البيان والبدیع ونقتصر على توخي أسلوب التعبير في بعض الأمثلة المتداولة.

لقد فرّق علماء البيان بين الحقيقة والمجاز. فالحقيقة عندهم «الكلمة المستعملة فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح به التخاطب» والمجاز ما استعمل فيما لم يكن موضوعاً له.

وللمجاز أقسام. فالمفرد الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعَتْ له في اصطلاح به التخاطب، على وجه يصح، مع قرينة عدم إرادته؛ والمجاز عندئذ استعارة إن كانت علاقته المشابهة وإلا فهو مرسل.

والمركب اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، ويسمى هذا النوع من المجاز التمثيل على سبيل الاستعارة. وقد يسمى التمثيل مطلقاً من غير تقييد. ومتى فشا استعماله سمي مثلاً.

ثم نجد الكناية بين أساليب التعبير غير المباشرة وهي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه معه.

وهي تتفاوت عند السكاكي إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة. وهذه أقسام تتداخل وتختلف باختلاف الاعتبار من الوضوح والخفاء وقلة الوسائط وكثرتها.

فالتعريض إمالة الكلام إلى غرض يذلل على المقصود. يقال عرضت لفلان وبلغان إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه فكأنك أشرت به إلى جانب وتريد به جانباً آخر. وإذا كثرت الوسائط بين اللازم والملزوم فهو التلويح. وإن قلت الوسائط مع خفاء في لزوم كان الرمز لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية لأن حقيقة الإشارة بالشفة أو الحاجب وذلك يكون عند قصد الإخفاء، وإن كانت قلة الوسائط بلا خفاء كان ذلك إيماء وإشارة.

فالمجاز والاستعارة والكناية والفروع التي ترجع إليها طرق لا تقابل الحقيقة وجهاً لوجه وهي كلها ذات مكانة في الأدب لأن أسلوب التعبير الذي تعتمد عليه يعنى بالكيفية خاصة.

ونحن نحَبُّ أن نذكر «من لطائف الكنايات قول بعض العرب:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
سألت الناس عنك فخبروني هناة ذاك تكرهه الكرام
وليس بما أحلَّ الله بأس إذا هو لم يُخالطه الحرام»^(١)

فقد أحبَّ هذا الشاعر امرأة وأراد أن يتزوَّجها فلمَّا سأل عنها بَلَّغَه من أخبارها ما لم يحمَّده فقال الأبيات. يقول ابن حِجَّة الحمويُّ عن الشاعر: «كنى بالنخلة عن المرأة وبالهناة عن الرَّفث. فإنَّ العرب كانت تكني بها عن مثل ذلك. وأمَّا الكناية بالنخلة عن المرأة فمن ألطف الكنايات»^(٢).

وفي علم البديع أنماط مُتداوِّلة ومُتعارِفة لا تَشِفُّ مباشرة عن الغرض فهي تُظهر شيئاً وتُبطِّن آخر أو تَخْلَع غموضاً على المُراد بحيث يَبْقَى المُتأمل يَتَبَيَّن المسالك إليه في جوِّ أقرب إلى السُّدفة أو السَّديم والعماء ويجد في ازدواج المعاني وغموضها واستشفافها متاعاً أيَّ متاع.

لنذكر هنا التَّورية أو الإيهام أو التَّخيل وهي ألفاظ دلالتها واحدة أو مُتقاربة حسب الباحثين وذلك أن يذكر الشاعر ألفاظاً لها معانٍ قريبة وبعيدة فإذا سَمِعَهَا الإنسان سَبَقَ إلى فهمه القريب ومُراد المُتكلِّم البعيد. نُورد بعض الأمثلة هنا لأنَّ التَّورية أدخل أشكال البديع في باب الرَّمز الذي نَقصده.

يقول عمر بن أبي ربيعة:

أيُّها المُنكِح الثُّريا سُهَيْلاً عمرك الله كيف يَلْتَقِيَان
هي شاميَّة إذا ما استقلَّتْ وسُهَيْل إذا استقلَّ يَمَانِي^(٣)

ويقول المُتنبِّي:

برغم شبيب فارق السَّيفُ كَفَّهُ وكانا على العِلاتِ يَصْطَحِجان^(٤)

(١) (٢) خزانة الأدب لابن حِجَّة ص ٤٤١. وابن حِجَّة من البديعيين. ويصُحُّ اعتبار استعمال النخلة هنا من باب الاستعارة والمجاز.

(٣) الثُّريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد والقريب المورى به ثُريا السَّماء. وسُهَيْل هو سُهَيْل بن عبد الرَّحمن بن عَوْف من اليمن وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه والمعنى القريب المورى به هو النَّجم المعروف.

(٤) «يريد أن كَفَّ شبيب وسيفه مُتَنافِران فلا يَجْتَمِعان لأنَّ شَبِيهاً كان قَيْساً والسَّيف يُقال له يَمَانِي فوري =

كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقَكَ قَيْسِي وَأَنْتَ يَمَانِي
وَيَقُولُ الْمَعْرِيُّ:

إِذَا صَدَقَ الْجَدُّ افْتَرَى الْعَمُّ لِلْفَتَى مَكَارِمَ لَا تَخْفَى وَإِنْ كَذَبَ الْخَالُ^(١)
وَيَقُولُ الْحَرِيرِيُّ:

يَا قَوْمَ كَمْ مِنْ عَاتِقٍ عَانِسٍ مَمْدُوحَةِ الْأَوْصَافِ فِي الْأَنْدِيهِ
قَتَلَتْهَا لَا أَتَّقِي وَارِثاً يَطْلُبُ مِنِّي قَوْداً أَوْ دِيهِ
يُرِيدُ بِالْعَاتِقِ الْعَانِسِ الْخَمْرَ وَيَقْتُلُهَا مَرْجُها.

على أَنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ أَكْثَرُوا مِنَ التَّوْرِيَةِ وَأَشْبَاهُهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِ حَتَّى فَاقُوا
الْمُتَقَدِّمِينَ. وَمِنْ أَهَمِّ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ اضْطَنَعُوا التَّوْرِيَةَ وَأَكْثَرُوا مِنْهَا ابْنُ نُبَاتَةَ الْمَصْرِيِّ حَتَّى
إِنَّ شِعْرَهُ لَيَأْخُذُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ طَابِعاً رَمِيزاً.

ويذكرُ صاحب «المَثَلِ السَّائِرِ» فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ فَضْلاً فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَعْنَانِي
وَتَأْوِيلِهَا فَيَجِدُ أَنَّهُ «لَا يَخْلُو تَأْوِيلُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا
يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ، وَإِمَّا أَنْ يُفْهَمَ الشَّيْءُ وَغَيْرُهُ، وَتِلْكَ الْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدّاً أَوْ لَا تَكُونَ
ضِدّاً. وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ. فَالْأَوَّلُ يَقَعُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي الدَّقَّةِ وَاللِّطَافَةِ
مَجْرَى الْقَسَمِينَ الْآخَرِينَ. وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَلِإِنَّهُ قَلِيلُ الْوُقُوعِ جَدّاً وَهُوَ أَظْرَفُ التَّأْوِيلَاتِ
الْمَعْنَوِيَّةِ لِأَنَّ دَلَالََةَ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى وَضِدُّهُ أَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَغَيْرِهِ مِمَّا لَيْسَ
بِضِدِّهِ... وَيَجْرِي عَلَى هَذَا التَّهَجُّجِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ يَمْدَحُ كَافُوراً:

وَأَظْلَمُ أَهْلَ الظُّلَمِ مِنْ بَاتِ حَاسِداً لِمَنْ بَاتَ فِي نِعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهَذَا الْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَانِ ضِدَّانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسَدُ الْمُنْعِمَ وَالْآخَرُ
أَنَّ الْمُنْعِمَ يَحْسَدُ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضاً فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ:

فَإِنْ نَلْتُ مَا أَكَلْتُ مِنْكَ فَرَبِّمَا شَرِبْتُ بِمَاءِ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وَرُدُّهُ

= به عن الرجل المنسوب إلى يمن ومعلوم ما بين قيس ويمن من التنافر، خزانة الأدب للحموي
ص ٢٩٦.

(١) فَإِنَّ الْفِكْرَ يَذْهَبُ إِلَى الْأَقَارِبِ وَمُرَادُهُ بِالْجَدِّ الْحِظُّ وَبِالْعَمِّ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ وَبِالْخَالِ الْمَخِيلَةُ، وَلَا
تَخْفَى فِي الْبَيْتِ مِرَاعَاةُ النَّظِيرِ.

هَذَا وَإِنَّ بَيْتَ الْمَعْرِيِّ كَاللُّغْزِ وَقَدْ ذَكَرْنَا لَهُ لَغْزاً فِي الْإِبْرَةِ وَلَغْزَهُ ذَاكَ إِنَّمَا يَقُومُ أَيْضاً عَلَى التَّوْرِيَةِ.
وَإِنَّ قِسْماً كَبِيراً مِنَ الْأَلْغَازِ - كَمَا لَا يَخْفَى - يَقُومُ عَلَى التَّوْرِيَةِ أَوْ الْإِيهَامِ.

فإنَّ هذا البيت يَحْتَمِلُ مَدْحاً وَذَمًّا وَإِذَا أَخَذَ بِمُقَرَّدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَا قَبْلَهُ فَإِنَّهُ
يَكُونُ بِالذَّمِّ أَوْلَى مِنْهُ بِالْمَدْحِ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِالْبُعْدِ وَالشَّدَوِذِ وَصَدَرَ الْبَيْتُ مُفْتَتِحَ
بَيَانِ الشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ أُجِيبَ بِلَفْظَةِ رَبِّ الَّتِي مَعْنَاهَا التَّقْلِيلُ أَيْ لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ^(١)
فَإِنَّ نَلْتَهُ فَرِيئًا وَصَلْتُ إِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الطَّيْرُ لِبُعْدِهِ وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى مَا قَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ
دَلٌّ عَلَى الْمَدْحِ خَاصَّةً لِرَتْبَاتِهِ بِالْمَعْنَى الَّتِي قَبْلَهُ . . . ».

ثُمَّ يُورِدُ الْمُؤَلِّفُ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ بَابِ احْتِمَالِ الْبَيْتِ مَعْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ :
بِالشَّعْرِ طُولٌ إِذَا اضْطَرَّكَتْ قِصَائِدُهُ فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرٌ
«فَهَذَا الْبَيْتُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ الشَّعْرَ يَتَّسِعُ مَجَالَهُ بِمَدْحِكَ وَيَضِيقُ بِمَدْحِ
غَيْرِكَ ، يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ مَآثِرَهُ كَثِيرَةٌ وَمَآثِرُ غَيْرِهِ قَلِيلَةٌ ، وَالْآخَرُ أَنَّ الشَّعْرَ يَكُونُ ذَا فَخْرٍ
وَنَبَاهَةٍ بِمَدْحِكَ وَذَا خُحْمُولٍ بِمَدْحِ غَيْرِكَ فَلَفْظَةُ الطُّولِ يُفْهَمُ مِنْهَا ضِدُّ الْقِصَرِ وَيُفْهَمُ مِنْهَا
الْفَخْرُ مِنْ قَوْلِنَا طَالَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ أَيْ فَخِرَ عَلَيْهِ . وَمِمَّا يَنْتَظِمُ بِهَذَا السَّلْكِ قَوْلُ أَبِي كَبِيرٍ
الْهَذَلِيِّ :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ^(٢)
وَالْبَلَاغِيُّونَ مِنْ مَدْرَسَةِ السَّكَاكِيِّ يُسَمُّونَ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْبَدِيعِ التَّوْجِيهِ لِاحْتِمَالِ
الْمَعْنَى وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، وَيُسَمِّيهِ غَيْرُهُمُ الْإِبْهَامَ .

وَكَذَلِكَ نَحْبُ أَنْ نُشِيرَ إِلَى مَا يُدْعَى الْقَوْلَ بِالْمَوْجِبِ :
لَقَدْ بُهْتُوا لَمَّا رَأَوْنِي شَاحِبًا فَقَالُوا بِهِ عَيْنٌ فَقُلْتُ وَحَاجِبٌ
وَلَا نَسَّ تَأْكِيدَ الْمَدْحِ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ وَتَأْكِيدَ الذَّمِّ بِمَا يُشَبِّهُ الْمَدْحَ وَالِاسْتِخْدَامَ
وَالْمُبَالَغَةَ وَالْإِغْرَاقَ وَالْعُلُوَّ وَأَمْثَالَهَا فَكُلُّ ذَلِكَ يُبَاعِدُ عَنِ الْوُصُولِ الْمُبَاشَرِ إِلَى الْمَعْنَى لِإِعْلَافٍ
مِنَ الْعِلَالِ الْفَنِّيَّةِ . بَلْ كُلُّ الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ حِينَ تَسْتَرَعِي النَّظَرَ وَتَصْرِفُهُ نَحْوَ زُخْرُفِ
الصُّورَةِ وَبَهْرَجِ الشَّكْلِ تَحُولُ وَلَوْ بُرْهَةً عَنِ التَّفْوِذِ إِلَى الْمُرَادِ كَالْعُضُودِ الَّتِي قَدْ تُصَنِّعُ عَلَى
سَطْحٍ مِنَ الْبَلُّورِ أَوْ تَتَكَوَّنُ عَلَى سَطْحٍ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي تَمْنَعُ الشُّفُوفَ عَمَّا يَرْتَسِمُ وَرَاءَهَا .

(١) يُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ إِلَى أَنَّ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ تُفِيدُ الشَّكَّ فِي الْمَعْنَى وَإِنْ جَزَمْتَ فِي اللَّفْظِ عَلَى خِلَافِ إِذَا الَّتِي
تُفِيدُ الْجَزْمَ وَإِنْ لَمْ تَجْزَمْ . وَقَدْ أَلْغِزَ فِي ذَلِكَ الزَّمْخَشَرِيُّ :

فَإِذَا شَكَّكَتُ رَأَيْتُمُونِي جَازِمًا وَإِذَا جَزَمْتُ فَلَأَنْتِي لَمْ أَجْزَمْ
(٢) انْظُرْ شَرْحَ الْبَيْتِ فِي ص ١٥٨ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا .

على أَنَّ هذا الاتجاه نحو زخرفة الأساليب وتزيين العبارات أمر معروف في جميع اللغات. وذلك أَنَّ التعبير بوجه العموم إمّا أن يهتم بوصف الواقع والطبيعة وإما أن يعني بالإعراب عن قضايا الفكر وإمّا أن يتّجه إلى النّظر فيما بين الألفاظ ومعانيها من علاقات مُشْتَبِكَة مُتَفَاوِتَة ويقصد في ذلك إلى التّأليف بينها بسبب تلك العلاقات والإفضاء إلى صِناعة بريقها يلهمي البصر وجرسها يُطرب السّمع وفنّها يُمتع الفكر، وقد دَعَوْنَا فيما سَلَفَ هذا الاتجاه الذي يُعوّل على الصّناعة والبديع بالفنّ البراق تشبيهاً بفنّ الباروك في تاريخ العمارة ووجدنا أَنَّ أوج هذا الفنّ في الشّعْر العربيّ إنّما يُمثّله أبو تمام وجَلَوْنَا عناصر هذا الفنّ إذ ذاك. ولا شكّ أَنَّ قصد الزّينة والزّخرف في البيان إنّما يُوازي تطوُّراً اجتماعيّاً عميقاً في الحضارة يحتاج إلى استقصاء تاريخيّ طويل. ومن المُناسِب أن نربط في الحين بعد الحين بين الخصائص الفنيّة والمراحل الاجتماعيّة.

ويطيب لنا هنا أن نعود فنؤكد تَرَف ذلك العصر الذي كانت تُجَبّى فيه كنوز الدُّنيا إلى خزائن الخلافة العبّاسيّة^(١) فلا غرو إذا تَفَنَّن الخلفاء لعهد أبي تمام والعهود التي تليها في أنواع الزّينة والأبهة والزّخرفة. لقد سلف أن ضربنا مثلاً على ذلك زواج الخليفة المأمون لبوران بنت الحسن بن سهل. واستمرّ التّرف طاغياً. وحسبنا أن نُنوّه بما رُوِيَ بعد أمد عن عرس قطر اللّدى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون حين رُفّت إلى الخليفة المعتضد سنة ٢٨٢ هـ.

لقد كانت البلاد العربيّة الإسلاميّة غرّة الأرض ومنازلها في العلم والثّقافة والغنى والغناء. كان النّاس في أقاصي الشّرق يُعجّبون ببلاد الصّين وحضارتها. ولكنّهم كانوا يدعون البلاد العربيّة إذ ذاك «الصّين الكُبرى» نظراً لحضارتها الفاتكة.

فلا عَجَب إذا اتّجه البيان إلى اعتماد المجاز والاستعارة والمُحسنات البديعية وسائر ألوان الزّخرفة.

على أَنَّ شرح شُيُوع تلك المُحسنات البديعيّة بالأسباب الاجتماعيّة وحدها غير كافٍ، فلا شكّ أَنَّ الفنّ نفسه يحمل في تضاعيفه بُدور تطوّره. ولقد كنّا قائلين بين الفنّ الاتّباعيّ والفنّ البراق في الشّعْر العربيّ مُقابلة تكاد تكون كافية. ثمّ إنّ المواهب الشّخصيّة والاستعداد الفُنيّ والفكريّ لدى الشّاعر كلُّ ذلك له اتّصال بالتّعبير، ولا شكّ أَنَّ ثمة طبعاً

(١) تتناقل كُتُب التّاريخ اتّساع مقدار الجباية الخراجيّة في عهد المأمون كما أثبتّه ابن خلدون في تاريخه، وكذلك اتّساعه في عهد المُعتصم كما أورده قُدّامة بن جعفر في كتابه «الخِراج».

للشعراء بعضها أقرب إلى التعبير الاتباعي وبعضها ألصق بالصياغة والزخرف، وإن كان كل ذلك لا بد من أن يتأثر بالعصر نوعاً من التأثير. فمؤهبة البحتري الذي كان تلميذاً لأبي تمام مؤهبة اتباعية، فهو لم يخرج عن عمود الشعر وإن كان شعره يحمل ألواناً من الزخرف والبديع لا نكاد نشعر بها لقربها من الطبع ولصوقها بالسليقة؛ إن أبا تمام كان مهندساً معمارياً في الشعر إن جاز لهذا التشبيه على حين كان البحتري موسيقياً صرفاً.

ولكن الصناعة والزخرف اللذين راجا في عصر أبي تمام كانا شديدي الاتصال بالمعاني. ولقد كان حبيب حريصاً على توليد المعاني كحرصه على تلوين الأسلوب وإبتكار أشكال التعبير. لم تكن الصناعة مقصودة لذاتها إذ ذاك، إلا أن تطوّر الأساليب البيانية وتبدّل الحياة الاجتماعية أفضيا بعد ذلك إلى اتّخاذ تلك الصناعة الشكلية هدفاً حتى إن روح البيان غاضت شيئاً فشيئاً وراء تلك الزينة الظاهرية، وأصبح الشاعر كالصانع يصنع أشكالاً من الزينة كان قد درسها في كتب البلاغة ويحلّي بها ما شاء من دُمى الأغراض الفنية التي يسعى نحوها.

ولاعتماد أبي تمام الصناعة كان أقرب الشعراء الكبار طريقة من الرمز دون أن يكون هو رمزياً، وذلك أنه بالغ في اضطناع الاستعارة والتلميح والمُحسّنات البديعية المعنوية واللفظية، فخرج بعض أشعاره غامضاً يحتاج إلى التفكير والإمعان والتأويل، ولكن الشعر انتهى بعد ذلك إلى صناعة صرف ضاع المعنى بين اشتباك أشكالها واختلاط ألوانها.

إن عدم مواجهة الحقيقة مباشرة والقصد إليها بطرق مُستعارة متعرجة والرمز إليها والتلويح بها والتعريض بالمقصود كل ذلك لا بد أن يرجع إلى أسباب. وقد أشرنا فيما سبق إلى سببين كبيرين: أحدهما تطوّر الأدب وانتقاله من الشكل الاتباعي إلى الشكل البراق وهو سبب داخلي مُحايث إذا صحّ أن نستعمل هذا اللفظ الفلسفي هنا، والآخر اجتماعي وهو تقدّم الحضارة والرغبة في الزينة والزخرف وتلمّس ذلك في البيان فهو خارجي بالنسبة إلى الأدب والشعر. بيد أن الرغبة في الكتمان وإيثار الإشارة والعزوف عن العبارة الصريحة يجوز أن يكون لها أسباب أخرى. ولقد أبانت مدارس التحليل النفسي الحديثة بما فيه الكفاية شأن الفن عامة في تحقيق عواطف الحب ونزعات الليبدو على حدّ اضطلاعهم، وعالج المؤلفون الحديثون آثار كثير من الشعراء والفنانين وربطوا بينها وبين حياة هؤلاء نوعاً من الربط وطبّق فرويد طريقته على الشاعر الألماني غوته ودرس خاصّة ما قصّه الشاعر في كتابه «الشعر والحقيقة Dichtung und Wahrheit» فتبيّن في الكتاب صوراً غير مباشرة لحوادث عاشها الشاعر في صباه. كذلك عمد فرويد إلى تحليل القصص الشعبية ووجد أنها تُمثّل في الغالب بطلاً يجمع الفضائل المحمودّة والشّمائل

المحبة هو موضع اهتمام القارئ وإعجابه وحبّه، وهو يُقِلّت من الأشرار والمصائب إفلتاً عجيباً، يخونه أشرار الناس ويعينه أحيارهم وتكلف به النساء ويهمن بحبّه. ولكنّ هذا البطل لو تأملناه وتبيناه لظهر لنا أنّه رمز إلى صاحب الجلالة «الأنا» بطل الأحلام الثّهارية وبطل الروايات جميعها.

وكم تتّضح فحوى الآثار الفنّية إذا أولّيناها انتباهنا وأنزنا تعاريجها ومدخلها الغامضة الملتوية بنبراس التحليل. وثمة أساطير وأخبار وعادات شعبية يأخذها الفنّانون ويُسَدِّبونها ويُعالجونها مُعالجة جديدة طريفة، ولكنّها بعد الفحص تبدو بقايا أوهام ورغبات شعبية وقومية وسُور أحلام الإنسانيّة الأولى تبدّلت وتبوّأت منزلة الرّموز واكتسبت قيمتها.

وكذلك بحث المُفكّر الكبير كارل غستاف يونغ أحد أقطاب التحليل النّفسانيّ قضية الفنّ والإلهام بعد أن صنّف الاتجاه النّفسيّ في الأشخاص صنفين: المُنطوي والمُنْبسط، وبحث قضايا الشّعور والأشعور كما هو مشهور ومُتعلّم. وهو يرى أنّ الإبداع الفنّيّ في مدى وعينا لحصوله يقوم على بعث الرّموز الإنسانيّة الخالدة المدفونة في غياهب اللاّشعور الجمعيّ وعلى صوغها وتهيتها واستكمالها حتى تبلغ الإمتاع والإعجاب. «وكانّ الذي يستعمل تلك الصّور الأولى يتحدّث بألف صوت إن جاز هذا التعبير، فهو يعي ويدبّر هذا الذي يتحدّث عنه ناقلاً صفته المُفردة الزائلة إلى نطاق الدّوام السّرمّد. إنّهُ يرفع المقدار الشّخصيّ إلى رتبة مقدار الإنسانيّة، مُطلقاً في كلّ إنسان هذه القوى النّصيرة التي كثيراً ما أمدّت النّوع الإنسانيّ فتجا وعاش بعد دامس الظّلام المُتطاوّل... وفي هذا يكمن سرّ الفنّ»^(١).

ويرى يونغ أنّ الفنّان غالباً ما يكون موقفه من الرّؤى والصّور والرّموز التي تُطالعه من اللاّشعور موقّف المُشاهد المُتفرّج أو المُنفعل فقط فينقلها نقلاً ليس غير. هذا وقد يكون الفنّان في حياته الخاصّة من صنف نفسيّ وفي عمله الفنّيّ من صنف آخر. وبهذا يُفسّر الطّبيب السّويسريّ الاختلاف الذي قد يقع بين الأثر الفنّيّ وبين حياة الفنّان حين لا يُصوّر هذا في آثاره حياته التي يحيها بل يُحلّق في أجواء تختلف عمّا يلقى ويُمارس ويكابد كأنّ أثره إذ ذاك يُقدّم له تكملة وعوضاً وبديلاً، إذ ليس صحيحاً أنّ الأثر الفنّيّ يُصوّر حياة صاحبه دائماً.

(١) انظر كتابنا «تمهيد في علم الاجتماع» ١٩٦٤ ص ٤٧٤.

وكذلك جرى المُفكرُ الفرنسيُّ شارل لالو على دراسة العلاقات بين الآثار الفنيّة وحياة مؤلّفيها فصنّفها في خمس عُقدٍ نفسيّة فنيّة بعضها يجعل تلك الآثار بعيدة عن حياة مؤلّفيها فهي لا تصنفها وإنّما هي تعويض وتكملة وتجاوز أو مُجرّد صناعة وفنّ، وبعضها يجعل تلك الآثار تشفّ عن حياة أصحابها فهي توكيد لمشاعرهم أو تصريف لعواطفهم وتصنيّة لأهوائهم وتداوٍ بالبُوح والاعتراف إلى آخر ما قرّره المؤلّف في كتبه.

ويجنح المُفكرُ الفرنسيُّ غستون بشلار إلى إظهار طبائع الخيال الأربع وهي الخيال الثّاريّ والهوائيّ والمائيّ والثّرابيّ ويتلمّس الرّموز في الاستعارات الفنيّة والأخيلة الأدبيّة والشّعريّة في كُتب مُتعدّدة. وقد درس في بعضها مثلاً خيال الشّاعر الإنكليزيّ شيلي وكتب عن الشّاعر الأمريكيّ إدغار آلن بو مُقتضياً في تحليل عُقد هذا الشّاعر مدام بونابرت التي قصرت كتاباً عليه. وكلّ هذا طريف ومفيد نحتاج إلى معرفته والإلمام به كما نحتاج إلى إنشاء دراسات مُبتكرة مُنهّمة في مضمار أدبنا العربيّ الواسع.

تفاريح:

على أنّنا هنا في بحثنا إلى التّخطيط وإبراز خِصب الموضوع أقرب منا إلى استقصاء الأحوال واستيفاد عناصر الدّراسة. ذلك أمر يفتقر إلى بُحوث خاصّة في كلّ شاعر أو موضوع لا إلى بحث عامّ مجمل يكتفي بالإشارة إلى كنوز الثّراث العربيّ وسعته الكبيرة.

ولا بدّ لنا في هذه المرحلة التي بلغناها من البحث من أن نُبرز تشعّب المسالك أمام الرّمز وأنّ نُظهر تشابك فروعه كما تشابك الأغصان الجميلة المزهرة وتتهذّل العناقيد والقنوان الزّكيّة الشّهية في الدّوح والكروم والتّخيل، أو كما تتمايز الحلى والمحاسن وتتجاوب على كلّ حسناء فاتنة.

ففي الأدب الصّرف يتّسع الكلام إذا تعقّبنا الرّمز وإخفاء القصد والتّغطية فوق ما ذكرناه آنفاً، ولذلك نقتصر على تناول فكرة شعريّة تداولها شعراء العرب ووقفوا منها موقفاً مُتفاوتاً وهي فكرة كتمان الحبّ أو البُوح به. ذلك أنّ كتمان السرّ وعدم البُوح به عادة من عادات الحبّ العذريّ صيانة للحبيب أن تمسّه الأراجيف واحتياطاً من أجله وضئاً به ونفاسةً وتقيةً ولأنّ الحبّ بلغ من القوّة مبلّغاً لا يناله البيان ووصل من السّموّ درجة تجلّ عن الإعلان. يقول كثيرٌ سالكا نهج العذريّين:

وقد زعمت أنّي تغيّرت بعدها ومنذا الذي يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر حالي والخليقة مثلما علمت ولم يُخبز بسرّك مُخبّر

وكذلك يكون الكتمان إشفاقاً من الوُشاة :

يا وإشياً حَسُنْتَ فِينَا إِسَاءَتَهُ نَجَى حَذَارِكَ إِنْسَانِي مِنَ الْغَرَقِ

ولذلك لزم تفضيل الرُقَبَاء. تُوصي حبيبة ابن أبي ربيعة الشاعر قائلة على لسانه :

إِذَا جِئْتَ فَاَمْنَحْ طَرَفَ عَيْنِكَ غَيْرِنَا لَكِي يَحْسَبُوا أَنَّ الْهُوَى حَيْثُ تَنْظُرُ

ويكون الصَّدُّ مُتَعَمِّداً عند اللقاء لإخفاء ما تُفْصِح به العيون من المَوَدَّة :

صَدَدْنَا كَأَنَّا لَا مَوَدَّةَ بَيْنَنَا عَلَى أَنَّ طَرَفَ الْعَيْنِ لَا بَدْءَ فَاضِحِ

ومدَّ إِلَيْنَا الْكَاشِحُونَ عَيْوَنَهُمْ فَلَمْ يَبْدُ مِنَّا مَا حَوَّنْهُ الْجَوَانِحِ

وصافحتُ مِنْ لَا قِيَّتْ فِي الْبَيْتِ غَيْرَهَا وَكُلُّ الْهُوَى مِنِّي لِمَنْ لَا أَصَافِحِ

أو يَجْرِي التَّفَاهُمُ بِالْإِشَارَةِ وَالْأَلْحَاطِ وَبِحَدِيثِ خَفِيِّ يَصِلُ الضَّمِيرُ بِالضَّمِيرِ كَمَا يَقُولُ

حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ :

يَصَدَّنِي عَنْ كَلَامِكَ الشَّفَقِ فَالرُّسُلُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْحَدَقِ

حَدِيثُنَا فِي الضَّمِيرِ مُتَّفَقِ وَأَمَرْنَا فِي الْجَمِيعِ مُفْتَرِقِ

تُوحِي بِأَسْرَارِنَا حَوَاجِبُنَا وَأَعْيُنٌ بِالْوِصَالِ تَرْتَشِقِ

وإذا كان الأمر كذلك عند النَّظَرِ والمُصَافَحةِ فالأولى أيضاً التَّغْطِيةُ وعدم التَّسْمِيةِ أو

المُغَالَطَةُ فِي التَّسْمِيةِ عند النَّسِيبِ. وقد أصبحت فكرة الكتمان والمُؤَاوِبةِ مُتَّكِأً يَتَكَيُّ عَلَيْهِ

الشُّعْرَاءُ وَمَجَالاً لِلتَّقْنُنِ. وَيُلْخِصُ هَذَا الْإِتِّجَاهُ بِهَاءِ الدِّينِ زُهَيْرٍ حِينَ يَقُولُ :

سَمِيتُ غَيْرَكَ مَحْبُوبِي مُغَالَطَةً لَمَعَشَرَ فَيْكَ قَدْ فَاهُوا بِمَا فَاهُوا

أَقُولُ زَيْدٌ وَزَيْدٌ لَسْتُ أَعْرِفُهُ وَإِنَّمَا هُوَ لَفْظُ أَنْتَ مَعْنَاهُ

فالشاعر يَعْتَمِدُ اسماً أَيْ اسماً لِيَكْنِي بِهِ عَنْ حَبِيبَتِهِ حَقِيقَةً كَانَتْ أَوْ خَيَالِيَّةً. يَقُولُ

صَاحِبُ الْعُمْدَةِ :

«وَلِلشُّعْرَاءِ أَسْمَاءٌ تَخِفُّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَتَحُلُو فِي أَفْوَاهِهِمْ، فَهُمْ كَثِيراً مَا يَأْتُونَ بِهَا

زُوراً نَحْوَ لَيْلَى وَهَنْدٍ وَسَلْمَى وَدَعْدٍ وَلُبْنَى وَعَفْرَاءٍ وَأَزْوَى وَرَبَا وَفَاطِمَةَ وَمَيَّةَ وَعَلْوَةَ وَعَاشَةَ

وَالرَّبَابَ وَجَمْلَ وَزَيْنَبَ وَنُعْمَ وَأَشْبَاهَهُنَّ، وَلِذَلِكَ قَالَ مَالِكُ بْنُ زُعْبَةَ الْبَاهِلِيُّ أَنَّهُ

الْأَصْمَعِيُّ :

وَمَا كَانَ طِبِّي حَبَّهَا غَيْرَ أَنَّهُ يُقَامُ بِسَلْمَى لِلْقَوَافِي صُدُورُهَا

وَأَمَّا عَزَّةٌ وَبَيْئَةُ فَقَدْ حَمَاهُمَا كَثِيرٌ وَجَمِيلٌ حَتَّى كَانَمَا حَرَمًا عَلَى الشُّعْرَاءِ؛ وَرَبَّمَا أَتَى

الشُّعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة. إقامة للوزن وتَحْلِيلَة للنَّسب»^(١).
 وإذن تكون تلك الأسماء إمَّا رُموزاً إلى المحبوب وإمَّا مُجرَّد تخيُّل:
 كُلُّ يُغْنِي عَلى ليلاه مُتَّخِذاً ليلى من النَّاس أو ليلى من الخشب
 هُذا وربَّما اعتذر الشُّعراء عن بَوَحهم لَغَلَبَة الحبِّ عليهم ولا شكَّ أنَّ ذلك نوع من
 التَّعبير يُدخِل شيئاً جديداً على الفِكرة ويجعلها مُحَبَّبة مَقبولة. يقولُ جرير:
 لقد كَتَمْتُ الهوى حتى تَهَيَّمَنِي لا أَسْتَطِيع لِهَذا الحبِّ كِتْمَانَا
 فالشَّاعر في هُذه الحالة يَغلبه الحبُّ يُبدي بعضه ويَكتم بعضه كما يُعْني البُحْثريُّ:
 عَزَّيْ حُبُّه فأصْبَحْتُ أُبْدي منه بعضاً وأَكْتَم النَّاس بعضاً^(٢)
 وقد يَكُونُ بعض الإعلان مُفيداً للكِتْمَان. يقول الشُّطرنجِيُّ:
 ولقد أَمَارِحُه بإظهار الهوى عَمداً ليَكْتَم سرُّه إعلانه
 ولربَّما كَتَم الهوى إظهاره ولربَّما فَضَح الهوى كِتْمَانه
 ومهما يكن من أمر فدلَّال الحبِّ لا تَخْفَى. يقولُ المُتنبِّي:
 نرى عَظْماً بِالْبَيْنِ والصدُّ أعظم وتَنَهَّم الواشين والدمع منهم
 ومن لُبِّه مع غيره كيف حاله ومن سِرُّه في جَفْنه كيف يَكْتُمُ
 إلَّا أنَّ شعراء آخرين يُؤثِّرون الإعلان لتوكيد الإحساس ولاسْتِكْمال اللَّذَّة، يقولُ أبو
 نُواس:
 ألا فاسْقِنِي خمرأً وقلْ لي هي الخمر ولا تَسْقِنِي سرًّا إذا أَمَكَّن الجَهْرُ
 فما الغَبْنُ إلَّا أنْ تَرَانِي صَاحِباً وما الغُنْمُ إلَّا أنْ يَتَغَنَّي السُّكْرُ
 فُبُخْ باسم من تَهْوَى ودَعْنِي من الكُنَى فلا خَيْر في اللَّذات من دونها سِثْرُ

يَبْدُ أنَّ قَضِيَّة الرَّمز في الشُّعر العربيِّ تَتجاوَز كِتْمَان الحبِّ وعَدَم البَوَح به بل تَتجاوَز
 الأدب الصُّرف بوجه عامٍّ إلى مَيادين أُخرى ذات شَأْن. ثَمَّة فرع مُهمٌّ للرَّمز في الشُّعر
 العربيِّ وهو ما أَراد دَوْر العلم أن يُخفوه وَيَرْمِزُوا إِلَيْه في آدابهم وأشعارهم، فالعلماء
 القَدَماء أَجْرُوا بَحْوثهم على طَريقَة الرَّموز. يقولُ شاعرهم صَاحِب الشُّذور من قصيدة
 طويلة مَطْلَعها:

(١) ١٩٣٤ ج ٢ ص ١١٦.

(٢) رواية الدَّبَّيوان وغيره غَزَنِي وهو تَحْرِيف غَزَنِي أي غَلَبَنِي. جاء في القرآن الكريم سورة ص ٣٨:
 ٢٣: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وجاء في كلام العرب «من عَزَّ بَرٌّ» أي من غَلَب سَلَب.

فما أنت من علم الصنّاعة حاليّا

إذا كنتَ عن سرِّ الجواهر خاليا

يُنوّه فيها بصنّاعته هذه :

من الرّمز أسوار تُشيب التّواصيا
إلى المرء من حبل الوريد تدانيا
به الظنُّ في فكِّ الرّموز المراميا
وكان عن العلم الإلهيّ لاهيا

هي الصنّعة المضروب من دون نيلها
ولكنّها أدنى إذا كان عالماً
وإني لأستحيي من المرء يرتمي
ولم يجعل العلم الرياضيّ روضه
ويقولُ أيضاً فيها :

بأجداث رَمز لا تُجيب البواكيا
جديداً وإن كانت طروساً بواليا

فلم نختلِف في أن نُواري علمنا
لِيدرك منها غابر الدّهر سرّنا

ويقولُ في قصيدة أخرى :

وُقف على ما اغتاص من رَمز رامز

لنا من قوَى مركوزة في الغرائز

وكانَ المؤلّف يَصِف أسرار المادّة وَصفاً حديثاً حين يقولُ في هذه القصيدة :

يَدور وهذا مركز للمراكز
لأنّهما من واحد مُتمايز
لها مَركز راس بقُدرة رَاجز
لِقاؤهما فَرْدَيْن ليس بجائز
من اللّطف فيما بينها غير جائز
إلى بعضها عن نسبة في الغرائز

فشتان بين اثنين هذا مُكوّكب
ولأنّهما عند الحكيم لواحد
فهذا على هذا يَدور وهذه
وبينهما ضِدّان عالٍ وسافل
وبينهما جسم مُشِف كَأَنَّهُ
فأعجب بها من أربع حال بعضها

ونُبيح لأنفسنا أن نذكر قطعة من قصيدة أخرى للمؤلّف نفسه وذلك لقلة شُيوع هذا
النّوع من الشّعْر الرّمزيّ العلميّ عند المُتأدّبين ولا سيّما أنّ القصيدة الآتية تُبرِز وشائج
واضحة تتصل برُموز المُتصوِّفة التي ستتناولها بالبحث :

غَينا فلم نُبدِل بها الأثل والخمطا
تُشبُّ لنا وهناً ونحن بذي الأزطى
على السّير من بُعد المسافة ما اشطّطاً
من النّاس من لا يعرف القَبْض والبَسْطاً
إلى الجانب الغربيّ نَمْتِل الشّرْطاً
لِطيب شذاها نُحرق العود والقُسْطاً
إذا هي تسعى نحونا حيّة رَقْطاً . .

بزيتونة الدّهن المباركة الوسطى
صَفَوْنَا فأنسنا من الطّور نارها
فلَمّا أتيناها وقرب صبرُنا
نُحاول منها جَذوة لا يَنالُها
هبطنا من الوادي المُقدّس شاطِئاً
وقد أَرَجَ الأَرْجاء منها كأَنّها
وقمنا وألقينا العَصا في طلابها

وملأ إلينا الفيلسوف يمينه يُجاذبها أخذاً ويوسعها ضَعْطاً^(١)
وتبدو في هذه القصيدة إشارات وتعبيرات دينية .

ثم إنَّ بعض الفرق الدنيئة ولا سيما الباطنية كانت تستر تقيّة أو تنظيماً لدعوتها
وكانت عندهم ألفاظ يستعملونها بينهم هي في الحقيقة رموز يُلغزون فيها إلى مقاصدهم .
وقد أشار إلى هذه الرموز الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية» . والغاية
من ذكرنا هذه الرموز إبراز نوع من الرمز ذي شأن كبير في تاريخ الفكر العربي دون أن
نخفي من أمر نحلة أم مذهب . جاء في هذا الكتاب : «فقد قالوا كلُّ ما ورد من الظواهر
في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلُّها أمثلة ورموز إلى بواطن . أمّا الشرعيات
فمعنى الجنابة مبادرة المستجيب بإفشاء سرّ (القي) إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه ، ومعنى
الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . . . الطهور هو التبرؤ والتنفذ من اعتقاد كلِّ
مذهب سوى مبيعة الإمام . الصيام هو الإنسائك عن كشف السرّ . الكعبة هي النبي .
والباب علي . الصفا هو النبي ، والمروة علي ، والميقات هو الأساس ، والثلبية إجابة
الداعي ، والطواف بالبيت سبّحاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة ، والصلوات
الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام ؛ فالفجر دليل السابق والظهر دليل التالي
والعصر للأساس والمغرب دليل الناطق والعشاء دليل الإمام . . . وأخذوا يؤوّلون كلِّ لفظ
ورّد في القرآن والسنة فقالوا ﴿وَأَنذَرْتَنِي لَنَبِيٍّ﴾ أي معادن العلم ، اللب العلم الباطن يرتفع بها
أهلها . . . إلخ»^(٢) .

وقد نُشرت كُتب في المذهب الباطني وهي تتجه هذا الاتجاه فتحاول أن تجد لكلِّ
لفظ معنى يُناسب الدعوة الباطنية . جاء في كتاب «أساس التأويل» لمؤلفه الثعمان بن
حيون التميمي المغربي قاضي قضاة الدولة الفاطمية^(٣) ، «أنه لا بدَّ لكلِّ محسوس من

(١) ما ذكرناه من أبيات سالفة منقول من كتاب «نهاية الطلب في شرح المكتسب في زراعة الذهب»
للجلدي وله مخطوطتان في المكتبة الظاهرية بالرقمين ٣٩٢٤ ، ٨٨٤٨ .

وشرح المكتسب هذا لأبي القاسم العراقي ويضمّن المؤلف كتابه أشعاراً لصاحب الشذور وهو
علي بن موسى . ومن الشذور هذا له مخطوطة جيّدة في المكتبة نفسها .

هذا وفي كتب الكيمياء العربية القديمة أمثلة كثيرة من الرمز تحتاج إلى الدراسة والتحليل وفهم طبيعة
الخيال المستسرّ وراءها . انظر رسائل جابر بن حيّان . وفي مقدّمة ابن خلدون ذكر لبعض المؤلفين .

(٢) ليدن سنة ١٩١٦ ص ١٢ - ١٣ وجزء الآية من سورة محمد ٤٧ : ١٥ .

وأيضاً تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م ص ٥٥ - ٥٧ .

(٣) متوفى ٣٦٣ هـ والكتاب بتحقيق عارف تامر ، دار الثقافة بيروت .

ظاهر وباطن فظاهره ما تقع الحواس عليه وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به لأنه فيه وظاهره مُشتمِل عليه وهو زوجه وقرينه»^(١).

لَتَأْمَلُ شيئاً من هذا التَّأْوِيلِ. يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةً رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٢) ما يلي: «فباطن المدينة حدُّ حَرَمِ الْبَاطِنِ وَرَهْطُ الْحَرَمِ تِسْعَةُ أَصْنَافٍ فَكَانَ بِإِزَاءِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ رَهْطٌ مِنْ أَضْدَادِهِمْ يُفْسِدُونَ حُدُودَ الدَّعْوَةِ فَأَوَّلُ صِنْفٍ مِنْ رَهْطِ الْحَرَمِ الطُّقَّاءُ وَالثَّانِي الْأُسُسُ وَالثَّالِثُ الْأَثْمَةُ وَالرَّابِعُ الْحُبَجَجُ وَالْخَامِسُ الثُّقْبَاءُ وَالسَّادِسُ الْأَيَادِي وَالسَّابِعُ الْأَجْنَحَةُ وَالثَّامِنُ الْمَأْذُونُونَ وَالتَّاسِعُ الْمُسْتَجَبُونَ فَبِإِزَاءِ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ هَؤُلَاءِ ضِدٌّ لَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ»^(٣).

وجاء أيضاً في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُوَفِّسُ لِيِنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ^(٥) قول المؤلف: «والفُلْكُ فِي اللَّغَةِ السَّفِينَةُ وَهِيَ الْبَاطِنُ الدَّعْوَةُ»^(٥).

وَيُمَهِّدُ قَاضِي الْقَضَاةِ لَتَسْوِغِ هَذَا التَّأْوِيلِ بِمَا يَرْوِيهِ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ أَنَّهُ «قِيلَ لَهُ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ سَمِعْنَا مِنْكَ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ خِلَافَ هَذَا الرَّجَعِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ سَبْعَةَ أَوْجِهٍ، فَقَالَ الرَّجُلُ مُتَفَكِّراً: سَبْعَةٌ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَسَبْعِينَ وَلَوْ اسْتَرَادَّانَا لَزِدَّانَاهُ. فَوُجُوهُ هَذَا الْعِلْمِ بِقَدْرِ حُدُودِهِ فَيَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ سَمْعِهِ وَانْتَفَعَ بِهِ وَتَرَقَّى فِي دَرَجَاتِهِ»^(٦).

وَإِذَا كُنَّا أَلْحَحْنَا بَعْضَ الشَّيْءِ عَلَى ذِكْرِ الْأَمْثَلَةِ مِنْ خَارِجِ الشُّعْرِ فَلَأَنَّ هَذَا الْقِسْمَ مِنْ تَرَاثِ التَّفَكِيرِ الْعَرَبِيِّ مَا زَالَ أَكْثَرُهُ مَكْتُوماً اسْتَقَّتْ مِنْهُ رِيَاحِينَ مُتَنَوِّعَةٌ مِنَ الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْهَا ثَارَ فِي بَطْنِ الْمَخْطُوطَاتِ.

وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَفَهَّمَ شِعْرَ ابْنِ هَانِيٍّ شَاعِرِ الْفَاطِمِيِّينَ دُونَ أَنْ نُلِمَّ بِمَذْهَبِهِمْ وَنَطَّلَعَ عَلَى بَعْضِ رُمُوزِهِمْ وَإِلَّا هَالَتْنَا تِلْكَ الْمَبَالِغَاتُ الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ تَقَبُّلَهَا: مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٧)

(١) ص ٢٨.

(٢) التَّمَلُّ ٢٧: ٤٨.

(٣) ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) الصَّافَّاتُ ٣٧: ١٣٩ - ١٤٠.

(٥) ص ٢٨٦.

(٦) الْمُقَدِّمَةُ، وَالْعِدْدَانُ السَّبْعَةُ وَالسَّبْعُونَ لِهَمَا شَأْنٍ فِي التَّفَكِيرِ الْبَاطِنِيِّ.

(٧) لَا غَرَّوْ أَنْ يَعْمَدَ مُصَحِّحُ الذِّيَّانِ وَشَارِحُهُ وَنَاشِرُهُ الذُّكُورُ زَاهِدٌ عَلِيٌّ فَيُشْرِحُ بَيْنَ يَدَيِ الذِّيَّانِ بَعْضَ الْأَصْطِلَاحَاتِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَعَقَائِدِهِمْ تَسْهِيلاً لِفَهْمِ الشُّعْرِ.

ومُبَالَغَاتِ الْمُتَنَبِّي قَبْلَهُ وَتَعْقِيدِ بَعْضِ أَلْفَاظِهِ مِمَّا يُشَبِّهُ تَرَاقِيبَ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا تَنْجَلِي وَتَتَضَحُّ بِتَفْهَمِ نَشَاتِهِ وَاتِّصَالِهِ بِبَعْضِ أَهْلِ الْبَاطِنِ فِي صِبَاهٍ .

وكَمَا جَعَلَتْ السِّيَاسَةَ تِلْكَ الْفَرْقَ الدِّيْنِيَّةَ تَسْتَرُّ تَصَوُّنًا وَتَقِيَّةً كَذَلِكَ صَرَفَتْ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ حِينَ يُعَالِجُونَ مَوْضُوعًا لَهُ مَسَاسٌ بِالسِّيَاسَةِ أَوْ بِالْحُكَّامِ إِلَى أَنْ يَتَسَرَّوْا فِي أَقْوَالِهِمْ أحيانًا فَخَرَجَتْ تِلْكَ الْأَقْوَالُ فِي شَكْلِ الرَّمْزِ . وَقَدْ أَوْرَدْنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ بَيِّنِينَ لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ رَمَازِينَ أَنْذَرُ بِهِمَا قَوْمَهُ كَمَا أَوْرَدْنَا أَبْيَاتَ أَعشى همدان .

ويذكرُ الباحثون شعراً غَزَلًا لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ :

بَشَّرَ الظُّبْيِي وَالْغُرَابَ بِسَعْدِي مَرْحَبًا بِالَّذِي يَقُولُ الْغُرَابُ
قَالَ لِي إِنَّ خَيْرَ سَعْدِي قَرِيبٌ قَدْ أَنَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُ اقْتِرَابُ
قُلْتُ أَنَسَى يَكُونُ ذَاكَ قَرِيبًا وَعَلَيْهِ الْخُصُونُ وَالْأَنْبُوبُ؟
جَبَلَا الرَّيِّمُ ذُو الْوِشَاحِينَ وَالْقَصْدِ رَ الَّذِي لَا تَنَالُهُ الْأَسْبَابُ
إِنَّ فِي الْقَصْرِ لَوْ دَخَلْتَ غَزَالًا مُوَصِّدًا مُصَفِّقًا عَلَيْهِ الْحِجَابُ
... إلخ

يُعرِّضُ فِيهَا بَعْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ^(١) :

لَا أَشْمُ الرِّيحَانَ إِلَّا بَعِينِي كَرَمًا إِنَّمَا تَشْمُ الْكِلَابُ
وَاسْتَهْلَالَ الْقَصِيدَةَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ النَّسِيبِ الَّذِي يُمَهِّدُ تَمْهِيدًا صَالِحًا لَغَرَضِ
الشَّاعِرِ . وَالنَّسِيبُ الَّذِي يَعْتَمِدُهُ الشُّعْرَاءُ فِي مُسْتَهْلٍ مَدِيحِهِمْ أَوْ اعْتِذَارِهِمْ إِنَّمَا هُوَ فَنٌّ يَهَيِّئُ
الْجَوَّ تَهَيِّئَةً صَالِحَةً لِلْأَغْرَاضِ الَّتِي يَقْصِدُونَ إِلَيْهَا . وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْمُشْتَهَرُ قَصِيدَةُ يَزِيدَ بْنِ
ضُبَّةٍ ، يُصَوِّرُ فِيهَا حَالَهُ مَعَ هِشَامَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَطْلَعَهَا :

أَرَى سَلْمَى تَصَدُّ وَمَا صَدَدْنَا وَغَيْرَ صُدُودِهَا كُنَّا أَرَدْنَا
لَقَدْ بَخَلْتُ بِنَائِلَهَا عَلَيْنَا وَلَوْ جَادَتْ بِنَائِلُهَا حِمْدُنَا
وَقَدْ ضُنَّتْ بِمَا وَعَدَتْ وَأَمْسَتْ تَغْيِيرَ عَهْدِهَا عَمَّا عَهِدْنَا^(٢)

وَكَانَ يَزِيدُ مُنْقَطِعًا إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ فَلَمَّا أَقْضِيَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى هِشَامَ ذَهَبَ الشَّاعِرُ لِيَمْدَحَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ فَقَالَ قَصِيدَتَهُ تِلْكَ .

عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَشْعَارِ يَصْعَبُ الْقَطْعُ فِي صِفَتِهِ الرَّمْزِيَّةِ مِثْلَ قَصِيدَةِ أَبِي بَكْرٍ

(١) كَانَ عَبْدِ الْمَلِكِ مُتَغَيِّرَ الْفَمِ فَكَانَ فِي يَدِهِ أَبْدًا رِيحَانٌ أَوْ تَفَاحَةٌ أَوْ طِيبٌ يَشْمُهُ .

(٢) الْقَصِيدَةُ كَامِلَةٌ فِي الْأَغَانِي دَارِ الْكُتُبِ ج ٧ .

الحسن بن عليّ العلاف البغداديّ في الهرّ. فقد قيلَ إنّه كنّى بالهرّ عن ابن المعتزّ حين قتله المقتدر فحشيّ من المقتدر ونسبها إلى الهرّ، وقيلَ إنّما كنّى بالهرّ عن المحسن بن الوزير أبي الحسن عليّ بن الفرات أيّام محنته لأنّه لم يجسر أن يذكره ويثّبه. وقيلَ كان له غلام عشقته جارية لعليّ بن عيسى ففطن لهذا بهما فقتلا جميعاً وسلخا وحشيّت جلودهما تبنّاً فقال العلاف القصيدة يرثي بها غلامه وكنّى عنه بالهرّ، وقيلَ كان له هرّ يأنس به فكان يدخل أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها فأمسكه أربابها فذبحوه فرثاه بقصيدته^(١):

يا هرّ فارقتنا ولم تعد وكنيت عندي بمنزل الولد
فكيف تنفك عن هواك وقد كنت لنا عدّة من العُدَد
تطرّد عنا الأذى وتحرسنا بالغيب من حيّة ومن جرد...

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة المعروفة التي لا يظهر فيها إلّا أوصاف الهرّ.

وفي الثّراث العربيّ كذلك نوع من الرّمز يُطلق على الأمثال التي تقصد إلى التّعليم والموعظة والدّكرى والفائدة، وقد أشار إلى ذلك ابن عربيّ حين بحث «معرفة أقطاب الرّموز وتلويحات من أسرارهم»^(٢) فذكر أنّ الرّموز والألغاز ليست مُرادّة لأنفسها ثمّ قال: «ومواضعها من القرآن آيات الاعتبار كلّها والتّنبية على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْصُرِيهِمَا لِتَايِنَ﴾^(٣) فالأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها وإنّما جاءت ليُعلم منها ما ضربت له وما نصبت من أجله مثلاً مثل قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَأَخْتَلَّ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾^(٤) فجعله كالباطل كما قال: ﴿وَذَهَبَ الْبَاطِلُ﴾^(٥) ثمّ قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَكُتُ فِي الْأَنْصِفِ﴾^(٦) ضربه مثلاً للحقّ ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^(٧) وقال: ﴿يَتَأَوَّلِي الْأَبْصَرَ﴾^(٨) أي تعجّبوا وجوزوا واعبروا إلى ما أردته بهذا التّعريف و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً

(١) القصيدة مذكورة في وفيات الأعيان لابن خلكان وفي حياة الحيوان للدميريّ.

(٢) الباب السّادس والعشرون من الجزء الأوّل في الفتوحات المكيّة ص ١٨٩.

(٣) سورة العنكبوت ٢٩: ٤٣؛ وأيضاً سورة الحشر ٥٩: ٢١.

(٤) سورة الرّعد ١٣: ١٧. قرأ حمزة والكسائيّ وحفص - ومصحفنا على قراءته - بالياء أي يوقدون على أنّ الضّمير للنّاس وإضمماره للعلم به. والقراءات الأخرى توقدون.

(٥) سورة الإِشراء ١٧: ٨١.

(٦) سورة الرّعد ١٣: ١٧.

(٧) سورة الحشر ٥٩: ٢.

لَأُولَى الْأَبْصَرِ ﴿١﴾ من عَبَّرْتُ الوادي إذا جُرَّته؛ وكذلك الإشارة والإيماء قال تعالى لَنَبِيِّهِ زَكْرِيَّا: ﴿أَلَا تَحْكُمُ النَّاسَ نَكْنَةً أَيَّامٍ إِلَّا رَمَنًا﴾^(٢) أي بالإشارة، وكذلك ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾^(٣) في قصة مريم لما نَذَرَتْ لِلرَّحْمَنِ أَنْ تُمْسِكَ مِنَ الْكَلَامِ^(٤).

وعدا ذلك قد شاع هذا الأسلوب من ضَرْبِ الأمثال في الأدب العربي شُيوعه في الآداب الأخرى. ويُمَثِّلُ كتاب «كَلِيلَة وَدِمْنَة» لابن المُقَفَّع قِمَّةً من قِمَمِ البيان الإنساني.

ولرَواج هذا الكتاب وولَّع النَّاسَ به نَظْمُه الأدياء وعارَضوه نَثراً ونَظْماً كما أَلَّفوا على نَهْجِه لِلتَّمْثِيلِ والعِبْرَةِ وتَوَخَّى الحِكْمَةَ. ومَمَّن جَرَى في هذا المضمَار أبو العلاء المَعْرِي فَقَد أَلَّفَ كتاب «القَائِف». ذكر منه أُسَامَةُ بن مُنْقِذ في «كتاب العَصَا» هذه التُّبْدَة: «مرَّ رَكْبٌ بِشَجَرَةٍ مُورِيَةٍ فَاقْتَضَبَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ عَصَاً ثُمَّ شَقَّهَا ثُمَّ جَعَلَ يَقْتَدِحُ قَرِيباً مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَوْرَى الزُّنْدَ فَقَالَتِ الشَّجَرَةُ: يَا هَذَا مَا أَسْرَعَ مَا ظَهَرَ سُرُّكَ! وَسَوْفَ تُرْغِبُ الرِّكْبَ فِي اتِّخَاذِ زِنَادٍ مِنِّي فَأَحُورُ عِيدَانَا فِي أَيْدِي الْقَوْمِ. فَقَالَ: لَا تَلْمَنِي الْمَغْرُورَةَ أَظْهَرْتَ سُرِّي ضَرُورَةَ»^(٥). ومَمَّن نَظَمَ كَلِيلَة وَدِمْنَة ابن الهَبَّارِيَّة (الْمُتَوَفَّى فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهِجْرِيِّ) فِي كِتَابِ سَمَاءِ «نَتَائِجِ الْفِطْنَةِ فِي نَظْمِ كَلِيلَة وَدِمْنَة»^(٦) ثُمَّ عَارَضَهُ فَأَلَّفَ كِتَاباً

(١) سورة آل عمران ٣: ١٣ وسورة النور ٢٤: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران ٣: ٤١.

(٣) سورة مريم ١٩: ٢٩.

(٤) انظر أيضاً كتاب «المَثَل» للسَّيِّد مُنِير القَاضِي مَطْبَعَةُ المَجْمَعِ العِلْمِيِّ العِرَاقِيِّ ١٣٧٩ - ١٩٦٠ وهو قد أَفْرَدَ فَصْلاً وَاسِعاً بَحْثَ فِيهِ «المَثَلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ».

(٥) نوادر المخطوطات الرسالة رقم ٢ تحقيق عبد السلام هارون ص ١٨٩.

(٦) مَمَّن نَظَمَ كَلِيلَة وَدِمْنَة أبو سهل الفضل بن نوبخت وعلي بن داود كاتب زُبَيْدَة وِبْشَر بن المَعْتَمِر وَأَبَان بن عبد الحميد اللَّاحِقِيُّ الرُّقَاشِيُّ ثُمَّ ابن الهَبَّارِيَّة الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. ولابن الهَبَّارِيَّة نَظْمٌ ثَالِثٌ اسْمُهُ «دُرَرُ الحِكْمِ فِي أَمْثَالِ الْهُنُودِ وَالْعَجَمِ» أَكْمَلَهُ عبد المؤمن بن الحسن الصَّاغَانِيُّ مِنْ رِجَالِ الْقَرْنِ السَّابِعِ. ومَمَّن نَظَمَ كَلِيلَة وَدِمْنَة ابن مَمَاتِي المَتَوَفَّى سَنَةَ ٦٠٦ وَجَلَالُ الدِّينِ النُّقَاشِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ.

أما الذين عارضوه فمنهم سهل بن هارون أحد كتَّابِ المأمون المَتَوَفَّى سَنَةَ ١٧٣ سَمَّى كِتَابَهُ «ثَعْلَة وَعَفْرَة» وأبو العلاء المَعْرِي فِي كِتَابِهِ «القَائِف الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يُرَوِّى أَنَّهُ أَلَّفَ هُوَ نَفْسَهُ تَفْسِيراً لِكِتَابِهِ هَذَا وَدَعَاهُ «مَنَارُ الْقَائِف».

وَأَلَّفَ أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي قَاسِمٍ الْقُرَشِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ ظَفَرِ المَتَوَفَّى سَنَةَ ٥٦٥ كِتَاباً سَمَّاهُ «سُلُوانُ الْمُطَاعِ فِي عُدْوَانِ الْإِتْبَاعِ» عَلَى نَهْجِ كَلِيلَة وَدِمْنَة، وَأَلَّفَ أَحْمَدُ بْنُ عَرَبْشَاهُ كِتَاباً سَمَّاهُ «فَاكِهَة النَّدَامِ وَمُفَاكِهَة الطَّرَفَاءِ» (انظر كتاب عبد الله بن المُقَفَّع للأستاذ سليم الجندي ص ١٠٥ - ١٠٦ وكتاب ابن المُقَفَّع تأليف عبد اللطيف حمزة).

سمَّاه «الصادح والباغم» نظمه أراجيزَ عدد أبياتها ألفان في عشرِ سنين بأسلوب بسيط مُبين أوَّله :

الحمد لله الذي حَبَّانِي بِالْأَضْغَرَيْنِ القلب واللسان
وأثَمَّما فضيلة الإنسان وفخَّره بالعقل والبيان

ويَلْحَق بهذا الأسلوب ما سلكه الفلاسفة في التعبير لشرح آرائهم وفلسفتهم بالقصص والحكايات والرؤى المرموزة أمثال إخوان الصفا وابن سينا والشهروردي وابن طُفَيْل وسنشير إلى ذلك في خلال كلامنا على الرَّمز الصُّوفي الذي نريد أن نخصَّه بشيء من التفصيل إذ يبدو لنا أقوى هذه التَّفريعات الرَّمزيَّة والصِّقها بالبيان الجميل والفكر الأصيل .

الرَّمز الصُّوفي :

كيف يُعرب الصُّوفي عن عاطفته المُعتلجة وكيف يصف حاله ووَجْده وبأيِّ لسان يشرح هذا العارف المُحبِّ مُكاشفته ومُشاهدته وأيِّ عبارة تَسوِّغ لبيان ما يَرِدُ عليه من لوائح ولوامع وطَوالِع على حدِّ ألفاظهم التي اضطلحوا عليها؟ كيف يقول الصُّوفي ما لا يُقال ويَصِف ما لا يُوصَف؟ لتتأمل أوَّل الأمر بعضاً من هذه المُصطلحات التي سبق إليها القلم قبل أن نعمد إلى تأثُّل كلام الصُّوفيَّة أنفسهم .

نفتح رسالة أبي القاسم القشيري (٣٧٦/٩٨٦ - ٤٦٥/١٠٧٣) ونقرأ ما تقع عليه أبصارنا عَرَضاً فنجد المؤلف يقول في المشاهدة: «وهي حُضور الحق من غير بقاء تُهمة». وكأنَّه يُدرك ما في هذا التعريف من تجريد صِرف ومن حاجة إلى التَّقريب من الأذهان فيعمد فوراً إلى التَّمثيل: «فإذا أصبحت سماء السَّرى عن غيوم السَّتر فشمس الشُّهود مُشرقة عن برج الشَّرف» فلا يزيد كلامه إلَّا غُموضاً وإن كان رائعاً رائعاً. ثم يرى أنَّه لم يَرِد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المَكِّي: «ومعنى ما قاله أنَّه تتوالى أنوار التَّجَلِّي على قلبه من غير أن يتخلَّلها سِتر وانقطاع كما لو قُدِّر اتصال البروق فكما أنَّ اللَّيْلَةَ الظُّلَماء بتوالي البروق فيها واتصالها إذا قُدِّرَت تصير في ضوء النُّهار فكذلك القلب إذا دام به دوام التَّجَلِّي متع نهاره فلا ليل». ولا يكفي المؤلف هذا التَّمثيل الحسِّي كُلُّه فيعمد إلى الشُّعر لبيان شاعريَّة تلك الحال وليكن الشُّعر غَزَلًا خفيفاً على الرُّوح وليُشر إلى ذلك الجمال الذي يسطع في قلب الصُّوفي وليَزِد في تأثُّل هذا الشُّطوع أنَّه يحدث في سَدَف الظُّلام، ظلام اللَّيْلِ السَّاري في النَّاس وهكذا يتقلَّب اللَّيْل نهاراً مَتاعاً فيُردف كلامه قائلاً: «وأنشدوا:

ليلي بـوجهك مشرق وظلامه في النَّاس ساري

والتَّاس فِي سَدَف الظَّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

يا لروعة جمع الصُّدَّيْنِ خصوصاً إذا حملنا هذين البيتين على مَحْمَلِ المجاز والرمز فاعتبرنا أَنَّ هنالك للصُّوفيَّ ليلين ونهارين وأنَّ هذا اللَّيْل الذي يأتي فيغشى الكائنات يبدو أقلَّ سواداً وأضعف سُدْفَةً من ليل الغفلة وأنَّ هذا النَّهار الجميل الذي يُؤنس الوجود بنوره ويُرْزِل الوحشة عن الموجودات بإظهارها ليس إلّا باهت الثُّور بالقياس إلى نهارهم الرُّوحِيّ. فاللَّيْل ليلان والنَّهار نهاران، واللَّيْل والنَّهار المُدرَكان بالحسِّ والبصر هما ظِلَّان كايَّان وصورتان شاحبتان بالنسبة إلى اللَّيْل والنَّهار اللَّذَيْن يتداولان قلب الصُّوفيّ.

ويذكر مُؤَلِّف «الرَّسالة» قول الثُّوريّ: «لا يصحُّ للعبد المشاهدة وقد بقي له عِرْق قائم» ويقرن ذلك بقول الثُّوريّ أيضاً: «إذا طلع الصُّباح استغني عن المصباح» وكذلك يُورد إنشاد الصُّوفيَّة لهذين البيتين:

فلما استبان الصُّبح أدرج ضوؤه بأنواره أنوارَ ضوء الكواكب
يجرُّعهم كأساً لو ابتليت لظي بتجريعه طارت كأسرع ذاهب^(١)

وإذا ذكرت الكأس في البيت الثاني استدعى هذا اللَّفظ صُوراً خاصّة لدى هؤلاء الذين شربوا بها فيعلّق المُؤَلِّف بقوله: «كأس وأيّ كأس تَصْطَلِمُهُم عنهم وتُغْنِيهم وتختطفهم منهم ولا تُبقيهم! كأس لا تُبقي ولا تدرّ تمحوهم بالكليّة ولا تبقي شظيّة من آثار البشريّة كما قال قائلهم:

ساروا فلم يبقَ لا رسم ولا أثر»

وهكذا تتعاقب المعاني المُجرّدة والصُّور الحسيّة في كلام المُؤَلِّف ويستعين النّثر في الحين بعد الحين بالشُّعر لتقريب المقصود من الأفهام.

لنتابع مُؤَلِّف الرَّسالة في شرح مُصْطَلَحات القوم فتأمّل بيانه لمعنى اللّوائح واللّوامع والطّوائع لنزداد تبصّراً في بيان المُتصوِّفة بهذه المُتابعة فيقول: «هذه الألفاظ مُتقاربة المعنى لا يكاد يحصل بينها كبير فرق وهي من صفات أصحاب البدايات الصّاعدين في التّرقّي بالقلب فلم يَدُم لهم بعدُ ضياء شمس المعارف لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى يُؤتي رزق قلوبهم في كلّ حين كما قال: ﴿فَكُلِّ وَأَشْرَفِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(٢) فكلّما أظلم عليهم سماء القلوب بسحاب

(١) الكأس مُؤنّثة. وقد ذُكرت هنا على اعتبار مضمونها أي الشُّراب.

(٢) مريم ١٩: ٢٦.

الحظوظ سَنَح لهم فيها لوائح الكشف وتَلْأَلْأ لوائح القرب وهم في زمان سِتْرِهِم يَرْقُبُون
فجأة اللّوائح، فهم كما قال القائل:

يا أَيُّها البرق الذي يلمع من أيّ أكناف السّما تسطع
فتكونُ أوْلاً لوائح ثمّ لوائح ثمّ طَوّالِع. فاللّوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت
كما قال القائل:

افترقنا حَوْلًا فلمّا التقينا كان تسليمه عليّ وداعا
وأنشدوا:

يا ذا الذي زار وما زارا كأنّنه مُقْتَبِس نارا
مرّ باب الدّار مُستعجلا ما ضرّه لو دخل الدّارا
واللّوائح أظهر من اللّوائح وليس زوالها بتلك السّرعة فقد تبقى اللّوائح وَفَتَيْن وثلاثة
ولكنّ كما قالوا:

والعين باكية لم تشبع النّظرا

وكما قالوا:

لم تَرُدْ ماء وجهه العينُ إلّا شَرِقَتْ قبل ريّها برقيب
فإذا لمع قطعك عنك وجمعك به لكنّ لم يُسِفِر نور نهاره حتى كرّ عليه عساكر
الليل، فهؤلاء بين روح ونوح لأنّهم بين كشف وستر كما قالوا:
فالليل يشملنا بفاضل بُرْدِه والصّبح يُلْحِفُنَا رِداءَ مذهبها
الطّوالع أبقي وقتاً وأقوى سلطاناً وأدوم مكنأً وأذهب للظلمة وأنفى للثّهمة لكنّها
موقوفة على خطر الأفول ليست برفيعة الأوج ولا بدائمة المكنث ثمّ أوقات حصولها
وشبكة الارتحال وأحوال أفولها طويلة الأذيال.

وهكذا يتأكّد معنا الاعتماد على التّمثيل الحسّيّ المأخوذ في الغالب من العالم
الخارجيّ كما يظهر أيضاً اعتماد الصّوفيّة على كثير من أشعار الشّعراء التي قالوها في
أغراض دُنيويّة أو حسّيّة فهم يُشِدُّونها للتّمثّل ويلتمسون من خلالها معاني جديدة عُلوّيّة لم
يقصدها قائلوها.

بل إنّ بعض تلك الألفاظ الاصطلاحية الدّالّة على تَفَاوُت الأحوال عند أرباب
السلوك إنّما هي مأخوذة من مجالات حسّيّة كالصّخو والشّكر والدّوق والشّرب وما إلى
ذلك من ألفاظ تُستعمل بمناسبات هذه الدّلالات كالكأس والخمر والنّديم والسّاقى
وغيرها. ولا بأس هنا أن يُنشدوا أشعار الماجنين كقول أبي نواس مثلاً:

لي سكرتان وللثدمان واحدة شيء خُصِصْتُ به من بينهم وحدي
وكالقول الذي يُنسب إلى ديك الجن:
سُكران سُكر هوى وسُكر مدامة ومتى يفيق فتى به سُكران
وقد ورد البيتان في رسالة القشيري.

ومن الطريف الرجوع إلى تاريخ التصوف الإسلامي والتّقيب عن بداية دخول كلٍّ من تلك التّشبيهات في الأدب الصّوفي فترة بعد فترة وحيناً تلوّ حين. وربما كان ذو الثّون المصري من أوائل الذين استعملوا مجازاً ألفاظ الكأس والشّراب في هذا السّبيل، ولا شكّ أنّه اقتبسها ممّا ورد ذكره في التّنزيل الكريم في وصف جنّات النّعيم.

وكذلك من المفيد تتبّع الحوار الذي يدور بين المتصوّفة في كلّ عصر أو في مختلف الأزمنة ومُتباعي البلاد وتأمل مُساجلاتهم في ألوان تجاربهم الرّوحية الخاصّة وكلامهم المُصقّى وبعض شطحاتهم الغامضة بمناسبة كلّ تعبير وإزاء كلّ رمز. «يقالُ كتب يحيى بن مُعاذ إلى أبي يزيد البسطامي: ههنا من شرب كأساً من المحبّة لم يظلم بعده. فكتب إليه أبو يزيد: عَجِبْتُ من ضعف حالك! ههنا من يحتسي بحار الكون وهو فاغر فاه يتزَيّد».

ويقول القشيري بعد إذ أوردَ هذه الرواية: «واعلم أنّ كاسات القُرب تبدو من الغيب ولا تُدار إلّا على أسرار مُعتقّة وأرواح عن رِقِّ الأشياء مُحرّرة»^(١).

ولا نَسطيع أن نُبالغ في الاستشهاد بأمثال هذه الرّموز ولو كانت نقيسة كالجواهر المصقولة ومُتألّقة كالكوكب النّيّرة الجميلة. بيّد أنّا عرفنا من خلال ذلك أنّ المتصوّفة كثيراً ما يعتمدون الصّور الحسيّة ليُغربوا بالتّنويه بها عمّا يُقاربها من تجاربهم المَعنويّة المَحض، وأكثر هذه الصّور مأخوذ من مجال حبّ الإنسان للإنسان ومن مَلدّات الحياة الدّنيا وإنّ كان مُرادهم منها يتجاوز ذلك كلّهُ.

وينبغي ألاّ نَسْتَغريب هذا السّبيل الذي سلكوه في بيانهم. ذلك لأنّ قلب الإنسان المُحبّ هو واحد سواء أكان ذلك الحبّ حبّ الإنسان لله أم كان حبّه لإنسان آخر ولأنّ طبيعة عاطفة الحبّ واعتلاجها واحدة أو مُتشابهة في الحالين ولأنّ الحبّ يمتلئ على غائبة في ذاته فإنّ الإنسان يُحبّ في بعض الاعتبارات للحبّ نفسه إلّا أنّ تعلق الحبّ ولونه

(١) الرّسالة «فصل الصّحو والسّكر». ومن السّهل الرجوع إلى مُختلف الأقوال الواردة في الرّسالة في طبعاتها المُتعدّدة. وتذكير الكأس في كلام يحيى بن مُعاذ مَحمول على معنى الشّراب. وقد مرّ تذكيرها في البيتين الواردَين بصفحة ١٩٢.

وَاتَّجَاهَهُ يَخْتَلِفُ، وَلَمَّا كَانَ الْمَحْبُوبُ فِي الْحُبِّ الصُّوْفِيِّ مُتَعَالِيًا لَا يُدْرِكُ وَكَانَ مِثْلَ هَذَا الْحُبِّ حَافِلًا بِالْأَفْكَارِ وَالْمَعَانِي وَالْأَذْوَاقِ وَمُتَوَجِّهًا إِلَى غَايَةٍ لَا تُشَبِّهُهَا غَايَةُ كَانَ أَقْوَى وَأَعْنَفَ وَأَسْمَى مِنْ كُلِّ حُبٍّ آخَرَ، وَكَانَ أَعْلَامُ الْعِشْقِ حَقًّا وَبَلَا مِرْيَةٍ هَؤُلَاءِ الصُّوْفِيَّةُ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ ضَرَبُوا أَعْلَى الْأَمْثَلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَزْوَعَهَا فِي أَعْلَى الْمَحَاوَلَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَأَزْوَعَهَا.

لَقَدْ صُنِعَتْ دَرَسَاتٌ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ عَلَى النَّصُوفِ الْمَسِيحِيِّ بَعْدَ اشْتِهَارِ مَدَارِسِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ وَانْتِشَارِ كُتُبِ أَقْطَابِهَا أَمْثَالِ فُرِيدٍ وَأَدْلَرٍ وَيُونِغٍ وَمَنْ جَرَى عَلَى غِرَارِهِمْ. ذَلِكَ أَنَّ مَنْ يُمَكِّنُ أَنْ نَدْعُوهُمْ بِالْمُتَصَوِّفَةِ الْمَسِيحِيِّينَ إِنْ صَحَّتْ هَذِهِ التَّرْجُمَةُ وَعَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ اسْتَعْمَلُوا هُمْ أَيْضًا الصُّوَرِ الْحَسِّيَّةِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي أُمُورِ الْعِشْقِ الْإِنْسَانِيِّ فَوَجَدَ الْبَاحِثُونَ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْمُتَصَوِّفَةَ أَرَادُوا أَنْ يَتَغَلَّبُوا عَلَى نَزَعَاتِ اللَّيْبِيدُو عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِهِمْ وَقَصَدُوا أَنْ يُسَيِّطَرُوا عَلَى رَغَبَاتِهِمُ الْجَنَسِيَّةِ فَاتَّبَعُوا سُبُلَ الْوَرَعِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّأَمُّلِ الرُّوحِيِّ وَلَكِنَّ تِلْكَ النِّزَاعَاتِ وَالرَّغَبَاتِ الْأُولَى الَّتِي يُنَوِّهُ بِهَا عُلَمَاءُ التَّحْلِيلِ النَّفْسَانِيِّ وَيَعْتَبِرُونَهَا الدَّعَامَةَ الْأُولَى فِي الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ ثُمَّ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ قَدْ تَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ وَتَزَعَّمَتْ أَصُولُ تَعْبِيرِهِمْ وَظَهَرَتْ عَلَى أُسْلَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وَتَلَامَحَتْ فِي تَضَاعِيفِ ابْتِهَالَاتِهِمْ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِذَلِكَ وَدُونَ أَنْ يُلْقُوا إِلَيْهِ بِالْأَلْفَاظِ. وَيَرَى هَؤُلَاءِ فِي جُمْلَةٍ مَا يَرَوْنَهُ أَنَّ الْحُبَّ الصُّوْفِيَّ إِنَّمَا يَنْشَأُ وَيَقْوَى وَيُورِقُ حِينَ يُخَفِّقُ الْحُبُّ الْحَسِّيُّ وَلَا تَتَحَقَّقُ مَقَاصِدُهُ مِنْ طَلَبِ الْوِصَالِ فَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْوِيضِ إِذْ تَجَدُّ نَزَعَاتُ اللَّيْبِيدُو مُتَنَفِّسًا فِي هَذِهِ الْعَاطِفَةِ الْغَامِضَةِ وَفِي أَنْمَاطِ التَّعْبِيرِ الْحَسِّيِّ وَأَنْوَاعِ الْاسْتِعَارَاتِ الْمَالُوفَةِ عِنْدَ الْعِشَّاقِ. وَقَدْ رَدَّ عَلَى ذَلِكَ فَرِيقٌ مِنْ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ^(١).

«Psychologie du mysticisme religieux», James Leuba.

Revue française de psychanalyse, 1948, No2.

وانظر كتاب «Le mysticisme» لمؤلفه Emmanuel Aegerter من سلسلة Flammarion.

Le mysticisme physiologique.

يُلَخِّصُ فِيهِ الْمُؤَلِّفُ أَقْوَالَ الْأَطْبَاءِ الَّذِينَ يُقَرِّبُونَ بَيْنَ أَحْوَالِ الْإِنْجَذَابِ الرُّوحِيِّ وَالْهَسْتِيرِيَا أَوْ يُقَسِّرُونَهَا فِي ضَوْءِ التَّحْلِيلِ النَّفْسَانِيِّ، وَفِي الْكِتَابِ نَفْسُهُ فَصْلٌ آخَرٌ عَنِ الْأَعْرَاسِ «الصُّوْفِيَّةِ» يَذْكُرُ فِيهَا بَعْضَ التَّعَابِيرِ الْمُفْرَطَةِ فِيمَا يُشَبِّهُ الْوِصَالَ جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْقُدِّيسَاتِ وَالْقُدِّيسِينَ.

وانظر الفصل الذي بعنوان: «La signification du symbolisme conjugal dans la vie mystique»

في كتاب «Mystique et continence» وهو يَضُمُّ بُحُوثًا أَلْفَهَا كِبَارُ الْكَاثُولِيكِ الْمُتَدَبِّرِينَ بِمُنَاسَبَةِ مُؤْتَمَرٍ

(١) انظر مثلاً كتاب جيمس لوبا

ومقال ماري بونايرت في مجلة

وانظر كتاب «Le mysticisme» لمؤلفه Emmanuel Aegerter من سلسلة Flammarion.

وفي هذا الكتاب فصل بعنوان

يُلَخِّصُ فِيهِ الْمُؤَلِّفُ أَقْوَالَ الْأَطْبَاءِ الَّذِينَ يُقَرِّبُونَ بَيْنَ أَحْوَالِ الْإِنْجَذَابِ الرُّوحِيِّ وَالْهَسْتِيرِيَا أَوْ يُقَسِّرُونَهَا

في ضوء التحليل النفسي، وفي الكتاب نفسه فصل آخر عن الأعراس «الصوفية» يذكر فيها بعض

التعابير المفرطة فيما يشبه الوصال جرت على ألسنة القديسات والقديسين.

وانظر الفصل الذي بعنوان: «La signification du symbolisme conjugal dans la vie mystique»

في كتاب «Mystique et continence» وهو يضمُّ بحوثاً ألفها كبار الكاثوليك المتدبرين بمناسبة مؤتمر

وَيَرْجِعُ هَؤُلَاءِ بِالرَّمْزِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْوِصَالِ وَالزَّوْاجِ إِلَى مَا جَاءَ فِي «نَشِيدِ الْأَنَاشِيدِ» مِنْ صُورٍ حَسِّيَّةٍ وَيَرَوْنَ أَنَّ رَمَزَ الْحُبِّ فِي هَذَا السُّفَرِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى اتِّحَادِ يَهُوَهَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ اتِّحَادِ الْإِلَهِ وَذَلِكَ الشَّعْبِ. وَيَرَوْنَ أَيْضاً أَنَّ الْعَهْدَ الْجَدِيدَ أَخَذَ مَا جَاءَ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فَاسْتَعْمَلَ رَمَزَ الزَّوْاجِ فِي اتِّحَادِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ، «وَلَكِنْ كَمَا تَخَضَّعَ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ كَذَلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ» (مِنْ رِسَالَةِ بُولُسَ الرَّسُولِ إِلَى أَهْلِ أَفَسَسَ)، وَكَذَلِكَ اتِّحَادُ الْكَلِمَةِ وَالنَّاسُوتِ، وَرَبِّمَا كَانَ ثَمَّةَ شُؤْنٍ أُخْرَى تَدْخُلُ تَحْتَ سِرِّ هَذَا الرَّمْزِ.

وَلَقَدْ لَقِيَ التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ قَدِيماً مِثْلَ هَذَا الْإِنْكَارِ لِتَعْبِيرَاتِهِ الْحَسِّيَّةِ وَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَصْحَابِ الْمَذْهَبِ الظَّاهِرِيِّ وَفَرِيقٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ وَالسَّلَفِيَّةِ. فَهَؤُلَاءِ قَبِلُوا أَنَّ يُطْلَقَ لَفْظُ الْحُبِّ عَلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْإِلَهِ إِذْ وَرَدَ اللَّفْظُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَلَكِنْ يَمْنَعُونَ أَنَّ تَكُونَ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ مِنْ نَوْعِ الْعِشْقِ وَالْوَلَةِ وَالْغَرَامِ الَّذِي يَحْدُثُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَإِنْسَانٍ آخَرَ وَيُنْكِرُونَ أَمْثَالَ الْأَلْفَاظِ الْحَسِّيَّةِ الَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ بَلَّةَ أَلْفَاظِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْآخَرَى الْغَامِضَةِ. وَكُلُّ مَا خَرَجَ عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ وَالشَّرْعِ وَلَمْ تَقْبَلْهُ الْبَدِيعَةُ وَلَا الطَّبْعُ فَهُوَ يُدْعَى بِالسَّطْحِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْأَثَمَةِ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ الصُّوفِيَّةِ لَمْ يَرْضَوْا عَنْ تِلْكَ «الدَّعَاوِي الطَّوِيلَةَ الْعَرِيضَةَ فِي الْعِشْقِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوِصَالِ الْمُغْنِي عَنْ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ قَوْمٌ إِلَى دَعْوَى الْإِتِّحَادِ وَارْتِفَاعِ الْحِجَابِ وَالْمُشَاهَدَةِ بِالرُّؤْيَةِ وَالْمُشَافَهَةِ بِالْخِطَابِ فَيَقُولُونَ قِيلَ لَنَا كَذَا وَقُلْنَا كَذَا وَيَتَشَبَّهُونَ فِيهِ بِالْحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ الَّذِي صُلِبَ مِنْ أَجْلِ إِطْلَاقِهِ كَلِمَاتٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَيَسْتَشْهِدُونَ بِقَوْلِهِ: أَنَا الْحَقُّ، وَبِمَا حُكِيَ عَنْ أَبِي يَزِيدَ الْبِيسْطَامِيِّ أَنَّهُ قَالَ: سُبْحَانِي سُبْحَانِي. وَهَذَا فَنٌّ مِنَ الْكَلَامِ عَظِيمِ ضَرَرِهِ فِي الْعَوَامِّ حَتَّى تَرَكَ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْفَلَاحَةِ فَلَاحَتَهُمْ وَأَظْهَرُوا مِثْلَ هَذِهِ الدَّعَاوِي. فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَسْتَلِذُّهُ الطَّبْعُ إِذْ فِيهِ الْبَطَالَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ مَعَ تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ بِذِكْرِ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ فَلَا تَعْجَزُ الْأَغْبِيَاءُ عَنْ دَعْوَى ذَلِكَ لَأَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ تَلَقُّفِ كَلِمَاتٍ مَخْبُطَةٍ مُزْخَرَفَةٍ»^(١) كَمَا نَوَّهَ بِذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ.

وَقَدْ بَلَغَ إِنْكَارُهُمْ ذَلِكَ حَدًّا إِبَاحَةَ الدَّمِّ. وَقَدْ يَكُونُ السَّطْحُ فِي رَأْيِ مُؤَلِّفِ الْإِحْيَاءِ

= دِينِي. وَقَدْ تَرَجَمْنَا كَلِمَةَ mysticisme بِالتَّصَوُّفِ تَسْمُحاً وَلَعْدَمِ وَجُودِ لَفْظِ آخَرٍ أَكْثَرَ مِلْأَمَةً وَإِلَّا فَإِنَّ بَعْضَ الْبَاحِثِينَ وَمِنْهُمْ مُسْتَشْرِقُونَ يَرَوْنَ أَنَّ الصُّوفِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ تَخْتَلِفُ عَنْ ذَلِكَ فَهِيَ أَكْثَرُ إِبْجَابِيَّةً.

(١) «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» ج ١، صَفْحَةُ ٣٦، الْمَكْتَبَةُ التِّجَارِيَّةُ بِمِصْرَ.

«كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، إمّا أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يُصدِّرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر، وإمّا أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدلّ على ضميره لقلّة مُمارسته للعلم وعدم تعلّمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة. ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلّا أنّه يُشوِّش القلوب ويدهش العقول ويُحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أُريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه»^(١).

بيد أنّ مؤلّف «المنقذ من الضلال» إمّا يقدّح في كلام العوامّ أصحاب الدعاوي الأغبياء الذين لم تيسّر لهم أساليب البيان الصحيحة ولم يتزوّدوا بتصيب وافر من العلم ولذلك نجده يدافع عمّا نسب إلى أبي يزيد البسطامي من شطحات ويحاول أن يتأوّلها إذا صحّت نسبتها إليه. ومن الواضح أنّ الغزالي حريص ألاّ يفتح باب التّصوّف ولا باب الفلسفة للناس إلّا للموهوبين والعلماء.

ومهما يكن من أمر فإنّنا لا نستطيع أن نُغفل في تراث الفكر الإنساني صفحات متألّقة بالثور من أزوع صفحاته ولا أن نُهمل في تاريخ الأدب العربيّ شأن البيان الصّوفيّ ثراً وشِعراً وهو ذروة شامخة من ذرا البيان الإنسانيّ قاطبة ولا أن نُضرب صفحاً عن تأثيره الواسع العميق في كنوز الغرب والشرق، وقصارانا ههنا أن نتبيّن من أمر ذلك البيان الصّوفيّ العربيّ بعض ما يجري منه مَجْرى الرّمز ولا سيّما في الشّعْر.

وإِذْ دراسة التّصوّف الإسلاميّ تُلقِي ضوءاً على أنواع التّصوّف المُشابهة بعض الشيء في الدّيانات الأخرى، وتُوضِح في اتّساعه نقاطاً غامضة كُمُشكِلة التّعبير الصّوفيّ. ذلك أنّ الغالبيّة الكبرى من الصّوفيّة المسلمين لم يكونوا «مكبوتين» على حدّ اضطرّاح التّحليل الفرويدي إذ كانوا مُتزوّجين، بل كان لبعضهم زيادة على الزّوجات جوارٍ ومع ذلك كانوا يستعملون تشبيهات الشعراء الغزليين وعواطفهم وأفكارهم ويَجْرون في التّعبير على طريقتهم. وربّما كان ابن الفارض أكبر شاعر صوفيّ سار على هذا النّهج وتغنّى بعاطفته كما يفعل الشعراء حين يُشَبِّون وقد كان له أولاد و«كان للشيخ جوارٍ بالهنسا يذهب إليهنّ فيُعْنين بالذّف والشّبابه وهو يرقص ويتواجد»^(٢) ويُعلّق ابن العماد في كتاب «شذرات الذهب» على ذلك بقوله: «ولكلّ قوم مشرب ولكلّ مطّلب وليس سماع الفسّاق كسماع سلطان العشاق»^(٣).

(١) المرجع نفسه والصّفحة نفسها.

(٢) (٣) «شذرات الذهب» لابن العماد طبع القاهرة ١٣٥١ ج ٥، ص ١٥٢.

وكذلك الفيلسوف الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي تَرَوَّجَ عدَّةَ مرَّاتٍ، وأسلوبه في بعض أشعاره أسلوب الغزل الصَّرف.

إنَّ كلَّ حالة باطنية في النَّفس تُحاول أن تَمْتدَّ إلى الخارج بالحركة وأن تَكْتَمِلَ بهذا الامتداد. لنضرب مثلاً الإحساس بالثَّور فإن أعيننا بمُجرَّد إحساسها به وتأثيره فيها تقوم بحركة مُطابقة ودفاع تجاه ذلك التَّأثير فتَضيق الحَدَقَة إن كان الثَّور شديداً ويتقلَّص الجسم البلُّوريُّ أو العدسة تقلَّصاً يُناسِبُ بُعد الشَّيء المرئيِّ وقربه.

وكذلك الفكرة أيَّة كانت حتى الفكرة البسيطة المُجرَّدة تُوحى إلينا على الأقلَّ بكلمة أو بكلمات إن لم نلفظها فإنَّنا نَخَيِّلُها وتعتلج في خواطرنا مُتلبِّسةً أشباح كلمات.

ومثل ذلك حياتنا الانفعالية تفيض بالعواطف والمشاعر المُتموِّجة من كلِّ نوع ولكِنَّها أيضاً تَتَضَمَّنُ ظواهر وأموراً عُضُويَّةً مختلفة كالحركات الخارجية وكإفرازات الغُدَد الصَّمِّ في أحوال الغَضَب أو الرُّضى والهِياج أو الارتياح والحبِّ أو الكُره وهلمَّ جِزاً.

وكذلك الإرادة لا تَلَبَّث حين تُلوح في أفق النَّفس أن تَجَنِّح إلى التَّحَقُّق في شكل عمل ما فكريٍّ أو غيره.

وكَلِّما كان التَّأثير كبيراً اشتركت جوانب النَّفس جميعها. ولا شكَّ أنَّ التَّجربة الصُّوفية من أقوى التَّجارب التي عاشها أصحابها وأعنفها، فلا غَرَو أن تهزَّ تلك التَّجارب نفوس أصحابها هزاً عميقاً وأنَّ يَظْهَرَ هذا التَّأثير المُشْتَبِك المُركَّب الخَصِيب في ضروب الأحوال والمَقامات من جهة وفي ألوان التَّعبير الفِكْريِّ الأدبيِّ الرَّاقِي من جهة أخرى. وإذا عَمَد الصُّوفيُّ إلى التَّعبير فلا بدَّ له في تَجَرِبَة ذَوْقِيَّة عميقة مُفَرَّدة شديدة الاستِحْواذ على النَّفس من أن يُحاول فيستنفد طاقات الحرف كُلِّها ويستنزف أنواع دلالات الكلمة وتفاوت إيماءات اللَّفْظ وتَشْعُب طُرُق البيان مُعوِّلاً في ذلك على ثقافته وعلى الثَّراث الفِكْريِّ والأدبيِّ الذي انتهى إليه. وهكذا نفهم أنَّ الصُّوفيَّ مُضْطَرَّ أن يَجْري على أساليب البيان الشَّائعة ويعزف على القيثارة التي لجرسِها وَقَعَ مُطْرِب في الأسماع والنُّفوس. وإنَّ كلام الغَزَل ألصق بالجبلة الإنسانية وأقرب إلى الطَّباع وأخفُّ على القلوب.

ونحن نُطلق هنا الرَّمز فيما نُطلقه على هذا التَّعبير الحسِّي الذي يَسْتَعْمِلُه الصُّوفيُّ ويريدون من ورائه المعاني الإلهية وعلى كلِّ تعبير لا تُقصد منه دلالة المباشرة وإنَّما تُقصد من ورائه دلالات أخرى خفية. وقد ذَكَّرنا مثل هذا الاتِّجاه في كلام ابن عربي الذي أوردناه آنفاً ولسنا في ذلك مُخالفين لما اعتمدَه المُفَكِّرون الحديثون في تفسير الرَّمز. ذلك أنَّهم يَسْتَعْمِلُون الرَّمز في مَعْنَيْن: الأوَّل «استعمال شيء حسيٍّ يُفيد إشارة إلى أمر لا

يُدرّكه الحسُّ بالاعتماد على نوع من الشَّبه بينهما يَعيه الخيال»، والثَّاني وهو أعمُّ وأوسع «يُرَادُّ به مُطلق الإشارة أو التَّعويض عن شيء بشيء آخر»^(١) وقد أَوْضَحْنَا ذلك قبلاً.

ولمَّا كانت الأمور الإلهية والتَّجارب الصُّوفية الرُّوحية لا يُحيط بها الوصف ولا يأتي عليها البيان في الغالب كان من الطَّبيعي أن يَعتمد الصُّوفية على أساليب غير مباشرة ولا سيَّما على التَّعبير الأدبيّ الشائع وما يخصُّ العشق والعواطف للإعراب عمَّا يَعْتَلِج في ضمائرهم وإبراز ما يَجول في عقولهم وقلوبهم، وكذلك كان من الطَّبيعي أن يُعَوِّلوا على الإشارة فهي «ما يَخْفَى عن المُتكلِّم كَشَفُّه بالعِبارَة لِلطَّافَة معناه». كما ذكر أبو نصر الطُّوسيّ صاحب «اللُّمع»^(٢). ويقول أبو عليّ الروذباري: «عِلْمُنَا هَذَا إِشَارَةٌ فإِذَا صَارَ عِبَارَةً خَفِيَّةً»^(٣). ويقول صاحب اللُّمع أيضاً: «الرَّزْمُ مَعْنَى بَاطِنٍ مَخْزُونٍ تَحْتَ كَلَامٍ ظَاهِرٍ لَا يَظْفَرُ بِهِ إِلَّا أَهْلُهُ». ثم يَسْتَشْهَد بِقَوْلِ الْقَنَاد:

إِذَا نَطَقُوا أَعْيَاكَ مَرْمَى رَمُوزِهِمْ وَإِنْ سَكَتُوا هِيَهَاتَ مِنْكَ اتِّصَالُهُ^(٤)

والمُتصوِّفون في الغالب يُؤثِّرون الكتمان على طريقة المُدرِّسين كما بَيَّنَّا ذلك آنفاً بل يَرَوْنَ ذلك من الأدب ومن حِفْظ السِّرِّ لَأَنَّ السِّرَّ «ما يَكُونُ مَصُوناً بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِي الْأَحْوَالِ»^(٥) كما يقول القُشَيْرِيُّ. ويذكرُ هَذَا الْمُؤَلِّفُ قَوْلَهُمْ أَيْضاً: «صُدُورُ الْأَحْرَارِ قُبُورُ الْأَسْرَارِ»^(٦) وقولهم كذلك: «لَوْ عَرَفَ زِرِّي سِرِّي لَطَرَحْتُهُ»^(٦).

ولقد لَقِيتُ طائفة من الصُّوفية إنكاراً كبيراً وأرهقوا من أمرهم عُسراً أو أُبَيِّحَتْ دِمَاؤُهُمْ. والحَلَّاجُ مثل يتداوَله الصُّوفية ويُشِيرُونَ إِلَيْهِ. ويقول أبو الفتح الشُّهرورديّ في قصيدته الجميلة:

أَبْدَأُ تَحَنُّنَ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحَ وَوَصَالَكُمْ رَيْحَانَهَا وَالرَّاحَ
وَقُلُوبَ أَهْلِ وِدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ وَإِلَى لَذِيذِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحَ
وَارْحَمْتُمَا لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا سَتَرَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى فُضَّاحَ

«Dictionnaire d'Hatzfeld, Darmesteter et Thomas».

(١)

«Nouveau traité de psychologie». G. Dumas tome IV fascicule, 2.

وكذلك

(٢) طبع لندن ص ٣٣٧.

(٣) المَرَجِعُ نَفْسُهُ وَالصَّفْحَةُ نَفْسُهَا.

(٤) المَرَجِعُ نَفْسُهُ ص ٣٣٨ وَفِي الْأَصْلِ أَعْجَزَكَ فَسَمِعْنَا لَأَنْفُسِنَا بِهَذَا التَّبْدِيلِ.

(٥) الرِّسَالَةُ فَصْلُ «وَمِنْ ذَلِكَ السِّرِّ».

(٦) الرِّسَالَةُ فَصْلُ «وَمِنْ ذَلِكَ السِّرِّ».

بالسّر إن باحوا تُباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تُباح
وإذا هم كتموا تحدّث عنهم عند الوُثْأَة المَدْمَع السَّقّاح
وبَدَث شواهد للسقام عليهم فيها لُمُشْكِل أمرهم إيضاح

ولذلك كلّه كان الصّوفيّة يؤثرون الإشارة وعدم البُوح حَقّاً لدمائهم من جهة ولأنّ
الإشارة تُطلق الفِكرَة وتُحرّرها على حين أنّ العبارة تُقيّدُها وتحدّها. يقول ابن الفارض:
بها لم يُبَح من لم يُبَح دمه وفي الـ إشارة معنى ما العبارة حَدّت

على أنّ ابن عربي يُفرّق في قضيّة الكتمان فيرى أنّ «كتمان المحبّة حجاب فإنّه دليل
على عدم استِحكام سُلطانها بل لا يَصِحُّ كتمان المحبّة أصلاً فإنّ سلطان المحبّة أقوى من
كلّ سلطان» ويستشهد على ذلك بقول الخليفة هارون الرّشيد:

ملك الثّلاثُ الأنسا تُعْناني وحلّلن من قلبي بكلّ مكان
مالي تُطاوعني البريّة كلّها وأطيعهنّ وهنّ في عصياني
ما ذاك إلّا أنّ سلطان الهوى وبه قوين أعزّ من سلطاني
ويُنَبِّه الصّوفيّ الفيلسوف على أنّه «لا يَصِحُّ كتمان المحبّة فإنّ لسانها لسان حال ليس
لسان مقال كما قيل:

من كان يزعم أنّ سيكتمُ حبه حتى يُشكّك فيه فهو كذوب
الحبّ أغلبُ للَقُود بَقَهْرِهِ من أنّ يرى للسّتر فيه نصيب
وإذا بدا سرُّ اللّيب فإنّه لم يبدُ إلّا والفتى مغلوب
إنّي لأحسد ذا الهوى مُتَحَفِظاً لم تَهْنِه أعين وقلوب
وأما الكتمان المذكور عند أصحابنا فهو إلّا يَنطِق باسم محبوبه لإنسان واحد وإليه
أشار القائل حيث قال:

باح مجنونٌ عامرٌ بهوّه وكتمتُ الهوى فمستُ بِوَجْدي
فإذا كان في القيامة نُودي من قنيل الهوى تقدّمتُ وحدي
ويلخّص الكاتب الصّوفيّ الكبير هذا الأمر فيقول: «والجامع لباب الكتمان أنّ
صاحبه ذو عقل ونظر فهذا ناقص عن درجة الحبّ كما قيل:
ولا خيرَ في حبّ يُدبّر بالعقل

وقال آخر: الحبّ مالك النّفوس من العقول والكتمان حجاب»^(١) يبيّن أنّ قضيّة التّعبير
الصّوفيّ أعمق من ذلك كلّه وأوسع وأشدّ اشتباكاً.

(١) كتاب «الحجب» في «مجموع الرّسائل الإلهيّة» مطبعة السّعادة بمصر، ١٩٠٧، ص ٤٨، ٤٩.

يبدو ممّا سَلَفَ أَنَّ الْمُتَصَوِّفَ إِنَّمَا يَصْطَنعُ الرَّمْزَ وَالْإِشَارَةَ لَا غَيْرَ. وَالَّذِينَ تَنَاولُوا بَحْثَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنْ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ فِي الْغَرْبِ انْتَبَهَوْا لِمِثْلِ هَذَا النَّمَطِ مِنَ الْقَوْلِ وَحْدَهُ. وَلَكِنَّا فِي دِرَاسَتِنَا لِلتَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَرَبِيِّ نَجِدُ بِفَضْلِ اتِّسَاعِهِ وَدَقَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ التَّعْبِيرَ الصُّوفِيَّ يَتَرَجَّعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ: الرَّمْزُ مِنْ جِهَةٍ، وَالتَّجْرِيدُ مِنْ جِهَةٍ مُقَابِلَةٍ. فَالشَّاعِرُ إِمَّا أَنْ يَعْتَمِدَ الرَّمْزَ وَالْإِشَارَةَ وَالْإِيمَاءَ وَالِاسْتِعَارَةَ وَالتَّشْبِيهَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ لِتَقْرِيبِ أَفْكَارِهِ مِنَ الْمَأْلُوفِ الْمُتَعَارَفِ وَلِلإِيحَاءِ بِعَوَاطِفِهِ وَلِتَصْوَيرِ بَعْضِ مَا عَانَاهُ وَذَاقَهُ، وَإِمَّا أَنْ يُدْرِكَ مَا فِي تَجْرِبَتِهِ مِنْ أَسْرَارٍ تَتَأَبَّى عَلَى أَدَقِّ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ وَتَتَصَعَّبُ عَلَى أَغْنَى وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ وَتَعْتَصِصُ عَلَى الْكَيْنِ وَجُوهِ الْقَوْلِ. وَعِنْدئذٍ يَتَكَلَّمُ فَإِذَا هُوَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ، وَيَنْطِقُ فَإِذَا هُوَ إِلَى الْعِيِّ وَالْفَهَاهَةِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يُتَرَجِّمَ فَإِذَا هُوَ يَتَلَكَّأُ وَيُعِيدُ وَيُتَمِّمُ وَيُجَمِّعُ.

لِنَتَأَمَّلَ مِنْ كَتَبِ هَاتَيْنِ الْحَالَيْنِ وَلِنُحْلِلْهُمَا بَعْضَ الشَّيْءِ نَجِدُ أَنَّ الصُّوفِيَّ حِينَ يَتَكَلَّمُ أَوْ يَكْتُبُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ رَهْنُ تَجْرِبَتِهِ وَحَالِهِ إِذْ ذَاكَ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ خَرَجَ مِنْهُمَا. فَإِذَا كَانَ الْأَوَّلُ كَانَ ذَلِكَ مُتَعَلِّقًا بِشِدَّةِ تَجْرِبَتِهِ وَدَرَجَةِ حَالِهِ وَرَبَّمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ فِي اللُّغَةِ الْفَاطَا مَهُمَا دَقِّقَتْ تُعَيِّنُهُ عَلَى وَصْفِ مَا يُعَانِيهِ وَيُعَايِنُهُ وَيَجِدُهُ فَكَأَنَّهُ يُبَصِّرُ فِي بَوَارِقِ تَجْرِبَتِهِ وَ«لَوَائِحِهَا وَلَوَائِعِهَا وَطَوَالِعِهَا» أَنْوَاراً تُثِيرُهُ وَتَبْدُو لَهُ أَنْصَعُ مِنَ النَّهَارِ فِي بَعْضِ الْاِعْتِبَارَاتِ وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تَبْدُو عَاتِمَةٌ قَاتِمَةٌ غَامِضَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَعَالِمِ الْحُرُوفِ. لَأَسْمَحَ لِنَفْسِي بِتَشْبِيهِ حَدِيثٍ. ثَمَّةَ أَضْوَاءَ كَثِيرَةٍ لَا تُرَى وَإِنْ كَانَتْ أَشَدَّ كَشْفًا مِنْ طَيْفِ الثُّورِ الْمَرْتِي. فَنَحْنُ نَعْلَمُ مِثْلًا أَنَّ الْأَشْعَةَ الْجِيمِيَّةَ وَالْأَشْعَةَ السَّيْنِيَّةَ فِي الْفِيزِيَاءِ تَكْشِفُ مَا لَا يَكْشِفُهُ طَيْفُ الثُّورِ الْمَرْتِي وَلَكِنَّهَا لَا تَضِيءُ لِأَبْصَارِنَا الْأَجْسَامِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْأَجْسَامِ بَعْضُ خَصَائِصِ الثَّالِقِ. كَذَلِكَ مَا يُدْرِكُهُ الصُّوفِيُّ فِي تَجْرِبَتِهِ رَبَّمَا لَا يُبَيِّنُ لَهُ مُفْرَدَاتِ الْكَلِمِ وَصُورِ الْبَيَانِ وَهُوَ فِي قَبْضَةٍ وَجَدَهُ وَفِي اضْطِلَامِ الْأَنْسِ بِالْمَوْجُودِ فِي وَجَدِهِ. مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ الْمَغَامِرِ الَّذِي يُعَانِي تَجْرِبَةَ خَطِيرَةٍ فَهُوَ يُتَمِّمُ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ. وَحَصَرَهُ وَعِيَهُ وَتَمَتَّتَهُ أَبْلَغَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ دَلَالَةً مِنْ عِبَارَاتِ الْبُلْغَاءِ. ذَلِكَ أَنَّ الصُّوفِيَّ يُسَاقُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى رَفْضِ التَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ كُلِّمَا وَجَدَ نَفْسَهُ تُجَاهَهَا. بَلْ يَنْصَرِفُ أَيْضًا عَنْ مُرَاعَاةِ صِحَّةِ الْأَلْفَاظِ وَانْسِجَامِهَا وَإِعْرَابِهَا فَكَأَنَّمَا زُلْزَلَ كِيَانُهُ زَلْزَالًا شَدِيدًا فَزُلْزَلَ بِدَوْرِهِ كِيَانِ الْأَسَالِيبِ الصَّحِيحَةِ الْمُتَعَارَفَةِ. وَبَيَانُهُ الْغَامِضُ الْمُسْتَغْلِقُ يَبْدُو لَنَا قَمَّةً فِي الْبَلَاغَةِ بِرَغْمِ ظَاهِرِ الْمُهِمَلِ وَغَيْرِ الْمَصْقُولِ. وَدِرَاسَةُ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْبَيَانِ الْقَوِيِّ الْمُنْهَارِ، إِذَا صَحَّ هَذَا الْوَصْفُ الْمُتَضَادُّ، تُؤْمِنُ إِلَى قُوَّةِ اتِّجَاهِ التَّجْرِبَةِ وَشِدَّةِ انْدِفَاعِهَا وَعُلُوِّهَا السَّامِيِّ.

وَإِذَا كَانَ الصُّوفِيُّ خَارِجًا مِنْ حَالِهِ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَيَصِفُهَا مِنْ بَعِيدٍ. إِنَّهُ يَتَغَنَّى

بتلك التَّجَرِبَةِ إذا ملك أداة الغناء وهي ههنا في بحثنا الشعر، وهو في ذلك كله متأثر بثقافته الأدبية وملكوته الشعرية التي استقامت له بدراسة غيره من الشعراء. ولذلك يتسبّع أساليبهم ويقتبس صُورهم وتشبيهاتهم على حين ينساب الاتجاه الصوفي في قريضه في الحين بعد الحين ويتردد كما ينساب ويتردد اللحن المطرب في موسيقى جميلة.

الصوفي الأول يبحث ويُقَبِّع عن السرِّ أو سرِّ السرِّ ويؤدُّ لو ينتهي إلى حمى الذات ولكن هيهات، فیرتدُّ لا يسعفه بيان. يقول عبد القادر الجيلاني:

وكم سائلٍ عن سرِّ ليلي ردَّدته بعمياء من ليلي بغير يقين
يقولون حدَّثنا فأنت أمينها وما أنا إن حدَّثتهم بأمين

ويلتمس أبو سعيد الخراز إلى الحبيب كلَّ حيلة باذلاً كلَّ جهد حتى لو كان الجهد مُجرَّد خيال فيُنشِد:

أسألكم عنها فهل من مُخَبِّرٍ فمالي. بنعم مبد نأت دارها علم
فلو كنت أدري أين خيم أهلها وأي بلاد الله إذ ظعنوا أئروا
إذن لسلكتنا مسلك الرِّيح خلفها ولو أصبحت نغم ومن دونها النجم

والصوفي الثاني يتناول الأوصاف الخارجية والسمات الظاهرة، وعندئذ تتفاوت العبارة بتفاوت الموهبة ودرجة البلاغة. يشدو ابن الفارض فيقول:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها خبير أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

إننا ههنا إذن نُمَيِّز في البيان الصوفيَّ طريقتين واضحين وهما طريق الرَّمز وطريق التَّجريد الصُّرف.

بيد أن الرَّمز والتَّجريد على حدِّ اصطلاحنا هذا ليسا في الحقيقة إلا وجهين لقضية قديمة اشتهرت في علم الكلام ولا سيما في الكلام على ذات الله وصفاته وهي قضية التشبيه والتنزيه. وبحثها واسع مُستفيض مُشتبك جدًّا في علم الكلام، ولن نعرض لجوانبها إلا عند الحاجة لبيان حقيقة التعبير الصوفي.

أهم مصدر لإلهام المتصوفين في الإسلام هو القرآن الكريم. وقد ورد فيه التنزيه والتشبيه، وهما يظهران بوضوح في الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) فقد وصف نفسه جلَّ وعلا بأنه السميع البصير وهما صفتان للناس بعد أن

(١) سورة الشورى ٤٢ : ١١.

نفى عن نفسه أي شبه بالأشياء. وقد انتبه الصوفيّة لهذا التّضادّ. سئل أبو سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ قال: «بجمعه بين الضّدين»^(١).

ومن المعلوم أنّ فرقاً دينيّة مختلفة نشأت بالنسبة إلى تفهّم الذات العليّة وأوصافها. وقد اتّجهت المعتزلة إلى تعطيل صفات المعاني وأثبتها أهل السنّة والجماعة فدعوا بالصّفاتيّة بصرف النظر عن المُجسّمة والفرق الأخرى المتعدّدة. ثمّ اختلف الصّفاتيّة من أهل السنّة والجماعة اختلافاً متنوعاً في اعتبارات الأسماء والصّفات وأنواعها وتصنيفها وإن كان لا يمسّ هذا الاختلاف صحّة العقيدة الأساسيّة. ونريد هنا أن نقاوم ميلنا إلى التّفصيل في هذا البحث فنقتصر على ما أجملناه. ولقد كان لذلك كلّ أثر في أفكار الصّوفيّة وعباراتهم واعتباراتهم.

ولا يقتصر الأمر على بحث صفات الله جلّ ثناؤه وإنّما يتناول أموراً أخرى دينيّة كطبيعة المَعاد وحقيقة الثّواب والعقاب وأمثال ذلك. ونجد أيضاً أنّ القرآن الكريم حين يتناول ذلك يعتمد التّمثيل في كثير من المواضع ويتجاوز التّمثيل في مواضع أخرى فيومئ إلى شؤون لا يُمكن أن تُدرّك. لناخذ مثلاً سورة الواقعة ففيها وصف لحال السّابقين المُقرّبين ولحال أصحاب اليمين ونجد مُفسّراً مثل البيضاويّ وهو من أهل السنّة والجماعة يقول في تفسيره ما يلي: «كأنّه لما شبّه حال السّابقين في التّنعّم بأعلى ما يُصوّر لأهل المدن شبّه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يمتّناه أهل البوادي إشعاراً بالتّفاوت بين الحالين». وإلى جانب التّمثيل والوصف المحسوس نتلو في السّورة نفسها هاتين الآيتين الكريمتين: ﴿غَنّ قَدَرًا يَتَقَرَّرَ الْمَوْتُ وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ أَنْ يُدْرَكَ أَمْثَلُكُمْ وَتُشِيعُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) أي نُبدّل منكم ومكانكم أشباهكم (الأمثال جمع مثل) فتخلق بذكلكم، أو نُبدّل صفاتكم (الأمثال جمع مثل) ونُنشِركم في خلق أو صفات لا تعلمونها. وهكذا نتجاوز التّمثيل إلى أمور غيبيّة يتعدّد على الإنسان أن يتصوّرها. فهذا التّقابل بين الرّمز والتّجريد،

(١) تُوفي الخراز سنة ٢٧٧ هـ ويُنسب مثل هذا القول تماماً إلى المُفكّر المسيحيّ الألمانيّ نيكولاوس فون كوزا «Nikolaus von Cusa» المعروف في اللّاتينيّة باسم «Nicolaus Cusanus» عاش سنة ١٤٠١ م فقد عرّف الله بأنّه «coincidentia oppositorum» ومن المعلوم أنّ أقوال الخراز وغيره مذكورة في كُتب الشيخ محيي الدّين بن عربيّ وغيره وترجم قسم منها إلى اللّاتينيّة. ويصعب الجزم هل أخذ فون كوزا هذا التعريف عن الخراز أم كان ذلك من قبيل توارّد الخواطر. لكنّ تأثير التّصوّف في أدب الغرب وأفكاره الدّينيّة لا يُمكن إنكاره بوجه من الوجوه فهو من الثّرات الذي انتقل أيضاً إلى أوربّة وأثّر في نهضتها. وقد ظهر تأثير ابن عربيّ في المُفكرين اللّاهوتيين الأوربيين أمثال إكهارت وكذلك في الشّاعر الإيطاليّ دانتي من جهة الخيال.

بين التشبيه والتنزيه، بين التمثيل والاتجاه الغيبي نعتقد أنه من خصائص الفكر الديني خاصة والفكر الصوفي عامة.

الحلاج ورفضه الرمز:

لنرجع إلى النصوص الصوفية ولنختَرِ أول الأمر مُتصوِّفين اثنين يُمثِّلان هذين الطَّرفَيْنِ المُتقَابِلَيْنِ أَشدَّ التَّمثِيلِ وَلتَتَبَيَّنَ عن قُرْبِ طريق كُلِّ في التَّعبير. وهكذا نجد أنفسنا إذ نشرح الرَّمزَ عند الصُّوفِيَّةِ مَسْوقِينَ لَشَرْحِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَرَفُضُ الرَّمزَ وَتَسْتَغْنِي عن التَّشْبِيهِ. ولقد قِيلَ منذ القديم: «وَبُضِّدَهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ»^(١).

ولما كان موضوعنا الأصلي بَحْثَ الرَّمزِ جعلنا البَحْثَ في تَحَامِي الرَّمزِ وَرَفْضِهِ وإِثَارِ التَّنْزِيهِ واعتماد التَّجْرِيدِ فَرَعاً لِمَوْضُوعِنَا وَتَطَرُّقاً إِلَيْهِ. فنحن نُحَاوِلُ بَيَانِ الرَّمزِ حِينَ نُحَاوِلُ بَيَانِ طَرِيقَةِ نَفْيِهِ.

إنَّ رَفْضَ الرَّمزِ طَرِيقَةٌ يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْمُتَصَوِّفُونَ. فَكَلَّمَا سَاقَتْهُمْ الْعِبَارَةُ إِلَى اسْتِعْمَالِ صِفَةٍ حَسَنَةٍ أَوْ غَيْرِ حَسَنَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْكَائِنَاتِ الْمُحَدَّثَةِ سَرْعَانِ مَا يُعْلِنُونَ بَعْدَهَا عن المَرَادِ، فَهَمَّ يَنْفُونَهَا وَيُظْهِرُونَ بُطْلَانَهَا وَيَبْلِغُونَ هَكَذَا إِلَى نَفْيِ كُلِّ مَا هُوَ قَائِمٌ وَمُتَدَاوِلٌ فِي عَالَمِ الظُّوَاهِرِ وَفِي مَجَالِ الْأَحْدَاثِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَلَعَلَّ الصُّوفِيَّ الْكَبِيرَ الَّذِي يُمَثِّلُ هَذَا الْإِتِّجَاهَ بِحَقٍّ هُوَ الْحَلَّاجُ (حول ٢٤٤/٨٥٨ - ٣٠٩/٩٢٢). وَإِنَّ مِنْ غَرَائِبِ الْقَضَاءِ أَنْ يَكُونَ الْحَلَّاجُ هُوَ صَاحِبُ هَذَا الْإِتِّجَاهِ الشَّدِيدِ فِي التَّنْزِيهِ وَإِنْكَارِ التَّشْبِيهِ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ حَتَّى لَنَزْعِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَخْصَى أَسْلُوبِ بَيَانِهِ وَهُوَ الَّذِي أَتَاهُمْ بِالْحُلُولِ وَقُتِلَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْقُشَيْرِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ رِسَالَتِهِ قِطْعَةً فَرِيدَةً فِي هَذَا الْبَابِ لِلْحَلَّاجِ نَحْبُ أَنْ تَذْكُرَهَا تَوَظُّعاً لِبَيَانِ أَسْلُوبِهِ. وَذَكَرَهُ لَهَا فِي مُقَدِّمَةِ الرِّسَالَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِعْجَابِهِ بِالْحَلَّاجِ وَاعْتِقَادِهِ صِلَاحَهُ وَلَكِنْ إِغْفَالَهُ أَنْ يُتَرَجِّمَ لَهُ فِيمَنْ تَرَجَّمْ لَهُمْ فِي رِسَالَتِهِ مُوَافَقَةً لِحَمُورِ النَّاسِ وَطِيٍّ لِلْخِلَافِ. «قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَلْزَمَ الْكُلَّ الْحَدِيثَ لِأَنَّ الْقِدَمَ لَهُ. فَالَّذِي بِالْجِسْمِ ظُهُورُهُ فَالْعَرَضُ يُلْزِمُهُ. وَالَّذِي بِالْأَدَاةِ اجْتِمَاعُهُ فَقُوَاهَا تُمَسِّكُهُ. وَالَّذِي يُؤَلِّفُهُ وَقْتُ يُفَرِّقُهُ وَقْتُ. وَالَّذِي يُقِيمُهُ غَيْرُهُ فَالضَّرُورَةُ تَمْسُكُهُ. وَالَّذِي الْوَهْمُ يَطْفَرُّ بِهِ فَالتَّصَوُّيرُ يَرْتَقِي إِلَيْهِ. وَمَنْ آوَاهُ مَحَلٌّ أَدْرَكَهُ أَيْنَ. وَمَنْ كَانَ لَهُ جِنْسٌ طَالَبَهُ كَيْفٌ. إِنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يُظَلُّهُ فَوْقَ، وَلَا يَقْلُّهُ تَحْتَ، وَلَا يُقَابِلُهُ حَذٌّ، وَلَا يُزَاحِمُهُ عِنْدَ، وَلَا يَأْخُذُهُ خَلْفَ، وَلَا يَحُدُّهُ أَمَامَ، وَلَمْ يُظْهِرْهُ قَبْلَ، وَلَمْ يَنْفِهِهُ بَعْدَ، وَلَمْ يَجْمَعْهُ كُلٌّ، وَلَمْ يَوْجِدْهُ كَانَ، وَلَمْ يُفْقِدْهُ لَيْسَ. وَصِفُهُ لَا صِفَةَ لَهُ، وَفِعْلُهُ لَا عِلَّةَ لَهُ،

(١) نصف البيت للمُتَنَبِّي.

وَكَوْنَهُ لَا أَمَدَ لَهُ. تَنَزَّهَ عَنْ أَحْوَالِ خَلْقِهِ، لَيْسَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ مَزَاجٌ وَلَا فِي فِعْلِهِ عِلَاجٌ، بَايَنُهُمْ بِقَدَمِهِ كَمَا بَايَنُوهُ بِحُدُوثِهِمْ. إِنْ قُلْتَ مَتَى فَقَدْ سَبَقَ الْوَقْتُ كَوْنَهُ، وَإِنْ قُلْتَ هُوَ فَالْهَاءُ وَالْوَاوُ خَلْقُهُ، وَإِنْ قُلْتَ أَيْنَ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْمَكَانُ وَجُودُهُ. فَالْحُرُوفُ آيَاتُهُ، وَوُجُودُهُ إِثْبَاتُهُ، وَمَعْرِفَتُهُ تَوْحِيدُهُ، وَتَوْحِيدُهُ تَمْيِيزُهُ مِنْ خَلْقِهِ. مَا تَصَوَّرَ فِي الْأَوْهَامِ فَهُوَ بِخِلَافِهِ. كَيْفَ يَحُلُّ بِهِ مَا مِنْهُ بَدَأَ أَوْ يَعُودُ إِلَيْهِ مَا هُوَ أَنْشَأَهُ. لَا تُمَاقِلِ الْعَيُونَ، وَلَا تُقَابِلِ الظُّنُونِ. قُرْبُهُ كِرَامَتُهُ، وَبُعْدُهُ إِهَانَتُهُ. عُلُوُّهُ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّلٍ، وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيْرِ تَنْقُلٍ. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ الَّذِي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

أَرَأَيْتَ إِلَى هَذَا النَّصِّ الْفِكْرِيِّ الْمُجَرَّدِ كَمْ يَحْرَصُ مُطْلَقَ الْحِرْصِ عَلَى التَّنْزِيهِ وَيَمْنَعُ أَيَّ مُلَابَسَةٍ أَوْ اتِّصَالٍ بِالْمَوْصُوفِ وَلَوْ بِالْأَوْهَامِ أَوْ بِمُجَرَّدِ الْأَلْفَاظِ وَالضَّمَائِرِ فَكَيْفَ بِالصُّورِ وَالنَّشَائِيهِ وَغَيْرِهَا

وَلَيْسَ هَذَا شَأْنُ الْحَلَّاجِ فِي هَذَا النَّصِّ وَحْدَهُ وَإِنَّمَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى الْغَالِبِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَعِنْدَ كُلِّ عِبَارَةٍ. سُئِلَ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ وَمِثْلُ هَذَا السُّؤَالِ مَأْلُوفٌ عِنْدَ الْعُبَادِ وَالصُّوْفِيَّةِ وَلَكِنَّ الْحَلَّاجَ يَصْدَمُهُ لَفْظُ الطَّرِيقِ وَمَعْنَاهُ الْحَسِّيُّ بَلْ مَعْنَاهُ الْمَجَازِيُّ أَيْضاً، وَيَصْدَمُهُ لَفْظُ الْجَزِّ إِلَى لَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يُثَبِّتُ وَجُودَ الْإِنْسَانِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ وَيُشِيرُ إِلَى التَّحْيِيزِ فِي مَكَانٍ أَيْضاً وَهَلَمْ جَزْأً أَيْ يَتَضَمَّنُ طَرَفاً مِنَ التَّشْبِيهِ لَا يَقْصِدُهُ السَّائِلُ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ كَافٍ لِإِنْكَارِ الْحَلَّاجِ هَذَا التَّعْبِيرَ فَيُجِيبُ: «الطَّرِيقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ أَحَدٌ». قَالَ السَّائِلُ لَهُ: «بَيْنَ». قَالَ: مَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَى إِشَارَاتِنَا لَمْ تُرْشِدْهُ عِبَارَاتُنَا» (١). وَإِذَا اتَّضَحَ مَا نُرِيدُ بَقِيَّ أَنْ نُورِدَ بَعْضاً مِنَ الشُّعْرِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى هَذَا التَّهَجُّجِ. لِنَقْرَأْ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الْعَجَبِيَّةَ الْفَرِيدَةَ فِي هَذَا الْبَابِ لِهَذَا الشَّاعِرِ الصُّوفِيِّ فِي دِيْوَانِهِ نَجْدُهُ فِي غَمْرَةٍ وَجَدَهُ يَنْشُدُ فَإِذَا نَشِيدُهُ اسْتِجَابَةٌ وَدُعَاءٌ وَتَمَتُّعَةٌ وَعِزٌّ وَإِعْيَاءٌ. ثُمَّ كَأَنَّمَا يَفِيقُ مِنْ هَذِهِ الْغَمْرَةِ الشَّدِيدَةِ فَهُوَ يَرْتِي لِنَفْسِهِ وَيُنَوِّهُ بِحَبِّهِ فَإِذَا كُلُّ بَيَانِهِ وَتَرْجُمَتِهِ إِيمَاءٌ. وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ هَيَّاهُتَ أَنْ يَهْتَمَّ بِلَفْظٍ أَوْ تَرْوِيقٍ:

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا سَرِّي وَنَجْوَائِي	لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا قَصْدِي وَمَعْنَائِي
أَدْعُوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونِي إِلَيْكَ فَهَلْ	نَادَيْتُ إِيَّاكَ أَمْ نَاجَيْتُ إِيَّائِي
يَا عَيْنَ عَيْنٍ وَجُودِي يَا مَدَى هِمَمِي	يَا مَنْطِقِي وَعِبَارَاتِي وَإِعْيَائِي
يَا كُلَّ كُلِّي وَيَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي	يَا جُمْلَتِي وَتَبَاعِيضِي وَأَجْزَائِي
يَا كُلَّ كُلِّي وَكُلَّ الْكُلِّ مُلْتَبِسٍ	وَكُلَّ كُلِّكَ مَلْبُوسٍ بِمَعْنَائِي
يَا مَنْ بِهِ عَلِقْتُ رُوحِي فَقَدْ تَلَفْتُ	وَجَدّاً فَصَرْتُ رَهيناً تَحْتَ أَهْوَائِي

(١) دِيْوَانُ الْحَلَّاجِ جَمْعُ مَاسِينُونَ ص ٨٩.

أبكي على شجني من فُرقتي وطني
أدنو فيُعِدني خوفي فيُقلِّقني
فكيف أصنع في حبِّ كَلِفْتُ به
قالوا تَدَاوْ به منه فقلتُ لهم
حبِّي لمولاي أضناني وأسقمني
إنِّي لأزmqه والقلب يعرفه
يا ونيح روعي من روعي فوا أسفي

انظر إلى استعماله اسم الفعل «لَبَّيْكَ» وتكريره له، فكلُّ ما يُفِيدُه هو الاستجابة مع
الحركة الدَّالَّة عليها. وتأمَّل هذا التَّقابُل:
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل
وكذلك «أدنو فيُعِدني خوفي فيُقلِّقني شوق».

مثل هذا التَّقابُل يزيد في تعريفنا خصائص الفكر الصُّوفيِّ.

وإذ أراد النداء لم يجد إلَّا ما يَشْعُرُ به في نفسه كالسُّرِّ والنَّجوى والقصد والمعنى
والوجود والهمة والطُّق والصُّمت ونفسه كاملة وسَمْعُه وبصره وجملته وتفصيله.

ويبدو لنا أنَّ وَجَدَ الصُّوفيُّ لهذا وبيانه صورة بسيطة مُخْتَزَلة من وَحْيِ الرُّسول عليه
الصَّلَاة والسَّلَام. نذكر هذا لإيضاح بعض جوانب التَّجربة الصُّوفيَّة وخصائصها. ولقد كان
الصُّوفيَّة يَطْمَعون في التَّشَبُّه بالنَّبِيِّ العظيم وبِكَماله على أَنَّهُ الأُسوة العُلَيَا في جميع أحواله.

وتدلُّ أخبار الوَحْي على أَنَّ الرُّسول كان يَرى وَيَسْمع فيه فلقد ورد في التَّنْزيل ﴿وَلَقَدْ
رَأَاهُ الْآلُفِّي الْمُبِينِ ١٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ١٤﴾^(١) وكذلك جاء في الْخَبَر أَنَّ الْوَحْيَ كان يَأْتِيهِ
«مثل صَلَصلة الْجَرَس»؛ وإذ كان الأمر كذلك لا نَسْتَغْرِب اعتماد الشَّاعر الصُّوفيِّ على
حَاسَّتِي السَّمْع والبصر الْعَقْلِيَّتَيْنِ. فكأنَّه كان يسمع صَوْتاً خَفِيّاً في تَجْرِبَتِهِ التي يذكُرُها
وكأنَّه يَرى الصَّوْت إنْ جاز هذا التَّعبير. وكذلك قال: يا سَمْعِي ويا بَصْرِي. ومن
المعروف اتِّصال الحواسِّ بعضها ببعض في حال شديدة تَبْلُغ النَّفْس فيها أَوْج انتباهها
وتَوَثُّرها.

حتى إذا صَحَا الواجد وشدا لَوَغَتَه واضْطِلاله وارتاح بعض الشَّيء ونظر إلى نفسه

(١) التَّكْوِين ٨١: ٢٣، ٢٤.

استطاع بعد هذه التّعابير المُجرّدة التي تَغْمُضُ أحياناً كُغْمُوضِ التَّجْريّة أن يعمد إلى التّشبيه:

كَأَنَّنِي غَرِقَ تَبْدُو أَنَامِلُهُ تَغَوُّثاً وَهُوَ فِي بَحْرِ مِنَ الْمَاءِ

ثمّ يعود إلى نَجْوَى حبيبه الذي في ضميره والذي لا غَوُثَ له إلّا هو:

وليس يعلم ما لاقَيْتُ من أحد
ذاك العليم بما لاقَيْتُ من دَنَفٍ
وفي مَشِيتِهِ مَوْتِي وإخِيائِي
يا عِشْ رُوحِي يا دِينِي ودُنْيائِي
قل لي فدَيْتُكَ يا سَمْعِي ويا بَصْرِي
لَمْ ذِي اللّجَاجَةِ فِي بُعْدِي وإِقْصَائِي
إِنْ كُنْتُ بِالْغَيْبِ عَنْ عَيْنِي مُحْتَجِجاً
فالقلب يَرعَاكَ فِي الإِبْعَادِ والنَّبَائِي

إنّ لفظ «التّائي» إن صَحَّتْ رِوَايَتُهُ لا يَقْدَحُ ضَعْفُهُ هُنَا فِي قُوَّةِ الْقَصِيدَةِ بَلْ هَذَا الضَّعْفُ فِي التَّعْبِيرِ يُظْهِرُ شِدَّةَ الْإِتِّجَاهِ كَمَا نَجِدُ فِي مُحَاوَلَاتِ النَّحْتِ الْحَدِيثَةِ أَنَّ التَّجْوِيفَ قَدْ يُؤْمَى إِلَى الْبُرُوزِ، وَكَمَا يَشِيرُ السَّلْبُ إِلَى الْإِيجَابِ.

أتريد مثلاً آخر من هذا المَعْدِنِ؟ إِلَيْكَ أَيْضاً هَذِهِ الْقِطْعَةُ اللَّطِيفَةُ:

لي حبيب أزور في الخَلَوَاتِ
ما تَرَانِي أَصْغِي إِلَيْهِ بِسَمْعٍ
حاضر غائب عن اللَّحْظَاتِ
كِي أَعْيِي مَا يَقُولُ مِنْ كَلِمَاتٍ
ق ولا مثل نغمة الأصوات
ه على خَاطِرِي بِذَاتِي لِذَاتِي
ظاهر باطن قريب بعيد
هو أدنى من الضَّمِيرِ إِلَى الْوَهْدِ
سم وأخفى من لائِحِ الْخَطَرَاتِ

ألست تجد أنّ التّعبير شديداً التّجريد وتَعَجَّبْ لَهُذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ دُونِ شَكْلِ وَلَا نُطْقٍ وَلَا صَوْتٍ ثُمَّ تَحَارُّ فِي الْحَبِيبِ ذِي الصِّفَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ الْمُتَضَادَّةِ لَا تَنَالُهُ رُسُومُ الصِّفَاتِ وَلَا غَيْرَهَا، وَهَكَذَا... وَلَا شَكَّ أَنَّ مَرُونَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَظِيمَةَ تُسَاعِدُ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الْفِكْرِيِّ الدَّقِيقِ الْمُجَرَّدِ كَمَا تُسَاعِدُ فِي الْمُقَابِلِ عَلَى التَّمْثِيلِ وَالرَّمْزِ وَالتَّشْبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ أَقْرَبَ إِلَى الشَّعْرِ وَأَكْثَرَ مَدَدًا وَأَشَدَّ رِفْدًا لِمَعِينِهِ الْمُتَنَبِّحِينَ.

وَإِذْ تَعَرَّفْنَا أَسْلُوبَ الْحَلَّاجِ بِهَذِهِ الْأَمْثَلَةِ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَرَدَّدَ فِي قَبُولِ بَعْضِ الْقِطَعِ الْمُنَسُوبَةِ إِلَيْهِ إِذْ كَانَ أَسْلُوبُهَا يَخْرُجُ عَمَّا قَرَّرْنَاهُ. وَلَنَضْرِبَ بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ تَوْكِيداً لِهَذَا الْأَسْلُوبِ التَّجْرِيدِيِّ الَّذِي نَجَلُو خِصَائِصَهُ.

(١) الرُّوَايَةُ الْآخَرَى وَكَأَنَّنِي كُنْتُ الْمَخَاطَبُ لِتَائِي.

في ديوان الحلاج الذي جمعه المستشرق الكبير لويس ماسنيون قصيدة جميلة إذا
قُرئت على أنها صوفيّة تبدو رمزيّة، مَطلَعها:

سَكَنْتَ قلبي وفيه منك أَسرار فليَهِنْكَ الدَّار بل فليَهِنْكَ الجار
وقد وَجَدْنَا هذه القصيدة كاملة في ديوان البهاء زهير المُتوفى سنة ٦٥٦ هـ. أمّا
الحلاج فقد قُتِلَ سنة ٣٠٩ هـ. وقد جمع البهاء زهير نفسه ديوانه وليس بحاجة إلى أن
يَتَحَلَّ شعر غيره، ثمَّ إِنَّ أسلوب القصيدة أقرب إلى أسلوب البهاء وقد أعاد الشاعر طَرَفًا
من فِكْرة البيت السَّالف في بيت من قطعة أخرى حين يقول:

جَارُكَ قلبي كيف أَحْرَقْتَهُ والله أَوْصَى الجار بالجار

ونَفَسَ القصيدة الأولى في ديوان البهاء واحد مُتَسلسِل حتى في الأبيات التي ليست
في ديوان الحلاج، وتنتهي القصيدة بهذا البيت:

ولا يَغْرُنْكَ منه حسن مَنَظَره فقد يُقَالُ بأنَّ النَّجم غَرَّار

وقد شاع في زمن الشاعر الحِجازيِّ المصريِّ وقبله أنَّ الشُعراء يُنْهَوْنَ القصيدة أو
المُوشَّح بقول مأثور أو مثل معروف، والبهاء زهير نفسه يُعيد مثل ذلك في قصيدة أخرى
من البحر والقافية أنفسهما يختمهما بقوله:

متى تعود ليالٍ فيك قد سَلَفَتْ فهم يَقُولُونَ إِنَّ الدَّهر دَوَّار

وهذا كُلُّهُ يُثَبِّتُ نسبة القصيدة للبهاء وَنَحَلَهَا للحلاج. وكلُّ قصيدة تُنْقَلُ إلى مجال
التَّصَوُّف تَزِيدُ رَوْنَقًا وَعُمُقًا إذ يَزِيدُ فيها بُعْدٌ جَدِيدٌ وهو البُعْدُ الصُّوفِيُّ. وبهذا أَكْثَرُ
الصُّوفِيَّةِ من التَّمَثُّلِ بأشعار الشُعراء.

كَذلك ثَمَّةُ أبيات جميلة كُلُّها استعارات وتمثيل تُسَبِّتُ إلى الحلاج وإلى أبي نُؤاس
وإلى الحسين بن الضَّحَّاك وقد نَبَّهَ على ذلك الأستاذ المستشرق وآثر نسبتها إلى الحلاج
بِحُجَّةِ أَنَّها ليست في ديواني الخليل وأبي نُؤاس وأنَّ الرِّوَاةَ الذين يَتَسَبَّوْنَهَا إليهما مُتَأَخَّرُونَ
عنه وَيَكْرَهُونَهُ. والأبيات هي:

نَدِيمِي غَيْرَ مَنْسُوبٍ	إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَيْفِ
سَقَانِي مِثْلَمَا يَشْرَبُ	بِفَعْلِ الضَّيْفِ بِالضَّيْفِ
فَلَمَّا دَارَتِ الْكَوَاكِبُ	دَعَا بِالْطَّعْمِ وَالسَّيْفِ
كَذَا مَنْ يَشْرَبُ الرِّيحَ	مَعَ التَّيْنِ فِي الصَّيْفِ

«قال أبو الحسن الحلواني: حضرت يوم قُتِلَ الحلاج وقد أُخْرِجَ من السَّجَن مُقَيَّدًا

مُسْلَسَلًا وهو يَضْحَك وينشد (الآبيات السَّابِقَة)»^(١) وفي رواية ابن باكويه «بداية الحلاج ونهايته» عن أحمد بن فاتك قال: «فلما أَصْبَحْنَا أُخْرِجَ من الحبس ورأيتُه يَتَبَخَّرُ في قَيْدِه ويقولُ (الآبيات السَّابِقَة)»^(٢).

وكذلك يذكر ابن عربيّ الآبيات الأربعة في رسالة الانتصار على لسان الحلاج. وَيَتَبَيَّن من هَذَا كُلُّهُ أَنَّ الرُّوَاةَ يَذْكُرُونَ أَنَّ الحَلَاجَ إِنَّمَا أَنشَد هَذِهِ الآبيات قُبِيلَ مَصْرَعِه دُونَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهَا مِنْ نَظْمِهِ. ونحن نعلم أَنَّ الْمُتَصَوِّفِينَ جَرَتْ عَادَاتُهُمْ عَلَى التَّمَثُّلِ بِآيَاتِ الشُّعْرَاءِ الْآخَرِينَ، وَتَحْمِيلِهَا الْمَعْنَى الَّتِي تَجُولُ فِي خَوَاطِرِهِمْ وَتَوَائِمِ أَحْوَالِهِمْ. ونحن نُقَدِّرُ صِدْقَ تَمَثُّلِ الحَلَاجِ بِهَذِهِ الآبيات وَعُمُقَ مَأْسَاتِهِ وَلَكِنَّا نَمِيلُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى نِسْبَةِ الآبيات لِلخَلِيعِ مَعَ إِنْشَادِ الحَلَاجِ لَهَا يَوْمَ قُتِلَ.

جاء في «مُحَاضَرَاتِ الْأَدْبَاءِ» لِلرَّاعِبِ الْأَصْبَهَانِيِّ: «قال الحسين بن خليع نادمتُ يوماً إبراهيم بن المهديّ فسَكَرَ وعَرَبِدَ عَلَيَّ فدعا بِالنَّطْعِ وَالسَّيْفِ فَتَكَلَّمْتُ فِيَّ أَصْحَابُهُ فَتَجَافَى عَنِّي ثُمَّ تَأَخَّرَتْ عَنْهُ فَدَعَانِي فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ (الآبيات) فدعاني وأرضاني. ثُمَّ كَانَ الْمَأْمُونُ يُضَاحِكُ إِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الآبيات وَيُولَعُ بِهَا»^(٣).

هَذَا وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ أَخُو هَارُونَ الرَّشِيدِ أَسْوَدَ حَالِكِ اللَّوْنِ عَظِيمِ الْجُثَّةِ بَلِيغِ شَاعِرِ مَشْهُورٍ بِالْعَرَبِيَّةِ يُلَقَّبُ بِالتَّيْنِ. قال أبو يوسف القزويني في كتابه «أخبار الحلاج»: «وقد ظنَّ قومٌ أَنَّ هَذِهِ الآبياتَ لِلحَلَاجِ وَإِنَّمَا هِيَ لِأَبِي نُوَاسٍ كَانَ يُنَادِمُ الْأَمِينَ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ...»^(٤) قال حمزة الأصفهانيّ في مُقَدِّمَةِ دِيْوَانِ أَبِي نُوَاسٍ: «بَلْ هَذِهِ الآبياتُ هِيَ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ الْخَلِيعِ الْبَاهِلِيِّ كَانَ يُنَادِمُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمَهْدِيِّ». هَذَا وَقَدْ مَاتَ أَبُو نُوَاسٍ سَنَةَ ١٩٨ هـ وَالْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ سَنَةَ ٢٥٠ هـ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ سَنَةَ ٢٢٤ هـ.

فَأَسْلُوبُ الآبياتِ الرَّمْزِيِّ يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْلُوبِ الحَلَاجِ الْمُجَرَّدِ وَلَفْظُ التَّيْنِ الَّذِي هُوَ لَقَبُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ أَلْصَقَ انْطِبَاقًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الآبياتِ وَإِنْ كَانَ تَمَثُّلُ الحَلَاجِ بِهَذَا الشُّعْرِ يُعْطِيهِ رَوْعَةً كَرَوْعَةَ الطَّلَسَمِ.

عَلَى أَنَّ الْأَسْلُوبَ الْمُجَرَّدَ وَالْأَسْلُوبَ الرَّمْزِيَّ لَا يَوْجَدُ كُلُّهُمَا صَافِيًا صَفَاءً تَامًا

(١) ماسنيون: أربع رسائل، أخبار الحلاج ص ٦٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤، مع الاختلاف في بعض ألفاظ الآبيات.
(٣) ج ١، ص ٤٣١.
(٤) أربع رسائل، ص ٦٦، حاشية.

بلا شَوْب. وإنَّما يغلب على بيان الصُّوفيِّ أحد الاتجاهين. فأسلوب الحلاج مُجرَّد تنزيهي وإن تَخَلَّلَتْه في بعض المواضع صُور وتشبيهات ملائمة ولكنَّها نادرة.

ومن الشَّعر الذي يُنسَب إليه وتَناقَله الأفواه شهرة هُذان البيتان:
أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حلَّلنا بَدَنًا
فإذا أبصرتني أبصرتَه وإذا أبصرتَه أبصرتنا^(١)
ولكنَّ الاتجاه الرَّمزيَّ أكثر رَواجاً عند الشُّعراء الصُّوفيِّين ولا سيَّما ابن الفارض.

ابن الفارض والرَّمز:

في مُقابل هذا الاتجاه التَّنزيهيَّ المُجرَّد الذي يُمثِّله الحلاج في أغلب حالاته وأكثر عباراته نجد اتِّجهاً يَعتمد في التَّعبير على التَّمثيل والرَّمز. وأهمُّ من يُبرِز هذا الاتِّجاء في رأينا من الشُّعراء الصُّوفيَّة المشهورين عمر بن الفارض. قدَّما كيف جرى الصُّوفيَّة على التَّمثيل بأشعار العشق الإنسانيِّ وأشباهاها وحَمَلها مَحْملًا صوفيًّا. وكما أنَّ العِشاق يكادون يذكرون أحبَّاءهم في كلِّ مناسبة ويتخيَّلونهم في كلِّ مكان كذلك شأن الصُّوفيَّة أهل الحبِّ الإلهيِّ.

قال مجنون ليلي:

أريد لأنسى ذكرها فكأنَّما تمثَّل لي ليلي بكلِّ سبيل
ويروي صاحب «الكشكول» هذه القصَّة عن قيس: «مرَّ المجنون على منازل ليلي

(١) جاء في «مشكاة الأنوار» للغزالي «وكلام العِشاق في حال الشُّكر يطوى ولا يُحكى. فلما خفَّ عنهم سُكرهم ورُدُّوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أنَّ ذلك لم يكن حقيقة الاتِّحاد، بل يشبه الاتِّحاد مثل قول العاشق في حال فرط العشق:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حلَّلنا بَدَنًا
وجاء في «اللُّمَع» بعد ذكر البيتين وغيرهما «وهذه مُخاطبة مخلوق لمخلوق في هواه فكيف لمن ادَّعى محبة من هو أقرب إليه من حبل الوريد؟» ص ٣٦١.

وجاء أيضاً فيه «وقد قال القائل في وَجْدِه بمخلوق مثله وقد وصف وَجْدَه بمحبوبه حتى قال:
أنا من أهوى ومن أهوى أنا فإذا أبصرتني أبصرتنا
نحن روحان معاً في جسد ألبس الله علينا البَدَنًا
فإذا كان مخلوق يَجِدُ بمخلوق حتى يقول مثل ذلك فما ظنُّك بما وراء ذلك؟» ص ٣٨٤.
ويستبين من هذا الكلام الذي يَعْتَبَر هذا الشَّعر غَزَلاً إنسانيًّا إمكان الشُّكِّ في نسبة البيتين.

بَنَجْد فَأَخَذَ يُقَبِّلُ الْأَحْجَارَ وَيَضَعُ جَبْهَتَهُ عَلَى الْأَثَارِ فَلَامَوْهُ عَلَى ذَلِكَ فَحَلَفَ إِنَّهُ لَا يَقَبِّلُ فِي ذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهَا وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا جَمَالَهَا. ثُمَّ رُؤِيَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ نَجْدٍ وَهُوَ يَقَبِّلُ الْأَثَارَ وَيَسْتَلِمُ الْأَحْجَارَ فَلِيَمَّ عَلَى ذَلِكَ وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ مَنَازِلِهَا. فَأَنْشَدَ:

لَا تَقُلْ دَارَهَا بِشَرْقِيٍّ نَجْدٍ كُلُّ نَجْدٍ لِلْعَامِرِيَّةِ دَارٍ
فَلَهَا مَنْزِلٌ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ وَعَلَى كُلِّ دِمْنَةٍ آثَارٌ^(١)

وسواء أَصَحَّتْ رواية هذه القصة عن المجنون أم لم تصحَّ فهي تُمَثِّلُ حالة نفسية في شدة العشق والهيام أشدَّ التمثيل. وهي في الحقيقة على أهل الحبِّ الصوفيِّ أشدُّ انطباقاً وأكثر اتِّفاقاً وهي بهم أُولَى. والبيتان الآنفاً ممَّا يُمَثِّلُ به الصُّوفِيَّةُ أيضاً. فلا عَجَبُ إِذْ إِذَا تَفَتَّنُوا بِعَاطِفَتِهِمْ وَذَكَرُوا فِي غِنَائِهِمْ مُخْتَلَفَ الصُّوَرِ الْحَسَنَةِ بَلَّةَ الْمَعْنَوِيَّةِ مَا دَامَتْ كُلُّهَا تُوصِلُهُمْ إِلَى مَحْبُوبِهِمْ وَتَحْمِلُ إِلَيْهِمْ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ.

بَلْ إِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ بَيْتاً مِنَ الشُّعْرِ مَا جَنَأَ فَهَمُّوا مِنْهُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمُوهُ وَتَوَاجَدُوا وَهَامُوا. «قال (ابن عربي): وَرَبَّمَا فَهَمُّ أَحَدِهِمْ مِنَ اللَّفْظِ ضِدٌّ مَا قَصَدَهُ الْمُتَكَلِّمُ. سَمِعَ بَعْضُ عُلَمَاءِ بَغْدَادَ رَجُلًا مِنْ شَرِيَةِ الْخَمْرِ يَنْشُدُ:

إِذَا الْعَشْرُونَ مِنْ شَعْبَانٍ وَلَيْتَ فَوَاصِلُ شُرْبٍ لَيْلِكَ بِالْثَّهَارِ
وَلَا تَشْرَبْ بِأَقْدَاحِ صَغَارٍ فَإِنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَلَى الصُّغَارِ

فَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَتَّى مَاتَ»^(٢).

ولقد جرى منذ بداية التصوُّف نَفَرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ الصُّوفِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّمَطِ مِنَ الْقَوْلِ وَمِنْ ابْتِغَاءِ الرَّمْزِ. ذَكَرْنَا فِي صَدْرِ هَذَا الْبَحْثِ نَتَقاً مِنَ الرِّسَالَةِ الْقَشِيرِيَّةِ تَشْفِي عَنْ هَذَا الْأَسْلُوبِ، وَنَبِّغُ فَلَاسِفَةً وَمُفَكِّرُونَ مُتَعَدِّدُونَ آثَرُوا الْإِشَارَةَ وَالْإِيحَاءَ، وَلَا بَدَّ هُنَا أَنْ نُنَوِّهَ بِالْقَصِيدَةِ الصُّوفِيَّةِ الرَّاقِيَةِ الرَّمْزِيَّةِ الْبَدِيعَةِ وَتُسَمَّى الْقَصِيدَةُ الْمَوْصِلِيَّةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَاسِمِ الشَّهْرَزُورِيِّ الْمَنَعُوتِ بِالْمُرْتَضَى (١٠٧٢/٤٦٥ - ١١١٧/٥١١): وَهِيَ تَجْمَعُ بَيْنَ الرَّمْزِ وَالرُّؤْيَى وَالْقَصَصِ وَالْحَوَارِ جَمْعاً طَرِيفاً. وَلَا يَصِحُّ إِغْفَالُهَا فِي مَجَالِ التَّنْقِيبِ عَنِ الرَّمْزِ الصُّوفِيِّ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ وَقَدْ عَشَعَسَ اللَّيْلُ كُلُّ وَمَلَّ الْحَادِي وَحَارَ الدَّلِيلُ

(١) الكَشْكُولُ الْمَطْبَعَةُ الْإِبْرَاهِيمِيَّةُ ج ١ ص ٤٠. وَدَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ص ٨٠.

(٢) شَذَرَاتُ الذَّهَبِ ج ٥ ص ١٩٨. انْظُرْ رِوَايَةَ أُخْرَى لِلْقِصَّةِ مُسَنَّدَةً فِي «تَجْرِيدِ شَرْحِ ابْنِ عَجَبِيَّةٍ لِمَتَنِ الْأَجْرُومِيَّةِ» ١٣١٥ هـ ص ١١.

فَتَأَمَّلْتُهَا وَفَكَّرِي مِنَ الْيَدِ
وَفَوَّادِي ذَاكَ الْفَوَّادِ الْمُعْتَى
ثُمَّ قَابَلْتُهَا وَقَلْتُ لَصَحْبِي
فَرَمَوْا نَحْوَهَا لِحَاطَافاً صَحِيحاً
ثُمَّ مَالُوا إِلَى الْمَلَامِ وَقَالُوا
فَتَجَنَّبْنَاهُمْ وَمَلَأْتُ إِلَيْهَا
وَمَعِي صَاحِبٌ أَتَى يَقْتَضِي الْآ
وَهِيَ تَعْلُو وَنَحْنُ نَدْنُو إِلَى أَنْ
فَدَنَّا مِنَ الطُّلُولِ فَحَالَتْ
قَلْتُ مِنَ الْبَالِدِيَّاتِ قَالَتْ جَرِيحٌ
مَا الَّذِي جِئْتَ تَبْتَغِي قَلْتُ ضَيْفٌ

وهي طويلة من المناسب الرجوع إليها في مواضعها^(١).

ولا شك أن تلك الأحوال تابعة للمزاج والاستعداد أيضاً. ولقد كان ابن الفارض
(١١٨١/٥٧٦ - ١٢٣٥/٦٣٢) طروباً حُلُو النَّفْس. كان «جميلاً نبيلًا حسن الهيئة
والملبس»^(٢) وكان مؤلعا بالجمال يَلْتَمِسُهُ فِي الْفَنِّ وَفِي الطَّبِيعَةِ وَفِي الْحَيَوَانِ وَفِي الْجَمَادِ.
«ذكر القوصي في «الوحيد» أنه كان للشَّيْخِ جَوَارٍ بِالْبَهْنَسَا يَذْهَبُ إِلَيْهِنَّ فَيُغْنِينَ بِالذُّفِّ
وَالشَّبَابَةِ وَهُوَ يَرْقُصُ وَيَتَوَاجَدُ» كما ذكرنا آنفاً^(٣). «وكان أيام النُّيْلِ يَتَرَدَّدُ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْمَعْرُوفِ بِالْمُشْتَهَى فِي الرُّوضَةِ وَيَحِبُّ مُشَاهَدَةَ الْبَحْرِ مَسَاءً»^(٤). وَيُرْوَى أَيْضاً «أَنَّهُ رَأَى
جَمَلًا لَسَقَاءً فَكَلَّفَ بِهِ وَهَامَ وَصَارَ يَأْتِيهِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَرَاهُ»^(٥). بَلْ يُرْوَى «أَنَّهُ عَشَقَ بَرْنِيَّةً بِدُكَّانِ
عَطَّارٍ»^(٦) وَيَقُولُ شَارِحُ دِيَوَانِهِ الْبُورِينِي: «كَانَ، كَمَا قِيلَ، يَطْرُبُ لَصَرِيرِ الْبَابِ وَطَنِينَ
الدُّبَابِ»^(٧).

(١) الكَشْكُولُ الْمُطْبَعَةُ الْكُبْرَى الْإِبْرَاهِيمِيَّةُ مِصْرَ ١٢٢٨ هـ ج ٢ ص ١١٢، ١١٣، ١١٤ ودار إحياء الكتب
العربية ج ٢، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، وكذلك وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ طَبْعَةُ ١٢٩٩، ج ١، ص ٣١٧، وفي
الرُّوَايَتَيْنِ اخْتِلَافٌ ضَخِيلٌ فِي اللَّفْظِ.

(٢) شَذَرَاتُ الذَّهَبِ لِابْنِ الْعِمَادِ ج ٥، ص ١٥٠.

(٣) انظر حاشية كتابنا هذا ص ١٩٦.

(٤) (٥) (٦) شَذَرَاتُ الذَّهَبِ ج ٥، ص ١٥٠، وَالْبَرْنِيَّةُ: إِنَاءٌ مِنْ خَزَفٍ.

(٧) شرح الدِّيَوَانِ جَمْعُ الدَّحْدَاحِ الْمُطْبَعَةُ الْخَيْرِيَّةُ ج ٢ ص ١٦٣.

وَحِكِيَّ أَنَّهُ كَانَ «مَاشِيًا فِي الشُّوقِ بِالقَاهِرَةِ فَمَرَّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْحَرَسِيَّةِ يَضْرِبُونَ
بِالنَّاقُوسِ وَيُغَنُّونَ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

مولاي سهرنا نبتغي منك وصال مولاي فلم تَسْمَحْ فَنَمُنَا بِخَيَال
مولاي فلم يطرق فلا شكَّ بأن ما نحن إذن عندك مولاي ببال

فلما سَمِعَهُمُ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَرَقَصَ رَقْصًا كَثِيرًا فِي وَسْطِ
الشُّوقِ وَرَقَصَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَارِّينَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى صَارَتْ جَوْلَةٌ وَإِسْمَاعُ عَظِيمٌ،
وَتَوَاجَدَ النَّاسُ إِلَى أَنْ سَقَطَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ وَالْحُرَّاسُ يُكْرِرُونَ ذَلِكَ وَخَلَعَ الشَّيْخُ كُلَّ
مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ وَرَمَى بِهَا إِلَيْهِمْ وَخَلَعَ النَّاسُ مَعَهُ ثِيَابَهُمْ وَحُمِلَ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى
الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ وَهُوَ عَرِيَانٌ مَكْشُوفُ الرَّأْسِ وَفِي وَسْطِهِ لِبَاسٌ وَأَقَامَ فِي هَذِهِ السَّكْرَةِ أَيَّامًا
مُتَلَقًى عَلَى ظَهْرِهِ مُسَجًى كَالْمَيِّتِ فَلَمَّا أَفَاقَ جَاءَ الْحُرَّاسُ إِلَيْهِ وَمَعَهُمُ ثِيَابُهُ فَوَضَعُوهَا بَيْنَ
يَدَيْهِ فَلَمْ يَأْخُذْهَا وَيَذَلِ النَّاسُ لَهُمْ فِيهَا ثَمَنًا كَثِيرًا فَمِنْهُمْ مَنْ بَاعَ وَمِنْهُمْ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ بَيْعِ
نَصِيْبِهِ وَخَلَّاهُ عِنْدَهُ تَبَرُّكًا بِهِ^(١). وَكَذَلِكَ رَوَى وَلَدُهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ الشَّيْخُ (ض) مَاشِيًا فِي
السَّارِعِ الْأَعْظَمِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَسْجِدِ ابْنِ عَثْمَانَ وَأَنَا مَعَهُ وَإِذَا بَنَائِحَةٌ تَنُوحُ وَتَنْدُبُ عَلَى مَيِّتَةٍ
فِي طَبَقَةِ وَالنِّسَاءِ يُجَاوِزْنَهَا وَهِيَ تَقُولُ:

سَتِي مَتِّي مَتِّي حَقًّا إِي وَاللَّهِ حَقًّا حَقًّا

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَهَا الشَّيْخُ (ض) صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَخَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ صَارَ
يَقُولُ وَيُرَدِّدُ مِرَارًا:

نَفْسِي مَتِّي مَتِّي حَقًّا إِي وَاللَّهِ حَقًّا حَقًّا^(٢)

وَرَوَى أَنَّهُ سَمِعَ يَوْمًا «قَصَّارًا يَقْصُرُ وَيَضْرِبُ مَقْطَعًا عَلَى حَجَرٍ وَيَقُولُ:
قَطِّعْ قَلْبِي هَذَا الْمَقْطَعِ مَا قَالَ يَصِفُو أَوْ يَتَقَطَّعُ
فَمَا زَالَ الشَّيْخُ يَصْرُخُ وَيُكْرِرُ هَذَا السَّجْعَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ وَيَضْطَرِبُ اضْطِرَابًا شَدِيدًا
وَيَتَقَلَّبُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَسْكُنُ اضْطِرَابَهُ حَتَّى يُظَنُّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ثُمَّ يَسْتَفِيقُ وَيَتَكَلَّمُ مَعَنَا
بِكَلَامٍ لَدُنِّي مَا سَمِعْنَا مِثْلَهُ قَطُّ وَلَا نُحْسِنُ أَنْ نُعَبِّرَ عَنْهُ ثُمَّ يَضْطَرِبُ عَلَى كَلَامِهِ وَيَعُودُ إِلَى
حَالٍ وَجَدَهُ»^(٣).

(١) الْمَقْصَدُ السَّابِقُ نَفْسُهُ ج ١، ص ٨ - ٩.

(٢) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ٩.

(٣) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ١١.

وربما كانت هذه الأخبار مُنمّقة ومُغاليّ فيها. وهي مرويّة بأسلوب متأخّر زمنياً عن الشيخ. فقد رواها عليّ سبطه جامع ديوان جدّه وهو شيخ فيه شيء من البركة. ولكن لا نشك أنّ لها أصلاً يدلّ على طرب الشاعر الصوفيّ وحلاوة سجاياه وشمائله تؤيّد إشارته البورينيّ السالفة.

في قصائد ابن الفارض الصوفيّة تنطلق عاطفة مُلتَهبة بالحبّ عبقّة بالولّه تَضوع كما يَضوع الأريج الفاغم يستحوذ على النّفس وينقلها إلى جواء جديدة لا تُفهم إلّا بالنّظر إلى أنّها صوفيّة. فهو لا يصف بالتّدقيق أحواله النّفسية وإنّما يُغنيها غناء ويُحوّل أن يُوحى إلينا بها في هذا الغناء المُحترق المُتولّد. وينبغي هنا لكي نفهم نغمات هذا الغناء أن نُدرِك ثقافة الشاعر الأديبة الواسعة ونعرف طوّر التّعبير الشعريّ عامّة في عصره وعناية هذا العصر بالبديع والمُحسنات اللفظيّة والمعنويّة وجملّة الأفكار التي راجت لعهد. فكلّها تظهر مُتراكبة مُتراكبة في شعر شاعرنا الصوفيّ المُبدع. وهو حين يعرض كلّ ذلك عرضاً أنيقاً مُزوّفاً مُزخرفاً يريد أن يمتّع ويُطرب الأسماع به في ذلك العصر، وأن يشير من خلال ذلك إشارات بليغة الدّلالة إلى اتّجاهه الرّوحيّ.

ولا بدّ من الاعتماد على الأمثلة في بيان ما نقصد إليه من طبيعة الرّمز في شعر ابن الفارض. فلنأخذ بعض قصائده ولننظر كيف يُغني فيها عاطفته الصوفيّة غناء إلى الإيحاء بتلك العاطفة أقرب من وصفها وصفاً دقيقاً مضبوطاً، وكيف يصدر عن ثقافة شعريّة تُناسب عصره وعن طبع مُرهف يُوايّم شدّوه ونشيدته:

بَدَلًا دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلُ لَدَاكَ وَتَحَكُّمُ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ
وَلَكِ الْأَمْرُ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ فَعَلَيَّ الْجَمَالُ قَدْ وَلَّاكَ

هذا الاستهلال يَنزِع مَنزَعاً حَسِيّاً شديد اللّصوق بما اعتدناه من شؤون الحبّ الإنسانيّ حتى لنكاد نتيه في هذا التّيه وَتَتَابُنَا الضَّلَالُ في هذا الدّلال وَتَحَيَّرَ في هذا التّحكُّم الذي يقطع به الحسن ولا نستطيع أن نَتَخَيَّرَ. بَيِّدَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ كُلُّهَا لَيْسَتْ مَقْصُودَةٌ هُنَا إِلَّا لاسْتِمَالَةِ السَّامِعِ وَالاسْتِثَارَ بِعَاطِفَتِهِ وَالْإِيحَاءَ إِلَيْهِ بِهَذَا الْحَبِّ الْمُتَلَتِّحِ وَالْهَوَى الْعَاصِفِ الْمُذْعِنِ. وَلَكِنَّا لَا نَلْبَثُ أَنْ نَقُولَ:

وَتَلَا فِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَافِي بِكَ عَجَّلَ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ
حَتَّى نَسْتَغْرِبَ هَذَا التَّلَفَ الَّذِي يُقْضَى إِلَى الْإِتِلَافِ لَوْ كَانَ الْحَبُّ إِنْسَانِيّاً. وَنَتَمَهَّلُ بَعْضَ الشَّيْءِ حِينَ نُنْشِدُ:

وَبِمَا شَتَّ فِي هَوَاكَ اخْتَبَرْنِي فَاخْتِيَارِي مَا كَانَ فِيهِ رِضَاكَ

حتى نصل إلى هذا البيت:

فعلى كل حالة أنت مني بي أولى إذ لم أكن لولاكا
فندرك صدق الاتجاه العلوي الذي يتجه الشاعر ويَزول وقع المبالغة في الأبيات
التالية. بل يُصبح الكلام مقبولاَ القبول كله بعد أن كان الغلوَ ظاهراً فيه لو كان الغرض
حباً إنسانياً:

وكفاني عراً بحبك دُلِّي وخُضوعي ولس من أكفاكا
وإذا ما إليك بالوصل عَزَتْ نِسبتي عِزَّة وصحَّ ولاكا
فاتهامي بالحبِّ حسبي وأُني بين قومي أعدُّ من قُلاكا
فالشعر الصوفيُّ هذا قريب جدًّا من الشعر العاديِّ المنظوم في الأغراض الإنسانية،
بل كثيراً ما يتناول الأفكار والعواطف والألفاظ أنفسها ولكننا نجد فيه نقاطاً تتجاوز في
الحين بعد الحين الأغراض الإنسانية ولا تفهم إلا في الاتجاه الإلهي، كما أنَّ المبالغة
والإغراق كلها تزول فيُصبح الكلام مقبولاَ حين نَحمله هذا المحمل.

وهكذا تتعاقب الأبيات ظاهرها الحبُّ الإنسانيُّ المُبالغ فيه وباطنها الحبُّ الإلهيُّ
الذي لا ينجلي جمال القصيدة إلا في ضوئه:
فُكَّتْ أهل الجمال حُسنًا وحُسنِي فبهم فاقَّة إلى معناكا
يُحشَر العاشقون تحت لوائي وجميع الملاح تحت لواكا
ما ثناني عنك الضنى فبماذا يا ملبح الدلال عُنِّي ثناكا
لك قرب مني ببعذك عُنِّي وخُتُوْ وجذُّته في جفاكا
وكثير من الأفكار التي يتداولها المتصوفة نجدها في الأصل عند الأدباء والشعراء.
ولنضرب لذلك مثلاً في هذه القصيدة.

فلقد افْتَنَّ الشعراء في ذكر طيف الخيال ولا سيما البُحترِيُّ وأشعاره في ذلك مُتعارفة
مُتداولة. وقد قال أبو تمام المولِّد للأفكار:
زار الخيال لها لا بل أزارَكه فَنكر إذا نام فَنكر الخلق لم يَنم
ظبي تَقَنَّصْتُهُ لما نَصَبْتُ له في آخر الليل أشراكاً من الحلم
فيشير إلى أنَّ زيارة طيف الخيال سببها التفكير في المحبوب.

ويؤكد أبو الطيّب أنَّ التَّمثُّل والتَّخَيُّل في اليقظة أعاد خيال المحبوب في النوم فكانَّ
الخيال الذي زار في المنام خيال الخيال الذي تصوَّره الشاعر في اليقظة:

لا الحلمُ جادَ به ولا بمثاله لولا أذكار وداعه وزِياله
إنَّ المُعيد لنا المنامُ خياله كانت إعادته خيال خياله

فمثل هذا التّفكير يَبْدَل عند الصُّوفيّة إذ لا حاجة بهم إلى التّوَم وإنّما يسهرون لتوهم
طيف الحبيب . لتتأمّل قول شاعرنا:

عَلِمَ الشُّوق مُقلتي سهر اللَّيْلِ حل فصارت من غير نوم تراكا
حَبَّذا ليلة بها صِدْتُ إشرا ك وكان الشُّهاد لي أشراكا
ناب بدر التّمام طيف مُحَيّا ك لَطرفي يَبْقَظني إذ حكاكا
فتراءيت في سواك لِعينين بك قَرَرْتُ وما رأيت سواكا

ويُشبّه الشّاعر أمره بالرّسول إبراهيم الخليل حين قلب وجهه في السّماء:
وكذاك الخليل قلب قبلي طَرَفه حين راقب الأفلاكا

ولكنّ توهم الرُّويّة الخارجيّة يُقابله النّظر الباطنيّ:
ومتى غِبْتَ ظاهراً عن عياني أَلْقِه نحو باطني ألقاكا
ولذلك لا عجب أن يَفخر بعد ذلك التّدلّل السّابق، إذ كان التّدلّل لديه مُتصلاً
بالرُّفعة:

واقْتِباس الأنوار من ظاهري غي ر عجب وباطني مَأواكا
يَعْبَق المسك حيثما ذُكِرَ اسمي منل ناديتني أقبّل فاكا
ويَضوع العير في كلّ نادٍ وهو ذُكر مُبّر عن شذاكا

وينظر فإذا الأشياء الجميلة لدى تجلّيها تهيب بالشّاعر وتدعوه إلى تملّيها، ولكنه
يراها معاني في حبيبه وهي مثله عاشقة لذلك الحبيب مشغوفة به فهو يتجاوزها إلى ذلك
الحبيب دون أن تخدعه أو تستطيع وقفه:

قال لي حُسْنُ كلّ شيء تجلّي بي تملّي! فقلت قصدي وراكا
لي حبيب أراك فيه معنّي غُرّ غيري وفيه معنّي أراكا
إنّ تَوَلّى على الثُّفوس تَوَلّى أو تجلّي يستعبد الشُّساكا

يَبْد أنّ الشّاعر إنّما يقصد إلى الشّدو والغناء، فِعَوْضاً من أن يفتخر بهواه، وإذ ذاك
يُنْقَل بدعواه، يعكس القضية ويَهْتَف هتاف الشّعراء الماجنين:

فيه عَوْضْتُ عن هُدائي ضلّالا ورشادي غيّا وسِتري انهتاكا
ذلك ألصق بالشّعر وأشفّ عن الضّياع الذي يلقاه العاشق أبداً كان عشقه.

وهكذا نفهم طريقة الصُوفيّة في التّعبير. إنهم يريدون أن يُوحوا بحالاتهم النّفسية والوجدانية، ولذلك يسلكون هذا التّهج من البيان الرّمزيّ. ولعلّنا نستطيع لزيادة الإيضاح أن نُقرّب طريقتهم هذه من بعض المدارس الأدبية الرّمزية التي تُؤثر غامض التّلويح على واضح التّصريح وخفيّ الإشارة على جليّ العبارة. نحن ندرك الفرق الكبير بين الشّاعر الصّوفيّ العربيّ ابن الفارض الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلاديّ وبين الشّاعر الرّمزيّ الفرنسيّ «ملارمي» الذي عاش في القرن التاسع عشر من وجوه شتى. ولكنّا نحبّ أن نذكر هنا طريقة هذا الشّاعر الأجنبيّ وهو يشرح أسلوبه ووجه اختياره له وإثارة إيّاه. يقول ملارمي: «تأمل الأشياء والصّور المُتعلّقة من الأحلام التي تستدعيها تلك الأشياء ذلك كلّهُ هو النّشيد. البرناسيون يأخذون الشّيء أجمع ويبرزونه فيعزّونهم بذلك غموض السّرّ ويحرّمون الأفكار من جدّلتها اللّذيد الذي هو توهمها للخلق. إنّ تسمية الشّيء في القصيدة معناها حذف ثلاثة أرباع النّعيم الذي يتألّف من غبطة الحزّر التّدرّجيّ. أمّا الإيحاء به فهو الحلم المنشود. وذلك هو إتقان استعمال هذا السّرّ القائم في الرّمز. فأنّ إمّا أن تبرز حالة نفسية فتعتمد إلى التّلويح بشيء حيناً بعد حين وإمّا أن تختار مُقابل ذلك شيئاً ما وتستخلص منه حالة نفسية بسلسلة من تفكيك الغموض».

هذا التّهج هو ما ندعوه بالرّمز الدّاتيّ لأنّ الكلمات والألفاظ المُستعملة ليست مُراداً لداتها بالضبط وعلى وجه الحقيقة وإنّما غايتها الإيحاء. كلّ منها يُطلق موكباً مُلوّناً من الإيحاء. ومن تلاقي ذلك كلّهُ تتحصّل الحالة النّفسية التي يريد الشّاعر أن يُوحى بها ويُشير إليها. ولما كانت العبارة موضوعاً للإحاطة بالفكرة وكانت الفكرة أعلى هنا وأجلّ من أن تُحصّر وأن تُحدّد ومن أن يُحاط بها لجأ الشّاعر إلى الإشارة.

ربّما يَضيق المجال عن تناول قصيدة طويلة لابن الفارض كهذه التي مطلعها هذا البيت البديع المُتعلّج بالعاطفة القويّة:

قلبي يُحدّثني بأنك مُتلفي روحي فداك عرفت أم لم تعرف
ولكنّا لا نستطيع إلّا أن نُورد هذه القطعة الصّغيرة الجميلة من ديوان الشّاعر نفسه ونترك للقارئ أن يتدوّق طيب شذاها الصّوفيّ الرّمزيّ اللّطيف:

ما بين ضالّ المُنحى وظلاله	ضلّ المُنيّم واهتدى بضلاله
وبذلك الشّعْب اليماني مُنيّة	للصّبّ قد بعّدت على آماله
يا صاحبي هذا العقيقُ فقِفْ به	مُتولّها إن كنت لست بواله
وانظره عني إنّ طَرْفي عاقني	إرسال دمعِي فيه عن إرساله
واسأل غزال كِناسِه هل عنده	عِلْم بقلبي في هواه وحاله

وأظنه لم يذر ذلك صباهتي إذ ظل ملتئها بعز جماله
تفديده مهجتي التي تلفت ولا من عليه لأنها من ماله
أترى درى أنني أحسن لهجره إذ كنت مشتاقاً له كوصاله

البيتان السالفان الأخيران يفتحان كوة كبيرة على الاتجاه الصوفي ولا سيما البيت الأخير إذ يحن الشاعر فيه للهجر ويشتاقه اشتياقه للوصال ولهذا لا يصح إلا في مجال التصوف وذلك بعد أبيات توهم الحب الإنساني إذ تضطجع ما يتداوله الشعراء في شأنه من ألفاظ وصور وأفكار.

وأبيت سهراناً أمثل طيفه للطرف كي ألقى خيال خياله^(١)
لأذقت يوماً راحة من عاذل إن كنت ملئت لقلبه ولقاله
فوحق طيب رضا الحبيب ووصله ما مل قلبه حبّه لملاله
وهاً إلى ماء العذيب وكيف لي بحشاي لو يطفأ ببرد زلاله
ولقد يجل عن اشتياقي ماؤه شرفاً فوا ظمأي للامع آله

البيتان السالفان الأخيران ترتيل رفيع يمنع حمل القصيدة إلا على المقصد الإلهي. وهذا التواضع العميق من الخصائص النبيلة التي تبدو عند صاحب «نظم السلوك».

كذلك نتعقب بعض الشيء فكرة طيف الخيال عند لفي من الشعراء لنرى كيف فسح الصوفيّة في المجال لمثل هذه الفكرة في كلامهم بعد إذ بدّلوا فيها بعض التبدّل. إلا أنّه يجدر بنا أن نشير إلى تبدّل الاعتبارات واختلافها عند علماء الدين أيضاً. ذلك أنّ الرؤية كانت مجال نقاش طويل بين علماء الأصول، فالمعتزلة منعت ذلك بتاتا في الدنيا والآخرة وأولت الآية الكريمة التي تدلّ على جواز الرؤية في الآخرة: ﴿وَيُجِزُّ يَوْمَئِذٍ أَصُفَرُ﴾^(٢) إلى ربّها نظراً^(٣). أمّا أهل السنة والجماعة فأجمعوا على نفيها في الدنيا وجوازها في دار القرار. ومن المعلوم أنّ الحارث بن أسد المحاسبيّ الأصوليّ الصوفيّ المبكر قد ألف كتابه «التوهم» حيث وصف الحشر والجحيم والنعيم وافتنّ في تصوير أهوال الجحيم ثمّ ملأ ذات النعيم الحسيّة ليؤجّج تلك الملذّات كلّها بالبهجة الكبرى الروحيّة وهي النّظر إلى وجهه تعالى. فالكتاب يجمع إلى الوغظ والترهيب والترغيب اتجاهاً متنافياً لاتجاه المعتزلة. ولقد أطنب المحاسبيّ في تفصيل أوصاف الآخرة وتجاوز ما جاء به الكتاب

(١) هذا البيت يُذكر بيت المثنوي السالف بالوزن والقافية وبعض اللفظ، ولكنه يختلف عنه اختلافاً كبيراً في الاتجاه والغرض.

(٢) القيامة ٧٥: ٢٢، ٢٣.

والشئنة إلى أن أنكر عليه الإمام الكبير ابن حنبل. أمّا الصوفية فأراؤهم في ذلك متشعبة بحسب المدارس التي ينتسبون إليها. وابن الفارض يقنع بخيال الخيال بل يشوق للامع الآل فكيف بالماء الزلال. وهو في قصيدة أخرى يشير إلى رؤية خيال الحبيب توهماً لا حقيقة وهو المحب الذي أشبه في الضنى الخيال نفسه:

تَخَيَّلْ زور كان زورُ خيالها لمُشبهه من غير رؤيا ورؤية

وقد تُصبح الحواس كلها وخدة في حالة التّوثر النفسى الشديد وتشارك جميعاً في الإدراك فإذا سمع المحب اسم الحبيب فكأنما يرى سَمعه الطيف ويتذوق اللفظ كالشراب السائغ الشهي. ألا يهتف شاعرنا الصوفي:

أدّر ذكر من أهوى ولو بسلام فإن أحاديث الحبيب مدامي
ليشهد سَمعي من أحب وإن نأى بطيف ملام لا بطيف منام

الرؤية إذن هي للمُقرّبين في جنان النعيم. أمّا الشيخ الأكبر ابن عربي فيذهب مذهباً جريئاً في ذلك ولكنه يبقى منسجماً مع أصول فلسفته. وعنده أن التّجلي مُستمر في الرؤية، «فهو عند العلماء بالله تجلّ دائم دنيا وآخرة لا ينقطع وعند العامة في الجنة خاصة لكونهم لا يعرفون الله معرفة العارفين»^(١).

ابن الفارض جمع في عصره ببراعة بين تيارين متضادين: تيار التصوف الذي يُعنى بالباطن ويذرّري الظاهر وتيار الأدب ذي الصّناعة البراقة الذي كان في ذلك العصر يُهمل المعنى ويكلف بتزيق المبني. وتقوم عبقرية هذا الشاعر في جمعه بين هذين الأمرين اللذين تزداد مكانتهما في العصور المتأخرة. كان صوفيّاً شداً في أغلب قصائده حبه الإلهي من جهة، وكان شاعراً مُبرزاً مثلاً في عصره تمثيلاً مُوفقاً لهذا التيار الأدبي الذي يقصّر

(١) الفتوحات ج ٢ بولاق ص ٥٤٢. هذا ويقول الشهرستاني في «نهاية الإقدام في علم الكلام» ما يلي في قضية الرؤية: «في جواز رؤية الباري تعالى عقلاً ووجوبها سَمْعاً. لم يصِر صائر من أهل القبله إلى تجويز اتصال أشعة من البصر بذاته تعالى أو انطباع شبح يتمثل في الحاسة منه وانفصال شيء من الرائي والمَرئي واتصاله بهما، لكن أهل الأصول اختلفوا في أن الرؤية إدراك وراء العلم أم علم مخصوص. ومن زعم أنه إدراك وراء العلم اختلف في اشتراط البنية واتصال الشعاع ونفي القرب المُفرط والبعد المُفرط وتوسط الهواء المُشيف فشرطها المعتزلة ونفوا رؤية الباري تعالى بالأبصار نفياً الاستحالة، والأشعري أثبت إثبات الجواز على الإطلاق والوجوب بحكم الوعد ثم ردّ قوله: إنه علم مخصوص أي لا يتعلّق إلا بالموجود أم هو إدراك حكمه حكم العلم في التعلّق أي لا يتأثر من المَرئي ولا يؤثّر فيه. ونحن نُورد كلام الفريقين على الرّسم المعهود...» نشر ألفرد جيوم ١٩٣٤، ص ٣٥٦.

وَكَدَّه على زَرْكُشَة القريض بالمُحَسَّنات البديعة وتهاويل الصُّنعة. ولقد كانت مكانته الأدبية في عصره كبيرة يُحتَكَم إليه في بعض المنازعات الفكرية. جاء في «لسان الميزان»: «واشتهرت قصته (قصّة الشاعر نجم الدّين بن إسرائيل) مع ابن الخيمي في القصيدة الغرامية التي نظّمها ابن الخيمي فصاحت منه مُسَوِّدُهَا فَظَفَر بها ابن إسرائيل فيبضها وأدعاها فتشاجرا إلى أن تحاكما عند ابن الفارض فقال: ليُنظَم كُلُّ منكما أبيتاً على الوزن والقافية فنعرضها على هذه القصيدة. فنظما فحكم لابن الخيمي وقال مخاطباً لابن إسرائيل:

«لقد حكيت ولكن فاتك الشُّنب»^(١)

ويقول العسقلاني مؤلف لسان الميزان في ترجمة ابن إسرائيل: «سلك في النّظم طريق ابن الفارض»^(٢).

والذي كان يُسَوِّج له هذا الجمع بين ذَيْنِكَ الوَصْفَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ أَنَّهُ كَانَ يَبْقَى في تعبيره خارجاً عن انفعال التَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ حين ينظم قصائده. فكان، على خلاف الحلاج، يَتَجَهَّ هذا الاتِّجَاه الرَّمْزِيّ الذي نُحَاوِلُ بيان وجوهه من مختلف الجوانب. فإذا تهياً له ذلك أَوَّلَى عنايته التَّشْبِيهِ والاستعارة والمجاز والجناس والكناية والتَّوْرِيَّةُ وأمثالها مما هو مُتَّسِع في مجال الشعر. ولهذا كُلُّهُ كَانَ يَسْتَمِذُّ كَثِيراً من الأفكار المُتَدَاوِلَةِ عند الشعراء ممَّا يَجِدُهُ في فسيح ثقافته الأدبية والفكرية فينقله إلى مَيِّدَانِ التَّصَوُّفِ مع «المسات» صوفية بارعة إن جاز هذا التعبير، ومع مُبَالَغَةٍ وَغُلُوٍّ وإغراق تَشَفُّعٍ عن الاتِّجَاه الرُّوحِيّ السَّامِي في عبارات غَزَلِيَّةٍ حَسِّيَّةٍ تَفْتِنُ وتُغْرِي وتُضِلُّ من لم يُزَاوِلْ كلام القوم. فاستطاع عندئذ أن يَبْدُلَ وَسْعَهُ وينصرف لرعاية هذا الأسلوب الصنّاع الفائق الذي يبدو الشاعر من ورائه لَعَيْنِي الْمُتَأَمِّلِ الْمُطَّلِعِ على أسرار صناعة البديع كالمهندس البارِع يُزَخْرِفُ بناء «البيت» بأصناف الزينة والحلي المزدحمة. وقد أَبْنَا ذلك حين تكلّمنا على أطوار الشعر، حتى لنجد في بيت الشعر الواحد عنده عدّة مُحَسَّنات تَزْدَجِمُ ازدحاماً شديداً وتتراكّب تراكّباً مُشْتَبِكاً وتتوازَن في الازدحام والتراكّب هذين. وَيَصِحُّ أن نَعْتَبِرَ هذه المُحَسَّنات من الرَّمْزِ أيضاً لَأَنَّهَا تُوجِّهُ الأبصار إلى ظاهر الصُّنعة وتُخْفِي ما وراءها من المعاني الصُّوفِيَّةِ ولهذا نَهْدُنَا في مُسْتَهْلٍ هذا الفصل إلى بيان طائفة منها على عمد.

(١) «لسان الميزان» حيدر آباد ج ٥ ص ١٩٧.

(٢) المَرَجِعُ نفسه ج ٥ ص ١٩٥.

هذه الخصائص التي يبينها تبدو ناصعة في القصيدة الثائية الصغرى التي بلغ في الشاعر المتألق البراق فيها أوجه. وقد ندّدنا إذ ذاك ببعض المبالغات من الوجهة الأدبية الصّرف مثل قوله في قصيدة أخرى:

صحيح عليل فاطلبوني من الصّبا ففيها كما شاء التّحول مُقامي

ولكنّا نستطيع أن نتدوّق هذه المبالغات كلّها أو نُؤوّلها الآن من الوجهة الصّوفيّة، بل شعر ابن الفارض لا يمكن أن يُفهم حقّاً إلاّ باعتبار هذا التّعدّ الصّوفيّ الذي جَلّونا خصائصه زيادة على عالم القصيدة الفنّيّ. ولكنّ شاعرنا الصّوفيّ كما يتّبه للتّيارات الجديدة في التّصوّف إذ بدأت تشيع في زمنه آراء ابن عربي^(١) كذلك يتّبه للأوزان التي

(١) جاء في ديباجة الديوان التي كتبها عليّ سبط الشّيخ الشاعر وأثبتها كاملة الشّيخ عبد الغني الثّابلسي في شرحه للديوان قصّة طريفة نقّصت من شرح الديوان المطبوع وهي ذات دلالة على شيوع آراء ابن عربيّ في ذلك الوقت واستفادة تلاميذ الشّيخ الأكبر من شعر ابن الفارض في إشاعة مذهبه. ونحن نحسّ أن نذكر هذا النّصّ ههنا لأهميّة دلّالته: «قلت سمعت الشّيخ شمس الدّين محمد الأيكي شيخ الشّيوخ بخانقاه سعيد السّعداء (بمصر) يقول لسَيدي الشّيخ كمال الدّين محمّد ولد الشّيخ (عمر صاحب الديوان) وقد حضر (أي الأيكي) إلى زيارته (أي إلى زيارة ولد الشّيخ بعد وفاة الشّيخ) ومعه الشّيخ نور الدّين النّقشوانيّ وجماعة من أكابر الصّوفيّة وكان ذلك في أوخر دولة المنصور (الملك المُظفر) قلاوون تغمّده الله برحمته: يا سيّدي الحمد لله الذي عشتُ وكأنيّ اليوم رأيت سيّدي الشّيخ شرف الدّين (ابن الفارض) والدك وأنا على مذهب شيخنا الشّيخ صدر الدّين (القونوي رفيق الشّيخ عمر بن الفارض في الأخذ عن الشّيخ مُحبي الدّين بن العربيّ) واعتقاد كلامه والاشتغال بقصيدته نظّم السّلوك، وذكر منها أبياتاً من جعلتها هذا البيت:

ولولا حجاب الكون قلّت وإنّما قيامي بأحكام المظاهر مُسكتي

وشرع يتكلّم على معاني الأبيات ويقول: كان شيخنا (أي صدر الدّين القونوي) يحضر في مجلسه جماعة من العلّماء وطَلَبَة العلم ويتكلّم (صدر الدّين) في فنون من العلم معهم ثمّ يختم بعد ذلك بذكر بيت من القصيدة «نظّم السّلوك» ويتكلّم على ذلك البيت بالعجميّ كلاماً غريباً لدُنْيَا لا يفهمه إلاّ صاحب دَوَق وشَوَق وكان (صدر الدّين) في ثاني يوم يقول ظهر لي في معنى البيت الذي تكلمنا عليه بالأمس معنى آخر ويتكلّم بأعجب مما تكلم به بالأمس (وقد استشهد في كتابه النّفحات بقول الشّيخ عمر بن الفارض رضي الله عنه من الثّائية:

وأنت على ما أنت عنّي نازح وليس الثّريا للثّرى بقرينة)

وكان يقول ينبغي للصّوفيّ أن يحفظ هذه القصيدة وشرحها على من يفهمها». ثمّ يأتي في الدّيباجة كلام يدلّ على أصل كتاب «مُنتهى المدارك» الذي ألفه سعيد الفرغانيّ وهو مطبوع، كما يدلّ على أهميته في بُحوث التّصوّف التي تستقي من بحر ابن عربيّ: «قال الشّيخ شمس الدّين محمّد الأيكي رحمه الله وكان الشّيخ سعيد الفرغانيّ قد أقبل بهيمته على فهم ما يذكره الشّيخ صدر الدّين من شرح =

كان الشعراء يُزاوِلونها في بعض الأحيان للاستطراف ولا سيَّما الدُّوييت^(١).

إنَّ تصوير الحالات الصُّوفيَّة النَّفسِيَّة بالطُّرُق التي عالجتُها دَعَوْنَاه الرَّمز الدَّائِيَّ وفَقاً للباحثين الحديثين^(٢). ولكنَّ قد يعتمد الشَّاعر إلى الرَّمز المَوْضوعيِّ وذلك حين يرمز إلى المعاني بالألفاظ أخرى غير المَوْضوعة له لعلاقة ما بحيث يُقَابِلُ كُلَّ معنى لفظ من تلك الألفاظ. وابن الفارض الذي برع في وضع الألغاز كما رأينا لا يصعب عليه إذا عمَدَ إلى الضَّرْب المَوْضوعيِّ من الرَّمز أن يُجَيِّدَه إجادة فائقة. ولهذا ما حصل في قصيدته الخمرية المشهورة:

شَرِبْنَا على ذِكر الحبيب مُدامة سَكِرْنَا بها من قبل أن يُخَلِّقَ الكَرَم
ورَمَزِيَّةُ هذه القصيدة جَعَلَتْ البورينيَّ شارح ديوان الشَّاعر يكتب على وجه التَّخصيص:

«اعلم أنَّ هذه القصيدة مَبْنِيَّة على اصطلاح الصُّوفيَّة فَإِنَّهُمْ يذكرون في عباراتهم الخمرة بأسمائها وأوصافها ويُريدون بها ما أراد الله تعالى على ألبابهم من المعرفة أو من الشُّوق والمَحَبَّة. والحبيب في عبارته عبارة عن حضرة الرِّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام. وقد يُريدون به ذات الخالق القديم جَلَّ وعلا لِأَنَّهُ تعالى أَحَبُّ أن يُعَرَفَ فَخَلَقَ، فَالْخَلْقُ منه ناشئ عن المَحَبَّة. وحيث أَحَبَّ فَخَلَقَ فهو الحبيب والمحبوب والطَّالِب والمطلوب. والمُدَامَةُ المَعْرِفَةُ الإلهيَّة والشُّوق إلى الله تعالى، وقوله سَكِرْنَا بها أي طَرَبْنَا واثْنَشَيْنَا على سَمَاع ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٣)، قبل أن يُخَلِّقَ الكَرَم أي الوجود؛ فَإِنَّ الكَرَم عبارة عن هذا الوجود الممكن الحادث الذي أَوْجَدْتَهُ القُدْرَةُ الإلهيَّة، ولا شكَّ أَنَّ طَرَبَ الأرواح على السَّمَاع عند شُرْب الرِّاح قبل إيجاد الأشباح».

ولن نُسِرِف على القارئ إذا ذكرنا البيت الثاني وشرحه:
لها البدر كَأَس وهي شمس يُديرها هلال وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجْم
يقولُ البوريني: «هذا البيت عجيب في بابهِ فإنه مُشْتَمِل على ذِكر أَلْفَاظ يناسب بعضها

القصيدة ويُعَلِّقُه عنده ثُمَّ بعد ذلك عَرَّبَه وعمل بذلك شرحه على القصيدة المذكورة في مُجلَّدَيْن وهو من نَفْس شيخنا صدر الدِّين رحمه الله». وشرح النَّابُلسي مخطوط بالمكتبة الظَّاهريَّة في عَدَّة نُسخ أرقامها: (٤٩٠٧ - ٤٩٠٨)، (٥٢٣٧)، (٥٥٦٨ - ٥٥٦٩)، (٨٢٨٥)، (٨٦٧٦).

(١) انظر كتابنا هذا، ص ٩٧.

(٢) انظر ص ٢١٦ من كتابنا هذا.

(٣) الأعراف ٧: ١٧٢.

بعضاً وهي البدر والشَّمس والهِلال والنَّجم وكذلك الكأس والإدارة والمَرْج... ومنهم من يقول: البدر عبارة عن العارف الكامل، وأكبر العارفين الأنبياء. وبعد نبينا يراد العارفون من أمته. والمداومة هي المعرفة الإلهية التي تفيض أنوارها في جميع الكائنات. وأما الهلال الذي يُديرها فهو المبلِّغ عن العارف كأصحاب الأنبياء وتلاميذ العارفين. وإذا مُرِجَت المَعْرِفَةُ اللَّدُنِيَّةُ بالمدارك الشَّرْعِيَّةُ الدُّنْيِيَّةُ فكم يظهر هناك نور يُهْتَدَى به».

إنَّ البوريني أدب قبل كلِّ شيء وشرحه لديوان الشيخ الشاعر يقصد إلى إبراز البلاغة في شعره ولا يكتُم الشَّارِح إعجابه بهذا البيت. ولكنَّه لا يكتفي بالشرح الأدبيُّ فهو يذكُر المعاني المرموز إليها فيه. بيِّد أنَّ مُتَعَقِّب الشُّعراء والصُّوفِيَّة معاً يزداد إعجابه حين يَتَبَّه للتوفيق الكبير الذي يُصِيبُه الشَّاعر إذ يذكر أموراً مقبولة مُختارة عند الفريقين. أمَّا الشُّعراء المايجنون فكم شَبَّهوا الخمر والكأس والسَّاقِي والحَبَاب بالشَّمس والبدر والهلال والنَّجم وأما المُتصوِّفون فكم يَطْرِبون زيادة على هذه الألفاظ اللَّطِيفَةِ المُحِبَّةِ المُستَمِيلة حين يَتَأَمَّلون وراء الشَّمس المُضِيئة في ذاتها الحقيقة الثَّورَانِيَّة الأَزَلِيَّة الأَبَدِيَّة ووراء البدر القطب العارف أو الإنسان الكامل العالم المُحَقِّق العامل ووراء الهلال المُبَلِّغ ووراء النَّجم المُريد ووراء الإدارة نُشْر الأسماء والصفات الحسنى ووراء المَرْج شُوبها بغيرها على حدِّ تعبير الشَّيخ النَّابلسيِّ. ويكاد يَحَار هذا الشَّارِح الصُّوفيُّ في أداء الشَّرح الكامل للبيت فيقول: «ومن فَهَم الإشارة أغتته عن كلِّ عبارة. وأهل الأذواق يفهمون معاني ما كُتِب في الأوراق، والأسرار في قلوب الأحرار».

وإذ جَرى الرَّمز بالخمرة إلى الحبِّ الإلهيِّ والمعرفة الإلهيَّة صَحَّ أن نَسُب إلى ظاهر الخمرة ما افْتَنَّ فيه الشُّعراء المايجنون وافْتَتَنُوا به وأن نُبالِغ في أوصافها ما وَسَعَتْنَا المُبالِغة فلن تكون مُبالِغتنا في هذا المجال إلَّا تقصيراً. وكأنَّ الشَّاعر يُباري شعراء الخمرة الحسِّيَّة، وهنا تبدو ثقافتا ابن الفارض الأدبيَّة الواسعة. ينبغي عند قراءة ابن الفارض خاصَّة والشُّعراء العرب عامَّة إلَّا نَغْفُل عن تَبَيُّن الأفكار الشَّعريَّة التي يأخذها أولئك الشُّعراء بعضهم عن بعض ويزيدون فيها أو يَنقُصون حسب مقاصدهم لغرض من الأغراض الفنيَّة. إنَّ تلك الأفكار أحياناً تَضِيح دلالاتها الأصليَّة لتغدو أفكاراً فنيَّة صِرْفاً وتزيينات شكليَّة، لا فرق بينها إلَّا في جمال العرض، وبَهَرَجَةِ الصَّنَاعَةِ. والرَّمز المَوْضوعيُّ الذي يُقَابِل كلِّ فكرة بشيء يرمز به إليها إذا تكاثرت ثَقُل. ولهذا يعمد شاعرنا إلى التَّغْيِي بأوصاف الخمرة مُضِيفاً إلى ذلك الرَّمز المَوْضوعيُّ الذي نَجَدُه في هذه القصيدة طريقتَه في الرَّمز الدَّائِي. ولقد قال المُغيرة بن عبد الله الملقَّب بالأُقَيْشِر، وهو شاعر ولد في الجاهليَّة وعاش في الإسلام

والعصر الأمويّ وأدرك عبد الملك بن مروان وكان خليعاً مُذمّناً للخمر، هُذين البيتين أغرق فيهما جدّاً:

ومُقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سقّيناه ثلاثاً فأبصرا
شراباً كريح العنبر الورد ريحه ومسحوق هنديّ من المسك أذقرا

ولمّا أجاز مثل هذا الشاعر الماجن لنفسه هذا الإغراق في وصف الخمرة الدنيويّة المُحرّمة فأوّلَى بـ «سلطان العاشقين وقُطب العارفين»^(١) أن يُطلق لخياله العنان في آثار القدرة الإلهيّة:

ولو نظر النّدمان ختَمَ إنائها ولو نضحوا منها ثرى قبر ميّت
ولو طرّحوا في فيءٍ حائط كرمها ولو قرّبوا من حانها مُقعداً مشى
ولو عبقّت في الشّرق أنفاس طيها ولو خضبت من كأسها كفّ لأمس
ولو جليّت سرّاً على أكمه غدا ولو أن ركباً يَمّموا تُرب أرضها
ولو رسم الرّاقى حروف اسمها على وفوق لواء الجيش لو رُقِمَ اسمها
تُهدّب أخلاق النّدامى فيهندي

لأشكرهم من دونها ذلك الختم لعادت إليه الرّوح وانتعش الجِسم
عليلاً وقد أشفى لفارقه الشّقم وتنطق من ذكرى مذاقتها البُكم
وفي الغرب مزكوم لعاد له الشّم لما ضلّ في ليل وفي يده النّجم
بصيراً ومن راووقها تسمع الصّم وفي الرّكب ملسوع لما ضرّه الشّم
جيين مُصاب جُنّ أبرأه الرّسم لأشكر من تحت اللّوا ذلك الرّقم
بها لطريق العزم من لا له عزم

إلى آخر هذه الأبيات التي يُسوّعها ما وراءها من «نشوة» رويّة وإن أسرفت في الخيال المُتّزع من مجال المرض.

ثمّ يعود بعد قليل إلى الرّمز وإلى المهارة في استعمال المُحسنات البديعيّة:

تقدّم كلّ الكائنات حديثها قديماً ولا شكّل هناك ولا رسم

ولا يخفى على القارئ مُراعاة النّظير بين الحديث والشّكل والرّسم في الكتابة كما لا تخفى التّوريّة في الشّكل الذي هو المِثال والرّسم الذي هو الأثر وهما المَعْنَيان المُرادان في البيت ولا الطّباق أو إيهامه بين الحديث والقديم. ثمّ يهيئ الشاعر السّامع تهيئةً مُناسبة ليُفاجئه بما يُشبه اللّغز الذي اتّقن صنّعه:

(١) الوصف مكتوب على قبر ابن الفارض بالجامع المنسوب إليه بالقرافة في سفح المُقطم.

فخمر ولا كَرَم وآدم لسي أب وكَرَم ولا خمر ولي أُمها أُم
ونترك للقارئ أن يرجع إلى القصيدة كلها فيعيد التأمل فيها ولا يغفل المحسنات
البدعية التي تلازم صنعة هذا الشاعر الصوفي. ولقد ذكرنا في فصل سابق براعته حين
يقتن فَيَتَقِل بين مستويات ثلاثة: مستوى الدلالات الحسية من خمرة وآنية وسقاة وحباب
ومستوى التشبيهات المتداولة في الشعر ومستوى الأمور الصوفية المعنوية المقصودة.
وهكذا نستطيع هنا أن نتفهم مهارة الشاعر أكثر من ذي قبل، فالرّمز عنده ليس بسيطاً،
وكأنما نستطيع أن نقول إنه من الدرجة الثانية. وإذا انتبهنا إلى أن اللغة في الأصل إشارات
ورُموز علّت درجة الرّمز عند ابن الفارض أكثر فأكثر.

هذا أسلوب ابن الفارض في اعتماده للرّمز الذاتي والموضوعي. ولكنّ الأسلوب
الرّمزي لا يوجد صافياً بلا شوب. مثله في ذلك مثل الأسلوب التجريدي التنزيهي الذي
عرفناه عند الحلّاج. فقد يُنوّه الشاعر الرّمزي بضيق الرّمز عن المعنى الذي يقصده. يقول
ابن الفارض:

وكيف أُرَجِّي وصل من لو تصوّرت حِماها المُنَى وهما لضاقَتْ بها الشبل
ولكنّ ألا نرى أنّه في هذا الضيق حتى عن الوهم يعتمد الاستعارة والتخييل
والوهم؟^{١٩}

الرمز والفلاسفة:

بيد أنّ الرّمز الموضوعي كان الفلاسفة قد استعملوه منذ القديم حتى في أشعارهم.
ويعرف المتأدّبون قصيدة الرئيس ابن سينا (٣٧٠/٩٨٠ - ٤٢٨/١٠٣٧) في النفس. فهو
يُعيد فيها رواية اتصال النفس بالجسد، فيشبه النفس بالحمامة التي هبطت من المحلّ
الأرفع الذي هو عالم العقول التي تفيض النفوس منه، على حدّ تعبير سُراحه، إلى
الحضيض الأوضع الذي هو هيكل الطين. ونحن نحبّ أن نُوردها هنا لأنها ابتعثت
معارضات شتى في الشعر^(١).

(١) عارضها في العصر الحديث أحمد شوقي بقصيدة طويلة ولقد رَمَز إلى النفس بمؤنث وهو أقرب إلى
الغناء والغزل والطلاوة:

هذي المحاسن ما خُلِفْنَ لبرقع	ضُمّي قناعك يا سعاد أو ازفعي
ستر الجلال ويُعدُّ شأواً المطلع	الضاحيات الضاحكات ودونها
زيديه حُسن المُحسن المُبرّع =	يا دُميمة لا يَسْتزاد جمالها
	إلخ..

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ
مَحْجُوبَةً عَنْ كُلِّ مُقْلَةٍ نَاطِرِ
وَصَلْتُ عَلَى كُرْهِهِ إِلَيْكَ وَرَبَّمَا
أَنْفَقْتُ وَمَا أَنْسَيْتُ فَلَمَّا وَاصَلْتُ
وَأَظْهَرْتُ نَسِيَّتَ عَهْدِي بِالْحِمَى
حَتَّى إِذَا اتَّصَلْتُ بِهِاءَ هُبُوطِهَا
عَلِقْتُ بِهَا ثَاءَ الثَّقِيلِ فَأَصْبَحْتُ
تَبْكِي إِذَا ذَكَرْتُ عَهْدِي بِالْحِمَى
وَتَظَلُّ سَاجِدَةً عَلَى الدَّمَنِ الَّتِي
إِذْ عَاقَهَا الشَّرْكُ الْكَثِيفُ وَصَدَّهَا
حَتَّى إِذَا قَرُبَ الْمَسِيرُ عَنِ الْحِمَى
وَعَدْتُ مُفَارِقَةً لِكُلِّ مُخْلَفٍ
سَجَعْتُ وَقَدْ كُشِفَ الْغَطَاءُ فَأَبْصَرْتُ
وَعَدْتُ تُغَرِّدُ فَوْقَ دُرُوزَةٍ شَاهِقِ
فَلَأَيِّ شَيْءٍ أَهْبَطْتُ مِنْ شَامِخِ
إِنْ كَانَ أَهْبَطَهَا إِلَهُ لِحُكْمَةٍ
وَهَبُوطِهَا إِنْ كَانَ ضَرْبَةً لِأَرْبِ
وَتَعُودِ عَالِمَةٍ بِكُلِّ خَفِيَّةٍ
وَهِيَ الَّتِي قَطَعَ الزَّمَانُ طَرِيقَهَا
فَكَأَنَّهَا بَرَقَ تَأَلَّقَ بِالْحِمَى
أَنْعِمَ بَرْدُ جَوَابٍ مَا أَنَا فَاحِصُ

وَرَقَاءَ ذَاتِ تَعَسُّزٍ وَتَمْتُّعِ
وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَبْرَقْ
كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَوَجُّعِ
أَلْفَتْ مُجَاوِرَةَ الْخَرَابِ الْبَلَقِ
وَمَنَازِلًا بِفِرَاقِهَا لَمْ تَقْنَعِ
مِنْ مِيمٍ مَرَكُزَهَا بِذَاتِ الْأَجْرَعِ
بَيْنَ الْمَعَالِمِ وَالطُّلُولِ الْخُضَعِ
بِمَدَامِيعِ تَهْمِي وَلَمْ تَتَقَطَّعِ
دَرَسَتْ بِتَكَرُّرِ الرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ
قَفَصَ عَنِ الْأَوْجِ الْفَسِيحِ الْمَرْبَعِ
وَدَنَا الرَّحِيلَ إِلَى الْفَضَاءِ الْأَوْسَعِ
عَنْهَا حَلِيفُ الثُّرْبِ غَيْرُ مُشِيعِ
مَا لَيْسَ يُدْرِكُ بِالْعَيُونِ الْهُجَّعِ
وَالْعِلْمِ يَرْفَعُ كُلَّ مَنْ لَمْ يُرْفَعِ
عَالٍ إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الْأَوْضَعِ
طُوبَيْتَ عَلَى الْفَدِّ اللَّيِّبِ الْأَزْوَاعِ
لِتَكُونَ سَامِعَةً لِمَا لَمْ تَسْمَعْ
فِي الْعَالَمِينَ فَخَرَفُهَا لَمْ يُزْقَعْ
حَتَّى إِذَا غَرَبَتْ بِغَيْرِ الْمَطْلَعِ
ثُمَّ انْطَوَى فَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْمَعْ
عَنْهُ فَنَارُ الْعِلْمِ ذَاتُ تَشْعُشْعِ

وَكَأَنَّ الرَّمْزَ لَا يَكْفِي فِي هَذَا الْفِيلَسُوفِ الشَّاعِرِ أَوْ كَأَنَّهُ يَشْكُ فِي صَوَابِهِ فَهُوَ يَجْعَلُ
خِتَامَ الْقَصِيدَةِ مَفْتُوحًا عَلَى شَكْلِ اسْتِفْهَامٍ لِيُحِثَّ الْقَارِئَ عَلَى الْبَحْثِ وَالتَّمَاسِ الْجَوَابِ.

يَقُولُ بِهِاءَ الدِّينِ الْعَامِلِيِّ فِي «الْكَشْكُولِ»: «حَاصِلُ الْأَبْيَاتِ السَّتَّةِ (قَبْلَ الْبَيْتِ

= وعارضها الشاعر المعاصر السيد عادل الغضبان، وكذلك العالم الصديق علي نصوح الطاهر وجمع ذلك كله في كتاب دعاه «الروح الخالدة». ولقد لقيت عينية ابن سينا بعض الشروح منها شرح لعبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة ١٠٣١ هـ مطبوع بمصر وكذلك شرح آخر لنعمة الله الجزائري الشوشترى المتوفى سنة ١١١٣ هـ وهو مطبوع في طهران.

الآخر) أَنَّهَا لِأَيِّ شَيْءٍ تَعَلَّقَتْ بِالْبَدَنِ؟ إِنْ كَانَ لِأَمْرٍ غَيْرِ تَحْصِيلِ الْكَمَالِ فِيهِ حِكْمَةٌ خَفِيَّةٌ عَلَى الْأَذْهَانِ، وَإِنْ كَانَ لِتَحْصِيلِ الْكَمَالِ فَلَمْ يَنْقَطِعْ تَعَلُّقُهَا بِهِ قَبْلَ حَصُولِ الْكَمَالِ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّفْسِ تُفَارِقُ أَبْدَانَهَا مِنْ دُونِ تَحْصِيلِ كَمَالٍ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِبَدَنِ آخَرٍ لِبُطْلَانِ التَّنَاسُخِ؟».

هَذَا وَمِنْ أَطْرَفِ الْبَحْثِ التَّمَاسِ أَطْرَافَ الْحِوَارِ وَالْمُسَاجَلَةِ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ وَبَيْنَ ظَوَاهِرِ الْكُونِ مِنْ جِهَةٍ أَوْ فِيمَا بَيْنَهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ. وَأَيُّهُمْ بَلِ أَيُّ إِنْسَانٍ لَمْ يَشْغَلْ بِهِ أَمْرُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَكُنْهُ الرُّوحِ وَالْخُلُودِ؟ وَأَيُّ طُرُقِ التَّبْعِيرِ عَنْ تِلْكَ الْعَوَالِجِ الْعَمِيقَةِ أَفْضَلُ مِنَ الرَّمْزِ وَمِنْ الشُّعْرِ!

وَجَاءَ أَبُو الْفَتْوحِ الشُّهْرُورِيُّ (١١٥٥/٥٤٩ - ١١٩١/٥٨٧) فَعَارِضَ قَصِيدَةَ ابْنِ سِينَا بِقَصِيدَةٍ جَمِيلَةٍ مِنَ الْوِزْنِ ذَاتِهِ وَبَرَوِيٍّ آخَرَ يَقُولُ فِيهَا:

خَلَعْتُ هِيََاكُلَهَا بِجَرَعَاءِ الْحِمَى	وَصَبْتُ لِمَغْنَاهَا الْقَدِيمَ تَشْوُوقَا
وَتَلَقَّيْتُ نَحْوَ الدِّيَارِ فِشَاقَهَا	رَبَعَ عَفْتُ أَطْلَالَهُ فَتَمَرَّقَا
وَقَفْتُ تُسَائِلُهُ فَرْدٌ جَوَابَهَا	رَجَعُ الصَّدَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى اللَّقَا

وَيَنْظُرُ صَاحِبُ «حِكْمَةِ الْإِشْرَاقِ» إِلَى أَحَدِ آيَاتِ ابْنِ سِينَا فَيُعِيدُهُ بِأَغْلَبِ الْفَاضِلَةِ:

فَإِذَا بِهَا بَرْقٌ تَأَلَّقَ بِالْحِمَى ثُمَّ انْطَوَى فَكَأَنَّهُ مَا أَبْرَقَا

وَقَدْ عَالَجَ ابْنُ طُفَيْلٍ الْمَوْضُوعَ نَفْسَهُ فِي آيَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنِ الْقَصِيدَتَيْنِ بِحِرَافَةٍ وَقَافِيَةٍ وَلَا نَكَادُ نَسْتَشْفِئُ فِيهَا تَأَثُّراً بِهِمَا، وَشِعْرُهُ أَلْصَقُ بِالسَّلِيلَةِ وَأَقْرَبُ مِنَ الطَّبَعِ وَأَبْعَدُ عَنِ الرَّمْزِ:

يَا بَاكِياً فِرْقَةَ الْأَحْبَابِ عَنْ شَحَطِ	هَلْأَ بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ
نُورٌ تَرَدَّدَ فِي طِينٍ إِلَى أَجَلِ	فَانْحَازَ غُلُوباً وَخَلَّى الطِّينَ لِلْكَفَنِ
يَا شَدَّ مَا افْتَرَقَا مِنْ بَعْدِ مَا اعْتَلَقَا	أَظْنُّهَا هَدَنَةً كَانَتْ عَلَى دَخَنِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رِضَا اللَّهِ اجْتِمَاعُهُمَا	فِيَا لَهَا صَفْقَةً تَمَثَّى عَلَى غَبَنِ

وَأَلَّفَ الْفِيلَسُوفُ الرَّئِيسُ قِصَّةَ دَعَايَا «حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ» سَلَكَ فِيهَا مَسْلَكَ الرَّمْزِ، وَيَطَّلِعُ عَلَيْهَا «مَقْتُولُ حَلَبٍ» فَيُصَادِفُهَا «مَعَ مَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الْكَلِمَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ وَالْإِشَارَاتِ الْعَمِيقَةِ مُعْتَرِيَةً مِنْ تَلْوِيحَاتٍ تُشِيرُ إِلَى الطُّورِ الْأَعْظَمِ الَّذِي هُوَ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُسْتَوْدَعِ فِي الرُّمُوزِ الْمُخْفَى فِي قِصَّةِ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ فَهُوَ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَقَامَاتُ الصُّوفِيَّةِ وَأَصْحَابُ الْمُكَاشَفَاتِ وَمَا أَشِيرُ (إِلَيْهِ) فِي رِسَالَةِ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ إِلَّا

في آخر الرسالة حيث قال: وَلَرَّيْمَا هَاجَرَ إِلَيْهِ أَفْرَادٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ»^(١). ولذلك يكتب قصّة صغيرة جديدة رمزيّة يدعوها «الغربة الغربيّة». وكأنّ المؤلّف يريد بها غربة الرّوح في الجسم الذي هو الغرب مُتقابلاً مع الشّرق أي الأصل فالقصّة تُمثّل تعليماً يقود الصّوفيّ إلى ذلك الأصل.

ومن المعلوم أنّ كُتُب الشّهورديّ ورسائله يصحّ تصنيفها صنفين كبيرين: أحدهما مؤلّفات كُتبت في بُحوث فلسفيّة صِرَف أكثر عناصرها يعتمد على الفلسفة المشائيّة أو ينتقدها. ولقد كان الشّهورديّ من المُفكّرين الذين أطلعوا أطلاّلاً واسعاً على المنطق ووجّهوا انتقادات عميقة إلى منطق أرسطو، وفي تلك الانتقادات يتألّق الفكر الأصيل وتبرز الشّخصيّة الفكريّة المُستقلّة.

والصّنف الأوّل بمثابة تمهيد وتوطئة للقسم الثّاني الذي هو أهمُّ وأعظم لأنّه حصل له بالدّوق الباطنيّ والتّجربة الفلسفيّة الصّوفيّة. «ولا ردّ على الرّمزيّة» كما يقول تلميذه الشّهزوريّ وذلك «لأنّ الرّدّ على فهم المُراد، لكنّ المُراد، وهو باطن الرّمز، غير مفهوم، والمفهوم وهو ظاهر غير مُراد؛ فالرّدّ يكون على ظاهر أقاويلهم غير المُرادّة، فلّهذا لا يتوجّه (الرّدّ) على الرّمز».

والصّنف الثّاني من مؤلّفاته وضعه على هيئة حكايات وقصص وأمثال ورؤى ورموز ذات مغزى فلسفيّ وصوفيّ معاً.

والشّهورديّ يَنزِع نَزعة الصّوفيّة في الشّعْر. وقصيدته الحائيّة مشهورة مُتداوِلة، جميلة النّسج، بديعة الأفكار والخيال، حسنة التّصوير، مُلتهبة العاطفة، وقد ذكرنا فيما سلف بضعة أبيات منها.

وصاحب كتاب «هياكل الثّور» يصف في قصيدته هذه عُشّاق الحقيقة وصفاً بديعاً كأنّهم يقومون بمغامرة بعيدة المدى جامحة الهوى:

ركبوا على سفن الهوى ودموعهم	بحر وشدّة شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه	حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
حضرُوا وقد غابَتْ شهود ذواتهم	فتَهَتَكُوا لَمَّا رَأَوْهُ وصاحوا

وفي القصيدة البيت المشهور الذي طار على الأفواه كالأمثال:

وتشبهوا إنّ لم تكونوا مثلهم إنّ التشبّه بالكِرام فلاح

(١) في الأصل المطبوع: ولقد هاجر، والتّصحیح عن نسخة ابن سينا المطبوعة أيضاً.

وكانت شمس الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت السمت في آفاق المغرب والأندلس. والآثار الخالدة الآبدة هناك ألسنة تنطق بعظمة تلك الحضارة الكبيرة. ولا شك أن الذي يزور ما بقي من تلك الآثار ينسى هنالك الحاضر كله ويعيش مدة في جو من الأحلام الحلوة البديعة الماضية. بل ينسى الزمان قاطبة أمام روعة الفن العظيم في جامع قرطبة ولا سيما الزخرفة العجيبة في مخاربه وتلقاء الهندسة البارعة في منارة إشبيلية وإزاء الصنعة البديعة الفائقة في قصور الحمراء بغرناطة. ولكن الزائر العربي وهو يتأمل مجال الفن هنالك لا يلبث أن يتجاوز تلك الآثار الشاخصة الصامتة الناطقة فيتذكر الآثار الفكرية والأدبية الكثيرة التي هي من ثمرات تلك الحضارة والتي لا تقل روعة وعظمة وعلوًا وإبداعاً عن شأو فن العمارة والزخرفة. يطوف العربي حول تلك الأركان ويطوف في سماء فكره ألوف من أسماء الفلاسفة والمفكرين والعلماء والشعراء والأدباء والزجاجالين والمبرزين في كل ميدان، هؤلاء الذين كانوا سبباً كبيراً من أسباب وصول الحضارة إلى أوربة وبزوغ شمسها عليها من المغرب بعد بزوغها من المشرق.

ولا ريب في أن الفيلسوف العربي أبا بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي (١١٠١/٤٩٥ - ١١٨٥/٥٨١) يأتي في طلائع أولئك الفلاسفة. ولا بأس بأن نلّم بفيلسوف عربي أندلسي اضطنع الرمز في بعض ما كتب لتقضي بعد ذلك إلى من نعدّه إمام الرمز على الإطلاق في الشعر وفي النثر قاطبة.

وإذا ذكر ابن طفيل ذكرته معه رسالته اللطيفة «حي بن يقظان». وموضوع الرسالة الرمزي معروف. وكأن المؤلف يروي لنا فيها ببساطة ومهارة كبيرتين قصة الحياة الإنسانية في الطبيعة أو مغامرة العقل الإنساني في الكون فيصوّر لنا تصويراً خيالياً بارعاً مختزلاً بعض المراحل التي مرّت بها الحياة الإنسانية أو مرّ بها العقل.

يقول المؤلف في ختام الرسالة: «ولم نخل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق اليسيرة من الأسرار عن حجاب رقيق وستر لطيف ينهتك سريعا لمن هو أهله». وهذه إشارة واضحة إلى أن المؤلف أراد أن يتبع طريق الرمز والتعطية ولو بعض الشيء فيما يقصد، فلا بد من الاستفهام في حل تلك الرموز. فهل رمز بحي إلى العقل الإنساني وبيقظان إلى الإله، وهل قصد في التقاء حي بن يقظان وآسال واتفاقهما التقاء النظر العقلي الفلسفي والشرائع التي جاءت بها الرسل كما نوه من قبله الفارابي وابن سينا وكما أكد بعده ابن رشد أيضاً مع التفاوت المتنوع في اعتباراتهم؟ أئتم لا يدك إخفاق حي بن يقظان بين أهل الجزيرة الثانية على عجز جماهير الناس عن إدراك مقاصد الفلسفة وتجريداتها؟ أو لا

يشبه أيضاً تَفَاوُتَ آسَالٍ وسَلَامَانِ تَفَاوُتَ أَهْلِ الْبَاطِنِ أَصْحَابِ التَّأْوِيلِ وَأَهْلِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ يَسْتَمْسِكُونَ بِالنُّصُوصِ؟ كُلُّ ذَلِكَ جَائِزٌ بَلْ هُوَ شَدِيدُ الرُّجْحَانِ، وَلَكِنَّا نَظُنُّ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ ثَمَّةَ أُمُورٍ كَانَ يَعْتَقِدُهَا الْمُؤَلِّفُ وَأَرَادَ أَنْ يَدْلِكَ عَلَيْهَا وَيُلَوِّحَ بِهَا مِنْ بَعِيدٍ وَهِيَ فَهْمُهُ لِكُنْهِ الْحَيَاةِ وَمَعْنَى الْبَعْثِ وَلَطَبِيعَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَرَغْبَتِهِ فِي انتِقَادِ الْمَجْتَمَعِ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِيهِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ. يَبْدُو أَنَّ طَرِيقَةَ الرَّمْزِ تَمْنَعُ الْقَطْعَ فِي الْحُكْمِ لِأَنَّ الرَّمْزَ جَفَرَ السِّرِّ، يَقُولُ مَا لَا يُقَالُ بغيره، وَهُوَ كَالْقِطْعَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ لَا تَنْحَلُّ مَقَاصِدُهَا بِالسَّمَاعِ مَرَّةً وَاحِدَةً بَلْ تَتَجَدَّدُ إِحْيَاؤُهَا وَتَزْدَادُ مَعَانِيهَا بِتَجَدُّدِ سَمَاعِهَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ زِيَادَةَ الْإِبْصَاحِ فِي رَمُوزِ ابْنِ طُفَيْلٍ تَسْتَدْعِي زِيَادَةَ دَرَاةِ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ وَالْإِطَارَ الْفِكْرِيَّ لِآرَائِهِ مِنْ قَبْلِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ. وَرَبَّمَا كَانَتْ بَعْضُ التَّلَوِيحَاتِ فِي رَمُوزِهِ تَبْدُو بِصُورَةٍ أَجْهَرُ وَصُوتٌ أَقْوَى فِي كِتَابَاتِ مُوَاطِنِهِ الْفِيلَسُوفِ الصُّوفِيِّ الْكَبِيرِ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيٍّ الَّذِي كَانَ فِي سَنِّ الْعَشْرِينَ عِنْدَمَا مَاتَ ابْنُ طُفَيْلٍ^(١) وَالَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ فِي جُمْلَةٍ مَا انْتَهَى عُتْوَانُ السِّيَادَةِ فِي مَيْدَانِ الرَّمْزِ خِلَالَ تَارِيخِ الْفِكْرِ.

ابن عربي ومدرسته:

عَلَى سَفْحِ جَبَلِ قَاسِيُونِ بِدَمَشْقَ قَبْرِ يَضُمُّ رُفَاتًا عَرَبِيًّا أُنْدَلُسِيًّا كَانَ صَاحِبُهُ وَاحِدَ عَصْرِهِ: جَمَعَ عُلُومَ هَذَا الْعَصْرِ وَجَابَ مُتَنَقِّلًا وَهُوَ شَابٌ أَجْوَازَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَاسِعَةِ، وَنَقَذَ بِذَكَائِهِ الثَّاقِبِ إِلَى أَعْمَاقِ الْكُونِ وَتَفَهَّمَهَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ وَرَاعَتْهُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ عَظَمَةُ الْإِنْسَانِ الرُّوحِيَّةِ وَسَمَا بِطَاحِمِ فِكْرِهِ وَمِعْرَاجِ قَلْبِهِ إِلَى عَالَمِ السَّمَوَاتِ وَرَحَابِ الْغَيْبِ فَاخْتَرَقَ الْأَسْتَارَ وَطَافَ بِخَيَالِهِ مَعَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَقْمَارِ وَجَالَ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ جَوْلَانِ الْإِنْتِصَارِ وَلَمْ يَدْعُ أَفْقًا فِكْرِيًّا إِلَّا أَرْتَفَعَ إِلَيْهِ وَلَا قِمَّةَ رُوحِيَّةٍ إِلَّا بَلَغَ إِلَيْهَا. ذَلِكَ هُوَ عَلَى حَدِّ تَعْيِيرِ أَحَدِ شُرَاحِهِ^(٢) «بِحَرِّ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَتُرْجُمَانِ الْعُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ الشَّيْخِ الْأَكْبَرِ وَالْقُطْبِ الْأَفْخَرِ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ الْعَرَبِيِّ الطَّائِي الْأُنْدَلُسِيِّ».

(١) نَذَرَ أَيْضًا مِنْ جُمْلَةِ الْقَصَصِ الْفَلَسْفِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ رِسَالَةَ الطَّيْرِ لِلْغَزَالِيِّ وَفَصُولًا مِنْ رِسَائِلِ إِخْوَانِ الصِّفَا. وَهَذَا كُلُّهُ يَجْعَلُنَا نَتَّبِعُهُ، بِرَغْمِ الْفَرْقِ الزَّمْنِيِّ الْكَبِيرِ وَالْأَسْلُوبِ الْمُتَطَوِّرِ، لِلْمُؤَلِّفَاتِ الْقَصَصِيَّةِ وَالْمُسَرِّحَةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ عُنَاوِينَ فِلَسْفِيَّةً مُتَفَاوِتَةً أَمْثَالَ رَوَايَاتِ «بِرُوسْت» وَ«سَارْتِر» وَ«غَابِرِيل مَارْسِيل» وَ«سِيمُون دُوبُوفَار» وَ«كَافُكَا»، وَغَيْرِهِمْ حَيْثُ الْقِصَّةُ فِلَسْفَةٌ وَرُؤْيَى وَادِبٌّ جَمِيعًا، كَمَا يُدْكَرُنَا ذَلِكَ كُلُّهُ أَيْضًا بِمُحَافَازَاتِ أَفْلَاطُونِ وَأَسَاطِيرِهِ الَّتِي يَضْرِبُهَا فِي غَابِرِ الدَّهْرِ لِتَجْلِيَةِ آرَائِهِ وَتَفْهِيمِهَا.

(٢) عَبْدُ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيُّ: «شَرْحُ جَوَاهِرِ النُّصُوصِ فِي حُلِّ كَلِمَاتِ الْفُصُوصِ» ص ٢٠. وَيُقَالُ ابْنُ عَرَبِيٍّ فِي الْمَشْرِقِ تَفْرِيقًا لَهُ عَنِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْعَرَبِيِّ.

وُلِدَ فِي السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٥٦٠ هـ (٢٨ تموز ١١٦٥ م) فِي مَدِينَةِ مَرْسِيَةِ عَلَى السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِلْأَنْدَلُسِ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى إِيْشْبِيلِيَّةٍ وَكَانَتْ إِذْ ذَاكَ مِنْ عَوَاصِمِ الْأَرْضِ الْفِكْرِيَّةِ فَحَصَلَ فِيهَا عُلُومَ عَصْرِهِ وَطَافَ فِي قُرْبَةِ حَيْثُ لَقِيَ فِيهَا ابْنَ رَشْدٍ، وَفِي غِرْنَاةٍ وَالْمَرِيَةِ وَكَانَتْ كُلُّهَا مُدْنًا تَتَلَاؤُ عَلَى الْأَرْضِ تَلَاؤُ بَرُوجِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ. وَلَمْ يَلْبَثْ وَهُوَ شَابٌ أَنْ عَرَفَ طَرِيقَهُ الَّذِي نَبِغَ وَفَاقَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ وَهُوَ طَرِيقُ الْكُشْفِ وَالْفَتْحِ وَالْإِلْهَامِ. وَكَمَا تَعُودُ الشَّمْسُ إِلَى الْمَشْرِقِ حِينَ تُقْضِي إِلَى نَهَايَةِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ أَنْ تَمْلَأَ الْكَوْنُ نُورًا كَذَلِكَ أَرَادَ شَيْخُنَا الشَّابُّ أَنْ يَعُودَ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ شَمْسُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَعْدَ إِذْ أَنْارَتْ ظُلُمَاتِ الْمَغْرِبِ وَمَلَأَتْهُ حَضَارَةٌ وَتَقَدُّمًا، فَطَافَ فِي مَرَاكِشَ وَتُونِسَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ وَبَغْدَادَ وَالْمَوْصِلَ وَبِلَادَ الرُّومِ ذَهَابًا وَجِيئَةً ثُمَّ اخْتَارَ دُرَّةَ الْمَشْرِقِ دِمَشْقَ لَهُ دَارًا فَأَقَامَ فِي رُبُوعِهَا حَتَّى وَاثَاهُ أَجَلُهُ فِي ٢٨ رَيْبِ الْآخِرِ سَنَةِ ٦٣٨ هِجْرِيَّةً (١٦ تَشْرِينَ الثَّانِي ١٢٤٠).

وَكَانَتْ الرِّحَالَاتُ مِنْ أَسَالِيبِ الْحَيَاةِ الْمُصْطَفَاةِ لَدَى الْمُفَكِّرِينَ فِي الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ. فَلَا يَكْتَفُونَ بِالْقِرَاءَةِ وَسَعَةِ الْأَطْلَاعِ وَالتَّأْلِيفِ بَلْ يُضَيِّفُونَ إِلَى ذَلِكَ سُبُلَ التَّعَرُّفِ لِحَوَائِجِ تِلْكَ الْحَضَارَةِ الْمُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ وَالْإِتِّصَالِ بِذُرَا الْفِكْرِ وَمُحَاطَرَةِ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ. وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ خُرُوجٌ لِلْفِكْرِ مِنْ نِطَاقِهِ الْإِقْلِيمِيِّ الْمَحْصُورِ وَإِطْلَاقٌ لَهُ فِي مِيَادِينِ وَأَجْوَاءٍ وَاسِعَةٍ لَا تَكَادُ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا أَنْ تَتَبَيَّنَ لَهَا حُدُودًا إِذْ لَيْسَ لَهَا حُدُودٌ. وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ إِحْدَى خِصَائِصِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ.

يَبْدُو أَنَّ آثَارَهُ الْعِلْمِيَّةَ وَآفَاقَ تَفْكِيرِهِ تَجَاوَزَتْ آثَارَ خُطَاهُ وَآفَاقَ تَجَوَّالِهِ تَجَاوَزَتْ كَبِيرًا. أَلْفَ كُتُبًا وَرِسَالَاتٍ كَثِيرَةً وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الرِّسَالَاتِ مَشْكُوكًا فِي صِحَّةِ نِسْبَتِهَا إِلَيْهِ وَتَرَكَ تَرَاثًا فِكْرِيًّا حَافِلَ الْجَوَانِبِ ثَرِيًّا.

أَثَّرَ فِي نَهْضَةِ أَوْرَبَةِ الدِّينِيَّةِ وَفِي مُفَكِّرِيهَا اللَّاهُوتِيِّينَ وَأَثَّرَ فِي خَيَالِ شَاعِرِ إِيطَالِيَا الْكَبِيرِ دَانْتِي، وَقَدْ أَصْبَحَ أَمْرًا مَفْرُوعًا مِنْهُ أَثَرُ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ الَّتِي تُرْجِمَتْ إِلَى اللَّاتِينِيَّةِ فِي الشَّاعِرِ الْإِيطَالِيِّ وَمُلْهَاتِهِ الْإِلَهِيَّةِ، وَتِلْكَ الْقِصَّةُ تَنْتَسِبُ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّفَكِيرِ الصُّوفِيِّ الْإِسْلَامِيِّ^(١). أَمَّا النَّصُوفُ الْإِسْلَامِيُّ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ يَطْبَعُهُ بِطَابَعِهِ الْعَمِيقِ مِنْذُ ذَلِكَ الْحَيْنِ سِوَا مَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَهَكَذَا يَتَجَاوَزُ تَأْثِيرَهُ

(١) كَانَ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِسْبَانِي آسِين بِلَاسْيُوسَ مُهْتَمًّا بِدِرَاسَةِ ابْنِ عَرَبِيٍّ. وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَبَهَ عَلَى أَثَرِ الْخِيَالِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَا فِيهِ مِنْ صُورٍ عَنِ الْحَيَاةِ الْآخَرَى وَأَثَارِ بَذْلِكَ عَاصِفَةٍ مِنَ التَّقَدُّ. ثُمَّ اسْتَبَانَ أَنَّ إِحْدَى الْقِصَصِ الدِّينِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ مِعْرَاجِ الرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ قَدْ تُرْجِمَتْ إِلَى اللَّاتِينِيَّةِ فِي الْقَرْنِ =

اللُّغة العربيَّة إلى اللُّغة الفارسيَّة مثلاً فَتَجِدُ عدا المُفكِّرين الصُّوفيَّة الفرس أنَّ أكبر شعرائهم قد قَبَسوا من ناره وامتاحوا إلهاهم من ينبوعه .

فلقد كان أبو حامد أُوحد الدِّين الكرمانِي من تلاميذ الشَّيخ وتظهر آراء أستاذه في أشعاره .

ورَبَّى ابن عربيَّ صدر الدِّين القونويَّ وثَقَّفَه وعَلَّمَه فكان من أكبر تلامذته . وكان صدر الدِّين هذا أستاذاً لقطب الدِّين الشَّيرازيَّ أحد شُراح فلسفة الشَّهرورديَّ الإِشراقِيَّة وأستاذاً لفخر الدِّين العراقيَّ أحد كبار الشعراء الفرس ، وكتابه الشَّعري «لمعات» مُستَمَدٌّ من أحد دروس أستاذه صدر الدِّين حين كان يشرح آراء ابن عربيَّ، وَحَظِيَ الكتاب بعدَّة شروح فارسيَّة كانت أحد الطُّرُق التي دَخَلَتْ منها آراء ابن عربيَّ فارس والهند، منها ما كتبه الشَّيخ عبد الرَّحْمَن الجاميُّ ودعاه «أشعة اللَّمعات»^(١) . وكذلك كان صدر الدِّين صديقاً حميماً لمولانا الشَّيخ جلال الدِّين الروميَّ أكبر شعراء الفرس وهو يُعَدُّ في طليعة شعراء العالم قاطبة . وقد ماتا في سنة واحدة . وكانت هذه الصِّداقة ذات أثر كبير في شعر مولانا جلال الدِّين مؤلَّف المَثْنوي وهو أعظم ديوان شعر في الفارسيَّة .

وكلُّ فلسفة كبيرة تُحيط بالعالم وتُفهم أسرارَه فلا بُدَّ من أن يكون لها أصول تَسْتَدِ إليها وسُبُل تَسْلُكها ومناهج تَعْتَمِدُها زيادة على مضمونها وعلى العناصر التي يتألَّف منها هذا المضمون . وبالنَّظر إلى ذلك التَّأثير الواسع في الفكر وفي النَّثر وفي الشَّعر وإلى كَوْنِ فلسفة ابن عربيَّ في ماهيَّتها رمزيَّة لم يكن لنا بُدٌّ من عرض تلك الأصول التي يَعْتَمِدُها شيخنا وجلاء بعض العناصر التي تَشْتَمِلُ عليها . ثُمَّ إنَّ مؤلَّف الفتوحات يبدو لنا أيضاً أكبر نائر صوفيٍّ فيلسوف نَعْرِفه في الشَّرق وفي الغرب . ولكنَّه عالِمٌ مَوْضوعات كثيرة من فلسفته شِعْراً ولهذا لَزِمَ أن نعرض القواعد التي يَعْتَمِدُ عليها رمزه المُتداخِل في النَّثر والشَّعر . ونُحِبُّ أن نشير إلى أنَّ تلك الأصول والقواعد مع اتِّجاهها الرُّوحيِّ ذات صيغة فنيَّة بارزة فهي تُقْبَل على الكون وعلى الفنِّ الذي هو أثر الإنسان في الكون فتُمَجِّدُهُما تمجيداً للإنسان . إلّا أنَّ مؤلَّف «الفُصوص» إذا بلغ القمَّة في جَوْدة التَّعبير الفلسفيِّ المَرِن الدَّقِيق الموائم البليغ الواضح أحياناً والغامض أحياناً كما يريدُه هو لم يكن يُعْنَى في شعره الكثير إلّا بالفِكرة وبعرضها كما اتَّسَق له العرض . فكانت عنايته بالفِكر والبيان أشدَّ من

= الثالث عشرَ وذاعت في إسبانيا ثم في إيطاليا، وكانت هي إحدى الرسائل بل أهمها التي انتقلت بها تلك الصُّور عن العالم الآخر إلى دانتِي .

(١) انظر في كشف الظُّنون لحاجي خليفة : «لمعات» .

عنايته بالأداء الشعريّ الفتيّ الكامل الرّفع. ولذلك كان نثره أعلى بكثير من شعره، وإن صحّحت له نغمات عالية رفيعة في الشعر لا يمارى فيها أو كان هذا الشعر مهمّاً لأنّه تكثيف لآرائه وتلخيص لفلسفته وعرض آخر جديد فتّي لتلك الآراء الصّوفيّة الفلسفيّة.

وعلى الباحث أن يَجْلُو أصول كلّ فلسفة لكي تتحصّل الفائدة منها ويتيسّر الاطلاع عليها، ولا سيّما فلسفة ابن عربيّ الواسعة الآفاق، المُشتبِكة العناصر، التي لا تكاد تترك شيئاً دون أن تتأمّله وتضعه في موضعه المُناسب من الكون ومن الفكر. ولا تُساعها واشتباكها لم يكن بدّ من أن تضيق بها بعض الأفهام والعقول أو تجدها قد ابتعدت قليلاً أو كثيراً من صفاء العقيدة ومعالم الشريعة. فلا عَجَب أن لَقِيَ الشّيخ الأكبر مُناوأة كبيرة ومُدافعة شديدة في حياته وبعد موته من قِبَل طائفة جليّة من العلماء المُحقّقين المُدقّقين ولا سيّما السّلفيّة منهم كما لَقِيَ إعجاباً واحتراماً لا حدّ لهما من قِبَل آخرين.

إنّ أصول فلسفة ابن عربيّ قد بَعَد العهد بيننا وبينها في العصر الحاضر. ولذلك نجد فيها كثيراً من الألفاظ والمُصطلّحات قد تَبَدَّلَتْ حدود دلالاتها وقوّة إيحائها. كانت تلك الفلسفة سَبْكَاً جديداً لكثير من العناصر الفكريّة الرّائجة عند الفلاسفة والصّوفيّة إذ ذاك وابتكاراً أصيلاً لطريقة النّظر في الكون والمعتقدات والإنسان والوجود.

ثمّ إنّ ابن عربيّ يصدّر عن ثقافة واسعة مُتّصلة بالتّعابير والمُصطلّحات الدّينيّة أيّما كان مَيدانها ومجالها، وهي لا تكاد تُخَصَّر، فهو يَسْتَعْمِلُها في التّعبير عن آرائه، لذلك يُوجّه دلالاتها ومعانيها توجيهاً ينسجم مع أصول تفكيره ونظرته الأصيلة إلى العالم والوجود والدّيانات، وكأنّها عنده رموز إلى أفكاره واعتباراته التي يَتَفَنّن في عرضها وإبراز ما يشاء من مضمونها.

ومع اتّلاعه الواسع المُتَبَخّر على الثّراث الإسلاميّ وغيره دَفَعَتْهُ نزاهته العقليّة إلى تَفَهُّم حقائق الآراء والمذاهب والنّحل من أفواه أصحابها كلّما أُتِيحَ له الاتّصال بهم. يقول عن نفسه: «ما أعرف منزلاً ولا نَحْلَةً ولا مِلَّةً إلّا رأيتُ قائلًا بها ومُعْتَقِداً لها ومُتَّصِفاً بها باعترافيه من نفسه فما أحكي مذهباً ولا نَحْلَةً إلّا عن أهلها القائلين بها، وإن كُنّا قد عَلِمناها من الله بطريق خاصّ. ولكن لا بدّ أن يُرينا الله قائلًا بها لنعلم فضل الله عليّ وعنايته بي»^(١).

بل إنّ هذا المُفكّر لم يقتصر على التّبَخُّر وتعرّف المذاهب والآراء من أهلها، وإنّما

(١) فتوحات طبعة ١٣٢٩ ج ٣ ص ٥٢٣.

كان دائم التأمل في الموجودات وأسرار الكون. أليس هذا الكون على اختلاف ظواهره ومجاليه دائب الحركة دائم التبدل يَنْبُض بالحياة وألغازها وَيَضِيحُ بالإيقاع الإلهي والقول الربّاني؟! لَنَسْتَمِعْ إلى الصوفيِّ يُحَدِّثُنَا بِتَوَاضُعٍ عميق كيف استفاد حتى من تأمل الجماد والحيوان: «وفي جملة أشياخنا الذين انتفعنا بهم في طريق الآخرة في هذه الأمم ميزاب رأيت في مدينة فاس في حائط ينزل منه ماء السطح مثل ميزاب الكعبة، فوقفت على عبادته وأجهدت نفسي عسى أجري معهم في ذلك، ومنهم ظلي الممتد من شخصي أخذت منه عبادتين قد أخذ نفسه بهما وأشباه ذلك. وأما الحيوانات فلنا منهم شيوخ، ومن جملة شيوخنا الذين اعتمدت عليهم الفرس فإن عبادته عجيبة والبازي والهرة والكلب والفهد والنحلة وغير ذلك. فما قدرت قط أن أتصف بعبادتهم على حد ما هم عليها، وغايتي أن أقدر على ذلك في وقت دون وقت، وهم في كل لحظة مع اعتقادهم بسيادتي عليهم يؤبّخوني ويعتبوني ولقد ألقى منهم شدة لما يروّنه من نقص حالي في عبادتهم»^(١). ولا شك أن الذي يكتب مثل هذا النص على حظ عظيم من حب التأمل والخيال.

وحقاً نجد أن من أهم أصول تفكير ابن عربيّ اعتماده على الخيال. وليس معنى الخيال عنده ما يُراد به الآن في علم النفس من إنشاء صور للمحسوس في الفكر تطابقه أو تباعد عنه ولا ما يُراد به أحياناً من إنشاء صور وهمية لا ضابط لها ولا رابطة بينها ولا صحة فيها، وإنما يُعطي ابن عربيّ الخيال معنى قوياً وقيمة كبيرة في المعرفة لم يعطهما إياه من قبله ولا من بعده فيلسوف آخر، هذا برغم نشوء دراسات عن الخيال وطبيعته جديدة وطريقة في الفلسفة الغربية الحديثة. ولا بدّ لبيان شأن الخيال عنده من أن نُشير إلى مراتب الوجود في رأيه. ذلك أن كل ما هو موجود إنما يوجد في حضرة أو أكثر من حضرة من الحضرات الخمس وهي التَّنَزُّلات التي هي تَعَيُّنات وشؤون «للذات الأحديّة في الصور الأسمائيّة المُمَوِّثَة في صورها المُنَاثِرَة. أولها تجلّي الذات في صور الأعيان الثابتة غير المَجعولة وهو عالم المعاني وثانيها التَّنَزُّل من عالم المعاني إلى التَّعَيُّنات الرُّوحِيّة وهي عالم الأرواح المُجَرَّدَة وثالثها التَّنَزُّل إلى التَّعَيُّنات النَّفْسِيّة وهي عالم النفوس النَّاطِقَة ورابعها التَّنَزُّلات المِثَالِيّة المُتَجَسِّدَة المُتَشَكِّلَة من غير مادّة وهي عالم المِثَال وباصطلاح

(١) روح القدس طبع حجر بمصر ١٢٨١ ص ٩٢. استعمل ضمير جمع الذكور العقلاء باعتبارهم شيوخاً، وحذف نون الرفع للخفة.

الحُكَمَاء عالم القُفُوس المُنطَبِقة وهو بالحقيقة خيال العالم وخامسها عالم الأجساد المادِّية وهو عالم الحسِّ وعالم الشَّهادة^(١).

ولا بدَّ من أن ننتبه لعلاقة كلِّ حَضْرَة أو تنزُّل بالحَضرات أو التَّنزُّلات الأخرى. فالأربعة الأولى المُتقدِّمة «مراتب الغيب وكلُّ ما هو أسفل فهو كالنتيجة لما هو أعلى الحاصلة بالفعل والانفعال ولهذا شُبِّهَتْ بالتَّكاح وذلك عين تدبير الحقِّ تعالى للعالم»^(٢).

ويبدو من هذا التَّصنيف أنَّ عالم المثال والخيال يأتي فوراً فوق عالم الحسِّ والشَّهادة، فلا غَرْوَ إذا كان علم الخيال رُكناً عظيماً من أركان المعرفة عند ابن عربي. ويُعدُّ هذا المُفكِّر الموضوعات الكثيرة التي يتناولها علم الخيال هذا فهو في الحقيقة علوم كثيرة. هو «علم البرزخ وعلم عالم الأجساد التي تظهر فيها الرُّوحانيَّات وهو علم سوق الجنة وهو علم التَّجَلِّي الإلهيِّ في القيامة في صور التَّبَدُّل وهو علم ظهور المعاني التي لا تقوم بنفسها مُجسَّدة مثل الموت في صورة كبش وهو علم ما يراه النَّاس في التَّوَم وعلم الموطن الذي يكون فيه الخلق بعد الموت وقبل البعث وهو علم الصُّور وفيه تظهر الصُّور المَرئيَّات في الأجسام الصَّبيقة كالمرآة وليس بعد العلم بالآسماء الإلهية ولا التَّجَلِّي وعمومه أتمُّ من هذا الرُّكن فإنَّه واسطة العِقد إليه تَعْرُج الحواسُّ وإليه تنزل المعاني وهو لا يَبْرَح من موطنه تُجَبى إليه ثمرات كلِّ شيء وهو صاحب الإكسير الذي تحمِّله على المعنى فيُجسِّدُه في أيِّ صورة شاء لا يَتوقَّف له التَّقوُّذ في التَّصَرُّف والحُكْم تَعصُّده الشُّرائع وتُنبِّئه الطَّبائع فهو المشهود له بالتَّصَرُّف التَّام وله التَّحام المعاني بالأجسام يُحَيِّر الأدلَّة والعقول»^(٣). وللخيال نوعان: الخيال المُتَّصِل والخيال المُنفَصِل. والفرق بينهما «أنَّ المُتَّصِل يذهب بذهاب المُتَخَيَّل والمُنفَصِل حَضْرَة ذاتية قابلة دائماً للمعاني والأرواح فتُجسِّدُها بخاصَّيتها»^(٤).

وتَشِفُّ هذه المكانة الكبيرة التي يُبوِّنها مُحيي الدِّين الخيال عن طبيعة واستعداد ومزاج جميعها ذوات رُؤى وتَخَيُّل بعيد. وفي حياته الخاصة حوادث تُشير إلى ذلك. يذكر في نهاية الفتوحات كيف مَرَض وهو صبيٌّ مَرَضاً وبيلاً حتى غَشِيَ عليه وقرأ له أبوه سورة يس كما اعتاد النَّاس أن يقرؤوها عند رُؤوس المُحتَضرين. ولأنَّ ترك له المجال يَقْصُ هو

(١) شرح القاشاني على الفُصوص ص ٢٧٢.

(٢) المرجع نفسه والصَّفحة نفسها.

(٣) فتوحات ج ٢، ص ٣٠٩.

(٤) المرجع نفسه ص ٣١١.

نفسه أثر الحُمَى في نفسه وأثر سماعه تِلَاوَةِ السُّورَةِ فهو يقول: «إِنَّهُ انْتَفَقَ لِي فِيهَا (في سورة يس) صورة عجيبة وهي أُنِّي مَرَضْتُ فغُشِيَ عَلَيَّ فِي مَرَضِي بِحِثِّ إِنْني كُنت مَعْدُوداً فِي الْمَوْتِ فَرَأَيْتُ قَوْمًا كَرِيهِي الْمَنْظَرَ يُرِيدُونَ أَذْيَتِي وَرَأَيْتُ شَخْصًا جَمِيلًا طَيِّبَ الرَّائِحَةِ شَدِيدًا يَدَافِعُهُمْ عَنِّي حَتَّى قَهَرَهُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا سُورَةُ يَسِ أَدْفَعُ عَنْكَ. فَأَفْقُتُ مِنْ غَشْيَتِي تِلْكَ، وَإِذَا بِأَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ رَأْسِي يَبْكِي وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ يَسِ وَقَدْ خَتَمَهَا فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا شَهِدْتُهُ. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ رَوَيْتُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يَسَ»^(١).

ولَمَّا غَادَرَ الْأَنْدَلُسَ وَبَدَأَ تَطَوَّافَهُ حَضَرَ فِي مَرَاكِشِ جَنَازَةَ الْفِيلَسُوفِ الْكَبِيرِ الْمَشَائِيِّ ابْنَ رُشْدٍ الَّذِي سَبَقَ أَنْ تَعَرَّفَ إِلَيْهِ فِي قُرْطُبَةٍ. فَهُوَ يَحْكُمُ عِنْدَ ذَلِكَ عَلَى فِلَسْفَتِهِ حُكْمًا رَمَازِيًّا عَابِرًا أَشَدَّ عَلَيْهَا مِنَ الْمُحَاجَّةِ وَالْمُنَاقَشَةِ. يَتَحَدَّثُ ابْنُ عَرَبِيٍّ عَنِ ابْنِ رُشْدٍ فِي الْفُتُوحَاتِ وَعَنِ لِقَائِهِ إِيَّاهُ فِي الْوَاقِعِ وَفِي الْخَيَالِ ثُمَّ يَقُولُ: «فَمَا اجْتَمَعْتُ بِهِ حَتَّى دَرَجَ (أَي مَاتَ) وَذَلِكَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِمَدِينَةِ مُرَاكِشَ وَنُقِلَ إِلَى قُرْطُبَةٍ وَبِهَا قَبْرُهُ. وَلَمَّا جُعِلَ الثَّابِتُ الَّذِي فِيهِ جَسَدُهُ عَلَى الدَّابَّةِ جَعَلَتْ تَوَالِيفُهُ تُعَادِلُهُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَأَنَا وَاقِفٌ وَمَعِيَ الْفَقِيهُ الْأَدِيبُ أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ كَاتِبُ السَّيِّدِ أَبِي سَعِيدٍ وَصَاحِبِي أَبُو الْحَكَمِ عَمْرُو بْنُ السَّرَّاجِ النَّاسِخُ، فَالْتَفَتَ أَبُو الْحَكَمِ إِلَيْنَا وَقَالَ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يُعَادِلُ الْإِمَامَ ابْنَ رُشْدٍ فِي مَرْكُوبِهِ؟ هَذَا الْإِمَامُ وَهَذِهِ أَعْمَالُهُ يَعْنِي تَوَالِيفَهُ فَقَالَ لَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ: يَا وَلَدِي نَعَمْ مَا نَظَرْتُ لَا فُضَّ فَوْكَ! فَقَيَّدْتُهَا عِنْدِي مَوْعِظَةً وَتَذَكِيرَةً رَحِمَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ، وَمَا بَقِيَ مِنْ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ غَيْرِي. وَقُلْنَا فِي ذَلِكَ:

هَذَا الْإِمَامُ وَهَذِهِ أَعْمَالُهُ يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَتْ آمَالُهُ»^(٢)

فَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ يُطِيحُ الْمُؤَلِّفُ بِكُتُبِ الْفِيلَسُوفِ الْكَبِيرِ إِذْ يَرَاهَا عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ النَّاسِخِ تُعَادِلُ جُثَّتَهُ الْمَيِّتَةَ، وَهِيَ جَمِيعًا تَعُودُ إِلَى قُرْطُبَةٍ حَيْثُ خَرَجَتْ، وَيَتَعَجَّبُ إِذْ لَمْ تَتَحَقَّقْ آمَالُ ابْنِ رُشْدٍ الَّتِي بَنَاهَا عَلَى تَأْلِيفِهِ.

(١) الْقِصَّةُ نَاقِصَةٌ فِي الْفُتُوحَاتِ، الْمَطْبَعَةُ الْمِمْنِيَّةُ ١٣٢٩ وَمَوْجُودَةٌ فِي طَبْعَةِ بُولَاقِ ١٢٧٤ ج ٤ ص ٥٥٢ وطبعة سنة ١٢٩٣ ج ٤ ص ٦٤٨.

(٢) فُتُوحَاتُ الْمَطْبَعَةِ الْمِمْنِيَّةِ مِصْرَ ١٣٢٩ ج ١ ص ١٥٤ وَعَلَى هَذِهِ الطَّبْعَةِ نَعْتَمِدُ فِي إِيرَادِ الثُّبُوتِ. وَالْفُتُوحَاتُ يَتَضَمَّنُ أَغْلَبَ آرَاءِ الْمُؤَلِّفِ، وَلَكِنَّا نُوْثِرُ الْأَمْنِشْهَادَ بِكُتُبِهِ وَرِسَالَتِهِ الْمُعَدَّدَةَ لِيَتَعَرَّفَهَا الْقَارِئُ. وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ تَوَالِيفِهِ بِالْوَاوِ بَدَلًا مِنْ تَأْلِيفِهِ. وَرَبَّمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ الْهَمْزَةَ عَلَى الْوَاوِ أَوْ كَانُوا يَتَسَمَّحُونَ فِي اتِّسَاعِ هَذَا التَّجْدِيلِ.

إنَّ البحث عن المعرفة غاية كلِّ مُفكِّر. وإذا لم يَتِمَّكن ابن رُشد أن يصل إليها في رأي ابن عربيّ على طريق المَنطِق والاستدلال والبُرْهان فإنَّ ابن عربيّ يَظفَرُ بها ويصل إليها على طريق الكشف والإلهام، مع أنَّ الوصول صعب لا بدَّ له من همّة كبيرة تستطيع أن تنهَضَ له وترقى إليه. وعندها سيُشرق في نفس العارف فجر لا ينتهي إلى غروب.

إنَّ هذا الكشف ثَمرة الصَّبْر والجهد والطَّلب والتَّطَلُّع والتَّأَمُّل والتَّفكير وهي كلّها مَلَأَتْ حياة ابن عربيّ. وفي هذا الطريق الحافل بالمصاعِب يَقصُّ علينا الشَّيخ رُؤى ومشاهدات جميلة جدًّا استدعاها ورآها في يَفَظَتِهِ فَجَّرَتْ في نفسه ينابيع الإلهام والكشف. ولعلَّ أجملها وأكملها وأبدعها هذه القِصَّة الطَّريفة في مُستَهلِّ فتوحاته المَكِّيَّة يُورد فيها تلك النَّجوى البارة الفاتنة المُحيرة بينه وبين فتى لاح له سابقاً وربّما كان هذا الفتى يُمثِّل كُنْه ذاته العُلويّ فيقولُ: «إني لَمَّا وَصَلْتُ إلى مَكَّة البركات ومَعْدِن السَّكَنات الرُّوحانيَّة والحركات وكان من شأني فيه ما كان طُفْتُ بيته العتيق في بعض الأحيان فيينا أنا أطوف مُسَبِّحاً ومُمجِّداً ومُكَبِّراً ومُهَلِّلاً تارة ألثم وأستلم وتارة للمُلتَزَم ألترم إذ لقيت، وأنا عند الحجر الأسود باهت، الفتى الفائت المُتكلِّم الصَّامت الذي ليس بحيٍّ ولا مائت». ويَمضي المُؤلِّف في سَرَد هذا اللِّقاء وما اشتمل عليه من نجوى ومعرفة ساميتين أدتا إلى كتابة الفتوحات.

إنَّ ذلك اللِّقاء وتلك النَّجوى وذلك الحوار أبدع ما عرفه تاريخ التَّصوُّف في الشَّرق والغرب على الإطلاق. والقِصَّة طويلة أُرْجِع إليها القارئ في موضعها. وهي أعجوبة من الأعاجيب الرُّوحية المفيدة لا تُتاح إلَّا لعبقريَّة مثل عَبقريَّة ابن عربيّ العظيمة.

ولقد كانت عنده قُدرة عجيبة على تمثيل الأشخاص لَدَيْهِ. يقولُ في الفتوحات: «ولقد بلغ بي قوَّة الخيال أن كان حُبِّي يُجسِّد لي مَحْبوبي من خارج لعيني كما كان يَتَجَسَّد جبريل لرسول الله ﷺ فلا أقدر أنظر إليه ويُخاطِبني وأُصْغِي إليه وأفهم عنه. ولقد تركني أياماً لا أُسَيِّغ طعاماً، كلُّما قُدِّمَتْ لي المائدة يقف على حرفها وينظر إليّ ويقول لي بلسان أسمعُه بأذني: تأكل وأنت تشاهدني؟ فأمتنع عن الطَّعام ولا أجد جوعاً وأمتلئ منه حتى سَمِنْتُ وَعَبَلْتُ من نظري إليه فقام لي مقام الغذاء. وكان أصحابي وأهل بيتي يَتَعَجَّبون من سمني مع عدم الغذاء لأنِّي كنت أبقى الأيَّام الكثيرة لا أذوق ذِواقاً ولا أجد جوعاً ولا عَطشاً لَكُنْه كان لا يَبْرَح نُصَب عيني في قِيامي وقُعودي وحركتي وسكوني»^(١).

(١) ج ٢ ص ٣٢٥.

ويروي في كتابه اللطيف «روح القدس» شيئاً من علاقته بأستاذه الذي كان بينه وبينه مودة عميقة أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي: «وكان من صدقي في صحبتي أنني أتمناه في بيتي لمسألة تخطر فأراه أمامي فأسأله ويُجيبني ثم يتصرف فأخبره بذلك بمكرة»^(١).

«وقال تلميذه الصدر القنوي الرومي: كان شيخنا ابن عربي متمكناً من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين على ثلاثة أنحاء، إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسداً في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية البصرية التي كانت له في حياته الدنيا، وإن شاء الله أحضره في نومه، وإن شاء أنسلخ عن هيكله واجتمع به»^(٢).

ولقد غدت الفلسفة والتصوف في عصر ابن عربي صينوين وطريقين متلازمين، وبذلك أغنى أحدهما الآخر وزاد فيه وعمق جوانبه وأكثر خصبه وثمراته. فكل فلسفة كانت تعد باطلية إن لم تنته إلى غاية ميتافيزيائية ونظرة شاملة في الوجود. وكل تصوف كان يُعتبر لغواً وقصوراً إذا لم يستند إلى دعائم مكنية من المعارف العلمية والفلسفية. فالنظر والمعرفة يغرجان على براق التأمل والتجربة الداتية والعمل الصالح ليصبحا كشفاً وإلهاماً. والإلهام الذي ينزل به الروح على القلب يصقل جميع أنواع النظر ويُعيد بناءها ويخوبها كمال الأداء.

ويرى ابن عربي أن كل ذلك مُستمد على الغالب في ينبوعه من كتاب الوحي العظيم وهو القرآن الكريم وجارٍ على التأسي برسول الله والاقتداء به إذ كان الأسوة الحسنة والقُدوة العظمى. وإذا كان الأمر كذلك، فكل ما يكتبه له صفة الإلهام، وهو يشرح ذلك فيتحدث في الفتوحات عن هذا الكتاب نفسه قائلاً: «ما كتبت منه حرفاً إلا عن إلهاء إلهي وإلقاء رباني أو نَفث روحاني في روع كياني، هذا جملة الأمر، مع كوننا لسنا برسل مُشرعين ولا أنبياء مُكلفين»^(٣).

وكثيراً ما يقول في مُستهل فصول كتابه «تنزيلات الأملك»: «نزل الروح الأمين على القلب»، ويُنَبِّه في مُقدمة الكتاب على أنه لا يعني به جبريل «فإن الملائكة كلهم أرواح أُمنا على ما أودعها الله من أصناف العلوم الموقوفة على التوصل تارة بالإجمال وتارة

(١) ص ٤٨.

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ١٩٦.

(٣) ج ٣ ص ٤٥٦.

بالتفصيل ولا بد أن يكون صاحب التَّزَلُّات الغيبيَّة عارفاً بالخواطر وأجناسها وعالماً بالروائع وأنفاسها»^(١) وهو يُنشد في مُستَهَلُّ هذا الفصل شعراً على عادته يصف به إلهامه:

إذا نزل الرُّوح الأمين على قلبي تَضَعُّع تَرْكِيبي وحنٌّ إلى الغيب
فأودعني منه علوماً تَقَدَّسَتْ عن الحَدْس والتَّخمين والظُّنُّ والرَّيب
فَفَصَّلَتِ الإنسان نوعين إذ رَأَتْ يقوم به الصَّفْو التَّزِيه مع الشُّوب
فَتَوَعَّ يَرى الأرزاق من صاحب الغيب ونوع يرى الأرزاق من صاحب الجيب
فَيَعْبُدُ هَذَا التَّوَعَّ أسباب رِيَّه وَيَعْبُدُ هَذَا خَالِق المَنع والسَّيب
فهذا مع العقل المُقَدَّس وصفه وهذا مع النَّفس الخسيسة بالغيب^(٢)

وقد كتب في «مواقع الثُّجوم»: «وأتفق لي ألطف من هذا أنني كنتُ مشغولاً بتأليف كتاب إلقيائي فقليل لي: اكتب، هذا باب يَدِّقُ وصفه ويُمْنَعُ كشفه. ثمَّ لم أعرف ما أكتب بعده وَبَقِيَتْ أَنْتَظِرَ الإِلْقَاءَ حتى انحرف مزاجي وكدثُ أهلك فَنُصِبَ قُدَّامِي لَوْحٌ نورِيٌّ وفيه أسطر خُضِرَتْ نورِيَّةٌ فيها مكتوب هذا باب يَدِّقُ وصفه ويُمْنَعُ كشفه والكلام على الباب، فَقَيَّدْتُهُ إِلَى آخِرِهِ ثُمَّ رَفَعَ عَنِّي»^(٣).

ويذكر شبه ذلك في مُستَهَلُّ كتابه «فصوص الحِكَم» فيقول: «أمَّا بعد فإنِّي رأيتُ رسول الله ﷺ في مُبَشِّرَةٍ أُرِيَتْهَا في العشر الآخر من مُحَرَّم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب فقال لي: هذا كتاب فصوص الحِكَم خُذْهُ واخرج به إلى النَّاسِ يتفعون به فقلتُ: السَّمْع والطَّاعَةُ لله ولرسوله وأولي الأمر مَأْمُورٌ بِهَا فَحَقَّقْتُ الأَمْنِيَّةَ وَأَخْلَصْتُ النِّيَّةَ وَجَرَدْتُ القصد والهِمَّةَ إلى إبراز هذا الكتاب كما حدَّه لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نُقصان، وسألتُ الله تعالى أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشَّيْطَانِ عليهم سُلْطَان، وأن يَخْصِنِي في جميع ما يَرْفُقُهُ بِنَانِي وَيَنْطِقَ به لِسَانِي وَيَنْطَوِي عليه جَنَانِي بِالِإِلْقَاءِ السُّبُوحِيّ والنَّفْثِ الرُّوحِيّ في الرُّوعِ النَّفْسِيّ بِالتَّأْيِيدِ الاعتصاميّ حتى أكون مُتَرَجِّماً لَا مُتَحَكِّماً، لِيَتَحَقَّقَ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ من أهل الله أصحاب القلوب أَنَّهُ من مَقَامِ التَّقْدِيسِ الْمُنَزَّه عن الأغراض النَّفْسِيَّةِ التي يدخلها التَّلَبُّسُ، وأرجو أن يكون الحقُّ لَمَّا سَمِعَ دُعَائِي قد أجاب نِدَائِي فما أَلْقِي إِلَّا مَا يُلْقَى

(١) تَزَلُّات الأملاك وهو منشور بعنوان «لطايف الأسرار» ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م ص ٤٠ ولكنه مشحون بالأخطاء. وقد صَحَّحناه بعض الشيء على مخطوطة وَقَعَتْ لنا عند بعض أصحابنا بدمشق.

(٢) المَرَجِّع نفسه ص ٣٩.

(٣) ص ٦٩.

إِلَهِ، وَلَا أُنْزِلَ فِي هَذَا الْمَسْطُورِ إِلَّا مَا يُنْزَلُ بِهِ عَلَيَّ. وَلَسْتُ بِنَبِيٍّ وَلَا رَسُولٍ، وَلَكِنِّي وَارِثٌ وَلَآخِرَتِي حَارِثٌ:

وَالِىَ اللّٰهَ فَارْجِعُوا	فَمِنْ اللّٰهِ فَاسْمَعُوا
مَا أَتَيْتُ بِهِ فَعُوا	فَإِذَا مَا سَمِعْتُمْ
مُجْمِلِ الْقَوْلِ وَاجْمَعُوا	ثُمَّ بِالْفَهْمِ فَصَلُّوا
طَالِيهِ لَآ تَمْنَعُوا	ثُمَّ مُتُّوا بِهِ عَلَى
وَسِعَتْكُمْ فَوَسَّعُوا	هَذِهِ الرَّحْمَةُ الَّتِي

وَيُعَرَّفُ هَذَا الْفِيلَسُوفُ الصُّوفِيُّ الْكَبِيرُ الْوَحْيِيَّ فِي الْفَتْوحَاتِ بِأَنَّهُ «مَا تَقَعُ بِهِ الْإِشَارَةُ الْقَائِمَةُ مَقَامَ الْعِبَارَةِ مِنْ غَيْرِ عِبَارَةٍ فَإِنَّ الْعِبَارَةَ تَجُوزُ مِنْهَا إِلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِهَا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ عِبَارَةً بِخِلَافِ الْإِشَارَةِ الَّتِي هِيَ الْوَحْيِيُّ فَإِنَّهَا ذَاتُ الْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَالْوَحْيِيُّ هُوَ الْمَفْهُومُ الْأَوَّلُ وَالْإِفْهَامُ الْأَوَّلُ، وَلَا أَعْجَلَ مَنْ أَنْ يَكُونَ عَيْنَ الْفَهْمِ عَيْنَ الْإِفْهَامِ عَيْنَ الْمَفْهُومِ مِنْهُ فَإِنَّ لَمْ تَحْصُلْ لَكَ هَذِهِ الثُّكْنَةُ فَلَسْتُ صَاحِبَ وَحْيٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْوَحْيِيَّ هُوَ الشَّرْعَةُ وَلَا شُرْعَةٌ أَسْرَعُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ»^(١).

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْفَلَسَفَةِ أَلَّا تَقِفَ عِنْدَ ظَاهِرِ الشَّيْءِ بَلْ أَنْ تَنْفُذَ إِلَى أَعْمَاقِهِ وَتُضَيِّفَ بَعْدَهُ جَدِيداً فَلَسَفِيّاً إِلَى أُبْعَادِهِ الْمُتَعَارِفَةِ. وَمِنْ شَأْنِ التَّصَوُّفِ إِدْرَاكُ الْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَتَلَامَحُ لِلْمُتَصَوِّفِ مِنْ خِلَالِ مَجَالِي الْأَشْيَاءِ وَتَفْهَمُ دَلَالَاتِهَا الرُّوحِيَّةَ وَمَرَاتِبِهَا الْوُجُودِيَّةَ.

فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْفَلَسَفَةُ وَالتَّصَوُّفُ عَلَى أَكْمَلِ مِثَالٍ لَدَى عَبْقَرِيٍّ مِثْلِ ابْنِ عَرَبِيٍّ فَلَا عَجَبَ عِنْدَئِذٍ أَنْ نَرَاهُ يَجِدُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَغْزًى وَلِكُلِّ كَائِنٍ فَخْوًى وَوَرَاءَ كُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً وَفِي كُلِّ مَوْجُودٍ رَمْزاً، وَلَا غَرْوَ إِذَا اسْتَشَفَّ بَعَيْنِي الْعَارِفُ وَبَصِيرَتُهُ الْمُلْهَمَةُ الْإِنْتِظَامَ الشَّامِلَ فِي الْكَوْنِ وَتَنَاسُبَ أَجْزَائِهِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَسْرَارٍ مُتَخَايِلَةٍ. يَقُولُ مُؤَلِّفُ مَوَاقِعِ النُّجُومِ: «فَمَا فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا لِحِكْمَةٍ عَلِمَهَا مَنْ عَلِمَهَا وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا فَالْوُجُودُ كُلُّهُ مَا انْتَضَمَ مِنْهُ شَيْءٌ لَشَيْءٍ وَلَا انْضَافَ مِنْهُ شَيْءٌ لَشَيْءٍ إِلَّا لِمُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُمَا ظَاهِرَةٌ أَوْ بَاطِنَةٌ إِذَا طَلَبَهَا الْحَكِيمُ الْمَرَاقِبَ وَجَدَهَا»^(٢).

وَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مَجَالٌ لِلتَّأَمُّلِ وَالْفَهْمِ وَالِاخْتِنَانِ، يُؤَكِّدُ الشَّيْخُ «عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ بَاطِلٌ أَصْلاً وَإِنَّمَا الْوُجُودُ حَقٌّ كُلُّهُ وَالْبَاطِلُ إِشَارَةٌ إِلَى الْعَدَمِ إِذَا حَقَّقْتَهُ»^(٣).

(١) ج ٢ ص ٧٨.

(٢) مَوَاقِعُ ص ٩٦.

(٣) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ٧٩.

فالمُرِيد لا يكتفي بالقرآن الكريم خاصّة بل يتأمل الوجود كلّهُ فهو قرآنهُ العامُّ إن جاز هذا التّشبيه. يقولُ المؤلّف أيضاً: «ولا تَظُنَّ يا بنيَّ أنَّ تلاوة الحقِّ عليك وعلى أبنائك جنسك من هذا القرآن العزيز خاصّة، ليس هذا حظُّ الصّوفيِّ بل الوجود بأسره كتاب مسطور ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾»^(١) تلاه عليك سبحانه وتعالى لتعقّل عنه إن كنت عالماً. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾»^(٢)، ولا يحجب عن ملاحظة المُختصر الشّريف من هذا المسطور الذي هو عبارة عنك فإنّ الحق تعالى تارة يتلو عليك من الكتاب الكبير الخارج وتارة يتلو عليك من نفسك فاستمع وتأهّب لخطاب مَوْلَاك إليك في أيِّ مقام كنت وتحفظ من الوقر والصّم. فالصّم آفة تمنعك من إدراك تلاوته عليك من الكتاب الكبير المُعبّر عنه بالقرآن والوقر آفة تمنعك من إدراك تلاوته عليك من نفسك المُختصرة وهو الكتاب المُعبّر عنه بالفرقان، إذ الإنسان محلّ الجمع لما تفرّق في العالم الكبير»^(٣). وتستبين من هذا النّص مكانة الإنسان في الوجود فهو مختصره الشّريف وخُلاصته البديعة أو هو العالم الأصغر الذي يحتوي العالم الأكبر. بل «الإنسان روح العالم وعِلّته وسببه، وأفلاكه مقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته»^(٤).

روح الوجود الكبير	هذا الوجود الصّغير
لولا ما قال إني	أنا الكبير القدير
لا يحجبك حدوث	ولا الفناء والتّشور
فإنني إن تأمل	تتني المحيط الكبير
فللقديم بذاتي	وللجديد ظهـور» ^(٥)

ولا نظلُّ ثمة مُفكراً في الشّرق ولا في الغرب رفع الإنسان وقدّس فكره وروحانيّته مثل ابن عربيّ. فالإنسان خليفة الله، خُلِقَ إذ خُلِقَ آدم على صورة الله. يقولُ في الفتوحات: «أكملُ نشأة ظهرت في الموجودات الإنسان عند الجميع لأنّ الإنسان الكامل وُجد على الصّورة لا الإنسان الحيوان، والصّورة لها الكمال. ولكن لا يلزم من هذا أن يكون هو الأفضل عند الله فهو أكملُ بالمجموع. فإن قالوا يقولُ الله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ

(١) في سورة الطّور ٥٢: ١، ٢، ٣ ﴿والطّور وكتاب مسطور في رَقٍّ منشور﴾.

(٢) العنكبوت ٢٩: ٤٣.

(٣) مواقع ص ٧٢-٧٣.

(٤) فتوحات ج ١ ص ١١٨.

(٥) المرجع نفسه والصّفحة نفسها.

وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾^(١) ومعلوم أنه لا يريد أكبر في الجِرم ولكن يريد في المعنى قلنا له صدقت ولكن من قال إنها أكبر منه في الروحانية؟ بل معنى السموات والأرض من حيث ما يدُلُّ عليه كلُّ واحدة منهما من طريق المعنى المنفرد من النظم الخاص لأجرامهما أكبر في المعنى من جسم الإنسان لا من كلِّ الإنسان^(٢). ثم إنَّ هذا الكمال العالي الذي يجده فيلسوفنا في الإنسان إنما يعينه في هذه الحياة التي نحياها فيقول في الفُتوحات في موضع آخر:

«واعلم أنَّ أكمل نشأة الإنسان إنما هي في الدنيا»^(٣). والإنسان بهذا الاعتبار مفتاح كلِّ شيء. وهو على رغم أنه مُحدث فإنه يبدو مُتصلاً بالأزل والأبد. جاء في «كتاب التَّراجم» وهو من رسائله: «الإنسان مفتاح كَوْنِ الوجود وكَوْنِ العبادات، به ظهر الأزل وهو يفتح باب الأبد»^(٤).

ولهذا كان كلُّ إنسان قد أُلِزم ﴿طَلَبُوا فِي عَقْبِهِ﴾^(٥) فهو الذي يصنع صورة نفسه، وكان مصيره بين يديه، ورهين تصرُّفه ونتيجة عمله. يقول ابن عربي: «صورة الإنسان بعد الموت تتنوع بتنوع أحواله في الدنيا فكن على أحسن الحالات تكن على أحسن الصور»^(٦) وليس بعد هذا مسؤوليَّة عن النَّفس أكبر من هذه المسؤوليَّة.

وهو يتناول فكرة خلافة الإنسان في الأرض في مواضع شتى من كتبه. يقول في «التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية»: «فلما أوجَدَ هذا الخليفة على حَسَب ما أوجده قال له، أنت المرأة وبك ينظرُ إليَّ الموجودات، وفيك ظهرت الأسماء والصفات، أنت الدليل عليَّ، وجَّهتك خليفة في عالمك تظهر فيهم بما أعطيتك، ثمَّدهم بأنواري، وتغذَّيهم بأسراري، وأنت المطالب بجميع ما يطرأ في الملك»^(٧) وهي مسؤوليَّة ضخمة يحملها الإنسان، تُطالبه بحُسن التَّصرُّف، وتقتضيه إحلال الأمن والعدالة والسَّلام في العالم.

ويعمد في كتابه «تنزلات الأملك» إلى بيان حقيقة فهمه لخلافة الإنسان هذه بعبارة

(١) غافر ٤٠ : ٥٧.

(٢) ج ١ ص ١٦٣.

(٣) ج ١ ص ١١٨.

(٤) حيدر آباد ١٩٤٨ ص ١٠.

(٥) الإسراء ١٧ : ٢٩.

(٦) كتاب التَّراجم ص ٣٥.

(٧) مخطوطة بالمكتبة الظَّاهرية رقم ١٥٣٧ وفي الأصل وتُغذَّيهم، وطبعة ليدن ص ١٣١.

الرَّوَايَةُ الرَّمِزِيَّةُ الْفَتِيَّةُ الْمَسْجُوعَةُ: «قُلْتُ لَهُ: يَا أَبْتَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا عَلَّمْتَ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَهَلْ كَانَتْ لَكَ خِلَافَةٌ فِي السَّمَاءِ؟ فَقَالَ لِي: يَا بَنِيَّ إِنَّ الْقَدَّمَ الْوَاحِدَةَ مَخْصُوصَةً بِالْأَسْمَاءِ وَالْخِلَافَةُ ذَاتُ قَدَمَيْنِ فَلَا يَصْحُحُ فِيهَا وَجُودُ الْخِلَافَةِ. وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ مَعَالِمِ الْأَسْمَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ عَرَضَ عَلَيَّ الْحَقَائِقَ قَبْلَ تَأْلِيْفِهَا وَعَرَفَنِي بِأَسْمَائِهَا وَأَسْمَاءَ مَنْ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا وَأَعَلَّمَنِي بِكَيْفِيَّةِ تَرْكِيبِهَا وَتَصْرِيفِهَا، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيَّ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ الْحَقَائِقَ وَأَخْفَى عَنْهُمْ مَا أَشْهَدَنِي مِنَ الرَّقَائِقِ، لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ فِي حَقِّي مِنَ التَّجْرِيعِ كَمَا رَأَيْتَهُ فِي النَّبَأِ الصَّحِيحِ فَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ فِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ لَكُونَهُمْ حَاضِرِينَ وَلَوْ أَرَادَ الْأَسْمَاءَ خَاصَّةً لِقَالَ عَرَضَهَا، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَرَضَهُمْ﴾^(٢) مَحْجَّةٌ صَادِقَةٌ وَاضِحَةٌ يَعْرِفُهَا مَنْ فَرَضَهَا. فَعَرَفَتِ الْمَلَائِكَةُ أَسْمَاءَ الْحَقَائِقِ فِي حَالِ اقْتِرَافِهَا، حِينَ اخْتَصِصْتُ أَنَا بِمَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ تَرْكِيبَاتِ حَقَائِقِهَا، فَقَالُوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٣) قَالَ يَتَقَدَّمُ أَلَيْسَ فِي بِأَسْمَاءِ^(٤). فَالْتَفَتَ الْحَقَائِقَ بِطَرِيقٍ مَا وَقُلْتُ: هَذَا فَرَسٌ، وَأَلْفَتَهَا بِطَرِيقٍ آخَرَ وَقُلْتُ: هَذَا إِنْسَانٌ، فَأَنْبَأْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَظَهَرَتْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَقَامَ لَهُمْ بُرْهَانٌ حَقُّهُ، فَبِمِثْلِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ اخْتَصِصْتُ، وَهِيَ الَّتِي عَلَى الْمَلَائِكَةِ نَصِصْتُ، وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي الْأَسْمَاءِ عِنْدَ وَجُودِ الْأَغْيَانِ مَعْرِفَةٌ غَامِضَةٌ عِنْدَ الْأَرْوَاحِ، لِأَنَّهَا عَلَى مُجَرَّدِ الْإِصْطِلَاحِ، وَلِهَذَا اخْتَلَفَتْ عَوَالِمُ الْعِبَارَاتِ عَنْهَا عِنْدَ شُهُودِهَا وَلَمْ تَخْتَلِفِ الْمَعَانِي الَّتِي بِهَا قَوَامُ وَجُودِهَا، وَلِهَذَا قَالَتِ الْأَعْرَابُ: هَذَا فَرَسٌ، وَهُوَ جَوَادٌ، وَهُوَ طَرَفٌ، وَقَالَتِ الْإِفْرَنْجُ فِيهِ: كَبَالَهُ، وَقَالَتِ الرُّومُ: أَلُوغٌ، وَقَالَتِ التُّرُكُ: أَتٌ، وَقَالَتِ الْأَرْمَنُ فِيهِ: تَسِي، وَقَالَتِ الْعَجَمُ فِيهِ: أَسْب. فَالْتَفَتِ تَعْقِلُ مَعَانِيهَا، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَسَامِيهَا فِي مَبَانِيهَا. فَقُلْتُ لَهُ: هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْكِيَانِيَّةُ، فَهَلْ اخْتَصِصْتُ أَيْضاً بِالْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ؟ فَقَالَ: عَلَيْهَا فُطِرَتِ الصُّورَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ. انْظُرْهَا فَهِيَ مَصْرُفَتُكَ، وَتَحَقُّقُهَا فِيهِ مُعْرِفَتُكَ، وَبِمَعْرِفَتِهَا تَفَاضَلَتْ أَشْخَاصُ هَذَا الْجِنْسِ، وَبِمَشَاهِدَتِهَا تَقَدَّسَ الْعَقْلُ وَزَكِيَ النَّفْسُ، فَقُلْتُ لَهُ: كَذَلِكَ وَجَدْتُهَا، وَلِهَذَا عَبَّدْتُهَا وَمَا عَبَّدْتُهَا^(٥).

(١) (٢) البقرة ٢: ٣١.

(٣) البقرة ٢: ٣٢، ٣٣.

(٤) كتاب «تَنْزِيلَاتُ الْأَمْلَاكِ» الْمَطْبُوعُ بِعَنْوَانِ: لَطَائِفُ الْأَسْرَارِ ص ١٤٤ - ١٤٦.

الفَرَسُ بِاللَّاتِينِيَّةِ الْآخِيرَةِ كَبَالُوس Caballus. وَكَانَتِ اللَّغَةُ الْإِسْبَانِيَّةُ وَالْبَرْتَغَالِيَّةُ إِذْ ذَاكَ فِي طَوْرِ التَّكُونِ. وَيَقُولُ الْإِسْبَانِيُّونَ وَالْبَرْتَغَالِيُّونَ الْيَوْمَ كَبَالِيُو وَكَبَالِيُو Caballo و Cabalho. وَنُلاحِظُ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْبَرْتَغَالِيَّةَ تَحْوِي عَلَى h فِي كِتَابَتِهَا لَا فِي لَفْظِهَا. وَرَبَّمَا كَانَتْ إِحْدَى اللَّهْجَاتِ إِذْ ذَاكَ تَلْفِظُ h. وَالْوُجُوهُ آتٍ مِنْ لَوْغُوسِ أَيْ الْكَلِمَةِ، وَالْهَمْزَةُ فِي الْيُونَانِيَّةِ لِلْسَّلْبِ أَيْ الْعَجْمَاءِ الَّتِي لَا تَنْطِقُ أَوْ الْبَهِيمَةِ، وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَى الْحَيَوَانِ وَالْفَرَسِ. وَفِي الْأَصْلِ الْمَطْبُوعِ وَالْمَخْطُوطِ أَط، وَالْمَعَاوِجُ التُّرْكِيَّةُ كَانَتْ تَكْتُبُ =

فمن ماهية الإنسان أن يدرك حقائق الأشياء ويتصرف بها. وهذا التصرف له صفة علوية لأنه تحقيق للأسماء الإلهية. وأحب هنا أن أشير إلى مسؤولية الإنسان في تجميل الكون أيضاً في رأي ابن عربي. فقد جاء في الفتوحات: «ومن هذه الحضرة (حضرة الجمال الذاتي) تنتقل صورة تجليه فيها إلى المشاهد، فينصبغ بها انتقال فيض كظهور نور الشمس في الأماكن ويسمى ذلك الثور شمساً وإن لم يكن مستديراً ولا في فلك، ثم يفيض الإنسان من تلك الصورة التي ظهر فيها عن الفيض الإلهي على جميع ملكه في رده إلى قصره فينصبغ ملكه كله بصورة جمال لم يكن فلا يفقد الإنسان في ملكه صورة ما شاهدها من ربّه في رؤيته»^(١).

وكم نحتاج إلى أن نتعرف من جديد «إنسانية» الإنسان وأن ننوّه بعظمة قلبه وفكره ونصون كرامة شخصيته في عصر تطغى سيطرة الصناعة والمادة والحكومات عليه فتجعله كالآداة أو الآلة الملحقة في جهازها الإداري أو الاجتماعي وأن نعيد إليه عن طريق فهمنا لابن عربي لمحات متألقة عالية من تلك الإنسانية التي كاد أن ينسلخ منها ويتخلّى عنها. وقد جعل المؤلف غايته في تأليفه أن يدك على عظمة الإنسان الفكرية وأن يشرح أسرار تلك العظمة وأن يُنبّه ما غفا منها ويصقل ما صدئ ويرد كل سرّ منها إلى أصله وخصائصه الذاتية ويسمو به إلى أعلى ملاً. يقول في مقدمة كتابه «عناء مغرب»: «فليس غرضي في كل ما أصف في مثل هذا الفن معرفة ما ظهر في الكون وإنما الغرض معرفة ما وُجد في هذا العين الإنساني والشخص الآدمي».

وكما أن الروح غائبة في الجسم وهي المعنى العلوي للإنسان، كذلك الأشياء كلها لها معانٍ هي كالأرواح.

ولهذا كان الظاهر دليلاً على الباطن وطريقاً إليه وحافزاً على استجلائه واكتناحه. فالأشياء بظواهرها تبدو لنا ألغازاً ينبغي لنا أن نبّحث عن حلولها ورموزاً يجدر بنا أن نبيّن ما تؤمّي إليه وتشفّ عنه. ولا نعرف مذهباً في الشرق ولا في الغرب بلغ ما بلغه مذهب ابن عربي في الاختفاء بالرمز وفي إعلاء شأنه في ميدان الفكر. وقد عالج ذلك في مواضع

= أت. وقد كتبها الشيخ أو أملاها بحسب لفظها. وفيهما سي، والأزمن يلفظون اليوم نسي كما أثبتنا ولكنهم يخفّفون التاء.

(١) الباب الثاني والأربعون ومائتان في الجمال ج ٢ ص ٥٤٢ وثمة اختلاف بسيط في العبارة بين النسخ المطبوعة.

مُخْتَلِفَةً مِنْ كُتُبِهِ وَأَفْرَدَ فَصلاً فِي الْفَتْوحَاتِ عَنْ «مَنْزِلِ الرُّمُوزِ» يُورِدُ فِي مُسْتَهْلِهِ عَلَى عَادَتِهِ شِعْراً لَهُ وَهُوَ:

مَنْ أَزَلَ الْكَوْنَ فِي الْوُجُودِ مَنْ أَزَلَ كُلَّهَا رَمْزُوزَ
مَنْ أَزَلَ لِلْعُقُولِ فِيهَا دَلَائِلَ كُلَّهَا تَجْزُوزَ
لَمَّا أَتَى الطَّالِبُونَ قَضَداً لَنَيْلِ شَيْءٍ بِذَاكَ جُوزُوا
فِيَا عَبِيدَ الْكِيانِ حُوزُوا هَذَا الَّذِي سَاقَكُمُ وَجُوزُوا

ثُمَّ يُعَقِّبُ عَلَى الشُّعْرِ بِقَوْلِهِ: «الرَّمْزُ وَاللُّغْزُ هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُعْطِي ظَاهِرَهُ مَا لَمْ يَقْصِدَهُ قَائِلُهُ وَكَذَلِكَ مَنْزِلُ الْعَالَمِ فِي الْوُجُودِ مَا أَوْجَدَهُ اللَّهُ لَعَيْنِهِ وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فَاشْتَغَلَ الْعَالَمُ بِغَيْرِ مَا وُجِدَ لَهُ فَخَالَفَ قَصْدَ مُوجِدِهِ. وَلِهَذَا يَقُولُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ وَهُمْ أَحْسَنُ حَالاً مِمَّنْ دُونَهُمْ إِنَّ اللَّهَ أَوْجَدَنَا لَنَا وَالْمُحَقِّقَ وَالْعَبْدَ لَا يَقُولُ ذَلِكَ بَلْ يَقُولُ إِنَّمَا أَوْجَدَنِي لَهُ لَا لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيَّ. فَأَنَا لَغْزٍ رَبِّي وَرَمْزُهُ. وَمَنْ عَرَفَ أَشْعَارَ الْأَلْغَازِ عَرَفَ مَا أَرَدْنَاهُ...».

الْإِنْسَانُ لَغْزٌ رَبُّهُ إِذْنٌ. وَكَمَا أَتَا فِي أَشْعَارِ الْأَلْغَازِ نَتَجَاوَزُ ظَاهِرَ الْأَلْفَاظِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَلِّ كَذَلِكَ فِي الْكَوْنِ يَنْبَغِي أَنْ نُفَشِّشَ عَنِ السِّرِّ فِي الْإِنْسَانِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَدَاةَ التَّغْيِيرِ فِي الْكَوْنِ وَلَوْحَ الْمَخْوَ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى حَدِّ قَوْلِ ابْنِ عَرَبِيٍّ حِينَ يَقُولُ: «الْعَبْدُ هُوَ مَحَلُّ الْإِلْقَاءِ الْإِلَهِيِّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ شَرْعاً وَهُوَ لَوْحَ الْمَخْوَ وَالْإِثْبَاتِ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»^(١) فَيَخْطُرُ لِلْعَبْدِ خَاطِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَمراً مِنَ الْأُمُورِ ثُمَّ يَنْسَخَهُ خَاطِرٌ آخَرَ فَيَمْحِي الْأَوَّلَ وَيُثَبِّتُ الثَّانِي^(٢).

وَكُلُّ شَأْنٍ رُوحِيٍّ فِي الْإِنْسَانِ مُقَدَّسٌ: «إِنَّ اللِّسَانَ قَلَمُ الْقَلْبِ تَكْتُبُ بِهِ يَمِينُ الْقُدْرَةِ مَا تُمْلِي عَلَيْهِ الْإِرَادَةُ مِنَ الْعُلُومِ فِي قَرَاطِيسِ ظَاهِرِ الْكَوْنِ. وَإِلَى هَذَا الْمَقَامِ أَشْرْتُ بِقَوْلِي: قَلَمِي وَلَوْحِي فِي الْوُجُودِ يُمَدُّهُ قَلَمُ الْإِلَهِ وَلَوْحُهُ الْمَحْفُوظُ وَيَسْدِي يَمِينُ اللَّهِ فِي مَلَكُوتِهِ مَا شِئْتُ أُجْرِي وَالرُّسُومَ حُظُوظُ»^(٣)

هَذَا وَإِنَّ تَقَدُّمَ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ عَزَّزَ فِكْرَةَ ابْنِ عَرَبِيٍّ مِنْ حَيْثُ فَهَمَهُ لِلْإِنْسَانِ وَمِنْ حَيْثُ بَيَّانُهُ جِهَةً خِلَافَتِهِ فِي الْكَوْنِ وَإِدَاعَهُ الْمَسْئُولِيَّةَ الْكُبْرَى فِيهِ وَسَرَّ الْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ. وَإِنَّا نَشْهَدُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُحَاوَلَاتِ الْإِنْسَانِ لَغَزْوِ الْفَضَاءِ وَالتَّحْلِيلِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْوُصُولِ إِلَى

(١) مواقع ٧٩ - ٨٠ والآية في سورة الرعد ١٣ : ٣٩.

(٢) المصنوع نفسه.

القمر والزهرة وغيرهما، وكلُّ كتابات ابن عربي تَشْفَعُ عن هذه القدرة التي أوتِيها الإنسان العظيم. وهو قد يَنْقُلُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَالْبُكَوَابِ وَالْأَفْلَاقِ فَذَلِكَ سَهْلٌ هَيِّنٌ عَلَيْهِ. وَالَّذِي يُطَالِعُ مَا كَتَبَ يُدْرِكُ فِي مَعْرَاجِهِ وَفِي صُورِهِ وَمَشَاهِدَاتِهِ وَرُؤَاةِ أَمْثَلَةِ طَرِيفَةٍ مِنْ ذَلِكَ. وَنَحْنُ نَتْرُكُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلْقَارِئِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي مَرَاغَعِهِ فَإِنَّهُ لَيَجِدُ فِي ذَلِكَ بَهْجَةً وَلَذَّةً فِي التَّنْقِيبِ وَالْعَثُورِ عَلَيْهِ. وَلَكِنَّا نَحْبُ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّهُ بِحَرَكَةِ مُقَابِلَةِ يَنْقُلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَفْلَاقَ إِلَى الْإِنْسَانِ. وَهُوَ فِي أَحَدِ كُتُبِهِ الْأُولَى «التَّدْبِيرَاتُ الْإِلَهِيَّةُ فِي إِصْلَاحِ الْمَمْلَكَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ» يُبْرِزُ بَعْضَ هَذِهِ الْجَوَانِبِ الْمُتَقَابِلَةِ بَيْنَ الشُّخْطَيْنِ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ وَالْعَالَمِ الْأَصْغَرِ وَكَذَلِكَ يَجْلُو جَوَانِبَ أُخْرَى فِي بَقِيَّةِ كُتُبِهِ وَلَا سِيَّما مِثْلَ «مَوَاقِعِ النُّجُومِ». وَلَكِنَّا نَحْرِصُ هُنَا عَلَى بَيَانِ هَذِهِ الْأَرْضِ السَّمَاوِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي هِيَ فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ وَالَّتِي يَرْمِزُ إِلَيْهَا رَمَازاً وَهِيَ أَرْضُ الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَتْ لَدَى التَّأَمُّلِ إِلَّا عَالَمُ الرُّوحِ يُطْلِعُنَا عَلَيْهِ الْخَيَالُ الَّذِي امْتَازَ بِهِ الْمُؤَلِّفُ وَحَبَاهُ نَصِيباً وَافِراً مِنَ الْمَكَانَةِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ وَإِدْرَاكِهَا وَتَمَثُّلِهَا. وَلَنَتَّبِعْهُ لَمَّا جَاءَ فِي وَصْفِ تِلْكَ الْأَرْضِ، عَلَى تَطَاوُلِهِ، مِنَ الْغَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ، وَهُوَ يُسَمِّيهَا أَرْضَ السُّنْمِسِمَةِ لِأَنَّهَا فِي تَرْكِيبِ الْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيِّ لَا تَكَادُ تَشْغُلُ حَيِّراً ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَيْهَا فَيَجِدُهَا وَشَجَرَةَ التَّخِيلِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ (أَلَيْسَ مِنَ النَّاحِيَةِ الرَّمْزِيَّةِ شَجَرَةُ التَّخِيلِ مِنْ أَجْمَلِ الْأَشْجَارِ شَكْلاً وَتَرْكِيباً مُزَخْرَفاً وَكَذَلِكَ الْخَيَالُ يُزَخْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ). يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ: «اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ جِسْمٍ إِنْسَانِيٍّ تَكُونُ وَجَعَلَهُ أَصْلاً لَوْجُودِ الْأَجْسَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَفَضَّلَتْ مِنْ خَمِيرَةِ طِينَتِهِ فَضْلاً خَلَقَ مِنْهَا التُّخْلَةَ فَهِيَ أُخْتُ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ لَنَا عَمَّةٌ وَسَمَّاها السُّرْعَ عَمَّةً وَشَبَّهَهَا بِالْمُؤْمِنِ وَلَهَا أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ دُونَ سَائِرِ النَّبَاتِ، وَفَضَّلَ مِنَ الطِّينَةِ بَعْدَ خَلْقِ التُّخْلَةِ قَدْرَ السُّنْمِسِمَةِ فِي الْخَفَاءِ فَمَدَّ اللَّهَ فِي تِلْكَ الْفَضْلةَ أَرْضاً وَاسِعَةً الْفَضَاءَ إِذَا جَعَلَ الْعَرْشَ وَمَا حَوَاهُ وَالْكَرْسِيَّ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُونَ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَالْجَنَّاتِ كُلُّهَا وَالنَّارِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ كَانَ الْجَمِيعُ فِيهَا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ. وَفِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ مَا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ وَيَبْهَرُ الْعُقُولُ أَمْرُهُ. وَفِي كُلِّ نَفْسٍ خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا عَوَالِمَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَقْتَرُونَ. وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ ظَهَرَتْ عَظَمَةُ اللَّهِ وَعَظُمَتْ عِنْدَ الْمُشَاهِدِ لَهَا قُدْرَتُهُ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَحَالِّاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي قَامَ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ الْعَقْلِيُّ عَلَى إِحَالَتِهَا مَوْجُودٍ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ. وَهِيَ مَسْرَحُ عَيُونِ الْعَارِفِينَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ وَفِيهَا يَجُولُونَ. وَخَلَقَ اللَّهُ مِنْ جَمَلَةِ عَوَالِمِهَا عَالِماً عَلَى صُورِنَا إِذَا أَبْصَرَهُمُ الْعَارِفُ يَشَاهِدُ نَفْسَهُ فِيهِمْ... وَفِيهَا مِنَ الْبَسَاتِينِ وَالْجَنَّاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْمَعَادِنِ مَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَكُلُّ مَا فِيهَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ حَيٌّ نَاطِقٌ كَحَيَاةِ كُلِّ حَيٍّ نَاطِقٍ مَا هُوَ مِثْلُ مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ فِي الدُّنْيَا. وَهِيَ بَاقِيَةٌ لَا تَفْنَى وَلَا تَتَبَدَّلُ وَلَا يَمُوتُ عَالِمُهَا. وَلَيْسَتْ تَقْبَلُ هَذِهِ الْأَرْضُ شَيْئاً مِنَ الْأَجْسَامِ

الطَّبِيعِيَّةُ الطَّيْنِيَّةُ البَشَرِيَّةُ سَوَى عَالَمِهَا أَوْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ مَنَّا بِالْخَاصِّيَّةِ. وَإِذَا دَخَلَهَا الْعَارِفُونَ
إِنَّمَا يَدْخُلُونَهَا بِأَرْوَاحِهِمْ لَا بِأَجْسَامِهِمْ فَيَتَرَكُونَ هَيَاكِلَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الدُّنْيَا وَيَتَجَرَّدُونَ.
وَفِي تِلْكَ الْأَرْضِ صُورٌ عَجِيبَةٌ النَّشْءِ بَدِيعَةُ الْخَلْقِ قَائِمُونَ عَلَى أَفْوَاهِ السَّكَّكِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى
هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. فَإِذَا أَرَادَ وَاحِدٌ مِّنَّا الدُّخُولَ
لِتِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْعَارِفِينَ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ أَوْ مَلِكٍ أَوْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِشَرْطِ
الْمَعْرِفَةِ وَتَجَرَّدَ عَنْ هَيْكَلِهِ وَجَدَ تِلْكَ الصُّورَ عَلَى أَفْوَاهِ السَّكَّكِ قَائِمِينَ مُوَكَّلِينَ بِهَا قَدْ
نَصَّبَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِذَلِكَ الشُّغْلِ فَيُبَادِرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَى هَذَا الدَّخْلِ فَيَخْلَعُ عَلَيْهِ حُلَّةً عَلَى
قَدَرِ مَقَامِهِ وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَجُولُ بِهِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ وَيَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ وَيَعْتَبِرُ فِي
مَصْنُوعَاتِ اللَّهِ وَلَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ وَلَا شَيْءٍ وَيُرِيدُ أَنْ يُكَلِّمَهُ إِلَّا كَلَّمَهُ كَمَا
يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ. وَلَهُمْ لُغَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ. وَتُعْطَى هَذِهِ الْأَرْضُ بِالْخَاصِّيَّةِ لِكُلِّ مَنْ دَخَلَهَا
الْفَهْمُ بِجَمِيعِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَلْسِنَةِ. فَإِذَا قَضَى مِنْهَا وَطَرَهُ وَأَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَى مَوْضِعِهِ مَشَى مَعَهُ
رَفِيقُهُ إِلَى أَنْ يُوصِلَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ يُودِّعُهُ وَيَخْلَعُ عَنْهُ تِلْكَ الْحُلَّةَ الَّتِي كَسَاهُ
وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ وَقَدْ حَصَلَ عِلْمُهُ جَمَّةً وَدَلَائِلُ وَزَادَ فِي عِلْمِهِ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْدهُ مُشَاهَدَةً.
وَمَا رَأَيْتُ الْفَهْمَ يَنْقُذُ أَسْرَعَ مِمَّا يَنْقُذُ إِذَا حَصَلَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ . . .

قَالَ لِي بَعْضُ الْعَارِفِينَ لَمَّا دَخَلْتُ هَذِهِ الْأَرْضَ رَأَيْتُ فِيهَا أَرْضاً كُلُّهَا مِسْكٌ عَطَرٌ لَوْ
شَمَّهُ أَحَدٌ مِّنَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَهْلَكَ لِقَوَّةِ رَائِحَتِهِ تَمْتَدُّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَمْتَدَّ، وَدَخَلْتُ فِي هَذِهِ
الْأَرْضِ أَرْضاً مِنَ الدَّهَبِ الْأَحْمَرِ اللَّيِّنِ فِيهَا أَشْجَارٌ كُلُّهَا ذَهَبٌ وَثَمَرُهَا ذَهَبٌ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ
الثَّقَاحَةَ أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الثَّمَرِ فَيَأْكُلُهَا فَيَجِدُ مِنْ لَذَّةِ طَعْمِهَا وَحُسْنِ رَائِحَتِهَا وَنِعْمَتِهَا مَا لَا
يُصِفُهُ وَاصِفٌ، تَقْصُرُ فَاكِهِةُ الْجَنَّةِ عَنْهَا فَكِيْفُ فَاكِهِةِ الدُّنْيَا وَالْجِسْمِ وَالشَّكْلِ وَالصُّورَةِ
ذَهَبٌ وَالصُّورَةِ وَالشَّكْلِ كَصُّورَةِ الثَّمَرَةِ وَشَكْلِهَا عِنْدَنَا، وَتَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ. وَفِي الثَّمَرَةِ مِنَ
النَّقْشِ الْبَدِيعِ وَالزَّيْنَةِ الْحَسَنَةِ مَا لَا تَتَوَهَّمُهُ نَفْسٌ فَآخَرَى أَنْ لَا تَشْهَدُهُ عَيْنٌ. وَرَأَيْتُ مِنْ كِبَرِ
ثَمَرِهَا بَحِثَ لَوْ جُعِلَتِ الثَّمَرَةُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَحَجَبَتْ أَهْلَ الْأَرْضِ عَنْ رُؤْيَةِ السَّمَاءِ
وَلَوْ جُعِلَتِ عَلَى الْأَرْضِ لَفُضِّلَتْ عَلَيْهَا أَوْعَافاً. وَإِذَا قَبِضَ عَلَيْهَا الَّذِي يَرِيدُ أَكْلَهَا بِهِذِهِ الْيَدِ
الْمَعْهُودَةِ فِي الْقَدَرِ عَمَّا يَقْبِضُهَا لِأَنَّهَا لِنِعْمَتِهَا أَلْطَفُ مِنَ الْهَوَاءِ تُطَبِّقُ عَلَيْهَا يَدُهُ مَعَ هَذَا
الْعَظْمِ، وَهَذَا مِمَّا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ هُنَا فِي نَظَرِهَا. وَلَمَّا شَاهَدَهَا ذُو الثُّونِ الْمَصْرِئِيُّ نَطَقَ بِمَا
حُكِيَ عَنْهُ مِنْ إِيرَادِ الْكَبِيرِ عَلَى الصَّغِيرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصْغُرَ الْكَبِيرُ أَوْ يَكْبَرَ الصَّغِيرُ أَوْ يُوسَّعَ
الصَّغِيرُ أَوْ يَضِيقَ الْوَاسِعُ. فَالْعَظْمُ فِي الثَّقَاحَةِ عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ بَاقٍ وَالْقَبْضُ عَلَيْهَا بِالْيَدِ
الصَّغِيرَةِ وَالْإِحَاطَةُ بِهَا مَوْجُودَةٌ وَالْكَثِيفَةُ مَشْهُودَةٌ مَجْهُولَةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا اللَّهُ. وَهَذَا الْعِلْمُ مِمَّا
انْفَرَدَ الْحَقُّ بِهِ. وَالْيَوْمُ الْوَاحِدُ الزَّمَانِيُّ عِنْدَنَا هُوَ عِدَّةُ سَنِينَ عِنْدَهُمْ وَأَزْمِنَةُ تِلْكَ الْأَرْضِ

مُخْتَلِفَةً. قال ودَخَلْتُ فيها أرضاً من فضة بيضاء في الصُّورة ذات شجر وأنهار وثمر شهِيٍّ كُلُّ ذلك فضةٌ وأجسام أهلها منها كُلُّها فضةٌ. وكذلك كُلُّ أرضٍ شجرُها وثمرها وأنهارها وبحارها وخلقها من جنسها. فإذا تُنَوَّرِلَتْ وأكِلَتْ وُجِدَ فيها من الطَّعم والروائح والنعمة مثل سائر المأكولات غير أنَّ اللذة لا تُوصَف ولا تُحَكَّى. ودَخَلْتُ فيها أرضاً من الكافور الأبيض وهو في أماكن منها أشدُّ حرارة من النَّار يخوضُها الإنسان ولا تُحرِّقه وأماكن منها مُعتدلة وأماكن باردة وكلُّ أرض من هذه الأرضين التي هي أماكن في هذه الأرض الكبيرة لو جُعِلَت السَّمَاء فيها لكانت كحَلَقَةٍ في فلاة بالنسبة إليها. وما في جميع أراضيها أحسن عندي ولا أَوْفَق لمزاجي من أرض الزُّعفران. وما رأيتُ عالماً من عالم كُلِّ أرض أبسط نفوساً منهم ولا أكثر بشاشة بالوارد عليهم يَتَلَقَّونه بالترحيب والتَّاهيل. ومن عجائب مطعوماتها أنَّه شيء أَكَلت منها إذا قطعَتْ من الثمرة قطعة نَبَتَتْ في زمان قطعك إياها مكانها ما سَدَّ تلك الثلثة أو تقطف بيدك ثمرة من ثمارها فزمان قطعك إياها يَتَكَوَّن مثلها بحيث لا يَشْعُر بذلك إلَّا الفَطن فلا يظهر فيها نقص أصلاً. وإذا نَظَرْتَ إلى نساؤها ترى أنَّ النِّساء الكائنات في الجَنَّة من الحُور بالنسبة إليهنَّ كنسائنا من البشر بالنسبة إلى الحُور في الجنان.

وَأَمَّا أُبْنِيَّتُهُمْ فمِنْهَا ما يَحْدُثُ عَنْ هِمَمِهِمْ وَمِنْهَا ما يَحْدُثُ كَمَا يُبْنَى عِنْدَنَا مِنْ اتِّخَاذِ الآلات وَحُسْنِ الصَّنْعَةِ. ثُمَّ إِنَّ بَحَارَهَا لَا يَمْتَزِجُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ لَئِنْ مَسَّا بَرًّا لَّا يَتَّصِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾^(١) فَتُعَايِنُ مُنْتَهَى بَحْرِ الدَّهَبِ تَصْطَفِّقُ أَمْوَاجُهُ وَيُبَاشِرُهُ بِالْمُجَاوَرَةِ بَحْرُ الْحَدِيدِ فَلَا يَدْخُلُ مِنْ وَاحِدٍ فِي الْآخَرِ شَيْءٌ. وَمَاؤُهُمُ أَلْطَفُ مِنَ الْهَوَاءِ فِي الْحَرَكَةِ وَالسَّيْلَانِ وَهُوَ مِنَ الصَّفَاءِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَنْكَ مِنْ دَوَابِّهِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي يَجْرِي الْبَحْرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ. فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ وَجَدْتَ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ مَا لَا تَجِدُهُ لِمَشْرُوبٍ أَصْلاً. وَخَلَقَهَا يَنْبَتُونَ فِيهَا كَسَائِرِ النَّبَاتِ مِنْ غَيْرِ تَنَاسُلٍ بَلْ يَتَكَوَّنُونَ مِنْ أَرْضِهَا. . . وَكُلُّ مَا أَحَالَهُ الْعَقْلُ بِدَلِيلِهِ عِنْدَنَا وَجَدْنَاهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مُمَكِّناً قَدْ وَقَعَ^(٢).

لَقَدْ أَشْهَبْنَا عَلَى عَمَدٍ فِي ذِكْرِ مَقَاطِعِ طَوِيلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ لَبَّيْانَ زُخْرَفَةِ هَذَا الْعَالَمِ الْغَنِيِّ الْوَاسِعِ الْحَيِّ النَّاطِقِ الْمُلَوَّنِ بِأَجْمَلِ الْأَلْوَانِ الْعَبْقِيِّ بِأَطْيَبِ الْأَشْدَاءِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى شَيْءٍ

(١) الرَّحْمَنُ ٥٥ : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) فَتَوَحَّاتِ ج ١ ص ١٢٧ - ١٣١ الباب الثَّامِنُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَرْضِ الَّتِي خُلِقَتْ مِنْ بَقِيَّةِ طِينَةِ آدَمَ. وَبَيْنَ النَّسْخِ بَعْضُ الْاِخْتِلَافِ اللَّفْظِيِّ. انْظُرْ أَيْضاً فَصْلَ «دَرَرِ رَمَزٍ فِي بَحْرِ لُغْزٍ» مِنْ كِتَابِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ لِعَبْدِ الْكَرِيمِ الْجِيلِيِّ حَيْثُ يَتَكَلَّمُ فِيهِ عَلَى أَرْضِ السُّمُسِمَةِ وَيَذْكُرُ النَّخْلَةَ.

الطُّعوم وناعِم الملموسات العجيبة ومبهج اللذات والتَّركيبات الحسِّيَّة والمعنويَّة المعقولة والمستحيلة... وتُذكِّرنا الجملة الأخيرة التي تُؤكِّد فقرة سَبَقَتْ في بداية النِّصِّ ما جاء في المشهد الأخير من رواية «فاوست» الثَّانية للشَّاعر الكبير الألمانيِّ غوتي حين يقول ما ترجمته: «المستحيل على الرَّصْف يقع هُنا بالفِعل»^(١).

وينبغي أن ننتبه لهذه الجملة التي وَرَدَتْ في أوَّل النِّصِّ: «وخلَقَ الله من جُملة عوالمها عالماً على صُورنا إذ أَبْصَرَهُم العارف يشاهد نفسه فيهم» فهي تشير إلى أنَّ نَمَطَ رُؤية الأرض هو عينه نَمَطَ رُؤية النَّفس. فصورة تلك الأرض صورة النَّفس أو الرُّوح. وبذلك الصورة تَرى الرُّوح نفسها وتَتَأَمَّل قُواها وطاقاتها وآمالها ومخاوفها، ولا مكانة للاعتراضات العقلية إزاء تلك الأرض لأنها مكان نشوء الرُّموز المُستمرِّ المُتجدِّد. وتلك الأرض، محلُّ الرُّؤى والأحاديث والصُّور والتَّماذج، ليست محلَّ الفناء وإنما هي محلُّ التَّجليات.

وليس ثَمَّة أمر طبيعيٍّ حسيٍّ صِرَف بل كُلُّ شيء مُتَّصِل بنشاط نفسيٍّ. والمعرفة ترجع في النِّهاية إلى رُؤية عالم النَّفس والرُّوح. فالعالم المحسوس من هُذه الجهة يَتَبَدَّى فيه عالم صور النَّفس.

نحن هنا أمام قوَّة أو مَلَكَة تفصيل بيننا وبين الواقع هي الخيال الفَعَّال وهو وسيلة من وسائل المعرفة حَقِيقِيَّة كوسائل الحواسِّ في تكوين المعرفة. ولكنَّ هُذا الخيال له نظام خاصٌّ في الإدراك لا يُمْكِن أن نَشْتَقَّه من إدراكات حسيَّة خارجيَّة. بل على العكس نجد أنَّ مَلَكَة الإدراك في هُذا الخيال هو قلب الصِّفات الحسيَّة وجَعْلها في صَفاء العالم الرُّوحيِّ والفِكْريِّ وسكبها في قوالب ورموز تعرض للحلِّ. تلك القوالب والرُّموز إنَّما تُفْهَم بِجَفَر هو من نوع النَّفس. فالإدراك بالخيال تَعْرِية للأمور الحسيَّة من مادَّتها التي تقع تحت الحسِّ وجعلها ذات شُفوف فِكْريٍّ مصقولة كالمرآة الصَّافية. وعندئذٍ تَتَضَّح معاني الأمور والحوادث وتَتَجَلَّى دلالاتها وماهياتها في هُذه النُّظرة المُشْتَبِكة الرُّوحيَّة.

فالخيال لا يُنشئ تراكيبات غير حَقِيقِيَّة وإنَّما يُظْهِر المعاني المخبوءة في الأشياء. فعمله عمل التَّأويل يعمد إلى إخفاء الظَّاهر وإظهار الباطن ويمسُّ بكيماياته العجيبة الأمور المحسوسة فيجعلها رموزاً رُوحِيَّة فِكْريَّة. الخيال مَلَكَة التَّحوِيل أو علم سرِّ هُذه الكيمايات

(١) البيتان ١٢١٠٨ - ١٢١٠٩. ويقول الشَّاعر الكبير إقبال البيتين الآتين مُترجِّمين:

اليوم أَسْمِعُكَ اخْتِدامَ مشاعري وصُراخَ إيماني وصوت مُنايا
المستحيل بدا لعيني مُمَكِناً سَأْري الخليقة ما رَأَتْ عَيْنَايا

المُحوّلة. والمعرفة الصّوفيّة إذن لا تُدرِك الشّيء في مَوْضوعيّته الخارجيّة ولكن تُدرِكه من جهة دلالاته وفَحواه ومعناه، ويغدو بعد هذا التّبديل إخباراً وبشارة تُبشّر النّفس ذاتها به وعندئذ تعكس الأشياء عن طريق الخيال إلى النّفس صورة النّفس، فالنّفس ترى في هذه الصورة ذاتها.

والخيال إذن ملكة الرّمز. وعالم الرّمز واسع، هو عالم الإنسان وعالم الطّبيعة وعالم الفكر، ولذلك يتّصل بالأُمور النّفسية والاجتماعية والطّبيعية والفنيّة والدينيّة وغيرها. فالرّمز قائم في كلّ مكان من الكون من الذّرة الدّقيقة وأجزائها المتناهية في الصّغر إلى عالم المجرّات والنّجوم والشموس كلّ منها يحمل سرّاً خاصّاً، وسرّ الأسرار هو الإنسان.

الرّمز جدليّة الظّاهر والباطن والجسم والرّوح والاسم والمعنى والمُشِفّ والكثيف والمادّة والفكر والجهر والسّرّ والشّكل والمضمون والقريب والبعيد والسّهل والمُمتنع، وهو مَوْضِع الفهم والإدراك والتأويل يوقّف النّظر التّألّف إلى الأشياء ليستهو به بفحواها ومعانيها الماثلة بينها وبينه.

ولجدليّة الرّمز هذه نجد مواقف المُفكّرين والفلاسفة تختلف من قبول أو إنكار وإثبات أو نفّي ورضا أو كراهية. إنّ الرّمز جفّر الغيب، ورسالة الدّكاء، ولسان التّبصّر والحدّر. ولكنّه مع ذلك يبقى أقرب إلى الصّفة الخارجيّة فهو يُقابل الغيب مُقابلة البيان للمعاني.

يقول ابن عربيّ في «كتاب التّراجم»: «الرّمز ليس من شأن الأمر فإنّه يُقابل البيان، وأصحاب الرّموز رَمَزُوا لأمّرين: لتوقّع الضّرر أو لعدم الاحترام»^(١). ويقول في «عناء مُغرب»:

نَبّه على السّرّ ولا تُفشِه فالبوح بالسّرّ له مَقّت
علا الذي تُبديه فاصبر له واكتمه حتى يصل الوقّت

فمن كان ذا قلب وفطنة، شغله طلب الحكمة عن البطنة، ووقف على ما رمزناه، وفكّ المعنى من الذي لغزناه. ولولا الأمر الإلهي لشافهنا به الوارد والصّادر، وجعلناه قُوت المُقيم وزاد المسافر، ولكنّ قد جفّ القلم بما سبق في القِدَم، فما أشرف الإنسان حيث جعله الله محلّ روحانيّات هذه الأكوان! فلقد أبدع الله سبحانه سلخه، حيث أوّجده

(١) ص ٤٤.

أكمل نسخة»^(١). ويقولُ في هذا الكتاب نفسه: «فتأمل هذه الإشارات في نفسك، واجتمع عليها بقلبك وحسك، فإنَّ الزَّمانَ شديد، وجبَّاره عنيد، وشيطانه مريد، فانسَلخ منه انسلاخ النَّهار من اللَّيل، وإلَّا فقد لَحِقَتْ بأصحاب الثُّبور والوَيْل، وقد نَصَحْتُك فاعلم، وأوضحتُ لك السَّبيل فالزَّم»^(٢).

ويقولُ في «روح القدس»: «وما زالت الفقهاء في كلِّ زمان مع المُحقِّقين بمنزلة الفراعنة مع النَّبيين»^(٣)، وهو يعيد هذا التَّشبيه في الفُتوحات. ويدلُّ ذلك على أنَّ الضَّغط السِّياسيَّ كان شديداً في المغرب. ومن المعلوم التَّشديد الذي حصل على المُفكرين حتى علماء الدِّين والكلام في عهد أمير المسلمين عليِّ بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين. ولقد أُحْرِقَتْ كُتُب الغزالي لما دَخَلت المغرب في زمنه، وتقدَّم بالوعيد الشَّدِيد من سفك الدِّم واستئصال المال إلى من وُجِدَ عنده شيء منها. ولما جاء المؤخِّدون تساهلوا في ذلك بل شَجَّعُوا البحث والتَّفكير وقَرَّبُوا العُلَماء والفلاسفة. وقد رأينا كيف كان ابن طُفَيْل مُقَرَّباً من أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. وهذا الفيلسوف هو الذي قرَّب أبا الوليد بن رُشد ورفع مكانته عندهم، ولكنَّ لم يَلْبَثْ أن نالته المحنة في عهد ابنه أبي يوسف المُتوفَّى سنة ٥٩٥. ولقد «أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلَّم في شيء من هذه العلوم وكُتِبَتْ عنه الكتب إلى البلاد بالتَّقدُّم إلى النَّاس في ترك هذه العلوم جُملة واحدة وإحراق كُتُب الفلسفة كُلِّها إلَّا ما كان من الطَّبِّ والحساب وما يتوصَّل به من علم التَّجوم إلى معرفة أوقات اللَّيل والنَّهار وأخذ سَمَت القبلة»^(٤). ولقد كان ابن عربيٍّ إذ ذاك شابًّا. ولما رَضِيَ السُّلطان عن ابن رُشد استدعاه إلى مُراكش حين رجع إليها ولكنَّه لم يَلْبَثْ أن مات «بها في آخر سنة ٩٥٤ وقد ناهز الثَّمانين»^(٥) وقَدَّمنا أنَّ صوفيَّنا حضر جنازته.

وما أَصَوَّبَ اللُّغة العربيَّة حين اشْتَقَّت الحُكْم والحِكْمة من أصل واحد بل الحُكْم في الأصل البعيد معناه الحِكْمة. وقد حَقَّقَت اللُّغة العربيَّة باشتقاقها ما نادى به أفلاطون في غابر الزمان من لزوم اتِّفاق السُّلطة والفلسفة واتِّحادهما. على أنَّ هذا المثل الأعلى إذ تَحَقَّق أحياناً في غُضُون التَّاريخ العربيِّ لم يُنَحَّ له الاستقرار في بقية الأحيان. وقد اتَّصل

(١) ص ٢١ وفي الأصل على الذي يُبدِّيه.

(٢) ص ٢٤.

(٣) ص ٩٠.

(٤) المُعْجَب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٠٦.

(٥) المَرْجِع نفسه ص ٣٠٧.

ابن عربي بؤلاة الأمور في عصره ولكنته لم يدع لهم سبيلاً إلى السيطرة عليه أو اضطهاده بل كان في بعض الأحيان على العكس هو المُشرف ذا الهبة على كثير منهم. وكان شاعراً بمزاياه عليهم. وقد فرّق بين علو المكانة والعلو بالصفات: «فإنَّ علو المكانة يختصُّ بؤلاة الأمر كالسلطان والحكام والوزراء والقضاة وكلّ ذي منصب سواء كانت فيه أهلية لذلك المنصب أو لم تكن، والعلو بالصفات ليس كذلك فإنه قد يكون أعلم الناس يتحكّم فيه من له منصب التحكّم وإن كان أجهل الناس. فهذا عليّ بالمكانة بحكم التبع، ما هو عليّ في نفسه، فإذا عزّل زالت رفعتة والعالم ليس كذلك»^(١).

ولا غرّو إذا وجدنا مذهب ابن عربي قائماً على الرّمز في جوانبه الواسعة المتعدّدة، ولا عجب إذا وجدنا هذا الفيلسوف يعتمد على الرّمز أيضاً في أسلوب التعبير سواء كان ذلك في النثر أو الشعر. والمذاهب الرّمزية في الآداب الأجنبية تبدو كلّها شاحبة هزيلة إلى جانب هذا المذهب البيانيّ ودعائمه الفكرية. ولكنّ الرّمز لا يمكن القطع في معناه بالضبط وعلى وجه اليقين، ولذلك كان مذهب ابن عربي مُستغلقاً في بعض المواطن استغلاق الرّموز، وكان يدفع في بعض الأحيان إلى إيهام القول بوحدة الوجود. ونظرية وحدة الوجود لها أشكال متفاوتة. ونستطيع أن نقول إنّ ابن عربي يرى أنّ الخالق على بُعد من المخلوقات يساوي اللانهاية والصّفر معاً. فهو بعيد ومُتعالٍ عنها من جهة الدّات الأحدثيّة المطلقة، وهو قريب منها إلى حدّ أنّه ينعِدُّ البُعد إذا نظر إلى الأسماء الحسنی المتجلّية في المخلوقات والمتحقّقة فيها. يقول في الفتوحات: «وأما الدّات من حيث هي فلا اسم لها إذ ليست محلّ أثر ولا معلومة لأحد ولا ثمّ اسم يدك عليها مُعرّى عن نسبة ولا بتمكين فإنّ الأسماء للتعريف والتمييز. وهو باب ممنوع لكلّ ما سوى الله فلا يعلم الله إلّا الله. فالأسماء بنا ولنا ومدارها علينا وظهورها فينا وأحكامها عندنا وغاياتها إلينا وعباراتها عنّا وبدایاتها منا.

«فلولاهما لما كنّا ولولنا لما كانت
بها بئاً وما بئاً كما بانّت وما بانّت
فإن خفيّت لقد جلّت وإن ظهرت لقد زانّت»^(٢)

وكثيراً ما يلجأ إلى التّمثيل في بيان وجهات نظره. فهو يقول في الفتوحات في شأن ذلك وهو يُحاور في «عروج» له هارون النّبيّ. «قلت: يا هارون! إنّ ناساً من العارفين

(١) الفصوص، عفيفي ص ٨٠.

(٢) ج ٢ ص ٦٩، ٧٠.

زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ يَنْعَدِمُ فِي حَقِّهِمْ فَلَا يَرُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا يَبْقَى لِلْعَالَمِ عِنْدَهُمْ مَا يَلْتَفِتُونَ بِهِ إِلَيْهِ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَلَا شَيْءٌ أَتَاهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ دُونَ أَمْثَالِكُمْ وَأَخْبَرْنَا الْحَقُّ أَنَّكَ قُلْتَ لِأَخِيكَ فِي وَقْتِ غَضَبِهِ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِكَ الْأَعْدَاءَ﴾^(١) فَجَعَلَتْ لَهُمْ قَدْرًا وَهَذَا حَالٌ يُخَالِفُ حَالِ أَوْلَئِكَ الْعَارِفِينَ. فَقَالَ: صَدَقُوا فَإِنَّهُمْ مَا زَادُوا عَلَى مَا أُعْطَاهُمْ ذَوْقَهُمْ وَلَكِنْ انْظُرْ هَلْ زَالَ مِنَ الْعَالَمِ مَا زَالَ عِنْدَهُمْ؟ قُلْتَ: لَا. قَالَ: فَتَقْصِّصْهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِمَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ مَا فَاتَهُمْ، فَعِنْدَهُمْ عَدَمُ الْعَالَمِ فَتَقْصِّصْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى قَدَرِ مَا انْحَجَبَ عَنْهُمْ مِنَ الْعَالَمِ فَإِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ هُوَ عَيْنُ تَجَلِّيِ الْحَقِّ لِمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ، ﴿فَإِنَّ تَذَاهِبُونَ﴾^(٢) إِنَّ هُوَ لَا ذِكْرَ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣) بِمَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ:

فليس الكمال سوى كونه	فمن فاتته ليس بالكمال
فيا قائلًا بالفناء أتتد	وحوصل من السُّبُل الحاصل
ولا تتركَّنْ إلى فائت	ولا تبسِّع التَّقْد بالآجل
ولا تبسِّع النَّفْس أغراضها	ولا تَمْزُج الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ ^(٤)

وهو يَفْتَنُ فِي عَرْضِ أَفْكَارِهِ افْتِنَانًا بَارِعًا.

وقد جاء في الفتوحات أيضاً في هذا الشأن «فصاحب العقل ينشد:

وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحد

وصاحب التجلِّي ينشد قولنا في ذلك:

وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه عينه»^(٥)

وبهذا الاعتبار يَقِفُ قَضِيَّةُ التَّنْزِيهِ وَالتَّشْبِيهِ الَّتِي شَغَلَتْ عُلَمَاءَ الْكَلَامِ فَهَمًّا مُنْسِجَمًا مَعَ جُمْلَةِ آرَائِهِ. فَهُوَ يَقُولُ بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّشْبِيهِ مَعًا وَهُوَ يَسْتَعْمِلُ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ بِمَعْنَى الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ. فَاللَّهُ مُنَزَّهٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَعَالَى عَنْ كُلِّ وَصْفٍ وَكُلِّ حَدٍّ، وَهُوَ مُشَبَّهٌ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى تَعْيُنَاتِ ذَاتِهِ فِي صُورِ الْوُجُودِ فَهُوَ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُتَجَلِّ فِي صُورَةٍ كُلِّ مَنْ يَسْمَعُ وَمَا يَسْمَعُ وَكُلِّ مَنْ يُبْصِرُ وَمَا يُبْصِرُ. فَالْقَوْلُ بِالتَّنْزِيهِ وَحْدَهُ تَقْيِيدٌ لِأَنَّهُ حُكْمٌ، وَمُجَرَّدٌ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ لَهُ تَقْيِيدٌ، وَاللَّهُ فَوْقَ كُلِّ تَقْيِيدٍ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ بِالتَّشْبِيهِ وَحْدَهُ تَحْدِيدٌ وَهُوَ لَا يَجُوزُ:

«فَإِنْ قُلْتَ بِالتَّنْزِيهِ كُنْتَ مُقَيِّدًا وَإِنْ قُلْتَ بِالتَّشْبِيهِ كُنْتَ مُحَدِّدًا

(١) الأعراف ٧: ١٥٠.

(٢) التَّكْوِير ٨١: ٢٦، ٢٧.

(٣) فتوحات ج ٣ الباب ٣٦٧ ص ٣٤٩.

(٤) ج ١ ص ٢٧٢ والرواية الأخرى لبيت أبي العتاهية: تدلُّ على أنه الواحد.

وإن قلت بالأمرين كنت مُسَدِّداً
فمن قال بالإشفاق كان مشركاً
فإياك والتشبيه إن كنت ثانياً
فما أنت هو بل أنت هو وتراه في
وكنْتَ إماماً في المعارف سيِّداً
ومن قال بالإفراد كان مُوحِّداً
وإياك والتَّنْزِيه إن كنت مُفْرِداً
عيون الأمور مُسْرِحاً ومُقَيِّداً

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فَتَزَهْ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ فشبّه . وقال
تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فشبّه وثنى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١٢﴾ فَتَزَهْ وَأَفْرَدَ ﴿١٣﴾ .

ويريد في جملة التشبيه الأخيرة أنه إما أن نعتبر الكاف زائدة وعندئذ يفيد أول الآية
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ التَّنْزِيه ، ويفيد باقيها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١٤﴾ التشبيه لأنه وصف
للحق بأوصاف المُحَدَّثَات التي تسمع وتُبْصِر . وإما أن نعتبر الكاف غير زائدة وبذلك
يصبح معنى الجزء الأول ليس مثل مثله شيء وهذا يفيد التشبيه لأنه إثبات لمثل الله ونفي
لمثل المثل . والجزء الثاني من الآية يفيد التَّنْزِيه بمعنى أنه وحده الذي يسمع ويُبْصِر في
صورة كل من يسمع ويُبْصِر . فالجمع بين التَّنْزِيه والتشبيه حاصل في الحالتين . ويقول
أيضاً:

«إِنَّ للْحَقِّ فِي كُلِّ خَلْقٍ ظَهْراً فَهُوَ الظَّاهِرُ فِي كُلِّ مَفْهُومٍ وَهُوَ الْبَاطِنُ عَنْ كُلِّ فَهْمٍ
إِلَّا عَنْ فَهْمٍ مِنْ قَالَ إِنَّ الْعَالَمَ صُورَتَهُ وَهُوِيَّتَهُ وَهُوَ الْأَسْمُ الظَّاهِرُ كَمَا أَنَّهُ بِالْمَعْنَى رُوحٌ مَا
ظَهَرَ فَهُوَ الْبَاطِنُ فَنَسَبَتْهُ لِمَا ظَهَرَ مِنْ صُورِ الْعَالَمِ نَسْبَةَ الرُّوحِ الْمُدَبِّرِ لِلصُّورَةِ فَيُؤْخَذُ فِي حَدِّ
الْإِنْسَانِ مَثَلاً ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَحْدُودٍ فَالْحَقُّ مَحْدُودٌ بِكُلِّ حَدٍّ وَصُورِ الْعَالَمِ لَا
تَنْضِبُ وَلَا يُحَاطَ بِهَا وَلَا تُعْلَمُ حُدُودُ كُلِّ صُورَةٍ مِنْهَا إِلَّا عَلَى قَدَرِ مَا حَصَلَ لِكُلِّ عَالَمٍ مِنْ
صُورَتِهِ ، فَلِذَلِكَ يُجْهَلُ حَدُّ الْحَقِّ فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ حَدُّهُ إِلَّا بِعِلْمِ حَدِّ كُلِّ صُورَةٍ وَهَذَا مُحَالٌ
حَصُولُهُ فَحَدُّ الْحَقِّ مُحَالٌ . وَكَذَلِكَ مِنْ شَبْهِهِ وَمَا نَزَّهَ فَقَدْ قَيَّدَهُ وَحَدَّدَهُ وَمَا عَرَفَهُ ، وَمِنْ
جَمْعٍ فِي مَعْرِفَتِهِ بَيْنَ التَّنْزِيهِ وَالتَّشْبِيهِ بِالْوَصْفَيْنِ عَلَى الْإِجْمَالِ - لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ عَلَى
التَّفْصِيلِ لِعَدَمِ الْإِحَاطَةِ بِمَا فِي الْعَالَمِ مِنَ الصُّوَرِ - فَقَدْ عَرَفَهُ مُجْمَلاً لَا عَلَى التَّفْصِيلِ كَمَا
عَرَفَ نَفْسَهُ مُجْمَلاً لَا عَلَى التَّفْصِيلِ» ﴿١٥﴾ .

على أن تقدیس ابن عربی للإنسان إنما يتناول فكره وروحانيته . وهو أيضاً قد انتبه

(١) فصوص الحِكم الفصل الثالث . وفي الأصول عين الأمور ويتحول الشطر إلى بحر الكامل . والآية

الكريمة في سورة الشورى ٤٢ : ١١ .

(٢) المَرَجع نفسه الفصل الثالث أيضاً .

لانتظام المَوجودات من جهة الجسمانيّة والطّبيعة ولترتيب أنواعها وتَسلسُل آفاقها. يقولُ في «تَنزَلات الأملّك». «وتَدَاخَلت المَوجودات بعضها في بعضها، وحصل خَفْضُها في رفعها ورفعها في خَفْضِها، واستحال المَعْدِن نباتاً، والنبات حيواناً، والحيوان إنساناً، والإنسان مَعْدِناً، وضُرب الكلُّ بالكلِّ، وظهرت القوّة بالفعل، وعاد العزيز ذليلاً، والدّلِيل عزيزاً، والحديد لُجِيناً، والثّحاس ذهباً إبريزاً، والمُرْكَب مُحلّلاً مُفَصّلاً، والمحلّل مُركَّباً مُوَصّلاً»^(١).

ولكنّ الأمور الرّوحيّة ثابِتة في الأشياء والأشكال والأمور الحسيّة ثَواء المعاني في الألفاظ والحروف، وهذه الأمور الحسيّة والأشكال والأشياء على اختلافها عماد تلك وسنّدها وظروفها الخارجيّة. وهذه بالنّسبة إلى تلك كاللّغز بالنّسبة إلى المعنى المُلغز فيه. بل إنّ الجمع بين الحسّ والفكر في الإنسان أكمل وأعلى من انفِراد الرّوح وحده. يقولُ على لسان نبيّنا إبراهيم: «يا بنيّ! إذا سَرَيْتَ بِفِكرِكَ في عالم المعاني انْحَجِبَ حِشْكَ عن التَّلذُّذِ بالمعاني، وإذا سَرى حِشْكَ في عالم المغنى لم ينحجب سِرُّكَ عن مُشاهدة المعنى، فالبقاء مع الحسّ أوّلَى في الآخرة والأوّلَى»^(٢).

ولذلك كلّهُ لا نستغرب أن يتّخذ ابن عربيّ جميع المظاهر والأشياء والأفكار والألفاظ والحركات رموزاً للمقاصد الرّوحانيّة وإشارات إليها. فهو يقولُ في مُقدّمة «ذخائر الأخلاق» مُجَمِّلاً طريقته في الرّمز، وتَضَمّن طريقته هذه في ضوء ما شَرَحناه من مَلَكَةِ خَيَالِهِ:

كلُّ ما أذكُرُهُ من طَلَل	أو ربوع أو مغانٍ كلُّ ما
وكذا إن قلتُ ها أو قلتُ يا	وَألا إن جاء فيهِ أو أما
وكذا إن قلتُ هي أو قلتُ هو	أو همو أو هنّ جمعا أو هُما
وكذا إن قلتُ قد أنجَد بي	قَدَر في شِعْرنا أو أَتَهَما
وكذا السُّحب إذا قلتُ بكث	وكذا الزُّهر إذا ما ابتسما
أو أنادي بحداة يَمَمُوا	بانة الحاجز أو وُزق الحما ^(٣)
أو بُدور في خُذور أفلت	أو شمس أو نبات نجما
أو بروق أو رعود أو ربا	أو رياح أو جنوب أو شما ^(٤)
أو طريق أو عقيق أو نقا	أو جبال أو تلال أو رما ^(٥)

(١) ص ١٩٤.

(٢) المَرَجع نفسه ص ١٨٨.

(٣)، (٤)، (٥) الحما وشمال ورمال، حَذَف الحروف الأخيرة منها لضرورة الشعر.

أو خليل أو رحيل أو ربا
أو نساء كاعبات نُهد
كلُّ ما أذكره ممَّا جرى
منه أسرار وأنوار جَلَّتْ
لفؤادي أو فؤاد مَنْ له
صفة قدسيَّة علويَّة
فاضِرِفِ خاطر عن ظاهرها

ولكنَّ الظواهر الجميلة خاصَّة كانت عند أمثال هذا العارف مَوْضِعاً للتأمل ومَجَالاً للوجد ومتاعاً للأرواح وزينة يَقْنون في مشاهدتها.

يَسْتَهْلُ الشَّيْخُ الأكبر كتابه «ذخائر الأغلاق شرح تُرجمان الأشواق» قائلاً: «الحمد لله الحسن الفعال، الذي يُحبُّ الجمال، خلق العالم في أكمل صورة وزينته، وأدّرج فيه حكمته الغيبية عندما كوَّنه، وأشار إلى مَوْضِع السِّرِّ منه وعيَّته، وفَصَّل للعارفين مُجَمَّلَه وبَيَّنَه، جعل ما على أرض الأجسام زينة لها، وأفنى العارفين في مُشاهدة تلك الزينة وَجَدًا وولَّها».

وينبغي أن نفهم من «مَوْضِع السِّرِّ» الإنسان أكمل المخلوقات نشأة حتى من الوجهة الجماليَّة.

وإذا شاء القدر فالقى فتاة في رَيِّق الشَّبَاب ومُقْتَبَل الحُسْن «ساحرة الطُّرف عراقية الطُّرف» تُسمَّى بالنُّظام في طريق إمام من أئمَّة العارفين مثل ابن عربي فماذا يحصل؟ لو كان الرَّجل من رَعيل الصُّوفيَّة القُدَامى لَحَسِيَّ الفتنة وحذر أو لم يُلقِ إليها بالاً.

ولكنَّ شيخنا الأكبر أمام هذه الفتاة الرائعة المثيرة كان في مقام من المعرفة والحبِّ الإلهيَّين يستطيع فيه كالشُّعاع أن يُعَازِلَهَا وَيَتَغَزَّلَ بِهَا ثمَّ يَرْتَدُّ عَنْهَا كما يَرْتَدُّ الشُّعاع صافياً نقيّاً دون أن تَعْلَقَ به ريبة. وأبياته الغزليَّة فيها «تُرجمان الأشواق» تَفِيضُ بِالْمِثْلِ وتَتَلَوَّى بالإحساس وتَحَرِّقُ جَوْى وشَوْقاً وذِكْرى، ومع ذلك ينبغي صَرَفُ هذه الأبيات عن ظاهرها والبلوغ إلى المعارف الرِّبَانِيَّة وراءها. وقد أُنْكَرَ عليه بعض فقهاء مدينة حلب ذلك واتَّهموه بالتَّسَرُّ فاضْطَرَّ عندئذٍ إلى شرحها شرحاً صوفيّاً فيه شيء كثير من المهارة والحِذْق في كتابه «ذخائر الأغلاق». وتلك الأبيات الرَّمْزيَّة كُلُّها جديرة بأن يُسْتَشْهَدَ بِهَا ههنا فهذا مَوْضِعُهَا

(١) إنَّ تَفْهَمَا هي نون التَّوكِيدِ الخفيفة انْقَلَبَتْ أَلِفاً عند الْوَقْفِ.

ولكنَّا نرجع الباحث إليها بعد إذ شرحنا دعائم الرَّمز عند هذا المُفكِّر الأديب الفنَّان الكبير،
مُكتَنِّفين بقصيدة واحدة بعض أبياتها طار شهرة:

ألا يا حمامات الأراكمة والبان
ترَفَّقْنَ لا تُظْهِرنَ بالتَّوَحُّج والبكا
أطارحها عند الأصيل وبالضُّحى
تَنَاقَحت الأرواح في غَيْضة الغضا
وجاءت من الشُّوق المُبرِّج والجوى
فمن لي بجمع والمُحصَّب من منى
تَطُوف بقلبي ساعة بعد ساعة
كما طاف خير الرُّسل بالكعبة التي
وقبل أحجاراً بها وهو ناطق
فكم عهدت ألاَّ تحول وأقسمت
ومن أعجب الأشياء ظبيُّ مُبرِّقع
ومرعه ما بين التُّرائب والحشا
لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة
وبيت لأوثان وكعبة طائف
أدين بدين الحبِّ أنَّى تَوَجَّهت
لنا أسوة في بشر هند وأختها

ترَفَّقْنَ لا تُضَعِفْنَ بالشَّجو أشجاني
خَفِيَّ صباباتي ومكنون أحزاني
بَحْنَةَ مُشتاق وألَّة هَيْمَان
فمالت بأفنان عليَّ فأفناني^(١)
ومن طرف البلوى إليَّ بأفنان
ومن لي بذات الأثل من لي بنعمان
لوَجِد تبريح وتلثم أركانِي
يقولُ دليل العقل فيها بنقصان
وأين مقام البيت من قَدْر إنسان
وليس لمَخضوب وفاء بأيمان
يشير بعُتاب ويؤمي بأجفان
ويا عَجبا من رَوْضة وسط نيران
فَمَرعى لغُزلان ودير لرُهبان
وألواح توراة ومُصحف قرآن
ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني
وقيس وليلى ثم ميَّ وغِيلان

ومع أنَّ معاني القصيدة جميلة وواضحة يدعونا ابن عربيَّ إلى أن نتجاوز ما فيها من
صُور حسيَّة لتلتبس وراءها الأمور العُلويَّة وهو يعيننا في شرح الأبيات. ولنورد شرحه
مثلاً: «من أعجب الأشياء ظبيُّ يريد لطيفة إلهية، مُبرِّقع يقول محجوب بحالة نفسيَّة وهي
أحوال العارفين المجهولة...» حتى إنَّه لو أبعدنا هذه التَّأويلات التي ربَّما نجد فيها بعض
التَّكَلُّف وأخذنا الأبيات على ظاهرها لم تَنحِج عَنَّا هذه التَّنْغمة العُلويَّة السَّاميَّة التي تملأ
الكون حُبًّا شاملاً حتى في عصر الحروب الصَّليبيَّة الدَّميمة.

على أنَّه ينبغي أن نعلم أن ابن عربيَّ يستعمل أيَّ مُناسبة بين الأشياء والظواهر
والإنسان في جملة فلسفته ولو كانت تلك المُناسبة ترجع إلى أصل وثنيٍّ قديم. لنقرأ له

(١) ضمير أفناني يرجع إلى المَلِ المَشْتَقَّ من مالت وهو جار في اللُّغة العربيَّة، جاء في سورة المائدة ٥:
﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فالضمير راجع إلى العدل المُشتَقَّ من اعدلوا.

هذه الآيات التي يذكرها في مُستهلّ فصل يعقده في «تَنَزُّلات الأُملاك» يبحث فيه اختصاصات يوم الأربعاء:

سلام على عيسى المسيح ابن مريما	نبِيٌّ لِه الأرواح أَيَّان يَمَمَّا
تَبَدَّى ونور الشَّمس في الأفق طالع	فلم أَدِر مَمَّن أشرق الكون مِنْهُما
تَوَلَّد في الأرحام من غير شهوة	عن التَّفخة العُليا فصار مُحَكِّما
على سِرِّ إحياء الموات ونشرها	فكان ليوم الأربعاء مُتَمِّما
وكتابه الوهميُّ يُرْسِل وَهْمه	على روح فرار فيُسمى مُجتمما
فكان لطيفاً في التَّحاليل صانعا	وكان شجاعاً في التَّراكيب مُقدِّما ^(١)

يبدو منها أَنَّهُ يُخصَّص يوم الأربعاء بالسَّيِّد المسيح فهو الإمام فيه ثمَّ يصف ما يظهر فيه من الانفعالات. وإذا تأملنا هذه الآيات وأردنا أن نتعرَّف السَّبب الذي من أجله رَبط ابن عربيّ يوم الأربعاء بالسَّيِّد المسيح نعر على لفظ الفرار وهو عند العرب عبارة عن الزُّبُق، وأهمَّيته عند القُدَماء كبيرة في الكيمياء^(٢). ومن المعروف أن لفظ الزُّبُق باللاتينية مركوريوس وهو يدلُّ أيضاً على الإله المُسمَّى بهذا الاسم وعلى السَّيَّارة عطارد. وقد أعطى الإله مركور الرُّومانيُّ اسمه ذلك المَعْدِن وتلك السَّيَّارة وخصَّ يوم الأربعاء به فهو يوم مركور (mercurii dies) وقد جاء اللفظ الفرنسيُّ (mercredi) من ذلك. ويُعلِّمنا تاريخ الدِّيانات وتاريخ الفِكر الإنسانيِّ والفلسفة والميثولوجيا أن مركور عند الرُّمان يُقابل هرمس عند اليونان وهما يُقابِلان تحوت عند المصريِّين القُدَماء وهو إله العلوم والفنون ومُرشِد النَّاس إلى أسرار الفِكر الإلهيِّ ورمز النُّشاط الإنسانيِّ والصُّناعة وإله التَّجارة والسَّيَّاحة والبلادة. وهو أيضاً رسول الحبِّ والوسيط بين الآلهة في قضايا الحبِّ وهو المُكَلَّف في المساء أن يقود الأرواح إلى مساكنها المُظلمة. وقد انتقلت هذه الاعتبارات إلى المدارس الفلسفيَّة التي نشطت في العصر الثَّاني والثَّالث والرَّابع الميلادي فأنصهرت تلك التَّعاليم الوثنيَّة والعقائد الدِّينيَّة المصريَّة القديمة والفلسفة اليونانيَّة والاعتبارات الدِّينيَّة اليهوديَّة والمسيحيَّة واختلطت جميعاً، وتألَّقت مراكز تلك الفلسفة المُشتبِكة في أنطاكية بسورية وإديسا أو الرُّها بجنوبيِّ الأناضول وفي الإسكندريَّة بمصر وغيرها من المُدُن. وقد نعت

(١) ص ١٦٤ وفي الأصل المطبوع هَمَّة عَوْضاً من وَهْمه وهو جائز.

(٢) يقول الشَّاعر الكيمويُّ العربيُّ:

خُذِ الفرار والظَّلْمَ	وشيئاً يُشْبِهُه البَرْقَ
إذا مازجتها سَحَقاً	مَلَكْتَ الغرب والشَّرقَ

أولئك الباحثون في ذلك الوقت هرّس بالْمُثَلَّث الحِكْمَة أو المَثَلَّث العَظْمَة لأنّهم اعتبروه كاهناً وفيلسوفاً وملكاً معاً. ثم نسب بعض الفلاسفة المسيحيين إذ ذاك بعض صفات الإله مركور كما لَحْصَنَها إلى السَّيِّد المسيح. ومن المعلوم أنّ هنالك كتابات نُسِبَتْ إلى هرّس تُعالج السُّحر والتَّنْجيم والكيمياء مجهولة المُؤَلِّف مُخْتَلِطَة العناصر فيها آثار شتّى مصريّة ويونانيّة وسوريّة وشرقيّة وهنديّة وفارسيّة. ولا شكّ أنّ مثل هذه الاعتبارات كلّها قد أطلع عليها ابن عربيّ كما أطلع على الفلسفة الغنوصيّة (أو الأدريّة) التي هي قريبة من الهرمسيّة والتي نجد منها بعض الآثار في أفكاره واعتباراته ولا سيّما خَلَقَ آدم على صورة الله وتنويهاً بمكانة الإلهام والفيض الإلهيّ والاعتماد على الرّمز والتأويل. وذلك كلّهُ بالإضافة إلى الفلسفة الأفلاطونيّة المُحدّثة^(١).

تلك المدارس الفلسفيّة المتعدّدة المتفاوتة ذات الاعتبارات الباطنيّة والرمزيّة قد خبا نورها بعض الشيء في العصر الخامس الميلادي ولكنّها لم تحتجب تماماً بل استمرت وتفرّق أتباعها وانتقلوا في مشارق الأرض ومغاربها، وهي قد استدعت أيضاً نشوء تفكير إسلامي خاصّ يصحّ أن ندعوه «الغنوصيّة الإسلاميّة» تتضمّن غالبية تلك الآراء وتتّصل بالاعتبارات الإماميّة الباطنيّة، وسُرعان ما انتقلت في عصر مُبَكِّر إلى أسبانيا. وربّما أطلع ابن مسرّة الفيلسوف الأندلسيّ على عناصر تلك الفلسفات المتنوّعة، وكذلك أطلع عليها بعده ابن قسيّ الذي قرأ ابن عربيّ كتابه «خَلَعُ التَّلَين» وشرحه.

وكان ابن قسيّ هذا قد قام بحركة المريدين الثائرة بالمُوحّدين، وآراؤه تتضمّن بعض الاعتبارات الباطنيّة.

ويرى المُستشرق آسين بلاسيوس عند تلاميذ ابن مسرّة آثاراً لآراء بريسليان المصريّ الأصل الذي أصبح أسقف أبله Avila بإسبانيا (قُتِل سنة ٣٨٥)، كما يرى عندهم أيضاً آثاراً لآراء الفيلسوف اليونانيّ القديم أمبدوقل^(٢).

(١) يُفَرِّق ابن جلجل بين هرامسة ثلاثة: هرّس الأوّل عاش قبل الطوفان وهرّس البابليّ وهرّس المصريّ (طبقات الأطبّاء والحكماء). ويذكر ابن القفطيّ اختلاف المؤرّخين فيه وأنّه أخنوخ المذكور في التّوراة وأنّه بالعربيّة النّبيّ إدريس (تاريخ الحكماء) وانظر أيضاً طبقات الأئمّ لصاعد.

(٢) ذكر رأي آسين المُستشرق هنري كوربان في كتابه القيمّ المفيد عن ابن عربيّ.

L'imagination Créatrice dans le Soufisme d'Ibn' Arabi. Henri Corbin, Flammarion, 1958.

أما نَصُّ التَّنَزُّلات واختصاص يوم الأربعاء فنحن أوّل من انتبه له.

ولكن اتساع آراء ابن عربي ورحابة جوانبها يجعلان منها مجالاً لرؤية الباحث فيها ما يعرفه من بعض المشابه في الفلسفات والآراء المتقدمة عليها. ولا غرو في ذلك، فقد كان فيلسوفنا مستفيض الاطلاع، جوال الفكر، عبقرى التأليف والسبك والتصور. ولا تزال فلسفته تحتاج إلى دراسات طويلة.

على أن نسبة صفات مركور إلى السيد المسيح زيادة على ما سلف ذكره تتبدى خاصة في الأمور الآتية:

- ١ - مركور بين آلهة الوثنيين وحده تقريباً أباح المسيحيون تسمية أبنائهم به^(١).
 - ٢ - كان الوثنيون يصورون هرمس بين قطع من الغنم أو يصورونه يحمل كبشاً أو نعجة إشارة إلى التجارة، ثم أصبح الغنم من لوازم مركور. وكذلك اعتبر المسيحيون السيد المسيح الراعي الصالح. فتشابه التمثيل أوحى بالتقريب بينهما ووجه الخيال والإحساس عند المتدينين في هذا السبيل توجيهاً عاماً لا مضمون له.
 - ٣ - نجد في القرن الميلادي الثاني القديس جوستين يسوي اعتبار السيد المسيح كلمة الله بالنظرة الوثنية إلى هرمس بوصفه رسول الآلهة. فهو يقول مخاطباً الوثنيين: «إذا قلنا إن الكلمة تولدت عن الله فليكن هذا مشتركاً بيننا وبينكم أنتم الذين تسمون هرمس الكلمة التي أرسلها الله»^(٢).
 - ٤ - في الإصحاح الرابع عشر من أعمال الرسل إشارة إلى هرمس حين ذهب بولس إلى لسترة فظنّ الجموع أنه هرمس نزل إليهم وتشبهه بالبشر وشفى العاجز المقعد. وكانوا يعتبرون الشفاء من خاصية هرمس.
- وما قدّمناه يُعرفنا معاني تلك الوشائج التي أثارها مؤلف «تنزل الأملّك». لهذا وقد جاء في «رسائل إخوان الصفاء» عند الكلام على دائرة عطارد أنها «تنبّت منها قوى روحانيات تسري في جميع جسم العالم وأجزائه، وبها تكون المعارف والعلوم والخواطر والإلهام والرؤيا والوحي والثبوة، كما تنبّت من الدماغ القوة الوهميّة وما يتبعها من الدّهن

(١) مادة مركور في معجم كابرول اللّيني.

Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie, Cabrol.

Saint Justin, Apologie, 1, 22: Patrologie de Migne, 57.

(٢)

والنصّ المذكور في معجم الآثار اليونانيّة والرّومانيّة ج ٣ ص ١٨١٦.

Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines, Daremberg et Saglio.

والتَّخِيلَ والفِكرَ والرَّوْيَةَ والتَّمييزَ والفِرَاسَةَ والخِوَاطِرَ والإِلْهَامَ والشُّعُورَ والإِحْساسَ وتَسْتَوِلِي رُوحَانِيَّاتِهَا، وَتَخْتَصُّ أَفْعَالٌ مَلَائِكَتُهَا الهَابِطَةُ مِنَ المَعَادِنِ الطَّبِيعِيَّةِ بِالزَّوَابِقِ والأُرواحِ الصَّاعِدَةِ، وَمِنَ الجِوَاهِرِ مَا كَانَ ذَا لَوْنَيْنِ مِثْلَ الجَنْجِزِ والبَادِزِهرِ وَمِنَ الحَيَوَانِ الزَّرَافَاتِ وَبَقَرِ الوَحْشِ وَكُلُّ مَا خَفَّ مَشْيُهُ وَأَسْرَعَ فِي ذَهَابِهِ، وَمِنَ الثَّبَاتِ مِثْلَ الأَدْوِيَةِ الفَاضِلَةِ، وَتَخْتَصُّ مِنَ عَالَمِ الإِنْسَانِ بِمِوَالِيدِ الكُتَّابِ والوزراءِ والعُمَّالِ وَجُبَاةِ الأَمْوَالِ، وَ(مِمَّا) يُؤَثِّرُ فِي العَالَمِ الصَّنَاعِ وَالْحِرَفِ، وَمِنَ الكَلَامِ الشُّعْرَ وَالْخَطَّ وَالنَّظْمَ وَغَيْرَ ذَلِكَ»^(١).

فَإِذَا تَصَفَّحْنَا ذَلِكَ الفَصْلَ الَّذِي كَتَبَهُ ابْنُ عَرَبٍ فِي «تَنْزِيلِ الأَمَلَاكِ» زَادَ عِنْدَنَا تَأَكُّدٌ مَا شَرَحْنَاهُ مِنْ تِلْكَ العُنَاوَرِ الوَاشِجَةِ وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: «ثُمَّ مَنَحَنِي عَوَارِفَ اللَّطَائِفِ، وَفَنُونَ المَعَارِفِ، وَتَرْتِيبَ المَوَاقِفِ، وَأَسْرَارَ مَا تَحْمِلُهُ فِي سِبَاحَتِهَا التَّجُومِ، وَمَيِّزَ لِي بَيْنَ الخِوَاطِرِ، وَأَوْقَفَنِي عَلَى المَرَاتِبِ وَالْكَرَاسِي وَالْأَسِرَةِ وَالْمَنَابِرِ، وَأَدْخَلَنِي حَضْرَةَ الإِلْهَامِ وَالْوَحْيِ، وَحَدَّرَنِي مِنْ مَوَارِدِ القِيَاسِ وَالرَّأْيِ، وَرَفَعَ لِي عَنْ مَنَازِلِ المُبَشِّرَاتِ، وَكَشَفَ لِي عَنْ مَعَادِنِ الثُّبُوتِ، وَنَصَّبَ لِي مَوَازِينَ الفِكْرِ، وَعَرَضَ عَلَيَّ مَقَادِيرَ النِّظْمِ وَالنُّثْرِ، وَخَاطَبَنِي بِغَرَائِبِ السَّنَجِ والشُّعْرِ، وَأَبَانَ لِي عَنْ سِرِّ الصُّعُودِ بِالتَّحْلِيلِ، وَفَرَّقَ لِي بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالتَّخِيلِ، وَأَوْقَفَنِي عَلَى غُلَطَاتِ الأَذْهَانِ، وَالتَّفَرُّسِ فِي الأَعْيَانِ، وَسِرِّ المَشْيِ عَلَى المَاءِ وَإِبْرَاءِ الأَكْمَةِ والأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ المَوْتَى، وَكَشَفَ لِي عَنْ خِوَاصِّ سِرِّ المَعَادِنِ والأَحْجَارِ، وَقَالَ: لَيْسَ أَقْبَلَ لِلسِّرِّ مِنَ الفَرَارِ. وَلَقَدْ تَطَاوَلَ إِلَيْهِ الحَيَوَانُ وَمَا حَوَاهُ نَبَاتِ المَعَارِفِ فِي كُلِّ جَنَانٍ»^(٢).

وَلَكِنَّ تِلْكَ العُنَاوَرِ وَإِنْ كَانَتْ تَجْعَلُنَا نَحْفَظُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ مِنْ صَفَاءِ اعْتِبَارَاتِ المَوْثُوفِ الدِّينِيَّةِ نَجْدَهَا مَسْبُوكَةً فِي جُمْلَةِ فِلَسْفَتِهِ الوَاسِعَةِ. وَهِيَ تَخْلَعُ عَلَيْهَا تَنَوُّعًا وَتَزِيدَهَا تَلَوِينًا، بَيِّدَ أَنَّهَا تَخْتَفِي وَرَاءَ سَاطِعِ عَبْقَرِيَّتِهِ وَجَمِيلِ بَيَانِهِ وَمَهَارَةِ إِشَارَتِهِ وَبَدِيعِ رَمْزِهِ. وَتُشِيرُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى لُزُومِ القِيَامِ بِدَرَاثَاتٍ مُسْتَقْصِيَّةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ الغَامِضِ.

لِنَتَفَهَّمْ عَنْ كَتَبِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الأَشْيَاءِ وَالظُّوَاهِرِ جَمِيعَهَا عَلَى أَنَّهَا مَجَالٌ رُوحِيٌّ وَمُشَاهَدَاتٌ عُلوِيَّةٌ وَرَمُوزٌ فِكْرِيَّةٌ، وَلِنَتَبَيَّنْ جَوْهَرَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَحَقِيقَتَهَا.

ذَلِكُمْ أَنَّ الشَّيْءَ المُذْرَكَ لَا يُمَكِّنُ فَصْلَهُ عَنِ الشَّخْصِ المُذْرَكِ فِي فِعْلِ الإِدْرَاكِ بَلْ

(١) طَبْعَةُ مِصْرَ ١٩٢٨ ج ٤ ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٢) ص ١٦٩ - ١٧٠.

هما طرفان لعلاقة واحدة وهي الإدراك الذي يُنتج العلم. وبسبب هذه العلاقة كان الشَّيء المُدْرَك يَحْكُم على الشَّخص المُدْرِك عن طريق طبيعة هذا الإدراك. رجل يصف شيئاً فيقول: يتَسَلَّل كَالهَرَّ بين الطُّلُول وَيَنسَاب كَاللَّصِّ بين الخرائب، وآخر يصف شيئاً فيقول: سمير يَسْكُب البهجة في القلوب ويُنَاجي السَّاهر ويَهْدِي السَّاري، فإذا سَمَّينا ما يصفانه وهو القمر حَجَبْنَا النَّاحِيَةَ العاطفيَّة والخياليَّة في إدراكهما المختلف المُتغَايِر للشَّيء الواحد مع أنَّ لتلك النَّاحِيَةِ مكانة في الإدراك. ولهذا كانت تلك الأشياء والمُدْرَكَات كالمرأة تعكس في نهاية الأمر إلى الشَّخص خواطره وصُورَ نفسه وذاته كما يَبِينُ آتِفاً. وهكذا تُصْبِح بواطن تلك الأشياء أي صُورَها الفِكْريَّة وخصائصها الرُّوحِيَّة ووجوهها النِّيرة مشاهدات وتَجَلِّيات ورؤى ورموزاً ومناسبات لأُمُور عُلوِّيَّة، «فإنَّ الحقائق لا تَبْدُلُ وحقيقة الخيال التَّبْدُلُ في كُلِّ حال والظُّهور في كُلِّ صورة فلا وجود حقيقي لا يَقْبَلُ التَّبْدِيلُ إلَّا اللهُ فما الوجود المُحَقَّقُ إلَّا اللهُ وأما ما سِوَاهُ فهو في الوجود الخياليِّ. وإذا ظهر الحقُّ في هذا الوجود الخياليِّ ما يظهر فيه إلَّا بحسب حقيقته لا بذاته التي لها الوجود الحقيقيُّ ولهذا جاء الحديث الصَّحيح بِتَحْوِيلِهِ في الصُّورِ في تَجَلِّيهِ لعباده وهو قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾^(١) فإنَّه لا يَبْقَى حالة أصلاً في العالم لا كونيَّة ولا إلهيَّة ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢) يريد ذاته إذ وجهه الشَّيء ذاته»^(٣). وقد جاء في الفُصوص أيضاً «وَجْهَ الشَّيء حقيقته»^(٤).

وإذا كانت الأشياء والأُمُور تَحْكُم علينا في إدراكنا لها لم نستغرب هذه الوجوه الرُّوحِيَّة التي يَتَأَوَّلُها هؤلاء الصُّوفيَّة أمام الأشياء المحسوسة والموجودات والألفاظ والمعاني والحركات والسَّكَنَات والأشعار وغيرها في عمليَّتهم الخياليَّة الواسعة. ولا نظنُّ ثَمَّة مذهباً اسْتَنَفَدَ جوانب الفِكر والحسِّ والمعقول والموهوم واللفظ والمعنى والحركة والسُّكون والطَّبِيعِيَّ والمصنوع جميعها في تأييد ما يذهب إليه ويُنَوِّه به مثل هذا المذهب.

وبالإجمال يترك فيلسوفنا للقارئ لَدَّة البحث والتَّنْقِيب والغُوص في بحره العميق. والسَّابِق الغُوص لا شكَّ واصل في الأعماق بعد لأي إلى لآلئ رُوحِيَّة غالبية وجواهر

(١) (٢) سورة القصص ٢٨ : ٨٨.

(٣) الفُتُوحَات، التَّوَرُّع السَّادِس من علوم المعرفة وهو علم الخيال ج ٢ ص ٣١٣ ويبدو في سياق النَّصِّ أنَّ المُؤَلِّف يرجع الضَّمير في وجهه إلى الشَّيء أي كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وجه ذلك الشَّيء. وهو تأويل يذهب إليه الشَّيْخ إلى جانب معنى الآية المُتعارَف الجَلِّيِّ.

(٤) الفُصُص العاشر، حَقَّق الكتاب الأستاذ أبو العُلا عفيفي ص ١١٣.

فِكْرِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ عَالِيَةٌ، تَبَيَّنَ بِالنُّورِ الْمُتَأَلَّقِ الْهَادِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَأَلَى فِكْرِ الْإِنْسَانِ وَجَوَاهِرِ كُنْهِهِ الْعُلَوِيِّ.

حتى القرآن الكريم لم يَخُلْ من نوع من التفسير خاصٍّ يَسْتَنِدُ إلى ما شرحناه من الأصول لا إلى ما تَقَرَّرَ في الشَّرْعِ وعند عُلَمَاءِ الدِّينِ. وليس معنى ذلك أنَّ ما يفهمه هؤلاء غير صحيح. كلا! وإنما معناه أنَّ أولئك الصُّوفِيَّةَ بِالنَّسْبَةِ إلى الطريق الذي سلكوه والدُّوْق الذي بَلَّوْهُ يفهمون ما يفهمونه ويتبادَرُ إلى قلوبهم من المعاني ما يَجْلُوْنَ. لنذكر مثلاً واحداً من ذلك ما جاء في «فصول تأنيس وقواعد تأسيس». نظر الجمال بعين الوصال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾^(١) إيجاز البيان فيه يا مُحَمَّدُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَتَرُوا مَحَبَّتَهُمْ فِيَّ عَنْهُمْ سِوَاءٍ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ بِوَعِيدِكَ الَّذِي أَرْسَلْتُكَ بِهِ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكَلَامِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ غَيْرِي وَأَنْتَ تُنذِرُهُمْ بِخَلْقِي وَهُمْ مَا عَقِلُوهُ وَلَا شَاهِدُوهُ وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِكَ وَقَدْ خَتَمْتُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَمْ أَجْعَلْ فِيهَا مُتَسَعاً لَغَيْرِي وَعَلَى سَمْعِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ كَلَاماً فِي الْعَالَمِ إِلَّا مِنِّي وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ مِنْ بَهَائِي عِنْدَ مُشَاهَدَتِي فَلَا يَبْصُرُونَ سِوَايَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ عِنْدِي أَرَدُّهُمْ بَعْدَ هَذَا الْمَشْهَدِ السَّنِيِّ إِلَى إِذْكَارِكَ وَأَخْجَبُهُمْ عَنِّي كَمَا فَعَلْتُ بِكَ بَعْدَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى قُرْباً أَنْزَلْتُكَ إِلَى مَنْ يَكْذِبُكَ وَيُرِدُّ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَيْهِ مِنِّي فِي وَجْهِكَ وَتَسْمَعُ فِيَّ مَا يَضِيقُ لَه صَدْرُكَ فَأَيْنَ ذَلِكَ الشَّرْحِ الَّذِي شَاهَدْتَهُ فِي إِسْرَائِكَ فَهَكَذَا أَمْنَائِي عَلَى خَلْقِي الَّذِينَ أَخْفَيْتُهُمْ وَمَنْعْتُهُمْ رِضَايَ عَنْهُمْ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا^(٢).

وإذا أردت «بسط ما أَوْجَزْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ» فانظر ما عَقَّبَ بِهِ الْمُؤَلِّفُ عَلَى كَلَامِهِ السَّالِفِ فِي مَوْضِعِهِ تَجَدُّ مَهَارَةٍ عَجِيبَةٍ تَقْلِبُ ظَاهِرَ الْمَعْنَى إِلَى ضِدِّهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَارِفٍ صَوْفِيٍّ لَا يُدْرِكُ إِلَّا مَا هُوَ بِشَأْنِهِ مَشْغُولٌ وَعَلَيْهِ عَاكِفٌ وَفِيهِ مُسْتَعْرِقٌ.

وإذا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَمِنْ الْأُخْرَى فَهْمُ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ فَهْمًا جَدِيدًا يُلَاحِظُ اعْتِبَارَاتِهِمْ. وَلِهَذَا نَجِدُ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَعِنْدَ أَمْثَالِهِ هَذَا التَّأْوِيلَ لَطَائِفَةً مِنَ الْأَشْعَارِ يُبَيِّنُونَ مَعَانِيهَا بِأَنْوَارِ صُوفِيَّةٍ خَاصَّةٍ تُبْرِزُ مَقَاصِدَهُمْ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ التَّأْوِيلَ سَمَاعًا. وَكَأَنَّ هَذَا فَنٌّ خَاصٌّ يَعْتَمِدُونَهُ كَمَا تُعْتَمَدُ الْإِنَارَةُ فِي زَخْرَفَةِ الْمَسَارِحِ الْحَدِيثَةِ وَتَزْيِينِ الْآثَارِ

(١) البقرة ٢: ٦، ٧.

(٢) فتوحات ج ١ ص ١١٥.

الشَّاحِصَة. ولا بدَّ من ذكر بعض الأمثلة. جاء في «مُحَاضَرَات الأبرار ومُسامرات الأخيار» لابن عربيّ قوله: «ومن سَماعنا في نسب مَهار حيث يقول:

هَبَّتْ بِأَشْوَاقِكَ نَجْدِيَّةً مُطْمَعَةً أَنْتَ لَهَا وَاجِبٌ
مَا أَنْتَ يَا قَلْبَ وَأَهْلَ الْجَمَى وَإِنَّمَا هُمْ أَمْسُكَ الدَّاهِبِ
فَارْدُدْ عَلَى الرِّيحِ أَحَادِيثَهَا ففِي صَبَاهَا نَاقِلُ كَاذِبِ
وَدُونَ نَجْدٍ وَظِبَاءِ الْجَمَى أَنْ يَقْرِحَ الْمَنَسِيمَ وَالْغَارِبِ

السَّماع في ذلك يقولُ يا أَيُّهَا الْمُحِبُّ العارف هَبَّتْ بِأَشْوَاقِكَ أَنْفَاسُ مُتَصَاعِدَةٍ تَطْمَعُ في أمر هي دونه، ألا تراه قال يا قلبي يقول أنت في مقام التَّغْلِبِ والتَّكْلُوبِ وأهل الجَمَى في مقام الثُّبُوتِ وهما ضِدَّانِ فلا يجتمعان كما لا يرجع أَمْسُ أَبَدًا، وقد نَبَّهَ على كَلِبِ الأَحْوالِ بما ذَكَرَ عن الرِّيحِ بسببِ الباعثِ لهُبُوبِها ثُمَّ قال ودون نَجْدٍ الذي هو النَّظَرُ الأعلى وظِبَاءِ الجَمَى الأرواحُ العُلُويَّةُ يَقْرِحُ أي يَدْمِي الخُفَّ والسَّنام من طول السَّير وحمل الأثقالِ شَبَّهَها بِالإِبِلِ ثُمَّ لا وصول يقولُ إِنَّها موهوبة لا مكسوبة فلا تعمل لها»^(١).

وكذلك جاء في الكتاب نفسه «ومن سَماع أهل الله على قول ابن الدُّمينة:

أَمَّا وَالرَّاقِصَاتِ بَذَاتِ عِرْقٍ وَمَنْ صَلَّى بَنَعْمَانَ الْأَرَاكِ
لَقَدْ أَضْمَرْتُ حَبَّكَ فِي فَوَادِي وَمَا أَضْمَرْتُ حَبًّا مِنْ سِوَاكِ

سَماعهم في الرَّاقِصَاتِ التي هي الإِبِلُ هم العارفون وذات عِرْقِ انبعاثها من أصلِ صحيح ومن صَلَّى بَنَعْمَانَ الْأَرَاكِ مَنْ طَلَبَ الْوِصَالَ لِيَسْتَعِمَّ بِالرُّؤْيَا، والبيت الثاني على أصله فَإِنَّهُ مُتَوَجِّهٌ»^(٢).

بل أصبح هذا التَّأْوِيلُ فَنًّا حَقًّا، وقد اضْطَنَّعه الشَّيْخُ الأكبر حين شرح شعره «تَرْجَمَانِ الْأَشْوَاقِ» في «ذخائر الأعلاق». وسار على نَهْجِهِ بعد أَمَدٍ الشَّيْخُ عبد الغني النَّابِلِسيّ حين أَلَفَ كتابه «كشف السِّرِّ الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» فَأَوَّلَ شعر ابن الفارض

(١) سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م، ج ١ ص ٩٣، ٩٤.

وفي الأصل أن تقرح السَّنام، وفي الدِّيوان: أن يقرع المَنَسِيمَ والغارب.

(٢) المَرَجِعُ نفسه ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ والنَّصُّ صحيح والضَّمير في «انبعاثها» راجع إلى الرَّاقِصَاتِ. ويجوز أن يكون الأصل «هَمَّ العارفين» وحيثُ يَرْجِعُ الضَّمير إلى الرَّاقِصَاتِ أو إلى الهَمِّ ولفظ الهَمَّةُ كثير الورد في كلام الشَّيْخِ.

أما البيتان المنسوبان إلى ابن الدُّمينة فانظرهما في ديوان هذا الشاعر الذي ظهر بتَحْقِيقِ الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاس ص ١٨٢، وكذلك تخريجهما ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

تأويلاً خاصاً جعل من أكثره رمزاً «موضوعياً»، لا رمزاً «ذاتياً» على النحو الذي شرحناه. بل عمد أبو العباس أحمد بن عجيبة فشرح «متن الأجرؤمية» شرحاً صوفياً زيادة على الشرح التحويلي^(١). فلم يقتصر الرمز عند هؤلاء الصوفية على أن يبرز ماثلاً في الشعر الذي ينظمونه ولا في النثر الذي يكتبونه، بل في الشعر والنثر اللذين يقرؤونهما ولو كانت أغراضهما لا تتصل بالتصوف، بله جميع الأشياء والصور والمعاني التي يزخر بها الكون.

وهكذا نرى أن الحب والمعرفة الإلهيين قد مسّا مُشتبكين كل ما هيّة فنلدا منها وجعلها جميلة نقيّة برّاقة حتى بدا الكون أجمع شفافاً في بصر العارف العاشق لا كثافة فيه ولا ظلمة ولا كدورة. وهما قد خلعا على الأجواء صفاء شديداً حتى لاحت الأشياء التي تقف الأبصار عليها وكأنما تخرج من تلك الأجواء وتصدّر عنها وتكملها بدلاً من أن تحجبها أو تقطعها^(٢).

وقد نهج تلاميذ ابن عربي والمُتأثرون بفلسفته على غرارهِ من فلاسفة وصوفية وشعراء ومؤلفين في غضون العصور التالية على الرغم من مُنكري هذا الاتجاه من أئمة المسلمين المُنذرين به الزّارين عليه الغُيُورين على ظاهر الشرع. وحسبنا الآن بعد إذ

(١) انظر تجريد شرح الشيخ ابن عجيبة الصوفي لعبد القادر بن أحمد الكوهني.

(٢) أحب أن أشير هنا في نهاية هذا البحث إلى أن الصوفية كانوا شجعاناً ومُحاربين.

ولقد جاء في وصايا ابن عربي للمُريد في «مواقع التّجّوم»: «وأتبث يوم الزّحف» ص ١٣١. وورد في كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» حين تحدّث مؤلفه المراكشي عن ملك المُوحّدين أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بعد وقعة الأرك التي كانت اختاً لمعركة الزّلاقة وهي التي وقعت في مُدّة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قباء الأسبانيون فيهما بهزيمة شديدة مُنكّرة ما يلي: «ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة ٩٢ (أي ٥٩٢) وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى (وقعة الأرك) التي أذلّ الله فيها الأدفنش وجموعه وأعزّ الإسلام وأنصاره كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصّالحين والمُتّمين إلى الخير وحملهم إليه، فاجتمع له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلّما سار بين يديه. فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء، ويُشير إلى العسكر، فكان في ذلك شبيهاً بما حكّي عن قتيبة بن مسلم والي خراسان حين لقي التّرك وكان في جيشه أبو عبد الله بن واسع، فجعل يُكثر السّؤال عنه فأخبر أنّه في ناحية على الجيش مُتّكناً على سيّة قوسه رافعاً إصبه إلى السّماء يفضض بها، فقال قتيبة: لأصبعه تلك أحبّ إليّ من عشرة آلاف سيف. ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة، فقبل منهم من رأى القبول، وردّ من رأى الرّد، فتساوى عنده رضي الله عنه الفريقان، وقال: لكلّ مذهب، ولم يزد هؤلاء رُدّه ولا نقص أولئك قبولهم» ص ٢٨٦.

وقصّة قتيبة بن مسلم مع محمّد بن واسع مذكورة في «البيان والتّبيين» مع بعض الاختلاف في العبارة، تحقيق عبد السّلام هارون سنة ١٩٤٩ ج ٣ ص ٢٧٣.

أَوْضَحْنَا دَعَائِمَ التَّفَكِيرِ الرَّمْزِيِّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيٍّ أَنْ تَذَكَّرَ بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ الْمُوجِزَةِ عَلَى ذَلِكَ لَتَبَيَّنَ شَأْنَ هَذَا الْمَذْهَبِ فِي الشُّعْرِ.

فَمِنْ أَكْبَرِ شُعْرَاءِ التَّصَوُّفِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَفِيفُ الدِّينِ التَّلْمَسَانِيُّ ١٢٩١/٦٩٠ - ١٢٩١/٦٩٠. وَشِعْرُهُ الْجَمِيلُ يَذْكُرُ الصُّوفِيَّةَ أَبْيَانًا مِنْهُ وَقِطْعًا فِي كُتُبِهِمْ. وَلَا بَدَّ لَنَا هُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ النَّثْرَ الصُّوفِيَّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ مَا كَتَبَهُ الشَّيْخُ مُحِبِّي الدِّينِ يَعْلَمُونَ بِكَثِيرٍ عَلَى الشُّعْرِ الصُّوفِيِّ فِيهَا.

والتَّلْمَسَانِيُّ وَالِدُ الشَّابِّ الظَّرِيفِ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُجِيدِينَ حَقًّا فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، يَقُولُ هَذَا الشَّاعِرُ:

مَنْعَتُهَا الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ	أَنْ تُسْرَى دُونَ بُرْقُعِ أَسْمَاءِ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشِعْرِهَا وَهِيَ مِنْهَا	وَهَدَّيْنَا بِهَا لَهَا الْأَضْوَاءِ
كَيْفَ يَنْشَأُ مِنَ الظُّلِّ نَشَاكِي	يَا لِقُومِي وَفِي الرَّحَالِ الْمَاءِ
كَمْ بَكِينًا حُزْنًا بِمَنْ لَوْ عَرَفْنَا	كَانَ مِنْ شِدَّةِ الشُّرُورِ الْبُكَاءِ
نَحْنُ قَوْمٌ مِثْلًا وَذَلِكَ فَرَضُ	فِي هَوَاهَا فَلْيَسَّ الْأَخْيَاءِ..

ثُمَّ يُنْهِِي الْأَبْيَاتَ بِوَصْفِ الْخَمْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ:

لَا تَنْقُتُكَ الْكَأْسُ الَّتِي مِنْ لَمَاهَا	هِيَ فِيهَا تَنَافَسُ التُّدْمَاءِ
لَمْ أَقْلَ قَدْ دَعَيْتُكَ كَأْسُكَ لَكِنْ	رَبِّمَا طَوَّحْتُ بِكَ الصُّهْبَاءِ
إِنَّمَا يَشْرَبُ الَّتِي تَشْرَبُ الْعَقْدَ	لِ نَدَامِي هُمُورِ لَهَا أَكْفَاءِ
أَشْكُرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَشْكُرْتَهُمْ	فِي ابْتِدَاءِ بِهَا فَتَمَّ الْوَفَاءِ
فَجَزَاءُ مِنْهُمْ وَمِنْهَا وَفَاقُ	وَوِفَاقُ مِنْهُمْ وَمِنْهَا جَزَاءِ
قَدْ تَسَمَّيْتُ بِهِمْ وَلَيْسُوا سِوَاهَا	فَالْمُسَمَّى أَوْلَتْكَ الْأَسْمَاءِ

وَلَقَدْ تَغَنَّى هَذَا الشَّاعِرُ «الْكُومِي» بِالْجَمَالِ الْعَرَبِيِّ وَالْعَادَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَمْكِنَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَشْعَارِهِ فِي جَوْ مِنْ الْإِجْلَالِ عَظِيمٍ إِشَارَةً إِلَى الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَنَزِّلَةِ عَلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ.

هَذَا الْمُصَلَّى وَهَذِهِ الْكُتُبُ	لِمَثَلِ هَذَا يَهْزُنَا الطَّرَبُ
فَالْحَيُّ قَدْ شَرَعَتْ مَضَارِبُهُ	وَحُسْنُهُ عَنْهُ زَالَتْ الْحُجُبُ
فَكُلُّ صَبِّ صَبَا لِسَاكِنِهِ	يَسْجُدُ شَوْقًا لَهُ وَيَقْتَرِبُ
أَنْخُ مَطَايَاكَ دُونَ رَبِّعِهِمْ	كَيْلَا تَطَاكَ الرَّحَالُ وَالنُّجُبُ
مَارُجٌ قِرَاهِمُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ	فَأَنْتَ ضَيْفٌ لَهُمْ وَهُمْ عَرَبُ

يَشْفَعُ فِيكَ الْخُضُوعُ وَالْأَدَبُ
يَسْجُدُ شَوْقاً لَهُمْ وَيَقْتَرِبُ
أَسْرَارَ وَجَدَ حَدِيثَهَا عَجَبُ
مَنْ أَيْنَ هَذَا الْإِخَاءُ وَالنَّسَبُ
كُتِبَ غِرَامِي وَمَنْكُمُ الْكُتُبُ
صِرْفاً وَأَصْحُو بِهَا فَمَا السَّبَبُ
ذَاتِي وَمَنْ أَدْمَعِي لَهَا الْحَبَبُ
عَزَبَ قَوْمُ بِهَا وَمَا شَرِبُوا
وَأَنْ غَدَتْ فِي الْكَؤُوسِ تَلْتَهَبُ
بِاسْمِ التِّي بِي عَلَيَّ تَحْتَجِبُ

وَاشَعَ عَلَى الرَّأْسِ خَاضِعاً فَعَسَى
«وَاسْجُدْ» لَهُمْ «وَاقْتَرِبْ» فَعَاشِقُهُمْ
عِنْدِي لَكُمْ يَا أَهْنِلْ كَظْمَةَ
أَرَى بِكُمْ خَاطِرِي يُلَاحِظُنِي
وَأَنْ تَشَوُّوْكُمْ بَعَثْتُ لَكُمْ
وَأَشْرَبَ الرِّاحَ حِينَ أَشْرَبَهَا
خَمَرَتَهَا مِنْ دَمِي وَعَاصَرَهَا
إِنْ كُنْتُ أَصْحُو بِشْرِبِهَا فَلَقَدْ
هِيَ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ فِي خَلْدِي
فَقَنْ لِي إِنْ سُقِيتُ يَا أَمْلِي

ويقول في قصيدة أخرى:

وَحُلَّ حِلَّتَهُمْ تَسَعَّدَ فَهْمُ عَرَبٍ تَحْمِي النَّزِيلِ وَلَا يُؤْذِي لَهُمْ جَارُ..

وما إلى ذلك. ولكنَّ العفيف التُّلَمْسَانِيَّ اخْتَصَّ بِوَصْفِ الْخَمْرِ.

ولقد أشرنا في مواضع سالفة إلى قصيدة ابن الفارض الخمرية الرمزية. بيد أن أشعار العفيف تبدو لنا كأنها حانات خمار تتفاح منها رائحة الخمر وتتألق ألوانها وتميس سقاتها، حتى لكان الأكوان كلها سكرى:

يُؤْجِّجُ فِي الْحَشَا نَارَا
أَوْطَاناً وَأَوْطَارَا
عَلَيَّ هَوَاهُمْ جَارَا
بِئَانٍ لِلْمُشْتِاقِ أَخْبَارَا
خِلْتُ شَذَاهُ خَمَارَا

مُحِبُّ مَاءِ أَدْمَعِهِ
تَذَكَّرَ بِالْحِمَى النَّجْدِيَّ
وَلَسِي بِبِالْحَيِّ جِيرَانِ
رَوَى عَنْهُمْ نَسِيمَ الدَّ
فَلَمَّا أَسْكُرَا الْأَكْوَانِ

وإذا كان الانتشاء من الهوى فكيف الصُّخْرُ؟

فِيهِمَا عَهْدُكَ الْقَدِيمَ خَبِيتَ
كَيْفَ أَصْحُو وَمَنْ هَوَاكَ انْتَشِيتَ
وَبَسَاطَ الْقَبُولِ عَنْهُمْ طَوَّيْتُ
يَا مَنَى النَّفْسِ وَهُوَ فِي الْحَيِّ مَيِّتَ
فَلْقَلْبِي الْهَنَا فَلْنِي اهْتَدَيْتَ
وَبَدَا بِأَرِقِ الصَّفَا فَسَعَيْتَ

لَكَ طَرْفِي حِمَى وَقَلْبِي بَيْتَ
وَمَنْ الشُّكْرِ مَا صَحُوتُ وَكَلَّا
بَسَطَ الْعَاذِلُونَ فِيكَ مَلَامِي
كَيْفَ يَنْوِي السُّلُوءَ عَنْكَ الْمُعْنَى
وَضَلَالٍ عَنْ مِثْلِ حَسَنِكَ صَبْرِي
بِكَ يَا كَعْبَةَ الْهَوَى طَافَ قَلْبِي

والوصال أعجب!

يا بديع الجمال فاز مُحِبُّ بلذيذ الوصال منك تَهَّأ
كيف يَرجو الوصال وهو مع الهَجْ - ر قَتِيل وحين لُقياك يَفْنَى

ولو صَحَا الشَّكارى بعد إذ شَرَبُوا ما يكفي بعضه لإسكار الشُّكر نفسه لَمَّا صَحَا
شاعرنا:

تصحو الشَّكارى ولا أصحو ظمأً بكم ويسكر الشُّكر من بعض الذي شربوا
ولا حاجة للكلام مع «نواسي» الصُّوفية. فكلُّ قد اختار سبيله ومسكنه ولو في ظاهر
التَّعبير:

دعني أدعك مع الجئات تسكنها إني سَكنْتُ مع الصَّهباء في النَّار
ولقد أَكثَرْنَا بعض الشَّيء في إيراد أشعار العفيف لأنَّ ديوانه كان غير مطبوع ولكي
نشير إلى بعض المعالم الصُّوفية المحجوبة بغياب الزَّمان والشَّيان.

ويختلف الصُّوفية الجارون في هذا المضمار بعد ابن عربي في مقدار اعتمادهم على
النَّثر وعلى الشُّعر. ولا شك أن عبد الكريم الجيلي (١٣٦٥/٧٦٧ - ١٤٢٣/٨٢٦) زاول
الشُّعر ولكنَّ شعره أقلُّ قيمة من نثره في كتابه القويَّ المشهور «الإنسان الكامل».

وليست غایتنا أن نتَّبِع الشُّعر الصُّوفيَّ في خلال العُصور المتأخِّرة فذلك لا يتَّسع
المجال له. ولكنَّا نريد أن نُشير إلى استمرار أثر الشَّيخ الأكبر في شعراء الصُّوفية وعُلمائهم
المتأخِّرين حتى عهد قريب.

ولا شك أن الشَّيخ عبد الغني النَّابلسي (١٦٤١/١٠٥٠ - ١٧٣١/١١٤٣) من أكبر
المتأخِّرين الذين تداوَلوا أفكار مؤلِّف «الفتوحات» في تأليفهم وأشعارهم:

أَجْهَلْتُ قَدْرَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَان أَنْتَ الْجَمِيعُ وَبَعْضُكَ الْأَكْوَانُ
وَالْثُّورُ وَالظُّلُمَاتُ أَنْتَ حَقِيقَةُ وَسَوَى كَمَالِكَ كُلُّهُ نُقْصَانُ
يَكْفِيكَ أَنَّ الْحَقَّ سَمِعَكَ قَدْ غَدَا وَبَدَأَ رَجُلًا فِيكَ وَهُوَ عِيَانُ
وَالْكُونُ أَجْمَعُهُ لِأَجْلِكَ خَادِمُ يَسْعَى وَأَنْتَ الْمَالِكُ السُّلْطَانُ
فَإِذَا انْتَهَيْتَ لَبَسْتَ ثَوْبَ سَعَادَةٍ وَإِذَا غَفَلْتَ فَتَوْبُكَ الْخُسْرَانُ
وَلَطِيفُكَ الْجَيَّاتُ أَنْتَ مُنْعَمٌ فِيهَا غَدَا وَكَثِيفُكَ النَّيْرَانُ
انزِعْ ثِيَابَكَ عَنْكَ وَابْقَ بغيرها تَعْرِفُ مَقَامَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

ولا بدّ أن يجري هذا الشَّيخ على نهج السَّابِقين فيتداول الخمر رمزاً:

هي قامت بنفسها لذويها ليس في كأسها ولا الكأس فيها
خَمرة تُذهب العقول وتُفني كلُّ شيء لكلِّ من يجتليها
هاتها يا نديم وأترك سواها فسواها هي التي نغنيها . .

وكذلك الشَّيخ عمر اليافي (١١٧٣/١٧٥٩ - ١٢٣٣/١٨١٨) في أشعاره وموشحاته
الغنائية لمحات بَرّاقة من سنا الشَّيخ الأكبر، وهو يقول:

حقيقة الحق لا تُعدُّ وباطن الأمر لا يُحدُّ
سواه فينا بدا بُحسن ف قيل: حَسْناً، وقيل: دَعْد
وقيل: ميّ، وقيل: بُنى وقيل: سُعدى، وقيل: هند
بطونه في الخفا ظهور وقُربّه في العيان بُعد
فاطرب على هذه المعاني واشرب عليها فَنغمَ وزد

ولقد تغنّى بعض المشايخ بمحاسن الأصداف النَّسوتية خاصّة وهم يُضمِّرون المعاني
اللاهوتية. ولعلَّ الشَّيخ أمين الجندي (١١٨٠/١٧٦٦ - ١٢٥٧/١٨٤١) من أرقّ المشايخ
الشُّعراء في العصر السَّالف. وله أناشيد تفيض عُذوبة وتزخر بالصُّور الحسيّة. وهذه قطعة
من أنشودة له ساحرة:

إنّ أعمست ليلايا بالقرب يا بُشرايا
شمس إلى الأقدار تُهدي سنا الأنوار
يا نسمّة الأسحار بُني لها شكوايا
سَلت على العشاق سيفاً من الأخداق
لا تُنكِروا أشواقِي فيها ولا بَلوايا
ضامات عُقود النحر على لجّين الصّدر
يا حُسنه من خصر دارث به يُمنيايا

أمثال هذه الأشعار الكثيرة التي تداولتها ألوف الألسنة وبَضَتْ بها ألوف القلوب في
غُضون الأحقاب المتطاولة لا تنجلي دلالاتها ولا تتضح معانيها إلّا بالرجوع إلى فلسفة ابن
عربي الصُّوفيّة وتفهُّم عناصرها الفكريّة والرمزيّة. ونعتقد أنّنا لم نخرج عن مَحجّة
المَوْضوع ولا تنكّبنا عن حُسن العَرَض حين جَلّونا دعائمها الفكريّة وأصولها الرّمزيّة آنفاً،
وبذلك مَسَحْنَا بعض الغموض عن مذهب كبير رمزيّ في الشعر العربيّ.

* * *

إنَّ السَّائِحَ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ الْمَوْطِنُ الْأَوَّلُ لِابْنِ عَرَبِيٍّ، وَيَزُورُ الْآثَارَ الْعَرَبِيَّةَ الْقَلِيلَةَ الشَّائِضَةَ الْبَاقِيَّةَ فِي رُبُوعِهِ الْجَمِيلَةِ لَيَرُوعَهُ أَكْثَرُ مَا يَرُوعُهُ صِنْعَةُ الْمُحَرَّابِ الْفَنِّيَّةِ فِي مَسْجِدِ قَرْطُبَةَ الْعَظِيمِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ زَخْرَفَةٍ وَإِبْدَاعٍ لَا يُمَكِّنُ لِلدَّهْرِ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا مَرَّةً ثَانِيَةً. وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَعْجَبُ لِهَذَا التَّرَفِّ الْفَنِّيِّ الْبَارِعِ الرَّائِعِ فِي بَيْتٍ مِنْ بِيُوتِ اللَّهِ.

وَلَكِنْ هَذِهِ الْبِرَاعَةُ الْفَنِّيَّةُ الْآبِدَةُ فِي مِخْرَابِ مَسْجِدِ قَرْطُبَةَ لَيْسَتْ إِلَّا أَثَرًا مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْبِرَاعَةِ الْعَجِيبَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي خَلَّدَ الْعَرَبُ بِهَا أَنْفُسَهُمْ فِي مَجَالِ الْفِكْرِ وَالْكِتَابَةِ وَحَقُولِ الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ فِي غُضُونِ حَضَارَتِهِمُ الزَّاهِيَّةِ، فَأَنْبَتُوا مِنْ أَزَاهِيرِ الْفَنِّ وَرِيَّاحِينَ الْمَعْرِفَةِ وَثَمَرَاتِ الْقَرَائِحِ مَا هُوَ عُنْوَانُ مَجْدٍ تَلِيدٍ فِي جَبِينِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

الْأَزْهَارَ وَالرِّيَاحِينَ وَالْبُقُولَ وَالْفَاكِهَةَ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلٌّ مِنْهُ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٩].

قد يَأْلَف المرء الأمور التي يُزاولها ويعتاد الأشياء التي يستعملها وينقاد للظواهر التي يعيش بينها منذ نُعمه سِنَّه وَغَضَارَة صباه حتى يَقْل انتباهه لجمالها المُمْتع وأشكالها البديعة وخطوطها المُنْتَسِبة وألوانها المُوْتَلِفَة والمختلفة وحتى يَغْفُل عَمَّا تُوحي به من مشاعر وعواطف أولى أصيلة، وهكذا تَحْجُب الألفَة والعادة والانقياد ما في تلك الأمور والأشياء والظواهر من مزايا بديعة وصفات جميلة وما يَتَّصِلُ بها من مُتَع فَنِيَّة فيَغِيض من جَرَاء ذلك في نفس الإنسان ينبوع طبعيٍّ من ينابيع السَّعادة الفَيَّاضَة وَيَنْضُب مَعِين ثُرٌّ للبهجة الدَّائمة المُتجدِّدة المُتَّاحَة آفاقها للنَّاس جميعاً، لأنَّ زحمة العمل ودَّأب الأشغال وإلحاح المنافع المَعاشيَّة التي يسعى المرء لاجتلابها أو جمعها وغيرها من حاجات الحياة اليوميَّة كلُّ ذلك يُغْشِي تلك المُتَع بغشاوات كثيفة فلا يُبصرها النَّاس ولا يَتَبَصَّرُونها. وقد يوجد أناس لهم أبصار ولكن لا يكادون يُبصرون بها وحواسُّ ولكن لا يَدْرِكُون بها وبصائر ولكنَّها صَدَّتْ بِإِلْحَاح المَآرِب الضَّروريَّة.

ويأتي الفنُّ الذي هو من أعلى ثمرات الفِكر الإنسانيِّ وأغلاها لِيُزِيل عن الأبصار تلك الغشاوات ويرفع عن الحواسِّ تلك القيود المُثْقَلَة في إدراكها جمال الأشياء وَيَغْسِل الصَّدَأَ وَالْوَضْر اللَّذَيْنِ رانا على البصائر والثُّفوس إزاء الظَّواهر البديعة فهو يَجْلُو وجه الدُّنيا وَيَحْسِر عن مجاليتها ومفاتها مرَّة جديدة كما يفعل الغَيْث الجَوْد في الجوّ المُمْتَلئ غباراً فتزهي تلك الأشياء به نضرة وَغَضَارَة تُمتِعان الإحساس والقلب. إنَّه يُجَدِّد وجه الدُّنيا أمام أبصار النَّاس، ويُنْذِي بصائرهم تَلْقَاءه.

وَيَتَدَخَّلُ الْفَنُّ أَيْضاً بَيْنَنَا وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عَرَفْنَاهَا وَاعْتَدْنَاهَا وَفَقَدْنَا الْإِتِّبَاهَ لِمَحَاسِنِهَا فَيُعَلِّمُنَا كَيْفَ نَنْظُرُ نَظْراً جَدِيداً إِلَيْهَا حَتَّى كَأَنَّا نَرَاهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَكَيْفَ نُدْرِكُ تِلْكَ الْأَشْكَالَ وَالْأَلْوَانَ وَالطُّعُومَ وَالْأَشْدَاءَ وَالسُّطُوحَ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ إِدْرَاكاً مُتَرَعِّياً بِالْبَهْجَةِ حَافِلاً بِالسَّعَادَةِ حِينَ يَثِيرُهُ شِعَاعٌ مِنْ شَمْسِ الْحَاسَةِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي لَا تَغْرُبُ.

وَمِنْ هَذَا تَبَرُّزُ مَكَانَةِ التَّرْبِيَةِ الْفَنِّيَّةِ الْقَوِيْمَةِ فِي نَفُوسِ النَّاشِئَةِ وَالْأَطْفَالِ إِذَا أُحْسِنَ تَعَهُدُهَا وَأُجِيدَ تَوَجُّيْهَا فَتُخْتِثُ النَّفُوسُ عَلَى كُنُوزٍ مِنَ الْمَشَاعِرِ وَالْإِدْرَاكَاتِ الْفَنِّيَّةِ وَأَعْدَقَتْ عَلَيْهَا ثَرَاءً مِعْطَاءً مُتَمَعّاً شَهِيّاً غَنِيّاً بِالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالْعُطُورِ وَالطُّيُوفِ وَرَخَايَةِ الْأَصْوَاتِ وَنَعِيمِ الْحَسَنِ وَغِبْطَةِ الْحُسْنِ وَبَهْجَةِ الْإِبْتِكَارَاتِ الرَّوْحِيَّةِ.

إِنَّ الْأُمُورَ وَالْأَشْيَاءَ وَالظُّوَاهِرَ الطَّبِيعِيَّةَ تَتَسَاوَى مَبْدِئِيّاً فِي نَظَرِ الْفَنِّ.

ذَكَرْنَا آنِفاً تَفْرِيقَ «كَنتَ» بَيْنَ جَمَالِ الطَّبِيعَةِ وَجَمَالِ الْفَنِّ حِينَ يَقُولُ: «الْفَنُّ لَيْسَ تَمَثِيلاً لَشَيْءٍ جَمِيلٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَمَثِيلٌ جَمِيلٌ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ». وَلَكِنَّ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ تُرْوَحِي مِنْ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَصِفَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ إِلَى نَفْسِ الْفَنَّانِ بِمَشَاعِرٍ جَدِيدَةٍ أَوْ خَاصَّةٍ. وَلَيْسَ الْفَنُّ إِلَّا الشَّكْلُ الرَّوْحِيُّ التَّعْبِيرِيُّ لَفَرْحٍ تَوَلَّدَ تِلْكَ الْمَشَاعِرُ. وَبِمَقْدَارِ قُوَّةِ الْإِيْحَاءِ الَّتِي لَتِلْكَ الْأَشْيَاءِ وَشِدَّةِ الْإِلْهَامِ الْمُتَّصِلِ بِتِلْكَ الْمَشَاعِرِ فِي نَفْسِ الْفَنَّانِ يَنْفَسِحُ مَجَالُ الْفَنِّ لِقُوَّةِ التَّعْبِيرِ وَمَهَارَةِ التَّصْوِيرِ وَسَعَةِ الْخَيَالِ وَبِرَاعَةِ الْأَدَاءِ وَجَمَالِهِ. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَثَرُ الثَّرَاثِ الْفَنِّيِّ الْمُتَدَاوِلِ وَخُصُوصِيَّةِ الْفَنِّ الْمُتَّبِعِ لِلتَّعْبِيرِ هَلْ هُوَ أَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ أَوْ خُطُوطٌ وَأَلْوَانٌ أَوْ أَصْوَاتٌ وَأَنْغَامٌ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ طَبِيعَةَ الْفَنِّ الْمُعْتَمَدِ.

وَمَعَ تَسَاوِيِ الْأَشْيَاءِ وَالْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي نَظَرِ الْفَنِّ أَصْلاً اخْتَلَفَتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ وَالظُّوَاهِرُ فِي غِنَى إِيْحَائِهَا وَانْسِجَامِ صِفَاتِهَا وَطَرِافَةِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَطَوَاعِيَةِ كُلِّ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ لَفَنٍّ أَكْثَرَ مِنْ فَنٍّ آخَرَ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالرِّيَّاحِينَ وَالْبُقُولَ وَالْفَاكِهَةَ مِنْ أَجْمَلِ الْأَشْيَاءِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي دَاعَبَتْ مَلَكَاتِ الْفَنَّانِينَ وَاسْتَهْوَتْ مَشَاعِرَهُمْ وَأَوْحَتْ إِلَيْهِمْ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي وَالْعَوَاطِفِ وَالْأَفْكَارِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِ الْفَنُونِ وَتَفَاوُتِ سَائِلِهَا.

إِنَّ أَقْرَبَ الْفَنُونِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ النَّبَاتِ وَأَشْكَالِهِ وَأَزْهَارِهِ وَثَمَرَاتِهِ الْفَنُونُ التَّشْكِيلِيَّةُ بِوَجْهِ عَامٍّ كَالرَّسْمِ وَالتَّصْوِيرِ وَالزُّخْرُفَةِ وَالتَّخْتِ. وَالَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ أَصُولِ الْفَنِّ وَيَجِدُونَهَا فِي السَّحَرِ يَعْرِفُونَ أَنَّ السَّاحِرَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكْثِرَ طَرِيدَةً مِنْ طَرَائِدِ الْحَيَوَانِ الَّتِي تَنْفَعُهُ أَوْ ثَمَرَةً مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي تُفِيدُهُ يَرْسُمُهَا، لِأَنَّ مُجَرَّدَ رَسْمِهَا يَكْفِي بِاعْتِقَادِ الْإِنْسَانِ الْبَدَائِيِّ لِمُتَدَاعٍ كَثَرَتْهَا وَوَفَّرَتْهَا. وَلِذَلِكَ لَا نَسْتَغْرِبُ أَنْ تَكُونَ صُورُ الْحَيَوَانِ وَالتَّيَاتِ مِنْ أَقْدَمِ الصُّوَرِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْفَنُّ وَتَدَاوَلَهَا الْفَنَّانُونَ.

ثُمَّ إِنَّ الطَّيِّعَةَ بِمَجَالِهَا الْمُخْتَلَفَةِ وَزَخَارِفِهَا الْمُتَفَاوِتَةِ وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا اسْتَرْعَتْ رَغْبَةَ الْإِنْسَانَ وَرَهْبَتَهُ وَتَقْدِيسَهُ وَاحْتِرَامَهُ وَلَا سَيِّمًا أَنَّ تِلْكَ الطَّيِّعَةَ مَصْدَرُ الْخَيْرَاتِ وَهِيَ أُمُّ الْإِنْسَانِ تَحْنُو عَلَيْهِ وَمَثْوَى آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ فَيَنْقَلُ إِلَيْهَا مَا يُكِنُّ لَهُمْ مِنْ وَرَعٍ وَخُشُوعٍ وَتَعَلُّقٍ وَعِبَادَةٍ. وَلِلذَلِكَ كُلُّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَأْثِرَ الْعَالَمُ النَّبَاتِيُّ بِانْتِبَاهِ الْإِنْسَانِ وَيَسْتَهْوِي الْجَمَالَ النَّبَاتِيَّ حَاسَتَهُ الْفَنِّيَّةَ.

وَلَسْنَا هُنَا فِي سَبِيلِ التَّنْقِيبِ عَنْ أَصُولِ الْفَنِّ فَنَجِدُهَا فِي السَّحَرِ أَوْ فِي الْعِبَادَةِ وَالذِّينِ أَوْ فِي ظَوَاهِرِ الطَّيِّعَةِ الْمُرهِّبَةِ وَالْمُرْغِبَةِ أَوْ فِي الْعَمَلِ وَالْاِقْتِصَادِ أَوْ فِي الْحَرْبِ أَوْ فِي اللَّعِبِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ كَمَا أَفَاضَ عُلَمَاءُ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّ الْفَنَّ عِنْدَمَا يَكُونُ مُتَّصِلًا بِتِلْكَ الْأُمُورِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي حَالَةِ سَدِيمِيَّةٍ أَوْ فِي عَمَاءٍ فَهُوَ يَخْتَلِطُ بِجَوَانِبِ الْحَيَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ اخْتِلَاطًا شَدِيدًا حَتَّى إِنَّكَ لَتَجِدُهُ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْهَا، وَبِذَلِكَ تَكَادُ مِنْ وَجْهِ مُقَابِلٍ لَا تَجِدُهُ مُسْتَقِلًّا أَوْ مُتَرَكِّزًا فِي أَيِّ وَاحِدٍ مِنْهَا.

لَا بَدَّ فِي ازْدِهَارِ الْفَنِّ وَتَقَدُّمِهِ مِنْ تَقَدُّمِ الْحَيَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ حَتَّى إِذَا صَنَعَ الْفَنَّانُ أَثْرًا فَنِّيًّا مُمْتِعًا أَرَادَهُ خَاصَّةً لِتِلْكَ الصَّبِيغَةِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلِلذَلِكَ الْاِنْسِجَامُ الضَّمْنِي الَّذِي سَعَى إِلَى أَدَائِهِ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا. وَلَقَدْ اعْتَمَدَتِ الْحَضَارَاتُ الْقَدِيمَةُ عَلَى النَّبَاتِ وَاعْتَبَرَتْهُ عُنْصَرًا زُخْرَفِيًّا فِي جَوَانِبِ شَيْءٍ مِنْ فَنُونِهَا. وَنَحْبُ هُنَا أَنْ نَشِيرَ بِوَجْهِ خَاصٍّ إِلَى الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَيَكْفِي أَنْ نَزُورَ الْمَتْحَفَ الْوَطَنِيَّ بِدَمَشْقٍ وَنَطُوفَ حَوْلَ بَعْضِ الْأَثَارِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَتَّى نَنْتَبِهَ لِمَدَى اِهْتِمَامِ الْفَنَّانِينَ الْعَرَبِ بِالزُّخْرَفَةِ الْمُعْتَمِدَةِ عَلَى الْعُنَاصِرِ النَّبَاتِيَّةِ مِنْ أَغْصَانِ تُزَيُّنِهَا أَوْرَاقٍ وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْأَعْنَابِ وَأَوْرَاقِ الْكُرُومِ خَاصَّةً كَمَا يَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ قَصْرُ الْحِيرِ الَّذِي أَمَرَ بِنَائِهِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَلَقَدْ ذَكَرْنَا فِي صَدْرِ الْكِتَابِ رِشَاقَةَ الزُّخْرَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي اتَّسَعَتْ اتِّسَاعًا كَبِيرًا لَا مِثِيلَ لَهُ وَمَسَّتْ بِأَنَامِلِهَا السُّحْرِيَّةِ الْبَدِيعَةِ وَرِيشَاتِهَا الْخَلَابَةِ الْمُمْتِعَةِ الْمُلْهَمَةِ جَمِيعَ الْبِلَادِ الَّتِي تَمْتَدُّ مِنْ جِبَالِ الْهِنْدِ وَرَوَابِي فَارَسَ إِلَى رُبُوعِ الْأَنْدَلُسِ وَسَهُولِهَا وَأَوْدِيَّتِهَا وَأَنْهَارِهَا مُتَمَوِّجَةً فَوْقَ بَطَاحِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ. وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الزُّخْرَفَةُ فِي الْغَالِبِ هِنْدَسِيَّةً، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَعْتَمِدُ فِي الْحِينِ بَعْدَ الْحِينِ عَلَى عُنَاصِرٍ نَبَاتِيَّةٍ مِنْ أَوْرَاقٍ وَأَزْهَارٍ وَثَمَرَاتٍ. كَانَتْ تِلْكَ الْأَشْكَالُ النَّبَاتِيَّةُ تَشْتَبِكُ مَعَ الْخُطُوطِ الْهِنْدَسِيَّةِ أَوْ كَانَتْ ضَمْنَهَا فِي زَخْرَفَةِ الْقُصُورِ وَالرُّسُومِ وَالْمَنَابِرِ وَالْأَبْوَابِ وَالسَّقُوفِ وَالتَّوَابِيتِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ.

وَلَقَدْ كَانَ الصُّنَّاعُ حِينَ يَصْنَعُونَ مِطَارِقَ الْأَبْوَابِ وَالْجَرَارِ وَالْأَدَوَاتِ الْمَنْزِلِيَّةِ وَالصُّحُونِ الْحَزَفِيَّةِ وَالتُّحَاسِيَّةِ وَالْكُؤُوسِ وَغَيْرِهَا، وَالْمَكَاحِلَ وَالْمَدَاهِنَ وَالشَّمَاعِدَ وَأَمْثَالَهَا

إذا عمدوا إلى الزُخرفة والزينة يستمدُّون من أشكال النَّبات وثمراته بعض العناصر التَّزيينية. والكلام في هذا المَيدان على زخرفة البُسط والسَّجَّاد والطَّنَافس والتَّمَارِق الحريرية بالأزهار والأغصان وأشجار النَّخيل وبعض الفاكهة ممَّا ازدهرت صناعاته في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة يحتاج إلى موضوع خاصٍّ يقصر عليه قصراً^(١).

هذا عدا الكلام على زركشة الثَّياب والحشايا والمناديل والغلائل والكلَّل والشُّجوف وأمثالها. هنالك تعاطف عميق بين مظاهر الطَّبيعة النَّباتيَّة وبين ذوق الفنَّان في تلك الحضارة الرَّاقية يتبدَّى في مختلف جوانب الحياة الاجتماعيَّة، ولَكُنَّا لا نستطيع أن نذكر ذلك كلُّه دون أن نُشير إلى الحُلِيِّ والأقراط والدِّمَالج التي كانت النِّساء يُسْتَقَنَّ بها أذانهن ويتحلَّين بها، كانت تلك الأقراط والشُّنُوف طويلة تتدلَّى لإظهار جمال الجيد الأتَّلع والقامة الحُلوة:

بعيدة مَهْوَى القُرط إمَّا لنوفل أبوها وإمَّا عبد شمس وهاشم
وكانت أشكال تلك الأقراط مَصُوغَةً على شكل الفاكهة كعُنُقود العنب أو عِرَناس
الدُّرة أو الأوراق لتوليد الإيقاع المُتردَّد في جمال الحسناء الحاليَّة. فالزينة هنا في الأذنين
تدعم الجمال الطَّبيعيِّ ذا الألوان المُنسجِمة وتُجاوِب مع البَنان المخضوب كأنَّه العنَم أو
العُنَّاب وكلُّ ذلك ليأتلف ويأتلق مع افترار الثَّغر ورُتُو العينين ومع ما يتخايَل من نِعم كثيرة
ظاهرة وخفيَّة.

إنَّ الفنَّان أو الصَّانع حين يرسم أو يُصوِّر أو يصوغ تلك الأشياء كان إذن يستوحي
بعض عناصره التَّزيينية من النَّبات فيسعى إلى مُحَاكاتها ولو بمقدار، ولكِنَّه مع ذلك كان
يُتَحَكَّم في تلك الأشكال فيبدِّل فيها ما يشاء، فهو يُمثِّل من ورائها الأشكال التي يريد أو
يحبُّ أن يراها فيها، وكأنَّه بذلك يريد أن يُنشِئها خَلْقاً جديداً.

أمَّا الشَّاعر فإنَّ طبيعة الكلام والألفاظ والمعاني بعيدة عن رسم تلك الخطوط
والألوان والأشكال وتمثيل الأشداء والطُّعوم ولذلك نجده يَعمد إلى التَّشبيه والمجاز
والاستعارة ليُوحي بتلك الأشكال والألوان وأمثالها التي يريد أن يُصوِّرها وليُدكي ما يتَّصل
بها من عواطف ومشاعر أصيلة جديدة غضيرة. فكأنَّه يمسح بتلك التَّشبيهات والمجازات
ما ران على تلك الأشكال من غشاوة الألفة ويَحسُر عن وجهها المُبتَكِر الطَّرِيف حتى ليبدو
كأنَّنا نراه بعين الشَّاعر وننظر إليه بإحساسه وعاطفته وخياله، وهكذا تنشأ دنيا جديدة

(١) انظر كتاب الفنون الإسلاميَّة تأليف م. س. ديمان، ترجمه أحمد محمد عيسى.

مملوءة بالأشكال والألوان والتخف هي كنوز الفن الفكرية تُضاف إلى دنيا الطبيعة. فإذا زاوَلناها وتأمَّلناها وتفهَّمناها ثمَّ رجعنا إلى الطبيعة صاحِبَتنا تلك الذكريات الروحية وشعرنا بأنفسنا أقوى ما نكون على الاستمتاع بجمال الطبيعة ومحاسنها ومباهجها ولذاتها فيتضاعف عندنا الشعور وتقوى عندنا النشوة الروحية وهذه هي إحدى غايات الفن.

وقد رأينا في الفصل السابق حين بحثنا الرَّمز بوجه عام كيف يتجنَّب الشاعر التعبير المباشر عن غرض من الأغراض، فيلجأ إلى التشبيه والاستعارة وإلى التلويح والتلميح والإشارة. كان التشبيه والاستعارة وأمثالهما وسائل تُبعدنا عن مُقابلة المقصود وجهاً لوجه وتُرِينا إِيَّاه بمرآة الأشياء الأخرى ومن خلالها. أمَّا هنا في هذا الفصل فإنَّنا نجد للتشبيه والاستعارة وظيفة عكسية مُقابلة لما سبق تماماً، وهي أنَّهما تُقَرِّباننا من المقصود وتُصوِّران لنا المُراد وتُذَنِّيان المُتأمل من الشيء الذي يتأمَّله ويريد وصفه ويبانه. ذلك أنَّ الشاعر لا يملك ألوان المُصوِّر ولا ريشة الرِّسَّام ولا إزميل النُّحات، وإنَّما يتَّخذ من التشبيه والاستعارة والتلويح والإشارة إزميله وريشته وألوانه. ونظنُّ أننا بهذا الاعتبار نكشف عن وظيفة التشبيه والاستعارة والتلويح المضاعفة المُتقابلة. فهي تُقَرِّب كما أنَّها تُبعد. وهي تُركِّب الشيء تركيباً وتُمثِّله تمثيلاً وتُعَرِّضه علينا هنا بدلاً من أن تجعلنا نبحث عنه ونلتَمِسه ونَحْزُرُه حَزْراً ونُقَدِّره تقديراً. وهكذا نجد الشاعر في تصويره للأشياء وتلوينه لها وتمثيله إِيَّاهَا يعتمد على أشكال الأشياء الأخرى وألوانها وحجُومها. إنَّ الطبيعة تحفل بالأشكال من كلِّ نوع والألوان من كلِّ صبغة كما تحفل بالطُعم والأشياء والأصوات والملبوسات. ومَوْهبة الشاعر أو الأديب أن يُقَرِّب بين تلك الأمور تقريباً يقصد إلى الإمتاع الفني وأن يدلَّ على بعضها باستعمال الألفاظ التي تُفيد البعض الآخر لاشتراكهما في بعض الصفات أو الخصائص. وكما يَمزج المُصوِّر بين الألوان كذلك يُقَرِّب الشاعر بين الأشياء المختلفة ويضع بعضها مكان بعض لرابطة ما بينها قد لَحَظها وذلك ليُصوِّر لنا بالألفاظ ما تُصوِّره ريشة الفنَّان بالخطوط والألوان. وثمة ألفاظ شِعْريَّة تعني ألواناً وأشكالاً مُعيَّنة دَخَلتِ الشَّعر والأدب منذ القديم وأصبحت دلالاتها الفنيَّة على اللَّون والشَّكل مُتعارَفة. فإذا أراد الشاعر أن يُصوِّر الحُمْرة استعمل لفظ النَّار أو العقيق أو الياقوت أو الورد أو لون الخَجَل مثلاً، وإذا رَغِب في أن يَسْتَعِمِل اللَّون الأخضر عمد إلى لفظ السُّنْدُس أو الزُّمُرْد أو الزَّبَرَجَد، وإذا احتاج إلى الأصفر نَهَد إلى الوَرَس والزَّعفران والدَّهَب، وإذا لَزِمه اللَّون الأزرق عالج الفَيروز والأزورد أو البنفسج أو أوائل النَّار وهكذا، وإذا أثار البياض ذكر الصُّبْح أو الدَّرُّ أو اللُّؤلؤ أو الأقاحي وأمثالها، ثمَّ لا يكتفي بذلك بل يزيد الوصف وينقص ويجمع ويُفَرِّق حتى يَتَهَيَّأ له اللَّون المراد المطلوب. وكذلك إذا أراد أن يرسم نَقَب عن

الأشكال المختلفة والمؤتلفة واستعمل بعد نجاحه في تقريب الشكل حِرْفة الصَّبَاغة والطلاء أو الصَّبَاغة أو الخراطة كما يشاء، هذا كله عدا التعبير الذي يَدُلُّ على النَّقش أو المَلَاة والضَّيق أو الاتساع والطَّرَاة أو الصَّلابة والتَّعومة أو الخشونة وهلمَّ جراً. هنا تتبدَّى مَوْهبة الشَّاعر في مَهارة انتباهه ورَّحابة خياله ورِّقة إحساسه وتقريبه البعيد وتبعيده القريب.

إنَّ الشَّاعر يحتاج إلى دراسة عميقة للأشكال والألوان والطُّعوم والملبوس والمشوم ولكلِّ ما يتَّسع له التَّعبير في مَخبر الألفاظ وفي مَصنع المَوْهبة الفَنِّيَّة. ولكن كما يَخْتار التَّصوير بعض الألوان المؤتلفة أو المختلفة كذلك الشَّعر له إثار لبعض الألفاظ والصُّور وذلك بحسب الأغراض التي يُعالجها. وهكذا لا نشرح كيمياء الألوان وصناعة الرِّسم في الشَّعر وحسب بل نشرح أيضاً سبب بعض التَّكرير في الصُّور لتواطؤ الألوان والأشكال في بعض الأحيان.

ومع ذلك كله تَنَضَّح سَعَة الآفاق الكبيرة التي في اللُّغة لإثباتها على جميع ما في الوجود من الصُّور، بل لقدرتها على إنشاء صُور جديدة تخيِّلِيَّة بديعة بالإضافة إلى صُور الطَّبيعة. وفيما نضربه من الأمثال، ولو كَثُرَتْ، بيان لما سَبَق. وربَّما يُقدِّم الباحث إلى دراسة الأدب العربيِّ عامَّة أياًدي بيضاً إذا عمد إلى بَحْث الصُّور والأخيلة التي عالجها الشُّعراء فجلاً نشوءها وأبانَ مواضع استعمالهم لها فعرَّفها المتأدِّب كما يعرف المُصوِّر كيمياء الألوان وتشريح الأجسام لا ليعيد ما شاع ويكرِّر ما تَرَدَّد وإنَّما ليشيئ المُبتَكِر ويصنع الجديد ويصوغ الطَّريف. ولا شكَّ أنَّ تلك الصُّور والأخيلة التي يستعملها تحمل معها الجَوْ الذي التَّقَطَّت فيه والإطار الذي أُحْدِثَ منه من نفاسة أو سُمُو أو طرافة أو غرابة ومن جمال أو ملاححة أو ظَرْف أو نُشوز وما إلى ذلك.

إنَّ الأزهار أقرب الأشياء ممَّا اعتدَّناه وألَّفناه إلى استدعاء التَّأَمُّل الفَنِّيِّ الصَّرف. هي بشائر الرِّبيع وطلائعه تحمل تَحَيَّاته وألوانه وأريجيه وبهائه. إنَّها تستدعي التَّأَمُّل الفَنِّيِّ بألوانها الجميلة الزَّاهية وأشكالها الحلوة البديعة وزينتها الجديدة، وهي فوق ذلك كله بعيدة من النَّفع المَبْاشِر تقتضي الانتظار لكي تُؤتِيَ ثمراتها الشَّهيَّة. فالنَّظَر يَتَصَفَّحها لِذاتها والفِكر يَتَأَمَّل محاسنها للإمتاع الخالص، ولذلك تبدو الدُّنيا في زمن الرِّبيع وكأنَّها وعد وانتظار وأمل. الرِّبيع فنُّ الأرض، والفنُّ ربيع النَّفس. في كلِّ منهما جِدَّة وإبداع، وخِصْب وعطاء، وتولُّد ونماء.

وقد تَدَاوَل الشُّعراء والفنَّانون وَصَف الرِّبيع ومُبَاركة خَيْراته وآلائه والإشادة بِحُسْنه وبهائه، وانتبه أبو تَمَّام خاصَّة لهذه الحركة المُبتدِية في أصالة الرِّبيع وتجدُّده في قصيدته المشهورة التي أوَّلها:

رَقَّتْ حواشي العيش فهي تَمَزْمِر وغدا الثرى في حَلِيهِ يَتَكَسَّر
 ذَكْرُنَا شَطْرًا وافرًا منها حين تَكَلَّمْنَا على هذا الشاعر الكبير وبيئًا توليده للأفكار فهو
 بعد أن ينعت الربيع بالاعتماد على الأوصاف المتضادة يشعر إذ ذاك بالجمال المتحرك
 الذي يتقدم به الربيع حتى كأن حركته تبدو للأبصار على خلاف جمال الأشياء المصنوعة
 الثابتة:

أولا ترى الأشياء إن هي غُيِّرَتْ سَمُجَتْ وحُسن الأرض حين تَغَيَّر
 وبمهارة الساحر يطلب إلى صاحِبِهِ أن يَتَقَصَّيا بالنَّظَر وجوه الأرض ويتأملها تتجدد
 وتتصوَّر كما يطلب المُنوَّم المغناطيسي إنعام النَّظَر في مشهد وإذا هو يُطالِعنا بمنظر عجيب
 وهو أن القمر يأخذ بأزهار الربيع البيض محلَّ الشمس وإذا نور القمر وضوء الشمس
 يجتمعان معًا:

يا صاحبي تَقَصِّيا نَظَرَيْكُما تَرِيا وجوه الأرض كيف تَصوَّر
 تَرِيا نهاراً مُشِمساً قد شابه زَهْر الرُّيا فكأنَّما هو مُقْمِر
 ثم يَسْتَرِسل إلى وصف هذه الدُّنيا الجميلة دنيا الربيع التي هي فنٌّ مَجْلُوٌّ للنَّظَر
 والمتاع كما قَدَّمنا:

دُنِيا معاشٌ للوَرى حتى إذا جُلِّيَ الرِّيع فلإنَّما هي مَنْظَر
 وكان النور الذي تُخرِجه الأرض يَتراءى نُوراً في مرآة القلوب المتأمله المُسْتَمِعة:
 أضحَتْ تَصوِّغُ بَطُونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تَنوُّر
 وعندئذ تَبْدَى تلك الأزاهير المُفتِّحة وتحتجب بين الثَّبات الطَّويل المُلتَفِّ مُخْضَلَّة
 مُتَرَفِّقَةٌ بالثَّدَى كالأعْيُن الجميلة الحانيَّة الرائيَّة التي لحنانها تكاد تَغرُورِق بالدَّمع أو
 كالعداري الخَفِرات يَتَطَلَّعن وَيَنشِين خَجَلًا:
 من كلِّ زاهرة تَرَفِّق بالثَّدَى فكأنَّها عين إليك تَحْدَر
 تبدو ويَحجُبها الجَمِيم كأنَّها عذراء تبدو تارة وتَحْفَر

ولا بدَّ لهذا الشاعر من بعض المُقابلات بين الوهاد والنَّجاد التي تبدو جميعاً كفتتين
 تَمِسان في حُلِّ الربيع المُصَفَّر والمُحمَّرة:

حتى غَدَتْ وَهداتها ونِجادها فتتين في خِلَعِ الرِّيع تَبَخَّر
 مُصَفَّرَةٌ مُحمَّرة فكأنَّها عصب تَيَّمَن في الوَغى وتمْضَر

يَلْتَمِسُ الشَّاعِرُ الْأَلْوَانَ فِي الْجَوِّ فَيَتَزَعَّجُهَا مِنْ الْهَوَاءِ وَيَنْفُضُهَا عَلَى النَّبَاتِ فِي الضِّيَاءِ :
 مِنْ فَاقَعَ غَضُّ النَّبَاتِ كَأَنَّهُ دُرٌّ يُشَقَّقُ قَبْلَ ثَمٍّ يُزَعْفَرُ
 أَوْ سَاطَعَ فِي حُمْرَةِ فِكَائِمَا يَدْنُو إِلَيْهِ مِنَ الْهَوَاءِ مُعْضِفِرُ
 صُنْعَ الَّذِي لَوْلَا بَدَائِعُ لَطْفِهِ مَاعَادَ أَصْفَرُ بَعْدَ إِذْ هُوَ أَخْضَرُ
 وَلَقَدْ رَسَمَ شُعْرَاءُ الْعَرَبِ الْكِبَارِ لَوَحَاتٍ لِلرَّبِيعِ كُلِّهَا حَيَاةً وَحَرَكَةً وَمَهَارَةً تَامَّةً . وَمِنْ
 أَبْرَزِهِمْ ابْنُ الرُّومِيِّ .

وَلَمَّا لَنَحْبُ أَنْ نَذْكُرَ الْقَارِئَ بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَدِيعَةِ الْمُتَزَعَّةِ بِالْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ وَالْأَلْوَانِ
 وَالْأَصْوَاتِ . وَلَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ قِرَاءَتِهَا وَتَأَمُّلِهَا عَلَى كَوْنِهَا مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ الْأَدْبَاءِ :
 ضَحِكَ الرَّبِيعُ إِلَى بُكَاءِ الدَّيْمِ وَغَدَا يُسَوِّي النَّبْتَ بِالْقَمَمِ
 مَا يَبِينُ أَخْضَرَ لَابَسَ كُمَمَا خَضِرًا وَأَزْهَرَ غَيْرَ ذِي كُمَمِ
 مُتَلَاحِقَ الْأَطْرَافِ مُتَسَبِّحَ فِكَائِمُهُ قَدْ طَمَّ بِالْجَلَمِ
 مُتَبَلِّجَ الضَّخَّاتِ مُشْرِقَهَا مُتَأَرِّجَ الْأَسْحَارِ وَالْعَتَمِ
 تَجَدُّ الْوُحُوشِ بِهِ كَفَايَتَهَا وَالطَّيْرِ فِيهِ عَتِيدَةُ الطُّغَمِ
 فَظَبَاوُهُ تُضْحِي بِمُتَتَطَّحِ وَحَمَامِهِ تُضْحِي بِمُخْتَصَمِ
 وَالرَّوْضِ فِي قَطْعِ الزُّبُرْجَدِ وَالِ يَاقُوتٍ تَحْتَ لَالِيءٍ تُؤَمِّمِ
 طَلٌّ يُرْقِرِقُهُ عَلَى وَرَقِ فِكَائِمُهُ دُرٌّ عَلَى لِمَمِ
 حَشْدِ الرَّبِيعِ مَعَ الرَّبِيعِ لَهُ فَغَدَا يُهَمِّزُ ثَابِتَ الْجَمَمِ
 وَالذُّوْلَةَ الزَّهْرَاءِ وَالزَّمْنَ الْمِزْ هَارَ حَسْبِكَ شَافِيَتِي قَرَمِ
 إِنَّ الرَّبِيعَ لَكَالشَّبَابِ وَإِنَّ الـ صَيْفَ يَكْسَعُهُ لَكَالْهَرَمِ
 أَشْقَائِكَ التُّعْمَانِ بَيْنَ رُبَا نَعْمَانِ أَنْتَ مُحَاسِنُ النَّعَمِ
 غَدَتِ الشَّقَائِكُ وَهِيَ وَاصِفَةٌ آلَاءِ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْعِظَمِ
 تَرَفُّ لَأَبْصَارِ كُجُلْنِ بِهَا لِيرَيْنِ كَيْفَ عَجَائِبِ الْحَكَمِ
 شُعْلٌ تَزِيدُكَ فِي النَّهَارِ سَنَا وَتَضِيءُ فِي مُخْلَوْلِكَ الظُّلَمِ
 أَعْجَبَ بِهَا شُعْلًا عَلَى فَحَمِ لَمْ تَشْتَعْلْ فِي ذَلِكَ الْفَحَمِ
 وَكَأَنَّمَا لَمَعَ السَّوَادُ إِلَى مَا أَحْمَرَّ مِنْهَا فِي ضُحَى الرَّهَمِ
 حَذَقَ الْعَوَاشِقَ وَسَطَّتْ مُقْلَا نَهَلَتْ وَعَلَّتْ مِنْ دَمِوَعِ دَمِ
 هَاتِيكَ أَوْ خِيْلَانِ غَالِيَةٍ أَضْحَتْ بِهَا الْوَجَنَاتِ فِي زَمَمِ
 يَا لِلشَّقَائِكِ إِنَّهَا قَسَمِ تَزْهِي بِهَا الْأَبْصَارِ فِي الْقِسَمِ
 مَا كَانَ يُهْدِي مِثْلَهَا تُحْفًا إِلَّا تَطْوُلُ بِرَأْيِ النَّسَمِ

ولابن الرّوميّ قَطَعَ أخرى في وصف الرّبيع والرّياض جميلة.

ولا شكَّ أنَّ وصفه لغروب الشَّمس ومُلاحَظتها للثُّور وهي تَغْرُب واخضلال عيونه
بَقَطرات النَّدَى إذ ذاك من أبداع ما عرف تاريخ الشعر:

إذا رَنَقَتْ شمس الأصيل ونَفَضَتْ	على الأفق الغربيّ وَرَساً مُدَعَّدَا
وودَّعت الدُّنيا لتَقْضي نَحْبَهَا	وشوَّل باقي عمرها فَتَشَعُّشَعَا
ولا حَظَّتِ الثُّور وهي مريضَة	وقد وضعت خَدًّا إلى الأرض أَضْرَعَا
كما لاحظت عُوداه عين مُذْنَف	تَوَجَّع من أوصابه ما تَوَجَّعَا
وظلَّت عيون الثُّور تَخْضُلُ بالنَّدَى	كما اغرورقت عين الشَّجِيّ لتَذْمَعَا
يُراعيها صُوراً إليها رَوانياً	ويُلحِظن الحَظَّاء من الشَّجْو خُشَعَا
ويُمن إغضاء الفراق عليهما	كأنَّهما خِلاً صفاء تودَّعَا

ولم تبلغ الألفاظ عند شاعر من الشعراء مَبْلَغ الموسيقى والغناء إلَّا عند البُحْريّ ولا
سِمْما حين يَصِفُ الرّبيع الطَّلُق المُختال الضَّاحِك.

وإذا أردنا أن نَتَّبِعَ لِهنا وصف الرّبيع والرّياض وما إلى ذلك تَطَاوُلَ البحث علينا
واستفاض جدًّا ولذلك نسعى أن نُغفِلَ الأوصاف العامَّة و«اللُّوحات» الفَنِّيَّة الكبيرة الخالدة
التي صَوَّرها الشعراء، ونَقْصِر دراستنا هذه على وصف طائفة من الأزهار والرياحين
والبقول والفاكهة ممَّا أفرَد الشعراء وصفه أو يَصْخُحُ إفراده من «تلك اللُّوحات» التي
رسموها. وذلك لتبيِّن طرائقهم الخاصَّة في الرِّسْم والتَّلوين ولأنَّ هذه الأوصاف المُفْرَدَة
المَقْصُورة على زَهْر أو رِيحان أو بَقْل أو فاكهة تبدو لنا في بعض الأحيان بمثابة نموذجات
من رسم «الطَّبيعة الصَّامتة» على حدِّ تعبير المُصوِّرين وإن كُنَّا لا نلتزم دلالة هذا التَّعبير
بالضَّبْط أو كان الوصف على خِلاف هذه الدَّلالة مُتَأَلِّفاً من الكلام وحده. ورُبَّما كان هذا
النَّوع من الأدب قليل النُّظير في الآداب العالميَّة.

ولقد آثرنا أن نعرض أوصاف النَّبات والفاكهة دون تَقَيُّد بالتَّصنيف العلميِّ الحديث
المُسْتَنَد إلى اعتبار التَّطوُّر والمبنيِّ على أساس الشُّوء والطُّهور على الأرض. ولو تَقَيَّدنا به
لَزِمنا أن نذكر الورد واللُّوز معاً إذ هما من الفصيلة الوردِيَّة، وأن نُورد الزَّيتون والياسمين
معاً لأنَّهما من الفصيلة الزَّيتونيَّة، وأن نَسوق المَنثور واللُّفت معاً لأنَّهما من الفصيلة
الصَّليبيَّة أو أن نمتنع عن جَمْع اللُّوز والبُنْدُق والجوز والصَّنوبر لأنَّها تختلف في التَّصنيف
العلميِّ مع أنَّها مُتقاربة الاستعمال.

ولو عمدنا إلى عرضها بحسب الاستعمال لوجب أن نتبع التصنيف المتداول عند العلماء حين يُصنّفونها بهذا الاعتبار طبيّة وغذائيّة وعلفيّة وتزيينيّة ونسيجيّة.

ولمّا كانت غايتنا هنا فنيّة وحسب أردنا ألاّ نلتزم تصنيفاً خوفاً من الخروج عنه. وإنّما ندعو إلى نزاهات نقوم بها في سهول الربيع ورياضه وحقول البساتين والحدائق، أو نزور أحياناً بعض مجالس الأنس لتنظر ما يختاره التّدامي من الأزهار والرياحين، وبعض ما يُقدّمونه للتّقل، أو ندخل بعض مطابخ البيوت العربيّة لننظر إلى الطّاهيات يهيّئن في جملة ما يهيّئنه الفجل واللّفت والبصل والثّوم، بصرف النّظر عن ألوان الطّعام، وما يُقدّمته بعد ذلك من أنواع الفاكهة، مُستصحبين معنا الشّعراء كالأدلة الماهرين يُعرّفوننا بالأشياء التي نراها فنعجب بمهارة وصفهم وجمال فنّهم ودقّة تعبيرهم ونستزيدهم من الأمثلة غير ملّحين ولا مُستقصين.

لقد رأينا في نهاية قطعة ابن الرّوميّ الأولى كيف يعمد إلى وصف شقائق الثّعمان فهي طليعة الأزهار تُرّصع بساط المروج بلونها الياقوتيّ الأرجوانيّ القانيّ الذي يَضُمُّ في الوسط سواداً أكحل كالمسك أو المقلّ الشّود، فهي تَرَفُّ للأبصار وهي كالشّعْل على الفحم مع أنّها لا تحرق ذلك الفحم، إنّها محاسن النّعم تُزهِى بها الأبصار وهكذا. ونجد البُحترّيّ تروعه تلك الشّقائق المُترقّرة بالنّدى وكذلك الأفحوان وجنى الحوذان فيقول:

شقائق يَحْمِلْنَ النّدى فكأنّه	دموع التّصابي في حدود الخرائد
ومن لؤلؤ في الأفحوان مُنظّم	ومن نُكَّت مُصَفّرة كالقُرّائد
كأنّ جنى الحوذان في رَوْنق الضّحى	دنائير يَبْر من ثؤام وفارد
رباع تَرَدّت بالرياض مَجوّدّة	بكلّ جديد الماء عَذب الموارد

ذلك أنّ شقائق الثّعمان تنبت في صدر الربيع كالأفاحي وكأزاهير شتّى لا تُحيط بها الأسماء فلا غرو إذا تَغنى الشّعراء بالربيع أن يَصِفُوا تلك الأزاهير كلّها وألوانها الزّاهية وأشكالها البديعة بما أوتوا من مهارة وخيال. وهم لإذكاء صُورها يعتمدون المعادِن التّفيسة والحجارة الكريمة والآلئ وخدود الحسان أو دموعهنّ وهلمّ جزاً. ومثل هذا الوصف يُؤلّف جزءاً بديعاً من لوحات الربيع. ولكنّ الشّعراء عمّدوا إلى وصف شقائق الثّعمان^(١) وبقية الأزهار وصفاً خاصّاً بها. ومن الطّريف أن نعرض شيئاً من التّقن في هذا الوصف. يقول الشّاعر:

(١) الثّعمان في اللّغة الدّم أضيفت الشّقائق إليه لونها القانيّ ولفظ «أنيمون» الأجنبيّ آت منه.

جامٌ تَكُونُ من عقيق أحمر مُلِثٌ دوائره بِمِسْك أَذْفَر
خَطَّ الرِّيع قوامه فأقامه بين الرِّياض على قضيب أخضر
ويقولُ الصَّنوبريُّ:

وَكَلَّانَ مُحَمَّدٌ الشَّقِيقُ قِيقٌ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أعلام ياقوت نُشِر نَ على رماح من زَبَرْجَدَ

ويذكر علماء البيان هذين البيتين شاهداً على التشبيه الخياليِّ فإنَّ الأعلام الياقوتية المنشورة على الرِّماح الزَّبَرْجَدِيَّة لا تَجتمع في الواقع ولا تُدرك معاً في التكوين وإنَّما الذي يُدرك بالحسِّ الياقوت والزَّبَرْجَد.

على أنَّ أكثر التشبيهات والمجازات يَعتمدُها الشعراء في هذا المجال إنَّما هي من هذا النوع الخياليِّ.

وفي هذه الأوصاف الخاصَّة التي نعرضها للأزهار والرياحين والبُقول والفاكهة نجد في الغالب شعراء ليسوا من الدَّرَجَة الأولى هم الذين صنعوا تلك الأوصاف ومهروا فيها مهارة كبيرة بل نجد في بعض الأحيان أنَّ الشعراء الثَّانَوِيَّين أهما في هذا المَيدان الخاصِّ حيث يُجيدون التَّعبير من الشعراء الكبار الذين كانوا مشغولين بإنجاز لَوحاتهم الشعريَّة الكبرى.

يقولُ القاضي عياض الأندلسيُّ يَصِف الزَّرْع بينه شقائق الثُّعمان، ولا شكَّ أنَّ القاضي شهد بعض المعارك ونظر إلى فلول الأعداء على بُعد:

انظر إلى الزَّرْع وخاماته تحكي وقد مالت أمام الرِّياح
كتائباً تُجفل مهزومة شقائق الثُّعمان فيها جراح

ويقولُ الصَّنوبريُّ في الورد والشَّقِيق معاً:

قد أَخَذَ الورد بالشَّقِيق فاشرب عقيقاً على عقيق
كأنَّه حوله وجوه مُستشرفات على حريق

وإذا غالى ابن حِجَّة الحمويُّ في خياله بعض الشيء حين يُفسِّر السَّواد في وسط الشَّقِيق تفسيراً مُضطَّعاً.

سألت الشَّقِيق الغصن عن نقطة بدت على خدِّه والروض منها تعطرا
فقال سواد المسك هام بوجتتي وقد أكثر التَّقيل فيها فائرا

فإنَّه لِيُطْرِبَنَا التَّمثِيلَ الكُونِيَّ فِي قول الآخر:

والشَّمْسُ لا تشرب خمر التَّدَى في الرَّوْضِ إِلَّا بكَوْوسِ الشَّقِيقِ
ومن طلائع أزاهير الرِّبيع التَّرْجَسِ وهو من أشدَّ الأزهار تعبيراً، ويُشَبَّه بالعيون.
يقول أبو نُوَاس:

لدى نرجس غَضُّ القِطَافِ كأنَّه إذا ما مَتَخَنَاهُ العيون عيون
مُخَالَفَةً فِي شَكْلِهِنَّ بِصُفْرَةٍ مكان سواد والبياض جُفُون

وكأنَّه يلمح الجُلَّاسُ والتَّدَامِي، يقول ابن المُعْتَزِّ:

عيون إذا عَايَتْهَا فَكأنَّهَا دموع التَّدَى من فوق أجفانها دُرٌّ
مَحَاجِرُهَا بِيضٌ وَأَحْدَاقُهَا صَفَرٌ وأجسادها خضر وأنفاسها عِطَرٌ

ويُشَبَّه أيضاً بالتُّغُورِ، يقول ابن الرُّومِيِّ أو غيره:

ونرجس كاللُّغُورِ مُتَسَمِّمٌ به دموع المُحَدِّقِ الشَّاكِي
أَبْكَاهُ قَطَرُ التَّدَى وَأَضْحَكُهُ فهو من القَطَرِ ضَاحِكٌ بَاكِي

وقد يَعتمد الشَّاعرُ إلى وصف الزَّهر الطَّبِيعِيِّ فيصفه حتى لكأنَّه صِنَاعِيٌّ. فهو لا
يكتفي بالنَّظَرِ إلى زهرة التَّرْجَسِ على أَنَّها مُؤَلَّفَةٌ من التَّوْنِجِ الصَّغِيرِ وجهاز التَّكَاثُرِ وهما
أصفران بل هو يَعُدُّ وَرِنَاتِ التَّوْنِجِ البِيضِ السُّتَّ وَيَعْتَبِرُهَا كأنَّها مصنوعة من الدُّرِّ. يقول
شاعر أندلسي:

انظُرْ إلى نرجس في رَوْضَةٍ أَثْفِ غَنَاءٌ قَدْ جَمَعَتْ شَتَى من الزَّهَرِ
كَأَنَّ ياقوتة صفراء قد طُبِعَتْ في غُصْنِهِ حَوْلَهَا سِتٌّ من الدُّرَرِ

ويقول آخر مُتَشَبِّهاً لساق التَّرْجَسِ الخضرَاءَ تعلوها زهرته كأنَّها قِمَعٌ أَلْفٌ من ذهب
وفُضَّة:

أَبْصَرْتُ طَاقَةَ نرجس فِي كَفِّ مَنْ أَهْلَوَاهُ غُضَّصُهُ
فكأنَّهَا قُضْبُ الزَّيْزُرِ جَدُّ قُمُعَتِ ذَهَباً وَفُضَّصُهُ

ويقول أبو بكر بن حازم:

ونرجس ككَوْوسِ التَّبَرِّ لائِحَةٍ من الزَّيْزُجِّ قد قامت بها ساق
كأنَّهِنَّ عيون هُذْبُهَا وَرِقٌ لهنَّ من خالص العِقيانِ أَحْدَاقٌ

ويقول الصَّنُوبَرِيُّ مُنَوِّهاً بِشَدَاهُ العِيقِ زيادةً على شكله البديع:

ونرجس مُضَعَفٌ تَضَاعَفَ مِنْهُ به الحُسنُ فِي أبيض وفي أصفر

الذُّرُّ والتَّبَرُّ فيه قد خُلِطَا للعَيْنِ والمِسْكِ فيه والعنبر

ومن الشعراء الذين فُتِنُوا بالتَّرجسِ وأَحْبَوْهُ وَقَضَّلُوهُ على جميع الأزهار ابن الرُّومِيّ
فهو يقولُ مُشيراً إلى تَبَاذُلِ التَّرجسِ والتَّدَامِي الأَلحَاطِ كَأَنَّهُ واحدٌ منهم:

يا حَبِّذا التَّرجسِ رِيحَانَةً لأنفِ مَغْبُوقٍ وَمَضْبُوحِ
كَأَنَّه من طيبِ أرواحه رُكِّبَ من رُوحٍ ومن رُوحٍ
أَبَدَى وَجُوهاً غيرَ مَقْبُوحَةٍ في زمنٍ ليسَ بمَقْبُوحِ
يا حُسْنَه في العَيْنِ يا حُسْنَه من لَامِحٍ لِلشَّربِ مَلْمُوحِ
كَأَنَّمَا الطُّلُّ على نَوْرِهِ مَاءٌ عَيُونٍ غيرَ مَسْفُوحِ

وقد كتب إلى أبي الحسن بن المُسيَّبِ يدعوه لهذه الأبيات التي يَفِيضُ منها إحساس
مُتَرَفٍّ بِجَمَالِ الوقتِ والتَّرجسِ والشَّرَابِ:

أَدْرِكْ ثِقَاتَكَ إِنَّهُمْ وَقَعُوا في نَرَجِسٍ مَعَهُ ابْنَةُ العِنَبِ
فَهُمْ بِحَالٍ لَوْ بَصُرْتَ بِهَا سَبَّحْتَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
رِيحَانَتُهُمْ ذَهَبَ على دُرٍّ وشَرَابُهُمْ دُرٌّ على ذَهَبِ
في رَوْضَةٍ شَتَوِيَّةٍ رَضَعَتْ دُرَّ الحَيَا حَلَباً على حَلَبِ
واليومَ مَدَجُونٍ فُحِرَّتْهُ فِيهِ بِمُطَّلَعٍ، وَمُحْتَجَبِ
شَمْسٍ تُسَاتِرُنَا وَقَدْ بَعَثَتْ ضَوْءاً يُلَاحِظُنَا بِلَا لَهَبِ
يا نَرَجِسِ الدُّنْيَا أَقْمِ أَبَداً لِقَافِئَها وَدَائِمِ النَّخَبِ
ذَهَبِ العَيُونِ إِذَا مَثَلَتْ لَنَا دُرُّ الجَفُونِ زَبَرْجَدِ القُضْبِ

وَإِذَا شَبَّهْنَا التَّرجسَ بالعَيُونِ في جَمَالِ التَّعْبِيرِ وَرَفَّقَتَهُ كَمَا مَرَّ وَكَمَا يَقُولُ ابنُ الرُّومِيّ:
وَأَحْسَنَ مَا فِي الوجوهِ العَيُونِ وَأَشْبَهَ شَيْءٍ بِهَا التَّرجسِ

صَحَّ كَذَلِكَ أَنَّ نُشْبَهُ التَّرجسِ بالتَّجُومِ الْمُتَلَائِيَةِ التي تَلْمَعُ فَكَأَنَّهَا تَلْمَعُ كَالْعَيُونِ أَيْضاً
فَالتَّرجسِ نَجُومِ الحَقُولِ كَمَا أَنَّ التَّجُومِ نَرَجِسِ السَّمَاءِ. بَلِ التَّجُومِ فِي السَّمَاءِ لِلْمُتَخَيَّلِ
كَالْأَمْهَاتِ عَيْنَيْنِ بِسَكْبِ الغَيْثِ على الأَرْضِ فَأَنْبَنَ الأزاهيرِ المُخْتَلِفَةِ وَأَجْمَلَهَا مَا أَشْبَهَ تِلْكَ
الوَالِدَاتِ على حَدِّ خَيَالِ ابنِ الرُّومِيّ الَّذِي يَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ يَفْضُلُ فِيهَا التَّرجسِ على
الوردِ:

خَجَلْتُ خُدُودَ الوردِ من تَفْضِيلِهِ خَجَلًا تَوَرَّدَهَا عَلَيْهِ شَاهِدُ
لَمْ يَخْجَلِ الوردُ المَوْرَدَ لَوْنِهِ إِلَّا وَنَاحِلَهُ الفَضِيلَةَ عَانِدُ
لِلنَّرجسِ الفَضْلِ المُبِينِ وَإِنْ أَبَى أَبٍ وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقَةِ حَائِدُ

فصل القضية أن هذا قائد
شَّان بين اثنين هذا مُوعِد
وإذا احتفظت به فأمتنع صاحب
يحكي مصاييح السَّماء وتارة
هذي النُّجوم هي التي رِيَّتُهما
فانظر إلى الولدين مَنْ أوفاهما
أين العيون من الخدود نفاصة
زهر الرِّيع وأن هذا طارد
بَسْلَب الدُّنيا وهذا واعد
بحياته لو أن حيّاً خالد
يحكي مصاييح الوجوه تراصد
بحيا السُّحاب كما يُرَبِّي الوالد
شَبْهاً بوالده فذاك الماجد
ورياسة لولا القياس الفاسد

لقد ذكر ابن الرُّومي أن التَّرجس رسول الرِّيع والبشير به وأنَّ الورد إنَّما يَنْفَتَح في
نهايته، ومن المعلوم أن بعض الورد تنمو في الخريف. وبهذا الاعتبار يكون ثَمَّة تَفَاوُت
بين التَّرجس وبين الورد في الزَّمان. وقد اسْتَغْلَ هذا التَّفَاوُت شاعر أراد أن يُظهر التَّفَاوُت
بين المال والعقل فقال:

تَنافى العقل والمال
فمما بينهما شُكُل
فَعَقِل حيث لا مال
ومال حيث لا عقل
كذلك الورد والنَّار
جس لا يحويهما فَصُل

ومن طلائع الرِّيع أيضاً البنفسج. والبيتان اللذان تداولهما علماء البيان في وصفه
يُتَسَبَّان إلى ابن المُعْتزِّ أو إلى أبي القاسم بن هذيل الأندلسي:
ولازوردية تزهو بزُرْقَتِها بين الرِّياض على حُمر اليواقيت
كأنَّها فوق خامات ضَعْفَنَ بها أوائل النَّار في أطراف كبريت
ويَرْجع جمال البيتين إلى الانتباه لَزُرْقَة شُعْلة الكبريت عند إشعاله وتشبيه البنفسج بها
ولا سيَّما أن السَّاق الحاملة لزهر البنفسج ضئيلة كضالة عود الكبريت. وحُمر اليواقيت
يعني بها الشَّقَاقق وأشباهها.

ومثل هذا التَّشبيه بِشُعْل الكبريت تَوَارَثَهُ الشُّعراء. وقد عَمَدُوا أيضاً إلى تشبيهه بآثار
الْقَرَص في الخدود وفي ذلك ما فيه من «ساديّة». يقول أبو الحسن الشَّاطِبيُّ ويُرَوِّى لابن
الرُّومي:

اشرب على زهر البنف سج قبل تَأْنِيب الحَسود
فكأَنَّما أوراقه آثار قَرَص في الخدود

ولأغلب الأزهار دلالات ومَعَانٍ ولغة رمزيّة. وتَعَمِد الدَّلالة على تصحيف الاسم أو
على اللَّون أو على مُدَّة الزَّهر والنَّبَات عامّة.

ولئن تَطَيَّرَ به أحد الشعراء قائلاً:

يا مُهْدِيّاً لي بنفسجاً سَمِجاً
أُنْذِرْني عاجلاً مُصَحِّفَه
أودُّ لو أن أرضه سَبَخَ
بأنَّ عقد الحبيب يَنْفَسِخَ

فلقد تَفَاعَلَ به الميكالي:

يا مُهْدِيّاً لي بنفسجاً أَرْجاً
بشُرْني عاجلاً مُصَحِّفَه
يرتاح قلبي له وينشرح
بأنَّ ضيق الأمور يَنْفَسِخَ

وإذا كثر البنفسج أَشْبَهَ في تلوينه للحدائق أعراف الطّواويس:

ماسّ البنفسج في أغصانه فَحَكى
كأنَّه وهبوب الرِّيح يَعْطِفُه
زُرُقُ الفُصوص على بيض القراطيس^(١)
بين الحدائق أعراف الطّواويس

ويعتمد الأَخِيطَلُ الواسطيُّ في وصف السّوسن التّشبيه نفسه تقريباً:

سَفِيّاً لأرض إذا ما نمَتْ يُنْهِنِي
كَأنَّ سَوسنَها في كلِّ شارفة
بعد الهدوء بها قَرع الثّواقيس
على الميادين أذئاب الطّواويس

على أن أزهاراً كثيرة كالمنثور والأقحوان والبهار وغيرها على حدّ تَسْمِيَتِهم لها في ذلك الوقت تَتَقَدَّمُ في مَوْكَبِ الرِّيع بألوانها المختلفة وتحياّتها البديعة. وقد ردّ الشعراء على تحياّتها وإشاراتها بأبيات بديعة، يقول ابن وَكِيع التّيسِّيُّ في المنثور:

انظر إلى المنثور في ميدانه
كجَوهَرٍ مختلف ألوانه
يرنو إلى النّاطر من حيث نظر
أسلمه سلك نظام فانتشر

وكانوا يَدْعُونَ المنثور بالخيري. يقول أبو إسحاق إبراهيم بن خَفَاجَة مُشِيراً إلى أن رائحته يزداد تَضَوُّعُها بالليل:

وخيرٌة بين السّيسم وبينها
يَدْبُكُ مع الإمساء حتى كأنما
حديث إذا جَنَّ الظّلام يطيب
له خلف أستار الظّلام حبيب

ويقول ابن الحَدَّاد في ذلك أيضاً:

عاف التّهار مخافة الرُّقَباء
يطوي شذاه عن الأنوف نهاره
فسرى يَضْمَخُ حُلّة الظّلماء
وكذا تكون شمائل الظّرفاء
ويجود في الظّلماء بالإفشاء
منتهك في طبعه مُتَسْتَر

(١) هكذا في نهاية الأرب، وربما كان الأصل خُضِر القراطيس وإن كانت القراطيس في الأغلب بيضاً.

لَمَّا رَأَى حَبَّ الْأَنْوَفِ لَعَزَفَهُ لَبَسَ الْغِيَاهِبَ خَيْفَةَ الرُّقَبَاءِ
كَالطَّيْفِ لَا يَصِلُ الْجَفَوْنَ لِسُتْهِمَا وَيَهْبُ فِيهَا سَاعَةَ الْإِغْفَاءِ

وقد افْتَنَّ الشُّعْرَاءُ فِي خَاصِيَّةِ الْمُنْثَوْرِ هَذِهِ وَعَالِجُوهَا بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ. يَقُولُ آخَرُ:
يَنْبُ مَعَ الْإِظْلَامِ طِيبَ نَسِيمِهِ وَيَخْفَى مَعَ الْإِصْبَاحِ كَالْمُتَسْتَرِّ
كَعَاطِرَةِ لَيْلٍ لَوَغْدِ مُحِبِّهَا وَكَاتِمَةِ صُبْحٍ نَسِيمِ التَّعْطُرِ

ونعتقد أَنَّ خَاصَّةَ الْمُنْثَوْرِ هَذِهِ لَيْسَتْ مَقْصُورَةٌ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِغَالِيَةِ الرِّيَاحِينَ الْعَبَقَةِ، إِذْ يَفْرَحُ نَشْرُهَا الطَّيِّبُ وَيَتَضَوِّعُ عِنْدَ الْمَسَاءِ. وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْوُرُودِ تَتَفَتَّحُ فِي الْمَسَاءِ، كَمَا أَنَّهَا تَسْتَرْخِي خَلَائِهَا وَتَنْطَرِّحُ الْعُطُورَ مِنْ جِيوبِهَا فِي دَرَجَةِ مُنَاسِبَةٍ مِنَ الْحَرَارَةِ بَعْدَ إِذْ كَانَتْ الْمَسَامُ مُغْلَقَةً عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ لِمُقَاوَمَةِ الْجَفَافِ وَتَقْلِيلِ «الاستعراق». وَهَذَا أَمْرٌ تَشْرِيحِيٌّ فِيزِيُولُوجِيٌّ. وَكَذَلِكَ جُزْئِيَّاتُ الْعَبِيرِ الْفَاغِمِ الْمُنْطَلِقَةِ تَتَصَاعَدُ ثُمَّ تَرْتَدُّ إِلَى أَنْوَفِ الْجُلَاسِ إِذْ ذَاكَ لِبُرُودَةِ الْجَوِّ وَرُطُوبَتِهِ وَتَسْتَمُ الرِّيحُ إِذْ تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُ الْحَرَارَةِ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَعِنْدَ الْأَرْضِ وَهَذَا أَمْرٌ فِيزِيَاثِيٌّ. وَكَذَلِكَ إِذَا جَاءَ الْمَسَاءُ وَدَبَّ الظَّلَامُ تَنَحَّجِبَ أَشْكَالُ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَبْصَارِ فَلَا عَجَبَ إِذَا تَجَمَّعَ جَانِبٌ مِنْ نَشَاطِ النَّفْسِ حَوْلَ حَاسَةِ الشَّمِّ، وَهَذَا أَمْرٌ نَفْسِيٌّ. وَقَدْ انْتَبَهَ الشُّعْرَاءُ لِلْمُنْثَوْرِ فِي هَذَا الشَّأْنِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ إِذَا كَثُرَ كَانَ شِدَاهُ عَبَقًا وَمُتَمَيِّزًا وَرَبَّمَا كَانُوا يُحِبُّونَ هَذَا الشَّدَا الْمُفْلَلِ.

وَكَذَلِكَ الْأَفْحَوَانُ، وَقَدْ كَثُرَ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ اعْتِمَادُهُ لَتَشْبِيهِ الثُّغُورِ بِهِ. وَهُمْ كَذَلِكَ يُشَبِّهُونَهُ بِالثُّغُورِ.

يَقُولُ ظَافِرُ الْحَدَّادِ الْإِسْكَندَرِيُّ:
وَالْأَفْحَوَانَةُ تَحْكِي ثَغْرَ غَانِيَةٍ تَبَسَّمَتْ عَنْهُ مِنْ عَجَبٍ وَمِنْ عَجَبٍ
فِي الْقَدِّ وَالْبَرْدِ وَالرَّيْقِ الشَّهْيِّ وَطِي سَبَّ الرِّيحِ وَاللَّوْنِ وَالتَّقْلِيلِجِ وَالشَّنْبِ
كَشَمْسَةٍ مِنْ لُجَيْنٍ فِي زَبَرْجَدَةٍ قَدْ شُرِفَتْ حَوْلَ مَسْمَارٍ مِنَ الدَّهَبِ

وَيَقُولُ آخَرُ مُعْتَمِدًا الْخِيَالَ نَفْسَهُ:
وَالْأَفْحَوَانَةُ تُجَلَّى وَهِيَ ضَاحِكَةٌ عَنْ وَاضِحٍ غَيْرِ ذِي ظَلَمٍ وَلَا شَنْبِ
كَأَنَّهَا شَمْسَةٌ مِنْ فَضَّةٍ حُرِسَتْ خَوْفَ الْوُقُوعِ بِمَسْمَارٍ مِنَ الدَّهَبِ
وَلَيْسَ رَأْسُ هَذَا الْمَسْمَارِ إِلَّا أَزْهَارٌ مُتَعَدِّدَةٌ. أَمَّا الْأَوْرَاقُ النَّاصِعَةُ فَهِيَ تَوْنِجَاتُ الْأَزْهَارِ الْجَانِبِيَّةِ فِي هَذِهِ الزَّهْرَةِ الْمُرَكَّبَةِ.

وَيَقُولُ أَيْضًا فِي هَذَا الْمَعْنَى جَمَالُ الدِّينِ بْنِ أَبِي مَنْصُورٍ الْمَصْرِيِّ:
انْظُرْ فَقَدْ أَبْدَى الْأَفَاحُ مَبَاسِمًا ضَحَكَتْ بَدْرٌ فِي قُدُودِ زَبَرْجَدِ

كفصوص دُرُّ لُطَفَتْ أَجْرَامُهَا قَدْ نُظِّمَتْ مِنْ حَوْلِ شَمْسَةِ عَسَجَدٍ
والشُّعْرَاءُ إِذَا عَالَجُوا الْمَعْنَى الْوَاحِدَ وَعَبَّرُوا عَنِ الصُّورَةِ الْخَيَالِيَّةِ فَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ
مَثَلُ الْمُصَوِّرِ يُعَالِجُ الْمَوْضُوعَ الَّذِي سَبَقَ إِلَيْهِ مُصَوِّرٌ آخَرُ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ
مَثَلًا وَلَكِنَّهُ يَعْزِضُ ذَلِكَ الْمَعْنَى وَتِلْكَ الصُّورَةُ بِرِسْمِهِ الْخَاصِّ وَأَلْوَانِهِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ
يَسْتَعْمِلَهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ لَتَوْكِيدِ الْفِكْرَةِ أَوْ الشُّعُورِ الَّذِي يُوحِي بِهِ الْمَوْضُوعُ أَوْ لِإِدْخَالِ بَعْضِ
التَّغْيِيرِ عَلَيْهِ.

وكذلك وَصَفُوا الْبَهَارَ وَهُوَ كَالْأَقْحَوَانِ وَلَكِنَّهُ أَكْبَرُ شِكْلًا مِنْهُ، وَهُوَ مِثْلُهُ أَيْضًا مِنْ
الفَصِيلَةِ الْمُركَّبَةِ، وَلَا غَرَوَ إِذْ كَانَ الشَّكْلُ هُوَ نَفْسُهُ أَنْ يَتَعَمَدَ الشُّعْرَاءُ بَعْضُ الصُّوَرِ
الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وَصْفِهِمْ لِلْأَقْحِي. يَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ بَرْدِ الْأَنْدَلُسِيِّ:
تَأْمَلْ فَقَدْ شَقَّ الْبَهَارُ مُقْلَصًا كَمَاثِمُهُ عَنِ نَوْرِهِ الْخَضِيزِ النَّدِيِّ
مَدَاهِنَ يَثُرُ فِي أَنْامِلِ فَضَّةٍ عَلَى أَذْرَعِ مَخْرُوطَةٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ
ويقولُ ابْنُ دَرَّاجِ الْقَسْطَلِيِّ:

بَهَارٌ يَرُوقُ بِمَسْكَ ذَكِيٍّ وَصِبْغٌ بِدِيْعٍ وَخَلْقٌ عَجَبٍ
غُصُونُ الزَّبَرْجَدِ قَدْ أُورِقَتْ لَنَا فَضَّةٌ مُؤَهَّتٌ بِالذَّهَبِ
ويقولُ آخَرُ:

بَهْرُ الْبَهَارِ عِيُونَنَا فَقُلُوبُنَا مَسْحُورَةٌ بِجَمَالِهِ السَّحَّارِ
كَسَوَاعِدٍ مِنْ سُندُسٍ وَأَكْفُهَا مِنْ فَضَّةٍ حَمَلَتْ كَوْوَسَ نُضَارِ
ووصف ابنُ الرُّومِيِّ الْبَهَارَ وَصِفًا بَدِيعًا حَيًّا فِي خِلَالِ وَصْفِهِ لِرَوْضَةٍ:

وَرَوْضَةٌ عَنْدَرَاءٌ غَيْرُ عَانِسِهِ جَادَتْ لَهَا كُلُّ سَمَاءٍ رَاجِسِهِ
رَائِحَةٌ بِالْغَيْثِ أَوْ مُغَالِسِهِ فَأَصْبَحَتْ مِنْ كُلِّ وَشْيٍ لَابِسِهِ
خَضِرَاءُ مَا فِيهَا خَلَاةٌ يَابِسِهِ ضَاحِكَةُ الثُّوَارِ غَيْرُ عَابِسِهِ
كَأَنَّهَا مَعْشُوقَةٌ مُؤَانِسِهِ فِيهَا شَمُوسٌ لِلْبَهَارِ وَارِسِهِ
كَأَنَّهَا جَمَاجِمُ الشَّمَامِسِهِ تَرُوقُكَ النَّوْزَةُ مِنْهَا التَّائِسِهِ
بَعِينٌ يَقْطِي وَيَجِيدُ نَاعِسِهِ لَوْلُؤَةُ الطَّلِّ عَلَيْهَا فَارِسِهِ

وقد وصفوا أنواعاً كثيرة من الأزهار كُلاًّ بِخَصَائِصِهِ وَشَكْلِهِ وَشَذَاهُ وَالْأَخِيلَةِ الَّتِي
يُوحِي بِهَا وَتَفَنَّنُوا فِي وَصْفِ التِّلُوفَرِ وَالْأَذْرِيُونِ وَالزَّعْفَرَانِ وَالْيَاسَمِينِ وَالتَّسْرِينِ وَأَنْوَاعِ
الْوُرُودِ. يَطُولُ بِنَا الْبَحْثِ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَقْصِي جَمِيعَ الْأَزْهَارِ الَّتِي أَتَى الشُّعْرَاءُ عَلَى
وَصْفِهَا. وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ ذِكْرِ بَعْضِ مَا وَصَفُوا بِهِ الْوَرْدَ، وَالْيَاسَمِينِ.

وَإِذَا ذُكِرَ الْوَرْدُ تَرَدَّدَتْ فِي الْخَاطِرِ أَيْبَاتُ الْبُحْتَرِيِّ الَّتِي يَصِفُ فِيهَا أَوَائِلَ الْوَرْدِ
تَسْتَقِظُ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ بَعْدَ إِذْ كَانَتْ نَائِمَةً:

وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَسَقِ الدُّجَى أَوَائِلَ وَرْدٍ كَنْ بِالْأَمْسِ نُومًا
يُقْتَقِّهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ يَسْتُ حَدِيثًا كَانَ قَبْلَ مُكْتَمَا

وَلَكِنَّ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُوحُوا بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ اللَّطِيفَةِ الْعَمِيقَةِ لِلنَّبَاتِ فِي
رَبْعَانِ الرَّبِيعِ يُؤَثِّرُونَ أَنْ يُصَوِّرُوا الْوَرْدَ تَصْوِيرًا بِأَوْرَاقِهِ الْخَضِرِ وَتَوْنِجَاتِهِ الْحُمْرِ وَأَوْسَاطِهِ
الصُّفْرِ. وَالتَّلَوِينِ الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ يَأْخُذُونَهُ كَمَا سَبَقَ مِنَ الْمَعَادِنِ النَّفِيسَةِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ
الْمُلَوَّنَةِ. يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَيُرْوَى لِعَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ:

أَمَا تَرَى شَجَرَاتِ الْوَرْدِ مُظْهِرَةً لَنَا بَدَائِعَ قَدْ رُكِّبْنَ فِي قُضْبٍ
كَأَنَّهُنَّ يَوَاقِيتُ يَطِيفُ بِهَا زَرْجَدٌ وَسَطُهُ شَذَرٌ مِنَ الذَّهَبِ

وَوَصَفُوا الْوَرْدَ الْأَبْيَضَ وَالْأَزْرَقَ وَالْأَسْوَدَ وَالْأَصْفَرَ وَغَيْرَهُ مِنْ أَصْنَافِ الْوُرُودِ الْكَثِيرَةِ.
يَقُولُ السَّرِيُّ الرَّفَاءُ يَصِفُ الْوَرْدَ الْأَبْيَضَ:

وَرَوْضُ كَسَاهُ الْغَيْثُ إِذْ جَادَ أَرْضَهُ مَجَاسِدُ وَشِيٍّ مِنْ بَهَارٍ وَمِنْشُورٍ
بِهِ أَيْضُ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ كَأَنَّمَا تَنْسَمُ لِلنَّاشِي بِمَسْكِ وَكَافُورٍ
كَأَنَّ أَصْفَرَارًا مِنْهُ وَسَطُ أَيْضَاضِهِ بُرَادَةٌ تَبْرُفِي مَدَاهِنَ بَلُورٍ

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ:

يَا حُسْنَهَا مَنْ وَرْدَةً بِيضَاءَ جِئَاءَتْ بِالْعَجَبِ
كَجَامِ بَلُورٍ بِهِ قُرَاضَةٌ مِنَ الذَّهَبِ

واعتذر ديك الجن من قلة لَبِثِ الْوَرْدِ:

لِلْوَرْدِ حَسَنٌ وَإِشْرَاقٌ إِذَا تَنَظَّرْتُ إِلَيْهِ عَيْنٌ مُحِبَّةٌ هَاجَهُ الطَّرَبُ
خَافَ الْمَلَالُ إِذَا دَامَتْ إِقَامَتُهُ فَصَارَ يَظْهَرُ أَحْيَانًا وَيَحْتَجِبُ

وَأَوْحَى الْوَرْدُ الْجَوْرِيُّ إِلَى الشَّيْخِ عَمْرِ بْنِ الْوَرْدِيِّ بِالتَّوْرَةِ اللَّطِيفَةِ:

قَالَتْ إِذَا كُنْتَ تَرْجُو أُنْسِي وَتَخْشَى نُفُورِي
صَفِّ وَرْدَ خَلْدِي وَإِلَّا أَجُورُ نَسَادِي تَجُورِي

وَكَانَ الْوَزِيرُ الْمُهْلَبِيُّ وَزِيرُ مَعِزِّ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ كَثِيرَ الشَّغْفِ بِالْوَرْدِ. «وَحَدَّثَ الْقَاضِي
أَبُو عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ قَالَ: شَاهَدْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الْمُهْلَبِيَّ قَدْ ابْتِيعَ لَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَرْدٌ بِأَلْفِ
دِينَارٍ فَرَشَ بِهِ مَجَالِسَ وَطَرَحَهُ فِي بَرَكَةٍ عَظِيمَةٍ كَانَتْ فِي دَارِهِ، وَلَهَا فَوَارَاتُ عَجِيبَةٍ، يُطَرِّحُ

الورد في مائها وتنفّضه، وبعد شربه عليه وبلوغه ما أَرادَه منه أَنهَبَه»^(١).

ومن المعلوم أَنَّ الورد الذي يُستخرَج منه العطر المشهور أصله من بلاد الشَّام وهو يُنسب في اللُّغات الأجنبيَّة إلى دمشق^(٢)، أَذْخَلَه في فرنسة تيبو الرَّابِع كونت دوبري وشامبانيا عند رُجوعه من الحروب الصَّليبيَّة حول سنة ١٢٥٠ م، كما دخل ألمانِيَة وغيرها من البلاد. وفي بُلغارِيَة سهول واسعة تُزْرَع بهذا النُّوع وتُسمَّى تلك المنطقة وادي الورد. والبُلغاريُّون أَنفُسهم يَزُون أَنَّ أصله من بلاد الشَّام وعندهم صناعة قديمة لاسْتِقْطاره أَخْذوها أيضاً عن البلاد العربيَّة.

ويقولُ أبو إسحاق الحَضْرَمِيُّ يصف الياسمين قبل تَفْتُّحه:

خليليَّ هُبَّا وانفُضا عنكما الكُرى
فقد لاح رأس الياسمين مُنَوَّرَا
يَمِيل على ضَعْفَى الغصون كأنَّما
إذا الرِّيح أَذَّتْهُ إلى الأنف خِلَّتْهُ
وقوماً إلى رَوْض وكأس رحيق
كأفراط دُرٍّ قُمَعَتْ بعقيق
له حالتا ذي غَشِيَة ومُفِيق
نسيم جنوب ضُمُّخَتْ بخلوق

وقال آخر فيه وقد تَفْتَّح:

كَأَنَّ الياسمين الغَضُّ لَمَّا
سماء للزَّبَرْجَد قد تَبَدَّتْ
أَذَرْتُ عليه وسط الرِّوْض عيني
لنا فيها نجوم من لُجَيْن

وقال أحمد بن عبد الرَّحْمَنِ القُرْطُبِيُّ:

ولَقَاء خِلْنَاهَا سماء زَبَرْجَد
تَنَاولَهَا الجاني من الأرض قاعداً
لها أنجم زُهر من الزَّهَر الغَضُّ
ولم أَر من يجني النُّجوم من الأرض

وقال الشُّمَشَاطِيُّ في شُجَيْرَة كبيرة منه جَمَعَت الأَبْيَض والأَصْفَر:

وياسمين قد بدا لونيْن
رَكَب في زَبَرْجَد نوعيْن
فُراضة من ورق وعيْن
فالبِيض منه في عِيان العيْن
والصُّفْر لون عاشق ذي بين
مثل ثغور البِيض غير مَيَّن

وقد تَطَيَّر به الشَّاعر:

لا مَرَجَباً بالياسم
صَحَفْتُهُ فوَجَدْتُه
يَنْ وإن غدا للروْض زَيْنَا
مُتَقَابِلَا يَأْسَا وَمَيْنَا

(١) مُعْجَم الأَدْبَاء لياقوت، مطبوعات دار المأمون، ج ٩، ص ١٣٨.

Rosa damascoena, rosier de Damas.

(٢)

ولكن ابن الحداد يعكس فيتفاءل به:

بعثت بالياسمين الغضُّ مُتَسِمًا وحسنه فاتنٌ للنفس والعَيْن
بعثته مُنِثًّا عن صدق مُعْتَقَدي فانظرُ تجد لفظه ياساً من المَيْن
والغز شاعر فيه:

يا من يحلّ اللّغز في ساعة كلّمحة من طرفة العَيْن
ما اسم إذا أنقصت من عدّه في الخطّ حرفاً صار اسمين

وقد دخل الياسمين أوربة مع عرب أسبانيا من الغرب ثم دخلها ثانية مع الأتراك من الشرق.

وتنبّت الرّياحين في الرّبيع من كلّ نوع. ولقد أطلقَت اللّغة العربيّة لفظ الرّياحين على كلّ نبت طيّب الرّيح كالترّجس والمنثور وغيرهما ممّا سبق ذكره. ولكنّ اللّفظ أصبح يُطلق بوجه خاصّ عند النّاس على ما يُدعى «الحبق» بالعربيّة وهو نبات عطر من الفصيلة «الشّفوية».

وله أنواع مُتعدّدة بعض أسمائها فارسيّ دخل العربيّة، منه الحبق المعروف أو الباذروج أو الحبق الطّبيّ أو الحماحم، ومنه الشّاهسفرم ومعناه الرّيحان المَلَكِيّ أو سلطان الرّياحين وهو دقيق الورق جدّاً ويُدعى الحبق الصّعتريّ ويدعوه بعضهم الحبق الكرمانيّ والضّومر، ومنه الفرنجمشك وهو الرّيحان القرنفليّ، وكذلك الترّنجان أو الرّيحان الأترنجانيّ وهو الباذرنجبويه والباذرنبويه وحشيشة السّنور أو المليسة كما ندعوها اليوم.

وكُتِب النّبات واللّغة والأدب العربيّة ليست مُتّفقة تمام الاتّفاق في وصف كلّ من هذه الأنواع وتسميته، وقد وصف الشعراء كلّاً منها، ويضيق لهذا البحث الفنّي في تتبّع اختلاف العلّماء في الأسماء وبيان ما يقصده الشعراء في أوصافهم ولكن لا بدّ من ذكر بعض الأمثلة ولو قلّت. يقول ابن وكيّع في الصّعتريّ:

صّعتريّ أدقّ من أرجل النّم ل وأذكى من نفحة الزّعفران
كسطور كُسيّن نقطاً وشكلاً من يدي كاتب طريف البنان

ويقول أبو بكر الخوارزميّ فيه أيضاً:

وصفت رِيحاناً إذا ما وصفه واصفه قيل له زِد في الصّفه
دقّفه صانعه ولطّفه كأنّه وشم يد مُطرّفه

أو خَطُّ وِرَاقٍ أدقَّ أحرفه أو زَغَبَات طائر مُصَفِّفه
أو حلَّة مُخَضَّرَة مُفَوِّفه

ويقول ابن عبد ربِّه في الرِّيحان مُشيراً إلى أزهاره البيض الصَّغيرة كأنَّها شيب الشَّعر
المُفْلَقَل وأوراقه الخضر وأغصانه الشُّود:

ورِيحان تَمِيس به غصون يطيب بِشْمه شُرب الكؤوس
كسودان لِسْن ثياب خُرُّ وقد قاموا بها شيب الرُّؤوس

وقد رُوِيَ أنَّ كسرى أنوشروان «كان جالساً وإذا بحَيَّة قد دَنَتْ من عَشِّ حمامة في
بعض شُرَف الإيوان لتأكل فراخها فرمى الحَيَّة بسهم قتلها وقال: هكذا نفعل بِعدُوٍّ من
استجار بنا. فلمَّا كان بعد أيَّام جاءت الحمامة بحبٍّ في مِنقارها فألقته إليه فأخذه وقال:
ازرعوه فنبت رِيحاناً لم يكن رآه ولا عرفه، فقال: نِعَمْ ما كافأنا به الحمامة نسأل الله
تعالى الذي ألهمها أن يُلهمنا الإحسان إلى رَعِيَّته والشُّكر على نعمته»^(١).

وقريب من الحبِّ النَّمَام وهو من الرِّياحين أيضاً. يقول ابن تميم وهو يخشى على
حبيبه مُلاحظة عيون النُّرجس كأنَّها تتجسَّس ونميمة النَّمَام:

ولم أنسَ إذ زار الحبيب برؤضة وقد غفلت عَنَّا وُشاة ولُؤام
أقول وطرف النُّرجس الغضُّ شاخص إلينا وللنَّمَام حولي إلمام
أيا ربِّ حتى في الحداثق أعين علينا وحتى في الرِّياحين نَمَام

ويقول آخر وقد دفع إلى من يُحبُّها بقضيب من النَّمَام فتنبَّهه على لُزوم الحيلة
والكِتمان، يا له من غِرٍّ!

حَيَّيْتُهَا بِتَحِيَّة في مجلس بقضيب نَمَام من الرِّيحان
فَطَيَّرْتُ منه وقالت أَلْقِه لا تَقْرَبَنَّ مُضِيَّع الكِتمان

ويَضيق شاعر بهذا الاسم فيقول:

لا بارك الله في النَّمَام أنَّ له اسماً قبيحاً من الأسماء مهجورا
لو لم يَنَمَّ على العشاق سرَّهم ما كان فيهم بهذا الاسم مشهورا

(١) «نزهة الأنام في محاسن الشَّام» لأبي البقاء عبد الله بن محمَّد البَدْرِي المِصرِيّ الدُّمشقيّ من عُلَماء
القرن الثَّامِس ١٥٦، والمُؤَلَّف ينقل القِصَّة عن الشَّيخ جمال الدِّين محمَّد بن نُباتَة في كتابه «سُرَح
العيون في شرح رسالة ابن زيدون».

ويقول ابن رشيّق مُخالفًا لهذا المعنى ومُتفائلًا فإنَّ الحُكْم «للقلب» وهو يُصَحِّح الأمور:

لِمَ كَرِهَ النَّمَامُ أَهْلَ الْهَوَى أَسَاءَ إِخْوَانِي وَمَا أَحْسَنُوا
إِنْ كَانَ نَمَامًا فَتَنَكَيْسِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْذِيبٍ لَهُمْ مَأْمَنُ

ومن الرِّياحين التي أَحَبَّها العرب الآسُ وذلك لِبَقَائِهِ ودوامِ نَضْرَتِهِ وخُضْرَتِهِ زِيَادَةً على عَرَفِهِ حتَّى في زمن الجفافِ فاعْتَبِرَ سَيِّدُ الرِّياحين وهو من الفَصِيلَةِ الْآسِيَّةِ أَوْرَاقَهُ مُصَفَّفَةً على أَغْصَانِهِ كَالنِّصَالِ الْمُوجَّهَةِ إِلَى الْأَعْدَاءِ. قال الْأَخْيَاطُ الْأَهْوَازِيُّ^(١):

لَلْآسِ فَضْلٌ بَقَائِهِ وَوَفَائِهِ وَدَوَامُ نَضْرَتِهِ عَلَى الْأَوْقَاتِ
الْجَوُّ أَغْبَرُ وَهُوَ أَخْضَرُ وَالشَّرَى يَيْتَسُ وَيَبْدُو نَاضِرُ الْوَرَقَاتِ
قَامَتْ عَلَى قُضْبَانِهِ وَرَقَاتِهِ كِنِصَالِ نَبَلٍ جِدًّا مُؤْتَلَقَاتِ

وَلَا عَزْوُ أَنْ يَتَّخِذَ بَيْنَ الْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ رَمْزًا إِلَى الْوَفَاءِ وَبَقَاءِ الْعَهْدِ.

يقول ابن زيدون:

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إِنْ وَدِّيَ لِسَـ____كَ آسَ

وكما اعتاد العرب تداول النِّصَالِ كَذَلِكَ اعتادوا رُؤْيَا آذَانِ الْخَيْلِ النَّافِرَةِ وَارْتَاخُوا لَتَأَمُّلِ الْأَصْدَاغِ وَالسَّوَالِفِ الْجَمِيلَةِ، يقول ابن وَكَيْع:

خَلِيلِي مَا لِلْآسِ يَبْقَى نَشْرُهُ إِذَا هَبَّ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الْعَوَاطِرِ
حَكَى لُونَهُ أَصْدَاغُ رِيْمٍ مُعَدَّرٍ وَصُورَتِهِ آذَانُ خَيْلٍ نَوَافِرِ

ويشير آخر إلى انْتِظَامِ أَوْرَاقِ الْآسِ على أَغْصَانِهِ وإلى أَشْكَالِهِ اللَّوْزِيَّةِ:

عَوَارِضُ الْآسِ أَبَدَتْ فِي مُوَشَّحِهَا نَظْمًا بِأَغْصَانِهِ لِلْبَيْتِ خَرَجَاتِ
وَقَدْ حَلَا لِي بِأَوْرَاقِ مُلَوَّزَةٍ وَلِلْمُلَوَّزِ فِي الدُّنْيَا حَسَاوَاتِ

وَإِذَا رَاقَ فِي الشَّعْرِ إِدْرَاكُ الشَّبَّهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمَأْلُوفَةِ الْمُعْتَادَةِ إِدْرَاكَاً جَدِيداً طَرِيفاً تَعْبَهُ الْحَاسَةُ الْفَنِيَّةُ أَوْ يُوحِي بِهِ الْخَيَالُ الْمُصَوِّرُ لَمْ يَكُنْ مُتَنَبِّهاً لَهُ كَذَلِكَ يَرُوقُ الشَّنْقِيبُ عَنْ صُورٍ غَرِيبَةٍ عَجِيبَةٍ. يقول ابن طَبَّاطِبَا:

الْآسُ فَرَّدَ بَدِيعَ فِي مَحَاسِنِهِ مَا مِثْلُهُ فِي مَعَانِيهِ بِمَوْجُودِ
يَبْدُو بِأَغْصَانِهِ خَضِرَاءُ تَلَبَّسَهُ كَأَلْسَنِ الطَّيْرِ تُشَوِي بِالسَّفَافِيدِ

(١) سَبَقَ وَصَفُهُ بِالْوَاسِطِيِّ كَمَا فِي كِتَابِ «التَّشْبِيهَاتِ» لِابْنِ أَبِي عَوْنٍ.

ولا بدّ من اضْطِناع لفظ الآس في التَّورِيّة، يقولُ الشَّيْخُ برهان الدِّين الباعونيُّ:
 ورَوَّضَ بِأَنهَآ يَهْتَزُّ مِنْ طَرْبٍ شَبِيهَ مَرْتَشِفٍ مِنْ خَمْرَةِ الْكَاسِ
 يَشْنِي النَّسِيمَ عَلَى الْآسِ النَّضِيرِ بِهَا فَهُوَ الْعَلِيلُ الَّذِي يَشْنِي عَلَى الْآسِي
 والرَّبِيعُ موسمُ الأزهارِ على وَجْهِ الْعُومِ تَزْهَرُ فِيهِ الْأَشْجَارُ مَثْمَرَةً وَغَيْرَ مَثْمَرَةٍ،
 وِبَاكُورَةِ الزَّيْزَفُونِ أَوْ الْخِلَافِ فِي بَعْضِ التَّسْمِيَّاتِ أَوَّلَ بَسَمَاتِ وَجْهِ الرَّبِيعِ (يُطْلَقُ الْخِلَافُ
 أَيْضاً عَلَى الصَّفْصَافِ):

أَوَّلُ ثَغْرِ الرَّبِيعِ مُبْتَسِماً نَوْرُ خِلَافٍ دُرٌّ مَضَاحِكُهُ
 قُضْبَانُهُ الْقَانِثَاتُ فِي لَمَعٍ مِنْ لَوْلُؤٍ وَضَحٍ مَسَالِكُهُ
 بِشِيرِ صِدْقٍ جَاءَ الرَّبِيعُ بِهِ يُخِيرُ أَنْ زَيْتُ مَمَالِكِهِ

ثمَّ يَجْرِي الْعَرَضُ الْوَاسِعُ الَّذِي قَدَّمْنَا أَلْوَاناً وَأَشْكَالاً مِنْ كِتَابِهِ وَزَخَارِفِهِ. وَسُرْعَانِ
 مَا تَفْتَحُ بَرَاعِمُ شَجَرِ اللَّوْزِ. يَقُولُ الْأَمِيرُ مُجِيرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ تَمِيمٍ فِي شَجَرَةِ غَطَّتْهَا
 الْأَزْهَارُ حَتَّى كَانَتْهَا خِيْمَةٌ بِيضَاءَ قَائِمَةٍ عَلَى سَاقِهَا بِدِيعَةِ الْمَنْظَرِ لَمْ تُشَدَّ بِأَطْنَابٍ:

يَا حُسْنَهَا دَوْحَةٌ بِاللَّوْزِ حَالِيَةً يَدُو لَعِينِيكَ مِنْهَا مَنْظَرٌ عَجَبٌ
 كَأَنَّهَا قُبَّةٌ بِيضَاءَ قَائِمَةٍ عَلَى عُمُودٍ وَلَكِنْ مَا لَهَا طُنْبٌ

فَإِذَا أَزْهَرَتِ الْأَشْجَارُ كُلُّهَا بَدَتْ عَلَى بُعْدٍ كَقَطْعِ الضَّبَابِ الْأَبْيَضِ الْمُتَقَطِّعِ، وَذَلِكَ
 يُدَكِّرُ رُبْعَ الْغُوطَةِ. وَيَكَادُ جَمَالُ الشُّعُورِ يَحْجُبُ الْجِنَاسَ فِي قَوْلِ مُجِيرِ الدِّينِ بْنِ تَمِيمٍ،
 وَإِنَّمَا وَصَفَ تِلْكَ الرَّبْعَ:

خَرَجْنَا لِلتَّنَزُّهِ فِي بَقَاعٍ يَعُودُ الطَّرْفُ عَنْهَا وَهُوَ رَاضِي
 وَلَا حَ زَهْرٍ مِنْ بَعْدِ فَخِلْنَا ضَبَاباً قَدْ تَقَطَّعَ فِي أَرَاضِي

وَبَيْنَ ذَلِكَ الضَّبَابِ الْمُوزَّعِ فُوقَ الْأَرْضِ يَنْظُرُ الْمُتَنَزِّهُ إِلَى الْحَقُولِ الْمَزْرُوعَةِ بِالْبَقُولِ
 وَقَدْ تَبَلَّجَتْ أَزَاهِيرَهَا وَتَرَصَّعَتْ أَشْكَالَهَا وَلَا سِيَّما حَقُولَ الْفُولِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ الْبَاقِلَاءَ فَتُورُهُ
 مُرَقَّشٌ بِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ يَحُومُ فَوْقَهُ الْفَرَاشُ وَهُوَ بِشَكْلِهِ يَحْكِي الْفَرَاشَ حَتَّى يَحْسِبَهُ النَّظَرُ
 أَفْرَاحَ الْفَرَاشِ تَطُوفُ عَلَيْهَا أُمَاتُهَا. يَقُولُ ابْنُ وَكِيعٍ التَّنِيسِيُّ:

كَلِفْتُ بَنُورَ بَاقِلَى سَبْتَنِي كَمَائِمُهُ فَسَّرِي فِيهِ فَاشٍ
 إِذَا نَزَلَ الْفَرَاشُ عَلَيْهِ يَوْمًا حَسِبْتُ النَّوْرَ أَفْرَاحَ الْفَرَاشِ

وَحَقًّا كَلِفَ هَذَا الشَّاعِرُ بَزَهْرِ الْبَاقِلَاءِ فَهُوَ عِنْدَ وَصْفِهِ لِلرَّوْضِ فِي قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ
 ذَكَرَهَا صَاحِبُ الْيَتِيمَةِ يَنْعَتُ أَيْضاً بَيَاضَ نَوْرِ الْفُولِ الْمُخْتَلِطِ بِالسَّوَادِ كَأَنَّهُ الْحَوْرُ أَوْ الدَّعَجُ

في العيون، هل رأيتم مُقلَّ الظباء العفر المُرَوَّعة أو قوارير الفضة احتوت على آثار المسك
أو الوفرة الفاحمة فوق سوائف بيض؟

كَأَنَّ ورد الباقلاء إذ بدا
كمثل ألخاظ اليعافير إذا
كَانَها مدهن من فضة
كَانَها سوائف من خرد
لناظرينه أعين فيها حور
رَوَّعَها من قانص فرط الحذر
أوساطها بها من المسك أثر
قد زينت بياضها سود الطرر

أو رأيتم خواتم من لجين فصوصها سود حبشية؟ يقول الشاعر نفسه:

كَأَنَّ أوراق ورد
خواتم من لجين
للباقلاء بهيئه
فصوصها حبشية

إنَّ هذا الشاعر يستحقُّ أن يُدعى شاعر زهر الفول. يقول أيضاً ويكرِّر هذا التشبيه
الأخير:

لي نحو ورد الباقلى
كَأَنَّما مبيضه
خواتم من فضة
إدمان لهو ولهج
يلوح من ذاك الدَّعَج
فيها فصوص من سبج

إنَّ زهر الباقلاء من طلائع فصل الربيع وشذاه من أنفاس لهذا الفصل الأولى، وشكله
في اعتبار كالحمام الأبلق أي الذي في لونه بياض وسواد، يقول الشاعر نفسه:

فصل الربيع بدا لنا بنسيمه
زهر لباقلَى به فكأنه
يدعو فتُسرع نحوه الخلق
بين الرِّياض حمائم بُلُق

وقد بلغ حبُّه لزهر الفول أن أتى بتلك الصُّور البديعة. وكأنَّه لم يَكْفِه ذلك حتى
التَّمس له صورة ظريفة حسَّية مُغرِية وهي سرَّر البنات الرُّوميَّات البيض وقد ضُمَّخَتْ
بالطيب. والشعر، مثل التَّصوير لا يأنف من العُري لإبراز الجمال وإحكام التَّمثيل:

إنَّ للباقلاء نوراً ظريفاً
قد حكى ضُحوة لنا إذ تَبَدَّى
جلَّ في الحسن عن بديع مثال
سرَّر الرُّوم ضُمَّخَتْ بَغْوال

بيد أنَّ ذلك النور لا يلبث أن يعقد وتتكوَّن قرون الفول كأنَّها أصداف أو جُرب كلُّ
جراب ظاهره أخضر وباطنه فضيُّ فهو ذو وجهين مقسوم باطنه إلى أقسام تسكنها حَبَّات
الفول كالزُّمرد مُغلَّفة بأغشية كالذُّر عليها أهلة كقلامات الأظفار. وهي قد استرعت انتباه
الشُّعراء واجتَلَبَتْ وصفهم لها كالآزهار. يقول الصَّنوبريُّ:

فصوص زُمرد في غُلف دُرٍّ
باقماع حَكَتْ تقليم ظُفر

وقد خا ط الرِّبْع لها ثياباً
ويقول أبو الفتح كُشاجِم:

وباقِلاء حَسَن المُجَرَّد
كالعِقْد أَلَّا أَنَّهُ لَمْ يَعْقِدْ
أو كَفَرِيد اللُّؤْلُؤِ المُنْضَد
ويقول أبو طالب المأموني:

وباقِلاء أَزْهَر
تَضَمُّهُ أَوْعِيَّة
أوساطها مُخْطَفَة
أطرافه مَـذْرُوبَة
فَطَرَف كَمِخْلَب
مثل سُموط الجَـوهر
مثل الحَـرِير الأَخضر
مثل خَصَـوَر ضَمَّر
مَسرووقَة مَن أنْـسَر
وطـرَف كَمِـنْـسَر

وَيَتَقَدَّم الزَّمانُ إِذَا تَلَّكَ الزُّرُوعُ الَّتِي رَأَيْنَا أوصافها وَتَتَخَلَّلُها شقائق النُّعمانُ قَدْ
أَسْبَلَتْ، وَسَنابِلُها المَمْتَلِئَة المَرصُوصَة تارَةً تَبْدُو مِنْ قَرِيبٍ كَالْحُلِيِّ الذَّهَبِيَّةِ أَوِ السَّلَاسِلِ
المَضْفُورَة، وَطَوْرًا تَلُوح عَلى بُعْدٍ تَحْتَ خَفَقِ الرِّياحِ كالأَـمَواجِ. يَقولُ ظافِر الحَدَّادِ
الإسكندريُّ:

كَأَنَّ سَنابِلَ حَبِّ الحَصِيدِ
كَبائِـسٍ مَضْفُورَة رُبُعَتْ
وقَدْ شَارَفَتْ وَقْتَ إِبانِها
وَأَزْخِي فاضِل خِطانِها^(١)

ويقول آخر:

يَا جَبَّـذا سَنبِلَة
كَأَنَّها سَـلْسِلَة
تَبْدُو لَعِينِ المُبْصِرِ
مَضْفُورَة مَن عَنَبِرِ

ويقول ابن رافع:

انْظُرْ إِلى سَنبِلِ الزُّرُوعِ وَقَدْ
كَأَنَّـه البَحْرُ فِي تَمْؤُجِه
مَرَّتْ عَلَيـهِ الجَنُوبُ وَالشَّمَالُ
يَعْلُو مِراراً وَمَرَّةً يَسْفُلُ

ولا بدَّ من أن نَمَرَّ بِسرعة عَلى حَقولِ أُخْرى مَزروعة بنباتات ذات بذور مختلفة
الاستعمال. قال ابن وكيع في وصف الخشخاش المُزهر:

(١) كَبائِـس أَي حُلِيٍّ مُجَوِّفَة مَحْشُوءَة طَيِّباً. وَيَجُوزُ كِتابِيشُ أَي بَرادِعُ لا مَكَانِـسَ كَما ظَنَّ مُحَقِّقُ الجِزءِ
الحادي عَشَرَ مِنْ نَهايةِ الأَرَبِ.

وخشخاش كأنما منه نفري
كأقداح من البلور صينت

وقال في وصف نبات الكتان الجميل:

ذوائب كتان تمايل في الضحى
كان اصفرار الزهر فوق اخضرارها
على خضر اغصان من الرّيّ مئد
مداهن يثر ركبّت في زبرجد

ويقول ابن الرّومي في وصف الكتان الذي غطى الأرض كالسّاط:

وحلس من الكتان أخضر ناضر
إذا درجت فيه الرّيح تتابعث
يُأكّره داني الرّباب مطير^(١)
ذوائبه حتى يُقال غدير

وكذلك تتأمل الشمر والشمار والشمرة ويدعى أيضاً البساس في المغرب والرازيانج في العراق.

يقول ابن وكيع يصفه، وكان اليد التي تحمل غصناً منه لتناول الشاعر تحوّل به سحر
حسنها وجمال حركتها مذبّة من حرير:

أخذت من كف الغزال الأخور
كأنه في عين كل مبصر
غصناً من البساس ممطوراً طري
مذبّة من الحرير الأخضر

ومن أجمل الأزهار التي تتفتح في الحقول والبساتين الجلنار، وقد فتن به الشعراء.

يقول أبو فراس:

وجلنار مشرق
كان في اغصانه
قراضة من ذهب
على أعالي شجره
أحمره وأصفره
في خرقه مُعضفه

ويقول ابن وكيع:

وجلنار بهي
بدا لنا في غصون
يحكي قصص عتيق
ضرامه يتوقد
خضر من الرّيّ مئد
في قبّة من زبرجد

وقال آخر:

كانما جلنار لّما
أنامل كلّها خضيب
أظهره العرض للعيون
تنشر لاذاً على الغصون

(١) في رواية أخرى وجلس، والجلس ما ارتفع من الأرض.

واللآذ ثياب من الحرير حمر كانت تُنسَج في الصِّين ولهذا يدلُّ على أنَّ التَّجَارَةَ كانت رائجةً بينها وبين البلاد العربيَّة.

لَتَتَوَقَّفَ قليلاً للرَّاحة في البستان وتُلْقَ نظرة عامَّة عليه وعلى بعض أزهاره التي استَرْعَتْ إعجابنا، ولنستمع إلى ابن المُعْتَزِّ في أرجوزته التي يذمُّ فيها الصُّبُوح يُلْخِص بعض ما رأيناه:

أَمَّا تَرى البستان كيف نَوَّرَا
وضحك الورد إلى الشَّقائِق
في رَوْضَةٍ كَحِلْيَةٍ^(١) العروس
وياسمين في دُرا الأغصان
والسَّرو مثل قُضْب الزَّرْجَد
على رياض وتُرى ثري
وفرَج الخَشخاش جَنِيًّا وَفَتَقُ
أو مثل أقداح من البلُّور
وبعضه عُرِيان من أثوابه
تُبَصِّره بعد انتشار الورد
والسُّوسن الآزاد^(٢) منشور الحُلل
نَوَّر في حاشِيَتِي بستانه
وقد بَدَتْ فيه ثمار الكَبَر^(٣)
وحلَّق البَهَار بين الآس
خلال شِيح مثل شَيْب النِّصَف
وجُلُنار كاخمرار الورد
والأفْحوان كالنَّايَا العُزْر^(٤)

وَنَشَرَ المَشُور بُزْدًا أَصْفَرَا
وَاعْتَنَقَ القَطَر اعتناق الوامِق
وَحُرِّمَ كَهَامَةِ الطَّاووس
مُنْظَمَ كَقِطَاعِ العِقيان
قد اسْتَمَدَّ الماء من تُرْب ندي
وجَدول كالْمِبْرَد المَجْلِي
كأنَّه مَصاحِف بيض الورق
تَخالها تَجَسَّمت من نور
قد خجل الأعين من أصحابه
مثل الذَّبَابِيس بأيدي الجُنْد
كَقُطُن قد مَسَّه بعض بَلَل
ودخل المَيْدان في ضَمَانِه
كأنَّها حمائم من عَنبر
جُمُجُمَةٍ كَهَامَةِ الشَّمْشِاش
وجوهر من زَهَر مختلف
أو مثل أَعْرَاف دِيوك الهِنْد
قد صُقِلَتْ أنواره بالقَطَر^(٤)

(١) كَحَلَّة في رواية الديوان.

(٢) الآزاد والآزاد الأبيض واللَّفْظ من أصل فارسيّ آزاده بمعنى شريف وأيضاً أبيض.

انظر لفظ السُّوسن في مُفْرَدَات ابن البيطار: «فمنه أبيض ونُسَمِّيهِ السُّوسن الآزاد...».

(٣) الكَنَكِر في رواية الديوان وهو الحَرَشُف أو الخَرَشُوف أي الأرضي شوكي. واللَّفْظ العامِّي آتٍ من اللَّفْظ الفرنسيّ المُنحَدِر من العربيَّة.

(٤) الأبيات المذكورة في الجزء الثَّاني من زهر الآداب وفي ديوان ابن المُعْتَزِّ، طبع بيروت ١٣٣٣ هـ وفي الجزء الرَّابِع من شعر عبد الله بن المُعْتَزِّ، صنعة أبي بكر الصُّولي، استانبول، مطبعة المعارف ١٩٤٥ م. وفي النَّسخ بعض الاختلاف في الألفاظ.

لندخلُ بعض البيوت العربيّة القديمة ولننظرَ في مطابخها وعلى موائدها إلى بعض البقول أو الثّبات فيها نَرَ النّنع أو التّنعاع وهو من الفصيلة الشّفويّة كالحبق الذي تقدّم ذكره في الرّياحين. وأصنافه كثيرة جدًّا يزيد عددها على ألف. يبدو كأصداع مُقلّقة من التّجعد:

وجاءت بنعناع كأنّ غصونه وأوراقه مخلوقة من زبرجد
إذا مسّه لفح الحَرور رأيته كأصداع زنج فُلّلت من تجعد

وإذ نحن في البيت يحلو لنا أن نروي النّادرة التي تتعلّق بالنّنع وعلى نقلها ياقوت في كتابه مُعجم الأدباء عن أصحاب الوزير أبي محمّد المُهلبيّ ومنهم أبو القاسم الجهنّيّ القاضي وكان «يشتَمِل على آداب يُميّز بها إلّا أنّه كان فاحش الكذب، يُورد من الحكايات ما لا يعلّق بقبول ولا يدخل في معقول وكان أبو محمّد قد ألّف ذلك منه وقد سلّك مسلك الاحتمال وكنا لا نخلو عن حديثه من التّعجب والاستطراف والاستبعاد، وكان ذلك لا يزيده إلّا إغراقاً في قوله وتَمادياً في فعله. فلمّا كان في بعض الأيّام جرى حديث النّنع وإلى أيّ حدّ يطول. فقال الجهنّيّ: في البلد الفلاني يتشجّر حتى يعمل من خشبه السّلايم، فاغتاظ أبو الفرج الأصبهانيّ من ذاك وقال: نعم، عجائب الدّنيا كثيرة ولا يُدفع مثل هذا، وليس بمُسْتَبَدّع، وعندي ما هو أعجب من هذا وأغرب، وهو زوج حمام راعيّ بيض في نيّف وعشرين يوماً بيضتين فأنتزعهما من تحته وأضع مكانهما صُنْجة مائة وصُنْجة خمسين، فإذا انتهى مُدّة الحضان تفقّست الصُنْجتان عن طست وإبريق أو سطل وكرنيب، فعَمْنَا الضّحك وفطن الجهنّيّ لما قصده أبو الفرج من الطّنز وانقبض عن كثير ممّا يحكيه ويتسمّح فيه وإنّ لم يخلُ من الأيّام من الشّيء بعد الشّيء منه»^(١).

وباقة الهليون كأنّها تضمّ نبالاً رشيقة صيغت من الزّبرجد أصلها بيض حتى لتحسبها مُفضّضة وأعاليتها مُزخرفة كأنّها الأشناف أو الأقراط. يقول كشاجم:

وباقة هليون أتت وهي غضة فشبهتها تشبيه ذي اللّب والفضل
برُشِق نبال جُمعت من زبرجد مُشَنّقة الأعلى مُفضّضة الأصل

والباذنجان لفظ فارسيّ يُقابله في العربيّة أسماء مُتعدّدة منها الأنب والمغد والرّغد والحيّصل. وقد شاع اللفظ الفارسيّ. قال بعض الشعراء يصف المدور منه:
أهدت لنا الأرض من عجائبها ما سوف يزهو به وقتي

(١) ج ١٣ ص ١٢٣ - ١٢٤، الكرنيب هنا شيء ذو قبضة كالْمِرْقَة أو الكَيْل يُرافق السّطل، ومُعجم دوزي يُشير إلى أنّه ضرب من القوارير. والطّنز السُّخْرية.

إذا أجساد الـذي يشبهه وأحكم الوصف منه في النعت
قال كُرات الأديم قد حُشيت بِسِمسم قُمعت بِكِمَمُخت
والكيمخت بكسر الكاف وضم الميم أو بفتحهما ضَرَب من الجلود المدبوعة يُتخذ
من ظهور الخيل والحمير.

إنَّ هذا الشاعر استكمل الوصف بمهارة فائقة فأتى على قِشر الباذِنجان وبزره الصَّغير
السَّمسمي وعلى قمعه الذي يَتعلَّق به بالغُصن.

ويقول أبو الحسن عليُّ بن أحمد الجوهريُّ من شعراء اليتيمة:

وباذنجانة حُشيت حشاها صفار الدُّرِّ باللُّبن الحليب
تَقَمَّصَت البنفسج واستَقَلَّت من الآس الرطيب على قضيب

ويقول آخر يصف الأسود منه:

وكأثما الأبدنَج سود حمائم أوكارها رَوْض الرِّيع المُبكر
لَقَطت مناقرها الزَّبْزَجِد سِمسم فاستَوْدَعَتْهُ حواصلًا من عُنبر

ولكن إذا تأملنا من قُرْب هذا القمع الخشن الغليظ الثَّباتي فقد يَلوح هو لنا مع
طَرَف الغصن كالمنقار، وقد يَلوح لنا أيضاً مع أجزائه المُتفرِّعة المحيطة بطَرَف الباذِنجانة
كمِخلب باشق أو عُقاب، أمَّا الباذِنجانة نفسها فتبدو عندئذ كقلب ظَنبي أو نعجة. يُسبب
إلى ابن المُعْتز:

وإنْدَنَج بستان أنيق رأيُّه على طبق يَحكي لمُقلَّة رامق
قلوب ظباء أَفَرَدَتْ عن جُسومها على كُلِّ قلب منهم كفُّ باشق

ويقول آخر:

وَمُسْتَحْسَن عند الطَّعام مُدْخَرَج غِذاه نَمير الماء في كُلِّ بستان
تَطْلُع من أقماعه فكأَّه قلوب نِعاَج في مَخالِب عُقبان

أو يبدو الباذِنجان في مزارعه كزُنُوج لا لَحى لها على رؤوسها قَلانِس دقيقة مُستطيلة
خضر تحت أوراق الثَّبات.

يقول البَدريُّ المصريُّ الدَّمشقيُّ:

بِإِذْنِجكم كـزـنـوج كـواسـج في التِّيام
خضر الطَّراطير هاموا بِالرَّقص تحت الخِيام

ومع طيب الباذنجان ودخوله في ألوان شتى من الطعام ربما لا يرضى عنه بعض الشعراء:

وَإِذَا صَنَعْتَ غَدَاءَنَا فَاصْنَعْهُ غَيْرَ مُبْنَذَجٍ
إِيَّاكَ هَامَةً أَسْوَدَ عُرِيَانٍ أَصْلَحَ كَوَسَجٍ

ولا ننس اللفت أو السلجم. يقول ابن رافع الأندلسي:
كَأَنَّمَا السَّلْجَمُ لَمَّا بَدَا فِي حُسْنِهِ الرَّائِقُ مِنْ غَيْرِ مَيْنٍ
قَطَائِعَ الْكَافُورِ مَلْمُومَةً لِمُبْصِرِيهَا أَوْ كُرَاتِ اللَّجَيْنِ

ولا الفجل الطويل المُقَشَّرُ في قول الشاعر:
أَخْبِبْ بِفَجَلٍ قَدْ أَتَانَا بِهِ طَبَّاخُنَا مِنْ بَعْدِ تَقْشِيرِ
مُنْضَّدٍ فِي طَبَقٍ خِلْتُهُ مِنْ حُسْنِهِ قُضْبَانٍ بُلُورِ
وقول الآخر:

أَخْبِبْ بِفَجَلٍ قَدْ أَتَنِي بِهِ عِنْدَ مَسَاءِ ذَاتِ أَوْقَارِ
كَأَنَّهُ فِي يَدِهَا إِذَا بَدَا مُقَشَّرًا فِي وَقْتِ إِفْطَارِي
قُضْبَانٍ بُلُورٍ وَالْأَفْطَارِ يَجْمَدُ مِنْ قَطْرِ التَّدَى الْجَارِي

وكما أنَّ الفيلسوف يضع كلَّ شيء في رُتبته من الوجود، كذلك الشاعر يَمَسِّحُ وَجْهَ كلِّ شيء فإذا هو مَصْقُولٌ مُؤْتَلِقٌ بِدِيْعِ الصُّورَةِ، ويُدْكِ شعورنا به فإذا بنا نُقْبَلُ عَلَيْهِ وَنَتَأَمَّلُهُ بِمَحَبَّةٍ وَإِعْجَابٍ، ولو كان من الأشياءِ الْاَعْتِيَادِيَّةِ وَالسَّلْعِ الْمَأْلُوفَةِ. هَذَا الْجَزْرُ الَّذِي يُرَافِقُنَا عَلَى مَدَارِ السَّنَةِ تَأَمَّلْ جَمَالَهُ وَأَلْوَانَهُ الْبَدِيعَةَ فِي قَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ:

انْظُرْ إِلَى الْجَزْرِ الَّذِي يَحْكِي لَنَا لَهَبَ الْحَرِيقِ
كَمَذْبَذَةٍ مِنْ سُنْدُسٍ فِيهَا نِصَابٌ مِنْ عَقِيقِ

وفي قول ابن رافع:
انْظُرْ إِلَى الْجَزْرِ الْبَدِيعِ كَأَنَّهُ فِي حُسْنِهِ قُضْبٌ مِنَ الْمَرْجَانِ
أَوْرَاقُهُ كَزَبَرَجَدٍ فِي لَوْنِهَا وَقُلُوبُهُ صِيغَتْ مِنَ الْعَقِيَانِ

حتى البصل ناله الوصف. يقول ابن وكيع:
فَاعْمِدْ إِلَى مُدَوَّرٍ مِنَ الْبَصْلِ فَإِنَّهُ أَكْثَرُ أَعْوَانِ الْعَمَلِ
يَحْكِي لَعِينِكَ إِحْمَرَارَ قَشْرِهِ إِذَا رَمَاهُ نَظَرٌ بِفَكْرِهِ
غَلَاثِلًا حُمْرًا عَلَى جِسْمِهِ بِيضَ رِطَابٍ مِنْ جِسْمِ الرُّومِ

ولكن لنرفع الغلائل الحمر وهي القشور الخارجية فماذا نجد؟ نجد كأن الطبيعة الحارسة حشّت البصل بالثياب ضئلاً به على الحُساد حتى إذا عَرَيْنَاه ورفعنا طبقات الثياب الملبوسة لم نجد اللّابس:

يُكثِرُن من لبس الثياب تسُّراً كتم الحسود ليطمئن الحارس
فلذا نظرت إلى الثياب وجدتُها أثواب زور ليس فيها لابس

والشاعر باللفظ والخيال يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء، فقد نظر ابن رافع القيرواني إلى رأس الثوم وأغفل رائحته في يد الطاهية الحسنة وهي تقلبه للتقشير فخيّل إلينا أن الذي في يدها صرة خيطت من نسيج أبيض دقيق صنع في دبيق، وهي بليدة مصرية كانت بين القرما وتنيس ثم خرّبت، وفي الصرة درر بيض مكتومة:

يا حبذا ثومة في كف طاهية بدعة الحسن تسبي كل من نظرا
أبصرتها وهي من عجب تقلبها كصرة من دبيق حوت دررا

والزيتون من الفاكهة؛ ولكن يطيب لنا أن نذكر وصف ابن وكيع له عند الكلام على هذه الألوان من الطعام:

انظر إلى زيتوننا فيه شفاء المَهْج
بدا لنا كأعين شهل وذات دَعَج
مُخضَرُه زَرْجَد مُسودُه من سَبَج

وثمة الفصيلة القرعية أو القثائية وتشتمل على أنواع متعددة. لنسبه لليقطين المتداول الذي يشبه خراطيم الفيلة ولكن لون الخراطيم أسود ولذلك يجب أن نتصورها مطليّة بالزنجار وهو صدأ النحاس^(١) الضارب إلى الخضرة. يقول عبد الرحيم بن رافع:

وفرع تَبْدَى للعيون كأئنه خراطيم أقيال لَطُخْن بزنجار
مرزنا فعائنه بين مزارع فأعجب منها حسنه كل نظار

وله نوع آخر كبير يُستعمل في مربيّات السكر. وقد يقدّم للضيوف. قال شهاب الدين المنصور في أحد الشيوخ البارزين في عصره وكان يحب هذه الحلوى ويُطعم من زاره منها، فاستغلّ الشاعر اللفظ للتورية:

يا عين أعيان الزمان ويا شيخ الشيوخ ومحيي الشرع

(١) الزنجار لفظ استعمله العرب آت من الفارسية يُقابل بالإنكليزية Verdigris وبالفرنسية Vert de gris

وينبغي أن نفرّق بين الدلالة العامية وهي فحمت النحاس والدلالة العلمية الدقيقة وهي خلاص

النحاس الأساسية وتركيبها الكيميائي $(C_2 H_3 O_2)_2 Cu_2 O_2 H_2, 5H_2O$.

مَا قَرَعَ الْبَابَ عَلَيْكَ امْرُؤٌ إِلَّا وَذَاقَ حَلاوَةَ الْقَسْرِ
ومن الفصيلة ذاتها الخيار إذا قُطِعَتْ الواحدة منه بدت الخذعونة وهي القطعة كأنها
كافورة أَلِسَتْ حَرِيرًا أَخْضَرَ:

خِيَارَةٌ أَهْدَيْتُ إِلَيْنَا مِنْ كَفٍّ مَنْ يَجْلِبُ الشُّرُورَا
كَأَنَّهَا إِذْ قَطَعْتَ مِنْهَا كَافُورَةٌ أَلِسَتْ حَرِيرَا

وللخيار موسمان ربيعٍ وخريفٍ وهو طَيِّبٌ إذا كان عَضًا غَرِيضًا جَنِيًّا. أمَّا إذا تُرِكَ
للبذر ضرب لونه إلى الصُّفْرَةِ أو الحمرة ولم يَصْلَحَ طَعَامًا. يقول أبو هلال العسْكَرِيُّ:

زَبْرَجْدَةٌ فِيهَا قُرَاضَةٌ فَضَّةٌ فَإِنْ رَجَعَتْ تَبْرًا فَقَدْ خَسَّ أَمْرُهَا
تَلُمُ بِنَا طَوْرَيْنِ فِي كُلِّ حَجَّةٍ فَيَكْثُرُ فِينَا خَيْرُهَا ثُمَّ شَرُّهَا
فَعِنْدَ الْمَصِيفِ لَيْسَ يَفْقَدُ نَفْعَهَا وَعِنْدَ الْخَرِيفِ لَيْسَ يُعَدِّمُ ضَرُّهَا

وكذلك الفُقُوسُ^(١) أو العَجُور. يقول ابن خَطِيبٍ دَارِيًّا:

شَبَّهْتُ حِينَ بَدَا الْفُقُوسُ مُبْتَهَجًا عَلَى الرِّيَاضِ بِحَبٍّ فِيهِ مَأْسُورٌ
مَخَازِنًا مِنْ لُجَيْنٍ لُفَّ ظَاهِرُهَا بِسُنْدُسٍ حَشُورُهَا حَبَّاتٌ كَافُورٌ

وَالْقَثَاءُ طَيِّبٌ إِذَا مَتَعَ الصَّيْفَ وَاشْتَدَّتْ الْحَرَارَةُ.

يقول عبد الرَّحِيمِ بْنُ رَافِعٍ الْقَيَّرَوَانِيُّ:

أَخْبِرْتُ بِقَثَاءٍ أَنَا نَا فَوْقَ أَطْبَاقٍ مُنْضَّدٍ
كَمْضَارِبٍ قَدْ حُذِّدَتْ أَجْرَائُهُنَّ مِنَ الزَّبْرَجَدِ
نِعْمَ الدَّوَاءُ إِذَا الْهَوَا مِنْ الْهَوَاجِرِ قَدْ تَوَقَّدِ

وَيَتَفَنَّ السَّرِيُّ الرَّفَاءُ فِي وَصْفِ الصُّغَابِيْسِ وَالشُّعَارِيرِ وَهِيَ صِغَارُ الْقَثَاءِ وَالْكِرِينِ وَهُوَ

كَبِيرُهُ:

وَعَقْفَاءٌ مِثْلُ هَلَالِ السَّمَاءِ وَلَكِنَّهَا لَبِسَتْ سُندُسَا
عِرَاقِيَّةٌ لَمْ يَذُبْ جِسْمُهَا هُزَالًا وَلَمْ تَجْسُ فِيمَا جَسَا
زَبْرَجْدَةٌ حَسُنَتْ مَنَظَرًا وَكَافُورَةٌ بَرَدَتْ مَلَمَسَا
عَلَى رَأْسِهَا زَهْرَةٌ غَضَّةٌ كَنَجْمِ الظَّلَامِ إِذَا عَسَعَسَا

(١) قَدْ يُكْتَبُ الْفُقُوسُ بِالضَّادِ وَيُفْرَقُ عِنْدَئِذٍ بَيْنَهُ وَهُوَ الْبَطِيخَةُ قَبْلَ أَنْ تَنْضَجَ وَبَيْنَ الْفُقُوسِ بِالسَّيْنِ وَهُوَ الْبَطِيخُ الْأَخْضَرُ أَوْ الشَّامِيُّ أَوْ الزَّبَّشُ كَمَا سَنَرَى.

جَانَا بِهَا مَغْرَس طِيبَ
لَهَا أَخْوَاطٌ لَطَافُ الْقُدُودِ
مُحَجَّجَةٌ عَنْ شَمُوسِ النَّهَارِ
تُقَوِّسُ فِي حِينِ مِيلَادِهَا
يَطُولُ اللِّسَانُ بِإِطْرَائِهَا
مِنَ الْأَرْضِ أَكْرَمَ بِهِ مَغْرَسَا
إِذَا مَا تَبَرَّجْنَ خَضِرَ الْكُوسَا
وَبَارِزَةً لِنَسِيمِ الْمَسَا
وَلَمْ أَرَ ذَا صَفَرٍ قُوسَا
وَيُصْبِحُ عَنْ ذَمِّهَا أُخْرَسَا

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَبَا بَكْرَ الْخَوَارِزْمِيَّ وَصَفَ الْقَتَاءَ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْمَقْتَلَةِ:

يَا رُبَّ قَتَاءٍ قَرِيبِ الْمَوَدِ
شَخِطَ الرُّؤُوسَ أَصُورَ الْمُقْلَدِ
قَدْ التَّوَى فَوْقَ الثَّرَى الرُّطْبُ النَّدِي
ذِي زَغَبٍ وَفِيهِ لَيْنُ الْأَجْرَدِ
كَأَنَّهُ فِي اللَّوْنِ وَالنَّارُودِ
يَكَادُ لِلَّيْنِ وَلِلتَّقْصُدِ
لَمَّا حَصَدْنَاهُ قَرِيبَ الْمَحْصَدِ
مَاءَ كَطْعَمِ السُّكَّرِ الطَّبْرُودِ
دُرُّ الْحَشَا زُمُرْدُ الْمَجْرَدِ
مِثْلُ ذَنَابِي رِيَشِ دِيكَ أَغْقَدِ
كَمَا يَلُودُ أَسْوَدُ بِأَسْوَدِ^(١)
كَالْخَدِّ بَيْنَ الْمُتَلَحِّي وَالْأَمْرَدِ
صَوَالِجَ رَكْبِنَ مِنْ زَبْرَجَدِ
تَجْنِيهِ الْحَاظِ الْفَتَى قَبْلَ الْيَدِ
هَشًّا وَجَذْنَا مِنْهُ مَا لَمْ يُوجَدِ
وَذَوْبَ شَهْدٍ سَائِلًا فِي جَمَدِ

ذَكَرَ دَاوُدُ أَنَّ الطَّبْرُودَ «مِنَ السُّكَّرِ وَالْعَسَلِ مَا طُبِّخَ بِعَشْرِهِ مِنَ اللَّبَنِ الْحَلِيبِ حَتَّى يَنْعَقِدَ وَفِيهِ لُطْفٌ وَتَبْرِيدٌ وَإِصْلَاحٌ لِلْحَلَقِ وَكَسْرٌ لِسُورَةِ الْأَدْوِيَةِ»^(٢).

وَقَدْ تَفَاءَلَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ بِالْقَتَاءِ حِينَ وَصَفَهُ:

انْظُرْ إِلَيْهِ أَنْبِيَا مُنْضَّدَةً
إِذَا قَلْبَتْ اسْمُهُ بَانَتْ مُحَاسِنُهُ
مِنَ الزَّبْرِجَدِ خُضْرًا مَا لَهَا وَرَقٌ
وَصَارَ مَقْلُوبُهُ أَثْنِي بِكُمْ أَثْنِي

وَمِنَ الْفَصِيلَةِ نَفْسُهَا الْبُطِيخُ. وَلَهُ أَصْنَافٌ، مِنْهُ الْأَخْضَرُ وَيُسَمَّى الْهِنْدِيُّ وَالشَّامِيُّ كَمَا يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ الدَّلَّاعُ وَفِي الْحِجَازِ الْحَبَّابُ وَفِي بَعْضِ بِلَادِ الشَّامِ الزَّبَّاشُ (الْجَبَسُ)، وَمِنْهُ الْأَصْفَرُ كَمَا يُدْعَى فِي مِصْرَ وَالشَّامِ، وَكَانَ يُسَمَّى الصَّبْنِيُّ، ذُو حُزُوزٍ خَشِنِ الْجِلْدِ وَقَدْ قَلَّتْ زِرَاعَتُهُ الْآنَ وَحُلٌّ مَحَلُّهُ مَا يُدْعَى عِنْدَنَا بِالْقَاوُونِ، وَهُوَ لَفْظُ تُرْكِيٍّ، وَمِنْهُ أَيْضًا صَنْفٌ يُسَمَّى بِالشَّمَامِ وَكَانَ يُسَمَّى فِي الْعِرَاقِ الدَّسْتَنْبُوتِي وَفِي الصَّعِيدِ الْأَعْلَى اللَّفَّاحُ.

(١) الْأَسْوَدُ الْحَيَّةُ.

(٢) تَذَكُّرَةُ دَاوُدَ بُولَاقٍ ج ٢ ص ٦٦.

ولكلّ أوصاف. قال الشاعر في البطّيح الأخضر وهو يتصوّره كالسّلة الخضراء المختومة
على جواهر حمر مغروزة في باطن القشر وهو أبيض كالقطن:

رأيتها في كفّ جلابها وقد بدت في غاية الحُسْن
كسّلة خضراء مختومة على الفصوص الحمر في القطن

وقال آخر:

ومال إلى بطّيحة ثمّ شقّها وفرّقها ما بين كلّ صديق
صفائح بلّور بدت في زبرجد مُرصّعة فيها فصوص عقيق

وقال أبو طالب المأموني:

ومُبَيَّنة فيها طرائق خضرة كما اخضرّ مجرى السّيل من صيّب المُنْزَن
كحقة عاج ضيّت بزبرجد حوث قطع الياقوت في عُطب القطن

وقال كشاجم في النّوع الأصفر الخشن:

يا جانّي البطّيح من غرسه جنيّت منه ثمر الحمْد
لم يأتنا حتى أتّنا له روائح أذكى من التّد
بظاهر أخشن من قنقذ وباطن أنعم من زُبد
كأنّما تكشف منه المدى عن زعفران شيب بالشّهْد

وقال أيضاً في الأصفر:

وزائر زار وقد تعطّرا أسرّ شهداً وأذاع عنبراً
وأودعت منه اللّهة سَكراً ينفث في الأنوف مسكاً أذفراً
ملتجهاً للحرّ ثوباً أصفراً مُغمّداً من الحرير أخضرّاً
يظنّه النّاظر إن تصوّراً دبّ الدّبى^(١) بمتنه فائراً

وقال آخر:

بطّيحة تُعطيك من لونها حظّين من ريح ومن طعم
كأنّها في ذوقها شهدة أو جونة العطار في الشّم

وصوّر آخر حركة القطع والتّوزيع وإتلافها:

أتانا الغلام ببطيخة وسكينة أشعوها صقلاً
فقطع بالبرق شمس الضّحى وناول كلّ هلال هلالاً

(١) الدّبي: الجراد الصّغير أو قبل أن تنبت أجنحته أو النّمل.

وقال مُؤَيِّد الدِّين الطُّغْرَائِي فِي الدَّسْتَنْبُويَةِ :

كُرات دَسْتَنْبُويَةِ نُضُّدَتْ	مُخْتَلَفَات الشُّكُلِ وَالْمَنْظَرِ
فمُسْتَدِير الشُّكُلِ ذُو سُمُرَةٍ	كَأَنَّهُ جُمُجُمَةٌ الْعَنْبَرِ
وَلَا بَسَّ لِلنُّورِ ذُو نُمُرَةٍ	وَالْحَسَنُ كُلُّ الْحَسَنِ فِي الْأَنْمَرِ ^(١)
وَعَسَجِدِي اللَّيْلُ ذُو صُفْرَةٍ	ضُمَّ إِلَى تَرْبٍ لَهُ أَحْمَرُ
كَأَنَّهُ الْمَرِيخُ فِي لَوْنِهِ	قَارَنَهُ فِي بُرْجِهِ الْمُشْتَرِي

وقال السَّرِيّ الرَّفَاء فِيهِ أَيْضاً وَكَانُوا يَتَهَادُونَ بِالشَّمَامِ كَمَا يَتَهَادُونَ بِالرِّيَّاحِينَ وَالْفَاكِهَةِ وَيَدْعُونَهَا التَّحَايَا :

يَا حَبْلًا تَحْيِيَّةً	رُخْتُ بِهَا مَسْرُورًا
مُخَزَنَةً مِنْ ذَهَبٍ	قَدْ مِلَّتْ كَافُورًا

وَفِي خِلَالِ تَنْزُّهِنَا فِي الْمَقَائِي وَالْمِبَاطِخِ وَتَأْتِلُنَا لِحْمَلِهَا الْجَنِّي وَأُكْلِهَا الشَّهْيِ وَأَشْكَالِهَا الْبَدِيعَةِ الَّتِي صَوَّرْنَاهَا وَأَشْدَائِهَا الْعَذْبَةَ الَّتِي تَضَوَّعَتْ تَكُونُ الثُّمَارُ قَدْ عَقَدَتْ فِي الْأَشْجَارِ وَيَنْعَتْ وَاخْلَوْلَتْ وَأَجْنَتْ ثُمَّ نَزَلَتْ إِلَى الْأَسْوَاقِ وَدَخَلَتْ الْبُيُوتَ رَهْطاً رَهْطاً وَلَوْناً لَوْناً وَفُوجاً فُوجاً. وَلَمْ يَكُنِ الشُّعْرَاءُ بِأَقْلٍ اخْتِفَاءً بِمَوَاقِبِ الثُّمَارِ وَلَا أَدْنَى مَهَارَةٍ فِي وَصْفِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَلَذِيذِ طَعْمِهَا.

يَقُولُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْمَشْمَشِ :

كَأَنَّمَا الْمَشْمَشُ لَمَّا بَدَتْ	أَشْجَارُهُ وَهُوَ بِهَا يَلْتَهَبُ
خَضِرَ قَبَابُ الْمَلِكِ حَفَّتْ بِهَا	جَلَّاجِلُ مَصْقُولَةٍ مِنْ ذَهَبٍ

وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

وَمَشْمَشٌ بَانَ مِنْهُ أَعْجَبُ الْعَجَبِ	يَدْعُو الثُّقُوسَ إِلَى اللَّذَاتِ وَالطَّرَبِ
كَأَنَّهُ فِي غُصُونِ الدَّوْحِ حِينَ بَدَا	بِنَادِقِ خُرْطُطٍ مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ

وَيَقُولُ ابْنُ الرُّومِيِّ :

فَشَرَّ مِنَ الذَّهَبِ الْمُصَفَّى حَشْوُهُ	شَهِدَ لَذِيذِ طَعْمِهِ لِلْجَانِي
ظَلَّنَا لَدَيْهِ نُدِيرُ فِي كَاسَاتِنَا	خَمِراً تَشْغِشَعُ كَالْعَقِيقِ الْقَانِي
وَكَأَنَّمَا الْأَفْلَاكُ مِنْ طَرَبٍ بَنَا	نَثَرَتْ كَوَاكِبَهَا عَلَى الْأَغْصَانِ

(١) الْأَنْمَرُ : الَّذِي فِيهِ نُمَرٌ أَيْ نُكْتُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ.

وربّما أسرف ابن الرُّوميّ في أكل المَشْمَش بعد هذا الطَّرب الذي بلغ الأفلاك حتى
مرض وأنفق على استِطابِه، فقال يذمُّ المَشْمَش:
إذا ما رأيتَ الدَّهْرَ بستانَ مَشْمَش فأيقنْ بحقَّ أنَّه لطيبٌ
يُغْلُّ له ما لا يُغْلُّ لأهله يُغْلُّ مريضاً حُمِلَ كلُّ قُضيبٍ
وقد عدَّ البدرِيُّ في كتابه «نزهة الأنام في محاسن الشَّام» واحداً وعشرين صنفاً
للمَشْمَش بدمشق.

والكرز يُسمَّى أيضاً القَراصيا أو القراسيا وأصل هذه الألفاظ واحد ويُسمَّى في
المغرب حبَّ الملوك، وما أشبه حبَّته بِحَدَقِ الأعين الجميلة الشُّودا!
وحبوب كأنَّها حَدَقُ الأعين سود دموعهنَّ دماء
مائلات مثل الثُّجُوم علينا في بُروج لها الغصون سماء
وإذا ما نثرَتْها فقُصوص صبَّغَتْها بمائها الظُّلُماء
من يَذْفُها يَذُقُ رُضاب غزال فهي والخمر في المذاق سواء
ويقول البدرِيُّ في حَبَّة منه:

كأَنَّما القَراصيا لَمَّا بَدَتْ لِلنَّظَرِ
حَبَّة مَرَجان تُرى في رأس خَيْط أخضر
ولقد كان النَّاس بفاكهة العُتَّاب إذ ذاك أكثر اهتماماً منهم بها اليوم.

يقول ابن رافع:
كأَنَّما العُتَّاب لَمَّا بَدَا يَلُوح في أعطاف غُصْن أنيق
تَطْرِيف من تَطْرِيفها من دَمي أو خِرْزات خُرِطَتْ من عقيق
أو كقُلوب الطَّيْرِ جاءَتْ بها أفراخها شَغِواءُ في رأس نيق

والتَّطْرِيف هو ما يُدعى اليوم «المانيكور». ويَنظر البيت الأخير إلى بيت امرئ
القيس الخالد يصف فيه عُقاباً تلتقي في وَكْرها قلوب الطَّيْرِ بعد إذ افترسَتْها. بعضها لا يزال
رَطْباً دامياً وبعضها قد جَفَّ ويس:

كَأَنَّ قلوب الطَّيْرِ رَطْباً وباساً لدى وكرها العُتَّاب والحَشَف البالي
ويأتي الثُّفَّاح بأنواعه. وقد رُوِيَ عن الحُكَّماء أنَّها قالت: جسم الثُّفَّاح صديق الجسم
ورِيحه صديق الرُّوح.

يقول أبو نواس:

الخمير تُفّاح جرى ذائباً كذلك الثُّفّاح خمير جَمَد
فاشرب على جامدها ذوبها ولا تدع لئدة يوم لَغَد

وقد ألمّ بمعنى هذين البيتين ابن زيدون حين أهدى ثُفّاحاً ووصّفه:

أَتَتِكَ بلون الحبيب الخَجَل تُخَالِط لون المُحبِّ الوَجَل
ثمّار تَضْمَن إدراكها هواء أحاط بها مُعْتَدِل
تأتى لتدريج تلطيفها فمن حرّ شمس إلى برد ظِل
إلى أن تناهت شفاء العليل وأتس الخليل ولهُو الغزل
فلو يجمد الرّاح لم يَغْدُها وإن هي ذابت فراح يحل
قبولكها نعمة غَضّة وفضل بما جتته مُتَّصِل

هذا وفي الثُّفّاح إغراء منذ طعم أبونا آدم من ثُفّاح الجنة. يقول الشاعر:

فَدَيْتُ من حيا بثُّفّاحه في خَلع التّوريد من وجّته
نسيمها يُخبرني أنّها تَسْتَرِيق الأنفاس من ريقته
لما حكّت نوعين من حسنه قبلتُها شوقاً إلى نكته

ويقول آخر:

تَخَالَ ثُفّاحتها في لونها وقُدّها
تَنَالَتْها كُفّها من صدرها ونَحْدّها

ويزيد ابن رشيق:

وثُفّاحه من كفّ ظنّي أخذتها جَناها من الغصن الذي مثل قَدّه
حكّت لَمَسَ نَهْدِيه وطيب نسيمه وطعم ثناياه وحُمرة خَدّه

وقال ابن الرُّوميّ ويذكر الأدباء القدماء أنّ البيتين ممّا كان يُكْتَب على الثُّفّاح:

أرسلني عاشق لحاجّته فجئت بين الرّجاء والوَجَل
لا تخجلني بالرّد حسبك ما ترى بخدّي من حُمرة الخَجَل

ومن أطيب ثُفّاح العالم ثُفّاح دمشق. وأجمل ما ورد من الشّعْر والحكايات فيه قول

أبي فراس طراد بن عليّ السّلميّ الدّمشقيّ، وهي أبيات رقيقة رشيقة:

يا نسيماً هبّ مسكاً عبقاً هذه أنفاس رِيّا جَلّقا
كفّ عني، والهوى، ما زادني برّد أنفاسك إلّا حُرّقا
ليت شعري نقضوا أحبابنا يا حبيب النّفس ذاك الموثقا

يا رياح الشوق سُوقي نحوهم عارضاً من سُخب عيني غديقا
وانثري عِقْد دموع طالما كان منظوماً بأيام اللقا

وقد ذاعت هذه الأبيات وغنى بها المُعَنُّون. ورُوي أن رجلاً مرَّ يوماً ببعض شوارع القاهرة، وقد ظهرت جمال كثيرة حملتها تُفّاح فتحي من الشام، فعَبِقَتْ روائح تلك الحمول، فأكثر التلُّفُت لها، وكانت أمامه امرأة، ففَطِنَتْ لما داخله من الإعجاب بتلك الرائحة، فأزمأت إليه وقالت: هذه أنفاس رِيّا جِلِّقا.
وكذلك السَّفَرَجَل عَبِقَ الرائحة، وبه إغراء التُّفّاح.

يقول الصنوبري:

لك في السَّفَرَجَل مَنظر تحظى به وتفوز منه بشمّه ومذاقه
هو كالحبيب سَعِدَتْ منه بحسنه مُتَأَمِّلا ويلئمّه وعِناقَه
يحكي لك الدَّهَب المُصَفَّى لونه وتزيد بَهْجَتَه على إشراقه
فالشُّكل من أعلاه يحكي إذبدا ثُدَي الكَعاب إلى مدار نِطاقه
والشُّكل من سُفلاه يحكي سُرة من شادين يزهي على عُشاقه

ويقول مُؤَيَّد الدِّين الطُّغرائي:

وسَفَرَجَلٍ عُنِيَ المصيف بحِفْظه فكساه قبل البَرْد خَزْراً أغبرا
صوغ من الدَّهَب المُصَفَّى نُشره مسك إذا حضر النَّدِي تَعَطُّرا
يحكي نُهود الغانيات وتحتها سُرَّرَ لهنَّ حُشين مِسْكَاً أذفرا
يزهي بملسمه وطيب مذاقه ومَشْمُوه ويروق عينك مَنظرا

وتَظَيَّر به شاعر:

مُتَحِفِّي بالسَّفَرَجَل لا أَحَبُّ السَّفَرَجَل
اسمه لو عَقَلْتَه سَفَرَجَلٌ واعتلّسى

وآخر:

أَتَحَفَّتْنا بِهِدْيَةً نَقَضْتُ وِصَالَكَ أَوْلا
أَرَأَيْتَ مَنْ يَهْدِي إلَى مَنْ يَصْطَفِيهِ سَفَرَجَلَا
أَوْ مَا عَلِمَتْ بِأَنَّهُ سَفَرٌ وَآخِرُهُ جَلَا

ولكنَّ الشُّتْرَيْنِي الأندلسيَّ نظر في النَّصِيف نظرة مُعَايِرَة مُتَفَائِلَة:

ما في السَّفَرَجَل شيء يُسْتَطار به ولا تكن منه مَطْوِياً على وَجَل
إنِّي نظرتُ إلى تصحيف أحرفه فانفكَّ منهنَّ لي تَبٌّ تَفَرَّج لي

ولم أقل سَفَر حلَّ البلاء به أو جلَّ منه وقوع الحادث الجَلَل
وبين الثمرات الشَّهِيَّة اللُّوز والبُندق والفسق وأمثالها، ويغنيها الشعراء عن الشَّرح
والتحليل.

يقول ابن المعتز:

ثلاثة أثواب على جَسَد رَطَب
تقيه الرَّدَى في ليله ونهاره

ويقول آخر:

أما ترى اللُّوز حين تُرجِّله
وقشره قد جلا القلوب لنا

ويقول ظافر الحدَّاد الاسكندرِي:

جاء بلوز أخضر
كأثما زُبُّره
كأثما قلبه
جواهر لكثما الـ
أصغره ملء اليد
تبت عذار الأفرود
من تزام ومفرد
أصداف من زبرجد

ويقول أبو طالب المأمونيُّ مُشيراً إلى قشرة اللُّوز الصُّلبة الخارجيّة كأنَّها جُنة له،
والمأمونيُّ هذا من أولاد الخليفة المأمون:

ومستجنّ عن الجانين مُمتنع
دُرّ تَكُون من عاج تَضْمَنه
بحلّة لم تحكها كف نساج
في البرّ لا البحر أصداف من السّاج

وقال هبة الله بن سناء الملك في لوزة بقلبين:

ومهد إلينا لوزة قد تَضْمَنَتْ
كأنَّهما جَبَّان فاذا بخلوة
لمُبصِّرها قلبين فيها تلاصقا
على رقبة في مجلس فتعانقا

وممّا يُحكى عن المُثري الكبير ابن الجصاص الجوهريّ، وكان يُنسب إلى البَلّة،
وقد عاصر الشّاعر العباسيّ ابن المعتز، أنّه «كان يكسر لوزاً فطفرت لوزة وأبعدت فقال:
لا إله إلا الله! كلُّ الحيوان يهرب من الموت حتى اللُّوز»^(١).

(١) فوات الوفيات ج ١، ص ١٣٩.

ويقول ابن رافع في البندق أو الجَلُوز:

جَلُوزة من كفّ ظَنبي غَزَل
أو كرة قد ثَلُثت من صَنَدَل
محمّرة فوق بياض يعتلي
في مَطعم الشَّهد وعَرَف المَنَدَل
رمى بها نحوي كمثل جُلجل
تُكسر عن حريرة لم تُغزَل
من حُسنها المُستظرف المُستكمل

ويقول آخر:

ولقد شربت مع الغزال مُدامة
فتَقَضَّل الظَّنبي الغرير ببندق
وكسرتُه فرأيت صوفاً أحمرأ
شبهته ببنادق من ساج
صفراء صافية بغير مزاج
قد لُف فيه بنادق من عاج

وكانوا يُحبّون الفستق في الثَّقَل. يقول أبو إسحاق الصَّابي:

والثَّقَل من فستق حديث
لي فيه تشبيه فيلسوف
زُمرد صانعه حرير
رطب تَبَدَّى به الجفاف
ألفاظه عَذبة خفاف
في حقّ عاج له غلاف

ويقول أبو بكر الصَّنوبري:

وحظي من نَقْل إذا ما نَعَّته
من الفستق الشَّامي كلّ مَصونة
زَبَرَجدة ملفوفة في حريرة
نعتُ لعمري منه أحسن منعوت
تُصان عن الأحداق في بطن تابوت
مُضمّنة دُرّاً مُغشّى بياقوت

وكانوا يُسمّون الفستق المشقوق بالضَّاحك. قال الشَّاعر يصفه:

ومُهدٍ إلينا فستقا غير مُطَبَّق
كأنّ انفتاحاً منه دلّ على الذي
ظَماء من الأطيّار حامت ففتَّحت
به زاد إحساناً على كلّ مُحسِن
به من كمين في حشاه مُضمّن
مناقيرها ثمّ استعانث باللسن

مثل هذه الصُّورة الأخيرة المُوفّقة لا بدّ من أن يَروج. يقول آخر:

انظر إلى الفستق المجلوب حين أتى
والقلب ما بين قشريّه يلوح لنا
مُشَقَّقاً في لطيفات الطَّوامير
كاللسن الطَّير من بين المناقير

ويُروى انظر إلى الفستق المملوح. وكذلك:

كأنّما الفستق المملوح حين بدا
وقد بدا لبّه للعين ألسنة
مُفتَّح القشّر موضوعاً على طَبَق
للطَّير عَطشى بها شيء من الرَّمق

وقال آخر يصفه، وهذا الوصف كاللغز:

وضاحك أجفانه لم تكتحل بالوسن
لم أذر عن أفئدة تبسم أم عن السن
كعاشق كلّفه الـ غرم ما كلّفني
إذا أخذت قلبه لم ينتفع بالبدن

وقال أبو بكر بن القرطبي:

صدف أبيض نقي ذو بهاء ورّونق
مُسفر عن مجوهر أخضر فيه مطبق
كل صبح يعزى إلى لونه قيل فستقي

ولقد مرّ أنفاً تواطؤ في التشبيه بالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة. ولا غرور في ذلك فإن بعض الألوان تتماثل وتتقارب فلا بدّ من هذه الإعادة وتكرير بعض الألفاظ. ولكن إذا اختلف الشكل والمنظر تماماً فإنّ الشاعر لا بدّ أن يُقشّ عن الصورة المطابقة ولو قلّ أن يتبّه لها المراء. وهذا ما حصل في وصف الشّاعر لقلب الجوز، فإنّه يراه لوناً وشكلاً كعكك المصطكى الممضوغ الذي يحمل طابع الأضراس، وهكذا لا يصعب على الشّاعر شيء:

والجوز مقشور يروق كأنه لوناً وشكلاً مضطكى ممضوغ
ويقول آخر:

جاء بجوز أخضر مكسّر مقشّر
كأنما أرباعه مضغّة عليك الكندر

والكندر اللبان. ويقول آخر:

تأمل الجوز في أطباقه لترى رواق حُسن عليه غير مَحطوط
كأنه أكر من صندل خُرطت فيها بدائع من نقش وتخطيط

ويقول أبو طالب المأموني واصفاً شكله العام وتكوينه:

ومحقّق التدوير يبعد نفعه من كفت من يجنيه ما لم يُكسر
دُرّ يسوغ لأكليّه يضئّه صدف تكوّن جسمه من عزعر
متدرّع في السلم فوق غلالة دزعاً مظاهرة بشوب أخضر

وقد لهج الشعراء بالصنوبر. ومما يُنسب إلى ابن المعتز:

صنوبر ظلّت به مولعاً لأنّه أطيّب موجود

كَأَنَّهُ الْكَافُورُ فِي لَوْنِهِ تَحْوِيهِ أَدْرَاجَ مِنَ الْعُودِ

وَيَقُولُ آخَرُ فِي الْبَحْرِ وَالرَّوْيِ أَنْفُسَهُمَا وَبَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ:

صَنْوِيرٌ أَطْيَبُ مَوْجُودٍ نَلِيتُ بِهِ غَايَةَ مَقْصُودِي
كَأَنَّهُ حِينَ حَبَانِي بِهِ مَنْ خُصَّ بِالْإِنْعَامِ وَالْجُودِ
حَبُّ لَالٍ مُشْرِقٍ لَوْنِهِ فِي جَوْفِ أَدْرَاجَ مِنَ الْعُودِ

وَيَقُولُ ابْنُ رَافِعٍ الْقَيَّرَوَانِيُّ:

يَا حُسْنُهُ فِي الْعَيْنِ مِنْ صَنْوِيرٍ يَحْكِي لَنَا جَمَاجِمًا مِنْ عَنبرٍ
يُفَلِّقُ عَنْ حَبِّ إِذَا لَمْ يَكْسِرْ مُصْنَدِلٍ إِنْ شَتَّتْ أَوْ مُعْضَفَرٍ
كَمَثَلِ أَصْدَافِ نَفِيسِ الْجَوْهَرِ

وَيَصِفُهُ الصَّنَوِيرِيُّ، وَمَنْ أَوَّلَى بِوصفه مِنْهُ وَهُوَ إِلَيْهِ مَنْسُوبٌ؟

وَإِذْ عَزَيْنَا إِلَى الصَّنَوِيرِ لَمْ نُعْزَ إِلَى خَامِلٍ مِنَ الْخَشَبِ
لَا بَلَّ إِلَى بَاسِقِ الْفُرُوعِ عُلَا مَنَاسِبًا فِي أَرْوَمَةِ الْحَسَبِ
مِثْلَ خِيَامِ الْحَرِيرِ تَحْمِلُهَا أَعْمَدَةٌ تَحْتَهَا مِنَ الذَّهَبِ
كَأَنَّ مَا فِي ذُرَاهِ مِنْ ثَمَرٍ طَيْرٌ وَقُوعٌ عَلَى ذُرَا الْقُضْبِ
بَاقٍ عَلَى الصَّيْفِ وَالشَّتَاءِ إِذَا شَابَتْ رُؤُوسُ النَّبَاتِ لَمْ يَشِبْ
مُحَصَّنَ الْحَبِّ فِي جَوَاشِينِ قَدِ أَمِنَ^(١) فِي لِبْسِهَا مِنَ الْحَرْبِ
حَبِّ حَكَى الْحَبِّ صِينَ فِي قُرْبِ الـ أَصْدَافٍ حَتَّى بَدَا مِنَ الْقُرْبِ^(٢)
ذُو نَثَّةٍ^(٣) مَا يَنَالُ مِنْ عَنَبٍ مَا نِيلَ مِنْ طَيْبِهَا وَلَا رُطَبٍ

وَمَا نُسَمِّيهِ الْكَسْتَنَةَ فِي سُورِيَةِ وَيُسَمَّى فِي مِصْرَ أَبَا فَرْوَةَ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بِالشَّاهِبْلُوطِ
أَيُّ بَلُوطِ الشَّاهِ وَكَذَلِكَ بِالْقَسْطَلِ . يَقُولُ شَاعِرٌ يَصِفُهُ:

يَا حَبُّذَا الْقَسْطَلُ الْمُجَرَّدُ عَنْ قِشْرِيهِ بَعْدَ الْجَفَافِ فِي الشَّجَرِ
كَأَنَّهُ أَوْجَهُ الصَّقَالِبَةِ الْبَيِّ ضُفْ فِيهَا تَكْرُمُشِ الْكِبَرِ

وَكَذَلِكَ وَصَفُوا جُوزَ الْهِنْدِ أَوْ النَّارَجِيلِ . يَقُولُ كِشَاجِم:

وَذَاتُ قَشْرِ أَسْوَدَ حَشْوُهَا كَافُورَةٌ مَرْمُوقَةٌ الْمَنْظَرِ

(١) الضَّمِيرُ نَائِبُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى الْحَبِّ وَيَجُوزُ أَنْ يُقْرَأَ أَمِنْ أَيْ حَبَّاتِ الصَّنَوِيرِ .

(٢) مَعْنَاهُ أَنَّ حَبَّ الصَّنَوِيرِ يَبْدُو مِنْ أَوْعِيَتِهِ كَالْحَبِّ يُكْتَمُ فِي الْقُلُوبِ وَيَبْدُو إِذَا غَلَبَ .

(٣) نَثَّةٌ: رَشَحٌ .

قد نَشَرَتْ فِي رَأْسِهَا فَرْزَةَ تَسْتُرُهَا عَنْ نَازِلِ الْمُبْصِرِ
كَأَنَّهَا جُمُجُمَةٌ أَلْسَتْ ذَوَائِباً مِنْ خَالِصِ الْعَنْبَرِ

وكلُّ فاكهة لها خصائصها وصفاتها التي تمتاز بها من غيرها. والرَّمان له مزاياه وجماله. وأولى مزاياه جمال زهرة الجُلَّار الذي قدَّمنا شيئاً من الشعر في وصفه. أما الثَّمرة فلم تكن أقلَّ نصيباً من المحبة والإعجاب:

لله رُمَانَةٌ مِنْ فَوْقِ دَوَّحَتِهَا مِثَالُهَا بِبَيْدِ الْحُسْنِ مَنَعُوتِ
فَالْقِشْرِ حَقٌّ نِضَارٌ ضَمَّ دَاخِلَهُ وَالشَّحْمِ قُطْنٌ لَهُ وَالْحَبُّ يَاقُوتِ

وكذلك:

رُمَانَةٌ صَبَغَ الزَّمَانُ أَدِيمَهَا فَتَبَسَّمَتْ فِي خُضْرَةِ الْأَغْصَانِ
فَكَأَنَّهَا هِيَ حُقَّةٌ مِنْ صَنْدَلٍ قَدْ أُودِعَتْ خَرَزاً مِنَ الْمَرْجَانِ

ويصف أبو هلال العسكري أطوار نمو الرُّمَّان وصفاً بديعاً ويُمثِّله تمثيلاً حياً:

حَكَى الرُّمَّانُ أَوَّلَ مَا تَبَدَّى حِقَاقَ زَرْجَدٍ يَحْشِبْنَ دُرّاً
فَجَاءَ الصَّيْفُ يَحْشَوْهُ عَقِيقاً وَيَكْسُوهُ مَرُورُ الْقَيْظِ ثَبَرَا
وَيَحْكِي فِي الْغُصُونِ ثُلَيْثَ حُورٍ شَقَقْنَ غَلَائِلَ عَنْهُنَّ خُضْرَا

ووصف الرُّمَّان بالثَّدي قد شاع حتى قُلَّتْ طرافته ونقص إمتاعه ولكن يرفع قيمة التشبيه تلك الغلائل الخضر المُتَشَقِّقَة.

وقال ابن قسيم الحمويُّ ويُنسب أيضاً إلى كشاجم:

وَمُحَمَّدٌ مِنَ بَنَاتِ الْغُصُونِ نَ يَمْنَعُهَا ثِقْلَهَا أَنْ تَمِيدَا
مُنْكَسِبَةُ النَّجَاجِ فِي دَسْتِهَا تَفُوقُ الْخُدُودَ وَتَحْكِي الثُّهُودَا
تُقَضُّ فَتَفْتَرُّ عَنْ مَبْسِمِ كَأَنَّ بِهِ مِنْ عَقِيقِ عَقُودَا
كَأَنَّ الْمَقَابِلَ^(١) مِنْ حُسْنِهَا ثُغُورٌ تُقْبَلُ مِنْهَا خُدُودَا

وُتُنسب إلى ابن حَمْدِيسِ الْآبِيَاتِ الْآتِيَةِ:

وَلَاخَ رُمَّانَنَا فَأَبْهَجْنَا بَيْنَ صَحِيحٍ وَبَيْنَ مَفْتُوتِ
مِنْ كُلِّ مُصْفَرَّةٍ مُزْغَفَرَةٍ تَفُوقُ فِي الْحُسْنِ كُلَّ مَنَعُوتِ
كَأَنَّهَا حُقَّةٌ فَإِنْ فُتِحَتْ فَصُرَّةٌ مِنْ فُصُوصِ يَاقُوتِ

(١) الْمَقَابِلُ جَمْعُ مُقْبَلٍ وَهُوَ مَوْضِعُ التَّجْبِيلِ.

ويقولُ ابن الرُّومي:

ولمّا فضضتُ الختمَ عنهنّ لاح لي
فدُرٌّ ولكن ليس يُدنيه غائص
فُصوص عقيق في بيوت من التّبر
وماء ولكن في مخازن من جَمَر

وقد يبلُغُ الشّاعر المغمور في الإجادة ما لا يبلُغه الشّاعر المشهور. يقولُ عليّ بن سعيد الخيريّ الأنصاريّ:

وساكنة في ظلال الغصو
تُضاحِك أترابها عندما
ن بخِذر تَروقك أفنانه
غدا الجوّ تَدَمّع أجفانه
كما فتح اللَّيث فاه وقد
تَضرّج بالدمّ أسنانه

وقد أحبّ ابن الرُّوميّ المَوْز حُبًّا جعل شعره فيه إلى التّمجيد والتّنويه به أقرب منه إلى الوصف:

إنّما الموز إذ تُمكنُ منه
وكذا فَقَدَه العزیز علينا
كاسمه مُبدلاً من الميم فاء
كاسمه مُبدلاً من الزّاي تاء
فهو الفوز مثلما فَقَدَه الموز
ولهذا التّأويل سَمّاه موزاً
نكهة عَذْبَة وطعم لذيذ
لو تكون القلوب مأوى طعام
نازَعَتْه قلوبنا الأحشاء
من أفاد المعاني الأسماء
فنعيم مُتَابِع نَعْماء
ت لقد عمّ فضله الأحياء

ويقولُ فيه، وكأنّه حين يبلعه كان يتلقّاه بقلبه لا بمعده:

للموز إحسان بلا ذنوب
يكاد من مَوَقَعه المحبوب
ليس بمعُدود ولا محسوب
يُسَلِّمه البَلْع إلى القلوب

ولكنّ الصّاحب جمال الدّين عليّ بن ظافر كان أحرص على وصف شكله الظّاهر وصفاً بلغ الغاية في الإبداع والطّرافة:

كأنّما الموز إذا
أنساب أفيال صغنا
ما جاءنا بالعجب
ر طليّت بالذهب

وقد انتبه نجم الدّين بن إسرائيل لقوامه اللّذّن كالزّبد المعجونة بالسُّكّر في جلد مُعَصَفَر:

أنعت لي موزاً شهيّ المنظر
كأنّه في جلده المُعَصَفَر
مُسْتَحْكَم التّضج لذيذ المخبر
لَفَات زبد عُجِنَتْ بسكّر

ويشير ابن رشيقي إلى طيب سَوُغِهِ حتى لَكَأَنَّ الفَمَ المَلَانَ بِهِ فارغ:

موز سَريع سَوُغِهِ	من قبل مَضَغ المَاضِغ
مَأْكَلَةٌ لَأَكْل	وَمَشَرَب لَسَائِغ
فالفَم من لِين بِهِ	مَلَانَ مِثْل فارغ
يُخَال وهو بِالغ	لِلحَلَق غِير بِالغ

وتأتي الحمضيات التي ترافق الإنسان وتستجيب لشاهيته طول السنة، تزهر أشجارها ولا تزال أثمارها عليها في بعض الأحيان.

يقول السري الرفاء في الليمون:

واضطَبَحْنَاهَا على نَهْ	ر بَصَفُو المَاء يجري
ظَلَّلْنَاهُ شَجَرَات	عِطْرَهَا أَطِيب عطر
فَلَمَّا أنجمه الليم	ون من ييض وخضر
أكرم من فضة قد	شابهها تلويح تبر

ويقول آخر في التارنج، ولونه الأحمر المصفر يبرزه للشاعر كوقدة الجمر، وتهطل الأمطار في الشتاء فتغسل الغبار عنه وعن أغصان شجره فاعجب لتوقده وعدم انطفائه فيها:

لله أنجم نارنج توقدها	يكاد يتجاف عن لآله الغسق
تبدو لعينيك في لآلهها ولها	من الغصون بروج دوحها الأفق
تجني به اليد جمرأ ليس يطفئه	غيث ولا اليد إذ تجنيه تحترق
كأنه مستعار الشبه من سفن ^(١)	مذهب أو جباه لونه الشفق

ويقول آخر:

تأملها كرات من عقيق	تروك في ذرا دوح وريق
صوالج من غصون ناعمات	غلتهما درة العيش الأنيق
تخال غصونها فيها نشاوى	بأيديهم كؤوس من رحيق
عجبت لها شربن الماء ريًا	وفي لباتها لهب الحريق

منظر النار جميل فلا عجب أن يستغله الشعراء في وصفهم للتارنج ويعجبون للهيب الحريق الذي تونق رؤيته بين لون الورق الكثيف الأخضر الأخوى مع أنه يشرب الماء

(١) السفن بالتحريك جلد خشن غليظ يجعل على قوائم السيوف شبه الشاعر به قشر التارنج.

بالجذور كما في البيت الأخير السالف فلا ينطفئ . أو تلك جذوة ولكنها عديمة اللهب
كما يقول الشتريني الأندلسي:

يا رَبِّ نارُنْجَة يلهو التديم بها كأنها أكره من أحمر الذهب
أو جَذوة حَمَلَتْها كَفْ قَابِسْها لَكُنْها جَذوة معدومة اللهب

وقد يزداد العجب لاقتران الصورتين:

انظر إلى منظر يلهيك مشهده انظر إلى منظر يلهيك مشهده
نار تلوح على الأغصان في شجر لا الماء يطفئ ولا النيران تشتعل

أو كأن الأغصان صوالج من زبرجد والتارنج أكر من ذهب كما يتصور الأرجاني:
ونارنجة بين الرياض نظرتها على غصن رطب كقمامة أغيد
إذا ميّلتها الريح كانت كأكره بدت ذهباً في صولجان زبرجد

ولكن الصّاحب بن عبّاد يتصور التارنج في أيدي الندامى كأنه كرات من ذهب
تتداولها الصّوالج أيضاً:

بعثنا من التارنج ما طاب عرّفه ونمّت على الأغصان منه نوافج
كرات من العقيان أحكم خرطها وأيدي الندامى حولهنّ صوالج

بل مطرت السماء ذهباً فصاغته الأرض الصّناع لها أكرأ:

تنعم بنارنجدك المجتني فقد حضر السعد لمّا حضر
فيا مرحباً بقُدود الغصون ويا مرحباً بخدود الشجر
كانّ السماء همّت بالنّصار فصاغت لها الأرض منه أكر

وما أحلى الأيام التي مضت في بساتين البترقال والتارنج حين ينظر الرفاق إلى
أغصان الأشجار الحاملة لثمراتها البديعة فإذا هم في عالم ساحر مصابحه من ذهب تتدلى
بسلاسل من زبرجد، كما يتصور كشاجم:

سقياً لآيماننا ونحن على رؤوسنا نعتقد الأكاليلا
في جنة ذلّلت لقاطفها قُطوفها الدّانيات تذليلا
كانّ نارنجهام تَميس به أغصانها حاملا ومحمولا
سلاسل من زبرجد حملت من ذهب أحمر قناديلا^(١)

(١) يروى أيضاً: كأن أترجها، من ذهب أصفر.

ويقول أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي من شعراء اليتيمة في الأترج المصفوف:
أو ما ترى الأترج منضوداً لنا سطرأ كأشخاص جثون على الركب
وكأنما أجسادها وجسادها^(١) صور السلاحف قد صُنِعْنَ من الذهب

ومن أجمل أشجار العالم التّخيل. وإذا كان قوم تصخّ نسبتهم إلى شجر التّخيل فهم
العرب. ولا نستغرب أن يعتبروها أختاً لآدم وعمّة لهم. وقد عدّها فلاسفة العرب
ومفكّروهم وعلماءهم في آخر أفق الثّبات وأوّل أفق الحيوان فهي عندهم نبات حيواني
لرقيّه وخصائصه الكثيرة كما شبّهها بعضهم بالإنسان عامّة أو بالمسلم خاصّة.

وقد تشرّفت أن وُلِدَ المسيح عند جذعها: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ
قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَذْسِيًّا﴾^(٢) فنادى بها من تحيّاً ألا تحزني قد جعل ربك تحنك سرّاً ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ
يَصْنَعُ النَّخْلَةُ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾^(٣).

ولأنواعها وأطوار نُشوئها وطلّعها وثمرها في اللّغة العربيّة أسماء لا توجد إلّا فيها.
ورؤية التّخيل في حقله الواسعة من أبدع المناظر. وإنّما نقصّر هنا على بعض ما جاء في
وصفها من الشعر. يقول أبو هلال العسكري:

ونخيل وقفن في معطف الرّم
شربت بالأعجاز حتى تروث
طلع الطّلع في الجماجم منها
فتراها كأنّها كُتّت الخيد
أهو الطّلع أم سلاسل عاج
ثمّ عادت شبائها تتباهى
خرزات من الزّبرجد خضر
ثمّ حال النّجار واختلف الشّك
بين صُفّر فواقع تتباهى

ويقول شهاب الدّين الشّطنوفيّ:

كأنّ التّخيل الباسقات وقد بدّت
وقد علّقت من حولها زينة لها

(١) الجساد الزّعفران، وهنا لونها الزّعفرانيّ.

(٢) مزيّم ١٩: ٢٣، ٢٤، ٢٥.

ويقولُ عبد الصَّمَد بن المُعَدِّل في أرجوزته:

كأَنَّهُ في ناضر الأغصان	زُمِرْد لاح على تيجان
حتى إذا تَمَّ له شهران	وانسَدَلَتْ عثاكيل القنوان
كأنَّها قُضِبَ من العَقيان	فُصِّلْنَ بالياقوت والمرجان
رأيتُه مختلف الألوان	من قانئ أحمر أرجواني
وفاقع أصفر كالتيَّران	مثل الأكاليل على الغواني

وقد وَصَفُوا الجُمَّار أي رأس النُّخل يبدو كالنَّاج العظيم، وإذا قطعت الجُمَّارة لا تعيش النُّخلة بعدها:

جُمَّارة كالماء تبدو لنا	ما بين أظمار من اللَّيف
جسم رطيب اللِّمس لكِنَّه	قد لُفَّ في ثوب من الصُّوف
وتَفَنَّنوا في وَصف الطَّلُع والبَلَح والبُسر والرُّطْب والتمر. ومما يُنسَب إلى كشاجم وصف الطَّلُع:	

ولابس ثوباً من الحرير	مُضْمَخ الظَّاهر بالعبير
مُضْمَن الباطن ثوب نور	يَقْتَرُّ عن مَكْنُونَةِ الثُّغور
كأَنَّمَا فُتَّ من الكافور	

ويصف ابن المُعْتَزُّ البُسر الأحمر:

كقطع الياقوت يانعَات	بخالص الثُّبَر مُقَمَّعَات
----------------------	----------------------------

ويُنعَت مُحَمَّد بن شرف القَيروانيُّ التَّمر:

ومطبوخ بغير ع قيد نار	عَزَمْتُ على جَنَاه بابتكار
توابيت تَبَدُّت من عقيق	مُقَمَّعة بمسبوك النُّضار
تَرى لصفاء جواهرها نَواها	كالسنة العصافير الصُّغار

ويُؤَيِّه ابن الرُّومِي بضرب من التَّمر أحمر مُشْرَب بِصُفْرة يُدعى البَرْنِيَّ وهو من أَجَوْدَه:

بعثت بـِـرْنِيَّ جَنِيَّ كَأَنَّهُ	مخازن تَبر قد مُلِئْنَ من الشَّهد
مُخْتَمَة الأطراف تَنقُذُ قُنُصْها	عن العسل الماذي والعنبر الهندي
تَنقُلُ من خُضر الثَّياب وَصُفْرها	إلى حمرها ما بين وَشِيٍّ إلى بُرْد
فكم لبثت في شاهر لا تُرى به	ولا تُجَتَنى بِاللَّحْظ إلاَّ من البُعْد
الدُّ من السَّلوى وأحلى من المُنَى	وأعذب من وصل الحبيب على الصَّدِّ

وكانت أشجار النَّخِيل والأترج والكَبَاد تُزرع في ضواحي دمشق. نقرأ في «نزهة الأنام في محاسن الشام» للبدرى أنَّ «غالب أهل الصَّالِحِيَّة يُهادون سُكَّان المدينة بالبَح والأترج والكَبَاد لِنُموِّ حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد».

والنَّخِيل القليل الذي بأوربَّة أصله من النَّخِيل الذي يُزَيَّن شاطئ الرِّيفيرا. وكلُّ هذا النَّخِيل يَرجع إلى تلك النَّخلة التي أمر عبد الرَّحْمَن الأوَّل بإحضارها من بلاد الشام أو العراق في القرن الثَّامن الميلاديَّ إلى أسبانيا، فنظر إليها في رُصافة قُرْبَة، وناجها بقوله:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تناءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بِلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَّغْرِيبِ وَالنَّوَى وطولُ التَّنَائِي عَنْ بَنِي أَهْلِي
تَشَاتِ بِأَرْضِ أَنْتِ عَنْهَا غَرِيبَةٌ فمِثْلِكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُتَأَيِّ مِثْلِي
سَقَتِكَ غَوَادِي الْمُزْنِ فِي الْمُتَأَيِّ الَّذِي يَسُحُّ وَيَسْتَمِرِّي السُّمَّاكِينَ بِالْوَبْلِ
وكذلك بقوله:

يَا نَخْلَ أَنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي فِي الْأَرْضِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَهْلِ
تَبْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَمَّمَةً عَجَمَاءَ لَمْ تُجَبَّلْ عَلَى جَبَلِي
وَلَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ إِذْنٌ لَبَكَتْ مَاءَ الْفُرَاتِ وَمِنْثَتْ النَّخْلَ^(١)

(١) لقد كان من حسنات الدَّهر على أسبانيا أنَّ جاءها العرب وأقاموا أركان الحضارة والمدنيَّة والثقافة فيها نحوًا من ثمانية قرون، وكانوا ثَمَّةَ مَوْضِعِ اتِّصَالِ كَبِيرٍ وَمُحَاكَاةٍ مِنْ قِبَلِ سُكَّانِ أُرْبَةِ الَّذِينَ درسوا في جامعاتهم وتَفَقَّهوا ظلالهم ونَهَلُوا مِنْ عُلُومِهِمْ وَاقْتَبَسُوا صِنَاعَاتِهِمْ. وقد بَلَغَتْ أسبانيا في عهدهم مَبْلَغًا لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ حَتَّى فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَقَدُّمِ الزَّمَانِ. وبَصَرُفِ النَّظَرِ عَنْ كُلِّ مَا صَنَعَهُ الْعَرَبُ هُنَاكَ يَكْفِي فِي هَذَا الْمَجَالِ تَتَبُّعُ أَنْوَاعِ الْأَزْهَارِ وَالْخُضَرِّ وَالْأَشْجَارِ الَّتِي أَدْخَلُوهَا (وَمِنْ أَشْهَرِهَا قَصَبُ السُّكَّرِ وَالسُّبَانِخِ أَوْ الْأَسْفَانَاخِ وَالْحَرْشُفِ وَأَصْنَافِ الشَّقَاتِقِ وَالزَّنَابِقِ وَغَيْرِهَا) فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَكَذَلِكَ دِرَاسَةُ أَسَالِيبِ الزَّرَاعَةِ وَالرِّيِّ الَّتِي اسْتَحْدَثُوهَا فَدَرَّتْ عَلَى الْبِلَادِ بِالْغُلَّتِ الْوَفِيرَةِ وَالخِيَرَاتِ الْعَمِيمَةِ.

كانت أسبانيا إِذْنِ مَوْضِعِ اتِّصَالِ هَامٍّ جَدًّا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ بِالإِضَافَةِ إِلَى جَزِيرَةِ صِقْلِيَّةٍ وَجَنُوبِ إِيطَالِيَّةٍ ثُمَّ بِالإِضَافَةِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ إِبَّانَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ. فَانْتَقَلَتْ الْحَضَارَةُ بِجَوَانِبِهَا الْمَخْتَلِفَةِ إِلَى أُرْبَةِ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ الْمُتَعَدِّدَةِ.

ولَمَّا جَاءَ الْعُثْمَانِيُّونَ سَاعَدَ تَقَدُّمَهُمْ فِي أُرْبَةِ عَلَى نَقْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَسْبَابِ الْحَضَارَةِ الَّتِي أَخَذُوهَا عَنْ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ. هَذَا وَيُلَمَسُ أَثَرُ الشَّرْقِ فِي حَدَائِقِ أُرْبَةِ وَحُقُولِهَا وَطُرُقِهَا وَشَوَارِعِهَا حَيْثُ تَقُومُ عَلَى جَوَانِبِهَا أَشْجَارُ الْكَسْتَنِاءِ الْبَرِيَّةِ أَوْ الْقَسْطَلِ وَلَا سِيَّما فِي الْعَصُورِ الْآخِرَةِ. وَقَدْ جَلَبَ =

وقد عدَّ البدرِيُّ لِلْعِنَبِ فِي كِتَابِهِ عَنْ مُحَاسِنِ الشَّامِ خَمْسِينَ صِنْفًا دُونَ حَضَرٍ.
وَيَخْتَلِفُ وَصْفُ الشُّعْرَاءِ لِلْعِنَبِ بِاخْتِلَافِ صَنُوفِهِ. يَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ فِي الْعِنَبِ
الْأَسْوَدِ:

حَتَّى إِذَا حَرُّ آبٍ جَاشَ مِرْجَلُهُ بِفَائِرٍ مِنْ هَجِيرِ الشَّمْسِ مُسْتَعِيرٍ
ظَلَّتْ عَنَاقِيدُهَا يُخْرِجْنَ مِنْ وَرَقٍ كَمَا اخْتَبَى الزَّنَجُ فِي خَضِرٍ مِنَ الْأُزْرِ
وَقَالَ السَّرِيُّ الرَّفَاءُ يَصِفُ شُجَيْرَاتِ الْكَرْمِ كَيْفَ يَحْمِلْنَ بِأَطْرَافِ الْعِدْقِ وَشُعْبَةِ الدَّقِيقَةِ
أَوْ الثَّقَارِيقِ، كَأَنَّهَا أَكَارِعُ الْبَلَابِلِ أَوْ أَفْرَاحُ الْعَصَافِيرِ، حَبَّاتِ الْعِنَبِ الَّتِي هِيَ أَوْعِيَةُ الْمُدَامِ:
يَحْمِلْنَ أَوْعِيَةَ الْمُدَامِ كَأَنَّهَا يَحْمِلْنَهَا بِأَكَارِعِ^(١) الثَّقَرَانِ
وَيَقُولُ النَّاجِمُ فِي عَرِيشِ:

مُعَرَّشٌ لِلْكَرْمِ مُنْتَشِرٌ أَوْرَاقُهُ الْخَضِرُ دُونَ مَرَاهَا
فَكُلُّ كَرْمٍ هُوَ السَّمَاءُ دُجَى وَكُلُّ عُنُقُودِهِ ثُرَيَّاها
وَيَصِفُ ابْنُ تَمِيمٍ هَذِهِ السَّمَاءَ الَّتِي كُلُّ مَنْ نَجُومِهَا ثُرَيَّا:
نَفَى عَنِّي الْهَجِيرَ ظِلَالُ كَرْمٍ وَأَمْتَعَنِي وَنَزَّهُ نَاطِرِيَا
وَلَا حَتَّ عَرِشَةٍ فَرَأَيْتُ مِنْهَا سَمَاءَ كُلِّ أَنْجَمِهَا ثُرَيَّا^(٢)

= هذه الشَّجَرَةُ وَغَيْرُهَا مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ وَالْخُضَرِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْأَثَرِاقِ عِنْدَ تَقْدِيمِهِمْ مِنْ آسِيَةِ
إِلَى أَوْرَبَةِ فَاهْتَشُّوا بِزَخْرَفَةِ النَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ.
ثُمَّ أَوَّلَعَ الْهَوْلَنْدِيُّونَ بِالْأَزْهَارِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَدَفَعُوا فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ عَلَى أَنْدَرِ أَنْوَاعِهَا
وَأَجْمَلِهَا الْمَبَالِغِ الْعَظِيمَةِ.
وَكَانَ مُسْتَهْلُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ فِي أَوْرَبَةِ ذَا شَأْنٍ لِأَنَّهَا شَرَعَتْ إِذْ ذَاكَ تُوجِّهُ عَنَابَةً خَاصَّةً نَحْوَ تَنْظِيمِ
الْحَدَائِقِ وَتَنْسِيقِهَا.

(١) الْكَرَاعُ الْمُسْتَدِيقُ مِنَ السَّاقِ جَمْعُهُ أَكْرُعٌ وَأَكَارِعُ.
(٢) أَصْلُ التَّشْبِيهِ الْجَمِيلِ يَرْجِعُ إِلَى أَبِي قَيْسِ بْنِ الْأَسَلْتِ يَصِفُ الثُّرَيَّا فَيُشَبِّهُهَا بِنُورِ الْعُنُقُودِ فِي بَيْتِهِ
الْمَشْهُورِ:

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا كَمَا تَرَى كَعُنُقُودٍ مَلَأَحِيَّةٍ حِينَ نَوْرَا
وَتَدَاوَلَهُ الشُّعْرَاءُ فَاعْتَمَدَهُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ وَصْفِ عُنُقُودِ الْعِنَبِ كَمَا مَرَّ وَاعْتَمَدَهُ آخَرُونَ عِنْدَ وَصْفِ بَعْضِ
الْأَزْهَارِ الْمُشْبِكَةِ فِي الْغُصْنِ. يَقُولُ ابْنُ خَفَاجَةَ هَذِهِ الْآيَاتِ الرَّفِيقَةُ الْبَدِيعَةُ حَقًّا:
لَهُ نَوْرِيَّةٌ الْمُحْيَا تَحْمِلُ نَارِيَّةَ الْحُمَيَّا
وَالدَّوْحُ رَطَبُ الْمَهْزِ لَذَنَ قَدْ رَقِيَ رِيًّا وَطَابَ رِيًّا
تَجَسَّمَ الثُّورُ فِيهِ نَوْرَا فَكُلُّ غُصْنٍ بِهِ ثُرَيَّا

على أن ابن الرُّومي يُفَرِّق في العِنْب الرَّازِقِيَّ بين الحَبَّات الكثيرة المُجْتَمِعة والحَبَّات القليلة:

كَأَنَّ الرَّازِقِيَّ وَقَدْ تَنَاهَى وَبَاهَتْ بِالْعَنَاقِيدِ الْكُرُومُ
قَوَارِيرَ بِمَاءِ الْوَرْدِ مَلَأَى تَشَفُّ وَلَوْلَوْ فِيهَا يِعُومُ
وَتَحَسَّبُهُ مِنَ الشَّهْدِ الْمُصَفَّى إِذَا اخْتَلَفْتَ عَلَيْكَ بِهِ الطُّعُومُ
فَكُلُّ مُجْتَمِعٍ مِنْهُ ثَرِيًّا وَكُلُّ مُفَرَّقٍ مِنْهُ نَجُومُ

وَوَضَفَهُ لِلْعِنْبِ الرَّازِقِيَّ قَدْ طَارَ شَهْرَةٌ وَتَدَاوَلَهُ الْأَدْبَاءُ وَالنَّاشِئَةُ:
رَازِقِيٌّ مُخْطَفٌ الْخُصُورِ كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْهَلُورِ
قَدْ ضُمَّنْتَ مِسْكَاً إِلَى الشُّطُورِ وَفِي الْأَعَالِي مَاءٌ وَرْدٌ جُورِي
لَمْ يُبْقِ مِنْهُ وَهْجُ الْخَرُورِ إِلَّا ضِيَاءٌ فِي ظُرُوفِ نُورِ
لَهُ مِذَاقُ الْعَسَلِ الْمَشُورِ وَرَقَّةُ الْمَاءِ عَلَى الصُّدُورِ
وَنَكْهَةُ الْمَسْكِ مَعَ الْكَافُورِ لَوْ أَنَّهُ يَبْقَى عَلَى الدُّهُورِ
فُرْطَ آذَانَ الْجِسَانِ الْخُورِ بَلَا فَرِيدٌ وَبَلَا شُذُورِ

ويصف ابن المعتز حبة العنب ونواتها في جوفها ولتلاحظ الجنس المُصَحَّف بين حبة وحبة:

وَحَبَّةٌ مِنْ عِنَبٍ مِنْ جَنَّةٍ مُتَخَذَةٍ
كَأَنَّهَا لَوْلُوءَةٌ فِي وَسْطِهَا زُمُرُودَةٌ

وكانوا يستعملون الزَّيْبَ فِي الثَّقَلِ. يقول أبو طالب المأموني يصف الزَّيْبَ الطَّائِفِيَّ فيصوّره أَوْعِيَةً لِلْعَسَلِ صِيغَتْ مِنَ الْجَزَازِيِّ الَّذِي هُوَ حَجَرٌ يُشَبَّهُ الْيَاقُوتَ بَعْضُ الشَّيْءِ أَوْ كَمَا وَصَفَهُ التِّيفَاشِيُّ: «حَجَرٌ فِيهِ خَمْرِيَّةٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَحْمَرُ تَعْلُوهُ بَنَفْسَجِيَّةٌ»^(١):

وَطَائِفِيٌّ مِنَ الزَّيْبِ بِهِ يَنْتَقِلُ الشَّرْبُ حِينَ يَنْتَقِلُ
كَأَنَّهُ فِي الْإِنَاءِ أَوْعِيَةٌ مِنَ الْجَزَازِيِّ مِلْؤُهَا عَسَلُ

وَالثَّيْنُ كَالْعِنَبِ وَالزَّيْتُونُ مِنْ فَاكْهَةٍ حَوْضِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ. وكما امتازت دمشق بالعنب وأصنافه كذلك اختصت قديماً بالثَّيْنِ حتى جاء في تفسير الآية الكريمة ﴿وَالثَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(٢) وَطُورِ سَيْنِينَ^(٣) أَنَّهُمَا الثَّمَرَتَانِ الْمَعْهُودَتَانِ أَوْ دِمَشْقُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَوْ

(١) انظر لفظ الجَزَازِيِّ فِي كِتَابِ «نَحْبِ الدَّخَائِرِ فِي أَحْوَالِ الْجَوَاهِرِ» تَأَلَّفَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَاعِدِ الْأَنْصَارِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْأَكْفَانِيِّ حَرَّرَهُ وَعَلَّقَ حَوَاشِيَهُ الْأَبُ أَنْسَتَاسُ مَارِي الْكَرْمَلِيِّ.

(٢) سُورَةُ الثَّيْنِ ٩٥: ١ - ٢.

مَسْجِدَاهُمَا أَوْ جَبَلَانِ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ. وَيَزِيدُ فِي رُجُوحِ كَوْنِهِمَا إِشَارَةً إِلَى دِمَشْقٍ وَإِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَرُودِ طُورِ سَيْنِينَ أَيْ سَيْنَاءَ وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ أَيْ مَكَّةَ. وَقَدْ رَبَطَ الْإِسْلَامُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي عِدَّةٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ أَبَدَ الْآبِدِينَ.

وإنَّمَا يَعْنِينَا هُنَا الْوَصْفُ الْفَنِّيُّ لِهَذِهِ الشَّمْرَةِ الطَّيِّبَةِ. يَقُولُ كِشَاخِمُ يَصِفُ الثَّيْنَ الْأَخْضَرَ يَجْنِيهِ مِنْ أَشْجَارِهِ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ:

قُمْ قَدْ أَتَى ضَوْءُ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ	يَا صَاحِ نَفْتَنِمِ الْحَيَاةَ وَهَيَّكُلِ
نُلِمُّ بِتَيْنٍ لَدَى طَعْمَاءٍ وَاكْتَسَى	حُسْنًا وَقَارَبَ مَنْظَرًا مِنْ مَخْبَرِ
لَطْفَتِ مَعَانِيهِ لَطَافَةَ عَاشِقٍ	فِي لَوْنٍ مُشْتَقٍّ حَلِيفٍ تَقْكُرِ
كَالثَّلْجِ بَرْدًا فِي صَفَاءِ الثَّبْرِ فِي	رِيحِ الْعَبِيرِ وَفَوْقَ طَعْمِ الشُّكْرِ
يَحْكِي لَنَا مَا صُفِّ فِي أَطْبَاقِهِ	خِيَمًا تَلُوحُ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَخْضَرِ

الْمُهْمُّ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ رَسْمُ شَكْلِ الثَّيْنِ وَلَوْنُهُ بِاللَّفْظِ وَالتَّشْبِيهِ، فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ بَعْضَ الصُّورِ وَلَوْ كَانَتْ عَارِيَةً. يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَفَاجَةَ مُتَأَمِّلًا ثَمَرَ الثَّيْنِ الضَّارِبِ إِلَى السَّوَادِ وَهُوَ يَتَلَامَحُ كَالْتَّمَشِ فَوْقَ بَيَاضِ الْأَفَقِ مِنْ خِلَالِ الْأَغْصَانِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَ الشَّاعِرُ بَدَأَ لَهُ الثَّمَرُ كَأَنَّهُ كَوَاعِبُ حَبَشِيَّةٍ:

وَسُودَ الْوَجْوهِ كُلُّونِ الصُّدُودِ	تَبَسَّمْنَ تَحْتَ عُبُوسِ الْغَبَشِ
إِذَا مَا تَجَلَّى بَيَاضُ الضُّحَى	تَطْلَعْنَ فِي وَجْهِهِ كَالْتَّمَشِ
كَأَنِّي أَقْطَفُ مِنْهَا ضُحَى	ثُدَيِّ صِفَارِ بَنَاتِ الْحَبَشِ

وكَذَلِكَ يَتَخَيَّلُ الْآخَرُ الثَّيْنَ الْمُصْفَرَّ:

مَا الثَّيْنُ إِلَّا سَيْدُ الثَّمَارِ	بَلَا امْتِرَاءٍ وَبَلَا مُمَارِي
كَأَنَّهُ إِذَا لَاحَ فِي الْأَشْجَارِ	أَطْرَافُ أَثْدَاءٍ مِنَ الْجَوَارِي

أَوْ أَكْرَ صِيغَتِ مِنَ الثُّنَارِ

وَقَدْ شَهَرَتْ مَالِقَةُ فِي الْأَنْدَلُسِ بِالثَّيْنِ حَتَّى ضُرِبَ الْمَثَلُ بِحُسْنِهِ. وَكَانَتْ الْفَلَكَ تَأْتِي إِلَيْهَا إِبَّانَ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَشَحْنِ أَوْقَارِ الثَّيْنِ. قَالَ أَبُو الْحَجَّاجِ يَوْسُفُ بْنُ الشَّيْخِ الْبَلَوِيِّ الْمَالِقِيُّ فِيهِ، وَبَيْتَاهُ هَذَانِ كَالنَّعْمَةِ الَّتِي تَتَرَدَّدُ عِنْدَ الْإِنْشِرَاحِ الْهَادِي فِي النَّفْسِ أَوْ كَالشُّعَاعِ الْمُتَأَلِّقِ يَرَفُّ فِي تِلْكَ الْحَضَارَةِ:

مَالِقَةُ حَيَّتْ يَا تَيْنَهَا	الْفَلَكَ مِنْ أَجْلِكَ يَا تَيْنَهَا
نَهَى طَبِيبِي عَنْهُ فِي عِلَّتِي	مَا لَطِيبِي عَنْ حَيَاتِي نَهَى

وَإِذَا تَذَوَّقْنَا الْجِنَاسَ الْمَوْسِيقِيَّ كَالنَّعْمَةِ وَقَرَارَهَا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فَالَّذِي يَشْفَعُ لِلْجِنَاسِ

نفسه الذي يأتي في آخر البيت الثاني الاستطراف والاستطراف على رغم التَّكْلُفِ الظَّاهِرِ .
ويُحَدِّثُنَا صاحب «نَفْحِ الطَّيْبِ» أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ «ذَيْلٌ عَلَيْهِ الْإِمَامُ الْخَطِيبُ أَبُو مُحَمَّدٍ
عَبْدُ الْوَهَّابِ الْمُنْشِيُّ بِقَوْلِهِ :

وَحَمَصٌ لَا تَنْسَ لَهَا تَيْنَهَا وَاذْكُرْ مَعَ التَّيْنِ زِيَاتَيْنَهَا
وَفِي بَعْضِ النُّسخِ :

لَا تَنْسَ لِإِشْبِيلِيَّةٍ تَيْنَهَا وَاذْكُرْ مَعَ التَّيْنِ زِيَاتَيْنَهَا
وَهُوَ نَحْوُ الْأَوَّلِ لِأَنَّ حَمَصَ هِيَ إِشْبِيلِيَّةٌ لِنَزُولِ أَهْلِ حَمَصَ مِنَ الْمَشْرِقِ بِهَا»^(١) .

وَالْإِمَامُ الْخَطِيبُ إِنَّمَا اسْتَسَاغَ هَذَا التَّذْيِيلَ لِيُضَيِّفَ جِنَاساً آخَرَ جَدِيداً وَقَدْ أَلْغَزَ
الصَّلَاحُ الصَّفْدِيُّ فِي التَّيْنِ :

أَيُّ شَيْءٍ طَابَ أَكْلُهُ نَاعِمٌ فِي الْخَلْقِ لَيْسَ
كَيْفَ يَخْفَى عَنْكَ يَوْمَاً وَهُوَ فِي التَّصْحِيفِ بَيْنَ

عَلَى أَنَّ غُوطَةَ دِمَشْقَ كَانَتْ فِي الْمَاضِي «بِسْتَانِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ» . وَقَدْ نَقَلَ الْبَدْرِيُّ
صَاحِبُ كِتَابِ «نُزْهَةِ الْأَنَامِ» أَنَّهُ «كَانَ بَغُوطَةُ دِمَشْقَ أَشْجَارَ تَحْمِلُ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا أَرْبَعُ فَوَاكِهَ
كَالْمَشْمَشِ وَالْخَوْخِ وَالتَّقَّاحِ وَالْكُمَثْرِ، وَبِهَا مَا يَحْمِلُ الثَّلَاثَ وَأَقْلَهُنَّ اللَّوْنَانِ مِنَ الْفَاكِهَةِ»
ثُمَّ يَقُولُ : «وَهَذَا مَوْجُودٌ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا (الْقَرْنُ الثَّاسِعُ) فَإِنِّي رَأَيْتُ بِهَا الْكَرْمَةَ الْوَاحِدَةَ
تَطْرَحُ الْعِنَبَ الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ، وَرَأَيْتُ بَوَادِي الثَّيْرِينَ شَجَرَةً تَوْتُ تَطْرَحُ الثُّوتَ
الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ»^(٢) .

وَلِنَسْتَمِعَ إِلَى الْبُحْثَرِيِّ يُغْنِي جَمَالَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ لِلْمَتَوَكِّلِ حِينَ زَارَهَا فِي حَاشِيَتِهِ :
أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَبَدَتْ مُحَاسِنَهَا وَقَدْ وَفَى لَكَ مُطَرِّبُهَا بِمَا وَعَدَا
إِذَا أَرَدْتَ مَلَأْتَ الْعَيْنَ مِنْ بَلَدِ مُسْتَحْسَنَ وَزَمَانَ يُشْبِهُ الْبَلَدَا
يُمَسِّي السَّحَابَ عَلَى أَجْبَالِهَا فِرْقاً وَيَصْبِحُ الثَّبْتُ فِي صَحْرَائِهَا بَدَا
فَلَسْتَ تَبْصُرُ إِلَّا وَكَفْلاً خَضِيلاً أَوْ يَانِعاً خَضِيراً أَوْ طَائِراً غَرِداً
كَأَنَّمَا الْقَيْظُ وَلَّى بَعْدَ جَيْتِهِ أَوْ الرَّيِّعُ دَنَا مِنْ بَعْدِ مَا بَعُدَا
لَقَدْ طَفْنَا مَا شَاءَ لَنَا الطَّوْفُ فِي الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ بِالْحَقُولِ وَالْكَرُومِ وَالْمَقَائِئِ

(١) المطبعة الميريّة المِصرِيَّة ج ١ ص ٧٥ .

(٢) ج ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

والبساتين، لنرى أنواعاً من الأزهار والرياحين والبُقول والفاكهة وننظر كيف وصّفاها الشعراء بل كيف أنشؤوها إنشاءً جديداً في عالم الشعر الفنيّ. على أنّنا لم نقف عندها جميعاً وقوفاً يُمكننا من استيعاب خصائصها الفنيّة. وإنّما حملنا كثرة الأنواع ووفرة الخصائص على أن نهمل طائفة منها. مثلاً في ذلك مثل الذي يطوف في متحف زاهر بالآثار الفنيّة، مهما بالغ في التأمل والتّقيب والنّظر فلا بدّ من أن يقوّته الوقوف عند بعض الآثار البديعة المهمّة، وربّما كان هذا القوّت حافِزاً له على أن يستأنف الزيارة مرّات أخرى، ولا سيّما إذا وجد في طوافه الأوّل نصيباً من المتاع الجماليّ وكسب حظاً من الثّقافة الفنيّة. ونحن نحبّ أن نرجع القارئ نفسه إلى كتّب الأدب القديمة فيطالع أشعاراً كثيرة أخرى في الموضوعات التي أسلفنا لم نُوردها وأشعاراً في أزهير ورياحين وبُقول وفاكهة لم نُسمّها ولم نعرضها خوفاً من الإطالة وإتاعب القارئ، ولأنّ بحوثنا إلى فتح الآفاق الجديدة الفنيّة في تفهّم الأدب العربيّ أقرب منها إلى الاستقصاء والحصر.

وإذا ذكرنا فيما سلف بعض مجالس الأُنس التي كانوا يجلسونها فإنّما اكتفينا منها بالإشارة الخاطفة والنّظرة العابرة دون تناوُل لهذا الموضوع الذي له علاقة ماسّة بالحضارة الثّليدة، فلم نتبسّط في بيان أصول تلك المجالس التي يُنظّمونها ولم نذكر أنواع الأزهار التي يُصفّفونها والتّحايا التي يتهادون بها وأكاليل الرياحين التي يّضعونها على الرؤوس أو يتقلّدونها ولا الثّقول الرّطبة واليابسة التي يستعملونها ولا المشامّ العَبَقَة التي يّرتّبونها ولا آداب المُنادمة التي كانوا يُحسنونها وما إلى ذلك من سُقاة وشراب وغيره ففي كلّ ذلك متاع من النّاحيّة الأدبيّة وفائدة في تبيّن المراحل الاجتماعيّة التي مرّوا بها^(١). وربّما كان

(١) يقول أبو الفرج البّغا مُشيراً إلى التّحايا بالنّرجس:

ونرجس لم يعد مُبيّضه الكأ
كأنّما تُهدي التّحايا به
ويقول ابن المعتز مُعجباً بإكليل الآس المرصّع بالرياحين على مفرق السّاق:

س ولا أصفجره الرّاحا
لُطفاً إلى الأرواح أوراها
عليه أكليل آس فوق مفرقه
قد رصّعه بأنواع الرّياحين

وقد جَمَعَ شاعر آخر بين تحيّات النّدامى وأكاليل الرّياحين، والآيات ممّا يُنسب إلى أبي نُواس:

الذُّ وأشهى من قراع الكُثائب
مُصافحة الطّاسات من كلّ جانب
وأخذُ تحيّات النّدامى وردها
بترحيب أنس من حبيب وصاحب

ولبس أكاليل الرّياحين معهم
وأنصت أذان إلى شذو ضارب
ولكنّ أبا نُواس الذي خلّع بمباهج الحياة الحسيّة لم يلبّث أن ندّم ندماً عميقاً فيه مرارة الحسرة. فهو القائل ولات ساعة مندم:

من المُفيد إنشاء بُحوث جديدة في هذا السَّيل، وكذلك من المُفيد إنشاء بُحوث جديدة في وَصف الشُّعراء لأنواع الحيوان. فثَمَّة علم حيوان أدبيّ زيادة على علم النَّبات الأدبيّ الذي لم يكن بحثنا هذا إلَّا جزءاً يسيراً منه. وليست مهارة الشُّعراء العرب في وصف الحيوان بأقلِّ منها في وَصفهم للنَّبات. بل وصف الشُّعراء العرب للخيل وحدها وتَفَنُّهم فيه كافٍ لأن يُؤلَّف موضوعاً مُستقلاً.

ولقد وَجَدْنَا في خلال وَصف الشُّعراء للنَّبات كيف اعْتَمَدُوا على التَّشبيه خاصَّة لتصوير ما يصفونه ولتمثيله أجود ما يكون التَّمثيل وأطرفه. وإنَّما كانوا يَلْتَمِسُونَ المُشَبَّه به بين المعادن النَّقيسة والحجارة الكريمة ومَلامِح الإنسان الجميلة وبعض الحيوان كالفراس أو خراطيم الفِيلَة أو أنيابها مثلاً والنُّجوم والظَّواهر الطَّبيعيَّة كالنَّار وغيرها أو أيَّ شيء قريب أو بعيد يستطيع أن يُوحى بِفِكْرَةٍ فنيَّة طريفة مُبتكرة.

ولكنَّ عالَم النَّبات نفسه دخل في عالم الشُّعر العربيّ منذ القديم وغدا أداة من أدوات التَّعبير يَلْتَمِسُ الشُّعراء فيه ما يُريدون أن يُشَبِّهُوا به، فهم يَعْتَبِرُونَهُ مجالاً واسعاً يأخذون منه تشبيهاتهم واستعاراتهم ومجازاتهم في أوصافهم وأساليبهم البيانيَّة.

ومن الطَّبيعيِّ كما شَبَّهْنَا الأزهار في بعض الأحيان بالنُّجوم أن نجد في الشُّعر العربيّ التَّشبيه المُقابل أي تشبيه النُّجوم بالأزهار في جُملة تشبيهاتها الكثيرة.

يقولُ سليمان بن إسماعيل:

وترى الزُّهر في المَجْرَّة كالزُّهر — ر طفا فوق جدولٍ وغدير

ويقولُ الشَّاعر أبو قيس بن الأَسَلْت في بيته المشهور والمُتداول وقد أوردناه آنفاً ويُنسَب أيضاً لأُحيحة بن الجُلاح:

وقد لاح في الصُّبح الثُّريا لمن يرى — كعُنُقود مُلأحيَّة حين نَوَّرا

ومثل هذا التَّشبيه البديع افْتَتَن به الشُّعراء. أليست النُّجوم تلوح كأزهار الفُضاء؟

يقولُ ابن المُعْتَز:

= وَمِنْزَلَةٌ خُلِفَتْ لَهَا — جَعَلْتُ لغيرها شُغْلِي
والقائل:

لو صَحَّ عقلي فلَّ أشباهي — أَجَلٌ وَلَمْ أَلْهُ مَعَ اللَّاهِي
وينفي المُتَنَبِّي عن سيف الدَّولة اسْتِعْمَالَ الأترج والطلُّع للشُّراب لأنَّ غاياته كانت أسمى من ذلك:
شديد البُعد من شُرب الشُّمول — تُرْنِج الهند أو طَلَع النُّخيل

فنازلنيها والثريّا كأنّها
ويقول أيضاً:

كأنّما الجوزاء في أعلى الأفق
ويقول كذلك:

قام كالغُصن في الثّقا
وسقاني المدام والليّ
والثريّا كنور غص
ويقول:

كان الثريّا في أواخر ليلها
واللّجّام المُفضّض كان شائعاً في عصر ابن المُعترّ. ومن المعلوم أنّ جماعة من بني
أميّة وخلفاء بني العبّاس كانوا يركبون بالحيّة الخفيفة من الفضة والمناطق وتتخذ الشيوخ
والشّروج واللّجّم حتى زمن الخليفة المُعترّ أبي الشّاعر، فكان أوّل خليفة أظهر الرّكوب
بحيّة الذهب ثمّ اتّبعه الناس في فعل ذلك.

ويقول:

زارني والدّجى أحمرّ الحواشي
وهلال السّماء طوق عروس

ويقول أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم الصّبّي:

خلت الثريّا إذ بدت
سنبلة من لؤلؤ

ويقول:

إذا الثريّا اغترضت
حسبتها لامعة

وإذا تكرّرت أمثال هذه الصّور فإنّ بعضها يبقّى طريفاً يمثّل الغضارة والثّلّوين
البديع. قال ابن المُعترّ يصف سحابة أمطرت طول اللّيل ثمّ انجلت في أخريّاته فلاح
لازورد السّماء كرياض البنفسج ونجومها كنور الأقاحي بينها:

وموقرة بثقل الماء جاءت
فجادت ليلها سحاً وبلاداً

كان سماءها لما تجلّت خلال نجومها عند الصّباح
رياض بَنَفَسَج خَضِل ثراه تَفْتَحَ بينه نَوُزُ الأَقاحي
وقد تأتي الطّرافة من اتّساع التّمثيل. يقول ابن المُعْتَزّ:

انظر إلى حُسن هلال بدا يَهْتَكَ من أنواره الجِنْدِسا
كَمِنْجَل قد صِيغ من فضّة يحصد من زهر الدُّجى نرجسا

وكما أنّ في تاريخ التّصوير مَدَارِسَ مختلفة كذلك نجد في الشّعر مذاهب مُتعدّدة. ومن المعلوم أنّ المدرسة الانطباعيّة في التّصوير حين نشأت أَرادَتْ فيما أَرادَتْه أن تُصوِّرَ هذا الحوار المُتردّد بين الثّور والأشكال. فكان المُصوِّر يَعْمِدُ إلى تصوير الشّيء الواحد في أوقات مختلفة من النّهار إظهاراً لاختلاف الأشكال مع مِيلِ الثّور. وَيَعْرِفُ المُطَّلِعُونَ على تاريخ التّصوير كيف عمد المُصوِّر الفرنسيّ الانطباعيّ موني Monet إلى تصوير كاتدرائيّة مدينة رنس Reims مرّات مُتعدّدة نَظْراً لِتَغْيِيرِ شكلها في مُختلف ساعات النّهار. ولا عَجَب أن يصف الشّعراء مُختلف أوقات النّهار واللّيل من خلال أغراضهم المُتفاوتة. يقول النّاجم هذه الأبيات الغريبة في صُورِها وفي قافيتها يصف فيها ضوء القمر الشّاحب وهو في التّربيع الثّاني عند نهاية اللّيل:

وعاذل وسَخ اسمي وقد لام سَحيرا أيّ تـوسـيخ
قلتُ له للـرّاح أنبَهتني فهاتها وأغرَ بتـويـخي
والبدر قد قابَلَنِي طابِلياً كأَنَّه حَزّة بطيخ
وضَمَمَ الحائِطَ جادِيه لما تعالَى أيّ تَضْمِيخ

ولكنّه إذ استطاع أن يصل إلى ما يُريده من التّصوير والإيحاء يُحافظ على أشكال الأشياء على خِلاف المُصوِّرِينَ الانطباعيّين في أغلب الأحيان.

ومن الأمور التي تُشَبِّه بالنبات الإنسان في مُختلف أطواره وأحواله. يقول نافع بن لقيط الفَقْعَسِيّ يذكر شبابه في هرمه:

فلئن بَلِيْتُ لَقَدْ عُمِرْتُ كأَنِّي غصن تُثْبِتُه الرّيح رَطِيب
وكذاك حَقّاً من يُعَمَّرُ يُبْلِه كَرُّ الزّمان عليه والتّقليب

ويقول النّابغة الجعديّ:

وما البَغْيُ إلّا على أهله وما النَّاسُ إلّا كَهَذي الشّجر
تري الغصن في عُفْوان الشّبا ب يَهْتَرُ من بهجات خُضر
زماناً من الدّهر ثمّ التوى فعاد إلى صُفْرة فانكسر

وقالت أعرابية ترثي زوجها:

كُنَّا كُفْصَيْنِ فِي جُرْثُومَةٍ بَسَقَا حِينَا بِأَحْسَنِ مَا تَنْمِي بِهِ الشَّجَرُ
حَتَّى إِذَا قِيلَ قَدْ طَالَتْ فِرْعَوْنُهُمَا وَطَابَ قِنُوهُمَا وَاسْتَطْعَمَ الثَّمَرُ
أَخْنَى عَلَى وَاحِدٍ رَنْبَ الزَّمَانِ وَمَا يُبْقِي الزَّمَانُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَذَرُ
كُنَّا كَأَنْجُمٍ لَيْلَ بَيْنِهَا قَمَرُ يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى مِنْ بَيْنِهَا الْقَمَرُ

ويقولُ عديُّ بن زيد في قصيدته المشهورة:

ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقَ جَا فَفَ فَأَلَوْتَ بِهِ الصَّبَا وَالدَّبُورُ
وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ جَدًّا لَا حَصْرَ لَهُ إِذَا كَانَ الْمُشَبَّهَ بِهِ مَأْخُودًا مِنْ عَالَمِ النَّبَاتِ.
وَلِلَّذَلِكَ نُقَيْدُ الْكَلَامِ بِمَا كَانَ الْمُشَبَّهَ بِهِ مَأْخُودًا مِنَ الْأَزْهَارِ وَالرِّيَّاحِينَ وَالْبُقُولِ وَالْفَاكِهَةِ أَيْ
مُقَابِلَ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الشَّعْرَ الْغَزَلِيَّ كَثِيرَ الْاعْتِمَادِ عَلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ.

يقولُ ابن الرومي:

كَأَنَّ تِلْكَ الدُّمُوعَ قَطَرَ نَدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسٍ عَلَى وَرْدٍ
وَيَقُولُ بِهَاءِ الدِّينِ زُهَيْرٌ مِنْ قَصِيدَةٍ:

وَأَنْتَ يَا نَرْجِسَ عَيْنَيْهِ كَمْ تَشْرَبُ مِنْ قَلْبِي، وَمَا أَذْبَلَكَ
وَيَا مَهَزَّ الْغُصْنِ مِنْ عِطْفِهِ تَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي عَدَّلَكَ

ويقولُ الخليل بن الضحَّاك:

وَكَالْوَرْدَةِ الْبَيْضَاءِ حَيًّا بِوَرْدَةٍ مِنَ الْوَرْدِ يَسْعَى فِي قَرَارِطِقِ كَالْوَرْدِ

ويقولُ أحدُ الظُّرَفَاءِ:

شَادِنٌ خَلْدُهُ وَعَيْنَانَا هَ وَرْدِي وَنَرْجِسِي
إِنْ يَجُذُّ لِي بِخُمُرٍ فِي هَ فَقَدْ تَمَّ مَجْلِسِي

ويقولُ شاعر في نساء:

يَلْهُو بِهِنَّ كَذَا مِنْ غَيْرِ فَاخِشَةٍ لَهْوِ الصَّيَّامِ بِتَفَّاحِ الْبَسَاتِينِ

ويقولُ العلويُّ وجناس التَّصْحِيفِ فِي الْقَافِيَةِ يَكَادُ يَحْجِبُهُ الطَّنْعُ:

يَا صَنَمًا أَفْرَغَ مِنْ فَضِّهِ فِي خَلْدِهِ تَفَّاحَةُ غَضِّهِ
كَأَنَّمَا الْقُبْلَةُ فِي خَلْدِهِ بِالْحُسْنِ مِنْ رِقَّتِهِ عَضِّهِ

ويقول علي بن الجهم:

ما أخطأ الورد منك شيئاً طيباً وحُسنأً ولا مَلالاً
أقامَ حتى إذا أنسنا بُقْزِيه أسرع انتقالاً

ويقول ابن المعتز وقد ورد في كتاب «التشبيهات» لابن أبي عون:

فكم عِناقٍ لنا وكم قُبْلٍ مُختَلَسَاتٍ حِذارَ مُرتَقِبٍ
نَقَرَ العَصافير وهي خائفةٌ من النَّوَاطير يانعِ الرُّطَبِ

وإذا شبّه بشار رَجَعَ حديث حبيته بقطع الرياض المزهرة:

وكانَ رَجُوعَ حديثها قَطَعَ الرِّياض كُسيَنَ زَهرا

وشبّه أيضاً عظامها بالخيزران:

إذا قامَتْ لِمِشيتها تَنَثَّثَ كأنَّ عِظامها من خِيزران

فهو في شعر له آخر يذهب مذهب المداعبة فيشبه تلك العظام بقصب السكر ثم
يُغَلِّب ريح الحبيب على ريح البصل:

إنَّما عَظْم سُلَيْمى جَبَّي قصب السكر لا عَظْم الجمل
وإذا أَذِنَتْ منها بَصلاً غلب المسك على ريح البصل

ويقول إبراهيم بن المهديّ مُستَغنياً بالحبيب عن البستان:

خَلَّتْها في المُعْصَفرات الغواني ورده في شقائق النُعمان
أنت تُفَاحتي وفيك مع الثُّقُوحِ ساح رُمّانان في غُصْنِ بان
لا أرى في سِواك ما فيك من طيب وب ومن بهجة ومن رِيحان
فإذا كنتَ لي وفيك الذي فيك فمما حاجتي إلى البستان

ويقول ابن زيدون:

لأسرَّحَنَ نَواظِري في ذلك الرّوض النّضير
ولآكلتُكَ بِالمُنَى ولأشربنَّكَ بِالصُّمير

ولكنّ اجتماع الزّهر والفاكهة في الحبيب لم يُنَوّه به شاعر تنويه ابن الرّوميّ وذلك

في قصيدته المشهورة في هذا البستان الحافل العجيب:

أجنتُ لك الوجودَ أغصان وكُتبان فيهنّ نَوعان تُفَاح ورُمان
وفوق دَينِكَ أغْصاب مُهَدّلة سود لهنّ من الظّلماء ألوان
وتحت هاتيك عُتَاب تلوح به أطرافهنّ قلوب القوم قِنوان

غُصُونِ بَانَ عَلَيْهَا الدَّهْرَ فَاكْهَةً
وَنَرَجِسَ بَاتَ سَارِي الطَّلِّ يَضْرِبُهُ
أَلْفَنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ حَسَنَ
ثَمَارِ صِدْقٍ إِذَا عَايَنْتَ ظَاهِرَهَا
بَلْ حُلُوةٌ مُرَّةٌ طَوْرًا يُقَالُ لَهَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ غَيْرَ مُجْدِيَّةٍ
لَأَيِّ أَمْرٍ مُرَادٍ بِالْفَتْحِ جُمِعَتْ
تَجَاوَزَتْ فِي غُصُونِ لَسَنٍ مِنْ شَجَرِ
تِلْكَ الْغُصُونِ اللَّوَاتِي فِي أَكْمَتِهَا
وشدة اعتماد الشاعر على الاستعارة والتشبيه المأخوذتين من الحقول جعلت الأدباء
في عصره يدعون هذه القصيدة «دار البطيخ»^(١).

ويروى عن الإمام ابن تيمية أنه قال: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جئتني، وبُستاني في
صدري، أين رُحْتُ فهي معي لا تُفَارِقُنِي، أنا حبسي خُلُوةً، وقتلي شهادةً، وإخراجي من
بلدي سياحة»^(١).

ولكن ابن الرُّومِيَّ كان كثير المحبة للطبيعة عميق الشعور بمجالها فلا غرَو أن
يَلْتَمِسَ تشبيهاته منها ولا سيمًا من الثَّبات والبساتين في الأغراض الفنية المختلفة. فهو
يُخَاطِبُ بني سليمان بن وهب:

وَأَنْتُمْ النَّخْلَةُ الطُّولَى الَّتِي بَسَقَتْ
فَإِنْ زَوَى عُنْيِي الْجُمَارَ طَلَعَتْهُ
قَدْزَمًا وَبُورِكَ مِنْهَا الْأَصْلُ وَالطَّرْفُ
فَلَا يُصْبِنِي بِحَدِّي شَوْكُهُ السَّعْفُ

وقد نقل التشبيه إلى الهجاء فيقول فيمن كَمَلَتْ عَدَّتُهُ وَلَا غَنَاءَ عِنْدَهُ:
رَأَيْتُكُمْ تَسْتَعِدُّونَ السُّلَاحَ وَلَا
كَالْخَلِّ يُشْرَعُ شَوْكًا لَا يَذُودُ بِهِ
ويقول في الهجاء:

وَكَمْ لُمْعَةٍ خَلَّتْهَا رَوْضَةٌ
ظَلَمْتُكُمْ لَا تَطْيِبُ الْفُجُورُ
فَأَلْفَيْتُهَا دِمْنَةً مُغْشِيَةً
وَكُنْتُ حَسِبْتُ فَلَمَّا حَسِبْتُ
عِ إِلَّا وَأَعْرَاقُهَا طَيِّبَةٌ
سَتْ عَفَى الْحَسَابَ عَلَى الْمَحْسَبَةِ

(١) ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٦٦.

والأصل في قول زفر بن الحارث:

وقد يَبْتَ التمرعى على دَمَن الثَّرى وتبقى حزازات الثُّفوس كما هيا

ويقولُ ابن الرُّومي:

كم شامِخ باذخ بِشَروته أَضَلَّه قبلي المضلُّونا
جعلته بالهجاء فُلُفلة إذ جعلتني مُناه كَمَونا

وربما كان أصله البيت الذي يُنسب إلى بشار:

لا تجعلتني ككُثُون بمزرعة إن فاته الماء أغتته المواعيد

ويقول ابن لُتْكَ يُنَدِّد بالنَّاس ويُشَبِّههم تازة ببعض الحيوان وتازة ببعض الشَّجر غير

المُثمر:

لا يعجبُنك الثَّياب والضُّور تسعة أعشار من تَرى بقر
في خَشَب السَّرو منهم مُثل له رُواء وما له ثمر

وربما نظر فيه إلى قول ابن الرُّومي:

فغدا كالخلاف يُورِق للعي من ويأبى الإثمار كلَّ الإباء

حتى في مُجرَّد الوصف نجد الاعتماد على الثَّبات لتمثيل الأشكال والألوان. وقد

عمد ملك الشعراء امرؤ القيس لدى تمام وصفه للمطر الصَّيِّب إلى تشبيه السَّبَّاع في أرجاء

العاصفة القُصوى بأصول البصل البرِّي لتَلَطُّخها بالطَّين وهو تشبيه بديع يَنبُت على غُضارة

الإحساس وطراوته:

كَأَنَّ السَّبَّاع فيه غَرَقى عَشِيَّة بأرجائها القُصوى أنابش عُصُصِل

«وقال ابن الرُّومي وقد قيلَ له شَبَّه كُلِّية الجَدِّي فقال كأنها لوبياء»^(١).

ويقولُ عبد الله بن الزُّبَيْر في القَطَاة:

تُقَلَّبُ في الإصغاء رأساً كأنَّه يتيمة جَوَز أخطأتها المَكاسِر

ويقولُ أبو القاسم الدَّاوِدِي يشبَّه فراش الرِّياض بأوراق الورد المُتطايِّرة:

أما شاقَّتْكَ رَوْضة دَسْتَجِرْد كَعَفْد أو كَوَشِي أو كُبْرَد
تطير فراشها بيضاً وحمراً كريح طَيَّرَتْ أوراق ورد

(١) كتاب التَّشْبِيهات لابن أبي عون مطبعة جامعة كمبودج ص ٣١٧.

ويصف ابن المعتز أعمدة النيران المتصاعدة، فهل رأيت أشجاراً مرفوعة من الذهب؟

وموقدات ينّ يضرمنّ اللهب يُشبعنه من فحم ومن حطب
يزعن نيراناً كأشجار الذهب

ويصف السري الرفاء شمعاً فإذا هي غصون من الذهب تُثير اللهب:

فلما دجا الليل فرجته برّوح تحيّف جثمانها
بشمع أغير قدود الرّماح وسُرج ذراها وألوانها
غصون من الثبر قد أزهرت لهيباً يُزيّن أفنانها
فيا حُسن أرواحها في الدجى وقد أكلت فيه أبدانها
ويقول أيضاً:

وشمعة في يد الغلام حكّت عنق ظليم بغير منقار
تبكي إذا نار شوقها اضطرمّت بدمع ثبر من الأسى جار
كانها نخلّة بلا سعف تحمل أترجة من النار

وكذلك القاضي الأرجاني يفتن في وصف الشمع افتناناً بديعاً في مُستهل قصيدة له

أولها:

نمت بأسرار ليل كاد يُخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها

يشير فيها إلى ما يتضمّن تقريباً فكرة الأسطورة اليونانية وهي أن «بروميثوس» سرق النار من السماء ونزل بها إلى الأرض فيقول:

بدت كنجم هوى في إثر عفرية في الأرض فاشتعلت منه نواصيها
نجم رأى الأرض أولى أن يؤاها من السماء فأضحى طوع أهليها

والعفريّة هنا الجنيّة، ثم يصف الشمعة أوصافاً متعدّدة:

كانها غرّة قد سال شادخها في وجه دهماء يزهاها تجليها
أو ضرة خلقت للشمس حاسدة فكلمها حجبّت قامت تحاكيها

ثم يُشبه شعلتها في الظلام بالوردة فوق غصن ولكن حذار أن تجنيها فهي تشوك الأيدي دون أن يكون لها شوك:

لها غرائب تبدو من محاسنها إذا تفكّرت يوماً في معانيها
فالوردة الورد إلا في تناولها والقامة الغصن إلا في تنثيها
قد أثمرت وردة حمراء طالعة تجني على الكف إن أهويت تجنيها

ورد تُشاك به الأيدي إذا قُطِفَتْ وما على غصنها شوك يُوقِّها
صفر غلايلها حمر عَمائمها سود ذوائبها بيض لياليها
كصغدة في حشا الظلماء طاعنة تسقي أسافلها رِيًّا أعاليها .

ويُشبهه ابن الرُّومي شِغره بالشَّجر ليسوْغ ورود بعض الأبيات التي ليست جميلة فيه
ولكنَّها تُهيئُ تَفْشِح الأبيات الجميلة وذلك شأن الطَّبيعة أيضاً، فالقصيدة كُلُّ واحد كما أنَّ
الشَّجرة مجموعة واحدة كاملة فيها القِشْر والشَّوك وفيها الثَّمَر:

قولا لمن عاب شِغْر مادحه أما ترى كيف رُكِب الشَّجر
رُكِب فيه اللُّحاء والخشب اليا بس والشَّوك بينه الثَّمَر
وكان أَوْلَى بأنَّ يُهذَّب ما يخد لثق ربُّ الأرباب لا البشر
فلم يكن ذاك بل سِواه من الأمـر ر لشيء جَرى به القَدر

وإذا طالع المرء الصَّيغ الفَنِّيَّة لهذا العالم النَّبائي الشَّعري تَفَتَّحت عيناه مرَّة جديدة
على المُتَع الجميلة في عالم النَّبات الواقعي فوجد للأزهار والرياحين والبقول والفاكهة
التي يراها صِفات جديدة تَسبيه وتفتنه وتزيد إمتاعه وتدعم سعادته. وهكذا يسمو الفنُّ
بالواقع ويُعلي شأنه ويرفع مكانه ويوسِّع آفاقه ويُعمِّق ما اتَّصل به من مشاعر.

ولقد وَجَدنا في الأمثلة الآتية كيف غَدَّت عناصر النَّبات وسائل فَنِّيَّة تُعتمد في
الأغراض المختلفة وليست الأمثلة الأخيرة إلَّا غِيضاً من فيض.

وليس غريباً أن يُورق هذا اللون من الأدب ويُرهِر ويُثْمِر كما رأينا. فإنَّما تمَّ ذلك
في أحضان البلاد العربيَّة، وهي بلاد مناخها مُعتدِل على وَجْه العموم وإقليمها ناعم
وفصولها مُتمايِزة وجواؤها بديعة وخيَّراتها كثيرة ونباتها ضافي ووارف ومُتنوِّع لا تُساعها
واختلاف أجواؤها وأنحائها وترامي أطرافها وأرجائها. ثمَّ إنَّ أصقاعها مُتفاوتة تُشْتَبِك فيها
النَّجاد، والوهاد والجبال والأودية والشُّهول الخُصبَة والصَّحاري المُجْدِبة والبرُّ والبحر
والجداول والأنهار، ومثل هذا التَّغاير حافظ على إبراز جمال الأشياء المختلفة وتلوين
البيان والتَّعبير. وفي البلاد العربيَّة زيادة على ذلك تَلتقي الحجارة الكريمة والمعادن
النَّقيسة واللَّآلئ الثَّمينة والجواهر العزيزة. وعدا ذلك كلُّه يمتاز النَّاس فيها باعتدال
الملايح ورِقَّتْها وجُودة الطُّباع واتزانها ورَهافة الحسِّ والمشاعر.

وينبغي أن نُنَوِّه فوق ذلك جميعاً بهجة ضوء الشَّمس وحلاوة نور القمر ورَشاقَة سَنا
الثُّجُوم وطلاوة لألاء الكواكب وما يتَّصل بذلك من رَونق الألوان ورُوائها وجمال الأرض
والسَّماء وبهاء الحواشي والآفاق. فقلَّ أن نَعْرِف لذلك مثيلاً في قُطر من أقطار العالم على
وَجْه العموم.

وإذا ذكرنا هذه الأسباب الجغرافية والطبيعية فمن الواضح أننا لن نقول بحتميتها ولن نخدع بها انخداع بعض الجغرافيين. ذلك أن لعوامل الحضارة والمدنية والثقافة مكانة كبيرة في هذا الشأن، فهي التي تهيئ الخصب وتسكب البركة وتنظم الطبيعة وتجلو محاسنها وتُسبغ عليها الإبداع والالتزام والتأنسب والأنسجام. وبهذا الاعتبار يبدو الإنسان يد الطبيعة الصّناع فهو يُسَقّ فتها ويزيد جمالها ويذّرأ عنها الآفات، كما يبدو أيضاً روحها الذي يبتّ فيها الإلهام أو يتلقاه ويضفي عليها السّحر والعُنى ويهيئ فيها بالفتنة والمحبة ويبرز ما فيها من محاسن ظاهرة وباطنة حقيقية ومُتخيّلة.

هذا وقد اجتذبت الحضارات القديمة والحديثة مُختلف الأزهار والثمرات وتفنّنت في تنسيقها تفنّناً كبيراً، إلّا أن تلك الأزهار والثمار لم تُشارك إنسان تلك الحضارات في المشاعر والتعبير مشاركتها في الثقافة العربية.

ولهذا نجد أن كلّ ما قدّمناه من أسباب على رغم اشتباكها وتبادلها التأثير ليس إلّا شيئاً يسيراً إلى جانب قلب الإنسان النبيل المُفتّح على مباحج الحياة، والمطبوع على حبّ الجمال، صنو الكمال وداعيته، والمفطور على التماس الخير، حتى لقد اشتقّ للخير لفظاً آخر من العلم والمعرفة فدعاه بـ «المعروف»، كما دعاه بـ «الجميل».

هذا الإنسان إذا تلقى مدداً من إحسان الطبيعة والكون أعطى تلقاء ذلك أضعافاً مضاعفة ووُسع ما يستطيع من إنسانية كريمة ومن بُنل ومن أمجاد. وفي خلال ذلك يُمدّه أصل ينابيع البيان وأعمقها غوراً وأغزرها معيناً وأشدّها اندفاعاً وأزجها اتساعاً.



والخلاصة أنّه كما يوجد عالم الثّبات في الأرض كذلك يوجد عالم الثّبات في الفنّ. وقد جَلّونا بعض جوانب هذا العالم في فنّ الشعر العربيّ القديم. وينبغي أن ننتبه أن هذا الثّبات في الشعر لا يطابق الثّبات في الأرض، فليس هو مُتألفاً من ماءات الفحم ولا من الخضير ولا من بقية الموادّ التي يتألّف منها الثّبات زيادة على الماء. وإنّما له تركيبه الخاصّ وألوانه الخاصّة. فهو يتألّف من أنفُس المعادن وأجمل اللّآئ وأسنى الجواهر ومن رَيف النّجوم وألوان الطّواويس وتحويم الفراشات، وغير ذلك، بل هو يُقابل في التّمثيل ملامح الإنسان الجميلة.

تَطَوُّرُ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ مِنْ خِلَالِ تَطَوُّرِ الْفُكَاةِ

الجِدُّ شَيْمَتُهُ فِيهِ فُكَاهَةٌ سُبُحٌ وَلَا جَدٌّ لِمَنْ لَمْ يَلْعَبْ
أَبُو تَمَامٍ

بعضُ عُلَمَاءِ الْاِقْتِصَادِ إِذَا أَرَادُوا دِرَاسَةَ الْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي بِلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ اعْتَمَدُوا عَلَى سِلْعَةٍ مِنَ السِّلَعِ الْأَسَاسِيَّةِ أَيُّهَا كَانَ نَوْعُهَا كَالْقَمْحِ مَثَلًا وَدَرَسُوا سَعَرَهَا وَتَطَوُّرَ هَذَا السَّعَرِ وَاسْتَخْلَصُوا مِنْ هَذَا التَّطَوُّرِ وَالْاِخْتِلَافِ أَحْكَامَهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، أَيْ إِنَّهُمْ يَدْرُسُونَ نَاحِيَةَ جُزْئِيَّةٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ ثُمَّ يَسْتَطِيعُونَ بِالِاسْتِنَادِ إِلَيْهَا أَنْ يُعَمِّمُوا النَّتَاجَ الَّتِي يَنْتَهُونَ إِلَيْهَا عَلَى الْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ كُلِّهَا تَقْرِيْبًا.

وَنَحْنُ نَرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ شَبَهَ مَا يَفْعَلُونَ فَنَأْخُذُ ظَاهِرَةَ فَنِيَّةٍ اِجْتِمَاعِيَّةٍ جُزْئِيَّةٍ وَهِيَ الْفُكَاهَةُ فَندرسُ تَطَوُّرَهَا الْعَامَّ الشَّامِلَ فِي غُضُونِ أَحْقَابٍ مِنْ عَصُورِ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ وَنُحَاطِلُ أَنْ نَسْتَخْلِصَ صُورَةً عَامَّةً كَبِيرَةً لَتَطَوُّرِ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ وَفَقْ تَطَوُّرِ الْفُكَاهَةِ.

بَلْ نَحْنُ نَذْهَبُ إِلَى أَعْبَدٍ مِنْ هَذَا فَنَدَّعِي أَنَّ مَوْقِفَنَا مِنْ جِهَةِ الْبَحْثِ وَالْدِّرَاسَةِ حِينَ نَعُولُ عَلَى الْفُكَاهَةِ فِي تَبْيِينِ تَطَوُّرِ الْمُجْتَمَعِ أَسْلَمَ فِي الْغَالِبِ مِنْ مَوْقِفِ عُلَمَاءِ الْاِقْتِصَادِ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى تَمْوُجِ أَسْعَارِ بَعْضِ السِّلَعِ وَلَا سِيَّما الْقَمْحِ. ذَلِكَ أَنَّ الْقَمْحَ إِذَا كَانَ سِلْعَةً زَرَاعِيَّةً أَسَاسِيَّةً فِي الْقَضَايَا الْاِقْتِصَادِيَّةِ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ بِسَهُولَةٍ لِلْبِلَادِ الصَّنَاعِيَّةِ مَثَلًا أَنْ تَكْفُلَ حَاجَاتُهَا بِطَرِيقِ التَّجَارَةِ وَالِاسْتِرَادِ وَأَنْ تَجْعَلَ سَعَرَهُ ثَابِتًا مَدًى طَوِيلًا. فَلَا يَكْفِي تَبْيِينُ أَسْعَارِ الْقَمْحِ لَاسْتِشْفَافِ الْحَرَكَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْعَامَّةِ إِلَّا فِي بَعْضِ الظُّرُوفِ وَيَلْزَمُ الْاِنتِبَاهُ مَعَهَا لِأُمُورٍ أُخْرَى مُتَعَدِّدَةٍ.

وَلَكِنَّا نَجِدُ أَنْفُسَنَا عِنْدَمَا نُعَالِجُ الْفُكَاهَةَ أَمَامَ ظَاهِرَةِ فَنِيَّةٍ اِجْتِمَاعِيَّةٍ أَغْرَقَ فِي الْوَصْفِ الْإِنْسَانِيَّ الْاِجْتِمَاعِيَّ مِنْ سَعَرِ الْقَمْحِ فِي الْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ. وَلَقَدْ أَشَارَ كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ وَالْفَلَاسِفَةِ إِلَى الصُّفَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي لِلْفُكَاهَةِ إِذْ تَسْتَدْعِي الْاِبْتِسَامَ أَوْ الضَّحِكَ، فَاعْتَبَرِ الْمُفَكِّرُونَ مِنْذُ الْقَدِيمِ أَنَّ الضَّحِكَ خَاصَّةٌ إِنْسَانِيَّةٌ فَقَالُوا عَنِ الْإِنْسَانِ: إِنَّهُ حَيَوَانٌ

ضاحك تعريفاً له بالجنس القريب وبخاصة اللازمة له بالقوة. ولما جاء برغسون قال: إننا لا نضحك إلا من الإنسان ومن أموره الإنسانية فلا مضحك إلا فيما هو إنساني، وقد ذكرنا ذلك في فصل القيم الجمالية الذي بدأنا به هذا الكتاب، فالإنسان يُمكننا تعريفه بأنه حيوان مضحك. وإذا صادف أن ضحكنا من حيوان آخر أو جماد فليشبه فيه بالإنسان أو لأي أثر إنساني كان يحمله.

ولقد عاش برغسون في وقت كان علم الاجتماع في موطن هذا الفيلسوف يتمثل خاصة عند جماعة من الباحثين تناولوا الأمور والظواهر الاجتماعية الكبيرة الضخمة كالدولة والأسرة واللغة والدين وأمثال ذلك مما يصح أن ندعوه اليوم بالماكروسوسيولوجيا (أو علم الاجتماع الكبير). ولكن كثيراً من المذاهب الاجتماعية في الوقت الحاضر تنزع إلى دراسة العلاقات الاجتماعية فهي تعتبر علاقة الفرد بالفرد الآخر «واحدة» الدراسات الاجتماعية، وهي تقوم بدراسات يُمكن أن تُدعى بالميكروسوسيولوجيا (أو علم الاجتماع الدقيق). إنها تدرس كل حادثة تقع بين فردين أو أكثر وترى هل تزيد تلك الحادثة في بُعد المسافة الاجتماعية بينهما أو تنقصه. ولما كانت الفكاهة تجعلنا نضحك من شخص آخر فتزيد في هذا البعد المعنوي بيننا وبينه أو تنقصه ظهر لنا أن جذور الفكاهة في الأصل جذور اجتماعية عميقة.

وليس هذا هو الجانب الاجتماعي الوحيد للفكاهة، بل لها جوانب اجتماعية أخرى. من هذه الجوانب ما ألح عليه برغسون نفسه وهو أننا لا نكاد نذوق المضحك في حالة شعورنا بالعزلة، لأن الضحك بحاجة إلى صدى، فضحكنا دائماً ضحك جماعة. المجتمع بيئة الضحك الطبيعية، فكما أن الرعد يذوي في الجبل على حد تشبيه برغسون كذلك الضحك يقوى ويشتد بين فريق من الناس إذا كانوا مجتمعين يضحكون. وقد قدّمنا بيان ذلك في الفصل الذي أشرنا إليه.

ثم هنالك جانب اجتماعي ثالث للضحك أشار إليه برغسون نفسه أيضاً في آخر كتاب «الضحك»، وهي وظيفته الاجتماعية. فهو يرى أن الضحك كايح اجتماعي يرد الذي أخرج بعقلته أو عيب من العيوب فيه إلى حظيرة المجتمع الذي أخرج منه فهو نوع من التآديب. ولقد أشار باحث اجتماعي بلجيكي حديث هو أوجين دوبريل إلى هذه الوظيفة. فقال ما معناه أننا عندما نضحك من إنسان فكأنما نأتمر به فنخرجه من دائرتنا لعقلته ونخفضه عن منزلتنا. إن هذا الرأي يتمم رأي برغسون من هذه الناحية، فالشخص الذي نخفضه عن مرتبتنا ونخرجه من دائرتنا يُحاول أن يرتفع أو يرتد إليهما وذلك بأن يصلح العيب الذي فيه.

يَبْدُ أَنْ هَذَا الْإِخْرَاجَ الْمَعْنَوِيَّ مِنْ نِطاقِ الْجَمَاعَةِ وَهَذَا الْخَفْضُ نُلَاحِظُ أَنَّهَا يَسْتَنْدَانِ إِلَى اعْتِبَارَاتٍ وَأَدَابٍ وَعَادَاتٍ وَقِيَمٍ صَاغَهَا الْمَجْتَمَعُ وَجَرَى عَلَيْهَا النَّاسُ فِيهِ. فَبِئْسَ كُلُّ فَكَاهَةٍ إِشَارَةٌ إِلَى قِيَمَةٍ خُلُقِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ. نَحْنُ هُنَا فِي عَالَمِ الْمُضْحِكِ نَجِدُ أَنْفُسَنَا مِنْهُ عَلَى صَعِيدِ عَالَمِ الْقِيَمِ. وَالصِّفَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي لِعَالَمِ الْقِيَمِ مَعْرُوفَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا.

لِهَذِهِ الْخَصَائِصِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَرِيقَةِ فِي الْفُكَاهَةِ قُلْنَا إِنَّ مَوْقِفَنَا حِينَمَا نَدْرُسُ تَطَوُّرَ الْمَجْتَمَعِ مِنْ خِلَالِ تَطَوُّرِ الْفُكَاهَةِ أَثَبَّتْ وَأَسْلَمَ فِي الْغَالِبِ مِنْ مَوْقِفِ عُلَمَاءِ الْاِقْتِصَادِ الَّذِينَ يَسْتَشْفِقُونَ الْحَيَاةَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ مِنْ تَمَوُّجِ أَسْعَارِ بَعْضِ السِّلَعِ. إِنَّ الْفُكَاهَةَ غِذَاءٌ رُوحِيٌّ لَا تَقِلُّ ضَرُورَتُهُ عَنْ قُوَّتِنَا الْيَوْمِيَّ فِي حَيَاتِنَا الْمَادِّيَّةِ.

وَلَسْنَا نَرِيدُ أَنْ نُسَهِّبَ فِي هَذِهِ الْمُلَاحَظَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَإِنَّمَا نَحْبُ أَنْ نُشِيرَ مِنْهَا بِاخْتِصَارٍ إِلَى الْمَنْهَجِ الْبَسِيطِ الَّذِي نَتَّبِعُهُ. فَهَذَا هُنَا نَسْتَعْمِلُ لَفْظَ الْفُكَاهَةِ مَكَانَ لَفْظِ الْمُضْحِكِ دُونَ تَمْيِيزِ بَيْنِ أَنْوَاعِ الْمُضْحِكِ هَذَا مِنْ نُكْتَةٍ وَتَهْرِيجٍ وَتَهْكُمٍ وَدُعَابَةٍ لِأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ تَرْجِعَ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ فِي تَعْرِيفِ الْمُضْحِكِ، وَقَدْ عَرَفْنَا فِي السَّابِقِ بَعْضَ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ، فَهَذَا نَأْخُذُ الْفُكَاهَةَ بِمَعْنَاهَا الْوَاسِعِ الْعَامِّ الَّذِي يُكَافِئُ هُنَا عِنْدَنَا مَعْنَى الضَّحِكِ.

كَذَلِكَ نَجِدُ أَنْفُسَنَا إِزَاءَ تَرَاثِ الْفُكَاهَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَمَامَ كَنْزٍ لَا تُحْصَى جَوَاهِرُهُ وَلَا تُسْتَفْتَدُ ذَخَائِرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لَنَا بَدْءٌ مِنَ الْاِخْتِيَارِ. وَهَذَا رَوَايَاتٌ وَفُكَاهَاتٌ مَجْهُولَةٌ الْوَاضِعُ وَمَجْهُولَةٌ الْعَصْرِ يَصْعَبُ اعْتِمَادُهَا فِي بَيَانِ التَّطَوُّرِ التَّارِيخِيِّ. وَلِذَلِكَ عَمَدْنَا إِلَى أَعْلَامِ الْفُكَاهَةِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِحَسَبِ الْعُصُورِ، وَهُمْ كَثِيرُونَ جَدًّا، فَكَانَ لَا بَدْءَ لَنَا أَيْضًا مِنَ الْاِخْتِيَارِ. وَكَانَ مَثَلُنَا فِي هَذَا الْاِخْتِيَارِ مِثْلَ الْمُهَنْدِسِ الَّذِي يَكْتَفِي بِإِبْرَازِ بَعْضِ النُّقَاطِ الْمُنَاسِبَةِ مِنَ الْأَرْضِ لِأَخْذِ مَسَاحَتِهَا.

ثُمَّ إِنَّنَا نَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ الْفُكَاهَةَ كَبَيَّةُ أَعْمَالِ الْأَدَبِ وَالْفُنُونِ تَحْمِلُ طَابِعَ صَاحِبِهَا الشَّخْصِيِّ. وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نَعْتَقِدُ أَنَّ بَعْضَ الْعُصُورِ يَسْتَدْعِي نَوْعًا خَاصًّا مِنَ الْفُكَاهَةِ تَتَفَتَّحُ فِيهِ بَرَاعَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ. وَلَيْسَ فِي عَمَلِنَا هَذَا مَشَقَّةٌ كَبِيرَةٌ فَلَيْسَ هُوَ بِأَكْثَرَ مِنْ عَرْضِ بَعْضِ النُّصُوصِ الْفُكَاهِيَّةِ الْمُدَوَّنَةِ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ عَرْضًا مُنْسَقًّا أَوْ تَارِيخِيًّا يُشِيرُ إِلَى التَّطَوُّرِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ مِنْ عَصْرِ الْبُؤْسَةِ إِلَى الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ مِنَ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَبِدَايَةِ عُصُورِ الْاِنْحِطَاطِ ثُمَّ تَبَاشِيرِ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ.

الفكاهة للتَّحْبُّبِ والاستِجْمام:

كانت الفكاهة في عصر النبوة تبغي زيادة التَّحْبُّبِ والتَّوَدُّدِ بين طائفة المسلمين المُناضِلِينَ لنشر الدَّعوة. كان المجتمع الإسلامي ناشئاً والتَّعاوُنُ بين أعضائه عميقاً فلا غَرَوَ إذا كانت الفكاهة فيه لا تَقْصِدُ إلى اخْتِلَاقٍ ولا إلى افْتِرَاءٍ وإنَّما كانت تَقْصِدُ إلى الاستِجْمام والارتياح ولو لحظة من أجل استئناف العمل والقيام بأعباء الدَّعوة، فلا نجد بين أفراد المسلمين إلَّا مُدَاعِبَةً مُحِبَّةً لا تقولُ إلَّا الحَقَّ كُمُدَاعِبَةِ الجنود المُتَحَابِّينَ بعضهم لبعض وهم في مُعَسْكَرٍ واحد.

ويبدو لنا الوجه المهيّب الجليل وَجْه رسول الله ﷺ يَفْتَرُّ أجمل الافتِراء وأصدقَه، فيزيده ذلك مَحَبَّةً وبهاءً. فلقد قال: «إني لأَمْزِجُ ولا أقولُ إلَّا حَقًّا»^(١).

وعن أَنَسٍ أَنَّ رجلاً أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله احملني.

— قال النبي ﷺ: «إِنَّا حَامِلُونَكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ».

— قال: «وما أَصْنَعُ بَوْلِدِ النَّاقَةِ؟».

— فقال النَّبِيُّ ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا التُّوقَ!»^(٢).

وَأَتَتْهُ عَجُوزٌ أَنْصَارِيَّةٌ فَقَالَتْ: «يا رسول الله اذْخُلْ لِي بِالمَغْفِرَةِ».

فَقَالَ لَهَا: «أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْعَجَائِزُ؟».

فَصَرَخَتْ، وَفِي رِوَايَةٍ فَبَكَتْ، فَتَبَسَّمَ ﷺ وَقَالَ لَهَا: «لَسْتُ يَوْمُئِذٍ بِعَجُوزٍ، أَمَا قَرَأْتَ

﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٢٦﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٢٧﴾ عُرْنَ أَزْوَاجًا ﴿٢٨﴾﴾»^(٣).

وَأَتَتْ إِلَيْهِ ﷺ امْرَأَةٌ فَذَكَرَتْ زَوْجَهَا بِشْيءٍ فَقَالَ: «زَوْجُكَ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بِيَاضٌ؟».

فَمَضَتْ تَتَأَمَّلُ زَوْجَهَا فَقَالَ: مَا لَكَ؟

قَالَتْ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ فِي عَيْنِكَ بِيَاضاً.

(١) ذَكَرَهُ الشَّيْطَوِيُّ فِي «الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» بِرَقْم ٢٦٢٨، وَعَزَاهُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، وَلِلخَطِيبِ عَنْ أَنَسٍ

وَوَصَفَهُ بِالْحَسَنِ، وَحَكَى السَّيَوِيُّ فِي «فَيْضِ الْقَدِيرِ» ج ٣، ص ١٣ أَنَّ الْهَيْثَمِيَّ قَالَ: إِسْنَادُ الطَّبْرَانِيِّ

حَسَنٌ، ثُمَّ قَالَ السَّيَوِيُّ: وَإِنَّمَا لَمْ يَصَحَّ لِأَنَّ فِيهِ الْحَسَنَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ عُبَيْرٍ ضَعُفَهُ ابْنُ قَانِعٍ وَغَيْرُهُ،

وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ مِنْهَا هَذَا.

(٢) سَنَّ أَبِي دَاوُدَ ج ٤ ص ٣٠٠ (رَقْم ٤٩٩٨).

(٣) رَوَاهُ بَنُخُوهُ التَّرْمِذِيُّ فِي السَّمَائِلِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ مُرْسَلًا وَرَوَاهُ غَيْرُهُ، انْظُرْ «المَرَاثِمُ فِي الْمَزَاحِ»

تَحْقِيقُ الْأَسْتَاذِ أَحْمَدَ عُبَيْدٍ ص ١٤، وَنَهَايَةُ الْأَرَبِ ج ٤ ص ٣. وَالْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ فِي الْوَاقِعَةِ ٥٦:

٣٧، ٣٦، ٣٥.

فقال: بياض عيني أكثر من سوادها^(١).

ومن مُزاحه ﷺ ما رواه أنس: «إِنَّ كَانَ النَّبِيَّ ﷺ لِيُخَالِطَنَا حَتَّى يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ التَّغْيِيرُ؟»^(٢).

وكذلك كان بعض الصحابة يَجْنَحُونَ أحياناً للمُدَاعَبَةِ، ومن أشهرهم نعيمان أحد البَذَرِيِّين.

«عن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن أبيه قال: كان بالمدينة رجل يُقَالُ لَهُ نَعِيمَان، وكان لا يدخل المدينة طُرْفَةً إِلَّا اشْتَرَى مِنْهَا، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا أَهْدَيْتُهُ لَكَ، فَإِذَا جَاءَ صَاحِبُهُ يَطَالِبُ نَعِيمَانَ بِشَمْنِهِ جَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطِ هَذَا ثَمَنَ مَتَاعِهِ، فيقولُ رسولُ الله ﷺ: أَوَلَمْ تُهْدِهِ لِي؟ فيقولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَنُهُ، وَلَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فيضحك رسولُ الله ﷺ ويأمر لصاحبه بِشَمْنِهِ»^(٣).

«ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أعرابي قد صَلَّى صلاة خفيفة فلمَّا قضاها قال: اللَّهُمَّ زَوِّجْنِي بِالْحُورِ الْعِينِ. فقال عمر: يَا هَذَا أَسَأْتَ النِّقْدَ وَأَعْظَمْتَ الْخِطْبَةَ»^(٤).

وعن «زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: وَقَدْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حُلَّالٍ مِنَ الْيَمَنِ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ النَّاسِ فَرَأَى فِيهَا حُلَّةً رَدِيئَةً فَقَالَ كَيْفَ أَصْنَعُ بِهَا؟ إِنَّ أُعْطِيْتُهَا أَحَدًا لَمْ يَقْبَلْهَا إِذَا رَأَى هَذَا الْعَيْبَ فِيهَا. فَأَخَذَهَا فَطَوَّاهَا فَجَعَلَهَا تَحْتَ مَجْلِسِهِ، فَأَخْرَجَ طَرَفَهَا، وَوَضَعَ الْحُلَّالَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يُقَسِّمُ بَيْنَ النَّاسِ فَدَخَلَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى تِلْكَ الْحُلَّةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ عُمَرُ: دَعُ هَذِهِ عَنْكَ قَالَ: مَا هِيَ مَا هِيَ، مَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: دَعُ هَذِهِ عَنْكَ، قَالَ: فَأَعْطَيْتُهَا قَالَ: إِنَّكَ لَا تَرْضَاهَا، قَالَ:

(١) قال العراقيُّ رواه الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مَعَ اخْتِلَافٍ وَقَالَ مَلَا عَلِيُّ الْقَارِي: رواه ابن أبي حاتم وغيره، انظر «المزاح في المزاح» ص ١٤ - ١٥ و«نهاية الأرب» ج ٤ ص ٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى النَّاسِ طبعة بولاق ج ٨، ص ٣٠ - ٣١. وكذلك المَرَجِعُ نفسه باب الكُتْبَةِ لِلصَّبِيِّ ج ٨، ص ٤٥. وصحيح مُسْلِمٍ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ج ٣، ص ١٦٩٢، ١٦٩٣. وقد رواه أيضاً التِّرْمِذِيُّ. والتَّغْيِيرُ تَصْغِيرٌ نَغْرٌ وَهُوَ الْبَلْبَلُ وَفِرَاحُ الْعَصَافِيرِ، وَإِنْ هُنَا الْمُخَفَّفَةُ.

(٣) ابن الجوزي، أخبار الطُّرَافِ وَالمُتَمَاجِنِينَ، دمشق ١٣٤٧ هـ، ص ١٨ والإصابة لابن حجر سنة ١٣٢٥ هـ مصر ج ٦ ص ٢٥١.

(٤) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣، والمزاح والمزاح ص ٢٩.

بلى قد رَضِيَتْهَا. فَلَمَّا تَوَقَّعَ مِنْهُ واشترط عليه أن يقبلها ولا يردّها رمى بها إليه. فَلَمَّا أَخَذَهَا الزبير ونظر إذا هي رديئة فقال: لا أريدها، فقال عمر: أيها! قد فَرَّغْتَ منها، فأجازه عليها وأبى أن يقبلها منه»^(١).

ومن أعظم أبطال الإسلام عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ونحن نُقدِّر حياته الحافلة بالجدِّ كما نُقدِّر نضاله الطويل المرير وهو القائل: «أجمتوا هذه القلوب والتمسوا لها طُرف الحكمة فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان. والنفس مُؤثِّرة للهوى آخذة بالهوى جانحة إلى اللُّهو أمارة بالسوء مُستوطنة للعجز طالبة للراحة نافرة عن العمل فإن أكرهتها أنضيتها وإن أهملتْها أرديتها»^(٢).

وكان في عبد الله بن عمر بن الخطَّاب فُكاهة كأيِّه، كان «يُمَازِح مَوْلَاةً له فيقولُ لها: خَلَقَنِي خَالِقُ الْكَرَامِ وَخَلَقَكَ خَالِقُ اللَّثَامِ، فَتَغَضَّبَ وَتَصَبَّحَ وَتَبْكِي، ويضحك عبد الله»^(٣).

هَذَا كُلُّهُ لَوْنٌ مِنَ الضَّحِكِ بَرِيءٌ حُلُوٌّ مُحِبٌّ يَزِيدُ الْآلِفَةَ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْمُعَسَّكَرِ الْوَاحِدِ الْمُتَنَاضِلِينَ. وَقَبْلَ أَنْ نَتَبَيَّنَ تَطَوُّرَ الْفُكَاهَةِ فِي الْمُعَسَّكَرِ بَعْدَ نَجَاحِهِ الْكَبِيرِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَانْتِصَارَاتِهِ الْبَاهِرَةِ وَاسْتِتْبَابِ الْأُمُورِ لِلْمُسْلِمِينَ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُشِيرَ إِلَى بَوَارِقِ مُؤَلِّمَةٍ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالتَّهَكُّمِ بَيْنَ مُعَسَّكَرِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا وَمُعَسَّكَرِ الْمُشْرِكِينَ. فَقَدْ اسْتَهْزَؤُوا بِالرَّسُولِ ﷺ وَوَأَسَاءَ رُبُّهُ بِمَا قَصَّ عَلَيْهِ مِنْ سِيرَةِ الرُّسُلِ قَبْلَهُ وَاسْتَهْزَأَ أَقْوَامُهُمْ بِهِمْ:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(٤).

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٥).

وَكَذَلِكَ ﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٦) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

(١) ابن الجوزي أخبار الظراف والمتماجين ص ١٩.

(٢) العقد الفريد كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح ١٩٥٠ ج ٦ ص ٣٧٩.

(٣) أخبار الظراف والمتماجين ص ٢٣.

(٤) سورة الفرقان ٢٥ : ٤١.

(٥) سورة الأنعام ٦ : ١٠.

(٦) سورة يس ٣٦ : ٣٠.

ولقد كان بعض الآيات يقع على المشركين بما فيه من تهكم كالشواظ من النار
تَبَكُّيتاً لهم وَخَفَضاً من شأنهم وَتَهْوِئاً من أمرهم:

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلَقَةٌ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١).
﴿ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢).
وكذلك في السورة نفسها ﴿ أَمْ تَتْلُوهُمْ أَمْ فَهَرَّجْتُمُ الْبَنَاءَ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ عَنْدهُمْ الْعَذَابُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٣).

وقد تَرَدَّدَت الآية الكريمة الإنسان المُختال المُتجاوز لحدوده إلى مكانه الطبيعي بما فيها
من لَمَحَةٍ تَهْكُمِيَّة:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٤) وإِنَّه لَيَجْدُرُ إفراد
بحث خاص لما في القرآن الكريم من آيات التَّهْكُمِ والاستهزاء، ذلكم أَنَّها سبيل من سُبُل
تَنْبِيهِ النَّاسِ والتأثير فيهم وَرَدَّهم إلى الصَّواب.

الفكاهة للفكاهة:

ولمَّا اسْتَوَقَّ الأمر للمسلمين وَتَمَكَّنُوا من جوانب شبه الجزيرة العربيَّة وانتقلت
قاعدة الدَّولة إلى دمشق حَصَلَ جوُّ اجتماعيٍّ في المدينة المُنَوَّرَة من أبرز خصائصه ارتياح
أهلها إلى المَزاح وميلهم إلى السَّماع وإلى الاستِمْتاع باللَّهو البريء. ومن أهمَّ الشَّخصيَّات
المُحِبَّة الفِكْهَة التي ظهرت إِذ ذَاكَ أَشْعَب.

وهو أَشْعَب بن جُبَيْر واسمه شُعَيْب وكُنْيته أبو العلاء وأُمُّه أم الجَلَنْدَج وفي رواية
الأغاني أم الحَلَنْدَج وهي مَوْلَاة أَسْمَاء بنت أبي بكر الصَّدِّيق. وكان أبوه خرج مع
المختار بن أبي عُبَيْدَة فأسره مُصْعَب بن الزُّبَيْر فقال له: ويلك تخرج عليَّ وأنت مولاي
وقتلته صبراً. وقد قيل في ولائه إِنَّ أَبَاهُ مَوْلَى عِثْمَانَ بن عَفَّانَ وَإِنَّ أُمَّهُ مَوْلَاةُ أَبِي سَفْيَانَ بن
حَرْب وَإِنَّ مِمُونَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخَذَتْهَا مَعَهَا لَمَّا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وكانت تَدْخُلُ على
أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَسْتَنْظِرُ فَنَهَا ثُمَّ صَارَتْ تَنْقُلُ أَحَادِيثَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ وَتُغْرِي بَيْنَهُنَّ (٤).

(١) سورة القَمَم : ٦٨ و ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١.

(٢) الآية ٤٦ و ٤٧.

(٣) سورة الإسراء : ١٧ و ٣٧.

(٤) هذه الأخبار نأخذها خاصَّة عن الأغاني الجزء ١٧ مطبعة التَّقْدُم وعن نهاية الأَرَب ج ٤ ويمكن
الرُّجوع إليهما عندما نُغْفِل المَرَجِع فلا حاجة إلى إلتقال الكتاب بالهوامش الكثيرة. ونحن نختر بعض =

وقد حُكِيَ عن أَشْعَب أَنَّهُ جَلَسَ يَوْمًا فِي مَجْلِسٍ فِيهِ جَمَاعَةٌ فَتَفَاخَرُوا وَذَكَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنَاقِبَهُ وَشَرَفَهُ أَوْ شَجَاعَتَهُ أَوْ شَعْرَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُ بِهِ النَّاسُ وَيَتَفَاخَرُونَ فَوَثَّبَ أَشْعَبُ وَقَالَ: أَنَا ابْنُ أُمِّ الْجَلَنَدَحِ، أَنَا ابْنُ أُمِّ الْمَحْرُشَةِ بَيْنَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ. فَقِيلَ لَهُ: وَيْلَكَ أَبْهَذَا يَفْتَخِرُ النَّاسُ؟ قَالَ: وَأَيُّ افْتِخَارٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا! لَوْ لَمْ تَكُنْ أُمِّي عِنْدَهُنَّ ثِقَةً لَمَا قَبِلْنَ رَوَايَتَهَا فِي بَعْضِهِنَّ بَعْضًا.

نشأ أَشْعَبُ بِالْمَدِينَةِ فِي دَوْرِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَكَفَلَتْهُ وَتَوَلَّى تَرْبِيَتَهُ عَائِشَةُ بِنْتُ عِثْمَانَ. حُكِيَ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الدَّارِ لَمَّا حُصِرَ فَلَمَّا جَرَّدَ مَمَالِيكَهُ السُّيُوفَ لِيُقَاتِلُوا كُنْتُ فِيهِمْ، فَقَالَ عِثْمَانُ: مِنْ أَغْمَدِ سَيْفِهِ فَهُوَ حَرٌّ. فَلَمَّا وَقَعْتُ فِي أَذْنِي كُنْتُ وَاللَّهِ أَوَّلَ مَنْ أَغْمَدَ سَيْفَهُ فَعُتِقْتُ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ عِثْمَانَ قُتِلَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ هَجْرِيَّةً وَكَانَتْ وَفَاةُ أَشْعَبِ بَعْدَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ. هَلَكَ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ. وَيُرْوَى أَنَّهُ وَلِدَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ، وَنَعْتَقْدُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ لَيْسَتْ صَحِيحَةً لِأَنَّ الْبُحُوثَ الدِّيْمَغْرَافِيَّةَ الْحَدِيثَةَ فِي تَعْمِيرِ الشُّيُوخِ تَدُلُّ عَلَى بُعْدِ ذَلِكَ. وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ فَالْمَعْرُوفُ أَنَّهُ عُمَرُ طَوِيلًا.

يُرْوَى أَنَّهُ كَانَتْ فِي أَشْعَبِ خِلَالِ مَنَاهَا أَنَّهُ كَانَ أَطِيبَ أَهْلِ زَمَانِهِ عِشْرَةً وَأَكْثَرَهُمْ نَادِرَةً وَكَانَ أَقْوَمُ أَهْلِ دَهْرِهِ بِحُجَجِ الْمُعْتَزِلَةِ وَكَانَ أَمْرًا مِنْهُمْ. وَيُرْوَى أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْقُرَّاءِ حَسَنَ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ وَأَنَّهُ نَسَكَ وَغَزَا، وَقَدْ رَوَى الْحَدِيثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ. أَخْبَارُهُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ، وَلَهُ حِكَايَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ تَدُلُّ عَلَى رُوحِهِ الْمَرِحَةِ وَعَلَى حُبِّهِ لِلنُّكْتَةِ وَالْمُجَوْنِ. قَالَ أَشْعَبُ: «نَشَأْتُ أَنَا وَأَبُو الزُّنَادِ فِي حِجْرِ عَائِشَةَ بِنْتُ عِثْمَانَ فَلَمْ يَزَلْ يَعْلُو وَأَسْفُلُ حَتَّى بَلَّغْنَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ»^(١) قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: «كَانَ أَشْعَبُ مَعَ مَلَاحَتِهِ وَنَوَادِرِهِ يُغْنِي أَصَوَاتًا فَيُجِيدُهَا»^(٢).

وَهُوَ مِنَ التَّابِعِينَ. قِيلَ لَهُ مَرَّةً: «قَدْ لَقِيتَ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَوْ حَفِظْتَ أَحَادِيثَ تَتَحَدَّثُ بِهَا، فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسَ بِالْحَدِيثِ. قِيلَ: فَحَدِّثْنَا. قَالَ: حَدَّثَنِي عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَلَّتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَقِيلَ لَهُ هَاتِ مَا الْخَلَّتَانِ؟

= مَا جَاءَ فِيهِمَا بِالْفَافِ الْمُؤَلِّفِينَ. وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ مُؤَلَّفَ نَهَايَةِ الْأَرْبِ إِنَّمَا أَخَذَ غَالِيَةَ أَخْبَارِهِ عَنْ صَاحِبِ الْأَغَانِي.

(١) الْأَغَانِي ج ١٧ مَطْبَعَةُ التَّقْدِيمِ ص ٨٣.

(٢) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ٨٤.

قال: نَسِيَ عِرْكَمَةَ إِحْدَاهُمَا وَنَسِيتُ أَنَا الْآخَرَى.

وَالظَّاهِر أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْتَصِرُ عَلَى الثُّكْتَةِ وَالْفُكَاهَةِ بَلْ كَانَ يَضْطَنِعُ الدُّعَابَةَ وَيُمَثِّلُ بِحَرَكَاتِهِ وَأَوْضَاعِهِ مَا يُضْحِكُ النَّاسَ. وَلَشِدَّةَ ظَرْفِهِ نَحَلَهُ الرُّوَاةُ اضْطِنَاعَ الثُّكْتَةِ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ. قَالَ الْمَدَائِنِيُّ: «حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ عَجُوزٌ شَدِيدَةُ الْعَيْنِ لَا تَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ تَسْتَحْسِنُهُ إِلَّا عَانَتْهُ فَدَخَلَتْ عَلَى أَشْعَبَ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ وَهُوَ يَقُولُ لِبَنَتِهِ يَا بَيْتَةَ إِذَا مِتُّ فَلَا تَنْدُبِينِي وَالنَّاسُ يَسْمَعُونَكَ فَتَقُولِينَ وَابْنَاهُ أَنْدُبُكَ لِلصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ! وَابْنَاهُ أَنْدُبُكَ لِلْفِقْهِ وَالْقِرَاءَةِ! فَتُكْذِّبُكَ النَّاسُ وَيَلْعَنُونِي. وَالتَفَتَ أَشْعَبَ فَرَأَى الْمَرْأَةَ فَغَطَّى وَجْهَهُ بِكُمِّهِ وَقَالَ لَهَا: يَا فُلَانَةَ بِاللَّهِ إِنْ كُنْتَ اسْتَحْسَنْتِ شَيْئًا مِمَّا أَنَا فِيهِ فَصَلِّيْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُهْلِكِينِي. فَغَضِبَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ: سَخُنْتُ عَيْنَكَ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتِ مِمَّا يُسْتَحْسَنُ؟ أَنْتِ فِي آخِرِ رَمَقٍ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ وَلَكِنْ قُلْتُ لَثَلَا تَكُونِي قَدْ اسْتَحْسَنْتِ خَفَةَ الْمَوْتِ عَلَيَّ وَسَهُولَةَ التَّرَجُّعِ فَيَسْتَدُّ مَا أَنَا فِيهِ، وَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ وَهِيَ تَشْتُمُهُ وَضَحِكَ كُلُّ مَنْ كَانَ حَوْلَهُ مِنْ كَلَامِهِ، ثُمَّ مَاتَ»^(١) فَاعْجَبَ لِهَذَا الرَّجُلِ لَا يَتْرُكُ فُكَاهَتَهُ حَتَّى فِي غَمْرَةِ الْمَوْتِ.

قال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: «حَدَّثَنِي عُمِّي قَالَ لَقِيَ أَشْعَبَ صَدِيقَ لِأَبِيهِ فَقَالَ لَهُ: وَيْلَكَ يَا أَشْعَبَ كَانَ أَبُوكَ أَلْحَى وَأَنْتِ أَنْطُ فإِلَى مَنْ خَرَجْتَ تُشَبِّهُ؟ قَالَ: إِلَى أُمِّي» ففِي مِثْلِ هَذِهِ الْفُكَاهَةِ بَرَاءَةٌ وَلَهُوَ لَا ضَيْرَ فِيهِ.

وَلِخَفَةِ رُوحِهِ يُطَلَّبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ وَسِيطًا لِلِإِصْلَاحِ بَيْنَ زَوْجَيْنِ مُتَخَاصِمَيْنِ. فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ «غَاضِبَتْ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ زَوْجَهُ عَائِشَةَ بِنْتَ طَلْحَةَ (وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مُسْتَهْلٍ كِتَابَنَا قِصَّةَ جَمَالِهَا) فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَشَكَأ أَمْرَهُ إِلَى خَاصَّتِهِ. فَقَالَ لَهُ أَشْعَبُ: فَمَا لِي إِذَا هِيَ كَلَّمَتْكَ؟ قَالَ: عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ. فَأَتَى إِلَيْهَا فَقَالَ يَا بِنْتَ عُمِّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَفْضَلِي بِكَلَامِ الْأَمِيرِ فَقَدْ اسْتَشْفَعَ بِي عِنْدَكَ وَأَجْزَلَ لِي الْعَطِيَّةُ إِنْ أَنْتِ كَلَّمْتِهِ. قَالَتْ: لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ يَا أَشْعَبُ. وَانْتَهَرَتْهُ، فَقَالَ: جُعِلَتْ فِدَاكَ كَلَمِيهِ حَتَّى أَقْبِضَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ثُمَّ أَرْجِعِي إِلَيَّ مَا عَوَّدَكَ اللَّهُ مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ، فَضَحِكَتْ فَقَامَتْ فَصَالَحَتْهُ».

وَمِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ يَظْهَرُ طَمَعُهُ الَّذِي اسْتُهْرِ بِهِ حَتَّى ضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ. يُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

«كَلْبِي كَلْبٌ سَوْءٌ يُصِيبُصُ لِلْأَضْيَافِ وَيَنْبِجُ عَلَى أَصْحَابِ الْهَدَايَا».

(١) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ١٠٣.

قِيلَ لَهُ مَرَّةً: أَرَأَيْتَ أَطْمَعُ مِنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ كَلْبَةُ آلِ أَبِي فُلَانٍ رَأَتْ شَخْصاً يَمْضَغُ عَلَئِهَا قَتَبَتَهُ فَرَسَخاً تَنْظُرُ أَنَّهُ يَرْمِي لَهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْخَبْزِ.

وَلَا عَجَبُ إِذَا تَبَوَّأَ أَشْعَبُ هَذَا مَكَانَةَ الْحُظْوَةِ عِنْدَ أُمَرَاءِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا. وَهُوَ قَدْ يَعْمَدُ مَعَ الْأُمَرَاءِ إِلَى التَّمَثِيلِ لِلتَّنَادُرِ عَلَى بَعْضِ الْبُسْطَاءِ مِنَ الْأَعْرَابِ. وَإِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ نَذْكُرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْبَدِيعَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو الْفَرَجِ فِي كِتَابِهِ فَهِيَ قَدْ بَلَغَتْ فِي رَأْيِنَا غَايَةَ الْكَمَالِ مِنَ الْبَيَانِ وَالِإِمْتَاعِ وَنَتْرَكُ لِلْقَارِئِ أَنْ يَجِدَ بِنَفْسِهِ عُنَاصِرَ إِمْتَاعِهَا وَجَمَالَ بَيَانِهَا.

حَدَّثَ ابْنُ زُبَيْجٍ رَاوِيَةً ابْنَ هَرْمَةَ عَنْ أَبِيهِ «قَالَ: كَانَ أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ مِنْ أَهْزَلِ النَّاسِ وَأَعْبَثِهِمْ وَبَلَغَ مِنْ عَيْبِهِ أَنَّهُ كَانَ يَجِيءُ بِاللَّيْلِ إِلَى مَنْزِلِ رَجُلٍ فِي أَعْلَى الْمَدِينَةِ لَهُ لَقَبٌ يَغْضَبُ مِنْهُ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ يَهْتَفُ بِلَقَبِهِ فَيَشْتَمُهُ أَقْبَحَ شَتَمٍ وَأَبَانٍ يَضْحَكُ. فَبَيْنَا نَحْنُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَهُ وَعِنْدَهُ أَشْعَبُ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ وَمَعَهُ جَمَلٌ لَهُ وَالْأَعْرَابِيُّ أَشْقَرُ أَزْرَقُ أَزْعَرَ غَضُوبٌ يَتَلَطَّى كَأَنَّهُ أَفْعَى وَيَتَبَيَّنُ الشَّرُّ فِي وَجْهِهِ مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا شَتَمَهُ وَنَهَرَهُ. فَقَالَ أَشْعَبُ لِأَبَانٍ: هَذَا وَاللَّهِ مِنَ الْبَادِيَةِ^(١) ادْعُوهُ، فَدُعِيَ، وَقِيلَ لَهُ إِنَّ الْأَمِيرَ أَبَانَ بْنَ عَثْمَانَ يَدْعُوكَ. فَأَتَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ أَبَانُ عَنْ نَفْسِهِ فَانْتَسَبَ لَهُ. فَقَالَ: حَيَّاكَ اللَّهُ يَا خَالِي! حَبِيبُ زِدَادٍ حَبِيبًا، فَجَلَسَ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي فِي طَلَبِ جَمَلٍ مِثْلَ جَمَلِكَ هَذَا مِنْذُ زَمَانٍ فَلَمْ أَجِدْهُ كَمَا أَشْتَهِي بِهِذِهِ الصُّفَةِ وَهَذِهِ الْقَامَةِ^(٢) وَاللَّوْنِ وَالصُّدْرِ وَالْوَرَكِ وَالْأَخْفَافِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ ظَفَرِي بِهِ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَحْبَبَهُ، أَتَبِعُهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ! فَقَالَ: فَإِنِّي قَدْ بَدَّلْتُ لَكَ بِهِ مِائَةَ دِينَارٍ، وَكَانَ الْجَمَلُ يُسَاوِي عِشْرَةَ دِنَانِيرٍ، فَطَمَعَ الْأَعْرَابِيُّ وَسَرَّ وَانْتَفَخَ وَبَانَ السُّرُورُ وَالطَّمَعُ فِي وَجْهِهِ. فَأَقْبَلَ أَبَانَ عَلَى أَشْعَبٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: وَيْلَكَ يَا أَشْعَبُ إِنَّ خَالِي هَذَا مِنْ أَهْلِكَ وَأَقَارِبِكَ يَعْنِي (فِي) الطَّمَعِ فَأَوْسَعَ لَهُ مِمَّا عِنْدَكَ. فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَزِيادَةُ. فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: يَا خَالِي إِنَّمَا زِدْتُكَ فِي الثَّمَنِ عَلَى بَصِيرَةٍ وَإِنَّمَا الْجَمَلُ يُسَاوِي سِتِّينَ دِينَارًا وَلَكِنْ بَدَّلْتُ لَكَ مِائَةَ لِقْلَةٍ الثَّقَدِ عِنْدَنَا وَإِنِّي أُعْطِيكَ بِهِ عُرُوضًا تُسَاوِي مِائَةَ. فَزَادَ طَمَعَ الْأَعْرَابِيِّ وَقَالَ: قَدْ قَبِلْتُ ذَلِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ. فَأَسَرَّ إِلَى أَشْعَبٍ فَأَخْرَجَ شَيْئًا مُغَطًى. فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجْ مَا جِئْتَ بِهِ فَأَخْرَجَ جَرْدَ عِمَامَةٍ خَزٌّ خَلَقَ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ. فَقَالَ لَهُ: قَوْمُهَا يَا أَشْعَبُ. فَقَالَ لَهُ: عِمَامَةُ الْأَمِيرِ تُعْرَفُ بِهِ، وَيَشْهَدُ فِيهَا الْأَعْيَادُ وَالْجُمُعَ وَيَلْقَى فِيهَا الْخُلَفَاءُ، خَمْسُونَ دِينَارًا. فَقَالَ: ضَعُفَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ لَابْنِ زُبَيْجٍ: أَتُبْتُ

(١) رَوَايَةُ نَهَايَةِ الْأَرَبِ فَقَالَ أَبَانُ هَذَا وَاللَّهِ مِنَ الْبَابَةِ وَهِيَ رَوَايَةٌ جَمِيلَةٌ مَعْنَاهَا أَنَّهُ غَرَضُ الْعَبَثِ وَالذُّعَابَةِ كَأَنَّمَا كَانَ يُقْتَسَمُ عَنْ مِثْلِهِ. يُقَالُ هَذَا الشَّيْءُ مِنْ بَابَتِكَ أَيِ طَبَقِ مَرَادِكَ وَغَرَضِكَ.

(٢) رَوَايَةُ نَهَايَةِ الْأَرَبِ الْهَامَةُ وَبَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ بَعْضُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْأَلْفَاظِ لَا نَشِيرُ إِلَيْهِ دَائِمًا.

قيمتها، فكتب ذلك، ووَضِعَت العمامة بين يدي الأعرابي، فكاد يدخل بعضه في بعض غَيْظاً ولم يقدر على الكلام. ثم قال: هاتِ قَلَنْسُوتِي. فأخرج قَلَنْسُوتَهُ طويلة خَلَقَةٌ قد علاها الوَسَخ واللُّهْن وتَخَرَّتْ تُساوي نصف درهم، فقال: قَوْم، فقال: قَلَنْسُوتُ الأمير تَعْلُو هامته ويُصَلِّي فيها الصَّلوات الخمس ويجلس للحُكْم! ثلاثون ديناراً. قال: أَتَيْتَ، فَأَتَيْتَ ذلك، ووَضِعَت القَلَنْسُوتَ بين يدي الأعرابي، فترَبَّد وجهه وجَحَظَتْ عيناه وهمَّ بالوثوب ثمَّ تَماسَكَ وهو مُتَقَلِّل.

ثمَّ قال لأشعب: هاتِ ما عندك، فأخرج خُفَيْنِ خَلَقَيْنِ قد نَقَبَا وتَقَشَّرَا وتَفَتَّقَا فقال له: قَوْم. فقال: خُفَّ الأمير يطأُ بهما الرُّوضَة ويعلو بهما منبر النَّبِيِّ ﷺ! أربعون ديناراً، فقال: ضَعُهما بين يديه، فوضعهما. ثمَّ قال للأعرابي: اضْمُمْ إِلَيْكَ مَتَاعَكَ، وقال لبعض الأعوان: اذهب فَخُذِ الجمل، وقال لآخر: امضِ مع الأعرابي فاقبض منه ما بَقِيَ لَنَا عليه من ثَمَنِ المَتَاع وهو عشرون ديناراً. فَوَثَبَ الأعرابي فأخذ القِمَاش فَضَرَبَ به وَجْهَ القوم لا يَأْلُو في شِدَّةِ الرَّمْيِ به، ثمَّ قال له: أَتَدْرِي أَصْلَحَكَ اللهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ أَمُوتَ؟ قال: لا. قال: لَمْ أَذَرِكْ أَبَاكَ عِثْمَانَ فَأَشْتَرِكَ وَاللهُ فِي دَمِهِ إِذْ وَلَدَ مِثْلَكَ، ثمَّ نهَضَ مِثْلَ المَجْنُونِ حَتَّى أَخَذَ بِرَأْسِ بَعِيرِهِ، وَضَحَكَ أَبَانَ حَتَّى سَقَطَ وَضَحَكَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعَهُ. وَكَانَ الأعرابيُّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا لَقِيَ أَشْعَبَ يَقُولُ له: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا بَنَ الخَبِيثَةِ حَتَّى أَكافِئَكَ عَلَى تَقْوِيمِكَ المَتَاعَ يَوْمَ قَوْمٍ فِيهَرِبُ أَشْعَبُ مِنْهُ.

كَانَ جَوْ المَدِينَةِ يَشْتَمِلُ عَلَى وَمَضَاتٍ وَبَوَارِقٍ مِنَ الْإِبْتِسَامِ وَالضَّحِكِ وَكَانَتِ الْفُكَاهَةُ إِذْ ذَاكَ مَقْصُودَةً لِذَاتِهَا، أَصْبَحَتْ مِنْ مُتَعِ الحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. «قال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: أَهْلُ المَدِينَةِ يَقُولُونَ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مُلَحَ أَشْعَبَ وَخُبْزَ أَبِي الْغَيْثِ وَمِشْيَةَ بَرَّةَ. وَكَانَ أَبُو الْغَيْثِ يُعَالِجُ الْخُبْزَ بِالمَدِينَةِ، وَبَرَّةُ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ الْأَسْوَدِ وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ وَأَحْسَنَهُنَّ مِشْيَةً»^(١).

ومثل هذا القول يَدُلُّ عَلَى مَدَى إِحْسَاسِ أَهْلِ المَدِينَةِ بِالْجَمَالِ وَمِقْدَارِ تَذَوُّقِهِمْ لِلْفُكَاهَةِ حِينَ يَقْرَنُونَهَا بِالْقُوتِ اليَوْمِيِّ. وَحَسَبُ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ مِنَ الْفُكَاهَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ أَنْ يَكُونَ أَمِيرُهَا أَبَانُ بْنُ عِثْمَانَ وَهُوَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَلَعِ بِالْفُكَاهَةِ وَالتَّادِرَةِ وَالدُّعَابَةِ عَلَى التَّحْوِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي رِوَايَةِ الْقِصَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

ولقد طُبِعَ فَرِيقٌ مِنْ أَجَلَّةِ قَرِيشٍ عَلَى حَبِّ الظَّرْفِ وَخِفَّةِ الرُّوحِ. وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ ابْنُ

(١) ذَيْلُ زَهْرِ الْآدَابِ ص ٥٥.

أبي عتيق عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان أجلاً أهل زمانه، وقصصه طريفة وخِفة روحه وعلاقاته مع الشعراء في عصره كابن أبي ربيعة مُتعارفة مَثورة في كُتُب الأدب. على أَنَّ أمثال هذه الفكاهات في ذلك العصر كانت خفيفة الوطأة ليس فيها ضير ولا بأس تدلُّ على طَرَب النَّفس وخِفَّتِها للانسراح والجذل، ولم يكن وراءها من طائل ولا من هدف يَسعى إليه أولئك الذين يَصْطَنِعونها ما عدا التَّسلية واللَّهو البريء.

يقولُ صاحب «زهر الآداب»: «وأهل المدينة أكثر النَّاس ظَرْفاً وأكثرهم طِيباً وأحلامهم مُزاحاً وأشدهم اهتزازاً للسمع وحُسن أدب عند الاستماع»^(١) ويذكر قصّة الأوقص المخزوميّ وهو قاضي المدينة حين مرَّ به «سكران، وهو يتغنّى بليل، فأشرف عليه وقال: يا هذا شربت حراماً وأبْقَظت نياماً وغَنَيْت خطأ، خذه عني. وأصلح له الغناء»^(٢).

الفكاهة للكسب والتَّعيش:

ولقد تَعَقَّدت الحياة الاجتماعية وزادت أبْهة الملك والسُّلطان في زمن الدَّولة العبَّاسية وكَثُر الثَّرَف والغنى وأصبح يعيش في حاشية الملوك مُغْنُون ومُضحكون لا شأن لهم إلا إدخال السُّرور والبُهجة على قلوب الخُلَفاء ووزرائهم والأمراء وأتباعهم. ومن أشهر هؤلاء الفكهين أبو دُلَّامة «أدرك آخر زمن بني أمية ولم يكن له نَبَابة في أيَّامهم، ونَبِغ في أيَّام بني العبَّاس فانقطع إلى أبي العبَّاس السَّفاح وأبي جعفر المنصور والمهدي، وكانوا يُقدِّمونهم ويُفضِّلونه ويستطيِّبون مُجالستَه ونوادره»^(٣). وكان مع نوادره شاعراً مُجيداً. وأخبار أبي دُلَّامة في الجُبْن كثيرة مُضحكة. وقد أخرج المنصور أو المهدي مع رُوح بن حاتم المُهَلَّبِيّ لِقَتال الشُّراة، «وبرز رجل من الخوارج يدعو إلى المِبارزة فقال رُوح: اخرج إليه يا أبا دُلَّامة، فقال: أنشدك الله أيُّها الأمير في دمي، فقال: والله لَتُخْرِجَن، فقلت: أيُّها الأمير، فإنَّه أوَّل يوم من الآخرة وآخر يوم من الدُّنيا، وأنا والله جائع ما تَنبِيعُ مني جارحة من الجوع فَمُر لي بشيء آكله ثُمَّ أخرج. فأمر لي برغيفين ودجاجة فأخذتُ ذلك وبرزت عن الصَّفِّ، فلمَّا رآني الشَّاري أقبل نحوي وعليه فَرُو قد أصابه المطر فابتَلَّ وأصابته الشَّمس فاففَعَلْ»^(٤) وعيناه تَقْدان فأسرع إليّ فقلت: على رِسْلِكَ

(١) «زهر الآداب» ج ١ طبعة ١٩٢٥ ص ١٥٥.

(٢) المَرِج نفسه ص ١٥٦.

(٣) «نهاية الأرب» ج ٤ ص ٣٧.

(٤) تَقْبِض.

يا هذا! فوقف، فقلت: أقتل من لا يُقاتلك؟ قال: لا. قلت: أتستحل أن تقتل رجلاً على دينك؟ قال: لا. قلت: أفتستحل ذلك قبل أن تدعو من تُقاتله إلى دينك؟ قال: لا، فاذهب عني إلى لعنة الله. فقلت: لا أفعل أو تسمع مني، قال: قل، فقلت: هل كانت بيننا عداوة أو ترة أو تعرفني بحال تحفظك علي أو تعلم بيني وبين أهلك وتراً؟ قال: لا والله. قلت: ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأي فإنني لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك وأريد الشؤ لمن أراك، فقال: يا هذا جزاك الله خيراً فانصرف. قلت: إن معي زاداً أريد أن آكله وأريد مؤاكلتك لتؤكد المودة بيننا ويرى أهل العسكرين هوانهم علينا، قال: فافعل، فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا وجمعنا أرجلنا على معارفها وجعلنا نأكل والناس قد غلبوا ضحكاً، فلما استوفينا ودعني ثم قلت له: إن هذا الجاهل إن أقمت على طلب المباراة نذبني إليك فتتعب وتُعبني، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل، قال: قد فعلت فانصرف وانصرف، فقلت لروح: أما أنا فقد كفيتك قرني فقل لغيري يكفيك قرنه كما كفيتك، وخرج آخر يدعو إلى البراز، فقال لي: اخرج إليه، فقلت:

إنني أعوذ بروح أن يقدمني إلى القتال فتخزي بي بنو أسد
إن البراز إلى الأقران أعلمه مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفك المنيا إذ رصدت لها وأصبحت لجميع الخلق كالرصد
إن المهلب حب الموت أوزركم فما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لي مَهْجَةً أخرى لجذت بها لكنّها خِلَقْتُ فرداً فلم أجِدْ

قال فضحك روح وأعفاني»^(١).

ولكنّا نريد الآن أن نتحدّث بعض الشيء عن مَغْنٍ مُضِحِّك اختصَّ بصُحبة الرّشيد وهو أبو صدقة مسكين بن صدقة من أهل المدينة مولى لقريش. فحياته في بلاط هارون الرّشيد، ونوادره تُمثل الحال التي كان عليها أصحاب النوادر والفكاهات في ذلك العصر. «كان مليح الغناء طيّب الصوت كثير الرواية صالح الصّناعة من أكثر الناس نادرة وأخفهم روحاً وأشدّهم طمعاً وألحهم في مسألة»^(٢) وهو «من المغنّين الذين أقدمهم هارون الرّشيد من الحجاز في أيامه»^(٣). «قيل لأبي صدقة: ما أكثر سؤالك وأشدّ إلحاحك! فقال: وما يمنعني من ذلك واسمي مسكين وكُنيتي أبو صدقة وامراتي فاقّة وابني صدقة»^(٤) وكان

(١) «نهاية الأرب» ج ٤ ص ٤١، ٤٢.

(٢) «الأغاني» مطبعة التقدم ج ٢١ ص ١٠٠.

(٣) (٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

الرَّشِيدَ يَعْثُ بِهِ كَثِيرًا. وَتَدُلُّنَا أَخْبَارُ هَذَا الْمُعْتَنِيِّ الْمُضْحِكِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمُعْتَنِينَ
وَالْمُضْحِكِينَ كَانُوا يَنْتَقِلُونَ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَبَعْضُ الْوُزَرَاءِ وَالْأَمْرَاءِ فِي أَسْفَارِهِمْ وَمَصَافِيهِمْ
وَعَلَى مَدَى تَذَلُّلِهِمْ وَضُرَاعَتِهِمْ وَانْتِهَازِهِمْ مَخْتَلَفِ الْمُنَاسَبَاتِ مَعَ مَوَالِيهِمْ لِتَصِيدِ الْمَالِ
وَجَمْعِهِ وَتَعْيِشِهِمْ بِذَلِكَ. كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَبَا صَدَقَةَ هَذَا كَانَ مُحْسِنًا لِلتَّقْلِيدِ وَالْمَعَارِضَةِ
الْهَزَلِيَّةِ فَوْقَ إِجَادَتِهِ لِلْغِنَاءِ فَهُوَ يُضْحِكُ مِنْ غَيْرِهِ وَيُضْحِكُ مِنْ نَفْسِهِ وَيُحْرِجُ أحيانًا بِالْقَوْلِ
أَمْرَاءَهُ مَعَ شِدَّةِ مُرَاعَاتِهِ لِمَقَامِهِمْ وَتَأْدِيبِهِ مَعَهُمْ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي نَرِيدُ أَنْ نَسُوقَهَا هُنَا تَشْفِي
عَنْ أَنَّ الْوَزِيرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى هُوَ بَطْلُ الْقِصَّةِ الْحَقِيقِيِّ لِأَنَّهُ مَهَّدَ لَهَا وَوَصَّلَهَا وَأَشْرَكَ فِيهَا
الْخَلِيفَةَ لِإِلْهَائِهِ وَتَمْلِيطِهِ وَإِضْحَاكِهِ. وَيُشِيرُ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى مِقْدَارِ الْبَذْخِ وَالثَّرَاءِ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ.

رَوَى أَبُو الْفَرَجِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: «مُطِرْنَا وَنَحْنُ مَعَ الرَّشِيدِ بِالرِّقَّةِ مَطَرًا مَعَ الْفَجْرِ
وَاتَّصَلَ إِلَى غَدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَعَرَفْنَا خَبَرَ الرَّشِيدِ وَأَنَّهُ مُقِيمٌ عِنْدَ أُمِّ وَلَدِهِ الْمُسَمَّاءِ بِسَحَرٍ
فَتَشَاغَلْنَا فِي مَنَازِلِنَا. فَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدِ جَاءَنَا رَسُولُ الرَّشِيدِ فَحَضَرْنَا جَمِيعًا وَأَقْبَلَ يَسْأَلُ
وَاحِدًا وَاحِدًا عَنْ يَوْمِهِ الْمَاضِي مَا صَنَعَ فِيهِ، فَيُخْبِرُهُ إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى
فَسَأَلَهُ عَنْ خَبَرِهِ، فَقَالَ: كَانَ عِنْدِي أَبُو زَكَارٍ الْأَعْمَى وَأَبُو صَدَقَةَ فَكَانَ أَبُو زَكَارٍ كَلَّمَا غَنَّى
صَوْتًا لَمْ يَقْرَعْ مِنْهُ حَتَّى يَأْخُذَهُ أَبُو صَدَقَةَ فَإِذَا انْتَهَى الدَّوْرُ إِلَيْهِ أَعَادَهُ وَحَكَى أَبُو زَكَارٍ فِيهِ
وَفِي شَمَائِلِهِ وَحَرَكَاتِهِ، وَيَفْطِنُ أَبُو زَكَارٍ لِلذَّكَاءِ فَيُجِرُّ وَيَمُوتُ غَيْظًا وَيَشْتُمُ أَبَا صَدَقَةَ كُلَّ
شْتَمٍ حَتَّى يَضْجَرُ وَهُوَ لَا يُجِيبُهُ، وَلَا يَدْعُ الْعَبَثَ بِهِ، وَأَنَا أَضْحِكُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَوَسَّطْنَا
الشَّرَابَ وَسَيَّمْنَا مِنَ الْعَبَثِ بِهِ فَقُلْتُ لَهُ: دَعْ هَذَا وَغِنِّ غِنَاءَكَ فَغَنَّى رَمَلًا ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ صَنَعَتِهِ
طَرِبْتُ لَهُ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَرِبًا مَا أَذْكَرُ أَنِّي طَرِبْتُ مِثْلَهُ مِنْذُ حِينٍ وَهُوَ:
فَتَنْتَنِي بِفَاجِحِ اللَّوْنِ جَفَدَ وَبَغَّرَ كَأَنَّهُ نَظْمٌ دُرٌّ
وَيُوجِهَ كَأَنَّهُ طُلْعَةُ الْبَدْرِ وَعَيْنٌ فِي طَرْفِهَا نَفْثُ سِخْرِ

فَقُلْتُ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَبَا صَدَقَةَ! فَلَمْ أَسْكُتْ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ حَتَّى قَالَ لِي: إِنِّي
قَدْ بَنَيْتُ دَارًا حَتَّى أَتَفَقَّطْتُ عَلَيْهَا حَرِيبَتِي (مَالِي)، وَمَا أَعْدَدْتُ لَهَا فَرَشًا فَافْرِشْهَا لِي نَجِدَ اللَّهُ
لَكَ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ قَصْرِ، فَتَغَافَلْتُ عَنْهُ وَعَارَدَ الْغِنَاءَ فَتَعَمَّدْتُ أَنْ قُلْتُ لَهُ: أَحْسَنْتَ لِيُعَاوِدَ
مَسْأَلَتِي وَأَتَغَافَلَ عَنْهُ فَسَأَلَنِي وَتَغَافَلْتُ فَقَالَ لِي: يَا سَيِّدِي هَذَا التَّغَافُلُ مَتَى حَدَثَ لَكَ؟
سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ وَبِحَقِّ أَبِيكَ عَلَيْكَ إِلَّا أَجَبْتَنِي عَنْ كَلَامِي وَلَوْ بِشْتَمٍ. فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ:
أَنْتَ وَاللَّهِ بَغِيضٌ اسْكُتْ يَا بَغِيضٌ وَاكْفُفْ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْمُلِحَّةِ. فَوَثَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ
وَطَنَنْتُ أَنَّهُ خَرَجَ لِحَاجَةٍ وَإِذَا هُوَ قَدْ نَزَعَ ثِيَابَهُ وَتَجَرَّدَ مِنْهَا خَوْفًا مِنْ أَنْ تَبْتَلَّ وَوَقَفَ تَحْتَ
السَّمَاءِ لَا يُؤَارِيهِ مِنْهَا شَيْءٌ وَالْمَطَرُ يَأْخُذُهُ وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: يَا رَبِّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي مُلِئْتُ

ولست نائحاً. وعبدك هذا الذي رفعته وأخوَجْتَنِي إلى خدمته يقول لي: أَحْسَنْتَ لا يقول لي: أَسَأْتُ، وأنا منذ جلستُ أقول له: بَنَيْتَ لم أقل: هَدَمْتُ فَيَحْلِفُ بك جُرْأَةً عَلَيْكَ إِنِّي بَغِيضٌ فَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَا سَيِّدِي فَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. فَغَلَبَنِي الضَّحِكُ وَأَمَرْتُ بِهِ فَتَنَحَّى وَجْهَهُ بِه أَنْ يُغْنِي فَاثْتَنَعَ حَتَّى حَلَفْتُ لَهُ بِحَيَاتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَفْرَشُ لَهُ دَارَهُ، وَخَدَعْتَهُ فَلَمْ أُسَمِّ لَهُ مَا أَفْرَشُهَا بِهِ. فَقَالَ الرَّشِيدُ: طَيِّبٌ وَاللَّهِ الْآنَ تَمَّ لَنَا بِهِ اللَّهُو، وَهُوَ ذَا، ادْعُوا بِهِ، فَإِذَا رَأَى فَسَوْفَ يَقْتَضِيكَ الْفَرْشُ لِأَنَّكَ حَلَفْتَ لَهُ بِحَيَاتِي فَهُوَ يَنْتَجِزُ ذَلِكَ بِحَضْرَتِي لِيَكُونَ أَوْثَقَ لَهُ، فَقُلْ لَهُ: أَنَا أَفْرَشُهَا لَكَ بِالْبَوَارِي، وَحَاكِمُهُ إِلَيَّ. ثُمَّ دَعَا بِهِ فَأَحْضَرَ، فَمَا اسْتَقَرَّ فِي مَجْلِسِهِ حَتَّى قَالَ لَجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى: الْفَرْشُ الَّذِي حَلَفْتُ لِي بِحَيَاةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ تَفْرَشُ بِهِ دَارِي تَقْدِّمُ فِيهِ..

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ: اخْتَرْ إِنْ شِئْتَ فَرَشْتُهَا لَكَ بِالْبَوَارِي وَإِنْ شِئْتَ بِالْبَرْدِيِّ مِنَ الْحُصُرِ. فَضَجَّ وَاضْطَرَبَ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: وَكَيْفَ كَانَتِ الْقِصَّةُ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَخْطَأْتُ يَا أَبَا صَدَقَةٍ إِذْ لَمْ تُسَمِّ التُّورَ وَلَا حَدَّدْتَ الْقِيَمَةَ إِذَا فَرَشْتُهَا لَكَ بِالْبَوَارِي أَوْ بِالْبَرْدِيِّ أَوْ بِمَا دُونَ ذَلِكَ فَقَدْ وَفَّى يَمِينَهُ وَإِنَّمَا خَدَعَكَ وَلَمْ تَفْطِنْ لَهُ أَنْتَ وَلَا تَوَقَّعْتَ وَضَيَّعْتَ حَقَّكَ. فَسَكَتَ وَقَالَ نُوْفَرُ الْبَرْدِيِّ وَالْبَوَارِي عَلَيْهِ أَيْضاً أَعَزَّهُ اللَّهُ. وَغَنَّى الْمُغْنُونَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ الدَّوْرُ فَأَخَذَ يُغْنِي غِنَاءَ الْمَلَّاحِينَ وَالْبَنَّاثِينَ وَالسَّقَّائِينَ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مِنَ الْغِنَاءِ. فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: أَيشَ هَذَا الْغِنَاءُ، وَبِلَكَ! قَالَ: مَنْ فُرِشَتْ دَارُهُ بِالْبَوَارِي وَالْبَرْدِيِّ فَهَذَا الْغِنَاءُ كَثِيرٌ مِنْهُ وَكَثِيرٌ أَيْضاً لِمَنْ هَذِهِ صِلَتُهُ. فَضَحِكَ الرَّشِيدُ وَاللَّهُ وَطَرِبَ وَصَفَّقَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ وَقَالَ لَهُ: أَفْرَشْ دَارَكَ مِنْ هَذِهِ، فَقَالَ: وَحَيَاتِكَ لَا آخِذُهَا يَا سَيِّدِي أَوْ تَحْكُمَ لِي عَلَى جَعْفَرٍ بِمَا وَعَدَنِي وَإِلَّا مِتُّ وَاللَّهُ أَسْفَا لَفُوتُ مَا حَصَلَ فِي طَمْعِي وَوَعِدَتِ بِهِ. فَحَكَّمَ لَهُ عَلَى جَعْفَرٍ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ فَقَبِلَهَا جَعْفَرُ وَأَمَرَ لَهُ^(١) بِهَا.

أَمِيرُ الْفُكَاهَةِ:

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الضَّحِكَ مُتَّصِلٌ بِجَوَانِبِ الْحَيَاةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمُمْتَزَجٌ بِهَا الْإِمْتِزَاجُ كُلُّهُ فَلَا يَكَادُ يَخْلُو زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمَانِ مِنَ الْفُكَاهَاتِ وَالنُّوَادِرِ. فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَتَعَقَّبَ ذَلِكَ وَأَنْ نَسْتَقْصِيهِ تَطَاوُلَ الْأَمْرِ وَتَعَدُّرَ بَلِّ اسْتِحْوَاحِ. وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَنَا بَدْءٌ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَغْلَامِ الْفُكَاهَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ. وَنَحْنُ لَا نَنْسِي فُكَاهَاتِ الشُّعْرَاءِ فِي

(١) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ١٠٣ - ١٠٤. وَالْبَوَارِي جَمْعُ بَارِيَةٍ وَبَارِي وَبُورِي وَبُورِي لَفْظٌ فَارْسِيٌّ الْأَصْلُ مَعْنَاهُ حَصِيرٌ مَنَسُوجٌ وَبِالْبَرْدِيِّ نَبَاتٌ يُصْنَعُ مِنْهُ الْحُصُرُ.

العصر العباسي ولا سيما بشار بن بُرْد وأبو نُوَاس. ومن المعلوم أنَّ أبا نُوَاس شهر بخفة الروح والدُّعابة اللَّطيفة حتى نُحِلَّ أخباراً كثيرة ونوادر وتألَّفت من ذلك شخصيّة له لا تَنطَبِقُ في حقيقة الأمر على حياته هو. على أنّه لا بدّ لنا حين نَصِلُ إلى هذه المرحلة من البحث أن نُشيد بمدينة الضَّحِك الكاتب الكبير أبي عثمان الجاحظ. ومكانته في الدُّرّة العُلَيّا من أنواع المعارف المختلفة في عصره وهي لا تَحْتَاجُ إلى تعريف، وإنّما نَقْتَصِرُ على بعض الإشارات إلى ألوان فُكاهته المَرِحَة التي مَلَأَتْ عصره والعصور بعده والتي تَعَدَّدَتْ كألوان قوس قَزَح.

وقد مزج الفُكاهة في كلِّ ما كتب وحرص على التَّأدُّر في جميع الأحوال. ولا يزال جَرَسُ ابتسامته العريضة الدَّكِيّة وقَهَقَهه ضَحِكُه الجاهِر يَهْزِجَان في أحقاب العصور المُتطاوِلة. وهو يُبْرِزُ أهمّيّة الفُكاهة واتِّصال الهُزْل بالجدِّ في كُتُبِه. وقد جاء في مُقدِّمة كتابه العلميِّ الكبير «الحيوان» قوله: «وهذا كتاب مَوْعظة وتعريف وتَفَقُّه وتنبه، وأراك قد عِبْتَه قبل أن تقف على حدوده وتَتَفَكَّر في فصوله وتَعْتَبِر آخره بأوِّله ومصادره بموارده. وقد غَلَطْتُ فيه بعض ما رأيْت في أثنائه من مَزْح لم تعرف معناه ومن بَطَالَة لم تَطَّلِع على غَوْرها ولم تَذَرِ لم اجْتَلِبَتْ ولا لأيّ علّة تُكَلِّفَتْ وأيّ شيء أُرِيغُ بها ولأيّ جدِّ احْتُمِلَ ذلك الهُزْل ولأيّ رياضة تُجَسِّمَتْ تلك البطالة، ولم تَذَرِ أنَّ المُزاح جدٌّ إذا اجْتَلِبَ ليكون علّة للجدِّ وأنَّ البَطَالَة وقار ورزاة إذا تُكَلِّفَتْ لتلك العاقبة. ولَمَّا قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النُّحو إلى ما يحتاج إليه حتى يَتَعَلَّمَ ما لا يحتاج إليه قال أبو شمر: إذا كان لا يَتَوَصَّلُ إلى ما يُحْتَاجُ إليه إلّا بما لا يُحْتَاجُ إليه فقد صار ما لا يُحْتَاجُ إليه يُحْتَاجُ إليه. وذلك مثل كتابنا هذا لأنّه إن حملنا جميع من يَتَكَلَّفُ قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحقِّ وصُعوبة الجدِّ وثِقَلُ المَوَونة وحِلْيَةُ الوَقَار لم يصبر عليه مع طوله إلّا من تَجَرَّدَ للعلم وفَهِمَ معناه وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزّه ونال سروره على حَسَبِ ما يُورِث الطُّول من الكدِّ، والكثُرَة من السَّامة. وما أكثر من يُقاد إلى حُظِّهِ بالسَّواجير وبالسُّوق العنيف وبالإخافة الشَّديدة»^(١).

ولقد قدَّمنا في أوَّل الكتاب نُتْقاً من مديح الجاحظ للضَّحِك وطُرفاً من النُّوادر التي ذكرها في كتاب «البخلاء» ويبدو لنا شِدَّة حِرْصه على الفُكاهة في القِصَّة التَّالِيَة: «قال المَرْزبانيُّ وحَدَّث أبو الحسن الأنصاريُّ حَدَّثني الجاحظ قال: كان رجل من أهل السَّواد تَشِيْعَ وكان ظريفاً فقال ابن عمِّ له: بَلَّغني أنّك تبغض عليّاً عليه السَّلام والله لئن فعلت

(١) «الحيوان» ج ١ ص ٣٧ - ٣٨ تحقيق عبد السَّلام هارون. والسَّاجور خشبة تُعلَّق في عُنق الكلب.

لَتَرِدَنَّ عَلَيْهِ الْحَوْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَسْقِيكَ. قَالَ: وَالْحَوْضُ فِي يَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا لِهَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ يَقْتُلُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا بِالسَّيْفِ وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَطَشِ؟ فَقِيلَ لَهُ: أَتَقُولُ هَذَا مَعَ تَشْيِيعِكَ وَدِينِكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَا تَرَكْتُ النَّادِرَةَ وَلَوْ قَتَلْتَنِي فِي الدُّنْيَا وَأَدْخَلْتَنِي النَّارَ فِي الْآخِرَةِ^(١) وليس بعد هذا لَهَجٌ بِالنَّادِرَةِ.

قِيلَ لِأَبِي هَفَّانَ: «لِمَ لَا تَهْجُو الْجَاحِظَ وَقَدْ نَدَّدَ بِكَ وَأَخَذَ بِمُخَنَّقِكَ؟ فَقَالَ: أُمَثِّلِي يُخَدِّعَ عَنْ عَقْلِهِ؟ وَاللَّهِ لَوْ وَضَعَ رَسُولًا فِي أَرْزَبَةِ أَنْفِي لَمَّا أُمَسَّتْ إِلَّا بِالصَّيْنِ شُهْرَةً، وَلَوْ قُلْتُ فِيهِ أَلْفَ بَيْتٍ لَمَّا طَنَّ مِنْهَا بَيْتٌ فِي أَلْفِ سَنَةٍ»^(٢) ولقد أصاب أَبُو هَفَّانَ هَذَا فِي قَوْلِهِ فَإِنَّا لَا نَزَالَ نَقْرَأُ كِتَابَ التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ الَّذِي كَتَبَهُ أَبُو عَثْمَانَ فِي أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَتَتَنَدَّرُ وَنَبْسِطُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ بَعْدَ مُرُورِ أَكْثَرِ مِنْ أَحَدٍ عَشَرَ قَرْنًا وَنَعَجِبُ لَتَفَنُّنِ الْمُؤَلِّفِ فِي ضَحِكِهِ الْمُتَهَكِّمِ:

«كَانَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ مُفْرِطَ الْقَصْرِ وَيَدَّعِي أَنَّهُ مُفْرِطُ الطُّولِ، وَكَانَ مُرَبِّعًا وَتَحَسَّبَهُ لِسَعَةِ جُفْرَتِهِ»^(٣) وَاسْتِغْفَاضَةِ خَاصِرَتِهِ مُدَوَّرًا، وَكَانَ جَعْدُ الْأَطْرَافِ قَصِيرَ الْأَصْبَاحِ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَدَّعِي السَّبَاطَةَ وَالرَّشَاقَةَ وَأَنَّهُ عَتِيقُ الْوَجْهِ أَخْمَصُ الْبَطْنِ مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ تَامُ الْعَظْمِ، وَكَانَ طَوِيلَ الظَّهْرِ قَصِيرَ الْعِظْمِ الْفَخْدُ وَهُوَ مَعَ قِصَرِ عَظْمِ سَاقِهِ يَدَّعِي أَنَّهُ طَوِيلُ الْبَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ عَادِي الْقَامَةِ عَظِيمُ الْهَامَةِ قَدْ أُعْطِيَ الْبَسْطَةَ فِي الْجِسْمِ وَالسَّعَةَ فِي الْعِلْمِ، وَكَانَ كَبِيرَ السِّنِّ مُتَقَادِمَ الْمِيلَادِ وَهُوَ يَدَّعِي أَنَّهُ مُعْتَدِلُ الشَّبَابِ حَدِيثُ الْمِيلَادِ. وَكَانَ ادِّعَاؤُهُ لِأَصْنَافِ الْعِلْمِ عَلَى قَدْرِ جَهْلِهِ بِهَا، وَتَكَلُّفُهُ لِلإِبَانَةِ عَنْهَا عَلَى قَدْرِ غِبَاوَتِهِ فِيهَا... إِلَى آخِرِ هَذَا الْوَصْفِ الْمُتَنَاقِضِ. وَهُوَ يُخَاطِبُهُ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ بَعْدَ إِذْ أَبَانَ الدَّوَاعِي الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى تَأْلِيفِهِ:

«أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَكَرَامَتَهُ لَكَ. قَدْ عَلِمْتُ - حَفِظَكَ اللَّهُ - أَنَّكَ لَا تُحْسَدُ عَلَى شَيْءٍ حَسَدَكَ عَلَى حُسْنِ الْقَامَةِ وَضِحْمِ الْهَامَةِ وَعَلَى حُورِ الْعَيْنِ وَجُودَةِ الْقَدِّ وَعَلَى طِيبِ الْأُخْدُوثةِ وَالصَّنِيعَةِ الْمَشْكُورَةِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ خِصَائِصُكَ الَّتِي بِهَا تَكَلِّفُ وَمَعَانِيكَ الَّتِي بِهَا تَلْهَجُ. وَإِنَّمَا يَحْسُدُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - الْمَرْءُ شَقِيقَهُ فِي النَّسَبِ وَشَبِيهَهُ فِي الصَّنَاعَةِ وَنَظِيرَهُ فِي الْجَوَارِ عَلَى طَارِفِ قَدْرِهِ أَوْ تَالِدِ حَظِّهِ أَوْ عَلَى كَرَمِ فِي أَصْلِ تَرْكِيبِهِ وَمَجَارِي أَعْرَاقِهِ. وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي خَالِصَةٌ لَكَ مَقْصُورَةٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّهَا لَا تَلِيقُ

(١) «إرشاد الأريب» المُسمَّى «مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ» ج ١٦ ص ٨٧.

(٢) المَرْجِعُ نَفْسُهُ وَالْجُزْءُ نَفْسُهُ ص ٩٩.

(٣) الْجُفْرَةُ: الْجَوْفُ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ. وَالْبَادُ أَصْلُ الْفَخْدِ وَبَاطِنُهَا.

إِلَّا بِكَ وَلَا تَحْسُنْ إِلَّا فِيكَ، وَأَنَّ لَكَ الْكُلَّ وَلِلنَّاسِ الْبَعْضُ، وَأَنَّ لَكَ الصَّافِي وَلَهُمُ الْمَشُوبُ، هَذَا سَوَى الْغَرِيبِ الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ وَالْبَدِيعِ الَّذِي لَا نَبْلُغُهُ... إلخ».

وكتاب «التربيع والتدوير» هذا رسالة لا يُمكن أن يكتبها إلا عالم أديب ضَرَبَ بسهم موفور وعميق في جميع نواحي الثقافة التي كانت مُزدهرة في ذلك الوقت. وفيه ألوان من اللُّهُو والعبث والتَّهْكُم لا تَتَهَيَّأ ولا تَسْتَقِيم إِلَّا لِأَمْثَالِ أَبِي عَثْمَانَ. وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تِلْكَ الْحَضَارَةِ الْمُتَسَّعَةِ الْجَوَانِبِ الْبَعِيدَةِ الْآفَاقِ الْمُتَأَلِّقَةِ الْأَكْنَافِ الَّتِي انْتَشَرَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَأَبْرَزُ خِصَائِصِ ضَحِكَ الْجَاحِظِ أَنَّهُ يَلْتَمِعُ ذِكَاءً وَيَتَوَقَّدُ فَهْمًا خَاطِفًا وَيَمْتَازُ عَقْلًا يُدْرِكُ كَالْبَرْقِ أَخْفَى الشُّشُوزِ فِي التَّفْكِيرِ وَأَدَقُّ الْمُفَارَقَاتِ وَالْمُشَابَهَاتِ فِي الْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ. كُلُّ ذَلِكَ فِي أَنْصَعِ بَيَانٍ وَأَكْثَرِهِ مُرَاعَاةَ لِمُقْتَضَى الْحَالِ. حَدَّثَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ عَمْرٍو النَّجِيرَمِيُّ قَالَ: «كُنْتُ بِالْأَنْدَلُسِ، فَقِيلَ لِي: إِنَّ هَهُنَا تَلْمِيزًا لِأَبِي عَثْمَانَ الْجَاحِظِ يُعْرَفُ بِسَلَامِ بْنِ يَزِيدٍ وَيُكْنَى أَبَا خَلْفٍ فَاتَّبَعْتُهُ فَرَأَيْتُ شَيْخًا هِمًّا فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَبِ اجْتِمَاعِهِ مَعَ أَبِي عَثْمَانَ وَلَمْ يَقَعْ أَبُو عَثْمَانَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، فَقَالَ: كَانَ طَالِبَ الْعِلْمِ بِالْمَشْرِقِ يَشْرُفُ عِنْدَ مُلُوكِنَا بِلِقَاءِ أَبِي عَثْمَانَ فَوَقَعَ إِلَيْنَا كِتَابُ «التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ» لَهُ فَأَشَارُوا إِلَيْهِ ثُمَّ أَرَدَفَهُ عِنْدَنَا كِتَابُ «الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ» لَهُ فَبَلَغَ الرَّجُلُ الصُّكَاكَ بِهِذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ. قَالَ: فَخَرَجْتُ لَا أَعْرِجُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى قَصِدْتُ بَغْدَادَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ: هُوَ بِسُرٍّ مِنْ رَأْيٍ، فَأَصْعَدْتُ إِلَيْهَا، فَقِيلَ لِي: قَدْ انْحَدَرَ إِلَى الْبَصْرَةِ فَانْحَدَرْتُ إِلَيْهِ وَسَأَلْتُ عَنْ مَنْزِلِهِ فَأُرْشِدْتُ وَدَخَلْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ وَحَوَالِيهِ عَشْرُونَ صَبِيًّا لَيْسَ فِيهِمْ ذُو لَحْيَةٍ غَيْرِهِ فَدِهَشْتُ فَقُلْتُ: أَيُّكُمْ أَبُو عَثْمَانَ؟ فَرَفَعَ يَدَهُ وَحَرَّكَهَا فِي وَجْهِهِ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ؟ قُلْتُ: مِنَ الْأَنْدَلُسِ، فَقَالَ: طَبِئَةَ حَمَقَاءَ، فَمَا الْاسْمُ؟ قُلْتُ: سَلَامٌ، قَالَ اسْمُ كَلْبِ الْقَرَادِ، ابْنُ مَنْ؟ قُلْتُ: ابْنُ يَزِيدٍ، قَالَ: بِحَقٍّ مَا صَرْتُ^(١)، أَبُو مَنْ؟ قُلْتُ: أَبُو خَلْفٍ قَالَ: كُنْيَةُ قَرْدٍ زُبَيْدَةٍ، مَا جِئْتَ تَطْلُبُ؟ قُلْتُ: الْعِلْمَ، قَالَ: ارْجِعْ بَوَاقِ فَإِنَّكَ لَا تَفْلَحُ. قُلْتُ لَهُ: مَا أَنْصَفْتَنِي فَقَدْ اشْتَمَلْتُ عَلَى خِصَالِ أَرْبَعٍ: جَفَاءِ الْبَلَدِيَّةِ وَبُعْدِ الشُّقَّةِ وَغِرَّةِ الْحَدَاثَةِ وَدَهْشَةِ الدَّاخِلِ، قَالَ: فَتَرَى حَوْلِي عَشْرِينَ صَبِيًّا لَيْسَ فِيهِمْ ذُو لَحْيَةٍ غَيْرِي مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَنِي بِهَا؟ قَالَ: فَأَقَمْتُ عَلَيْهِ عَشْرِينَ سَنَةً^(٢).

(١) هكذا في طبعتي مرجليوث وأحمد فريد وفي الجزء الثامن من نشوار المحاضرة وربما كان الأصل بحق ما صرف.

(٢) «مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ» ج ١٦ ص ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦.

ولقد كان العرب يُنظر إليهم على أنهم أشرف الشعوب برغم النزعات الشعوبية، وانظر كيف يتهكم الجاحظ بالأعاجم. قال: «كان يأتيني رجل فصيح من العجم، قال فقلت له: هذه الفصاحة وهذا البيان لو ادعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تتنازع فيها قال: فأجابني إلى ذلك فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذه هداً، فقلت له: الآن لا تبه علينا، فقال: سبحان الله إن فعلت ذلك فأنا إذن ذهبي»^(١).

ومع ذلك فقد ضحك ما شاء من الأعراب حتى في مواقف الجد. كتب فصلاً في «البيان والتبيين» ذكر فيه «صدراً من دعاء الصالحين والسلف المتقدمين ومن دعاء الأعراب، فقد أجمعوا على استحسان ذلك واستجادته، وبعض دعاء الملهوفين والناسك المتبتلين» جاء فيه:

«أبو الحسن قال: سمع رجل بمكة رجلاً يدعو لأمه فقال: ما بال أهلك؟ قال: هو رجل يحتال لنفسه.

أبو الحسن عن عروة بن سليمان العبدي قال: كان عندنا رجل من بني تميم يدعو لأبيه ويدع أمه، فقل له في ذلك، فقال: إنها كلبية.

ورفع أعرابي يده بمكة قبل الناس، فقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس»^(٢).

ولم يترك الجاحظ جماعة في عصره إلا عرف مغامزها وداعبها بفكاهته وبابتسامته، حتى إنه لم يُبال في بعض الأحيان أن يضحك من نفسه.

وقد عمّر الجاحظ طويلاً، ومات سنة خمس وخمسين ومائتين في خلافة المعتز.

الفكاهة سلاح:

ومن الذين عاصروا الجاحظ واشتهروا بالنوادر والبيان المحكم والقول اللاذع والعارضة الحاضرة أبو العيّن محمد بن القاسم^(٣) كان أخباراً أديباً شاعراً روى عن ابن عاصم النبيل وسمع من الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والغثبي وغيرهم كما أعجب بالجاحظ الإعجاب كله. وقد حدث عنه الصولي وابن نجيب وأحمد بن كامل

(١) المرجع نفسه ص ٩٤.

(٢) طبعة ١٩٤٩ ج ٣، ص ٢٨٢.

(٣) الأخبار التي نرويها مأخوذ أكثرها من إرشاد الأريب المعروف بمعجم الأدباء ج ١٨ و ج ٤.

وآخرون، واشتهر بظرفه وذكائه ولسنه وبداهته وسرعة جوابه وإيلاام نِكَاته. وُلِدَ بالأهواز سنة مائة وإحدى وتسعين وتُوفِّيَ ببغداد سنة مائتين وثلاث وثمانين وقيل مائتين وأثنتين وثمانين. عَمِيَ بعد الأربعين. والظاهر أن أحواله قد تحسّنت بعد العمى. يقول فيه أبو عليّ البصير وكان أعمى:

قَد كُنْتُ خِفْتُ يَدَ الزُّمَّا نَ عَلَيْكَ إِذْ ذَهَبَ الْبَصَرُ
لَمْ أَدْرِ أَنَّكَ بِالْعَمَى تَغْنَى وَيَقْتَرِ الْبَشَرُ

ولا يخفى ما في البيتين من إيلاام إذ يُنَوِّهان بتلك العاهة الكبرى التي تحجب عن الإنسان كُنُوزَ النَّظَرِ إلى الموجودات. وتدكُّ الروايات على أنه كان أخول قبل عماء، يُشير إلى ذلك قوله:

حَمَدْتُ إِلَهِي إِذْ بَلَانِي بُحْبُهَا عَلَى حَوْلٍ يُغْنِي عَنِ النَّظَرِ الشَّرُّرُ
نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالرَّقِيبَ يَظُنُّنِي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فَاسْتَرَحْتُ مِنَ الْعُدْرِ

ويقول فيه بعض شعراء عصره المغمورين وهو الذي يروي هذا الشعر:

أَخْوَلُ الْعَيْنِ وَالْخِلَاقِ زَيْن لَا أَخْوَلَالُ بِهَا وَلَا تَلْوِين
لَيْسَ لِلْمَرْءِ شَائِئاً حَوْلَ الْعِي مَنْ إِذَا كَانَ فَعَلَهُ لَا يَشِين

وكذلك يظهر من بعض شعره الذي يُنسب إليه أنه قصير قميء فهو يقول:

وإِلَّا يَكُنْ عَظَمِي طَوِيلاً فإِنِّي لَهُ بِالْخِصَالِ الصَّالِحَاتِ وَصُولُ
إِذَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ الطُّوَالِ فَضَلْتُهُمْ بِطَوْلِي لَهُمْ حَتَّى يُقَالَ طَوِيلُ
وَلَا خَيْرَ فِي حُسْنِ الْجِسْمِ وَطَوْلِهَا إِذَا لَمْ يَزِنْ طَوِلَ الْجِسْمُ عَقُولُ
وَكَائِنْ رَأَيْنَا مِنْ جِسْمٍ طَوِيلَةٍ تَمُوتُ إِذَا لَمْ تُحْيِهِنَّ أَصُولُ
وَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوفِ أَمَّا مَذَاقُهُ فَحُلُوْ وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ

إِلَّا أَنَّ بِنِيَّتَهُ كَانَتْ قَوِيَّةً فَقَدْ عَاشَ نَحْواً مِنْ اثْنَيْنِ وَتَسْعِينَ سَنَةً. وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ قَدْ حَرَمَتْهُ نُورَ الْبَصَرِ وَبَخَسَتْهُ فِي بَسْطَةِ الْجِسْمِ وَجَمَالِهِ فَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَتَعَوَّضَ عَنِ الْحِرْمَانِ وَالْبَخْسِ هُذَيْنِ مَا وَجَدَهُ فِي ذِكَاثِهِ الْحَادِّ وَبِدَاهَتِهِ الْخَاطِطَةِ وَلِسَانِهِ الصَّارِمِ فَيَعْتَدُّ بِذَلِكَ كُلَّهُ وَيَجْعَلُهُ سِلَاحَهُ الْمَاضِي يَحْمِي بِهِ نَفْسَهُ وَيُدَافِعُ بِهِ عَنْ أَصْدِقَائِهِ فِي حَوْمَةِ الْعَيْشِ مُضْحِكاً لِلنَّاسِ تَارَةً مُؤَلِّماً لَهُمْ وَمُخِيفاً لِبَاهِمِ تَارَاتٍ أُخْرَى. وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ جُنَاحٌ. وَقَدْ عَاشَ فِي الْبَصَرَةِ ثُمَّ تَحَوَّلَ مِنْهَا إِلَى بَغْدَادِ.

رَوَى أَخْبَاراً كَثِيرَةً عَنِ الْجَا حَظِّ، وَكَانَ مُعْجَباً بِهِ كَمَا قَدَّمْنَا. قِيلَ لَهُ يَوْمَاً لَيْتَ شِعْرِي أَيْ شَيْءٌ كَانَ الْجَا حَظُّ يُحْسِنُ؟ فَقَالَ: لَيْتَ شِعْرِي أَيْ شَيْءٌ كَانَ الْجَا حَظُّ لَا يُحْسِنُ؟

ولقد تَجَمَّعت الكنوز واستَفحل الغنى إِبَّانَ الدَّولة العَبَّاسِيَّة وَلَكِنَّ توزیع الثَّراء لم يكن عادِلًا فاشتدَّ التَّمایزُ بین طبقات الشَّعب وفِئاته على خلاف ما كان الأمر عليه في فجر الإسلام وَرَبِّقَه من تَضامُن عمیق بین النَّاس فَتكوُنَتْ في العصر العَبَّاسِيّ طبقات اجتماعيَّة مُستَنَدَّة إلى فروق اقتصاديَّة بارزة بعضها مُتموِّل مُتَرَف مجدود وبعضها فقير مكدود مَجْهُود. ولا نَسْتَغْرِبُ إِذْن أن تغدو الثُّكَّة البارة والكَلَمَة المُحَكَّمة والبيان القويُّ سِلَاحًا عند بعض الأَدبَاء يَسْتَعْمِلُونَه في المَيدان الاجتماعيِّ والسِّيَاسيِّ.

سأل أبو العَيْناء الجاحظ كتاباً إلى مُحَمَّد بن عبد الملك في شَفاعة لصاحب له فكتب الكتاب وناوَله الرَّجُل، فعاد به إلى أبي العَيْناء وقال. قد أَشْعَف، قال: فهل قرأته؟ قال: لا، لأنَّه مختوم، قال: وَيَحْك فُضَّه لا يكون صحيفة المُتَمَلِّس فُضَّه، فإذا فيه:

مُوصل كتابي سألني فيه أبو العَيْناء وقد عَرَفْتُ سَفَهَه ويُدوِّع لسانه وما أراه لمعروفك أهلاً فَإِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْه فلا تَحْسِبْه عَلَيَّ يداً وَإِنْ لم تُحَسِّنْ إِلَيْه لم أَعِدْهُ عليك ذنباً والسَّلام.

فركب أبو العَيْناء إلى الجاحظ وقال له: لقد قرأتُ الكتاب يا أبا عثمان. فَخَجِلَ الجاحظ وقال: يا أبا العَيْناء هُذه علامتي في من أَعْتَنِي به. قال: فإذا بَلَغَكَ أَنَّ صاحبي قد شَتَمَكَ فاعلم أَنَّها علامته في من شكر معروفه.

ودخل يوماً على عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر وهو يَلْعَب بالشُّطرنج فقال: في أيِّ الحَيِّزِينَ أنت؟ فقال: في حَيِّزِ الأمير أَيَّدَه الله، وغُلِبَ عبيد الله فقال يا أبا العَيْناء قد غُلِبنا وقد أصابك خمسون رطل ثلج، فقام ومضى إلى ابن ثَوَابَة وقال: إِنَّ الأمير يدعوك. فلمَّا دخل، قال: أَيَّدَ الله الأمير قد جِئْتُكَ بجبل هَمْدان وما سَبَدان ثُلجاً فحُذِّ منه ما شئت.

وكان أبو العَيْناء صديقاً لأبي الصَّقَر إِسماعيل بن بلبل وفي جُملة حاشيته وأتباعه يُدافع عنه ويُهَاجِم أعداءه. وقد وَقَعَتْ بين أبي الصَّقَر وابن ثَوَابَة الكاتب الذي تَقَدَّمَ عَبَثَ أبي العَيْناء به وحشة وَجَفَاء قبل أن يَتَقَلَّدَ أبو الصَّقَر الوزارة من المُعْتَمَد، فعَبَثَ به أبو العَيْناء ولاحاه بقوارع كلامه مُلاحاة مُفْجِمة مُقْذِعة. كان ذَلِكَ العصر حافِلاً بالشُّعراء والكَتَّاب والأُمراء وأصحاب المناصب العالِية في الدَّولة، ولم تكن العلاقات الإنسانيَّة سليمة بينهم دائماً، بل كان هنالك مجال للدَّسِّ أو الحَذَر، والتَّنَاصُر أو التَّنابُذ. ومن المُناسِب أن نَجْتلي بعض هُذه العلاقات في ذَلِكَ الجَوِّ الرَّاخِر المَوار ولا سِيَّما أَنَّ هُذه العلاقات تَمَسُّ كبار الشُّعراء المُبرِّزين في تاريخ الشُّعر العربيِّ.

أبو الصَّقَر هُذا هو الذي مدحه ابن الرُّومِيَّ بعدَّة قصائد جميلة منها قصيدته المشهورة

التي وُسِّمَتْ بدار البطيخ لكثرة ما ورد فيها من أسماء الفاكهة وقد تقدّم شطر منها في الفصل السالف مطلعها:

أَجْنَتْ لَكَ الْوَصْلَ أَغْصَانُ وَكُثْبَانُ فِيهِنَّ نَوَعَانُ تَفْصَاحُ وَرُؤْمَانُ

وكان الممدوح يَتَسَبَّبُ إلى شَيَّانٍ وَلَكِنَّ نَسْبَهُ مَغْمُوز. وقد جاء في القصيدة:
قالوا أَبُو الصَّقَرِ مِنْ شَيَّانٍ قُلْتُ لَهُمْ كَلًّا لِعَمْرِي، وَلَكِنْ مِنْهُ شَيَّانُ
كَمْ مِنْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ لَهُ شَرَفًا كَمَا عَلَا بِرَسُولِ اللَّهِ عَزْدَانُ

والبيتان من غُرَرِ المديح إِلَّا أَنَّ خَوْفَ أَبِي الصَّقَرِ مِنْ أَتْهَامِ نَسْبِهِ جَعَلَهُ لَا يَرَى
جمالهما بل وَجَدَ فِيهِمَا بَعْضَ الْإِحْرَاجِ وَإِثَارَةَ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يُقِرَّهُ مِنْ نَسْبِهِ وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ
الْإِثَارَةُ مِنْ جَانِبٍ بَعِيدٍ، فَظَنَّ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ قَدْ هَجَاهُ بِذَلِكَ بَاطِنًا وَعَرَضَ بِأَنَّهُ دَعِيَ
فَأَعْرَضَ عَنِ الشَّاعِرِ وَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ. وَسَعَى ابْنُ الرُّومِيِّ إِلَى إِفْهَامِهِ مَعْنَى الْبَيْتَيْنِ وَاسْتَرْعَى نَظْرَهُ
إِلَى بَرَاةِ الْبَيْتِ الثَّانِي فَلَمْ يَقْبَلْ. وَلَمَّا تَحَقَّقَ ابْنُ الرُّومِيِّ تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ وَأَلْفَى أَمْلَهُ الَّذِي رَجَاهُ
فِيهِ سَرَابًا وَشِعْرَهُ التَّضْيِيرَ ذَاوِيًا يَبَاقًا عَمِدَ إِلَى هِجَائِهِ. وَلَمَّا صَارَ وَزِيرًا قَالَ فِيهِ:

مَهَلًا أَبَا الصَّقَرِ فَكَمْ طَائِرٌ خَرَّ صَرِيْعًا بَعْدَ تَحْلِيْقِ
زُوجَتْ نَعْمَى لَمْ تَكُنْ كَفَاءَهَا فَصَانَهَا اللَّهُ بِتَطْلِيْقِ
لَا قُدْسَتْ نَعْمَى تَسْرِبْلَتَهَا كَمْ حُجَّةٌ فِيهَا لِرِزْدِيْقِ
وَقَدْ صَدَقَ قَالِ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ لِأَنَّ أَبَا الصَّقَرِ لَمْ يُعْتَمَّ أَنْ عَطَلَ مِنْ
الْوِزَارَةِ فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَانْتَهَبَتْ مَنَازِلَهُ.

أَمَّا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ ثَوَابَةِ فَقَدْ كَانَ مِنْ كُتَّابِ الدَّوَاوِينِ وَكَانَ مُتَحَذِّقًا
مُتَعَجِّرِفًا. وَيَدُلُّ عَلَى تَحَذُّلِهِ وَتَعَجَّرُفِهِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمَأْثُورَةُ عَنْهُ: «عَلَيَّ بِمَاءِ الْوَرْدِ
أَغْسِلْ فَمِي مِنْ كَلَامِ الْحَاجِمِ»، مَعَ أَنَّ جَدَّهُ كَانَ كَمَا يُرَوَى حَجَّامًا. وَيُظْهِرُ مَعَ هَذَا
التَّحَذُّقُ وَالتَّعَجَّرُفُ ضَعِيفَ النَّفْسِ يُطَاطِئُ لِلْأَقْوِيَاءِ. وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى الْوَحْشَةِ الَّتِي حَصَلَتْ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي الصَّقَرِ فَقَدْ سَعَى لِلْغَضِّ مِنْ أَبِي الصَّقَرِ وَالظُّهُورِ عَلَيْهِ فِي أَحَدِ الْمَجَالِسِ بَيْنَ
يَدَيِ صَاعِدِ بْنِ مَخْلَدٍ الَّذِي تَوَزَّرَ لِلْمُؤَفَّقِ أَبِي أَحْمَدَ وَهُوَ ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ. وَكَانَ أَخُوهُ الْمُعْتَمَدُ
الْخَلِيفَةُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَ الْمُؤَفَّقِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ. وَدَخَلَ أَبُو الْعَيْنَاءِ عَلَى ابْنِ ثَوَابَةِ بَعْدَ ذَلِكَ
الْمَجْلِسِ وَلاَحَاهُ فَقَالَ لَهُ ابْنُ ثَوَابَةِ: أَلَا تَعْرِفَنِي. قَالَ: بَلَى! أَعَرَفْتُ ضَيْقَ الْعَطَنِ كَثِيرَ
الْوَسَنِ قَلِيلَ الْفِطَنِ. . . قَدْ بَلَغَنِي تَعَدُّيكَ عَلَى أَبِي الصَّقَرِ وَإِنَّمَا حَلَمْتُ عَنْكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِ عِرًّا
فِيذَلِّهِ وَلَا عُلوًّا فَيَضَعُهُ وَلَا حَجْرًا فَيَهْدِمُهُ فَعَافَ لِحَمِّكَ أَنْ يَأْكُلَهُ وَسَهَكَ دَمَكَ أَنْ يَسْفِكَهُ.
فَقَالَ لَهُ: اسْكُتْ فَمَا تَسَابَّ اثْنَانِ إِلَّا غَلَبَ الْأَمَهُمَا. قَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ: فَلِهَذَا غَلَبَتْ بِالْأَمْسِ
أَبَا الصَّقَرِ فَأَسْكُتَهُ.

ولما استنزر أبو الصقر دخل عليه ابن ثوبة بواسط فوقف بين يديه ثم قال: أيها الوزير ﴿لَقَدْ أَفْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾^(١) فقال له أبو الصقر ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيَّكُمْ﴾^(٢) يا أبا العباس ثم أكرمه ولَّاه على بعض الكُوز. وقد هجا البُحترِّي بني ثوبة وبني عبد الأعلى معاً بقصيدة هزليَّة:

قِصَّة النِّيل ^(٣) فاسمعوها عجابه	إِنَّ فِي مِثْلِهَا تَطُولُ الْخَطَابِ
أَدْعَى النِّيلَ فَرَقْتَانِ تَلَا حَوَا	أَلْ عِبْدَ الْأَعْلَى وَآلِ ثَوَابِ
حَكَمَ الْعَادِلَ الْجَنِيدِي فِيهِمْ	بَصَوَابِ فَلَا عَدِنَا صَوَابِ
احْفَرُوا النِّيلَ يَا بَنِي عَبْدِ الْأَع	لَى أَثِيرُوا ضُخُورَهُ وَثُرَابِ
إِنَّ وَجَدْتُمْ فِيهِ شِبَاكَ أَبِيكُمْ	كَتَمَ دُونَ غَيْرِكُمْ أُرْيَابِ
أَوْ وَجَدْتُمْ مَحَاجِمًا إِنْ حَفَرْتُمْ	زَالَ شَكُّ الْعِصَابَةِ الْمُرتَابِ
فَبَدَتْ جُؤْنَةٌ مِنَ الْخَوْصِ فِيهَا	آلَةُ الشَّيْخِ وَهُوَ جَدُّ لُبَابِ

ولُبَابَةُ أُمُّ لَبْنِي ثَوَابَةَ لُقُبُوا بِهَا. وَرَبَّمَا أَعْجَبَ الْبُحْتَرِيَّ وَهُوَ قَلِيلُ الْهَجَاءِ حُكْمُ ذَلِكَ الْحَكَمِ بِحَفْرِ النِّيلِ فَإِنْ وَجِدْتَ فِيهِ شِبَاكَ الصَّيَادِينَ كَانَ مِنْ حَقِّ بَنِي عَبْدِ الْأَعْلَى أَوْ آلَاتِ الْحَجَّامِينَ كَانَ مِنْ نَصِيبِ بَنِي ثَوَابَةَ. وَيَقُولُ أَيْضًا فِي أَحَدِ بَيْتَيْنِ يُعَرِّضُ بَابَن ثَوَابَةَ هَذَا، مَخَاطَبًا الْقَرْيَةَ الَّتِي تَحْدَرُ مِنْهَا:

نَقَلْتُ عَنْ الْمَشَارِطِ وَالْمَوَاسِي إِلَى الْأَقْلَامِ حَالَ بَنِي ثَوَابِ

ولقد كان ابن ثوبة مُعْجَبًا بِالْبُحْتَرِيَّ خَائِفًا مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَصْلِحَهُ وَأَنْ يُطْمِعَهُ بِالْمَالِ وَيَجْتَلِبَ مَدِيحَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ وَثِيَابًا وَدَابَّةً بِسَرَجِهَا وَلِجَامِهَا فَرَدَّهُ، وَقَالَ: «قَدْ أَسْلَفْتُكُمْ إِسَاءَةً فَلَا يَجُوزُ مَعَهُ قَبُولُ صَلَاتِكُمْ»، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: «أَمَّا الْإِسَاءَةُ فَمَغْفُورَةٌ، وَالْمَعْدِرَةُ مَشْكُورَةٌ، وَالْحَسَنَاتُ يُدْهِبُ السَّيِّئَاتِ، وَمَا يَأْسُو جِرَاحَكَ مِثْلَ يَدِكَ وَقَدْ رَدَدْتُ إِلَيْكَ مَا رَدَدْتَهُ عَلَيَّ وَأَضْعَفْتُهُ، فَإِنْ تَلَا فَيَتَ مَا فَرَطَ مِنْكَ أَتُبْنَا وَشَكَرْنَا، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ احْتَمَلْنَا وَصَبَرْنَا». فَقَبِلَ مَا بَعَثَ بِهِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: «كَلَامُكَ وَاللَّهِ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِي، وَقَدْ أَسْلَفْتَنِي مَا أَخْجَلَنِي، وَحَمَلْتَنِي مَا أَثْقَلَنِي، وَسَيَاتِيكَ ثَنَائِي». ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ بِقَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا:

ضَلَّالٌ لَهَا مَاذَا أَرَادَتْ إِلَى الصَّدِّ وَنَحْنُ وَقُوفٌ مِنْ فِرَاقٍ عَلَى حَدِّ

(١) سورة يوسف ١٢ : ٩١.

(٢) سورة يوسف ١٢ : ٩٢.

(٣) النبل هنا قرية بين بغداد والكوفة. وفي ديوان البحتري التل، وهو تصحيف. انظر معجم البلدان ومعجم الأدباء أيضاً.

وقال فيه :

بَرَقَ أَضَاءُ الْعَقِيقِ مِنْ ضَرَمِهِ يُكْشِفُ اللَّيْلَ عَنْ دُجَى ظُلْمِهِ

وقال فيه بعد ذلك :

أَنْ دَعَاهُ دَاعِي الْهَوَى فَأَجَابَهُ وَرَمَى قَلْبَهُ الصَّبَا فَأَصَابَهُ
عِبَتْ مَا جَاءَهُ وَرَبَّ جَهْلٍ جَاءَ مَا لَا يُعَابُ يَوْمًا فَعَابَهُ
فازدادت صِلته له وتتابع برّه لديه حتى افترقا .

وقد مدح ابن الروميّ ابن ثوابه كذلك كما مدح البُحرانيّ أبا الصّقر .

ويروي أبو حيان التّوحيديّ في كتابه «أخلاق الوزيرين» في سنّد يوصله إلى أحمد بن الطّيب قصّة فُكاهيّة طويلة حول تعلّم ابن ثوابه للهندسة وإنكاره لها وتحرّجه منها تحرّجاً مُضحكاً للغاية . ويقول ياقوت الحمويّ في كتابه «إرشاد الأريب» بعد أن يروي تلك القصّة : « لا شكّ أن أكثر ما في هذه الرّسالة مُفْتَعَل مُزَوَّر ، وما أظنُّ برجل مثل ابن ثوابه ، وهو بمكانة من العلم بحيث تُلقى إليه مَقَالِيدُ الْخِلَافَةِ فيُخَاطَبُ عنها بلسانه القاصي والدّاني ، ويَرْضِيهِ الْعُقَلَاءُ وَالْوُزَرَاءُ بحيث لا يَرَوْنَ له نظيراً في زمانه في براعة لسانه ، تولّى كتابة الإنشاء السّنين الكثيرة ، أن يكون منه هذا كلّ . . . » ثم يقول ياقوت : « فأما ما تقدّم في حديث ابن ثوابه فهو في غاية التّجلّف . والرّجل كان أَجَلَّ من ذلك ، وإِنَّمَا أُتِيَ إِنَّمَا من جهة أحمد بن الطّيب لأنّه كان فيلسوفاً ، وكان ابن ثوابه مُتَعَجِّرفاً كما ذكرنا ، فأخذ يَسْخَرُ منه لِيُضْحِكَ الْمُعْتَضِدَ ، فَإِنَّ أَحْمَدَ بْنَ الطّيبِ كان من جُلَسَاءِ الْمُعْتَضِدِ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ أَبُو حَيَّانَ جَرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي وَضْعِ مَا أَكْثَرَ مِنْ وَضْعِهِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ ، وَاللّهِ أَعْلَمُ » .

وتدلّنا محاكمة ياقوت هذه حول صحّة الرّسالة على أنّ كثيراً من الفُكاهات كانت تُخْتَلَقُ اخْتِلافاً وَتُفْتَرَى افْتراءً أو يُبَالِغُ فيها مُبَالَغَةً كَبِيرَةً لَخَفْضِ شَأْنِ الْخُصُومِ وَالضَّحِكِ مِنْهُمْ وَالسُّخْرِيَةِ بِهِمْ . وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَسْتَهْدِفَ رَجُلٌ مُتَكَبِّراً مُتَعَاظِمَ مِثْلَ ابْنِ ثَوَابَةٍ لِأَمْثَالِ ذَلِكَ .

وقد انتهى ظَرْفُ أَبِي الْعَيْنَاءِ وَنَوَادِرِهِ إِلَى الْمُتَوَكَّلِ . وَبَلَغَهُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَالَ : لَوْلَا أَنَّهُ ضَرِيرٌ لِنَادِمْنَاهُ . فَقَالَ : إِنَّ أَعْفَانِي مِنْ رُؤْيَا الْأَهْلَةِ وَقِرَاءَةِ نَقْشِ الْفُصُوصِ صَلَّحْتُ لِلْمُنَادِمَةِ ! وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ فِي قَصْرِهِ الْمَعْرُوفَ بِالْجَعْفَرِيِّ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا تَقُولُ فِي دَارِنَا هَذِهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ النَّاسَ بَنَوْا الدُّورَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنْتَ بَنَيْتَ الدُّنْيَا فِي دَارِكَ . فَاسْتَحْسَنَ كَلَامَهُ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : كَيْفَ شُرْبِكَ لِلْخَمْرِ ؟ قَالَ : أَعْجَزَ عَنْ قَلِيلِهِ وَأَفْتَضَحُ عِنْدَ كَثِيرِهِ ، فَقَالَ لَهُ : دَعِ هَذَا عَنْكَ وَنَادِمْنَا ، فَقَالَ : أَنَا رَجُلٌ مَكْفُوفٌ ، وَكُلُّ مَنْ فِي مَجْلِسِكَ

يخدمك، وأنا مُحتاج أن أُخَدَم، ولست آمن من أن تَنْظُرَ إِلَيَّ بعين راضٍ وقلبك عليّ غضبان أو بعين غضبان وقلبك راضٍ، ومتى لم أُمَيِّزْ بين هُذَيْنِ هَلَكْتُ، فأختار العافية على التَّعَرُّضِ لِلْبَلَاءِ. فقال: بَلَّغْنِي عَنْكَ بَدْءاً في لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين، قد مدح الله تعالى وذَمَّ فقال: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١). وقال عز وجل: ﴿هَآؤُلَاءِ مَنَاجِلُ لِّلْخَيْرِ مَعْتَلٍ أَتَيْمٍ﴾^(٢)، وقال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقاً ولم أَشْتُمِ النكس اللئيم المذمماً
فقيم عرفتُ الخير والشر باسمه وشقَّ لي الله المسامع والقَمَا
قال: فمن أين أنت؟ قال: من البصرة، قال: فما تقولُ فيها؟ قال: ماؤها أجاج، وحَرُّها عَذَاب، وتَطْيِبُ في الوقت الذي تطيب فيه جهنم.

أصبحت الفُكاهة إذن سلاحاً ماضياً كالكلمة اللاذعة المُقَدِّعة المُحَكِّمة في أفواه اللّسّنين أصحاب البدية الحاضرة والعارضة المُتَوَقِّدة يَسْتَعْمِلُونَهَا بِمُخْتَلَفِ الميادين في غمرة الحياة الاجتماعية المُشْتَبِكَةِ المُعْقَّدة. فهي قد تَفْتَكُ بالخُصُوم وتَخْفُضُ من شأنهم ولو كانوا في المراتب العالية، كما صار التَّهْرِيجُ واللَّعِبُ بِالْأَلْفَاظِ وسيلة للعيش ولصِلَة الخُلَفَاء.

ومن الطَّبِيعِيِّ أن يُفَقِّشَ عن أمثال أبي العَيْنَاءِ الْأَخْبَارِيِّ المُبِينِ العارف بأساليب الكلام وجِهَاتِ تأثيره ليكون في حاشِيَةِ الخُلَفَاءِ، كما كان يعيش فيها الوُزَرَاءُ والشُّعَرَاءُ والمُضْحِكُونَ الَّذِينَ كان بعضهم لا حَظَّ لَهُ إِلَّا مَا يُمَكِّنُ أَنْ ندعوه اليوم بالتَّهْرِيجِ. وذلك كُلُّهُ يَدُلُّ على اتِّسَاعِ الحضارة في ذلك العصر.

التَّهْرِيجُ وَتَرْفُ الْفُكَاهَةِ:

وقد اشتهر في زمن المُتَوَكِّلِ أَبُو الْعَبَرِ وهو مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْهَاشِمِيُّ يَلْتَقِي نَسَبَهُ بِنَسَبِ الْخَلِيفَةِ الْمُتَوَكِّلِ وَكَانَ مُضْحِكُهُ. كان في أول أمره كما يقولُ أَبُو الْفَرَجِ مُؤَلِّفُ الْأَغَانِي «صَالِحُ الشُّعْرِ مَطْبُوعاً يَقُولُ الشُّعْرَ الْمُسْتَوِي وهو غُلامٌ إِلَى أَنْ وَلِيَ الْمُتَوَكِّلُ الْخِلَافَةَ فَتَرَكَ الْجِدَّ وَعَدَلَ إِلَى الْحُمُقِ وَالشُّهْرَةِ بِهِ، وَقَدْ نَيْفَ عَلَى الْخَمْسِينَ، وَرَأَى أَنَّ شَعْرَهُ مَعَ تَوَسُّطِهِ لَا يَنْفَقُ مَعَ مُشَاهَدَتِهِ أَبَا تَمَّامِ الطَّائِيَّ وَالْبُحْتَرِيَّ وَأَبَا السَّمُطِ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ

(١) سورة ص ٣٨ : ٣٠.

(٢) سورة القلم ٦٨ : ١١، ١٢.

ونظراءهم»^(١). ولا شك أن العوامل الاقتصادية كانت في معظم تاريخ الأدب حوافز قوية في توجيه أغراضه وتعدد مذاهبه وتفتح مواهب الشعراء والأدباء. وهنا مثل بارز على هذا التأثير. يروي مؤلف الأغاني أيضاً أن أبا العبر «كسب بالحقن أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره بالجِدِّ، ونفق نقافاً عظيماً، وكسب في أيام المُنوكل مالا جليلاً»^(٢).

حدث «الزُّبَيْر بن بَكَّار قال قال لي عُمِّي: ألا يأنف الخليفة لابن عمه هذا الجاهل ممّا قد شهّر به نفسه وفَضَحَ عِشْرَتَهُ؟ والله إنّه ليعرُّ بني آدم جميعاً فضلاً عن أهله الأدين. أفلا يزدعه ويمنعه من سوء اختياره؟ فقلت: إنّه ليس بجاهل كما تُقدّر، وإنّما يتجاهل. وإنّ له أدباً صالحاً وشعراً طيباً. ثمّ أنشدته قوله:

لا أقول الله يظلمنني كيف أشكو غير ممّهم
وإذا ما الدهر ضغضعني لم تجذني كافر النعم
قنعت نفسي بما رزقت وتناهت في العلا هممي
ليس لي مال سوى كرمي وبه أمني من العدم

فقال: ونحك! فلم لا يلزم هذا وشبهه؟ فقلت له: والله يا عمّ لو رأيت ما يصل إليه بهذه الحماقات لعدّرتّه. فإنّ ما استملحتّه له لم ينفع به. فقال عُمِّي، وقد صعب عليه هذا القول: أنا لا أعدّره في هذا ولو حاز به الدنيا بأسرها، لا عدّرتني الله إن عدّرتّه إذن»^(٣).

وتذكّر كُتُب الأدب القديم مشهداً غريباً، وهو أن البُحتريّ دخل على الخليفة المُنوكل فأنشده مُختالاً مزهُواً قصيدته الجميلة التي مَطَّلَعها:

عن أيّ ثغر تبسّم وبأيّ طَرَف تحنّكـم

فعرّض له أبو العنيس الصّيمريّ نديم المُنوكل وعارض برضا الخليفة قصيدته تلك بأبيات ماجنة على البحر والرّويّ أنفسهما سخّر فيها من الشّاعر الكبير وأفحش له في القول، فاستخزي الوليد وخرج وضحك الخليفة والحضور منه، ونال الجائزة أبو العنيس. ولا ندري أكان أبو العبر حاضراً ذلك المشهد أم لهج به النّاس وتراعى إلى سمعه. ولكنّ أبا الفرج يورد حواراً يلوم فيه أبو العنيس أبا العبر على سُخْفه وتحمّقه، فيذكّره أبو العبر

(١) (٢) الأغاني ج ٢٣ دار الثقافة ببيروت ١٣٨٠ - ١٩٦١ ص ٧٦ - ٨٦ وكذلك «أشعار أولاد الخلفاء» من كتاب «الأوراق» للضوليّ، وبين روايات هذين الكتابين تشابه كبير حتى ليكاد اللفظ يكون واحداً.

(٣) المَرَج نفسه.

سلوكه المضحك مع البحتري، وأنه لولا السلوك المزري لاستحال عليه أن يكون نداءً لذلك الشاعر أو أن يُقدّم عليه. فكان الرقاعة والمُجون كانت لهما سوق رائجة. ولا عَجَب في ذلك، فنحن نعلم اليوم أنَّ المُمثِّل الهزلي في المسرح والسِّينما يكسب أكثر من غيره.

كان أبو العَبَر ماهرًا في كلِّ مجال يصف أحمد بن جعفر جحظة وهو من أساتذة أبي الفرج الأصفهاني أبا العَبَر فيقول: «لم أرَ قطُّ أخفظ منه لكلِّ عين، ولا أجود شعراً، ولم يكن في الدنيا صناعة إلا وهو يعملها بيده. ولقد رأيته يعجن ويخبز»^(١).

كان المُتوكِّل يَعْبَث به، كان «يرمي به في المُنجنق إلى الماء وعليه قميص حرير. فإذا علا في الهواء صاح: الطريق الطريق، ثمَّ يقع في الماء فيُخرجه السُّباح»، «وكان المُتوكِّل يُجْلِسُه على الزَّلَاقَة فيَنَحْدِر فيها حتى يقع في البركة، ثمَّ يَطْرَح الشبكة فيُخرجه كما يُخرَج السَّمَك... ففي ذلك يقول في بعض حماقاته:

ويأمر بي الملك فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشبك كأني من السمك
ويضحك كك كك كك كك كك كك كك كك^(٢)

تعرّض مرّة للخليفة، والخليفة، «مُشْرِف على مظهر في قصره الجعفري، وقد جعل في رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خُفًا وقد جعل سراويله قميصاً وقيمه سراويل، فقال: عليّ بهذا المثلة، فدخل عليه، فقال: أنت شارب؟ قال: ما أنا إلا عَنفَقَة، قال: إنني أضع الأذهم في رجليك وأنفيك في فارس، قال: ضَع في رجلي الأشهب وأنفي إلى راجل. قال: أتراني في قَتْلِكَ مأثوم؟ قال: بل ماء بصل يا أمير المؤمنين، فضحك ووصّله»^(٣).

وكان أبو العَبَر يَتَعَمَّد «المقلوب رقاعة ومجانة»^(٤). لهذا أسلوبه في الهزل حتى في الكتابة. كتب لبعض أصحابه: «أما قبل فأحكِم بُنيانك على الرَّمْل واخسِ الماء في الهواء حتى يَغْرَق النَّاس من العطش. فإنَّك إذا فعلت ذلك أمرتُ لك كلَّ يوم بسبعة آلاف درهم ينقُص كلُّ درهم سبعة دنانيق، وكتب يوم إلا تسعاً لخمس وأربعين ليلة خلَّت من شهر ربيع الأوسط سنة عشرين إلا مائتين»^(٥). ولا نستغرب في جوِّ تلك الحضارة أن يكون ثمة

(١) إرشاد الأريب لياقوت وهو المشهور بمُعْجَم الأَدَباء، دار المأمون ج ١٧ ص ٤١ وما يليها. ويورد ياقوت لأبي العَبَر أبياتاً رقيقة. وهي في زهر الآداب منسوبة إلى علي بن جبلة. وتجده لأبي العَبَر ترجمته في «طبقات الشعراء» لابن المعتز و«فوات الوفيات» للكثيري.

(٢) الأغاني، المَرَجع المذكور آنفاً، والأبيات من مجزوء المُتقارب وعروضه هنا ضرابها محذوف وأبتر.
(٣) (٤) (٥) جَمع الجواهر أو ذيل زهر الآداب ص ٦٦ والعَنفَقَة شعرات بين الشَّفَة السفلى والذَّقْن، ويريد =

من يُدْرَس الهَزْل ويُعَلِّمُه. قال أبو العَبَر: «كُنَّا نَخْتَلِفُ ونحن أحداث إلى رجل يُعَلِّمُنَا الهَزْل، فكان يقول: أَوَّل ما تُريدون قلب الأشياء. فكُنَّا نقولُ إذا أصبح: كيف أَمْسَيْتَ؟ وإذا أَمْسَى: كيف أَصْبَحْتَ؟ وإذا قال: تعال، نَتَأَخَّر إلى خَلْف. وكانت له أرْزاق تُعْمَل كتابتها في كُلِّ سنة، فعمل مرَّة وأنا معه الكتاب، فلمَّا فرغ من التَّوْقِيع وَبَقِيَ الخَتْم قال: أَتَرَبِّه وَجِئْتَنِي بِهِ، فمضيتُ فَصَبَّيْتُ عليه الماء فَبَطَلَ، فقال: ويحك ما صنعتَ؟ قلت: ما نحن فيه طوال النَّهَار من قلب الأشياء! قال: والله لا تَصْحَبَنِي بعد اليوم، فأنت أستاذ الأُستاذين»^(١).

ولا عَجَب أن يحصل هذا التَّهْرِيجُ وأمثاله في حضارة بلغت الغاية في التَّرَف والْبَذْخ. رَوَى صاحب نشوار المحاضرة قصَّة تدلُّ على بَلْخ المُتَوَكِّل، من المفيد ذكرها هنا، وهي أَنَّهُ «اشتَهَى أن يجعل كُلَّ ما يقع عليه عينه في يوم من أَيَّام شربه أَصفر فنُصِبَتْ له قُبَّة صُنْدُل مُذهَّبة مُجَلَّلة بدِيَّاج أَصفر مَفروشة بدِيَّاج أَصفر وجعل بين يديه الدَّسْتَنُبو والأُتْرَج الأَصفر وشراب أَصفر في صواني ذهب، ولم يحضر من جواريه إلا الصَّفر، عليهم ثياب قَصَب صفر، وكانت القُبَّة منصوبة على بركة مُرْصعة يجري فيها الماء، فأمر أن يُجْعَلَ في مجاري الماء إليها الزُّعْفَران على قدر ليَصْفَر الماء ويجري من البركة، ففعل ذلك، وطال شربه، فنَقِد ما كان عندهم من الزُّعْفَران، فاستعملوا العصفور ولم يُقَدِّروا أَنَّهُ ينفد قبل سُكْرِهِ فَيَشْتَرُوا، فنَقِد، فلمَّا لم يبقَ إِلَّا قليل عَرَفُوهُ وخافوا أن يَغْضَبَ إِنْ انْقَطَعَ ولا يُمَكِّنْهُمْ قِصَر الوقت من شَرَى ذلك من السُّوق، فلمَّا أَخْبَرُوهُ أَكْثَر لَمْ يَشْتَرُوا أمراً عظيماً، وقال: الآن إِنْ انْقَطَعَ هَذَا تَنَغَّصَ يومي، فحُدُوا الثِّيَاب المُعْصَفرة بالقَصَب فانْقَعَوْها في مجرى الماء ليَصْبِغ لونه بما فيها من الصَّيْغ. ففعل ذلك، ووافق سُكْرَهُ مع نفاذ كُلِّ ما كان في الخزائن من هذه الثِّيَاب، فحُسِبَ ما لَزِمَ على ذلك (من) الزُّعْفَران والعُصْفُر ومن الثِّيَاب التي هَلَكَتْ فكان خمسين ألف دينار»^(٢).

الفُكاهة لدَعْم الآراء والمذاهب:

إذا غَدَّت الفُكاهة والنَّادرة سِلَاحاً فلا بدَّ من أن تُسْتَعْمَلَ لتأييد فِكْرة ودَعْم مذهب

الخليفة أن يقولَ ماثُوماً؟ وكانوا يَلْحَنُونَ. فحَرَّفَهَا أبو العَبَر ماء ثوم. يقالُ في اللُّغة آثم وماثُوم. والدَّائِق سُدُس الدَّرْهِم.

(١) المَرَجِع نفسه.

(٢) ج ١، ص ١٤٦، ١٤٧. والدَّسْتَنُبو أو الدَّسْتَنُبوِي وقد تُهْمَل التَّوْن يُطْلَق على شيئين: أحدهما نوع من البَطِيخ يُعْرَف بالسَّمَام وباللُّفَاح مستدير مُخطَّط بحمرة وصفرة، والثَّاني جنس من صِنَار الأُتْرَج يقال له سَمَام الأُتْرَج، كما ذكر ابن البيطار ورَبِّمَا كان هذا هو المراد هنا.

من المذاهب. وعندنا على ذلك أمثلة كثيرة نحب أن نذكر بعضها ممّا يُظهر هذا الاتجاه ويوضحه. ولعلّ أبرز مَنْ بَرَعَ في ذلك القاضي أبو عليّ المحسن بن عليّ التَّنُوخِي^(١) (٩٣٩/٣٢٧ - ٩٩٤/٣٨٤). ولنستمع إلى بعض أحاديثه الطريفة التي تدعّم ما يراه وما يعتقده.

«حدّثني محمّد بن الفضل بن حميد الصّيمريّ مؤدّبني قال: كان في بلدنا عجزو صالحه كثيرة الصّيام والقيام، وكان لها ابن صيرفيّ مُنهمك على الشّرب واللّعب، وكان يتشاعل بدكّان أكثر نهاره، ثمّ يعود عشيّاً إلى منزله، فيخبّي كيسه عند والدته، ويمضي فيبيت في مواضع يشرب فيها. فعين بعض اللّصوص على كيسه ليأخذه وتبعه في بعض العشايا ودخل وراءه إلى الدّار وهو لا يعلم، فاخفى بها، وسلّم هو كيسه إلى أمّه وخرج، وبقيت وحدها في الدّار، وكان لها في دارها بيت مؤرّر بالسّاج إلى أكثر حيطانه، عليه باب حديد، تجعل قماشها وكلّ ما تملكه فيه والكيس، فخبّأت الكيس في تلك اللّيلة خلف الباب، وجلست وأفطرت بين يديه، فقال اللّصّ: هذه السّاعة تُفطر وتكسل وتنام وأنزل فافتح الباب وأخذ الكيس والقماش. قال: فلما أفطرت قامت إلى الصّلاة، ففطن اللّصّ أنّها تُصليّ العتمة وتنام، فانتظرها، فمدّت الصّلاة، وتطاول عليه الأمر، ومضى نصف اللّيل. وتحيّر اللّصّ ممّا نزل، وخاف أن يدركه الصّبح ولا يظفر بشيء، فطاف في الدّار، فوجد إزاراً جديداً، وطلب جمرأ فظفر به، ووقع في يده شيء كان له دخنة طيبة، فلبس الإزار، وأشعل ذلك البخور، وأقبل ينزل على الدّرجة، ويصيح بصوت غليظ، ويعمد أن يجعله جهورياً لتفزع العجزو، وكانت معتزليّة جليّة، ففطنت لحركته وأنّه لصّ فلم تره أنّها فطنت، وقالت: من هذا؟ بارتعاد وفزع شديد. فقال لها: أنا رسول الله ربّ العالمين، أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعامله بما يمنعه من ارتكاب المعاصي. فأظهرت أنّها قد ضعفت وغشيّ عليها من الجزع، وأقبلت تقول: يا جبريل! سألتك بالله إلّا رقت به فإنّه واحدي. فقال اللّصّ: ما أرسلتُ لقتله. فقالت: فماذا تريد وبم أرسلت؟ قال: لأخذ كيسه وأولم قلبه بذلك، فإذا تاب ردّدته إليه. فقالت: شأنك يا جبريل وما أمرت. فقال: تنحّي من باب البيت، فتنحّت، وفتح هو الباب، ودخل ليأخذ الكيس والقماش واشتغل في تكويره، فمشت العجزو قليلاً قليلاً، وجذبت الباب بحميّة فردّته، وجعلت الحلقة في الرّزة، وجاءت بقفل فأقفلته، فنظر اللّصّ إلى الموت

(١) ياقوت في معجم الأدياء يذكّر ولادته في سنة ٣٢٩، ويجري عليها بروكلمان. وابن خلكان يذكّرها في سنة ٣٢٧ ويجري عليها الزركلي ويستفاد من شدّرات الذهب أنّها سنة ٣٢٧.

بعينه، ورام حيلة في داخل البيت في نقب أو متنفذ، فلم يجدها، فقال لها: افتحي الباب لأخرج، فقد انتعظ ابنك. فقالت يا جبريل! أخاف أن أفتح الباب فتذهب عيني من ملاحظتي لنورك. فقال: إني أطفئ نوري حتى لا تذهب عينك. فقالت: يا جبريل، إنك رسول رب العالمين! لا يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك وتخرج، فلا تُكلّفني أنا التفرير ببصري. فأحسّ اللصّ بأنها جلدّة، فأخذ يرفق بها ويُدّارِها ويبدّل التوبة. فقالت له: دغ ذا عنك، فلا سبيل إلى الخروج إلاّ بالنّهار. وقامت تُصلّي، وهو يَهْدِي ويسألها، وهي لا تجيبه حتى طلعت الشمس، وجاء ابنها فعرف خبرها، وحدثته بالحديث، فمضى وأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب وقبض على اللصّ^(١).

ثمّ يذكر القاضي التّوخيّ أمراً يتعلّق بترية الأولاد فيقول: «سمعت جماعة من أصحابنا يقولون: من بركة المعتزلة أن صبيانهم لا يخافون الجنّ»^(٢) ويسرد كذلك القصة الطّريفة: «وحكي لنا أن لصاً حصل في دار لمعتزليّ، فأحسّ به، فطلبه، فنزل إلى بئر في الدّار، فأخذ الرّجل حجراً عظيماً ليذليه عليه، فخاف اللصّ الثّلف، فقال له: اللّيل لنا، والنّهار لكم، يؤمّمه أنّه من الجنّ. فقال له المعتزليّ: فَرَنْ معي نصف الأجرة. ورمى بالحجر فهشّمه، فقال له: متى يأمن أهلك من الجنّ؟ فقال المعتزليّ: دغ ذا عنك واخرج. فخرج وخلاه»^(٣).

ولما استبان لنا آثار أفكار المعتزلة عند العجائز والأطفال والرّجال كما يروي القاضي التّوخيّ فلا علينا أن نرى في المقابل تصوّف الزّاهدين والعباد من أتباع المذاهب الأخرى. يذكّر القاضي التّوخيّ أيضاً في كتابه «نشوار المحاضرة» القصة الآتية:

«حدّثني أبي قال: كان عندنا بجبل أنطاكية المعروف بجبل اللّكام رجل يتعبّد يُقال له أبو عبد الله المزبليّ، وسُمّي بذلك لأنّه كان بالليل يدخل إلى البلد فيتبّع المزابل فيأخذ ما يجده منها فيغسله ويقتاته، لا يعرف قوّاً غير ذلك وأن يتوغّل في جبل اللّكام فيأكل من الأثمار المُباحة فيه، وكان صالحاً مُجتهداً إلاّ أنّه كان حشويّاً^(٤) غير وافر العقل،

(١) جامع التّواريخ المُسمّى نشوار المحاضرة وأخبار المُذاكرة ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٤.

(٢) المَرَجع نفسه، ص ٢٧٤.

(٣) المَرَجع نفسه، ص ٢٧٤. ومعنى فَرَنْ معي نصف الأجرة: ادفع معي نصف أجرة البيت ما دمت تسكّن معنا في اللّيل، وذلك أن دفع العُملة كان يقوم على وزنها.

(٤) للحشويّة عدّة دلالات منها ما كان يُطلقه المعتزلة على السّلفيّة من أهل الشّنة.

وكانت له سوق عظيمة في العامة بأنطاكية، وكان بها موسى بن الزكوري صاحب المَجُون والصَّفير في شعره والحماقات، وكان له جار يَغشى المزابلي، فَجَرى بين موسى بن الزكوري وجاره ذاك شرًّا، فشكاه إلى المزابلي، فلَعَنه المزابلي في دُعائه، وكان النَّاس يَقصدونه في كلِّ يوم جمعة غُذوة، فَيَتَكَلَّم عليهم ويدعو، فلمَّا سمعوا لَعنه لابن الزكوري جاء النَّاس إلى داره أرسالاً لقتله، فَهَرَب ونُهَبَت داره وطلَبته العامة فاستتر، فلمَّا طال استتاره قال: إِنِّي سأحتال على المزابلي بحيلة أتخلَّص منه بها فأعينوني. فقلت: ما تريد؟ فقال: أعطوني ثوباً جديداً وشيئاً من النَّذِّ والمسك ومَجْمرة وناراً وغلماً يُؤنسني اللَّيلة في الطَّرِيق إلى الجبل. قال أبي: فأعطيته ذلك كلَّه. فلمَّا كان في نصف اللَّيل مضى وخرج الغلمان معه إلى الجبل حتى صعد فوق الكهف الذي يأويه المزابلي، فَبَخَّر بالنَّذِّ والمسك، فدَخَلت الرِّيح إلى كهف أبي عبد الله، وصاح بَحَلق عظيم: يا أبا عبد الله المزابلي! فلمَّا سَمَّ تلك الرَّائحة، وسمع الصَّوت أنكرهما، فقال: ما لك؟ عافاك الله، ومن أنت؟ فقال ابن الزكوري: أَنَا الرُّوح الأمين، جبريل رسول ربِّ العالمين، أرسلني إليك. فلم يَشْكُ المزابلي في صِدْق القول، فأجهش بالبكاء والدُّعاء، وقال يا جبريل من أنا حتى يُرْسِلَك ربُّ العالمين إليَّ؟ فقال: الرَّحْمَن يُقرِّئك السَّلام ويقولُ لك: موسى بن الزكوري غدا رفيقك في الجَنَّة. فصَعِق أبو عبد الله وسمع صوت الثَّياب، وقد كان خرج فرأى بياضها. فتركه موسى ورجع. فلمَّا كان من الغد كان يوم جمعة، فأقبل المزابلي يُخبر النَّاس برسالة جبريل، ويقولُ: تَمَسَّحوا بابن الزكوري، واسألوه أن يجعلني في حِلٍّ، واطلبوه لي، فأقبل العامة أرسالاً إلى دار ابن الزكوري يَطْلُبونه لِيَتَمَسَّحوا به وَيَسْتَحِلُّوه للمزابلي، فظهر وأمن على نفسه^(١).

وفي كتاب «أخلاق الوزيرين» لأبي حيَّان التَّوحيدي أمثلة مُتعدِّدة من هذا النَّوع يَتَنَاول نحلة أو رأياً فيضعه مَوْضِع التَّفَكُّه تجريحاً وخَفَضاً أو رفعاً ونَهَضاً. يروي المؤلِّف قال: «حدَّثني العتابيُّ قال، قال قوم من أهل أصفهان لابن عُبَّاد: لو كان القرآن مَخْلوقاً لجاز أن يموت، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نُصَلِّي التَّراويح في رمضان؟ فقال: لو مات القرآن كان رمضان أيضاً يموت، ونقول: لا حياة بعدك ولا نُصَلِّي التَّراويح ونستريح»^(٢).

(١) ج ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) تحقيق الأستاذ محمَّد الطَّنْجِي وطَبَعَ المجمع العلمي بدمشق، ص ٢٥١، ٢٥٢، وقد أشار المُحقِّق إلى ورود النَّادرة نفسها في طبقات الشُّبكي ١/ ٢٢٠ منسوبة لعبادة المُخَنَّث.

ويبرز من هذه الفكاهة شعور جَمَهَرَة المسلمين بمسألة القول بخلق القرآن. وهي التي أثارها المعتزلة، تُعرَض هذا المعرض في مجلس الصّاحب بن عبّاد المُعتزليّ.

وفي «رسالة الغفران» سُخرية بكثير من الآراء والنحل وعُغِز في طائفة من المُفكرين والأعلام. وإذا ذَكَر المعريّ التّناشُخ رَوَى بيتين لرجل من النّصيرّة:
 اعْجَبِي أَمَّنَّا لَصَرَف اللَّيَالِي جُعِلَتْ أَخْتُنَا سُكِينَة فَارَه
 فَاذْجُرِي هَذِهِ السَّنَائِير عَنْهَا وَاتْرُكِيهَا وَمَا تَضُمُّ الْغِرَارَه
 كما يروي لآخر منهم:

تَبَارَكَ اللَّهُ كَاشِفَ الْمَحَن حَمَار شَيْنَان شَيْخ بِلْدَتْنَا
 بُدِّلَ مِنْ مَشِيهِ بِحُلَّتِهِ فَقَدْ أَرَانَا عَجَائِبَ الزَّمَن
 صُيِّرَ جَارُنَا أَبُو السُّكَن مَشِيَهُ فِي الْحِزَامِ وَالرَّسَن

ولقد هاجم رَهِينَ المَحْبَسِينَ الْمُتَصَوِّفَة مُهَاجِمَة شديدة في مَوَاضِع شَتَّى من آثاره شعراً ونثراً. أليس يضحك من دعواهم وقلة تواضعهم حتى في الاسم حين يقول في لزوميّاته؟

صُوفِيَّة مَا رَضُوا لِلصُّوفِ نَسَبَتَهُمْ حَتَّى ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مِنْ طَاعَةِ صُوفُوا
 تَبَارَكَ اللَّهُ دَهْرَ حَشْوِهِ كَذِبَ فَالْمَرْءُ مِمَّا بَغِيرَ الْحَقِّ مُوصُوفُ
 إِنْ أَمَرَ الْغُصْنَ فَامْتَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَ تَجْنِيهِ ظُلُمًا فَلَيْتَ الْغُصْنَ مَقْصُوفُ

وربما كان هذا القول ردّاً على أبي الفتح البُستيّ المتوفّى سنة ٤٠٠ هـ. ١٠١٠ م والقائل:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا قَدِمًا وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
 وَلَسْتُ أَنْحِلَ هَذَا الْوَصْفَ غَيْرَ فِتْنَى صَافِي فَصُوفِي حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي
 والمعريّ تُوَفِّي سنة ٤٤٩ هـ، ١٠٥٧ م.

ويقول صاحب اللزوميّات:
 زَعَمُوا بِأَنَّهُمْ صَفُوا لِمَلِكِهِمْ كَذِبُوكَ مَا صَافُوا وَلَكِنْ صَافُوا
 شَجَرَ الْخِلَافِ قُلُوبَهُمْ وَيَحْ لَهَا غَرْضِي خِلَافَ الْحَقِّ لَا الصِّفْصَافِ
 ويقول أيضاً:

لَوْ كَتَمَ أَهْلُ صَفَرٍ قَالِ نَاسِبَكُمْ صَفُوفِيَّةٌ فَاتَى بِاللَّفْظِ مَا قَلْبَا
 جَنْدٌ لِإِبْلِيسَ فِي بَذْلَيْسِ آوَنَةِ وَتَارَةً يَحْلِبُونَ الْعَيْشَ فِي حَلْبَا

طلبتم الزّاد في الآفاق من طمع
ولكنّه يَستدرِك فيستحي:

ولست أعني بهذا غير فاجركم
كالشمس لم يدن من أضوائها دَنَس

وهو يَتَبَرَّأ منهم:

ما وُفّقوا حسبوني من خيارهم
أمّا إذا ما دعا الدّاعي لمَكْرُمة
كم يَنشُدون صفاء من ديانتهُم

وإذا افْتَحَرُوا بلباس الصُّوف فهو يكتفي بلباس القطن وَيَسْتَكْبِرُهُ:
نحن قُطْنِيَّة وصُوفِيَّة أُنْ
حاطني خالقي فِعِثْتُ ولولا
جسدي خِرْقَةٌ تُخاط إلى الأر
تم فقطني^(١) من التَّجَمُّل فطني
خوفه قُلْتُ ليتَه لم يَحْطِني
ض فيا خائط العوالم يَحْطِني

وهو في «رسالة الغفران» يطعن في الحلاج ويضحك منه في أبيات ينسبها إلى فتى
كان في زمن الصُّوفيّ المشهور:

إن يكن مذهب الحُلُول صحيحاً
عرَضْتُ في غِلالة بطراز
زَعَمُوا لي أمراً وما صحَّ لكن
فإلهي في حرمة الزُّجَّاج
بين دار العَطَّار والثَّلَّاج
هو من إفك شيخنا الحَلَّاج

وكذلك يَتَهَكَّم بالحلاج في أبيات أخرى يعزوها إلى بعضهم، وربما كان هو الذي
وضعها مُعارضة وتَهَكُّماً:

أنا أنست بلا شك
واسخاطك إسخاطي
ولم أجَلِدْ يا ربّي
فُسُبحانك سُبْحاني
وغُفرانك غُفراني
إذا قيل هو الزَّانِي

ولكنّ الشّاعر الفيلسوف الكبير إذا ضحك وتَهَكَّم في بعض الأحيان فمن وراء ذلك
قلبه الكبير ورثاؤه العميق:

شَقِينَا بِدُنْيَانَا على طُول وُدِّهَا
فدُونك مارِسُهَا حياتك واشقَّهَا

(١) فقطني: فحسبي.

ولا تُظهِرَنَّ الزُّهْدَ فِيهَا فَكُنَّا شَهِيدَ بَأْنِ الْقَلْبِ يُضْمِرُ عَشْقَهَا^(١)
وفي «نشوار المحاضرة» قَصَصَ مُتَعَدِّدَةً غَايَتَهَا أَنْ تَفْضَحَ الْمُتَصَوِّفَةُ وَأَنْ تَنْقُصَ زَعِيماً
كَبِيراً فِيهِمْ هُوَ الْحَلَّاجُ أَيْضاً.

وقد كتب الإمام ابن الجَوْزِيِّ كتابه المشهور «تلييس إبليس» قَصَرَ أَكْثَرَهُ عَلَى مُهَاجِمَةِ
الصُّوفِيَّةِ مِنْ وَجْهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، جَاءَ فِيهِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:
أَرَى جِيلَ التَّصَوُّفِ شَرَّ جِيلٍ فَقُلْ لَهُمْ وَأَهْوَنُ بِالْحُلُولِ
أَقَالَ اللَّهُ حِينَ عَشِقْتُمُوهُ كُلُّوْا أَكُلَ الْبَهَائِمِ وَازْقَصُوا لِي
وَيَنْسَبُ يَاقُوتُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ إِلَى الْمَعْرِيِّ.

قال ابن الجَوْزِيِّ: قال ابن عَقِيلٍ، وَالنَّاسُ يَقُولُونَ إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ خَرَابَ بَيْتِ تَاجِرٍ
عَاشَرَ الصُّوفِيَّةَ، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُ، وَخَرَابَ دِينِهِ.

وفي كُتُبِ الْأَدَبِ نَوَادِرُ مَوْضُوعَةٍ عَلَى الصُّوفِيَّةِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: قُلْتُ لَصُوفِيٍّ بِغَنِي
جُبَّتِكَ، فَقَالَ: إِذَا بَاعَ الصَّيِّادُ شَبَكْتَهُ فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَصِيدُ؟.

وَلَقَدْ اشْتَدَّ أَمْرُ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي بَعْضِ الْعُصُورِ وَصَارَ التَّصَوُّفُ شِعَاراً لِلْكَثِيرِينَ حَتَّى
الْجُهْلَاءِ. وَلِلذَلِكَ لَا نَسْتَغْرِبُ أَنَّ نَجِدَ فَرِيقاً مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ يَغْمِزُونَ فِيهِمْ كَلِّمَا تَيْسَّرُ
لَهُمْ ذَلِكَ. أَنَشِدَ أَبُو حَيَّانَ التَّخَوِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي جَاهِلِ لَيْسَ صَوْفاً وَزَهْداً:
أَيَا كَاسِيَاً مِنْ جَيْدِ الصُّوفِ نَفْسَهُ وَيَا عَارِيَاً مِنْ كُلِّ فَضْلٍ وَمِنْ كَيْسٍ
أَتَزْهَى بِصُوفٍ وَهُوَ بِالْأَمْسِ مُضْبِحٍ عَلَى نَعْجَةٍ وَالْيَوْمِ أَمْسَى عَلَى تَيْسٍ
وَيَقُولُ نَجْمُ الدِّينِ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ صَابِرِ الْمَنْجَنِيْقِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ سِتٍّ وَعَشْرِينَ
وَسِتْمِائَةَ:

(١) فِي نَفْسِ الْمَعْرِيِّ مَرَارَةٌ عَمِيقَةٌ وَتَنْدِيدٌ شَدِيدٌ بِالْحَيَاةِ وَبِمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا. وَلَا نَسْتَغْرِبُ تَهَكُّمَهُ مِنْ
قَضِيَّةٍ دِيَّةٍ الْيَدِ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ حِينَ يَقُولُ:

تَنَاقُضُ مَا لَنَا إِلَّا الشُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
يَدُ بِخَمْسٍ مِثْلِينَ عَشْرًا قُدِيدَتْ مَا بِهَا قُطِعَتْ فِي رِبْعِ دِينَارٍ
وَرَبِمَا كَانَ عَدَمُ زَوْاجِهِ سَبَباً فِي إِغْفَالِهِ قِيَمَةَ الْكَيْفِيَّةِ، وَالْحُبُّ يَرِيزُ هَذِهِ الْقِيَمَةَ، وَسَبَباً فِي تَعْلِيْقِهِ أَهْمِيَّةَ
كَبِيرَةٍ عَلَى الْكَمِيَّةِ. وَقَدْ رَدَّ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ عَلَى بَيْتِهِ ذَلِكَ:

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي
وَلَقَدْ كَانَ الْمَعْرِيُّ مُشْفَقاً عَلَى الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ قَدْ يَضْطَرُّونَ لِلسَّرْقَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ الْمَضْطَرِبِّ.

قد لَبَسُوا الصُّوفَ لِتَرْكِ الصَّنْفَا مشايخ العصر لَشُرْبِ العَصِيرِ
وَقَصَّروا لِلْعِشْقِ أَثْوَابَهُمْ شَرُّ طَوِيلٍ تَحْتَ ذِيلٍ قَصِيرِ
وَيُرَوَّى أَنَّ الْإِمَامَ ابْنَ تَيْمِيَّةَ (١٢٦٣/٦٦١ - ١٣٢٨/٧٢٨) كَانَ يُنْشِدُ عَلَى لِسَانِ
الْفُقَرَاءِ جَمَاعَةَ الطُّرُقِ:

وَاللَّهُ مَا فَقَرُنَا اخْتِيَارَ وَإِنَّمَا فَقَرُنَا اضْطِرَارَ
جَمَاعَةَ كُلَّنَا كُسَالَى وَأَكَلْنَا مَالَهُ عِيَارَ
تَسْمَعُ مِنَّا إِذَا اجْتَمَعْنَا حَقِيقَةَ كُلِّهَا فُشَارَ

ولكنَّ أكثرَ ذلك من باب الهجاء يَخْلِطُ التَّصَوُّفَ الْحَقِيقِيَّ بِالتَّصَوُّفِ الْكَاذِبِ. ولقد
نَوَّه الصُّوفِيَّةُ بِفَضِيلَةِ الْجُوعِ. كان الجنيد «يقول: ما أَخَذْنَا التَّصَوُّفَ عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالَ وَلَكِنْ
عَنِ الْجُوعِ وَتَرَكَ الدُّنْيَا وَقَطَعَ الْمَالُوفَاتِ وَالْمُسْتَحْسَنَاتِ»^(١) وقد ضحكوا هم أنفسهم حتى
من الذين يَأْكُلُونَ أَكْلًا طَبِيعِيًّا وَهُوَ ثَلَاثُ أَكَلَاتٍ فِي الْيَوْمِ، قِيلَ لَسَهْلَ بَنِ عَبِيدِ اللَّهِ: «الرَّجُلُ
يَأْكُلُ فِي الْيَوْمِ أَكْلَةً، فَقَالَ: أَكَلْتُ الصَّدِيقَيْنِ، قَالَ فَأَكَلْتَيْنِ قَالَ: أَكَلْتُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ:
ثَلَاثَةً، قَالَ: قُلْ لَا هَلَكَ يَبْنُونَ لَكَ مَغْلَفًا»^(٢).

الْمُغْفَلُونَ الْكِبَارُ وَتَفَاوُتُ الْحِظُوظُ:

وَكُلُّ عَصْرٍ فَلَا يَخْلُو مِنْ بَعْضِ الْمُغْفَلِينَ. واشتهر في عصر من عصور العهد العباسي
ابن الجصاص الجوهريُّ التَّاجِرُ الْمَشْهُورُ وَالْمُثْرِيُّ الْكَبِيرُ^(٣) وَهُوَ الَّذِي التَّجَأَ إِلَى بَيْتِهِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بِعَدِّ أَنْ خُلِعَ الْمُقْتَدِرُ وَقَامَ فِي الْخِلَافَةِ يَوْمِينَ غَيْرَ تَامَيْنِ ثُمَّ اضْطَرَبَ حَبْلُهُ
فَهَرَبَ إِلَى دَارِ ابْنِ الْجَصَّاصِ فَأُخْرِجَ مِنْهَا. وَلَا عَجَبَ أَنْ يَكُونَ ابْنُ الْجَصَّاصِ مِنْ كِبَارِ
الْمُثْرِينَ وَالْوُجَهَاءِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَهُوَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَفْلَةِ، لِأَنَّ تَوَزِيعَ الثَّرْوَةِ كَانَ
مُخْتَلًا. وكثير من الثُّرَاثِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ كَانَ أُسَاسُهُ اقْتِصَادِيًّا. هَذَا كُلُّهُ مَعَ نُشُوءِ طَبَقَاتِ
اِقْتِصَادِيَّةٍ وَقَوْمِيَّةٍ عِرْقِيَّةٍ مُتَشَادَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ. وَقَدْ قَوِيَتْ طَبَقَةُ الْفُرْسِ الَّذِينَ كَانُوا
يَمْلِكُونَ الدَّوَاوِينَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ بَدَأَتْ تَقْوَى وَتَظْهَرُ طَبَقَةُ الثُّرَكَ الَّذِينَ اعْتَمَدَ عَلَيْهِمْ

(١) رسالة القشيريِّ، ترجمة الجنيد، طبعة ١٩٤٠ ص ٢٠.

(٢) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ٧٣. هَذَا وَالْحَلَّاجُ مِنَ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِقِلَّةِ الْأَكْلِ، يَمْضِي الشَّهْرُ وَلَا يَذُوقُ شَيْئًا.
وَقَدْ رَوَى الْقَاضِي التَّنُوخِيُّ فِي نَشْوَارِ الْمَحَاضِرَةِ عَنِ الْقَصْرِيِّ غُلَامِ الْحَلَّاجِ كَيْفَ كَانَ هَذَا التَّلْمِيزَ
يَحْتَالُ عَلَى قِلَّةِ الْأَكْلِ لِنَفْسِهِ فِي قِصَّةِ طَرِيفَةٍ ج ١ ص ٨٠، ٨١.

(٣) كَانَ بَيْنَ بَنِي مُرَّوَانَ مُعَاوِيَةَ بْنِ مُرَّوَانَ أَخُو عَبْدِ الْمَلِكِ مُغْفَلًا تَجَدُّ بَعْضُ نَوَادِرِهِ فِي ذَيْلِ زَهْرِ الْآدَابِ
ص ١٦٤.

المُعْتَصِم في الجيش والذين سُرْعان ما طَمَحُوا إلى تَسْيِير دَفَّة الحُكْم كما يشتهون. وكان الخليفة العَبَّاسِيُّ القَوِيُّ هو الذي يُقِيم التَّوَاژُن بين هاتين الطَّبَقَتَيْنِ المُتَشَادَتَيْنِ في غِمار الشَّعْبِ العَرَبِيِّ الذي كان فيه بيت الخِلافة والأمراء وطائفة كبيرة من العُلَمَاء والأدباء.

ولا نَسْتَغْرِب في ذَلِكَ الجَوِّ المشحون بالمُنَازَعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ والعِرْقِيَّةِ والاستغلال الاقتصاديَّ أن يقول أبو تَمَّام:

ولو كانت الأَزْزَاقُ تجري على الحِجَا هَلَكَنَ إِذْنُ مَنْ جَهْلَهْنَ البَهَائِمُ
ويقولُ ابن المَعْتَزِّ هَذَا الذي لجأ إلى دار ابن الجَصَّاص:

كُنْ جَاهِلًا أَوْ فَتْجَاهِلْ تَفُزْ للجَهِلِ فِي ذَا الدَّهْرِ جَاهٌ عَرِيضٌ
والفَضْلُ مَحْرُومٌ يَرَى مَا يَرَى كَمَا تَرَى الْوَارِثُ عَيْنَ الْمَرِيضِ

ويقولُ ابن الرُّومِيِّ قَبْلَهُ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْ حَيْرَةٍ أَوْ تَهَكُّمٍ:
تَبَارَكَ الْعَدْلُ فِيهَا حِينَ يَقْسِمُهَا بَيْنَ الْبَرِّئَةِ قَسْمًا غَيْرَ مُتَّفِقٍ
وَيُنَدِّدُ هَذَا الشَّاعِرُ بِقِلَّةِ حِظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا وَيَضِيقُ ذَاتَ يَدِهِ فِي مُتَّسَعِ الْعَيْشِ الرَّغْدِ
الرَّحِيبِ:

فِيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَبًا عَلَى أَنَّ غَيْرِي وَاجِدٌ فِيهِ مَسْبَحًا
وَيَبْدُو أَنَّ الشَّرْطَ وَكُتَابَ الدَّوَاوِينِ وَالتَّجَارَ كَانُوا فِي حَالَةٍ مَالِيَّةٍ حَسَنَةٍ تَجْعَلُ مِثْلَ ابْنِ
الرُّومِيِّ يَرِثِي تَجَاهَهَا لِحَالِهِ:

أَتُرَانِي دُونَ الْأَوَّلَى بَلَّغُوا الْآ مَا لَمْ مِنْ شُرْطَةٍ وَمِنْ كِتَابٍ
وَتَجَارٍ مِثْلَ الْبَهَائِمِ فَازُوا بِالْمُنَى فِي الثُّفُوسِ وَالْأَخْبَابِ

وَيَتَفَنَّ هَذَا الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ نَعِيمِهِمْ وَمَلَذَاتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ اللَّاهِيَّةِ بِدُونَ
عَنَاءٍ وَلَا غَنَاءٍ، فَيَقُولُ:

دُرُّ صَهْبَاءٍ قَدْ حَكَى دُرُّ بِيضَا عَرُوبٍ كَدُمِيَّةِ الْمُحَارِبِ
تَحْمِلُ الْكَاسَ وَالْخِلْيَ فَبَدُو فِتْنَةَ النَّاطِرِينَ وَالشُّرَّابِ
يَا لَهَا سَاقِيًا تُدِيرُ يَدَاهُ مُسْتَطَابًا يُنَالُ مِنْ مُسْتَطَابِ
لَذَّةِ الطَّعْمِ فِي يَدِي لَذَّةِ الْمَلَدِ نَمِ تَدْعُو الْهَوَى دُعَاءَ مُجَابِ
حَوْلَهَا مِنْ نِجَارِهَا عَيْنُ رَمَلِ لَيْسَ يَنْفُكُ صَيِّدُهَا أَسَدَ غَابِ
يُونُتِقُ الْعَيْنَ حُسْنُ مَا فِي أَكْفٍ نَمِ تَسْقِي وَحُسْنُ مَا فِي رِقَابِ
فَقَسَمَ شَارِبٍ رَحِيقًا وَطَرَفَ شَارِبٍ مَاءَ لَبَّةٍ وَسِخَابِ
وَمَزَاجِ الشُّرَابِ إِنْ حَاوَلُوا الْمَزَ جَ رُضَابِ يَا طَيِّبَ ذَاكَ الرُّضَابِ

مَنْ جَوَارٍ كَأَنَّهُنَّ جَوَارٍ يَسْلُسِلْنَ مِنْ مِيَاهِ عَذَابٍ
لَابِسَاتٍ مِنَ الشُّفُوفِ لِبُوسًا كَالهَوَاءِ الرِّقِيقِ أَوْ كَالسَّرَابِ
وَمِنْ الْجَوْهَرِ الْمُضِيِّ سَنَاهُ شَعْلًا يَلْتَهِبْنَ أَيَّ النَّهَابِ
فَتَرَى الْمَاءَ ثَمَّ وَالنَّارَ وَالْآ لَ بِتِلْكَ الْأَبْشَارِ وَالْأَسْلَابِ . . .

وَيَمْضِي ابْنُ الرُّومِيِّ هُكَذَا فِي وَصْفِ تِلْكَ الْمَجَالِسِ الْمُتَرَعَّةِ بِالْجَمَالِ وَالتَّرَفِّ وَاللَّهْوِ
وَالْإِغْرَاءِ لِيَنْتَقِلَ إِلَى التَّنْذِيدِ بِأَرْبَابِهَا الَّذِينَ يَجْلِسُونَهَا وَالَّذِينَ طَاشَ تَوَزِيعُ الثَّرْوَةِ فَأَصَابَهُمْ
مِنْهَا النَّصِيبُ الْوَافِرُ:

فَتَخَايَلْنَ بِاهْتِزَازِ غُصُونِ نَاعِمَاتٍ وَبَارِزِجَاجِ رَوَابِي
نَاهِدَاتٍ مُطَرَّفَاتٍ يَمَانِعِ نَكِّ رُمَانِهِنَّ بِالْعُنُوبِ
لَوْ تَرَى الْقَوْمَ بَيْنَهُنَّ لِأَجْبَرِ نَ صُرَاحًا وَلَمْ تَقُلْ بِاِكْتِسَابِ

يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمَرْءَ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى الْجَبْرِ لَا إِلَى الْكَسْبِ وَالِاخْتِيَارِ
حِينَ لَا تُنْظَمُ الْأُمُورُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ تَنْظِيمًا اجْتِمَاعِيًّا عَادِلًا يَمْنَعُ ذَلِكَ الْاِسْتِغْلَالَ وَالتَّقَاوُتَ بَيْنَ
النَّاسِ.

مِنْ أُنَاسٍ لَا يُرْتَضَوْنَ عِبْدًا وَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْأَرْبَابِ
وَلَا عَجَبُ أَنْ يَحْفَظَ عَلَى الثَّوَرَةِ الدَّمَوِيَّةِ وَهُوَ الشَّاعِرُ الرِّقِيقُ:

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى مَنَاقِيرِ لِلْكَدِّ رَغَضَابٍ ذَوِي سِيُوفٍ غِضَابِ
تَغْسِلُ الْأَرْضَ بِالْذَّمَاءِ فَتُضْحِي ذَاتُ طَهْرٍ تُرَابُهَا كَالْمَلَابِ
مِنْ كِلَابٍ نَأَى بِهَا كُلَّ نَأَى عَنْ وَفَاءِ الْكِلَابِ غَدْرُ الدُّثَابِ
وَإِثْبَاتٍ عَلَى الطِّبَاءِ ضِعَافٍ عَنْ وَثَابِ الْأَسْوَدِ يَوْمَ الْوِثَابِ

إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي يَجْدُرُ الرَّجُوعُ إِلَيْهَا فِي دِيْوَانِهِ.

هَذَا كُلُّهُ شَأْنُ الشَّرْطِ وَكُتَّابِ الدَّوَاوِينِ وَالتَّجَارِ بَلَّةَ الْكَثِيرِ مِنَ الْوُزَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا
شُرَعَانِ مَا يُثْرُونَ فَيَعْقِدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِذَوِيهِمْ الْقُرَى وَالضُّبَايَا وَالْعَقَارَاتِ ثُمَّ يَتَعَرَّضُونَ أحيانًا
لِلتَّنْكِيلِ بِهِمْ وَلِمُصَادَرَةِ مَا اعْتَقَدُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ.

وَلَقَدْ عَمِدَ اللُّغَوِيُّ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م صَاحِبُ
كِتَابِ «مَقَايِيسِ اللُّغَةِ» إِلَى بَيْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (وَهُوَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي
الْإِسْلَامِ بِالْحَبْشَةِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م وَفِي سَنَةِ وَفَاتِهِ خِلَافٌ، وَكَانَ يُسَمَّى بِحَرِّ
الْجُودِ):

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلًا فَأَرْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوصِ بِهِ

فأدخل عليه ما حوّل معناه :

«إذا كنت في حاجة مُرسِلاً» وأنست بها كَلِف مُغرَم
«فأرسل حكيماً ولا تُوصه» وذاك الحكيم هو الدّزهم

وهذا يُشير إلى شِدّة سيطرة المال في قضاء الحاجات إذ ذاك .

ويقول أيضاً ويتلامح في قوله ضيق عميق :

قد قال فيما مضى حكيم ما المرء إلا بأصغرَيْنه
فقلتُ قول امرئ لبيب ما المرء إلا بدزهمَيْنه
من لم يكن معه دزهماه لم تلتفت عرسه إليه
وكان من دُله حقيراً تبسول سنوره عليه

وكان لابن فارس هِرةٌ ثَلَاثِمَه . وهو يُصوّر حظّ العالم والأديب في وقته :

وصاحب لي أتاني يستشير وقد أراد في جَبّات الأرض مُضطرباً
قلتُ اطلُبْ أيّ شيء شئتَ واسعَ وردّ منه المواردُ إلا العلم والأدب

وغدا التّعبير «أذكرته حِرْفة الأدب» مشهوراً منذ أن أبرز أبو تمام التّفاوت بين طُموح

الأديب ومُسعاه :

إذا غيّتُ لشارٍ قلتُ إنّي قد أذكرُكُته أذكرُكُني حِرْفة الأدب

ومع ذلك فإنّ الشّكوى تدفع إلى الغلُوّ والمبالغة . وقد أصاب كثير من العلّماء والأدباء ما يُحبُّون ، ونالوا ما أرادوا ، وكان لهم نهيٌّ وأمر . ولكنّ المجتمع كان بحاجة ماسّة إلى تنظييم عميق للأمور الاقتصاديّة ، ورعاية أشدّ للذين نذروا نفوسهم للفكر .

وأمثال هذه الأشعار المتقدّمة كثيرة جدّاً تحتاج إلى استيفاء وربط بحقائق الأحوال التي قيلت فيها تنفيساً عن النّفس ونبأاً للشّكوى وتبرّئاً بالأحوال .

«كان المُعتَصِد إذا رأى ابن الجصّاص يقول : هذا الأحقّ المرزوق»^(١) .

ولقد ذُكر أنّه «كان أوسع النّاس دُنْياً ، له من المال ما لا يُنتهى إلى عدّه ، ولا يُوقَف على حدّه»^(٢) . وهاك هاتين القصّتين تعلم على أيّ درجة كان هذا المحفوظ من الدّكاء والفهم وحُسن البيان : «تقدّم الوزير عليّ بن عيسى إلى عبد الله بن الجصّاص في البُكور

(١) (٢) جَمع الجواهر أو ذيل زهر الآداب ١٣٥٣ هـ ، ص ٢٠٣ .

فأتاه نصف النهار، فقال: ما أخرك يا أبا عبد الله؟ فقال: بمحليتي، أعز الله الأمير، كلاب تنبح الليل أجمع، فأشهرتني البارحة، فلما كان مع وجه السحر سكن نباحها فبنت فغلبتني عيني إلى الآن.

فقال له: وما لك يا أبا عبد الله لا تتقدم في قتلها؟ قال: ومن يستطيعها أيها الوزير وكل واحد منها مثلي ومثل أبيك رحمه الله^(١).

ولهذه القصة تدل في جملة دلالاتها على ضخامة ابن الجصاص الجسمية وعلى مكانته من الوزراء بحيث لا يأت به للتأخر عن مواعيدهم. كما يدل على مكانته التجاء الخليفة ابن المعتز إلى داره عند اضطراب الأحوال.

«ودخل على ابن له وقد اختضر فبكى عند رأسه وقال: كفاك الله يا بني الليلة مؤونة هاروت وماروت. قالوا: وما هاروت وماروت؟ قال: لعن الله النسيان، إنما أردت يأجوج ومأجوج. قالوا: وما يأجوج ومأجوج؟ قال: فطالوت وجالوت، قالوا: فلعلك أردت منكراً ونكيراً؟ قال: والله ما أردت إلا غيرهما، يريد ما أردت غيرهما»^(٢).

ولا بد من أن يحمل هذا الثراء الواسع على الحرص الشديد. «خرجت يده من القُرْش في ليلة باردة، فأعادها إلى جسده بثقل التوم فأيقظته، فقبض عليها بيده الأخرى، وصاح: اللصوص اللصوص! هذا اللص جاء يُنازعني، وقد قبضت عليه، أذكروني لئلا يكون في يده حديدة يضربني بها، فجاءوا بالسراج، فوجدوه قد قبض بيده على يده»^(٣).

وقد سبق واضح هذه القصة مولير صاحب قصة «البخيل» في براعة تصوير البخل والحرص^(٤).

وروى صاحب «نشوار المحاضرة» أن ثقات الكتاب «حصلوا ما ارتفعت به مُصادرة أبي عبد الله بن الجصاص في أيام المُقتدر فكانت ستة آلاف ألف دينار سوى ما قبض من داره وبعد الذي بقي له من ظاهره»^(٥).

ثم يشرح المؤلف، في قصة، «هذا الذي بقي له» من الدور والعقارات والبساتين

(١) (٢) (٣) المرجع نفسه ص ٢٠٢.

(٤) انظر الفصل الرابع المشهد السابع حين يُمسك البخيل بذرعه بعد إذ سرق ويحسب أنه أمسك بالسارق.

(٥) ص ١٦.

والضِّياع بعد المصادرة فبلغت قيمته تسعمائة ألف دينار، ثمَّ ما سلم له من الجوهر والأثاث والقماش والطَّيب والجواري والدَّوابَّ وقيمة ذلك وقيمة داره التي يسكنها فإذا هما تُناهزان أيضاً ثلاثمائة ألف دينار^(١).

ويُنَبِّهنا القاضي التَّنُوخِيُّ في قِصَّة وَفَعَتْ لابن الجِصَّاص مع الوزير ابن الفُرات على أنَّ الغفلة وسلامة الطَّويَّة ليستا إلَّا في الظَّاهر وأنَّ له مكرّاً واحتيالاً على احتِجانه الأموال وحزماً شديداً في حفظها^(٢).

ولا يخفى أنَّ المُتموِّلين الكبار يَسْرَهُم أن تَسَلَّمَ لهم أموالهم وأن يُتَبَرَّوا بما شيء من الأقاويل، على أن لا تَقْضَح تلك الأقاويل طُرُق احتيالهم وعلى أن تَرُدَّ غناهم إلى تَفَاوُت الحظوظ^(٣).

ويُصَرِّح المُؤَلِّف بذلك حين يَروي عن أحد الشُّيوخ قوله: «كُنَّا بحضرة أبي عمر القاضي فَجَرَى ذِكْر ابن الجِصَّاص وغفلته، فقال أبو عمر: معاذ الله، ما هو كذلك. ولقد كنت عنده منذ أَيَّام مُسْلِماً، وفي صَحْنه سِرادق مضروب فجلسنا بالقرب منه تَتَحَدَّث، فإذا بصرير نعل من خلف السِرادق، فصاح: يا غلام! جئني بمن مَشَتْ خلف السِرادق السَّاعَة. فَأُخْرِجَتْ إليه جارية سوداء، فقال ما كنت تعملين ههنا؟ قالت: جئت إلى الخادم أَعْرِفُهُ أَنِّي قد فرغت من الطَّبِيخ وأستاذن في تقديمه. فقال: انصبري لشأنك. فعلمت أنَّه أراد أن يُعَرِّفني أن ذلك الوَطء سوداء مُبْتَدَلَة، وأنها ليست من حُرْمه ولا من يصونه، فيُرِيل عَنِّي أن أَظُنَّ به مثل ذلك في حُرْمه، فكيف يكون هذا مُغْفَلاً؟»^(٣).

ويذكر المُؤَلِّف في موضع آخر من الكتاب سبب ثراء ابن الجِصَّاص وهو اتِّصاله بأبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون واحتكاره بَيْع الجوهر في الدولة. ثمَّ يقولُ التَّنُوخِيُّ: «فكان يخرج إليه على التَّبْيِيد بأسراره ويُحَادِثه ويَأْتِس به ويردُّ إليه أمر داره والإشراف على جميع نفقاته، وحاله تقوى وتَتَزَايَد حتى عرض له تزويج ابنته بالمُعْتَصِد، فأنفذه في الرِّسالة حتى عقد الإِمْلاك، ثمَّ أجرى أمر الجهاز على يده فَجَرَفَ الأموال بغير حساب.

قال: فأخبرني بعض أصحابه أنَّه لَحِقَ بعض الفرش الذي كان في جهاز قطر النَّدَى ابنة خمارويه مَطَّر فيما بين دمشق والرَّمْلَة فنزلها ابن الجِصَّاص وكتب إليه يُعَرِّفه الخبر

(١) ص ١٧.

(٢) ص ١٨ - ٢٢.

(٣) ص ٢٢.

وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي تَطْرِيبَةِ ذَلِكَ، فَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، فَأَقَامَ شَهْرَيْنِ بِهَذَا السَّبَبِ وَطَرَى الْفَرَشَ، فَاخْتَسَبَ فِي الثَّقَةِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ.

قال: وَلَمَّا حَصَلَتْ قَطَرُ النَّدَى بِبَغْدَادِ أَضَاقَ خِمَارُوهَ إِضَاقَةً شَدِيدَةً، لِأَنَّهُ افْتَقَرَ بِمَا حَمَلَهُ مَعَهَا. وَخَرَجَ مِنْ جَمِيعِ نِعْمَتِهِ حَتَّى طَلَبَ شَمْعَةً، فَاخْتَبَسَتْ عَلَيْهِ سَاعَةً إِلَى أَنْ اخْتَبَلَتْ، فَقَالَ: لَعَنَ اللَّهُ ابْنَ الْجَصَّاصِ، أَفْقَرَنِي فِي السَّرِّ^(١).

كَانَ الْبَذْخُ وَالتَّرْفُ وَسُوءُ تَوْزِيعِ الثَّرْوَةِ عَامِلًا كَبِيرًا فِي اخْتِلَالِ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ.

وَلَا عَجَبَ أَنْ يَسْعَى لِلْحُصُولِ عَلَى الْمَنَاصِبِ مَنْ لَيْسَ لَهَا كُفُوًا وَلَا أَهْلًا وَلَا بِهَا حَقِيقًا وَلَا جَدِيرًا. لِتَتَابِعَ صَاحِبُنَا الْقَاضِي التَّنُوخِيَّ نَجِدُهُ يَعْقِدُ فِي كِتَابِهِ «نُشُورَ الْمُحَاضِرَةِ» مَطْلَبًا يَشْرَحُ فِيهِ فُسَادَ أَمْرِ الْقَضَاءِ وَبَدَأَ اخْتِلَالَ حَالِ الدَّوْلَةِ. وَلَا عَجَبَ أَنْ يَنْتَبِهَ لِذَلِكَ إِذْ كَانَ هُوَ نَفْسَهُ قَاضِيًا. وَلَقَدْ كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْإِسْلَامِ سُلْطَةً عَالِيَةً كَالْقَلْعَةِ الْمَكِينَةِ لَيْسَ فِيهَا ثُلْمَةٌ وَلَا ثَغْرَةٌ. رَوَى الْمُؤَلِّفُ عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ عِيَّاشٍ قَوْلَهُ: «كَانَ أَوَّلُ مَا انْحَلَّ مِنْ نِظَامِ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ فِيمَا شَاهَدْنَاهُ مِنْ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ الْقَضَاءُ، فَإِنَّ ابْنَ الْفُرَاتِ وَضَعَ مِنْهُ وَأَدْخَلَ فِيهِ قَوْمًا بِالزَّمَانَاتِ لَا عِلْمَ لَهُمْ وَلَا أَهْلِيَّةَ فِيهِمْ»^(٢). ثُمَّ تَلَا الْقَضَاءُ الْوِزَارَةَ. «فَمَا مَضَتْ إِلَّا سِنَوَاتٌ حَتَّى ابْتَدَأَتِ الْوِزَارَةُ تَنْضِيعَ وَيَتَقَلَّدُهَا كُلُّ مَنْ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ»^(٣). ثُمَّ يَقْصُ نُكْتَةً تَدُلُّ عَلَى اتِّضَاعِ الْوِزَارَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، فَيَقُولُ عَلَى لِسَانِ ابْنِ عِيَّاشٍ: «وَحَتَّى رَأَيْتُ فِي شَارِعِ الْخَلْدِ قِرْدًا مُعَلِّمًا يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ لَهُ الْقَرَادُ: تَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ بَزَازًا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ وَيَوْمِي بِرَأْسِهِ. فَيَقُولُ: تَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ عَطَّارًا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ بِرَأْسِهِ. فَيُعَدُّ الصَّنَائِعَ عَلَيْهِ، فَيَوْمِي بِرَأْسِهِ، فَيَقُولُ لَهُ فِي آخِرِهَا. تَشْتَهِي (أَنْ) تَكُونَ وَزِيرًا؟ فَيَوْمِي بِرَأْسِهِ: لَا، وَيَصْبِحُ وَيَعْدُو مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْقَرَادِ، فَيَضْحَكُ النَّاسُ. قَالَ: وَتَلَا سُقُوطَ الْوِزَارَةِ اتِّضَاعَ الْخِلَافَةِ وَبَلَّغَ صَيُورَهَا إِلَى مَا نَشَاهِدُ»^(٤).

الشَّعْرُ الْهَزْلِيُّ وَمَدْرَسَةُ ابْنِ حَبَّاجٍ:

وَكَمَا أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ غَزِيرَةً وَالْأَرْضُ خَيْرَةً خِصْبَةً وَالزَّبْيَعُ جَيِّدًا وَافِرَ النَّبَاتُ وَالْكَلِّ وَالنُّورُ نَبَتْ أَزَاهِيرٍ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَأَبْنَعَتْ ثَمَرَاتٍ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَجَسَ كَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ. فَالِي جَانِبِ الْأَبْطَالِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْفَنَّانِينَ ظَهَرَتْ شَخْصِيَّاتٌ مُوزَّعَةٌ

(١) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص ٢٦٢.

(٢) (٣) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص ١١٤، وَمَعْنَى الزَّمَانَاتِ هُنَا الضَّمَانَاتِ.

(٤) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص ١١٤.

مُقَسِّمَةٌ مُشْتَتَّةٌ كأوصاف بعض تلك العُصور في الدَّولة العبَّاسيَّة وفي الدَّول الأخرى التي قامت في إطارها أو في عهدها قريبة أو بعيدة مُستقلَّة أو مُواليَّة. ومن تلك الشَّخصيات الغريبة أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حجاج. فلقد كان شاعراً مُجيداً. ولكنَّ المُتنبِّي في عصره كَسَفَه وأخملَ ذِكرَه وأخمد ناره، كما كسف غيره وأخملهم وأخمد نيرانهم. واشتهر بالمُجُون والشُّخْف في الشُّعر ورَفَعَ لواءهما حتى إنَّه يَتَصَعَّب الاستشهاد بشعره لشِدَّة الإقذاع فيه وبذاءته الكبيرة. وهو الذي يقولُ في نفسه:

رجل يدَّعي التُّبُوَّة في الشُّخْ ف ومن ذا يشكُّ في الأنبياء
جاء بالمُعْجِزات يدعو إليها فأجيئوا يا معشر الشُّخَفَاء

ويقولُ في شعره:

يا سيِّدي هُذي القوافي التي وُجوهها مثل الدَّنَانِير
خفيفة من نُضجها هَشَّة كأنَّها خُبْز الأَبَازِير^(١)

ويصف شعره وشُخْفه أيضاً:

فإنَّ شعري ظريـف من بابة الظُّرْفَاء
الـدُّ معنـى وأشهـى من استِمَاع الغنـاء

وقد راج شعره برغم المُتَزَمِّتين في عصره. قال فيه أبو منصور الثَّعالبيُّ: «ولكنَّه على عِلَّاته تَتَفَكَّه الفُضلاء بشار شعره، وتَسْتَمْلِح الكُبراء ببنات طبعه، وتَسْتَخَفُّ الأُدباء أرواح نَظْمه، ويَحْتَمِل المُحْتَشِمُونَ فرط رَفْثه وقذعه، ومنهم من يَغْلُو في المِيل إلى ما يُضْحِك ويُمتِع من نوادره. ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرُّؤساء فلم يُخلِ قصيدة فيهم من سَفَاتِحِ هزلِه ونتائج فُخْسه، وهو عندهم مقبول الجملة، غالي مهر الكلام، موفور الحظُّ من الإكرام والإنعام، مُجَاب إلى مُقْتَرَحِه من الصُّلَّات الجسام، والأعمال المُجْدِيَّة التي ينقلب منها إلى خير حال»^(٢). ومن الطَّبِيعِيَّ أن يكون له دَالَّةٌ بذلك على وزراء ذلك الوقت فهو يُضْحِكهم ويُخِفُّهم في وقت واحد. ولهذا ما يحصل في بعض المجتمعات حين يَتَجَمَّع بعض الذين لا خَلَقَ لهم حول الوزراء المرتفعين إلى الحكم وَيَسْتَغْلُوْنَ اتِّصَالَهُمْ هَذَا لمصالحهم الشَّخصيَّة أو مصالح أصدقائهم. ويُنَابِع الثَّعالبيُّ قوله: «وكان طول عمره يَتَحَكَّم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تَحَكُّم الصَّبِيِّ على أهله، ويعيش في

(١) نَعْتَقِد أنَّ اللَّفْظَ الأَجْنَبِيَّ Pain d'épices ترجمة حَرْفِيَّةٌ لِلْفَظِّ العَرَبِيِّ.

(٢) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ، المَطْبَعَةُ الحَنَفِيَّةُ دِمَشْقُ ج ٢ ص ٢٢١، وطبعة مصر ج ٣، ص ٢٥، ٢٦.

أكتافهم عيشة راضية، ويستثمر نعمة صافية ضافية، وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال، وأسرى من الخيال»^(١).

ثم يذكر المؤلف مدى شيوع ديوانه إذ ذاك لما اشتمل من ذكر المقاذير وما يُضاف إليها فيقول: «سئل يوماً ابن سكرة عن قيمة ديوان شعره فقال: قيمته بربخ أي لكثرة ما يشتمل عليه ممّا يقع فيه. وبلغني أنّ كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين»^(٢).

كانت طريقة المُجون عنده وسيلة تعيش واغتناء، وجّه مواهبه إليها سعيّاً وراء أسباب الرزق. وهو القائل:

لو جدّ شعري رأيت فيه كواكب الليل كيف تسري
ولمّا هزلته مُجون يمشي به في المعاش أمري

شأنه في ذلك حين كسّفه المُتنبّي كشأن أبي العبر الذي عاصر البُحتريّ. وأغرب ما في هذا الشاعر أنّ شعره لا يدلّ على شخصيّته الاجتماعية ولا على شكله وهندامه وهو القائل مُشيراً إلى هذا التباين:

تراني ساكناً حانوت عطرٍ فإن أنشدتُ نار لك الكنيف

وحقّاً نجد فيما وصلنا من أخباره هذا التّفاوت الكبير الذي بلغ حدّ التّضادّ بين حركاته وشمائله وهيئته من جهة وشعره الماجن السّخيف من جهة أخرى. ويصّحّ أن يتّخذ هذا التّفاوت الواسع دليلاً على صُعبوبة معرفة حياة الشّاعر وشخصيّته من خلال شعره في بعض الأحيان. وقد كنّا أشرنا إلى ذلك في غُضون فصل سابق عند كلامنا على الرّمز، ونبّهنا على بحوث كارل غستاف يونغ وشارل لالو في هذا التّفاوت بوجه العموم.

ولا بدّ من أن نستشهد على ذلك هنا بهذا النّصّ الذي كتبه أبو حيّان التّوحيدّي بقلمه البليغ:

«وأما ابن حجاج فليس من هذه الزّمرة بشيء، لأنّه سخيّف الطّريقة، بعيد من الجِدّ، قريع في الهزل، ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرْضِه مثال، على أنّه قويم اللفظ، سهل الكلام، وشمائله نائية بالوقار عن عادته الجارية في الحُसार، وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة، وإذا جدّ أفعى وإذا هزل حكى الأفعى.

(١) المَرَجع نفسه ص ٢١٢، طبعة مصر ج ٣، ص ٢٦.

(٢) المَرَجع نفسه ص ٢١٤، ٢١٥، طبعة مصر ج ٣ ص ٢٨ - ٢٩. والبرّخ البالوعة.

وله مع ذي الكفایتین مناظرة طيبة. قال (الوزير): ما هي؟ قلت: لَمَّا ورد ذو الكفایتین سنة أربع وستين (أي بعد الثلاثمائة) وهزم الأتراك مع أفتكين، وكان من الحديث ما هو مشهور، سأل عن ابن حجاج، وكان مُتَشَوِّقاً له لما كان يُقرأ عليه من قوافيه، فأحب أن يلقاه، لأنه ليس الخبر كالمُعَايَنَة، والمسموع والمُبْصَر كاللَّائِي والذِّكْر ينزع كل واحد منهما إلى تمامه، فلمَّا حضره أبو عبد الله اختبسه للطعام، وسمع كلامه، وشاهد سَمْتَه، واستحلى شمائله، فقام من مجلسه، فلمَّا خلا به قال: يا أبا عبد الله، لقد والله تَهْتُّ عَجَباً منك، فلمَّا عَجِبِي بك فقد تَقَدَّم، لقد كنت أفلي ديوانك، فأتَمْنَى لقاءك، وأقول: من صاحب هذا الكلام؟ أطيش طائش، وأخف خفيف، وأغرَم غارم، وكيف يُجَالَس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يُقَارَب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب؟ حتى شاهدتك الآن، فتَهَالَكْتَ على وفارك وسكون أطرافك، وشكوت لفظك، وتَنَاسَبَ حركاتك، وفَرَطَ حيائك، وناضر ماء وجهك، وتَعَادُلَ كُلِّك وبعضك. وإنَّك لمن عجائب خلق الله وطُرف عباده؛ والله ما يُصَدِّق واحد أنَّك صاحب ديوانك، وأنَّ ذلك الدِّيوَان لك، مع هذا التَّنَافِي الذي بين شعرك وبينك في جدِّك. فقال أبو عبد الله: أيُّها الأستاذ، (وهل) كان عَجِبِي منك دون عَجَبِك مني! لو تَقَارَعْنَا على هذا لَفَلَجْتُ عليك بالتَّعَجُّب منك، قال: لَأُتِي قُلْتُ إذا ورد الأستاذ فسألني منه خُلُقاً جافياً، وفُظْلاً غليظاً، وصاحب رواسير^(١)، وأكل كوامخ، وجَبِلًا دَيْلَمِيًّا مُتْكَائِبًا مُتْعَاطِمًا، حتى رأيتك الآن، وأنت الُطف من الهواء، وأرق من الماء، وأغزل من جميل بن مَعْمَر، وأعذب من الحياة، وأزرن من الطُّود، وأغزر من البحر، وأبهى من القمر، وأندى من الغَيْث، وأشجع من اللَّيْث، وأنطق من سحبان، وأندى من الغمام، وأنفذ من السَّهام، وأكبر من جميع الأنام. فقال أبو الفتح وتبسَّم:

هَذَا أَيْضاً مِنْ وَدَائِعِ فَضْلِكَ وَبَوَاعِثِ تَفَضُّلِكَ، وَوَصَلَهُ وَصَرَفَهُ^(٢).

وتُوَفِّيَ ابن حجاج سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م. ودُفِنَ ببغداد عند مشهد موسى الكاظم بن جعفر الصادق. ولم يشأ أن يتخلَّى عن فُكَاهَتِهِ حتى بعد مماته. وقد كان

(١) الرُّوَاصِير جمع ريصار وهي البُقُول التي تُطْبَخُ في المِيَاهِ الحَامِضَةِ مثل الخُلِّ وماء الحصرم وماء السَّمَقِ والرَّمان ونحوها. وفي الأصل المطبوع رواسير وهو تحريف.
ويقال رواسيل جمع ريصال باللام.

(٢) الامتاع والمُؤَانَسَة ج ١، ص ١٣٧، ١٣٨.

أوصى أن يُدفن عند رجليه ويكتب على قبره: ﴿وَكَلَّهْمُ بِكَسْطِ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾^(١) وكان من كبار شعراء الشيعة.

أشار أبو حيان في النَّصِّ الذي أوردناه إلى ابن سُكَّرة. وهو ممَّن عاصر ابن حَجَّاج وأتجه اتجاؤه في الهزل والظرف والسُخف. «وكان يُقال ببغداد: إِنَّ زَمَانًا جَادَ بَابِنِ سُكَّرةَ وابنِ الحَجَّاجِ لَسَخِيَّ جَدًّا، وما أَشَبَّهُمَا إِلَّا بِجَرِيرٍ والفَرَزْدَقِ في عَصْرِيهِمَا»^(٢). وهو مُجيد في أغراض مُتعدِّدة إلى جانب الهزل والمُجون. ويتعذَّر إيراد أمثلة من شعره في هذا الباب لإقذاعه وفُخْشه.

وجرى على النَّهْج طائفة من الشعراء آثروا هزل التَّعبير وسُخف المقال.

منهم أبو الرَّقَعَمَق، «وهو بالشَّام كابن حَجَّاج بالعراق»^(٣) وهو القائل من قصيدة:
لو برجلي ما برأسي لم أبت إلا بنجس
خفّة ليست لغيري لا أراشي الله فقدي
وانظر كيف يُضحك بمحاكاته في الشعر زُفْرَةُ العصافير:

خذ في هَنَاتِكَ مِمَّا قد عرفت به ممَّا به أنت معروف ومشهور
واحك العصافير صي صي صي صي صي صي

إذا تجاوَّزَ في الصُّبح العصافير
ففي ما شئت من حمق ومن هوس قليله لكثير الحمق إكسير
وأمثال هذه الأبيات كلّها مُقدِّمات في القصائد يخلُص منها الشَّاعر إلى مديح الأمير
لينال رِفْده بعد أن يُضحكه كما كان بعض الشعراء يستهلُّون قصائدهم بالنَّسيب.

وشاعت طريقة ابن حَجَّاج في العُصور النَّالية، وكان الشعراء في المغرب والأندلس إلى جانب الموشحات التي برعوا فيها والأغراض التي تَفَنُّوا في تناولها يُحاكون في كثير من الميادين شعراء المشرق ويتشبهون بهم ويتسجون على منوالهم في مُختلف المجالات. وممَّن جرى منهم في هذا المِضمَار الهزليُّ عليُّ بن حَزْمُون. «ولعليُّ بن حَزْمُون هذا قَدَم في الآداب واتَّساع في أنواع الشعر. ركب طريقة أبي عبد الله بن حَجَّاج البغدادي، سامحه الله وغفر له، فأزبى فيها عليه. وذلك أنَّه لم يدع موشحة تجري على ألسنة النَّاس

(١) سورة الكهف ١٨ : ١٨.

(٢) الثَّعالبي، يتيمة الدَّهر، طبعة دمشق ج ٢، ص ١٨٨، طبعة مصر ج ٣، ص ٣.

(٣) الثَّعالبي يتيمة الدَّهر طبعة دمشق ج ١ ص ٢٣٨، طبعة مصر ج ١، ص ٢٦٩.

بتلك البلاد إلا عمل في عروضها وزويها موشحة على الطريقة المذكورة. وله مع هذا في الهجاء يد لا تطاول، غير أنه يفحش في كثير منه^(١).

وكما درت على ابن حجاج طريقته بالثروة والجاه كذلك «نال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهاً وثروة، كل ذلك خوفاً من لسانه وحذراً من هجائه، ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلداً إلا وأهاجي هذا الرجل تحفظ فيه وتدرس»^(٢).

وقد ذكر العماد الأصفهاني في «جريدة القصر وجريدة العصر» أن ابن مكنسة كتب في طريقة أبي الرقعمق وذكر من شعره بعض المقطوعات، منها:

عشت خمسين بل تز	يد رقيعاً كما ترى
أحسب المقل بندياً	وكذا الملح سكرًا
وأظن الطويل من	كل شيء مدورا
قد كبر ببرير	ت وعقلي إلى ورا
عجبا كيف كل شيء	أراه تغيرا
لا أرى البيض صار يؤ	كل إلا مقشرا
وإذا دق بالحجا	ر زجاج تكسرا

ومنها:

أنا الذي حدثكم	عنه أبو السمقة
وقال عني إنني	كنت نديم المقة
وكنيت كنت كنت	ت من رمة البندق
حتى متى أبقى كذا	تيسا طويل العنق
بلخية مسبلة	وشارب محلل
يا ليتها قد خلقت	من وجهه شيخ خلق ^(٣)

(١) المعجب في أخبار المغرب للمراكشي ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩٦، ٢٩٧ والشاعر علي بن حزمون من الذين مدحوا أمير المؤمنين ملك الموحدين أبا يوسف يعقوب بن يوسف بعد انتصاره في وقعة الأرك سنة ٥٩١ حين جلس للوفود في قبة من القباب مشرفة على النهر الأعظم أو الوادي الكبير.

(٣) قسم شعراء مصر ج ٢ ص ٢١٤، ٢١٥. ونعتقد أن العماد الأصفهاني أصاب حين ذكر طريقة أبي الرقعمق فقد رأينا كيف يُعيد هذا الشاعر الهزلي بعض الحروف ولا سيما حين يُكَلِّد زفرقة العصافير ولاضحاه من نفسه، أما ذكر ابن مكنسة لأبي السمقة فلمجرد الهزل لا لأنه يجري على طريقته كما حسب ناشر الكتاب.

ومدرسة ابن حجاج واسعة. ولا يُمكن أن نَتَّبِعَ أفرادها والمُتأثرين بها بالتفصيل، ولكنْ نَحْبُ أَلَّا نُغْفِلَ هنا شمس الدِّين مُحَمَّد بن دانيال بن يوسف الموصليّ، وُلِدَ بِأَم الرِّبيعين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م. وشاهد وهو حَدَّث مَوْجَة التَّثَر الجارفة التي اكْتَسَحَتْ معالم الموصل العُمرانيّة سنة ٦٦٠ هـ/١١٦٢ م، فسافر إلى مصر ودخل القاهرة وهو في الثَّاسعةَ عشرةَ من عمره، واتَّخَذَ له دُكَّان كحل داخل باب الفتوح، فكان كَحَّالاً، وفي ذلك يقولُ:

يا سائلي عن حِرْفَتِي في الوري وصنعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من دِزهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

وفي هذه الأبيات خفّة روح ظاهرة. ولو عاش الشَّاعر في عصرنا لهذا لصار من أغنياء النَّاس الذين أثروا على حساب التَّطَبُّب. وكان كثير الدُّعابة سريع التُّكْنة. قال الشَّيخ صلاح الدِّين الصَّفْدِيّ في كتابه «الوافي بالوَفَيَّات»: «هو ابن حجاج عصره، وابن سكرة مصره، وضع كتاب، طَيَّف الخيال، فأبدع طريقه، وأغرب فيه، فكان المُطَرِّب والمُرْقِص على الحقيقة».

قال يشكو قَلَّةَ حظِّه من الرُّزْق:

قد عَقَلْنَا والعقل أيُّ وثاق وصَبَرْنَا والصَّبْر مرُّ المذاق
كلُّ من كان فاضلاً كان مثلي فاضلاً عند قسمة الأرزاق

ويُصوِّر حاله في قصيدة:

أَصْبَحْتُ أَفْقَرَ من يَروح وَيَغْتدي ما في يدي من فاقَة إِلَّا يدي
في منزل لم يَخِوْ غيري قاعداً فإذا رَقَدْتُ رَقَدْتُ غير مُمَدَّد
لم يبقَ فيه سوى رسوم حصيرة ومِخْلَدَة كانت لَأَمِّ المُهْتدي
مُلْقَى على طَرَّاحَة في حَشْوِها فمل كمثل السُّمسم المُتَبَدَّد
والفأر يركض كالخيول تَسَابَقَتْ من كلِّ جَرْداء الأديم وأَجْرَد
هذا ولي ثوب تراه مُرَقَّعاً من كلِّ لون مثل لون الّهْذَهْد

ولا عجب أن يضحك من نفسه فيقولُ وقد دُعِيَ إلى عرس:

دَعَوْتَنِي للعرس يا سيِّدي فكَدْتُ أن أحضر من أَمْس
وها أنا اللَّيلة في داركم فالكلب ما يهرب من عرس

وقد تَزَوَّج فكان ناعساً في زواجه. قال يُخاطِب القاضي ويُصوِّر ما آلَتْ إليه حاله وما يَترأى له من الرُّؤى الغربية في قصيدة طويلة، وقد حكم القاضي عليه:

بك أشكو من زوجة صيّرتني غيّشتني عني بما أطمعني غبت حتى لو أنهم صفعوني فهاري من البلادة ليل دار رأسي عن باب داري فبا غائباً بين سائر الحُضار فأنا الدهر مُفكر في انتظار قلت كُفوا بالله عن صَفْع جاري في السَّاوي والليل مثل النهار لله اخبروني يا سادتي أين داري

ونأثر بالتيارات الفكرية التي شاعت في عصره ولا سيما بمدرسة الشاعر الصوفي ابن الفارض. وله شعر يتّجه لهذا الاتجاه، منه:

ما زلت في طوري أخطب ذاتي حتى تفقهت الخطاب كأله من غير ما طور ولا ميقات قد كان يُسمع من جميع جهاتي

ولكنّ الهزل هو الذي غلب عليه. على أن مكانة هذا الشاعر تبرز في وضع الروايات الهزلية التي كان بعضها يُمثل التواحي السياسية والاجتماعية ويقصد إلى النقد اللاذع وإلى إضحاك النظارة ولو بالمُجون والألفاظ البذيئة. أشهرها «طيف الخيال»، وقد ذكر الصّفي أنّه أبدع طريقها، وصف فيه لعبة الظلّ وهي التي ندعوها في سورية «كراكوز»، ثمّ «عجيب وغريب» تُمثل صوراً كثيرة لسوق يدخلها المُمثلون تبعاً ويعرضون بضائعهم وفنونهم، و«المتيم» وهي تشتمل على أشياء مُمتعة منها تحريش الذئكة على القتال ونطاح الكباش والثيران بقصد الفرجة والتسلية. ومات الشاعر الروائي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م.

بيد أنّ كثيراً من الشعراء المعروفين كانوا في بعض الأحيان يُجربون طريقة ابن حجاج وإن لم يشتهروا بذلك، وكانوا يدعون لهذا المجال بالإحماض. ومنهم صفيّ الدين الحلّي ٦٧٧/١٢٧٨ - ٧٥٠/١٣٤٩ ولّد ونشأ في الحلة بين الكوفة وبغداد واشتغل بالتجارة فكان يرحل إلى الشام ومصر وماردين. وفي آخر ديوانه أشعار سخيفة في المُجون لا طائل فيها تخفض قيمة الديوان وتهبط بمكانة الرّجل والفنان.

ويبدو من جميع ما سلف أنّنا استعملنا في باب الفكاهة والضّحك لهذا كلّ ما يمثّل إليهما بصلة قريبة أو بعيدة بحيث ينسجم اتّجاهنا هذا مع ما قرّرناه في صدر الكتاب حيث بحثنا القيم الجمالية وأفرّدنا منطقة للضحك في دائرة المحاسن دون أن نَعمد إلى تصنيف المُضحك في أصناف دقيقة مُتمايزة كالتكئة والتّهريج والفكاهة بمعانيها الضيّقة وهلمّ جرّاً، بل تركنا المجال مُشتركاً بين تلك الأصناف التي تبدأ من الظرف المُتصل بالرقّة والملاحة من جهة وتنتهي بالتّهكّم المُتصل بالهجاء والمأساة من جهة مُقابلة، وإنّما اخترنا التصنيف

الدَّائِرِيُّ الذي يشمل أربع قِيَمٍ أساسيةٍ لكي نَفْسَحَ في المجال للأصناف الأخرى الْمُضْمَنَةُ في كُلِّ قيمةٍ كبرى كما يَتَضَمَّنُ الثُّورَ الأبيض ألوان الطَّيْفِ الْمُتَعَدِّدةِ الجميلة. وعندئذ نجد ألواناً من الابتسام والضَّحِكِ مُتَفَاوِتَةً بعضها ناعم لطيف وبعضها قويٌّ حريف، بعضها حلو بريء وبعضها مرٌّ عنيف.

نُتَفٌ من صناعة الفُكاهة الأدبية :

وكما صَنَعْنَا في فصل الرَّمزِ السَّابِقِ حين أَوْضَحْنَا أساليب البيان وأشكال البديع الدَّاخلَةِ في ذلك الفصل والمُتَّصِلَةِ به أيَّ اتِّصَالٍ كَذَلِكَ نجد من المُنَاسِبِ ههنا أن نُشِيرَ إلى الأساليب البيانية والبديعية التي تَرْتَبِطُ بِالْمُضْحِكِ بعض الارتباط ممَّا أبانه علماء البلاغة الْمُتَقَدِّمُونَ.

ذُلك أنَّ الكلامَ إمَّا أن يَخْرُجَ على مُقْتَضَى ظاهر الحال، وإمَّا أن يَخْرُجَ على خِلاف مُقْتَضَى ظاهر الحال. وقد تكلَّمْنَا في فصل الرَّمزِ على الكلام الخارج على خِلاف مُقْتَضَى الظَّاهر مما يَمَسُّ ذُلك البحث ويتَّصَلُ به. ولكنَّ هَذَا التَّوَعُّدَ من الكلام قد يَتَّصَلُ بِالْمُضْحِكِ على سبيل التَّهَكُّمِ كأن يجعل غير السَّائِلِ كَالسَّائِلِ وغير المُنْكَرِ كَالْمُنْكَرِ إذا لاح عليه شيء من أمارات الإنكار. قال حَجَلُ بن نُضْلَةٍ، ونُضْلَةُ أُمُّهُ وحَجَلُ لَقَبُهُ، واسمه أحمد بن عمرو بن عبد القيس بن معن، فهو غير حَجَلُ بن عبد المُطَّلِبِ عَمِّ النَّبِيِّ لأنَّ هَذَا اسمه المُغْيَرَةَ وأُمُّهُ هالة بنت وهيب^(١):

جاء شقيق عارضاً رُمحه إنَّ بني عَمِّكَ فيهم رُمَاح
هل أَلَحَّدْتَ الدَّهْرَ لَنَا نَكْبَةً أم هل رَقَّتْ أُمُّ شقيق سلاح

والشَّاعر المذكور أحد أبناء عَمِّ شقيق الذي جاء لِمُحَارَبَتِهِمْ، وقوله: هل أَلَحَّدْتَ الدَّهْرَ لَنَا نَكْبَةً أيّ بحيث يَغْنَا أَسْلِحَتُنَا حتَّى إِنَّ شقيقاً يَأْتِي للحرب واضعاً رُمحه عرضاً، مُفْتَخِراً بِتَصْرِيفِ الرُّمَاحِ، مُدِّلاً بِشِجَاعَتِهِ، وقوله أم هل رَقَّتْ أُمُّ شقيق سلاح أيّ سلاحنا بحيث صار ذُلك السَّلاح لا يَقْطَعُ شيئاً.

وقال أبو ثمامة البراء بن عازب الأنصاري:

فقلت لمُحَرِّزٍ لَمَّا التَّقَيْنَا تَنَكَّبَ لا يَقْطُرُكَ الزَّحَامُ

(١) انظر حاشية الدُّسوقي على شرح التَّنَازُلِيَّاتِ لِمَتْنِ التَّلْخِيصِ. وفي مَعَاهِدِ التَّنْصِيصِ وهو أحد بني عمرو. وانظر أيضاً القاموس المحيط. وفي هامش القاموس: الذي اسمه مُغْيَرَةُ ابن أخيه حَجَلُ بن الزُّبَيْرِ بن عبد المُطَّلِبِ.

مُحَرِّز اسم رجل من ضَبَّة. يَرْمِيه بِأَنَّهُ لَمْ يُبَاشِرِ الشَّدَائِدَ وَلَمْ يَدْفَعْ إِلَى مَضَاقِقِ
المَجَامِعِ كَأَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يُدَاسَ بِالقَوَائِمِ كَمَا يُخَافُ عَلَى الصُّبَّيَّانِ وَالنِّسَاءِ لِقَلَّةِ غِنَائِهِ
وَضَعْفِ بَنَائِهِ.

وَمِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى مِنَ التَّهْكُمِ قول جرير:
زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبِعاً أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبِعَ
وقول ابن المعتز:

إِنَّمَا عَلَى الْبُعَادِ وَالتَّفَرُّقِ لَتَلْتَقِيَ بِالذِّكْرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ
وقول الآخر:

أَحْبُكَ فِي الْبَتُولِ وَفِي أَبِيهَا وَلَكِنِّي أَحْبُكَ مِنْ بَعِيدٍ
وقول ابن الرومي:

فِيَا لَهُ مِنْ عَمَلِ صَالِحٍ يَرْفَعُهُ اللَّهُ إِلَى أَسْفَلِ

ويقول الوجيه الدروبي في ابن أبي حُصَيْنَةَ:
لَا تَظُنَّ حَذْبَةَ الظَّهْرِ عِيّاً وَكَذَاكَ الْقِسِيُّ مُخْدَوْدِبَاتٍ
فَهِىَ فِي الْحُسْنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ وَهِيَ أَنْكَى مِنَ الطُّبَى وَالْعَوَالِي
وَأَرَى الْإِنْحِنَاءَ فِي مِخْلَبِ الْبَا لِقُرُومِ الْجَمَالِ أَيْ جَمَالِ
زِي وَلَمْ يَغْدُ مِخْلَبِ الرُّبَالِ زِي وَلَمْ يَغْدُ مِخْلَبِ الرُّبَالِ
كُونَ اللَّهُ حَذْبَةَ فَيْكِ إِنْ شَدَّ تَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنْ الْإِفْضَالِ
فَأَتَتْ رَبْوَةً عَلَى طُودِ عِلْمٍ وَأَتَتْ مَوْجَةً بِبَحْرِ نَوَالِ
مَا رَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ أَنَّهُا حَلِيَّةٌ لِكُلِّ الرَّجَالِ

ثُمَّ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ:
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْهَجَرِ بَدْ فَعَسَى أَنْ تَزُورَنَا فِي الْخِيَالِ
فَفِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ كُلُّهَا تُؤَاتِبُ الدَّهْنَ أَلْوَانَ مِنَ الْمَفَاجِئَةِ غَيْرِ مُتَنَبِّئَةٍ تَخْفِضُ مِنْ شَأْنِ
الْمُخَاطَبِ أَوْ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُ كَمَا بَيَّنَّا مَا هِيَ الْمُضْحِكُ سَالِفاً فِي فَصْلِ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ، لِأَنَّ
الدَّهْنَ يَنْتَظِرُ الرُّفْعَةَ مِثْلًا إِلَى أَعْلَى وَلَكِنَّهُ يُفَاجَأُ بِلَفْظِ أَسْفَلِ، وَيَنْتَظِرُ أَنْ يَدْفَعَ الْحَبَّ إِلَى
الْإِلْتِقَاءِ فَإِذَا بِهِ يُفَاجَأُ بِدَفْعِهِ إِلَى الْإِبْتِعَادِ، وَهَكَذَا.

وَقَدْ تَأْتِي الْإِسْتِعَارَةُ مُضْحِكَةً وَتُسَمَّى تَهْكُمِيَّةً وَتَمْلِيحِيَّةً وَهِيَ مَا اسْتَعْمَلَ فِي ضِدِّهِ أَوْ
نَقِيضِهِ وَذَلِكَ بِتَنْزِيلِ التَّضَادِّ أَوْ التَّنَاقُضِ مَنَزِلَةَ التَّنَاسُبِ بِوَسْطَةِ تَمْلِيحٍ أَوْ تَهْكُمٍ، نَحْوُ

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استُعمِرَت البِشَارَةُ هنا للإِنْذَارِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا، وَكَقَوْلِكَ رَأَيْتُ أَسَدًا وَأَنْتَ تَرِيدُ رَجُلًا جَبَانًا، وَرَأَيْتُ حَاتِمًا وَتَرِيدُ بَخِيلًا وَهَكَذَا. وَهَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ الْعِنَادِيَّةِ.

وَذَكَّرْنَا آنِفًا مِنْ أَصْنَافِ الْبَدِيعِ الْقَوْلِ بِالْمَوْجِبِ. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الضَّرْبُ حَامِلًا عَلَى الْإِبْتِسَامِ إِذَا كَانَ يَتَضَمَّنُ خَفْضًا مَعْنَوِيًّا لَا يَنْتَظِرُهُ السَّامِعُ، قِيلَ لِأَبِي الْعَيْنَاءِ: «مَا بَقِيَ أَحَدٌ يُحِبُّ أَنْ يُلْقَى» قَالَ: «إِلَّا فِي بَثْرٍ».

وَكَذَلِكَ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِهَا حَامِلَةً عَلَى الْإِبْتِسَامِ كَقَوْلِ أَبِي الرَّقَعَتِيِّ:

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئًا نَجِدُ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا
ثُمَّ التَّوْجِيهِ أَوْ الْإِبْهَامِ أَيْضًا قَدْ يَتَضَمَّنُ إِمْكَانَ الْغَضِّ مِنَ الشَّخْصِ الْمُتَكَلِّمِ عَلَيْهِ كَقَوْلِ بَشَّارٍ فِي خَيْطِاطٍ خَاطَ لَهُ قَبَاءً:

خَاطَ لِي عَمْرُو قَبَاءً لَيْتَ عَيْنِيهِ سَوَاءٌ^(١)
فَاسْأَلُوا النَّاسَ جَمِيعًا أَمْ دِيحٌ أَمْ هَجَاءٌ؟

بَعْضُ مَيَادِينِ الْفُكَاهَةِ:

وَمِنْ جَمَلَةِ الِاسْتِعَارَاتِ الْمُضْحِكَةِ اعْتِمَادُ الْأَلْفَافِ الْآيَةِ مِنْ بَعْضِ الْحِرَفِ فِي أَغْرَاضٍ لَيْسَ لَهَا بِهَا عِلَاقَةٌ بَلْ بَيْنَهَا مُبَايَنَةٌ. وَلِلْجَاحِظِ فِي هَذَا النَّوعِ رِسَالَةٌ كَتَبَ بِهَا إِلَى الْمُعْتَصِمِ وَقِيلَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ^(٢). انْظُرْ إِلَى هَذَا الْغَزْلِ الْحَامِلِ عَلَى الْإِبْتِسَامِ فِي قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ:

حَصَدَ الْحَبِيبِ وَصَالَنَا بِمَنَاجِلِ طَبَعَ الْمَنَاجِلِ مِنْ حَدِيدِ الْبَيْتِ
وَالشُّوقُ يَطْعُنُهُ بِأَرْجِيَةِ الْهَوَى وَالْعَيْنُ تَعْجُنُهُ بِمَاءِ الْعَيْنِ
وَالْقَلْبُ يَخْبِزُهُ بَنِيرَانِ الْأَسَى وَالتَّنَفُّسُ تَأْكُلُهُ بِلُونُ لَوْنِ^(٣)

وَكَذَلِكَ قَوْلُ جَعْفَرِ الْخَيْطِاطِ:

فَتَفَقَّتْ بِالْهَجَرِ دُرُوزُ الْهَوَى بِإِبْرَةٍ مِنْ إِبْرِ الصَّدِّ
فَالْقَلْبُ مِنْ ضَيْقِ سَرَاوِيلِهِ يَعْثُرُ بِي فِي تَكَّةِ الْجَدِّ

(١) الْبَيْتُ مَنْسُوبٌ إِلَى أَبِي الْيَنْبَغِيِّ فِي ذَيْلِ زَهْرِ الْآدَابِ ص ٢٥٨ وَيُرْوَى ابْنُ حِجَّةَ الْحَمَوِيُّ فِي الْخَزَانَةِ

قِصَّةُ الْبَيْتِ دُونَ أَنْ يَذْكَرَ اسْمُ الشَّاعِرِ (بَوْلَاقُ ص ١٦٩).

(٢) ذَيْلُ زَهْرِ الْآدَابِ ص ١١٦. وَقَسَمَ مِنْ هَذَا الرِّسَالَةِ مَطْبُوعٌ فِي مَجْمُوعَةِ رِسَائِلِ الْجَاحِظِ.

(٣) ذَيْلُ زَهْرِ الْآدَابِ ص ١١٦.

أزّار عيني فيك موصولة بعُروة الدّمع على خَدّي
يا كسبّان القلب يا زيقه عَدْبَنِي التَّذْكار بالوَعْد^(١)

إلى آخر هذه الفنون ممّا راج إِبّان الحضارة العربيّة في مِيدان البيان الذي يقصد إلى
اللّهُو وإلى الهَزَل.

وثمّة في الفلسفة مذاهب تُوكّد تأثير الصّناعات ونَحْل المعيشة في الأفكار والعبارات
والفنون وغيرها. وليس في ذلك من رَيْب. ولكن كما أنّ للأشخاص الأسوياء صُوراً هَزَلِيّة
كذلك يُمكن أن نَتصوّر لتلك المذاهب صُوراً وتطبيقات هَزَلِيّة كاريكاتوريّة. وليست تلك
الأشعار التي أوردناها إلّا بعضاً من تلك الصُور والتطبيقات الهَزَلِيّة.

ويَدْخل في الفُكاهة تَفخيم الأشياء الحَقيرة وإِفْتِخار بعض النّاس الذين كانوا
يُزاولونها على طريق تَوَجّيه الذّهْن إلى خِلَاف حَقِيقَةِ الأمر.

رُؤْيِي قبران مكتوب على أحدهما: مَنْ رَأَيْني فلا يَغْتَرّ بالدُّنيا فإنّي كنت من مُلوكها
أَصْرَف الرّيح كيف شئت، وعلى الآخر مكتوب: كَذَبْتُ، إنّما كان حَدّاداً يَنْفِخ بِالزُّق.

أَرَأَيْتَ إلى الفُكاهة كيف تُلازِم بعض الموتى على قُبورهم زيادة على مُلازمتها
للأحياء في أعمالهم وأخبارهم.

وكان بالكوفة رجل باقِلَانِيٌّ فخرج الطّائِف لِبِلاً فأخذه سَكَران فقال:
أنا ابن الذي لا تَنْزِل الدهرَ قِدره وإن نَزَلْتُ يوماً فسوف تعود
تري النّاس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قِيام حولها وقُعود
فقال الطّائِف: قد جاء عن النّبِيِّ ﷺ أنّه قال: «تَجَاوَزُوا عن ذَوِي الهِيتات»^(٢)، خَلُّوا
سَبِيله. فلمّا أَصبح سأل عنه، فإذا هو ابن باقِلَانِيٌّ فقال: إن لم يَتْرَكَ لِنَسَبه فقد تَرِكَ لأدبه.
وسُئِلَ آخر عن رجل، فقال: رَزِين المجلس نافذ الطّعنة. فحسبوه سيّداً، فإذا هو
خَيّاط طويل الجلوس نافذ الإبرة.

(١) المَرَجع نفسه ص ١١٧، وقد اقْتَصَرْنَا على بعض الأبيات وهي كلّها مذكورة في دَبِيل زَهْر الآداب
وفي رسالة الجاحظ التي أَسْرَنَّا إليها وتُدْعَى «صناعات القُواد» مع اختلاف طفيف في الألفاظ.
(٢) في الجامع الصّغير أحاديث بهذا المعنى دون اللفظ: (٣٢٣٣) تَجَافُوا عن عُقُوبَةِ ذِي المَرُوءَةِ،
(٣٢٣٤) تَجَافُوا عن عُقُوبَةِ ذَوِي المَرُوءَةِ إلّا في حَدٍّ من حدود الله، (٣٢٣٦) تَجَاوَزَا عن ذَنْبِ
السُّخْيِ وَزَلَّةِ العالَمِ وَسَطْوَةِ السُّلْطَانِ العادل... (٣٢٣٧) تَجَاوَزَا لِذَوِي المَرُوءَاتِ عن عَثَرَاتِهِمْ.
ولكنّ المناوِيّ في فَيْض القدير يُشير إلى أنّها ضعيفة أو مَوْضُوعَة.

ولهذه الأمثلة تستند إلى الإيهام وذكر اللوازم المشتركة بين أمرين أحدهما رفيع يُوهم المديح أو الفخر والثاني لا شأن له ولا أهمية.

حتى الحجج المنطقية استعملت في مجال الهزل. أتى رجل إياساً قاضي البصرة لعمر بن عبد العزيز وسأله. هل ترى عليّ من بأس إن أكلتُ تمرًا؟ قال: لا، فهل ترى عليّ من بأس إن أكلتُ معه كَيْسوماً؟ قال: لا، قال فإن شربتُ عليهما ماء؟ قال جائز، قال: فلم تُحرّم الشكر وإنّما هو ما ذَكَرْتُ؟ قال له إياس: لو صَبِيتُ عليك ماء هل كان يَضْرُك؟ قال: لا، قال: فلو نَثَرْتُ عليك تُراباً هل كان يَضْرُك؟ قال: لا. قال: فإن أَخَذْتُ ذلك فخلطته وعجنته وجعلتُ منه لَبنة عظيمة فَضَرَبْتُ بها رأسك هل كان يَضْرُك؟ قال كنت تَقْتُلُنِي. قال: هذا مِثْلُ ذاك.

ولكن حُجج الشكاري ومُحبّي الخمرة لا تنتهي. يقول ابن الرُّوميّ مُعوّلاً على القياس:

أباح العراقيُّ البَيْذَ وشربه وقال: حرامان المُدّامة والشُّكر
وقال الحِجَازِيُّ: الشُّرابان واحد فحلّ لنا من بين قَوْلِيهما الخمر
سأخذ من قَوْلِيهما طرفيهما وأشربها لا فارق الوازر الوزر

وقد ضحك العرب من كلِّ شيء إبان حضارتهم الزَّاهية. ضحكوا من البُخلاء والمُغفلين والمُتطفّلين والجنّاء وغيرهم كما ضحكوا من المُتحدِّقين. هاج بأبي علقمة النُّحويّ مُرار فسقط، فأقبل قوم يَعْضُّون إبهامه ويؤدُّنون في أذنه، فقام من غَمَرَات غَشِيته فقال: ما لكم تَتَكَاكُون عليّ كَتَكَاكُتْكم على ذي جِنَّة أفرَنَقُوا عني. فقال بعضهم: اتركوه فإن جِنَّتَهُ تَتَكَلَّم بالهنديّة.

ولقد ضحك أبو حيّان في كتابه «أخلاق الوزيرين» من تحدّلق الصّاحب. وإليك هذه الرواية يرويها عنه. «وقال يوماً في دار الإمارة لَفَيْرُوزَانَ المَجُوسِيّ، وكان الخرائطيّ حاضراً، في شيء نابذ عليه: إنّما أنت مِخْسٌ، مِجْسٌ، مَحْسٌ، لا تَهَسْ ولا تَبَسْ ولا تَمْتَسْ. فقال له فيروزان: أيّها الصّاحب! بَرِثْتُ من النَّارِ إن كنتُ أدري ما تقول، إن كان من رأيك أن تَشْتَمَنِي فقل ما شئتَ بعد أن أعلم، فإن العِرض لك، والنَّفْس فِداؤك، لست من الزّنج، ولا من البربر، ولا من الغزّ، كلّمنا بما نَعْقِل على العادة التي عليها العمل؛ والله ما هذا من لغة آبائك الفُرس، ولا لغة أهل دينك من هذا السّواد؛ فقد خالَطْنَا النَّاسَ فما سَمِعْنَا منهم هذا النَّمط، وإنّي أظنُّ أنّك لو دَعَوْتَ الله بهذا الكلام لما أجابك، ولو سألتَه لما أعطاك، ولو استَغفرتَ الله به ما غفر لك؛ وَحَقِيقٌ على الله ذلك. فقال الخرائطيّ: أيّها

الصَّاحِبِ وَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَ، فَلَا تَغْضَبْ؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ وَثِقَ بِأَنَّهُ لَا يُرَاجِعُ فِي قَوْلِهِ وَفَعَلَهُ رَكِبَ مَا يُحَقِّقُ فِيهِ شَاهِدًا أَوْ غَائِبًا. فَقَامَ عَنْهُمَا خَزْيَانٌ يُرَدِّدُ رِيقَهُ حَقْدًا عَلَيْهِمَا، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا كَبِيرًا فِي فَسَادِ أَمْرِهِمَا^(١).

ومثل هذا التَّحذُّبُ والتَّعْصِيرُ يَزْدَادُ بَرُوزَهُ إِذَا قُرِنَ بِسُهُولَةِ كَلَامِ الْجَوَارِي وَلِينِهِ. قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ لَجَارِيَةٍ كَانَتْ يَهْوَاهَا «يَا خَرِيدَةُ أَخَالُكَ عَرُوبًا، فَمَا لَكَ نَمِيقُكِ وَتَشْتَيْنَا؟» فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَحِبُّ أَحَدًا وَيَشْتَمُهُ سِوَاكَ. فَالْكَلَامُ الْحَوْشِيُّ الْحَسَنُ وَإِنْ تَضَمَّنَ مَدْحًا لَا يُنَاسِبُ رِقَّةَ الْجَوَارِي وَنُعُومَتَهُنَّ وَمَلَاسَتَهُنَّ، حَتَّى الْمُتَأَدِّبَاتِ مِنْهُنَّ اللَّوَاتِي يُحَسِّنُ فُنُونَ الْكَلَامِ. قِيلَ اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْقَاضِي الْعَوْفِيِّ جَارِيَةً، فَعَاصَتُهُ، وَلَمْ تُطِغْهُ، فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى الْعَوْفِيِّ، فَقَالَ: أَنْفِذْهَا إِلَيَّ حَتَّى أَكَلِّمَهَا، فَأَنْفَذَهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: يَا عَرُوبُ يَا لِعُوبٍ يَا ذَاتَ الْجَلَابِيبِ، مَا هَذَا التَّمَنُّعُ الْمُجَانِبُ لِلْخَيْرَاتِ وَالِاخْتِيَارِ لِلْأَخْلَاقِ الْمَشْنُوءَاتِ؟ قَالَتْ لَهُ: أَيُّدُ اللَّهِ الْقَاضِي، لَيْسَتْ لِي فِيهِ حَاجَةٌ فَمُرْهُ يَبِيعَنِي، فَقَالَ: يَا مُنِيَّةُ كُلُّ حَكِيمٍ وَبِحَاثٍ عَنِ اللَّطَائِفِ عَلِيمٍ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ فَرْطَ الْإِعْتِيَاضَاتِ مِنَ الْمَوَاقَاتِ عَلَى طَالِبِي الْمَوَدَّاتِ، فَقَالَتْ لَهُ الْجَارِيَةُ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَصْلَحُ لِهَذِهِ الْعُنُونَاتِ الْمُتَشَتِّرَاتِ عَلَى صُدُورِ أَهْلِ الرِّكَكَاتِ مِنَ الْمَوَاسِي الْحَالِقَاتِ، وَضَحَكَتْ وَضَحَكَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ. وَكَانَ الْعَوْفِيُّ عَظِيمَ اللَّحِيَةِ.

وَرُبَّمَا صَرَفَ اللَّفْظَ الْحَلُوَّ الدَّهْنُ عَنْ مَعْنَى الْكَلَامِ. فَلَقَدْ كَانَ لِرَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ امْرَأَةٌ رَغْنَاءٌ سَأَلَتْهُ أَنْ يُشَبِّبَ بِهَا، فَقَالَ:
تَمَّتْ عُيُودُهَا إِلَّا فِي مَلاَحَتِهَا وَالْحَسَنُ مِنْهَا بِحَيْثِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
مَا خَالَفَ الطَّبِيبِي مِنْهَا حِينَ تُبَصِّرُهَا إِلَّا سَوَالِفُهَا وَالْجَيْدُ وَالنَّظَرُ
فَأَرْضَاهَا بِهَذِهِ الْأَلْفَافِ الْجَمِيلَةِ وَحَسِبَتْ أَنَّ مَدَحَهَا.

وَكَثِيرًا مَا انْتَبَهَ الشُّعْرَاءُ الْمُبِينُونَ إِلَى دَرَجَةِ الْمُخَاطَبِينَ مِنَ الثَّقَافَةِ وَالْبَيَانِ، فَكَلَّمُوهُمْ بِلُغَتِهِمْ الَّتِي يَفْهَمُونَهَا وَبَعْقَلِيَّتِهِمُ الَّتِي اخْتَصُّوا بِهَا. يَقُولُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي حَبِيبَتِهِ:
عِتَابَةُ النَّفْسِ كَاعِبِ شِكْلِهِ كَخَلَاءٍ بِالْحَسَنِ غَيْرِ مُكْتَنِحِلِهِ
بِاللَّهِ هَلْ تَذَكِّرِينَ يَا سَكْنِي وَأَنْتِ لَا تُقْصَرِينَ فِي الْحَجَلِ
أَيَّامَ كُنَّا وَنَحْنُ فِي صِغَرٍ نَلْعَبُ هَالَا مُهْلَهْلَا هَلَّاكَه؟
وَكَذَلِكَ ضَحِكُوا مِنَ الْأَعْرَابِ مَا شَاؤُوا. سُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنْ جَارِيَةٍ لَهُ يُقَالُ لَهَا

(١) أخلاق الوزيرين تحقيق الأستاذ محمد الطنجي ص ١٠٤، ١٠٥.

زَهْرَة، فَقِيلَ لَهُ: أَيْسَرُكَ أَنْتَ الْخَلِيفَةُ وَأَنْ زَهْرَةُ مَاتَتْ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ. تَذْهَبُ الْأُمَّةُ وَتَضْمَعُ الْأُمَّةُ.

وَوَجَدَ أَعْرَابِيٌّ مَرَأَةً، وَكَانَ قَبِيحَ الصُّورَةِ، فَنَظَرَ فِيهَا فَرَأَى وَجْهَهُ فَاسْتَقْبَحَهُ، فَرَمَى بِهَا وَقَالَ: لَشَرٍّ مَا طَرَحَكَ أَهْلُكَ.

وَرَأَى أَعْرَابِيٌّ النَّاسَ بِمَكَّةَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُ مَا أَمَكْنَهُ، فَقَالَ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّه لَا مَالَ لِي وَأَشْهَدُكَ أَنَّ امْرَأَتِي طَالِقٌ لَوَجْهِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

بَلْ مَسَّتِ الْفُكَاةُ بَاتِّسَاعِهَا بَعْضَ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالَّذِينَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ (أَبُو الْعَيْنَاءِ): سُئِلَ بَعْضُ الْمُجَانِّ، كَيْفَ أَنْتَ فِي دِينِكَ؟ فَقَالَ: أَخْرِقُهُ بِالْمَعَاصِي وَأَرْقِعُهُ بِالِاسْتِغْفَارِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ: تَحْفَظُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: إِيَّاهُ أَوَّلَ الدُّخَانِ؟ قَالَ: الْحَطَبُ الرُّطْبُ.

وَاللَّطْفُ مِنْ ذَلِكَ الْمُدَاعَبَاتِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ. قَالَ رَجُلٌ لِنِسْوَةٍ: إِنَّكَ صَوَاحِبُ يَوْسُفَ. فَقُلْنَ: فَمَنْ رَمَاهُ فِي الْجُبِّ نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ!!

تَصْنِيفُ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ:

وَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ اسْتِيفَاضَةَ الْفُكَاةِ فِي تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ اسْتِيفَاضَةً وَاسِعَةً. وَأَكْثَرُ كُتُبِ الْأَدَبِ تَشْتَمِلُ عَلَى فُصُولٍ لِلنُّوَادِرِ وَالْفُكَاةَاتِ لَيْسَتْ إِلَّا صُورًا لِمَا شَاعَ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ تَفَاوَتْ أَلْوَانُ الضَّحِكِ فِي خِلَالِ الْعُصُورِ، فَكَانَ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِسْلَامِ يَقْصِدُ إِلَى التَّحَبُّبِ وَالِاسْتِجْمَامِ وَدَعَمَ أَوَاصِرَ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ صَارَ الضَّحِكُ يُقْصَدُ لِدَاتِهِ، ثُمَّ أَصْبَحَ وَسِيلَةً لِإِلْهَاءِ الْأَمْرَاءِ وَالْمُلُوكِ وَيَسْطِ اسَارِيرِهِمْ وَتَسْلِيَتِهِمْ وَالتَّعْيِشِ عَلَى حَسَابِ ذَلِكَ وَكَسَبِ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ، كَمَا أَصْبَحَ سِلَاحًا فِي أَيْدِي اللُّسِينِ الْمُبِينِينَ أَصْحَابِ الْعَارِضَةِ الْحَاضِرَةِ وَالبَدِيهِةِ الْمُتَوَبِّةِ يُدَافِعُونَ بِهِ عَنْ أَصْدِقَائِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ وَيُنَازِلُونَ أَعْدَاءَهُمْ وَأَنْدَادَهُمْ. وَهَذَا يَشْفُ عَنْ تَطَوُّرِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ إِبَّانَ تِلْكَ الْعُصُورِ.

وَقَدْ دَرَسَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْاجْتِمَاعِ أَشْكَالَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِوَجْهِ عَامٍّ وَصَنَّفَهَا تَصْنِيفًا مُجْمَلًا. وَأَهْمُ مِنْ عَمَدَ إِلَى ذَلِكَ الْعَالَمِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْأَلْمَانِيَّ فَرْدِينَانْدُ تُونِيَزُ Ferdinand Toennies (١٨٥٥ - ١٩٣٦). وَتَصْنِيفُهُ لِأَشْكَالِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ غَدَا مُتَعَارَفًا شَائِعًا، وَهُوَ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنْهَا دَعَا أَحَدَهُمَا الْعَشِيرَ Gemeinschaft والثَّانِي الْمَجْتَمَعَ Gesellschaft وَحَمَلَ كُلًّا مِنْهُمَا مَعَانِيَّ خَاصَّةً مُتَبَايِنَةً. وَشَاعَ اللَّفْظَانِ بِاللُّغَةِ

الألمانية حتى إنه ليعسر تماماً وجدان ما يقابلهما في اللغات الأخرى لأنّ لهما في تلك اللغة من الإيحاء والتأثير ما ليس لأمثالهما المُقابلة في بقية اللغات.

أمّا العَشير فيستند في معناه إلى الإرادة الجمعيّة العميقة التي تمتدّ بجُذورها إلى العواطف والنزعات الخفيّة وروابط الدّم والتي تقوى بوادرها بالمرانة والتأكيد والعزيمة حتى تغدو بمثابة شعار واحد، ثمّ تنتهي وتتخذ شكل العقيدة والإيمان. ويتنصوي تحت هذه الفكرة الجماعات الطّبيعيّة القائمة على وشائج القربى وأواصر التعاطف والتضامن العفويّ الصّميم كالأسرة والقبيلة وأمثالهما، وتسود هذه الجماعات عادات واحدة جارية مُتداوِلة.

وأمّا المجتمع فينشأ شيئاً فشيئاً عن الإرادة الطّليقة الفرديّة الواعيّة والاختيار الحرّ المُنظّم، وهو نتيجة تطوّر العَشير وفساده. والعادات التي كانت تسود العَشير تنقلب في المجتمع فتبدو في مظهر الأزياء. ويشتدّ التّفكير في المجتمع، ولكن تضمر الحيويّة فيه، ويقلّ التضامن، ويكثر الأشخاص الذين يسعون وراء أرباحهم وأهوائهم المُتفرّقة سعيّاً لا يثيره ضمير ولا ترفده عقيدة، فتُسيطر عندئذ المنافع الفرديّة بدلاً من المصلحة المُشتركة^(١).

والباحث الذي يتأمل علاقات الأفراد بعضهم ببعض من خلال نموذج الفكاهة الشائع لا بدّ أن يتحقّق تطوّر تلك العلاقات من شكل «العَشير» إلى شكل «المجتمع» بالمعنيين اللّذين شرحناهما. فلقد كان التضامن بين الأفراد عميقاً وعفويّاً. كانوا جميعاً يصدّرون عن عقيدة واحدة وإيمان ربّط بين قلوبهم وعزائهم، ثمّ أصبحوا فِرَقاً وطبقات وجماعات، وكلّ امرئ منهم يسعى وراء منفعته بما أوتي من جهد، وأُتيح له من حَوْل وبما ملك من طاقة ومن وسيلة. والثّكّة كانت إحدى الوسائل المُتّبعة.

الفكاهة وأدب الكُديّة:

ويصحّ لبيان سوء توزيع الثروة أن نَعمد للتّاريخ فنبحث عن مظاهر البَذخ والأبهة والترّف والسرف التي شاعت في أواخر الدّولة الأمويّة وفي جوانب الدّولة العبّاسيّة خاصّة

(١) لتفصيل الفروق انظر كتابنا «تمهيد في علم الاجتماع» سنة ١٣٨٣ - ١٩٦٤، ص ٥٨٠ - ٥٨٢. وقد زاد شمالنباخ بعد تونيز على شكلي الحياة الاجتماعيّة شكلاً ثالثاً دَعاه بالبونت Bund أي الحلف والعهد، وهو تَجَمُّع نشيط فَعَال مُساند قائم على إرادة الثّعاون، ثم زاد غيرهما أشكالاً أخرى. ولكنّ الاقتصار على الشّكلين العامّين اللّذين نَوّه بهما تونيز أفضل لإبراز شدّة التّناقض بينهما.

من جهة وكذلك نُتَقَّب عن تاريخ المجاعات في تلك الأزمنة وتَمَوُّج الأسعار وأخبار الفقر والشقاء من جهة مُقَابِلَة. فَإِنَّهُ لَنْ يَصْبِغَ البَحْثُ وَالتَّنْقِيبُ عَبَثًا. بَلْ نَعْتَرُ عَلَى مَعْلُومَاتٍ صَافِيَةٍ عَنِ مَالِيَّةِ الْحُكُومَاتِ وَأَنْوَاعِ الْجَبَايَاتِ وَوُجُوهِ جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَطُرُقِ صَرْفِهَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ تَأْتِي فِي طَلَاعِ الدِّرَاسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُفِيدَةِ، وَتَحْتَاجُ أَنْ يُفَرَّدَ لَهَا كِتَابٌ.

وَلَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا فِي بَغْدَادٍ: «جَنَّةُ الْمُوسِرِ وَجَحِيمُ الْمُعْسَرِ». وَلَكِنَّا هُنَا لَا نَزِيدُ أَنْ نَخْرُجَ عَنْ نِطَاقِ الثُّكْتَةِ وَالْفُكَاةِ وَالتَّادِرَةِ، فَلَسْنَا نَذْكُرُ إِلَّا مَا اتَّصَلَ بِهَا بِسَبَبٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْفَصْلِ إشاراتٌ مُتَكَرِّرَةٌ إِلَى تَغْيِيرِ مَلَاحِجِ الضُّحِكِ بِحَسَبِ الْمَرَاهِلِ التَّارِيخِيَّةِ، فَلَقَدْ صَارَ وَسِيلَةً لِلْكَسْبِ عِنْدَ أَصْحَابِ الْفُكَاةِ وَالتَّادِرَةِ الَّذِينَ يَتَّصِلُونَ بِالْأَمْوَالِ أَوْ يَعِيشُونَ فِي بِلَاطِ الْخُلَفَاءِ. حَتَّى الرُّوَاةُ وَالْعُلَمَاءُ وَالشُّعْرَاءُ لَمْ يَخْرُجْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ هَذَا الْإِتِّصَالِ أَوْ الْإِزْبَاطِ. يَقُولُ الْأَصْمَعِيُّ: «بِالْعِلْمِ وَصَلْنَا وَبِالْمُلْحِ نَلْنَا»، وَلَكِنَّا هُنَا نَحْبُثُ أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَمْرِ لَهُ عِلَاقَةٌ وَاشِجَّةٌ بِالضُّحِكِ وَهُوَ نُشُوءُ الْأَدَبِ الْفُكَاهِيِّ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْحِجْلِ السَّاسَانِيَّةِ وَالْكُذْبَةِ. وَقَدْ غَدَّتْ هَذِهِ حِرْفَةٌ وَصَنَاعَةٌ وَلَا سِيَّمًا فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ وَشَاعَ أَمْرُهَا. يَنْقُلُ مُؤَلِّفُ «كَشَفِ الطُّنُونِ» فِي شَرْحِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهَا «عِلْمٌ يُعَرَفُ بِهِ طَرِيقُ الْإِحْتِيَالِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَتَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ. وَالَّذِي بَاشَرَهَا يَتَزَيَّا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ بِزِيٍّ يُنَاسِبُ تِلْكَ الْبَلَدَةَ بِأَنْ يَعْتَقِدَ أَهْلُهَا فِي أَصْحَابِ ذَلِكَ الزِّيِّ، فَتَارَةً يَخْتَارُونَ زِيَّ الْفُقَهَاءِ وَتَارَةً يَخْتَارُونَ زِيَّ الْوُعَاظِ وَتَارَةً يَخْتَارُونَ زِيَّ الْأَشْرَافِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ يَحْتَالُونَ فِي خِدَاعِ الْعَوَامِ بِأُمُورٍ تَعَجِزُ الْعُقُولُ عَنْ ضَبْطِهَا. مِنْهَا مَا حَكَى وَاحِدٌ أَنَّهُ رَأَى فِي جَامِعِ الْبَصْرَةِ قِرْدًا عَلَى مَرْكَبٍ مِثْلَ مَا يَرْكَبُهُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ وَعَلَيْهِ أَلْبَسَةٌ نَفِيسَةٌ نَحْوَ مَلْبُوسَاتِهِمْ وَهُوَ يَبْكِي وَيَنُوحُ وَحَوْلَهُ خَدَمٌ يَتَّبِعُونَهُ وَيَكُونُ وَيَقُولُونَ: يَا أَهْلَ الْعَافِيَةِ! اعْتَبَرُوا بِسَيِّدِنَا هَذَا، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، عَشَقَ امْرَأَةً سَاحِرَةً، وَبَلَغَ حَالَهُ بِسِحْرِهَا إِلَى أَنْ مُسِخَ إِلَى صُورَةِ الْقِرْدِ، وَطُلِبَتْ مِنْهُ مَالًا عَظِيمًا لِتَخْلِيصِهِ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ، وَالْقِرْدُ فِي هَذَا الْحَالِ يَبْكِي بِأَنْبِينٍ وَحَنِينٍ، وَالْعَامَّةُ يَرْقُونَ عَلَيْهِ وَيَكُونُ. وَجَمَعُوا لِأَجَلِهِ شَيْئًا مِنَ الْأَمْوَالِ، ثُمَّ فَرَشُوا لَهُ فِي الْجَامِعِ سَجَّادَةً فَصَلَّى عَلَيْهَا رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى الْجُمُعَةَ مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ ذَهَبُوا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْجُمُعَةِ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ. وَأَمْثَالُ هَذِهِ كَثِيرَةٌ»^(١).

وَرَبَّمَا كَانَ الْجَاحِظُ أَوَّلَ مَنْ عَالَجَ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْأَدَبِ حِينَ تَنَاولَ بِفَنِّهِ مُخْتَلِفَ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ وَمُتَفَاوِتِ طَبَقَاتِ النَّاسِ فَوَصَفَ أَهْلَ التَّكْذِيبَةِ فِي كِتَابِهِ الطَّرِيفِ الطَّرِيفِ

(١) مطبعة المعارف، استانبول، سنة ١٩٤١ ج ١ ص ٦٩٤ - ٦٩٥.

«البُخلاء» وذلك على لسان خالد بن يزيد مولى المَهَالِيَّةِ و«هو خالويه المُكدي وكان قد بلغ في البُخل والتَّكْدِيَّةِ وفي كثرة المال المَبَالِغ التي لم يَلْنُهَا أحد».

والتَّكْدِيَّةِ تتجاوز الاستِعطاء والاستِجداء والشُّحَاذَةَ إلى اضْطِياذ المال بمختلف الطُّرُق والوسائل وإلى التَّدْرُج بالقوَّة تارة والاختِيال طَوْرًا واستِعطاف النَّاس أحيانًا. وقد عالج أبو عثمان هذا الموضوع بمهارة فنيَّة بارعة ودراية بجوانبه وخفاياه واسعة. فأجلس خالد بن يزيد هذا في أحد مجالس البصرة وجعل سائلًا يمرُّ به ويسأله فيعطيه دِرْهَمًا ثُمَّ يَسْتَدْرِك فيسْتَرُدُّه ويعطيه فَلَسًا لأنَّه عرف بمحض الفِرَاسَةِ أن السائل من مساكين الفلوس لا مساكين الدِّراهم، وهكذا يُهيئ أبو عثمان الفرصة المُناسبة لكي يحكي خالد تجرِبته هو نفسه في هذا المضمار.

يقول الجاحظ: «وكان ينزل في شقِّ بني تميم، فلم يَعْرِفْوه. فوقف عليه ذات يوم سائل وهو في مجلس من مجالسهم. فأدخل يده في الكيس لِيُخْرِج فَلَسًا - وفلوس البصرة كبار - فغلط بدِرْهم بَغْلِيٍّ، فلم يَقْطُنْ حتى وضعه في يد السائل. فلَمَّا فَطَن استَرَدَّه، وأعطاه الفُلُس. فقيل له: هذا لا نَظَنُّهُ يَحُلُّ، وهو بعد، قبيح. قال: قبيح عند من؟ إنِّي لم أجمع هذا المال بعقولكم، فأَفَرَّقَه بعقولكم. ليس هذا من مساكين الدِّراهم، هذا من مساكين الفلوس. والله ما أَعْرِفُه إلَّا بالفِرَاسَةِ. قالوا: وإنَّكَ لَتَعْرِفُ المُكْدِينَ؟ قال: وكيف لا أَعْرِفُهم وأنا كنت كاجار^(١) في حَدَاثَةِ سَيِّ. ثُمَّ لم يَبْقَ في الأرض مَخْطَرَانِيَّ ولا مُسْتَعْرِضَ إلَّا فُقَّتْهُ، ولا شَحَّاذ، ولا كاغانِيَّ، ولا بانوان، ولا قَرَسِيَّ ولا عَوَاء، ولا مشعَّب، ولا فلور، ولا مزِيدِيَّ، ولا إسْطِيل، إلَّا وقد كان تحت يدي. ولقد أكلْتُ الزُّكُورِيَّ ثلاثين سنة. ولم يَبْقَ في الأرض كَعْبِيَّ ولا مُكْدٌ إلَّا وقد أخذت العِرافَةَ عليه...

وإنَّما أراد بهذا أن يُوَسِّمَهم من ماله حين عرف حِرْصَهم وجَشَعُهم وسوء جِوارهم^(٢).

(١) كاجار: نَوْرِي وهو قريب من لفظ الغجر كما أشار إلى ذلك محقق الكتاب.
(٢) البخلاء تحقيق طه الحاجري ص ٣٩، ويشرح الجاحظ الألفاظ التي وَرَدَتْ فيقول، «المَخْطَرَانِيَّ: الذي يَأْتِيكَ فِي زِيٍّ نَاسِكَ وَيُرِيكَ أَنَّ بَابَكَ قَدْ قَوَّرَ لِسَانَهُ مِنْ أَصْلِهِ لِأَنَّهُ كَانَ مُؤَدِّنًا هُنَاكَ. ثُمَّ يَفْتَحُ فَاهُ كَمَا يَصْنَعُ مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَرَى لَهُ لِسَانًا أَلْبَنَةً، وَلِسَانَهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَلِسَانَ الثَّوْرِ، وَأَنَا أَحَدُ مَنْ خُدِعَ بِذَلِكَ. وَلَا بَدْءَ لِلْمَخْطَرَانِيَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ وَاحِدٌ يُعَبِّرُ عَنْهُ أَوْ لَوْحٌ أَوْ قِرْطَاسٌ قَدْ كُتِبَ فِيهِ شَأْنُهُ وَقَصَّتْهُ. وَالكَاغَانِي: الَّذِي يَتَجَنَّنُ وَيَتَصَارَعُ وَيُزِيدُ حَتَّى لَا يُشَكُّ أَنَّهُ مُجَنُونٌ لَا دَوَاءَ لَهُ لَشِدَّةِ مَا يُنْزِلُ بِنَفْسِهِ، وَحَتَّى يُتَعَبَّبَ مِنْ بَقَاءِ مِثْلِهِ عَلَى مِثْلِ عِلَّتِهِ.
والبَانَوَان: الَّذِي يَقِفُ عَلَى الْبَابِ وَيَسِلُ الْغُلُقُ وَيَقُولُ: بَانُوا. وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ بِالْعَرَبِيَّةِ يَا مَوْلَايَ.

ومثل هذه الصنعة ينبغي أن يتوارثها الأبناء عن الآباء. فنجد الجاحظ بعدئذ يسوق وصية خالويه عند موته لابنه. وهي آية في براعة العرض وتوفد الذكاء.

ويبدو أن هذا اللون من الأدب قد راج لأنه يهتك أساليب المكذّين ويكشف حيلهم الغريبة الخادعة المضللة. وكذلك راجت تلك الصنعة وازدهرت ودرّست على أصحابها بالأموال الوافرة. فلا عجب أن ينشأ شعر يطوف حول هذا الموضوع، وينشأ شعراء اختصّوا به يؤهّون بالتكديّة ويُشيدون بمزايا بني ساسان^(١). وقد وصف الثعالبي في «يتيمة

والقرسيّ: الذي يعصب ساقه وذراعه عضباً شديداً ويبيت على ذلك ليلة فإذا تورّم واختنق الدّم مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين وقطر عليه شيئاً من سمن وأطبق عليه خرقة وكشف بعضه، فلا يشك من رآه أن به الأكلة أو بليّة شبه الأكلة.

والمشعب: الذي يحتمل للصبّي حين يُولد بأن يعميه أو يجعله أعسم أو أعصّد، ليسأل الناس به أهله. وربما جاءت به أمه وأبوه ليتولّى ذلك منه بالغرم الثقيل، لأنه يصير حيثلد عقدة وغلة. فأما أن يكتسبها به وإما أن يكرّياها بكرام معلوم. وربما أكرّوا أولادهم ممّن يمضي إلى إفريقية، فيسأل بهم الطريق أجمع، بالمال العظيم، فإن كان ثقة مليّاً، وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً.

والفلور: الذي يحتمل لخصّيته حتى يُريك أنه آدر. وربما أراك أن بها سرطاناً أو خراجاً أو غرباً. . .

والعوّاء: الذي يسأل بين المغرب والعشاء، وربما طرب إن كان له صوت حسن وحلق شجيّ.

والإسطيل: هو المتعامي، إن شاء أراك أنه مُنخسف العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماء، وإن شاء أراك أنه لا يُبصر للخنس ولريح السبل.

والمزدي: الذي يدور معه الدرّهمات، ويقول: هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة، فزيدوني فيها رحمكم الله. وربما احتمل صبياً على أنه لقيط، وربما طلب في الكفن.

المستعرض: الذي يُعارضك وهو ذو هيئة وفي ثياب صالحة، وكأنه قد مات من الحياء، ويخاف أن يراه معرفة، ثم يعترضك اعتراضاً ويكلّمك خفياً.

والمقدّس (أو المعدس لم يرد ذكره وربما سقط): الذي يقف على الميت يسأل في كفنه، ويقف في طريق مكة على الحمار الميت والبعير الميت فيدّعي أنه كان له ويزعّم أنه قد أحصر. وقد تعلّم لغة الخراسانية واليمانية والأفريقية، وتعرّف تلك المدن والسكك والرجال. وهو متى شاء كان إفريقيّاً، ومتى شاء كان من أهل قرغانة، ومتى شاء كان من أيّ مخاليف اليمن شاء.

والمكذّي: صاحب الكداء.

والكعبيّ: أضيف إلى أبيّ بن كعب الموصليّ وكان عريفهم بعد خالويه سنة على ماء.

والزكوري: هو خبز الصدقة، كان على سجين أو على سائل.

هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط. وهم أضعاف ما ذكرنا في العدد. ولم يكن يجوز أن نتكلّف شيئاً ليس من الكتاب في شيء ص ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(١) نسبّتهم إلى ساسان لم يتعرّض لها أحد من علماء اللغة، إلا ما جاء في «تاج العروس»: «وقال ابن شميل، يُقال للسؤال هؤلاء بنو ساسان» ويورد المطرزيّ في شرحه على مقامات الحريريّ أن ساسان رأس الشحاذين وكبيرهم هو ساسان بن بهمن أحد ملوك الفرس المعروف بساسان الأكبر، عهد أبوه =

الدَّهْر» الأحنف العُكْبَرِيُّ فقال: «شاعر المُكْدِّين وظريفهم، ومليح الجملة والتفصيل منهم. وقرأت للصَّاحِب فصلاً في ذِكْره فأوردته، وهو لو أنشدتك ما أنشدنيه الأحنف العُكْبَرِيُّ لنفسه وهو فرَّد بني ساسان اليوم بمدينة السَّلام وحَسَن الطَّرِيقَة في الشُّعر لا متلات عَجَباً من ظَرْفه وإعجاباً بنظمه، ولا أقلَّ من إيراد مَوْضِع افتخاره فإنَّه يقول:

على أنِّي بحمد الله	ه في بيت من المجد
بإخواني بني ساسا	ن أهل الجند والحند
لهم أرض خراسا	ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج	إلى البلغار والسند
إذا ما أغوز الطُّرُق	على الطُّرَّاق والجُند
جداراً من أعاديهم	من الأعراب والكُرد
قطعتنا ذلك النهج	بلا سيف ولا غنم
ومن خاف أعاديهم	بنا في السُّرُوع يستعدي

ولهذا البيت الأخير معنى بديع. وتفسيره: يُريد أنَّ ذَوِي الثَّرْوَة وأهل الفضل والمُرُوَّة إذا وقع أحدهم في أيدي قُطَّاع الطَّرِيق وأحبَّ التَّخلُّص قال أنا مُكَّدٌ. فانظر كيف غاص وأبرز لهذا المعنى المُعتَص. إلى ههنا كلام الصَّاحِب^(١).

ويُورد الثَّعالبيُّ في اليتمة قول الأحنف هذا وفي قوله إشارة إلى اختلاف الأرزاق وإلى ضِغْنه على المُثْرِين:

رايتُ في الثَّوم دُنِياناً مُزخرفه	مثل العروس تراءتُ في المقاصير
فقلتُ جودي فقالت لي على عجل	إذا تَخَلَّصْتُ من أيدي الخنازير

وكذلك قوله واصفاً حاله:

العنكبوت بنتٌ بيتاً على وَهَن	تأوي إليه ومالي مثله ووطن
والخُنُفساء لها من جنسها سَكَن	وليس لي مثلها إلف ولا سَكَن

ومثل الأحنف العُكْبَرِيُّ في مُعالِجَة الشُّعر السَّاسانيِّ أبو دلف الخزرجيَّ اليَبُوعِيَّ

= بالملك لاخته فَأَنَفَ من ذلك وانطلق فاشترى غنماً، وأقام يرعاها بالجبال، ويُعاشِر الرُّعيَّان، فغِيرَ بذلك، ثُمَّ نُسِبَ إليه كُلُّ من تَكْدَى أو باشر أمراً حقيراً من العُميِّ والغُور والمُشغُوزِين والكَلَّابِين والقَرَّادِين وأمثالهم.

(١) ويجوز أن يكون الشُّطر الثَّاني من البيت الثَّاني أهل الجَد والجَد أي أهل السَّعيِّ والحظِّ، طبعة دمشق ج ٢، ص ٢٨٥، ٢٨٦، طبعة مصر ١٩٣٤، ج ٣، ص ١٠٤.

وهو غير الأمير العربيّ المشهور الذي مدحه الطائي. وفي يتيمة الدّهر أيضاً أنّه «شاعر كثير المُلح والظّرف، مَشحوذ المُذبة في الجَذبة، خنق التّسعين في الإطراب والاغتراب وزُكوب الأسفار الصّعاب، وضرب صفحة المِحراب بالجِراب، في خِدمة العلوم والآداب»^(١). ثمّ يذكر الثّعاليّ اتّصاله بالصّاحب بن عبّاد فيقول: «وكان يَتتاب حضرة الصّاحب، ويكثرُ المقام عنده، ويكثرُ سواد غاشيته وحاشيته، ويرتَفق بِخدمته، ويرتَرق في جُمْلته، ويتزوّد كُتبه في أسفاره، فتجري مَجرى السّفاتج في قضاء أوطاره، وكان الصّاحب يحفظ مُناكاة بني ساسان حِفْظاً عَجيباً، ويُعجبه من أبي دُلف وفور حظّه منها. وكانا يتجادبان أهدابها ويَجريان فيما لا يقطن له حاضرها. ولمّا أتَحقه أبو دلف بقصيدته التي عارض بها داليّة الأحنف العُكبريّ في المُناكاة وذكر المُكدين والتّنبية على فُنون جِرْفهم وأنواع رسومهم وتنادر بإدخال الخليفة المُطيع لله في جملتهم، وقد فسّرها تفسيراً شافياً كافياً، اهتزّ ونشط لها، وتَبَجّج بها، وتَحَفّظ كلّها، وأجزل صلته عليها»^(٢).

يقول أبو دلف من قصيدته السّاسانيّة:

تَعَرَّيْتُ كُفْصَنَ الْبَا	ن يِيْن الْوَرَقِ الْخُضْر
وَشَاهَدْتُ أَعَاجِيّاً	وَأَلَوَانَا مِنَ الدّْهَر
فطابث بالتّوى نفسي	على الإمساك والفِطْر
على أُنّي من القوم الـ	بِهاليل بني الغُرّ
بني ساسان والحامي الـ	حمى في سالف العُصْر..
فنحن النّاس كلُّ النّاس	س في البرّ وفي البَحْر
أَخَذْنَا جِرَازِيّة الخَد	ق من الصّين إلى مصر
إلى طُنْجَة بل في كـ	ل أرض خَيْلنا تَسْري
إذا ضاق بنا قطر	نَزُل عنه إلى قطر
لنا الدّنيا بما فيها	من الإسلام والكُفْر
فنضطاف على الثّلج	ونشتو بلد التّمْر

ثم يمضي المُتطبّب المُنجّم الشّاعر فيصِف أحوال السّاسانيّين وجُملة أمورهم وحيلهم. ويعمد الثّعاليّ إلى ذِكر معاني ما جاء في القصيدة من مُضطلّحاتهم وشؤونهم.

(١) طبعة دمشق ج ٣، ص ١٧٤، طبعة مصر ج ٣ ص ٣٢١.

(٢) طبعة دمشق ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥، طبعة مصر ج ٣، ص ٣٢١، ٣٢٢.

فَتَكْتَسِبُ الْقَصِيدَةَ قِيَمَةً بِتِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ زِيَادَةً عَلَى مَا فِيهَا مِنْ تَهَكُّمٍ خَفِيٍّ. مِثْلُهَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ قِصَّةِ الْجَاحِظِ.

وَأَهَمُّ أَدَبِ الْكُذْبَةِ مَا اتَّصَلَ بِأَدَبِ الْمَقَامَاتِ، مَقَامَاتِ الْهَمْدَانِيِّ وَالْحَرِيرِيِّ. ذَلِكَ أَنَّهَا تَدُورُ أَخْبَارُهَا جَوْلَ أَشْخَاصٍ ضَرَبُوا مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْعِلْمِ وَالذِّكَاةِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ. وَلَكِنَّهُمْ مُعْسِرُونَ فَقَرَاءَ يَلْتَمِسُونَ مُخْتَلَفَ السَّبِيلِ لِتَصِيدَ الْمَالِ وَالْاِخْتِيَالِ عَلَى جَمْعِهِ. فَهِيَ تُفِيدُ الْقَارِئَ أَسَالِيبَ الْبَيَانِ الرَّائِجَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ كَمَا تُسَلِّيهِ بِالنُّوَادِرِ وَالطَّرْفِ يَحْكُمُهَا أَبْطَالُهَا مِنْ أَهْلِ الْكُذْبَةِ الَّذِينَ شَاعَتْ أَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ الزَّآخِرِ بِالْمُتَنَاقِضَاتِ. وَمِنْ تِلْكَ الْمُتَنَاقِضَاتِ تَفَاوُتُ الْحِظُوظِ مِنَ الثَّرْوَةِ. وَقَدْ ضَمَّنَ الْبَدِيعُ أَوَّلَى مَقَامَاتِهِ ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ نَسَبَهَا الثَّعَالِبِي فِي الْيَتِيمَةِ عَلَى لِسَانِ بَدِيعِ الزَّمَانِ إِلَى أَبِي دَلْفِ الْخَزْرَجِيِّ، مِنْهَا هُذَانُ الْبَيْتَانِ الْمَحْمُولَانِ عَلَى التَّهَكُّمِ لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ:

وَيَحْكُ هَذَا الزَّمَانُ زُورَ فَلَا يَغَرُّكَ الْغُرُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَهُ وَلَكِنْ دُزْ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ

وَيُنَدُّ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ فِي الْمَقَامَةِ السَّاسَانِيَّةِ بِشَوْمِ الزَّمَانِ وَثُرَاتِ اللَّثَامِ:

هَذَا الزَّمَانُ مَشُومٌ كَمَا تَرَاهُ غَشُومٌ
الْحَمَقُ فِيهِ مَلِيحٌ وَالْعَقْلُ عَيْبٌ وَلُومٌ
وَالْمَالُ طَيْفٌ وَلَكِنْ حَوْلَ اللَّثَامِ يَحُومُ

وَفِي مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ مَقَامَةٌ تُدْعَى بِالسَّاسَانِيَّةِ أَيْضاً تَتَضَمَّنُ أَنَّ أَبَا زَيْدِ السَّرُوجِيِّ بَطَلَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ لَمَّا شَاخَ أَوْصَى ابْنَهُ بِأَنْ لَا صِنَاعَةَ أَنْفَعِ مِنَ الْكُذْبَةِ. وَمَوْضُوعُهَا يُذَكِّرُ وَصِيَّةَ خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْجَاحِظُ فِي بُخْلَائِهِ وَأَشْرَفْنَا إِلَيْهَا وَلَكِنَّ الْمُعَالَجَةَ تَخْتَلِفُ نَظْراً لِتَطَوُّرِ الْأَسَالِيبِ الْأَدَبِيَّةِ. يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ فِي خِتَامِهَا مُتَهَكِّماً: «قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَامٍ، فَأُخْبِرْتُ أَنَّ بَنِي سَاسَانَ، حِينَ سَمِعُوا هَذِهِ الْوَصَايَا الْحَسَنَةَ، فَضَلُّوها عَلَى وَصَايَا لُقْمَانَ، وَحَفَظُوهَا كَمَا تُحَفَظُ أُمُّ الْقُرْآنِ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُرَوْنَهَا إِلَى الْآنِ أَوَّلَى مَا لَقْنُوهُ الصَّبِيَّانِ، وَأَنْفَعُ لَهُمْ مِنْ نَحْلَةِ الْعُقَيَّانِ».

وَالَّذِي يُطَالِعُ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ يَعْجَبُ لِمَهَارَةِ بَطْلِهَا السَّاسَانِيَّةِ عَجَبَهُ لِصِنَاعَةِ مُؤَلِّفِهَا الْأَدَبِيَّةِ. فَيَجِدُ صُوراً شَتَّى لِأَبِي زَيْدٍ وَالْأَعْيَةِ مَرَصَّعَةً بَيَانِ الْمُؤَلِّفِ مُزْخَرَفَةً بِشَرَاءِ لُغَتِهِ مُحَلَّاةً بِبَدِيعِ أَسَالِيهِهِ. فَالْبَلَاغَةُ صِنُوعٌ ضَيِّقُ ذَاتِ الْيَدِ، وَالْاِخْتِيَالُ عَلَى اللَّفْظِ وَالتَّعْبِيرِ كَالْاِخْتِيَالِ عَلَى الْمَعِيشَةِ وَلَمْ الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ. بَلْ إِنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ يُعَالِجُهُ الْحَرِيرِيُّ مِنْ أَطْرَافٍ شَتَّى وَلَكِنَّهُ يُحِبُّهُ بِأَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَالصَّنَاعَةِ. ثُمَّ إِنَّ الْمُؤَلِّفَ الشَّيْخَ يَجْعَلُ أَبَا زَيْدٍ فِي آخِرِ مَقَامَةٍ لَهُ يُؤَخِّدُ بَلْعَهُ ذَاكَ، فَهُوَ يَقِفُ دَاعِياً لِلتَّوْبَةِ وَوَاعِظاً لِلنَّاسِ، فِي جَامِعِ

البصرة، فإذا التوبة تُسري إلى نفسه، وإذا الوعظ ينفذ إلى حشاشته، وإذا هو يُنقلب منهم بقلب المنيب الخاشع، وإن أراد أن يقوم فيهم مقام المُريب الخادع^(١).

ولقد كانت الحضارة العربية مجموعة مُشْتَبِكَة ووحدَة واسعة على تَفَاوُت البلاد التي تُظَلِّلُها واختلاف العناصر التي تَشْمَلُها، فإذا ظهر أدب في مَوْضِع منها سَرَتْ عَدَوَاهُ إلى المواضع الأخرى. وقد انتقل التَّظَرُّفُ بأخبار بني ساسان إلى المغرب فنظم أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الأزجال قصيدة طويلة أُوْرَدَها كاملة صاحب نَفْح الطَّيْب مَطْلَعُها:

تَعَالِ نُجِدِّدْهَا طَرِيقَةَ سَاسَانَ نَقْصِرْ عَلَيْهَا مَا تَوَالَى الْجَدِيدَانِ
وَنَصْرِفْ إِلَيْهَا مِنْ مَثَارِ عَزَائِمٍ وَنَحْلِفْ عَلَيْهَا مِنْ مُؤَكَّدِ أَيْمَانٍ..

وقد وَطَّأَ لها بَشَرٌ وجعل الجميع مقامة ساسانية، سَمَّاهَا، تسريح النُّصَالِ إلى مَقَاتِلِ
الفصال^(٢). فيها تَلْمِيحات غريبة وإِحْمَاض ومُجُون.

ولم تَنْقُطْ في غُضُونِ العُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ أخبار السَّاسَانِيِّينَ ولا مُصْطَلَحَاتِهِمُ التي يَتَدَاوَلُونَهَا أو يرمون بها ولا ما نَجَمَ عنها من أدب. ولقد عمد صفِيُّ الدِّينِ الحِلِّيُّ في القرن الثَّامِنَ الهجريِّ إلى جَمْع طائفة كبيرة من أَلْفَاظِهِمُ في قصيدة طويلة مَهْدَاهَا بِدِيَابِجَةِ
جاء فيها:

«لَمَّا أَطْلَقْتُ عَنَانَ أَسْفَارِي، وَأَن بَعْدَ التَّحَجُّبِ إِسْفَارِي، طَفِقْتُ أَجُوبُ الْبِلَادَ،
وَأَسْبِرُّ أَحْوَالَ الْعِبَادَ، فَلَمْ أَجِدْ فِي طَوَائِفِ النَّاسِ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَجْنَاسِ، طَائِفَةً قَلِيلَةً
الْكَلْفِ، كَثِيرَةَ التُّحَفِ، آمَنَةً عَوَاقِبِ التَّلَفِ، كَطَائِفَةِ تُجَّارِ اللِّسَانِ، وَوَرَثَةِ مَلِكِ سَاسَانَ،
لَأَتُهُمْ فِي مُلْكٍ مُفَاضٍ، وَعَيْشٍ فَضْفَاضٍ، وَصَدَقْتَ مَا جَاءَ فِي الْأَنْبَاءِ، عَنْ طَوَائِفِ
الْغُرَبَاءِ...» ثُمَّ يُورِدُ الْقَصِيدَةَ فِي دِيَوَانِهِ، وَإِلَيْكَ مَطْلَعُهَا، وَكُلُّهَا يَجْرِي عَلَى نَهْجِ الْمَطْلُوعِ
فِي الْإِغْرَابِ، لَكِي تَعْرِفَ كَيْفَ كَانَتْ تِلْكَ الْأَلْفَاظُ تُؤَلَّفُ لُغَةً خَاصَّةً لَا تَفْهَمُهَا إِلَّا تِلْكَ
الرُّؤْمَةُ:

(١) في كتاب نشوار المحاضرة (ج ١، ص ٢٧٧ - ٢٨٠) قصة طريفة عن حيلة مكَّدَ شاطر أجراها على أهل حمص. هذا ويدخل في البحث ما ينسب إلى أهل المدن من الطباع والخصال. وقد تقدم ما اتصف به أهل المدينة المنورة من حب النادرة. وفي تاريخ الفكاهة العربية طاقة من النوادر من هذا القبيل، وخاصة المدن التي في أسمائها حرف الصاد كما قيل. ومؤلف زهر الآداب يذكر أهل الشام عامة (ذيل، ص ٦٩)، ويورد قصة لطيفة في هذا الباب. وكان حمص هي التي تطوعت لحمل تلك السمعة الطيبة!

(٢) المقرئ، طبعة بولاق، ج ٣، ص ٢١ والمكتبة التجارية الكبرى ج ٦، ص ٣٤٥.

بتبريخ أدصاي وتبريخ مشتاني
خعفت دوانيك الفراكيش كلها
عَدَتْ سائر الأخشان والفُرْش تَخْشاني
فَشَحْمَني من كان من قبل داصاني^(١)

ويجري هذا المجري استعمال بعض الشعراء ألفاظاً حرفوها عن أصلها أو غريبة للإضحاح ممَّن يتكلمون بها وبأمثالها. ويطيب لنا أن نُشير بهذه المناسبة إلى قصيدة نوشروان البغدادي المعروف بِشَيْطان العراق في مدينة إربل «سالكاً طريق الهَزُل راجباً سَنَن الفُكاهة مُورداً ألفاظ البغداديين والأكراد»^(٢).

مَطْلَع القصيدة:

تَبَّأَ لَشَيْطَانِي وَمَا سَوَّلَا
نَزَلْتُهَا فِي يَوْمِ نَحْسٍ فَمَا
لَأَنَّهُ أَتَزَلَّنِي إِرْبِلَا
شَكَّكْتُ أَنِّي نَازِلُ كَرْبِلَا...

ثم يذكر الألفاظ العراقيين:

أَمَّا الْعِرَاقِيُّونَ أَفْظَاهُمْ
جَمَّالُكَ أَيُّ جَعِجَ جِبْهَ تَجِي
جَبَّ لِي جَفَانِي جَفَّ جَالُ الْجَلَا
تَجِبُ جَمَالُهُ قَبْلُ أَنْ تَرَجِلَا...

ثم يذكر أطرافاً من كلام الكُرْد:

وَالْكُرْدُ لَا تَسْمَعُ إِلَّا جِيَا
كَلًّا وَبُوبُو عَلَّكَو خَشْتَرِي
أَوْ نَجِيَا أَوْ تَتَوَى زَنَكَلَا
مَمُوا وَمَقُوا مَمَكِي ثُمَّ إِنْ
خِيلُو وَمِيلُو مَوْسَكَا مَنَكَلَا
قَالُوا بِوِيرَكِي تَجِي قَلْتُ لَا...

هذا، وأغلب الظن أن أدب الكُذبة في المقامات وغيرها أثر في الأدب الأوربي واستدعى فيه نشوء بوادر القصة. ومن المفيد أن نُشير إلى بعض المعالم في هذا الغرض الذي يحتاج إلى دراسة خاصة:

ففي القرن السادس عشر ظهرت في إسبانية رواية Lazarillo de Tormes، وهي قصة

(١) اللديوان ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

ومعاني هذه الألفاظ ما يلي:

تبريخ: هتاك، أدصاي: أعدائي. تبريخ: تحسين.
مشتاني: صنعتي وجيلي. الأخشان: العوام. الفُرْش: أكابر الغرباء.
خعفت: عرفت، دوانيك: إشارات. الفراكيش: أكابر الغرباء.
شَحْمَني: أطمعني وداراني. داصاني: عاداني.

(٢) ياقوت، معجم البلدان مادة إربل.

خادم خَدَمَ عِدَّةَ أَشْخَاصٍ يَرُوي فيها حياتهم وَيَهْجُوهم وَيَضْحَكُ منهم. ومؤلَّفها غير معروف. وربَّما كانت في الأصل نوادر مُتعارَفة في المجتمع.

وفي ألمانية ظَهَرَتْ قِصَصٌ تُنسَبُ إلى Bulenspiegel ويُظَنُّ أَنَّهُ وُلِدَ حوالي سنة ١٣٠٠، فيها نوادر وفُكاهات ونُقِدَ للمجتمع، طُبِعَتْ سنة ١٥١٩ ولم تَلَبَثْ أَنْ تُرْجِمَتْ إلى عِدَّةِ لُغَاتٍ.

وكذلك ظَهر في إنكلترة روايات فُكاهية وأهاجي تُنسَبُ إلى Skelton في القرن الخامس عشر.

ومثلها ظَهر في فرنسة أيضاً ما يدعى Fabliaux.

وتلك القِصَصُ على اختلافها أصلُ فنِّ الرِّواية في الأدب الغربي، ويَجوزُ أَنْ تُعْتَبَرُ مُتَأَثِّرةً في مَنهجها بالأدب العربيِّ وأدب المقامات خاصَّةً، وذلك لموضوعها الفُكاهيِّ. التَّقْدِي. وهكذا يَتَلَمَّحُ على العُموْمِ مَجَالٌ لدراسة أثر من آثار العرب في ثقافة الغرب. فهل علَّم العرب الغرب في الماضي حتى الضَّحِكُ والهَجاءُ والقِصَصُ؟

حكم قراقوش:

وكما كان بعض النَّاسِ يَسْلُكون سُبُلَ الحِيلِ المختلفة لافْتِنَاصِ المالِ وابتزازه في مجتمع قَلَّ التَّضَامُنُ العَقَوِيُّ فيه وسيطرَتِ المَنافعُ الخاصَّةُ، كذلك كان فريق منهم يَتَهَجَّمون على الأَشْخَاصِ الذين يَمْنَعون ذلك الابتزاز، ويُسَوِّهون سمعتهم. وهم يَعْتَمِدون الفُكاهة والسُّخْرِيَّةَ في ذلك.

وربَّما كان أَصْدَقُ تَصْويرٍ لَمَضَاءِ سِلَاحِ الفُكاهة وبيان فعله ما وضعه شاعر كاتب من نوادر ونُكَّتْ في حَقِّ بهاء الدِّين قراقوش. فلقد كان أبو المكارم أسعد بن الخطير مُهَذَّبٌ بن مَمَاتِي على حَدِّ تعبير ياقوت الحَمَوِيِّ «أحد الرؤساء الأعيان الجَلَّةِ، والكُتَّاب الكُبراء المَنزِلَةِ، ومن تَصَرَّف بالأعمال وولِّيَ رِياسة الدِّيوان، وله أدب بارِع، وخاطر وقَاد مُسارع»^(١). ثمَّ يقول: «وهو كالمُسْتَوَلِي على الدِّيار المصريَّة، ليس على يده يد، والمُسَمَّون بالخلافة محجوبون ليس لهم غير السَّكَّة والخُطْبَةِ»^(٢).

(١) إزْشاد الأريب ج ٦، ص ١٠٠، ١٠٢.

(٢) المَرْجِع نفسه ص ١٠٣، ١٠٤.

إِلَّا أَنْ أَدَبَهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى الْوَحْزِ وَالْإِيلَامِ، قَالَ فِي رَجُلٍ ثَقِيلٍ لَمَّا قَدِمَ دِمَشْقَ:
حَكِي نَهْرَيْنِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ يَحْكِيهِمَا أَبَدًا
حَكِي فِي خَلْقِهِ ثَوْرًا وَفِي أَخْلَاقِهِ بَرْدًا

وقد وَلَّى ديوان الجيش في عهد صلاح الدِّين، ثُمَّ عَهِدَ إِلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ فِي وَلايَةِ دِيوان المال. فانظُرْ إِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ الْحَسَّاسِ وَخُصُوصاً أَنَّ وَلايَةِ الدَّوَّارَيْنِ فِي زَمَنِ صَلَاحِ الدِّينِ لَمْ تَكُنْ فِي حَالَةٍ حَسَنَةٍ، لِأَنَّ السُّلْطَانَ كَانَ مَشْغُولاً بِمُحَارَبَةِ الصَّليبيين. وَيَكْدُلُّ عَلَى عَدَمِ ضَبْطِهَا رِوَايَةُ الرَّحَّالَةِ ابْنِ جُبَيْرٍ حِينَ قَدِمَ مِصْرَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْحِجَازِ، وَوَصَفَ الْعَنْتَ الَّذِي لَقِيَهِ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَهُوَ يَقُولُ: «فَمَنْ أَوَّلَ مَا شَاهَدْنَاهُ فِيهَا (الْإِسْكَندَرِيَّةُ) يَوْمَ نَزَلْنَا أَنْ طَلَعَ أَمْنَاءُ إِلَى الْمَرْكَبِ مِنْ قَبْلِ السُّلْطَانَ بِهَا لَتَقْيِيدِ جَمِيعِ مَا جُلِبَ فِيهِ، فَاسْتَحْضَرَ جَمِيعَ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاحِداً وَاحِداً وَكَتَبَتْ أَسْمَاءُ هُمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَسْمَاءُ بِلَادِهِمْ وَسُئِلَ كُلُّ وَاحِدٍ عَمَّا لَدَيْهِ مِنْ سِلْعٍ أَوْ نَاضٍ (نَقْدٌ) لِيُؤَدِّيَ زَكَاةَ ذَلِكَ كُلِّهِ دُونَ أَنْ يُبْحَثَ عَمَّا حَالٍ عَلَيْهِ الْحَوَلُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ مَا لَمْ يَحُلْ. وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مُتَشَخِّصِينَ لِأَدَاءِ الْفَرِيضَةِ لَمْ يَسْتَضَحِبُوا سِوَى زَادٍ لَطَرِيقِهِمْ فَلَزِمُوا آدَاءَ زَكَاةِ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يُسْأَلَ هَلْ حَالٌ عَلَيْهِ حَوَلٌ أَمْ لَا؟ وَاسْتَنْزَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَسَّانٍ مَتَّاً لِيَسْأَلَ عَنْ أَنْبَاءِ الْمَغْرِبِ وَسِلْعِ الْمَرْكَبِ فَطِيفَ بِهِ مَرْقَباً عَلَى السُّلْطَانَ أَوَّلاً ثُمَّ عَلَى الْقَاضِي ثُمَّ عَلَى أَهْلِ الدِّيَّوَانِ ثُمَّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ حَاشِيَةِ السُّلْطَانَ وَفِي كُلِّ يُسْتَفْهَمُ ثُمَّ يَقْيِدُ قَوْلَهُ فَيُخْلِي سَبِيلَهُ.

وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فَضَّلَ مِنْ أَزْوَدَتِهِمْ، وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ أَعْوَانَ يَتَوَكَّلُونَ بِهِمْ وَيَحْمِلُ جَمِيعَ مَا أَنْزَلُوهُ إِلَى الدِّيَّوَانِ، فَاسْتَدْعَوْا وَاحِداً وَاحِداً وَأَخْضِرَ مَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَالدِّيَّوَانُ قَدْ غَصَّ بِالزُّحَامِ، فَوَقَعَ التَّفْتِيشُ لَجَمِيعِ الْأَسْبَابِ مَا دَقَّ مِنْهَا وَمَا جَلَّ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَأُذْخِلَتْ الْأَيْدِي إِلَى أَوْسَاطِهِمْ بَحْثاً عَمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ فِيهَا، ثُمَّ اسْتَحْلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ هَلْ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مَا وَجَدُوا لَهُمْ أَمْ لَا؟ وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ أَسْبَابِ النَّاسِ لاختِلَاطِ الْأَيْدِي وَتَكَاثُرِ الزُّحَامِ، ثُمَّ أُطْلِقُوا بَعْدَ مَوْقِفٍ مِنَ الدُّلِّ وَالْخِزْيِ عَظِيمٍ، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُعْظَّمَ الْأَجْرُ بِذَلِكَ. وَهَذِهِ لَا مَحَالَةَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُلْبَسِ فِيهَا عَلَى السُّلْطَانَ الْكَبِيرِ الْمَعْرُوفِ بِصَلَاحِ الدِّينِ. وَلَوْ عَلِمَ بِذَلِكَ عَلَى مَا يُؤَثَّرُ عَنْهُ مِنَ الْعَدْلِ وَإِثَارِ الرَّفْقِ لَأَزَالَ ذَلِكَ وَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْمِنِينَ تِلْكَ الْخَطَّةَ الشَّاقَّةَ وَاسْتَوْدُوا الزَّكَاةَ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ. وَمَا لَقَيْنَا بِبِلَادِ هَذَا الرَّجُلِ مَا يُلْثَمُ بِهِ قَبِيحَ لِبَعِضِ الذِّكْرِ سِوَى هَذِهِ الْأَحْدُوثَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَتَائِجِ عَمَّالِ الدَّوَّارَيْنِ»^(١).

(١) رحلة ابن جُبَيْرٍ، طبع مصر ١٣٢٦ هـ، ١٩٠٨ م ص ٧ - ٨. وطبع ليدن ١٩٠٧، ص ٣٩ - ٤٠.

وأفضل ابن ممّاتي من نصارى أسيوط^(١) و«كان المَهْدَب أبوه المعروف بالخطير مُرتباً على ديوان الإقطاعات»^(٢) ثم بدا له أن يُسلم هو وأولاده لمّا خشي أن يُصرف عن مكانه^(٣). قال فيه ابن الدّروي:

لَمْ يُسَلِّمْ الشَّيْخُ الْخَطِيءَ رَ لِرَغْبَةٍ فِي دِينَ أَحْمَدَ
بَلْ ظَنَّ أَنَّ مِحَالَهُ يَبْقَى لَهُ الدِّيَّانُ سَرْمَدَ
وَالآنَ قَدْ صَافَرُوهُ عِنْدَ هَ فِدِينِهِ فَالْعَوْدُ أَحْمَدُ^(٤)

وكان بهاء الدّين قراقوش من أركان الدّولة الذين يَعْتَمِدُ عليهم السُّلطان صلاح الدّين في ضَبْطِ الأمور ضَبْطاً مُحْكَمًا. ولمّا لم يَرْضَ كاتبنا الثّابغ عن قراقوش وتدبيره عمداً إلى كَيْدِهِ. فكتب رسالة فيه حَمَلَهَا نُكْتًا غريبة تَطْعَنُ إدارته في الصّميم، وأراد أن يكون الكتاب شَعْبِيًّا يُؤَثِّرُ في النَّاسِ وَيَخْفِضُ من شأن الأمير فجعل العبارات سهلة سائغة أقرب إلى العاميّة.

جاء في بداية «الفاشوش في حُكْمِ قراقوش»: «إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ عقل بهاء الدّين قراقوش مَحْزُومَةً فاشوش، قد أَتَلَفَ الأُمَّةَ، والله يكشف عنهم كُلَّ غُمَّةٍ، لا يقتدي بعالم، ولا يَعْرِفُ المظلوم من الظّالم، الشّكِيّة عنده لمن سبق، ولا يَهْتَدِي لمن صدق، ولا يَقْدِرُ أحد من عظم منزلته على أن يَرُدَّ كلمته، وَيَسْتَطِيعَ اشْتِياط الشّيطان، وَيَحْكُمُ حُكْمًا ما أنزل الله به من سُلطان، صَنَّفْتُ هَذَا الكتاب لصلاح الدّين، عسى أن يُريح منه المسلمين»^(٥). ولتُورِدَ بعض النّوادر التي جَاءَتْ في هذه الرّسالة عن حُكْمِ قراقوش:

قيل وأتوه بغلام له ركبدار، وقد قَتَلَ، فقال: اشنقوه! فقبل له: إِنَّهُ حَدَّادُكَ، وَيَعْمَلُ لك الفرس فإن شَقَقْتَهُ انْقَطَعَتْ منه، فنظر قراقوش قبالة بابه لرَجُلٍ قَفَاصٍ فقال: ليس لنا بهذا القفَاص حاجة. فلمّا أتوه به قال: اشنقوا القفَاص وسيبوا الرّكبدار الحدّاد الذي يَنْعَلُ لنا الفرس.

قيل وجاءه شابٌّ مضروب فَبَعَثَ معه خمسة رجال من الجَنَادِرَةِ، فبلغ ذلك خصمه الظّالم فسَبَقَهُ وَوَقَفَ بجانب قراقوش. فلمّا أقبل الشابُّ قال الخصم: هَذَا الذي قَتَلَنِي

(١) إِنْشَاد الأريب ج ٦، ص ١٠٣.

(٢) المَرْجِع نفسه، ص ١٠٩.

(٣) (٤) المَرْجِع نفسه، ص ١٠٩.

(٥) حُكْمِ قراقوش للدّكتور عبد اللّطيف حمزة ص ٤٧، وَيُشِيرُ النّاشِرُ إلى وُرُود «يَسْتَطِيعُ» في الأصل، ولها وجه، وإلى احتمال كَوْنِهَا يَشْتَاط لِمُنَاسَبَةِ الْمَصْدَرِ.

وَضَرَبَنِي، فَبَطَحَهُ الْأَمِيرُ إِلَى أَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا مَظْلُومٌ! فَقَالَ لَهُ قَرَاقُوشُ: سَبِّكَ! فَحَلَفَ النَّاسُ إِنَّهُمْ لَا يَتَّعِدُونَ مَا دَامَ قَرَاقُوشُ فِي الْبَلَدِ حَاكِمًا.

قِيلَ وَأَتَاهُ شَيْخٌ وَصَبِيٌّ أَمْرُدُ كُلُّهُمَا يَقُولُ: يَا مَوْلَايَ دَارِي! فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَاقُوشُ لِلصَّبِيِّ: مَعَكَ كِتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَالذَّارُ مَا تَكُونُ إِلَّا لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ، يَا صَبِيٍّ! اذْفَعْ لَهُ دَارَهُ، وَإِذَا صِرْتَ فِي عَمْرِ هَذَا الشَّيْخِ الْكَبِيرِ دَفَعْ لَكَ الدَّارَ.

وهكذا إلى غير ذلك من النكات المُسْتَعْرَبَةِ التي شَاعَتْ وَدَمَغَتْ حُكْمَ قَرَاقُوشِ هَذَا بِالْاِغْتِسَافِ الَّذِي لَا يَخْطُرُ بِبَالٍ حَتَّى ضُرِبَ بِهِ الْمِثْلُ وَحَتَّى دَفَعَ ذَلِكَ مُؤَلِّفَيْنِ آخَرَيْنِ أَنْ يَكْتُبُوا فِي الْمَوْضُوعِ نَفْسَهُ.

وقد كتب ابن خَلِّكَانَ: «ولما اسْتَقْلَّ صلاح الدِّين بالذِّيارِ المِصْرِيَّةَ جعله زِمَامَ القِصْرِ، ثُمَّ نَابَ عَنْهُ مَدَّةً بِالذِّيارِ المِصْرِيَّةِ، وَفَوَّضَ أُمُورَهَا إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ فِي تَدْبِيرِ أَحْوَالِهَا عَلَيْهِ. وَكَانَ رَجُلًا مَسْعُودًا وَصَاحِبَ هِمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الشُّورَ الْمُحِيطَ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَبَنَى قَلْعَةَ الْجَبَلِ وَبَنَى الْقَنَاطِرَ الَّتِي بِالْجِزَةِ عَلَى طَرِيقِ الْأَهْرَامِ، وَهِيَ آثَارُ دَالَّةٍ عَلَى عُلُوِّ الْهِمَّةِ، وَعَمَّرَ بِالْمَقْسِ رِبَاطًا، وَعَلَى بَابِ الْفَتْوحِ بَظَاهِرِ الْقَاهِرَةِ خَانَ سَبِيلٍ. وَلَهُ وَقَفٌ كَثِيرٌ لَا يُعْرَفُ مَصْرَفُهُ. وَكَانَ حَسَنَ الْمَقَاصِدِ، جَمِيلَ النِّيَّةِ. وَلَمَّا أَخَذَ صلاح الدِّينَ مَدِينَةَ عَكَّا مِنَ الْفَرَنْجِ سَلَّمَهَا إِلَيْهِ. ثُمَّ لَمَّا عَادُوا وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا حَصَلَ أُسِيرًا فِي أَيْدِيهِمْ. وَيُقَالُ إِنَّهُ افْتَكَّ نَفْسَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ. . . وَالنَّاسُ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ أَحْكَامًا عَجَبِيَّةً فِي وِلَايَتِهِ، حَتَّى إِنَّ الْأَسْعَدَ بْنَ مَمَاتِيَّ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ لَهُ جَزْءٌ لَطِيفٌ سَمَّاهُ، الْفَاشُوشَ فِي أَحْكَامِ قَرَاقُوشِ، وَفِيهِ أَشْيَاءٌ يَبْعُدُ وَقُوعُ مِثْلِهَا مِنْهُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ، فَإِنَّ صلاح الدِّينَ كَانَ مُعْتَمِدًا فِي أَحْوَالِ الْمَمْلَكَةِ عَلَيْهِ. وَلَوْ لَا وَثُوقُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَكِفَايَتِهِ مَا فَوَّضَهَا إِلَيْهِ». وَجَاءَ فِي «طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ» مَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ: «وَابْنَتِي (أَيُّ صلاح الدِّينَ) سَوَّرَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ عَلَى يَدِ قَرَاقُوشٍ»^(١). وَيَقُولُ الشُّبْكِيُّ أَيْضًا: «ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. . . وَأَمَرَ بِنَاءَ الشُّورِ الْأَعْظَمِ الْمُحِيطِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ وَجَعَلَ عَلَى بَنَائِهِ الْأَمِيرَ قَرَاقُوشَ وَلَمْ يَزَلِ الْعَمَلُ فِيهَا إِلَى أَنْ مَاتَ صلاح الدِّينَ وَصُرِفَتْ عَلَيْهِ أُمُورُ جَزِيلَةٍ. وَفِيهَا أَمْرٌ بِإِنْشَاءِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ الَّتِي هِيَ الْآنَ دَارُ سُلَاطِينِ مِصْرَ، وَجَعَلَ عَلَى بَنَائِهَا أَيْضًا قَرَاقُوشَ، وَلَمْ يَكُنِ السُّلَاطِينُ قَبْلَهَا يَسْكُنُونَ إِلَّا دَارَ الْوِزَارَةِ بِالْقَاهِرَةِ»^(٢).

(١) طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ ج ٤ ص ٣٢٧.

(٢) الْمَرْجِعُ نَفْسَهُ ص ٣٣٩.

هَذَا وَلَمْ يُؤَثَّرْ كِتَابُ «الْفَاشُوش» فِي صِلَاحِ الدِّينِ، وَلَكِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَثَّرَ فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ الَّتِي حَصَلَتْ بَعْدَ مَوْتِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ بْنِ السُّلْطَانِ صِلَاحِ الدِّينِ عِنْدَ تَوَلِّيَةِ ابْنِهِ الْمَنْصُورِ، «وَكَانَ الْمَنْصُورُ صَبِيًّا، فَاحْتَاجَ الْأَمْرَ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتَابِكٌ. وَكَانَ الْعَزِيزُ نَفْسَهُ قَدْ أَوْصَى أَنْ يَكُونَ قَرَاقُوشُ هُوَ الْأَتَابِكُ. غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يُصَادِفْ هُوَ مِنْ نَفُوسِ كِبَارِ الْجُنْدِ. وَإِذْ ذَاكَ اسْتَدْعَوْا الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ أَخَا الْمَلِكِ الْعَزِيزِ، وَكَانَ ابْنُ مِمَاتِي مِمَّنْ اشْتَرَكُوا فِي اسْتِدْعَائِهِ يَوْمَئِذٍ»^(١). وَهَكَذَا أَثَّرَ الْأَدَبُ الْهَزْلِيُّ فِي السِّيَاسَةِ حِينَ أَزَاحَ قَرَاقُوشُ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ أَخْلَصَ لِلدَّوْلَةِ وَنَهَضَ بِأَعْبَائِهَا.

يَبْدُو أَنَّ حُكْمَ قَرَاقُوشِ غَدَا مِثْلًا سَائِرًا، حَتَّى إِنَّ الْجَلَالَ السُّيُوطِيَّ فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ جَمَعَ نَوَادِرَ مَنَسُوبَةٍ إِلَى قَرَاقُوشِ فِي كِتَابِ سَمَاءِ «الْفَاشُوشِ فِي أَحْكَامِ قَرَاقُوشِ». ثُمَّ هُنَاكَ كِتَابٌ ثَالِثٌ بِعَنْوَانِ «الطَّرَازُ الْمَنْقُوشُ فِي حُكْمِ السُّلْطَانِ قَرَاقُوشِ» يَجْمَعُ طَائِفَةً مِنَ النَّكَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

لَا يَقْلَعُ الْمَسْمَارُ إِلَّا الْمَسْمَارُ:

فِي هَذَا الْعَصْرِ الْحَافِلِ عَصْرَ صِلَاحِ الدِّينِ قَدِيمٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى مِصْرَ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَرَّرِ الْمُلْقَبِ رُكْنَ الدِّينِ الْوَهْرَانِيَّ. يَقُولُ عَنْهُ ابْنُ خِلْكَانَ فِي «الْوَقَايَاتِ»: «فُتِيَ الَّذِي يَمْتَنِعُ بِهِ صِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْبِلَادَ وَرَأَى بِهَا الْقَاضِي الْفَاضِلَ وَعِمَادَ الدِّينِ الْأَصْبَهَانِيَّ وَتِلْكَ الْحَلْبَةَ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَبَقَتِهِمْ، وَلَا تَنْفَقُ سِلْعَتُهُ مَعَ وَجُودِهِمْ. فَعَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْجِدِّ، وَسَلَكَ طَرِيقَ الْهَزْلِ، وَعَمَلَ الْمَنَامَاتِ وَالرَّسَائِلَ الْمَشْهُورَةَ بِهِ وَالْمَنْسُوبَةَ إِلَيْهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ الْوُجُودَ بِأَيْدِي النَّاسِ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى خِفَّةِ رُوحِهِ وَرِقَّةِ حَاشِيَتِهِ وَكَمَالِ ظَرْفِهِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا الْمَنَامُ الْكَبِيرُ لَكَفَاهُ، فَإِنَّهُ أَتَى فِيهِ بِكُلِّ حَلَاوَةٍ». وَيَقُولُ الصَّفْدِيُّ فِي «الْوَافِي بِالْوَقَايَاتِ»: «وَكَانَ قَدْ سَلَّطَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الشَّيْخِ تَاجِ الدِّينِ الْكِتْدِيِّ وَعَلَى الْمُهَذَّبِ ابْنِ النَّقَّاشِ وَعَلَى الْقَاضِي الْفَاضِلِ. أَمَّا الْقَاضِي الْفَاضِلُ فَإِنَّهُ مَا كَانَ يَجْسُرُ عَلَى التَّصْرِيحِ بِذِكْرِهِ. بَلْ يَعْزِضُ بِهِ، كَقَوْلِهِ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا إِلَى مَجْدِ الدِّينِ بْنِ الْمُطَّلَبِ، وَقَدْ ذَكَرَ حَمَامَ الْفَيَّومِ: فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالْحَائِطُ الشَّمَالِيُّ قَدْ انْشَقَّ، وَخَرَجَ مِنْهُ شَخْصٌ عَجِيبٌ الصُّورَةِ، لَيْسَ لَهُ رَأْسٌ وَلَا رَقَبَةُ الْبَتَّةِ، وَإِنَّمَا وَجْهُهُ فِي صَدْرِهِ، وَلَحِيَّتُهُ فِي بَطْنِهِ، مِثْلُ بَعْضِ النَّاسِ. فَهَذَا تَعْرِيزٌ بِالْفَاضِلِ». ثُمَّ يُورِدُ الصَّفْدِيُّ فِقْرَاتٍ مِنْ تَهْجُمِهِ عَلَى الْآخَرِينَ.

(١) حُكْمُ قَرَاقُوشِ لِلدُّكْتُورِ عَبْدِ اللَّطِيفِ حَمْزَةَ، ص ٦٥.

وتلك المنامات من نوع القصص الفكاهية يَسْمَحُ المؤلِّفُ لنفسه أن يذكر ما شاء وأن يخلط الواقع بالخيال وأن يُبدِّل الواقع كما يميل هواه وأن يَنفُث بذات صدره.

وقد سخر في أقواله من ابن مماتي معاصره، ورأى أنَّ حُضوره مجالس الوَعظ وبكائه عند قراءة القرآن من الأشياء التي هي في الظاهر من أبواب البرِّ. ولكنَّها «تُسَخِّطُ الله وتُرْضِي الشيطان» وأنها «أحبُّ إلى إبليس من كبائر الدُّنوب». ويقولُ الصَّفديُّ: «وعلى الجملة فما كان يَسْلَم من شرِّ لسانه أحد ممَّن عاصره. ومَنْ طالع ترثله وقف على العجائب والغرائب».

ثمَّ إنَّ الوهرانيَّ تنقَّل في البلاد. وأقام بدمشق زماناً وتولَّى الخطابة بداريا وهي قرية على باب دمشق كما يقولُ ابن خَلِّكان وتُوفِّي سنة ٥٧٥ هـ بداريا ودُفِن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الدارانيَّ.

تحصيل الحاصل:

وقد تلوَّنت الفكاهة في القرن التاسع بشخصية لطيفة مَرِحَة هي شخصية أبي الحسن عليِّ بن سودون (٨١٠ هـ/١٤٠٧ م - ٨٦٨ هـ/١٤٦٣ م). ولِدَ ومات في القاهرة ولكنَّه أقام مُدَّة بدمشق وتعاطى فيها خيال الظِّلِّ. وله تآليف، منها «نُزْهة الثُّقُوس ومُضْحِك العبوس»، ومنها «قُرَّة النَّاظِر ونُزْهة الخاطر»، كما كتب بعض المقامات، ونظم بعض الأشعار. وهو في فُكاهته يَسْلُك سبيلاً جديداً حين يَحْفِل ويتكلَّف فإذا هو يُحْصِل الحاصل وإذا هو يُعرِّف الماء بعد الجهد بالماء كما يقولُ المثل. يقول ابن سودون:

عجب عجب عجب عجب	بقر تمشي ولها ذَنَب
ولها في بُزْبُزها لبن	يبدو للنَّاس إذا حلبوا
لا تغضب يوماً إن شَتِمَتْ	والنَّاس إذا شتموا غضبوا
من أعجب ما في مصر يُرى	الكَزَم يُرى فيه رُطَب
أو سيم بها البرسيم كذا	في الجيزة قد زرع القصب
زهر الكُتَّان مع البلسا	ن همالونان ولا كَذِب
وقناطر أم الخمس بها	ماء في الحفرة يَنْسَرِب
والخيمة قال النَّاس إذا	نُصِبَتْ فالجبل لها طُنْب
النَّاقة لا منقار لها	والوَرَّة ليس لها قُتَب

ويقولُ من قصيدة أخرى وزنها وظاهرها يُوحِيان بالجِدِّ:
إذا ما الفتى في النَّاس بالعقل قد سما تيقَّن أنَّ الأرض من فوقها السَّما

وَأَنَّ السَّمَاءَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَرْضُ لَمْ تَزَلْ
وَأَنْتَ سَابِقِي بَعْضَ مَا قَدْ عَلِمْتُهُ
فَمَنْ ذَاكَ أَنَّ النَّاسَ مِنْ نَسْلِ آدَمَ
وَأَنَّ أَبِي زَوْجَ لَأُمِّي وَأَنْتَ سِي
وَكَمْ عَجِبَ عِنْدِي بِمَصْرِ وَغَيْرِهَا
وَفِي نِيلِهَا مِنْ نَامٍ بِاللَّيْلِ بَلَّغَهُ
بِهَا الْفَجْرَ قَبْلَ الشَّمْسِ يَظْهَرُ دَائِمًا
وَبِالشَّامِ أَقْوَامٌ إِذَا مَا رَأَيْتَهُمْ
بِهَا الْبَدْرَ حَالَ الْغَيْمِ يَخْفَى ضِيَاؤُهُ
وَيَسْخُنُ فِيهَا الْمَاءُ فِي الصَّيْفِ دَائِمًا
وَفِي الصَّيْنِ صِينِي إِذَا مَا طَرَفْتَهُ
بِهَا يَضْحَكُ الْإِنْسَانُ أَوْقَاتَ فَرْحَةٍ
وَفِيهَا رَجَالٌ هُمْ خِلَافُ نِسَائِهِمْ

وَبَيْنَهُمَا أَشْيَاءٌ إِنْ ظَهَرَتْ تُرَى
لَتَعْلَمَ أَنْتِ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ وَالْحِجَابِ
وَمِنْهُمْ أَبُو سَوْدُونَ أَيْضًا وَإِنْ قُضِيَ
أَنَا ابْنُهَا وَالنَّاسُ هُمْ يَعْرِفُونَ ذَا
فَمَصْرَ بِهَا نِيلٌ عَلَى الطَّيْنِ قَدْ جَرَى
وَلَيْسَتْ تَبْلُ الشَّمْسُ مِنْ نَامٍ بِالضُّحَى
بِهَا الظُّهْرُ قَبْلَ الْعَصْرِ قَبْلَ بَلَا مِرَا
تَرَى ظَهَرَ كُلِّ مِنْهُمْ وَهُوَ مِنْ وَرَا
بِهَا الشَّمْسُ حَالَ الصُّحُوِّ يَدُو لَهَا ضِيَا
وَيَبْرُدُ فِيهَا الْمَاءُ فِي زَمَنِ الشُّتَا
يَطْرُنُ كَصِينِي طَرَفْتِ سَوَا سَوَا
وَيَكِي زَمَانُ الْحُزْنِ فِيهَا إِذَا ابْتَلَى
لَأَنْتَهُمْ تَبْدُو بِأَوْجُهُهُمْ لَحَى

وهكذا تتجلى الفكاكة الهادئة هنا في الجهد الذي لا ينتهي بطائل، والسَّير الذي يَرُدُّنا
إلى نقطة الانطلاق، والشرح الذي يُبقي الأمور على أحوالها، والحركة التي هي ضرب من
السكون، والبيان الذي هو لون من السكوت.

لقد أفضنا في ذكر أنواع الفكاكة وألوان الضحك في أحقاب التاريخ العربي. ولن
نتعقب المصور جميعها للبحث عن خبايا النوار في أحشائها. ولكنَّا نَحْبُ أن نذكر في
الختام لَمَعًا عن الفكاكة إبان القرن الأخير السالف وأن نتبَّعها بعض الشيء حتى مُسْتَهْلُ
العصر الحديث.

لَمَعٌ مِنَ الْفُكَاكَةِ فِي الْعَصْرِ الْمُتَأَخِّرَةِ:

كان قسم من الفكاكة يجري في أعماق القرن الماضي على سَنَنِ مَا عَمَدَ إِلَيْهِ الْكُتَّابُ
العرب القُدماء. وكان الشَّكْلُ التَّقْلِيدِيّ الرَّاسِفُ فِي قُيُودِ التَّعْبِيرِ الْمُسَجِّعِ هُوَ الْغَالِبُ
الْمُتَّبِعُ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَسْرَارِ الْفُكَاكَةِ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى مُفَاجَأَةِ الذَّهْنِ بِالطَّرِيفِ النَّاشِزِ غَيْرِ
الْمُنْتَظَرِ. ذَلِكَ أَنَّ غَايَةَ الْأَدْبَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي فِتْرَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَصْرِ كَانَتْ مُحَاكَاةَ
مُتَأَخِّرِي الْقُدَمَاءِ فِي صِنَاعَةِ الْبَيَانِ الشَّكْلِيَّةِ وَمَهَارَةِ الرَّصْفِ الْبَدِيعِيَّةِ دُونَ تَوَخُّي رُوحِ
الِإِضْحَاكِ وَتَحَرِّيِ أَصَالَةِ الْكُنْثَةِ وَإِدْرَاكِ مَاهِيَةِ النَّادِرَةِ. وَلِتِلْكَ الْمُحَاكَاةُ مَنَزَلَةٌ فِي ذَلِكَ
الْعَصْرِ يَنْبَغِي أَنْ نُعْلِي شَأْنَهَا إِذْ سَاعَدَتْ عَلَى اسْتِمْرَارِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَوْطِهَا وَصُونِهَا

وعلى انبعائها أو تهيئة هذا الانبعاث. ولم يكتف أُولئك الأدباء العُلماء تلك الغاية الجليلة التي قصدوها. فالشيخ ناصيف اليازجي الحمصي الأصل اللبناني المولد (١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م - ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م)^(١) يُعارض في كتابه «مجمع البحرين» الذي يشتمل على ستين مقامة أصحاب المقامات القديمة المعروفة. ويقول في المقدمة بتواضع عميق: «إنني قد تطفّلت على مقام أهل الأدب، من أئمة العرب، بتلفيق أحاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب، ونسبت وقائعها إلى ميمون بن خُزام، ورواياتها إلى سهيل بن عباد، وكلاهما هي بن بّي مجهول النسب والبلاد. وقد تحرّيت أن أجمع فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد، والغرائب والشوارد، والأمثال والحكم، والقصص التي يجري بها القلم، وتسعى لها القدم، إلى غير ذلك من نوادر التراكيب، ومحاسن الأساليب، والأسماء التي لا يُعثر عليها إلا بعد جهد التنقيب والتفتيش، هذا مع اعترافي بأن ذلك ضرب من الفضول، بعد انتشار ما أبرزه أُولئك الفحول، غير أنني تطاولت عليه مع قصر الباع، طمعاً في طلاوة الجديد وإن كان من سقط المتاع».

ولم يُغفل هذا الشيخ الوقور مكانة الفكاهة فقد قصر لها المقامة السادسة والأربعين ودعاها بالشُخريّة جاء فيها: «يا بني إن المزح في الكلام، كالملح في الطعام. والإنفاظ يُورث الملل، ولو كان على العسل. وإنّي قد ملّلتُ الجِدّ، واشتقتُ إلى الهزل». ولكن هذا الهزل الذي يعرضه المؤلّف الزميت يكبو تحت وطأة التعبير المشكول فيقتصر على وصف حركات أبطال المقامة وهي حركات مُضحكة بذاتها بعيدة من النكتة المُستندة إلى غرائب الفكر.

إن النكتة سلاح رهيب من أسلحة البيان. وهي تشقّ عن انطلاق الفكر وحُرّيته وشعوره بنوع من التّشوّز أو التّضادّ الخافض أياً كان. ولقد كانت شُعلة النكتة من هذا النوع كايّة خافية!..

وإلى جانب الفكاهة الاتباعيّة التي كان يُقلّد الأدباء فيها القُدّماء أصحاب المقامات نجد نوعاً آخر بسيطاً طريفاً ساذجاً سطحيّاً إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على إغلاق الحياة الاجتماعيّة التي كان يعيش فيها الأدباء وأنحصارها. فهم لا يكادون يخرجون من إطار حياتهم المادّيّة السّاكنة ومن حدود ما يتّصل بها من ثقافة بسيطة، يضحكون على إيقاع

(١) هكذا في بروكلمان وزيدان والأعلام ومُعجم المؤلّفين وتاريخ المشايخ اليازجيين والروائع. والذي قدّم لمجمع البحرين في طبعة صادر ذكر تاريخ وفاته سنة ١٨٦٩ وإنّما هي تاريخ إصابته بالفالج.

أنغامها الرّتيبة المُتشابهة. نعرض هنا لشاعر أصبح منسيّاً مغموراً ولكن كانت له مكانته في عصره ببلاد الشام وهو الشَّيخ مُحَمَّد الهلاليّ (١٢٣٥ هـ / ١٨٢٠ م - ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م) وُلِدَ في حَمَاة وَقَضَى فيها شَطْراً من حياته ثُمَّ سَكَنَ دَمَشَقَ وَأَتَّصَلَ بِالْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ. وديوانه المطبوع جُملة من التَّوشُّلات بالمصطفى عليه السَّلام ومدائح وتَهْنِئات ومَرائِي وأدوار غنائيَّة لِلذِّكْرِ والموسيقى على طريقة المشايخ السَّابقين أمثال الشَّيخ عمر اليافي إمام الطَّريقة البكريَّة، وصاحب ديوان القُدود البهيَّة وتلميذه الشَّيخ الشَّاعر الرِّقِّي أمين الجندي. يَبْدَأُ الشَّاعر الحَمَوِّي قِيَصَ له شاعر مُعاصِر حمصيّ هو الشَّيخ مُصطفى زين الدِّين (١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢ م - ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م)، كان موسيقياً وكان أكولاً اتَّجه إلى الفُكاهة خاصَّة. كان في الغالب يَتَنَاوَلُ المُوشَّح الذي يَصوغه الهلاليّ ويُعارِضه في الوزن والقافيَّة وأغلب الألفاظ ولكِنَّهُ يَقلِّبُ الغرض فيُشيدُ بِالْوَنِّ الطَّعام وَلَذَّةَ الحَلْوَى بدلاً من أسراب الآرام وِرْقَةُ الشَّكْوَى، وَيَعتمدُ إلى وصف الموائد والقُدور عِوضاً من التَّغزُّلِ بِالْحُورِ والبذور. فَيَتَنَاوَلُ النَّاسَ ذُلُكَ في مجالسهم وَيَضْحَكُونَ وَيَكْمَلُونَ رِضاً أَذْوَاقَهُمْ بعد حُسْنِ الحديث وَسَمَاعِ النَّسِيبِ بِالْإِقْبَالِ على الطَّعام وتمجيد هذا الإقبال كأنَّ الحَيَاةَ تَقِفُ عند هذه المُشْتَهِيات والرَّغائب دون أن تَتَجَاوَزَهَا فَتَطُلَّ على مُشكلات المجتمع وقضايا الدُّنْيَا والعالم. ولقد تَغَيَّرَ العصر ولا نكاد نَظَرُبُ لما سنقرأ من أمثلة، على حين قد استمعنا إلى آبائنا وأقرانهم يَتَذَكَّرُونَ تلك التَّوَادِرَ وَيَتَنَاوَلُونَهَا في جُملة ما يَتَنَاوَلُونَهُ من أخبار العصر الغابر، ولا سِيَّما أَنَّ الشَّاعِرَيْنِ من مَدِينَتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ، فَأَدَّى هَذَا الجِوَارُ إلى طرائف الحوار.

يقولُ الشَّيخُ الهلاليّ:

يا بدر حُسْنُ كَم سَهَرْتُ أَرَاقِبَهُ وَاللَّيْلُ مَالَتْ لِلْغُرُوبِ كِوَاكِبَهُ
ما من كَلِمٍ الوَجْدُ أَنْتَ مُخَاطِبُهُ إِلَّا وَمَغْنَاطِيسُ حُسْنِكَ جَاذِبُهُ
لِلْحَنِّ وَالْأَلْحَانِ هُمْ يَا أَخَا الْأَشْجَانِ فِي الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ
فَالْحُبُّ دِينُ وَالْجَمَالُ مَذَاهِبُهُ...

ويقولُ الشَّيخُ زين الدِّين مُعارضاً:

يا صَدْرَ بَصْمَا^(١) كَم بَرَزْتُ أَحَارِبَهُ وَالْقَطَرُ طَابَتْ لِلنُّفُوسِ مَشَارِبَهُ
ما من أَرَزٍّ وَاللُّحُومُ تُصَاحِبُهُ إِلَّا وَمَغْنَاطِيسُ بَطْنِي جَاذِبُهُ

(١) البَصْمَا في الشَّام صِنْفٌ من الكِنَافَةِ مَصْنُوعٌ بِالْجَبِينِ.

بالكف والأسنان بالله يا جوعان قم سغسغ الرغفان
فالجوع شين والطعام يُناسبه...

ويبدو أن الهلالي ضاق ذرعاً بهذه المعارضة التي تضحك معاصريه من أشعاره فعمد
إلى أوزان طريفة وقوافٍ عويصة. قال مؤشّحاً لازمته:

عني لَوَا قلبي كَوَا عِزّاً حَوَا وعلى العرش من الحسن استَوَا
فإذا بالشيخ الحمصي يتغنى:

لحمّاً شَوَا خُبزاً طَوَا يَبْضاً قَلَوَا وعلى السمن القبوات استَوَا
ويتعقب مؤشّح الهلالي جزءاً فجزءاً:

فإذا قال الهلالي:

ليت شعري من لقلبي أمرضوا هم إلى الآن غضاب أم رَضُوا
غرضي هم أعرضوا أم أغرضوا بالتجني أم على قتلي نَوَا

قال زين الدين:

أيها الأخوان للأكل انهضوا وذروا الجوع وعنه أعرضوا
وعلى الخروف بالكف اقبضوا بأصابع على الصحن هَوَا

مُتَّسِّحاً باستعمال ضمير جمع الذكور العقلاء.

في مقابل هذا التندر الساذج المغلق عرف القرن التاسع عشر فكاهة مَرَّة حريفة
لاذعة، إذا أضحكك وألهت وأسلت وأفادت فلا تستطيع أن تحجب ما يعلج وراءها من
ألم دفين، وحزن مبرح، وقلق ناصب، ولا أن تستر ما يشف في ثناياها من رغبة في
التجريح والتشهير والتنديد. تنقل صاحبها في نحل المعاش وأسباب الرزق كما تنقل في
مناكب الأرض العربية والثركية والغربية، وكما تنقل في الدين أيضاً. وفي كل ذلك كان
مضطرب الحس مضطرب خاطر لم يستقر إلا على أمر واحد هو عشقه للغة العربية وحبّه
لها إذ كانت في مختلف صروفه وأحواله أُنْس الدائم وسلوانه الناعم.

هذا هو أحمد فارس الشدياق (١٢١٩هـ/١٨٠٥ م - ١٣٠٤ هـ/١٨٨٧ م). يصف
حبّه لهذه اللغة فيقول: «فإن يكن المتقدّمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإنّي قد
عشقْتُها عشقاً، وكلّفتُ بها حقاً، حتى صرت لها رِقّاً، فأزهرتُ لها ذبالي، وسهرتُ فيها
ليالي، مُعَمِّلاً فيها النظر، باحثاً عما خفي واستتر، وخفا وجهر، فلم يشغلني عنها همّ،
ولم يصدفني أرب خصّ أو عمّ، فكانت أنسي عند الوحشة، وسلواني عند الحزن،

وصَفُوِي عِنْدَ الْكَدَرِ، وَسُرُورِي عِنْدَ الشَّجَنِ، فَإِنِّي وَجَدْتُهَا قَدْ مُزِنَتْ بِمَزَايَا بَدِيعَةٍ، وَزُيِّنَتْ بِصِفَاتٍ سَنِيعَةٍ، تَظْهَرُ مَعَهَا بِهَرَجَةٍ مَا سِوَاهَا شَنِيعَةً^(١).

وَكَمَا أَنَّ الْعَمُودَ إِذَا شُحِنَ بِالْكَهْرِبَاءِ وَكَانَ تَوَثُّرُهَا فِيهِ عَالِيًا جَنَحَ إِلَى الْانْفِرَاقِ شَرَارَاتٍ تَتَبَّجَسُ مِنَ الْأَطْرَافِ الْمَذْرُوبَةِ الرَّقِيقَةِ كَذَلِكَ جَنَحَ تَبْرِيجُ الْأَلَمِ فِي نَفْسِ هَذَا الْأَدِيبِ فَأَوْمَضَ فُكَاهَةً تَسِيلُ مِنْ قَلَمِهِ الرَّهِيْبِ وَلَا سِيَّمَا فِي كِتَابِهِ الضَّخْمِ «السَّاقُ عَلَى السَّاقِ فِي مَا هُوَ الْفَارِيَاقُ». فَهُوَ يَقْصِدُ فِيهِ خَاصَّةً إِلَى إِبْرَازِ غَرَائِبِ اللُّغَةِ وَنَوَادِرِهَا بِأَنْوَاعِهَا، وَلَكِنَّهُ يُدْرِجُ فِي بَاطِنِهِ مَا شَاءَ مِنْ نَقْدٍ وَسُخْرِيَةٍ وَخِيَالٍ وَانْتِبَاهَاتٍ نَفْسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ. وَهُوَ لَا يُخْفِي ذَلِكَ حِينَ يَقُولُ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ:

هَذَا كِتَابِي لِلظَّرِيفِ ظَرِيفًا طَلَّقَ اللِّسَانَ وَلِلْسَخِيفِ سَخِيفًا
أُذْعِنْتُهُ كَلِمًا وَأَلْفَاطًا حَلَّتْ وَخَشَوْتُهُ نَقْطًا زَهَتْ وَحُرُوفًا
وَبَدَاهَةِ وَفُكَاهَةِ وَنَزَاهَةِ وَخَلَاعَةِ وَقِنَاعَةِ وَعِزُوفًا

إِنَّ طُولَ رُكُوبِ السَّفَرِ وَتَجَرُّعِ الْحَلْوِ وَالْمُرِّ وَالتَّقَلُّبِ فِي أَنْوَاعِ الْحِرَفِ وَالْإِمْعَانِ فِي دَلَالَاتِ الْحَرْفِ كُلُّ ذَلِكَ أَفْضَى بِهَذَا اللَّغْوِيِّ الْأَدِيبِ إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ قَوَالِبِ الْأَسَالِيبِ الْمُتَّبِعَةِ الْمَغْلُوبَةِ بِمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِ. وَكَأَنَّهُ اسْتَطَاعَ تَحْطِيمَ أُطُرِ التَّعْبِيرِ الضَّاعِطَةِ لَمَّا تَحَطَّمَتْ نَفْسُهُ بِالْمُشْكِلَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْدِينِيَّةِ الَّتِي عَانَاهَا وَالْأَزْمَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ الَّتِي كَابَدَهَا. وَهُوَ يَقُولُ: «وَبَعْدَ فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِالنَّجْرَةِ أَنَّ هَذِهِ الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي يَتَهَوَّرُ فِيهَا الْمُؤَلِّفُونَ كَثِيرًا مَا تَشْغَلُ الْقَارِئَ بِظَاهِرِ اللَّفْظِ عَنِ النَّظَرِ فِي بَاطِنِ الْمَعْنَى»^(٢). وَلَقَدْ رَأَى فِي تَطَوُّفِهِ آفَاقًا وَاسِعَةً وَأَطْلَعَ عَلَى آدَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَعَادَاتٍ مُتَضَارِبَةٍ وَعَالِجِ التَّرْجُمَةِ عَنْ لُغَاتٍ حَدِيثَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ فَلَمْ يَكُنْ أَسِيرًا لَشَيْءٍ مَا عَدَا إِسَارَةَ الْمُشْرِفِ لِحَبِّ الْعَرَبِيَّةِ. وَحَسْبُنَا هُنَا أَنْ نُورِدَ نُبْغَةً مِنْ سُخْرِيَّتِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْأَلْوَانِ، الْحَادَّةِ السَّنَانِ، فَهُوَ يَسْخَرُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ بَيْتِهِ فِي بَدَايَةِ الْكِتَابِ:

«كَانَ مَوْلِدُ الْفَارِيَاقِ فِي طَالِعِ نَحْسِ الثُّحُوسِ، وَالْعَقْرَبِ شَائِلَةً بِذَنْبِهَا إِلَى الْجِنْدِيِّ أَوْ التَّيْسِ، وَالسَّرَطَانِ مَاشٍ عَلَى قَرْنِ الثَّوْرِ، وَكَانَ وَالدَّاهِ مِنْ ذَوِي الْوَجَاهَةِ وَالنَّبَاهَةِ وَالصَّلَاحِ (مَرْحَى مَرْحَى)؛ إِلَّا أَنَّ دِينَهُمَا كَانَ أَوْسَعَ مِنْ دُنْيَاهُمَا وَصِيَّتُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ كِبْسَهُمَا (بَرْحَى بَرْحَى) وَكَانَ لَطْبِلُ ذِكْرِهِمَا دَوِيٌّ يُسْمَعُ مِنْ بَعِيدٍ، وَلِزَوَاجِ شَأْنِهِمَا عَجَاجٌ ثَنَاءً يَتَوَّرُ فِي

(١) سِرُّ اللَّيَالِ فِي الْقَلْبِ وَالْإِبْدَالِ، ص ٢.

(٢) السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، طَبْعَةُ بَارِيسِ ج ١ ص ١٢، ١٣.

الجبال والبيد، ولتكرير العُفاة عليهما واعتشاء الوفود لديهما تَعَطَّلَتْ سُبُل دخلهما ونَزَحَتْ
بشر فضلهما، فلم يبقَ فيها إلَّا نَزَازَات يَلْقَى فيها الْمُخْفِق المَحْرُوم سَدَاداً من عَوَز، فكانا
يَجُودَان به أيضاً من عَوَز السَّدَاد (وة وة). فلذلك لم يَعُدْ في طاقتهما أن يبعثاه إلى الكوفة
أو البصرة لِيَتَعَلَّمَ العربيَّة، وإنَّما جعلاه عند مُعَلِّم كُتَّاب القرية التي سكننا فيها (ويح ويح).
وكان المُعَلِّم المذكور مثل سائر مُعَلِّمي الصُّبِّيَان في تلك البلاد في كونه لم يُطَالع مُدَّة
حياته كُلِّها سوى، كتاب الزُّبُور، وهو الذي يَتَعَلَّمه الأولاد هناك لا غير (أف أف). وليس
قولي إنَّهم يَتَعَلَّمونه مُؤَذَّناً بأنَّه يَفْهَمونه، معاذ الله. فإنَّ هذا الكتاب مع تَقَادُم السُّنِين عليه
لم يَعُدْ في طاقة بشر أن يَفْهَمه (غط غط) وقد زاده إِبْهَاماً وغموضاً فساد ترجمته إلى اللُّغة
العربيَّة ورَكَاكَة عبارته حتى كاد أن يكون ضَرْباً من الأحاجي والمُعَمَّى (رط رط). وإنَّما
جَرَتْ عادة أهل تلك البلاد بأنَّ يُدَرِّبُوا فيه أولادهم على القراءة من غير أن يفهموا معناه.
بل فَهَم معانيه محظور (نف نف). وكما أنَّهم لا يفهمون معنى حارمٍ وقاف مثلاً فكذلك
لا يفهمون عبارة الكتاب المذكور إذا قَرَّوْها (طبخ طبخ). والظاهر أنَّ سادتنا رُؤَسَاء الدِّين
والدُّنْيَا لا يُريدون لِرَعِيَّتِهِم المساكين أن يَتَفَقَّهُوا أو يَتَفَقَّحُوا، بل يُحَاوِلُون ما أُمِكنَ أن
يُغَادِرُوهم مُتَسَكِّعِينَ في مَهَامِهِ الجَهِل والغَاوَة (أع أع) إذ لو شَاوُوا غير ذلك لاجتهدوا في
أن يُنْشِئُوا لهم هناك مَطْبَعَة تُطْبَع فيها الكُتُب المفيدة سواء كانت عربيَّة أو مُعَرَّبَة (سر
سر)^(١)...

ونحن نعلم قصَّة أخيه أسعد مع قَسَاوِسة طائفته إذ دخل في المذهب الإنجيلي
فَسَجَنُوهُ في دير قنوبين حتى هلك. فامتلاً أحمد فارس حَقْداً عليهم وقصد قَضْحَهُم ما
استطاع إلى درجة الفُحْش والإقْدَاع. فالفصل الخامس عشر من الجزء الأول «في قصَّة
القِسِّيس» يَضْحِكُنَا من خِلْقَةِ القِسِّيس وَقُبْحِهِ، والفصل السادس عشر «في تمام قصَّة
القِسِّيس» يَسْخَرُ من حياة الرُّهْبَان والقِسِّيسِينَ ومن تَظَاهُرِهِم بالتَّقْوَى وأنْخِمَاسِهِم في
المُؤَبِّقَات. وقد أصبحنا في العصر الحاضر نجتوي الإقْدَاع ولا نَمِيلُ إلى ما فيه من مُجُون
وَجُرْأَة مَكْشُوفَة. وَقَصَارَانَا أن نَذْكُر فقرات من بداية هذا الفصل. يقول الشَّدِياق على لسان
القِسِّيس: «وكنْتُ إذا مشيتُ أَخْفِضُ رَأْسِي إلى الأرض، ولا أنظر يميناً ولا شمالاً إلَّا
لَمَحاً، وإذا أَكَلْتُ أو شَرِبْتُ أو رَقَدْتُ أو مشيتُ أو غَسَلْتُ وجهي أخبر عن ذلك كُلُّه
حَامِداً لله ومُثْنِياً عليه، فأقول مثلاً قد خرجت اليوم من صَوْمِعَتِي لله الحمد أو لله المجد
وهي أحبُّ إلى الرُّهْبَان، أو تَنَاوَلْتُ في هذا الصَّبَاح مُسْهِلاً إن كان الله تَقَبَّلَ وما أشبه ذلك

(١) المَصْدَرُ نفسه ج ١، ص ١٣، ١٤.

مِمَّا عُرِفَ عِنْدَ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالتَّقْوَى حَتَّى اعْتَقَدَ الرُّهْبَانُ فِي جَمِيعِ الصَّلَاحِ وَالْفَضِيلَةِ. وَكَنتُ أَيْضاً قَدْ كَتَبْتُ بَعْضَ صَلَوَاتِ رُكِيكَةِ لِلرَّئِيسِ فَأُعْجِبَ بِخَطِّي وَمَدَحَنِي عَلَى ذَلِكَ وَوَعَدَنِي بِأَنْ يُرْقِنِي إِلَى دَرَجَةِ تَلِيقٍ بِي إِذْ رَأَيْتُ مُتَمَيِّزاً عَنِ الرُّهْبَانِ بِالْعِلْمِ وَجُودَةِ الرَّأْيِ وَأَخْصَصْتُ ذَلِكَ بِكَوْنِي غِيدَاراً (الغيدار هُوَ السَّيِّئُ الظَّنُّ يَظُنُّ فِيْصِيبُ) (١). ثُمَّ قَدَّرَ اللَّهُ رَبُّ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ أَنْ مَاتَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ الْبَعِيدَةِ بَعْضَ الْقِسْطِيِّينَ الَّذِينَ يُبَاشِرُونَ خِدْمَةَ الرَّعِيَّةِ أَيْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي بَيْوتِ النَّاسِ لَا فِي الدَّيْرِ، وَالَّذِينَ يَخْتَلِطُونَ بِرَعِيَّتِهِمْ خِلَافاً لِعَادَةِ الرُّهْبَانِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُخَالِطُونَ النَّاسَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ. فَتَسَبَّبَ رِئِيسُ الدَّيْرِ فِي أَنْ بَعَثَنِي إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ فِي مَكَانِ الْقِسْطِيِّ الْمُسَوِّفِ أَيْ بَدَلاً مِنْهُ لَا أَنِّي دَفَنْتُ مَعَهُ. فَلَمَّا وَصَلْتُ تَلَقَّانِي أَهْلُ كَنِيسَتِي بِالْإِكْرَامِ وَالتَّرْحِيبِ، فَأَبْدَيْتُ فِيهِمُ الْوَرَعَ وَالْعِفَّةَ فَشَاحَ فَضْلِي بَيْنَهُمْ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ التُّجَّارِ مِمَّنْ كَانَ حَرَمَهُ اللَّهُ مِنْ لَذَّةِ الْبَنِينِ دَعَانِي إِلَى مَنْزِلِهِ لِأَقِيمَ عِنْدَهُ...» ثُمَّ يَصِفُ سَلَامَةَ نِيَّةِ التَّاجِرِ وَيُصَوِّرُ نَفْسِيَّةَ الزَّوْجَةِ الَّتِي كَانَتْ تُخَاصِمُ الْخَادِمَةَ تَغْطِيَةً لِسُلُوكِهَا فَيَقُولُ: «وَكَانَ الرَّجُلُ ذَانِيَةً سَلِيمَةً وَشِيمَةً مُسْتَقِيمَةً فَلَمْ يَكُنْ يُسِيءُ بِي الظَّنُّ وَلَا يَعُوقُهُ عَنْ شُغْلِهِ أَمْرٌ عَنِّي، فَتَرَكَ لَنَا قُطُوفَ اللَّذَاتِ دَانِيَةً، وَكَوْزُوسَ الْمَسَرَّاتِ صَافِيَةً. وَمِنَ الْعَجَبِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُدَوَّنَ فِي الْكُتُبِ أَنَّهَا كَانَتْ تُخَاصِمُ الْخَادِمَةَ فِي حَضْرَتِهِ وَغِيَابِهِ، وَتَشْتُمُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَفْحَشَ الشُّتْمِ مَنَعاً لَارْتِيَابِهِ وَلَمْ تَخْشَ مِنْهَا تَبِعَةً وَلَا كَانَتْ مِنْ طَرْدِهَا جَزَعَةً» (٢).

وَيَصِفُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ لَنْدُنَ وَبَارِيسَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمَدَنِ وَالْقُرَى الَّتِي مَرَّ بِهَا وَأَقَامَ فِيهَا كَمَا يَصِفُ عَادَاتِ الْإِنْكَلِيزِ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَصُفَاً يَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُعْجُونَ وَحَرِيَّةِ التَّعْبِيرِ يَجْعَلُنَا نَغْفُلُ إِبْرَادَ شَوَاهِدٍ مِنْهُ.

وَلَمْ يَكُنْ بَدُّ لِهَذَا الْأَدِيبِ اللَّغَوِيِّ الْمَفْتُونِ بِكُنُوزِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَنْ يُصَادِفَ فِي أَوْرَبَةِ فَرِيقاً مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَمُدْرَسِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّينَ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ إِمَامِهِمُ الْبَسِيطِ وَتَبَخُّرِهِ الْوَاسِعِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، وَلِذَلِكَ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَهْتِكَ أَسْتَارَهُمُ الْعِلْمِيَّةَ. وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يُهَاجِمُ ضِعَافَهُمْ وَالْمُدَّعِينَ مِنْهُمْ لَا عُلَمَاءَهُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ.

يَقُولُ فِي خَاتَمَةِ الْكِتَابِ عَنْهُمْ: «وَكُلُّ مِنْهُمْ إِذَا دَرَسَ فِي إِحْدَى لُغَاتِ الشَّرْقِ أَوْ تَرَجَمَ شَيْئاً مِنْهَا تَرَاهُ يَخْبِطُ فِيهَا خَبْطَ عَشْوَاءٍ. فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِنْ رَقْعَةٍ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا شَاءَ،

(١) التَّفْسِيرُ مِنَ الْفَارِيقِ. وَالْفَارِيقُ لَفْظٌ مَنْحُوتٌ مِنَ فَارَسِ الشَّدِيْقِ.

(٢) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٢.

وما كان بين الشُّبْهَةِ واليقين حَدَسٌ فيه وَخَمَنٌ، فَرجَحَ منه المرجوح وفضلَ المفضل، وذلك لِأَنَّهُ لم يوجد عندهم من تصدَّى لِتَخْطِئَتِهِمْ وَتَسْوِئَتِهِمْ».

ويقول أيضاً مُتَهَكِّمًا: «نعم إنَّ لهم باعاً طويلاً في التَّاريخ، فيعرفون مثلاً أنَّ أبا تَمَّام والبُحْترِيَّ كانا مُتَعاصِرَيْن، وأنَّ الثَّاني أخذ عن الأوَّل، وأنَّ المُتَنَبِّيَّ كان مُتَأَخِّراً عنهما، وأنَّ الحريريَّ ألفَ خمسين مقامةً حَدَا بها حَدُو البديع وما أشبه ذلك. إلَّا أَنَّهُمْ لا يفهمون كُتُبَهُمْ ولا يدرون جَزُلَ الكلام من رَكِيكِهِ وَثَبْتَهُ من مصنوعه ولا المُحَسَّنات اللَّفْظِيَّةَ والمعنويَّةَ ولا الدِّقَاقَ اللَّغَوِيَّةَ ولا النُّكات الأديبِيَّةَ ولا التَّخَوُّيَّةَ ولا الاصطِلَاحات الشُّعْرِيَّةَ. فغاية ما يقال أَنَّهُمْ نَتَفَوْا نَتْفَةً من علوم العرب بواسطة كُتُبِ أَلْفَتِ بِالْقُرْنِ سَاوِيَّةً».

والخُلَاصة أنَّ الشُّدْيَاق لم يمسَّ نظاماً ولم يَتَعَرَّضَ لَأَناسٍ دون أن ينال ذلك جميعاً بِفُكَاهَتِهِ وَسُخْرِيَّتِهِ وهجائه ولسانه العَضْبُ المُتَفَتِّنُ في كُنُوزِ اللُّغة العربيَّةِ النَّادِرةِ والمُتَحَرِّرُ من أغلال السَّجْعِ والبديع الشَّائِعَةِ إذ ذاك.

ولا نَسَ أن نذكُرَ في صَدَدِ هَذَا النُّوعِ من الفُكَاةِ التي تَقْصِدُ إلى مَآرِبِ اجتماعيَّةٍ من نشأ في نهاية القرن التاسع عشرَ وشهد غُرَّةَ القرن العشرين من مَهَرَةِ الكُتَّابِ والشُّعراء الذين استعملوا الفُكَاةَ سلاحاً في مِيدَانِ الإِصْلاح. بعضهم جِدُّ محافظ نَهْجٍ في أسلوبه نَهْجُ المُتَقَدِّمِينَ أمثال محمد المويلحي (١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م - ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م) صاحب «حديث عيسى بن هشام» انتقد فيه على سبيل التَّهْكِيمِ اللَّاذِعِ ما هاله من تَسْرُوبِ المدنيَّةِ الغربيَّةِ إلى مصر. فهو يُعْلِنُ في خِتامِ روايته هذه التي هي على حَدِّ تعبيره «حقيقة مُتَبَرِّجة في ثوب خيال» أنَّ سبب انتشار الفساد والخَلَلِ «هو دُخُولُ المدنيَّةِ الغربيَّةِ بَغْتَةً في البلاد الشَّرْقِيَّةَ وتَقْلِيدُ الشَّرْقِيِّينَ لِلْغَرْبِيِّينَ في جميع أحوال معاشهم كالعميان، لا يستنبرون بِبَحْثٍ ولا يأخذون بقياس ولا يَتَبَصَّرُونَ بِحُسْنِ نَظَرٍ ولا يَلْتَفِتُونَ إلى ما هنالك من تَنَافُرِ الطَّبَاعِ وَتَبَايُنِ الْأَخْوَاقِ واختلاف الأقاليم والعادات، ولم يَتَّقُوا منها الصَّحِيحَ من الزَّائِفِ والحَسَنِ من القبيح، بل أخذوها قُضِيَّةً مُسَلَّمةً وظنُّوا أنَّ فيها السَّعادةَ والهناءَ وتَوَهَّمُوا أن يكون لهم بها القُوَّةُ والغَلَبَةُ».

على أنَّ أدباء آخرين منهم كانوا يُنذِّدون بِغَفْلَةٍ أبناءَ مجتمعهم وعاداتهم التَّافِهَةِ ومُعتَقَدَاتِهِمِ الواهِيَةِ المُحَرِّفَةِ عن أصلاتها ومعناها الحقيقيَّةِ.

نُشير هنا مثلاً إلى قصيدة الرُّصافي (١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م^(١) - ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م)

(١) الزُّركليُّ في الأعلام يذكُر ولادَتَهُ في سنة ١٢٩٤ / ١٨٧٧.

التي تَسْلُكُ سبيل التَّبْكِيتِ المُرِّ والإِهَابَةِ لِلْيَقْظَةِ والثُّورَةِ عَلَى التُّرْكِ وَتَنْهَجُ نَهْجَ المَوْشَحَاتِ .
وقد نَوَّهْنَا بِهَا حِينَ بَحْثْنَا أَطْوَارَ الشُّعْرِ . وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ مُتَهَكِّمًا بِسِيَاسَةِ المُسْتَعْمِرِينَ
وَفَهْمِهِمُ لِلحُرِّيَّةِ وَعَزْمِهِمُ عَلَى تَجْزِئَةِ الوَطَنِ عَسَى مَرَارَةِ التَّهَكُّمِ تُوقِظُ النُّوَامَ . وَإِنَّمَا نَذَكُرُ
أَغْلَبَ القَصِيدَةِ لِبَرَاعَةِ التَّهَكُّمِ فِيهَا وَلَآئِهَا تُصَوِّرُ فَصْلًا مِنْ نِضَالِ البِلَادِ :

يَا قُومَ لَا تَتَكَلَّمُوا	إِنَّ الكَلَامَ مُحَرَّمٌ
نَامُوا وَلَا تَسْتَيْقِظُوا	مَا فَازَ إِلَّا التُّومُ
وَتَأْخَرُوا عَنْ كُلِّ مَا	يَقْضِي بِأَنْ تَتَقَدَّمُوا
وَدَعُوا التَّفَهُؤَ جَانِبًا	فَالْخَيْرُ أَلَّا تَفْهَمُوا
وَتَبَيَّنُوا فِي جَهْلِكُمْ	فَالشَّرُّ أَنْ تَتَعَلَّمُوا
أَمَّا السِّيَاسَةُ فَاتْرَكُوا	أَبْدًا وَإِلَّا تَنْتَدِمُوا
إِنَّ السِّيَاسَةَ سِرُّهَا	لَوْ تَعْلَمُونَ مُطْلَسَمٌ
وَإِذَا أَفْضَيْتُمْ فِي الْمُبَا	حَ مِنَ الْحَدِيثِ فَجَمِّعُوا
وَالْعَدْلَ لَا تَتَوَسَّمُوا	وَالظُّلْمَ لَا تَتَجَهَّمُوا
مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَعِيَ	شَ الْيَوْمَ وَهُوَ مُكَرَّمٌ
فَلْيُنْفَسْ لَا سَفْعَ وَلَا	بَصَرَ لِدَيْهِ وَلَا فَمٌ
لَا يَسْتَحِقُّ كَرَامَةً	إِلَّا الْأَصْلَمُ الْأَبْكَمُ
وَدَعُوا السَّعَادَةَ إِنَّمَا	هِيَ فِي الْحَيَاةِ تَوْهُمٌ
فَالْعَيْشَ وَهُوَ مُنْعَمٌ	كَالْعَيْشِ وَهُوَ مُذَمَّمٌ
فَارْضُوا بِحُكْمِ الدَّهْرِ مَهْ	مَا كَانَ فِيهِ تَحَكُّمٌ
وَإِذَا ظَلِمْتُمْ فَاضْحِكُوا	طَرِبًا وَلَا تَتَنَظَّمُوا
وَإِذَا أُهِنْتُمْ فَاشْكُرُوا	وَإِذَا لُطِمْتُمْ فَابْسِمُوا
إِنْ قِيلَ هَذَا شَهْدَكُمْ	مُرُّ فَقُولُوا عَلَقَكُمْ
أَوْ قِيلَ إِنَّ نَهَارَكُمْ	لَيْلَ فَقُولُوا مُظْلِمٌ
أَوْ قِيلَ إِنَّ يَمَادَكُمْ	سَيْلَ فَقُولُوا مُنْفَعٌ
أَوْ قِيلَ إِنَّ بِلَادَكُمْ	يَا قُومَ سَوْفَ تُقْسَمُ
فَتَحَمُّدُوا وَتَشْكُرُوا	وَتَرْنَحُوا وَتَرْنَمُوا

وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّنْكِيتَ وَالتَّهَكُّمَ السِّيَاسِيَّيْنِ سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ النِّضَالِ ، عَلَى خِلَافِ
التَّهْرِيجِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي نَصَحَهُ مَكْيَا فُلِي لِأَمِيرِهِ مِنْذُ قُرُونٍ ، فَهُوَ شَأْنٌ آخَرُ .

وَكَذَلِكَ لَا نَسَسَ «الصَّحَائِفُ الشُّودُ» وَهِيَ جُمْلَةُ مَقَالَاتٍ لِلشَّاعِرِ الرَّقِيقِ وَلِيِّ الدِّينِ

يَكُنْ (١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م - ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م) يُضَحِّكُنَا فِيهَا مَا سَرَدَهُ حَوْل «لَيْلَةِ الْقَدَرِ»
كما يفهمها العامة من نواذر مُخْزِيَةٍ غريبة وساخرة حقًا.

وَيَسْتَبِين مِمَّا سَلَفَ أَنَّ مَضْمُونِ الْفُكَاةِ وَالْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَمَسُّهَا وَالْغَايَاتِ الَّتِي
تَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَبَدَّلَ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي لِتَبَدُّلِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَإِنْ بَقِيََتْ مَا هِيَ الْفُكَاةُ ثَابِتَةً وَقَوَاعِدُهَا الَّتِي تَسْتَنْدُ إِلَيْهَا وَاحِدَةٌ.

جحا ونواذره:

خُلَاصَةُ الْبَحْثِ أَنَّ الْفُكَاةَ رِيحَانَةُ الثُّقُوسِ، وَمُتَعَّةُ الْخَوَاطِرِ، وَسَلْوَى الْقُلُوبِ، وَهِيَ
مِنْ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ وَلَوَازِمِهِ وَصِفَاتِهِ، تَجْرِي مَعَ الْفِكْرِ الْحُرِّ، وَتَنْشَطُ مَعَ الطَّبْعِ الرَّشِيقِ،
وَهِيَ ذَاتُ أَلْوَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا الزَّاهِي وَالصَّارِخُ وَالنَّاصِعُ وَالْقَاتِمُ وَالْوَاضِحُ وَالْغَامِضُ
وَالْبَهِيجُ وَالْحَزِينُ. وَذَاتُ طُعُومٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا الْمُرُّ وَالْحَرِيفُ وَمِنْهَا الْحُلُوُّ وَالْمُرُّ وَمِنْهَا
السَّاخِنُ وَالْبَارِدُ. وَهِيَ عَلَى أَلْوَانِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ وَطُعُومِهَا الْمُخْتَلِفَةِ لَا يَكَادُ يَخْلُو مِنْهَا عَصْرٌ
مِنْ الْعُصُورِ وَلَا أَدَبٌ مِنَ الْأَدَابِ. إِنَّهَا تَرْبُزُ الْحَيَاةَ وَلِدَّةُ الْفِكْرِ وَصِنُو الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَالسَّيِّئَةِ الدَّالَّةَ عَلَى طَبِيعَتِهَا وَشَكْلِهَا. وَهِيَ لِلجَدَلِ تَوْكِيدٌ لَجَدَلِهِ وَلِلْمَحْزُونِ تَنْفِيسٌ عَنْ
حُزْنِهِ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ عَنْ كَرْبِهِ. تَبْرُقُ لَهَا الْعَيْنَانِ وَتَنْفَرِّجُ الشَّفَتَانِ وَيَرِنُّ الصَّوْتُ وَتَتَأَلَّقُ النَّفْسُ
وَيَعْلُو الْفِكْرُ وَتَخْفُفُ الشَّمَائِلُ.

فِي الْفُكَاةِ جَانِبٌ إِبْلِسِيٌّ لِأَنَّهَا تَطْلُعُ عَلَى نَصِيبٍ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالْمُفَارَقَاتِ أَيَّانَ
وَقَعَتْ وَأَيْنَ ظَهَرَتْ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَوْ تَفْكِيرِهِ أَوْ سُلُوكِهِ أَوْ تَصَرُّفِهِ أَوْ إِرَادَتِهِ أَوْ فِي مَجْرَى
الْحَوَادِثِ الَّتِي يَتَلَبَّسُ بِهَا فَكَاثِمًا تَطْلُعُ بِهَا عَلَى عَيْبٍ فِي التَّكْوِينِ وَكَأَنَّمَا يَنْتَصِرُ الْفِكْرُ الْحُرُّ
فِيهَا عَلَى الطَّبِيعَةِ الْمُقَيَّدَةِ الرَّاسِيفَةِ فِي الْأَغْلَالِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ تَبْلُغُ دَرَجَةَ الْفَنِّ حِينَ تَكْشِفُ ذَلِكَ الْعَيْبَ وَتَهْتِكُ ذَلِكَ التَّنَاقُضَ.
فَيَكْتَسِي الْقُبْحُ فِيهَا عِنْدَ ذَلِكَ صِفَةً فَنِّيَّةً وَاضِحَةً وَيَصِلُ إِلَى حَدِّ الْإِمْتَاعِ، وَذَلِكَ بِالتَّلْمِيحِ إِلَى
جَمَالٍ مُمَكِّنٍ يَنْفِيهِ الْقُبْحُ لِإِبْتِهَةِ، وَبِالتَّنْبِيهِ عَلَى تَنَاسُبِ يَهْدِمُهُ التُّشْوِزُ لِيَبْنِيَهُ. فَالْقُبْحُ هُنَا مُتَمِّعٌ
وَلَكِنْ بِالِاسْتِنَادِ إِلَى جَمَالٍ مُتَلَامِحٍ. إِنَّهُ سَلَبٌ يَدُلُّ عَلَى إِبْجَائِيَّةِ الْجَمَالِ فِي الثُّقُوسِ، وَهَزَلٌ
ظَاهِرٌ يُشِيرُ إِلَى جَدِّيَّةِ الْفِكْرِ الْعَمِيقَةِ.

وَإِذَا دَلَّتِ الْفُكَاةُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى جَدَلٍ أَوْ ابْتِهَاجٍ وَنَجَاحٍ أَوْ انْتِصَارٍ فَهِيَ فِي
بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْأُخْرَى تَنْمُّ عَلَى أَلَمٍ دَفِينٍ وَتَشْفُ عَنْ كَرْبٍ خَفِيٍّ وَيُرِيدُ مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهَا أَنْ
يُدَاوِيَ أَلَمَهُ بِالضَّدِّ وَيَشْفِي كَرْبَهُ بِالتَّقْيِيزِ كَمَا يُدَاوِي الْبَرْدَ بِالتَّدْفِئَةِ وَيُعَالِجُ التَّعَبَ بِالرَّاحَةِ
وَالِاسْتِحْجَامَ وَهَلُمَّ جَرًّا. ضِدُّ الْأَلَمِ هُنَا هُوَ هَذَا الضَّحِكُ الْهَازِلُ الْمُتَفَكِّهُ الَّذِي يَمَسُّ الْأَشْيَاءَ

والحوادث من خارج وبدون اكثيراث ولا مبالاة، فهو لا يكاد يحفل بها ويهتم بمغباتها. ولذلك راجت الفكاهة في بعض العصور التي ران فيها القلق وازداد الضغط لأن فيها تجاوزاً للواقع بالابتعاد عنه ولو بالظاهر ولأن فيها مزاولة للحريّة ولو بطريق الفكر. وعند جميع الشعوب نكات ونوادر وفكاهات شعبية يروونها من جيل إلى جيل ويتداولونها من عصر إلى عصر ويتناقلونها من مجتمع إلى مجتمع ويفصلونها على قالب الظروف والأيام وبمقتضى الحوادث والأحوال، أكثرها مجهول النسبة يطوف حول شخصيات شعبية غامضة تكاد تكون أسطورية خيالية. ولن نوفي بحثنا حقّه إذا لم نُشر إلى شخصية جحا وإلى أخباره.

ذلك أن جحا الأمثال والنوادر الشعبية العربية من أطرف الشخصيات الفكاهية العالمية على مرّ الأزمان والدهور. ويذكر الرواة أن اسمه الأصلي أبو الغصن دجين بن ثابت، عاش في أواخر القرن الأول الهجري وفي النصف الثاني من القرن الثاني، وأدرك الخليفين العباسيين أبا جعفر المنصور والمهدي، وذكروا له معهما بعض النوادر. بيد أن الأخبار الحقيقية المعروفة عن أبي الغصن لهذا قليلة. ولقد بقي مغموراً بعض الشيء حتى القرن السابع الهجري حين نشأ جحا الترك الخوجة نصر الدين الزومّي فأنضافت أخبار الخوجة إلى أخبار جحا، كما انضافت إليها جميعاً أخبار أخرى متعددة على الشكل الذي ترسّب فيه ذرات بعض الأجسام المحلولة في الكيمياء حول البلورة الأم. وتألّفت هكذا طائفة كبيرة من النوادر والفكاهات لم تصدر في الأصل عن شخص واحد ولا ترجع إلى عصر واحد، وكلّها تحفّ بشخصية جحا وتصور نزوات نفسية وانتقادات نافذة حول جوانب شتى من الحياة الاجتماعية. حتى إن هذه الشخصية أصبحت إلى الرمز والمثل السائر أقرب منها إلى الحقيقة والواقع. وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن تبدو لنا شخصية جحا تجمع بين المتناقضات.

فهو ذكيّ وغبيّ، أحمق وحكيم، كريم وبخيل، عزّب ومُتزوِّج، وله زوجات مُنوّعات في الجمال والمحبة والسّن، وكذلك له أولاد عدّة وحَمَوَات وهَلَمَّ جرّاً بحسب القصة المروية وبحسب الجانب الاجتماعي المراد نقده.

وكأنّ كلّ ما تعلّق في الأخبار بجحا من نصيب من التناقض القائم في شخصيته، والمتسامح به للغاية المتوخّاة منه. وهكذا يتجاوز بعض الروايات والأخبار سبيل المتعة والدعابة النادرة إلى درجة الحكمة والموعظة وضرب المثل وتصوير الفكرة تصويراً واقعياً وانتقاد جانب من المجتمع انتقاداً غير مباشر. ويطول بنا الحديث إذا أردنا أن نتعقّب

أخبار جُحا المتفاوتة فلا بُدَّ لنا من الاختيار المُحصَّص وإيراد بعض الأمثلة ولو كانت معروفة.

لنقرأ هذه القصَّة التي تدلُّ على ضرورة التسامح والتَّغاضي وقلة المبالاة تُجاه الأخطاء ابتغاء راحة البال واطمئنان الخاطر.

أراد جحا أن يبيع حماره فذهب إلى الشُّوق وأعطاه للدُّلال لبيعه فجعل الدُّلال يدور به وينادي: هذا حمار سريع السَّير متين التَّركيب واسع الخطا لا يشعر راحبه بأيِّ تعب. فجعل النَّاس يتزايدون عليه حُبًّا في هذه المزايا الكثيرة. وسمع جحا هذه الأوصاف ورأى النَّاس يتزايدون فقال في نفسه: لا بدَّ أنَّ الحمار به هذه الصِّفات وأنا لا أدري وبسرعة اندفع بين المتزايدين وجعل يتبارى معهم في رفع ثمنه إلى أن توقَّفا. ورسا البيع عليه هو، فأخرج نُقوده من كيسه وعدَّ للدُّلال الثَّمن وأمسك بالحمار وانصرف إلى البيت مسروراً بحماره. وفي المساء جلس مع امرأته يقصُّ عليها نبأ المُزايدة، فقالت له: وأنا سأحدِّثك بأمر أعجب من هذا، فقد مرَّ أمام دارنا بائع القُشْطَة فنادَيْتُهُ وجعل يَرِنُ لي، فغافلته ووضعت أساوري الدَّهب في الكِفَّة التي بها السَّنج (أي الوزن) ليرجح الميزان ثمَّ أخذت الوعاء ودخلتُ وتركتُها في الكِفَّة حتى لا يَشعر بأني غافلته. فقال لها جحا: بارك الله فيك! أنا من الخارج وأنت من الدَّاخِل، وبهذا يَعْمُر البيت.

ولا شكَّ أنَّ الخسارة في هذه القصَّة تحوَّلت إلى غُنم وذلك عن طريق الرُّضا، أو يمكن أن تدلَّ هذه القصَّة على انهيار الأحوال في تلك الأزمان دون التَّنَبُّه له.

ويبدو جحا في بعض الروايات ذا أثره وأنانية كبيرتين يَنْتهي الوجود كُلُّه بانتهاء وجوده فقد قيلَ له يوماً: متى تقوم القيامة؟ قال: حينما أموت أنا.

والمكان الذي هو فيه مركز الأرض، وعلمه مُستند إلى المقاييس الطَّبِيعِيَّة التي تنفي ما لا طائل فيه. خرج أحد العلَّماء يطوف بالبلاد يُبَاحِثُ العلَّماء، ويَغْلِبُهُمْ، حتى وصل إلى بلد جحا وسأل: هل من عالم في هذا البلد؟ قالوا: نعم، وأحضروا له جحا راكباً حماره، فسأله العالم: أين وسط الأرض؟ فأجابه جحا: المكان الذي أنا واقف فيه بحماري، وإن لم تُصدِّقني فعليك بقياس الأرض، فتَحَيَّرَ الرجل ثمَّ سأله: كم عدد النُّجُوم؟ فأجابه جحا عدد شعر حماري، وإن لم تُصدِّقني فعُدَّ النُّجُوم، وعدَّ شعر الحمار، فسأله الرَّجل: كم عدد الشَّعر في لحيتي؟ فأجابه جحا: إنَّ الشَّعر في لحيتك يُساوي هذا الشَّعر الذي في ذيل حماري. فإن لم تُصدِّقني فاقْلَعْ شعرة من لحيتك وشعرة من ذيل الحمار حتى ينتهي الاثنان ثمَّ عدَّهما. فدَهِشَ الرَّجل ورجع نادماً.

ويُصوّر جحا اختلاف الأحكام باختلاف مصالح الحُكّام. جاء رجل يوماً إليه وقال له: إِنَّ تَوْرِكَ نطح تَوْرِي فقتله، فهل يلزمني الضّمان؟ فقال جحا: كلاًّ فَإِنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَّارٌ (أي هدر). فقال صاحب الثور: عذراً، لقد أخطأت، إِنَّ تَوْرِي هو الذي نطح تَوْرِكَ. فالتفت جحا مُتزعجاً وقال: لقد تغيّر وجه الادّعاء، وأشكّلت المسألة، فهاتِ هذا الكتاب الذي فوق الرّفّ لأنظر فيه.

والخوف من الزّوجات شنيئة قديمة لا يُنكرها إلاّ المُكابر. أراد أحد الحُكّام أن يُنعم على جحا فقال له تمنّ يا جحا، وأنا أحقّق أُمْنينك، فقال أرجو أن تأمر بأن آخذ حماراً من كلّ رجل يخاف من زوجته، فأصدر الحاكم أمراً بذلك. وبعد أيّام كان الحاكم ينظر من نافذته فرأى غبّرة عظيمة، وإذا بجحا يسوق أمامه حميراً كثيرة، فاستدعاه وسأله عن أخباره فقال له: إِنِّي أَخَذْتُ كُلَّ هَذِهِ الْحَمِيرِ مِنْ رِجَالٍ يَخَافُونَ نِسَاءَهُمْ، فَعَجِبَ الْحَاكِمُ مِنْ ذَلِكَ، فقال جحا: وقد رَأَيْتُ فِي إِحْدَى الْبِلَادِ فَتَاةً جَمِيلَةً كَأَنَّهَا الْقَمَرُ فِي لَيْلَةِ الثَّمَامِ؛ وَلَهَا قَامَةٌ كَأَنَّهَا غَصْنُ الْبَانِ، وَعَيْنَانِ سَاحِرَتَانِ، وَخَدَّ نَاضِرٍ، وَشَفَتَانِ كَوَرَقَتِي الْوَرْدِ وَ.. فقال له الحاكم: خَفِّضْ صَوْتَكَ يَا جَحَا، فَإِنَّ زَوْجَتِي عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْحَجَرَةِ، وَأَخْشَى أَنْ تَسْمَعَكَ، وقد يحدث ما لا تُحَمَّدُ عُقْبَاهُ، فهبّ جحا واقفاً وقال: إِذَا كَانَ لِي أَنْ أَخَذَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ حِمَاراً فَهَاتِ أَنْتِ حِمَارِينَ.

وجحا أعرف النَّاسِ بطباع النَّاسِ وبأنّه لا يُرضيهم شيءٌ، وقصّته مع ابنه وحماره مشهورة. وهي ممّا لا تملّ إعاداته ونختم بها هذا البحث^(١).

فقد ركب جحا مرّةً حماره ومشى ابنه خلفه ومرّاً أمام جماعةٍ فقالوا انظروا إلى هذا الرّجل الذي خلا قلبه من الشّفقة يركب هو ويترك ابنه يمشي! فنزل جحا ومشى وأركب ابنه ومرّاً على جماعةٍ فقالوا: انظروا إلى هذا الغلام المُجرّد من الأدب يركب الحمار ويترك أباه الرّجل الكبير يمشي! فركب جحا هو وابنُه على ظهر الحمار وسارا فمرّاً بجماعةٍ فقالوا: انظروا إلى هذا الرّجل القاسي يركب هو وابنُه ولا يرفقان بالحمارا فنزل جحا وابنُه وساقا الحمار ومشيا خلفه فمرّاً بجماعةٍ فقالوا: انظروا إلى هذين المُغفلين يتعبان من المشي وأمامهما الحمار لا يركبانه! وبعد أن جاوزاهم حمل جحا هو وابنُه الحمار وسارا به فمرّاً بجماعةٍ فضحكوا منهما وقالوا: انظروا إلى هذين المجنونين

(١) نوادر جحا المذكورة مأخوذة بالفاظها عن كتاب «أخبار جحا»، تحقيق عبد الستار أحمد فراج. انظر أيضاً «جحا الضّاحك المُضحك» للأستاذ الكبير عباس محمود العقّاد.

يَحْمِلَانِ الحِمَارَ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَحْمِلَهُمَا! وَحِينَئِذٍ أَنْزَلَاهُ وَقَالَ جُحَا لِابْنِهِ: يَا بَنِيَّ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَظْفَرَ بِرِضَا النَّاسِ جَمِيعًا.

نجد في هذه القصة الرمزية أن واضعها قد طَفَحَ الكَيْلُ به، وضاق ذَرْعًا بِنَقْدِ النَّاسِ له في جميع الوجوه وَتَدَخَّلْهُمْ في أموره، فاستنفذ الأحوال والهيئات التي يُمكن لجحا وابنه وحماره أن يسيروا فيها على ظَهَرِ الطَّرِيقِ، وَوَزَّعَهَا توزيعاً مُستَقْصِياً كالرِّيَاضِيِّ الذي يُوزِّعُ الحدود والأرقام، وَتَخَيَّلَ الحال الأخيرة الغريبة التي ينتهي فيها جحا وابنه بحمل الحمار يائسين، يُكَايِدَانِ الجُهدَ والعَنَتَ سُدىً وَعَبَثًا. ومثل هذا التَّخَيُّلُ يَشِفُّ عن مدى الضُّيقِ بأحاديث النَّاسِ وانتقاداتهم التي لا حدَّ لها.

وهكذا يَعِظُ جحا ابنه كيلا يَتَأَثَّرَ بهذا في تَصَرُّفه بأقوال النَّاسِ واختلاف اعتباراتهم ولاذع تَهَانِفِهِمْ وَسُخْرِيَّتِهِمْ، بل ينبغي له أن يَلْتَمِسَ سبيل العمل فيما هو الجِدُّ النَّافِعُ المفيد، والرَّأْيُ الصَّحِيحُ السَّديد.

وجُمْلَةُ القول أن بحر الفكاهة واسع وعميق سَعَةُ الحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَعُمُقُهَا. وَحَسَبْنَا الآنَ، في ختام ما ذكرناه على لسان جحا، هَذَا الزُّبْدَ الْقَلِيلَ مِنْ مَوْجِةِ الْحُلُومِ الْمُرِّ، وَالرَّافِعِ الْخَافِضِ، وَالبَهِيجِ الْحَزِينِ.

خاتمة

﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرُ دَعْوَانَهُمْ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[يونس].

من مزايا اللغة العربية اتساع آدابها وغنى تراثها الفكري، فوق مرونتها الكبيرة العجيبة.

ولقد اهتممنا من قبل ببعض العلوم الحديثة، كتبنا بعض الكتب فيها، ووضعنا طائفة من مضطلحاتها، فلم نجد في اللغة العربية ضيقاً ولا حرجاً، ولم نلّف منها جفاءً ولا ازوراراً، بل لمسنا فيها طواعية مغرية، وسلاسة كبيرة، ومرونة واسعة. ثم صادفنا بعض المتأدبين ينظرون إلى كنوز آدابها الثالدة نظراً أشوس غير مستقيم، لا يفهمونها حقّ فهمها، ولا يقدرونها تمام قدرها، تُطيح بهم السّفايف، ويغفلون عن أسرار البيان وروحه واختلاف أشكاله وأفانيه. فأرذنا في الصّحائف السّالفة التي سوّدناها أن نخالفهم في نظرتهم، وأن نظهر إعجابنا بتلك الآداب وما في خزائنها من كنوز واضحة أو خفية، وهي التي عليها تفتح إحساسنا وبها عرفنا الأشياء أول ما عرفناها. وأفضل شافع يسوّغ إعجابنا وحُبنا هو البحث والتّحقيق لا مُجرّد الدّعوى والفخار. فإذا استطاعت البحوث السّالفة متفرقة ومُجمعة أن تُلوّح بسنا أصيل مُشرق، وأن تأتلق بومضات بديعة من جواهر التراث العربيّ الأدبيّ والفكريّ واتّساع جوانبه وغنى خزائنه، وأن تحفز على تدارسه وتداوله بنظرات جديدة، فلقد بلغت ما قصدت إليه.

* * *

في صدر تلك البحوث فرّقنا بين ألوان القيم الجماليّة التي ننظر إليها في الوقت نفسه على أنّها «مقولات» أو «قاطيغورياس» للحكم الفنيّ، كما هنالك «مقولات» أو «قاطيغورياس» للحكم على الوجود. ولقد اقتصر تفريقنا ذلك على التقاط هذه القيم في حقول الأدب العربيّ، فسّقناها في إضمامة جديدة تعتمد على اعتبارات الفلسفة الفنّيّة

الحديث دون أن ندخل في غمار تلك الفلسفة فنناقش قضية المقولات ووحدتها وأقسامها، وإنما اكتفينا بما رأيناه مُفيداً في جلاء معانيها وإيضاح ماهياتها في ضوء تاريخ الأدب العربي وبما وجدناه صالحاً في توثيق ارتباطها وتقابلها.

* * *

قيل قديماً: «شدة القرب حجاب». ولا غرور إذا كانت شدة القرب من الأدب العربي أو من بعض الآداب الأجنبية قد دفعت بعض المتأدبين الحديثين إلى أن يترسموا أطوار الأدب العربي كما عرفها مؤرخو الأدب القدماء أو أن يلتبسوا فيها نظائر ما يجدونه في كتب الآداب الغربية.

ولقد أردنا أن نقف إزاء الشعر العربي القديم موقفاً أبعد من مواقفهم، فارتسمت أمامنا حركة تطوره من جهة طريقة التعبير وصوغ الأسلوب على الشكل الذي يتناه بالأسلوب لما وصل إلينا من ماضي الشعر العربي الطويل، ومزنا ميزاً كافياً بين الأسلوب الاتباعي والأسلوب البراق، متخذين من تطور الفن العام في التاريخ ولا سيما تاريخ العمارة هذا التفريق، منبهين على الأصل العربي للفظ «الباروك».

ثم حاولنا أن نربط صيغ التعبير بأطوار المجتمع، فوجدنا أصالة البيان متصلة بتقدم المجتمع وبمدى حضارته. ولا غرور في ذلك، فإن اللغة والفكر صنوان ملتزمان متلازمان. وهذا الاتصال أفضى بنا في الأخير إلى استشفاف يقظة البيان الحر الصحيح في تبشير نهضة العرب الحديثة. وفي ثانيا ذلك كله لم نملك أنفسنا من أن نخشى الإسفاف والتهالك والخطأ في البيان خشيتنا من نوازغ التفرق ونوازغ التنازع وغوائل التنازع ومكايد الاستعمار المتسرّبة إلى رباط اللغة. وما جاء في الكتب القديمة من مثلة التفرق الذي أصاب سُكَّان بابل حين أصبح بعضهم لا يفهم بعضاً يبقى عظة خالدة للذين يتكلمون لغة واحدة.

* * *

إن إدراك روح البيان هو الأصل في دراسة الأدب. وكما أن العلم يعتمد على المنهج الصحيح في تعرف أسرار المادة لا يفرق في الشأن بين دراسة الذرة ودراسة المجرة، ولا في التفهم بين حبة الثور وأكبر الشمس الكونية، وإن التمس لدى كل دراسة سبيله القويم إليها، كذلك ينبغي أن نجد متاعاً وفائدة فنيين فيما يتناول الشاعر مثلاً من الأغراض سواء وصف الفرس أو الطائفة والجمال أو الصاروخ على أن يكون الوصف فني التصوير، بارع الأصالة، فاتن الانتباه، ساحر البيان. ولقد أردنا في فصل «الشعر العربي

وفكرة الزمان» أن نكشف جانباً من براعة الشعراء العرب في بيانهم بالاستناد إلى فكرة غامضة شغلت المفكرين والفلاسفة منذ القديم حتى اليوم. ولم نبعث إذ ذاك في معنى الزمان ومختلف الاعتبارات الفلسفية لحقيقته، وإنما استشفنا بعضاً من أسرار الصناعة الشعرية بالنسبة إلى فكرة الزمان، وطبقنا تلك القيم الجمالية التي جَلَوْنَاهَا في صدر الكتاب على مطامح التعبير الشعري في نطاق تلك الفكرة.

* * *

كان العلم والفكر والبيان أموراً متصلة متساندة، وتكاد تكون متلازمة على رغم الاختصاص. كانت الحضارة تتلقى زوايدها من معرفة وفلسفة وفن وأدب كما تتلقى البحار مياه الجداول والأنهار والأمطار.

ولقد اشتد إدراكنا لذلك حين بحثنا قضية «الرمز في الشعر العربي». ذلك أنه إذا كان الأثر الفكري تركيباً نهائياً لعناصر كثيرة لزم عند دراسته أن نلجأ إلى بعض التوبيع والتصنيف والتفريع لتسهيل البحث وتيسير الفهم.

ولهكذا بعد إذ أوردنا بعض الشواهد على الرمز الشعري القديم المتفاوت الصور والأغراض نؤهلنا بالرمز العلمي وضررنا أمثلة عليه موجزة للتنبية إلى أهميته. ويكفي أن نعمد إلى مقدمة ابن خلدون ونتصفح فصل «علم الكيمياء» فيها لنرى اتساع الرمز العلمي وضرورة تناوله في أضواء جديدة.

ولا عجب أن يكون العالم إذ ذاك أديباً وفيلسوفاً فوق كونه عالماً. كان العالم يحلم إزاء المادة التي يعالجها، وكان يجري تجاربه على ما يحلم به ليروض تلك المادة. ولهذا كان بيانه بيان الخيال والأحلام، فارتدى جلباب الرمز لأنه من ألصق الأساليب بالخيال والأحلام. كانت الأحلام تُفكر، وكانت الأفكار تحلم. لغة العلم إذ ذاك لغة تتجه مع الباحث إلى التأثير في كيان المادة. وعلى الذي يريد أن يلم بتاريخ العلم أن يتعلم لغة العلم إذ ذاك وأساليب بيانه، وأن يتأمل طريقة التفكير المتصل بالخيال والأحلام، فلا يأخذ ألفاظهم على ظاهر ما توحى به إلينا اليوم، ولا يلتبس في مجازاتهم واستعاراتهم ورموزهم تفسيراً عقلياً لكل ما كشف عنه العلم الحديث. وإنما ينبغي أن يتخيل الرموز والاستعارات والمجازات التي استعملوها وتداولوها كما هي وأن يعيش في جو صورها وإيحائها إلى جانب الاعتبارات العقلية الموضوعية التي كانت عندهم. إن بيان العالم كيان الشاعر يتضح بالعاطفة والرغبات والخيال. فالأشياء والمواد والتجوم ينبغي في الغالب أن تُساس حتى تسلس مقادتها ولو بمجرد التنويه بأسمائها. وأسمائها تمجيد لها أو تنديد

بها، على أنها في الغالب تمجيد. إنَّ التَّمجيد يُوقِظ قُوَى المادَّة الغافية، فهو ذو سيطرة عليها، وله فعل بها كالسَّحر. قُدْرَةُ النَّاء والإطراء في نفوس البشر واضحة لا رَيْبَ فيها، وكذلك ينبغي أن يكون الأمر في باطن المادَّة حيث تثوي القُوَى والرَّغبات. على حين أنَّ اللُّوم والتَّنديد يَقْضيان الأحلام ويَصْداان المَيْل والنَّزوات. إنَّ السَّرَّ حيثما اتَّجَّهنا يتوحي في داخل الأشياء كما يتوحي في نفوس النَّاس.

ومن يقرأ كتب الكيمياء القديمة يَلْزِمُه أن يقرأها مرَّتين: مرَّة في ضوء تاريخ العلوم ومرَّة من الوجهة النَّفْسِيَّة الأدبِيَّة الصَّرْف^(١).

سيكولوجيا العالم القديم سيكولوجيا الأحلام التي تُحاول أن تَنْقَلِبَ إلى تَجَارِبٍ يُجَرِّبُها على العالم الخارجي. إنَّ تمجيد أسماء الجواهر تَوَطُّة للتَّجَارِبِ على الموادِّ الْمُتَمَجِّدَةِ الْمُتَوَّهَ بها. ذهب الكيمياء تجسيم لرَّغبات الاستيلاء والسَّيطرة المُلْحَقة لدى الكيمويِّ المُتَنَفِّدِ في عزله. فإذا سعى الباحث للحصول على الدَّهَب فليس سَعْيُهُ لَصَرْفِ الدَّهَبِ في الأسواق وإثما هي رَغْبَةُ الوصول إلى تأثير روحيٍّ مُبَاشِرٍ لِيَتَبَوَّأَ عرش الجلالة عند روحه المُدَكَّر^(٢)، إنَّه ذو خيال يُريد ويستمتع بمجرَّد الإرادة ويُمَجِّد نفسه في إرادته العُلْيَا. فخياله الذي يُخاطِبُ المادَّة يدعُو المادَّة إلى الحياة وإلى التَّجَدُّد والرَّفْعَة. ورَغْبَتُهُ في السَّيطرة على المادَّة مُتَّصِلَةٌ عنده بفضائل خُلُقِيَّة ومزايا نَفْسِيَّة. إذا قام مثلاً بتقطير الموادِّ المُخْتَطِطَةِ للحصول على أجسام صائِفَة أذكى التَّقطير فضائل الموادِّ. فهو يَمْزِج الموادَّ غَبَّ فصلها لكي يُدَرِّبَ الإكسير على سرعة الخُلوص من الأَوْشَاب. نحن هنا أمام صبر طويل وأناة يُشَبِّهان صَبْرَ المُرِّيِّ وأناته. كأنَّ العالم كان يريد في تَجَارِبِهِ أن يُرَبِّي المادَّة.

ولنلك الفضائل الخُلُقِيَّة والرُّوحِيَّة، ولذلك الفِكر المُتَّصِلُ بالخيال، والخيال المُتَّصِلُ بالفِكر، اتَّخَذَ الرَّمزُ العِلْمِيُّ شكلَ الرَّمزِ الصُّوفِيِّ في بعض صُوَرِهِ واستَمَدَّ الرَّمْزَانِ كَثِيراً من مَجَازَاتِهِمَا من مَعِينِ التَّعَابِيرِ الدِّينِيَّةِ، وإنَّ خَرَجاً بها أحياناً عن حقيقة المراد الأصليِّ، وبهذا نَفْهَمُ جانباً من قِصَّةِ تلك القصائد العِلْمِيَّة الرَّمْزِيَّة التي أَوْرَدْنَا بعضها دون أن نَشْرَحَها خوف إِنْقال ذلك الفصل الطَّوِيلِ.

(١) كارل غستاف يونغ العالم المشهور من مدرسة التَّحْلِيلِ النَّفْسَانِيِّ درس ذلك عند عُلَمَاءِ الغرب الذين أَخَذُوا عُلُومَهُمْ عن العرب وكتب كتاباً مشهوراً بعنوان «علم النَّفس والكيمياء» Psychologie und Alchemie، ويقترح بعضهم استعمال السِّيمياء للدَّلالة على الكيمياء القديمة. انظر أيضاً كتاب بشار: «شاعريَّة الأحلام».

(٢) يونغ يُعَيِّزُ في كلِّ إنسان الرُّوح المُدَكَّرَ والرُّوحَ المُؤَنَّثَة.

وكذلك أشعار الفرق الباطنية ورموزهم لها دعائم نفسية وفكرية إلى جانب دعائمها السياسية. والصُّور والتعابير والأفكار التي يتفتنون فيها تُوحى بدراسات تاريخية وفكرية قيمة حول اشتباك تلك النظريات جميعاً واستمداد بعضها من بعض وتمائل العبارات والكتابات والكنائيات أحياناً أو اختلافها وتفاوتها أحياناً أخرى.

أمّا أسلوب الرَّمز الذي اختاروه جميعاً فلا غَرَو أن يتيهوا به وأن يستسيغوه لأسباب شتى، منها السياسي، ومنها الديني، ومنها مصاعب تجريد العبارة، ومنها ملاءمة الرَّمز للخيال، ومنها التشويق والحفز على البحث والتفهم. وكأنَّ الشاعر حسن بن يوسف المكزون (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م - ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) ^(١) يهتف بلسانهم جميعاً:

قالوا تحدث بالصَّحِيحِ ح من الحديث بغير رَمَزٍ
فأجبتهم هل عاقل يرمي الكنوز بغير جرَزٍ

ولا غرابة إذا وجدنا في دراساتنا للرَّمز قيضاً زاحراً جعلنا نقصّر منه على الشعر الصُّوفي. وإذا ذاك ألقينا آراء ومذاهب واتجاهات كثيرة ومفيدة أفضت بنا إلى التماس ذروة الرَّمز القصوى بمختلف أشكاله وصُوره عند الفيلسوف الصُّوفي الكبير الشيخ محيي الدين.

وبدلاً من أن يُغفل هذا الشيخ مختلف الموجودات في هذه الحياة أو يتجاوزها إلى الأصل الذي صدرت عنه يتأملها فيبُت فيها بفعل تأمله الروحي وتأثير حبه الصميم حياة روحية عميقة تجعلها تنبض جميعاً بإيقاع مُقدس إلهي حين يلحظ في أغوار حقائقها معين الوجود، وحين يُنبئه الإنسان على معين ذلك الوجود في نفسه وفي ذاته وعلى شأنه هو في تحقيق الوجود ومسؤوليته عنه.

وكما أنَّ ظواهر الأشياء تدلُّ على بواطنها ولكِنَّها تحجب تلك البواطن أيضاً، كذلك الرَّمز ينبغي أن يشفَّ عن مضمون ما يرمز إليه كما ينبغي أن يُمسك به وأن يكتُمه في الوقت نفسه. وكما أنَّه لا بدَّ للأشياء من تلك الظواهر أو التعيينات كذلك لا بدَّ للبيان من الرَّمز. وعندئذ تبدو الأشياء بوجوهها التي صقلها التأمل الصُّوفي مجالي للأسرار العلوية نُدرِك منها ارتباط بعضها ببعض كما نُدرِك نسقها البديع في حضرة الوجود الإلهي الذي لا حدَّ لذاته، ولكِنَّا نجد سرَّه في الإنسان من جهات تحقِّق الأسماء الحسنى فيه وبه. فالإنسان لُغز ربِّه بمعنى اللُّغز الأدبي، والأشياء بهذا الاعتبار رموز إلى الوجود الحق.

(١) شاعر مجيد ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدي. يعتبره العلويون واحداً منهم. كان مقامه في سجنار أميراً عليها. مات في قرية كفر سوسة بقرُب دمشق. وديوانه لا يزال مخطوطاً. عن «الأعلام».

وإذا وُجد عارفون ينعِدِم الوجود الخارجِيَّ عندهم فلا يَرون إلا الله فإنَّ شيخنا يُقرِّر على لسان هارون النَّبِيِّ في تمثيل خياليٍّ له أنَّ قد «نقصهم من الحقِّ على قَدْر ما انحبس عنهم من العالم».

* * *

أمام تَشعُّب أبواب الرَّمز في الشُّعر العربيِّ وكَثْرته إلى حيث تَطغى مدارسه على جميع المذاهب الرَّمزيَّة الفِكْريَّة والأدبيَّة الأجنبيَّة أَرَدْنَا في مُقَابِل ذلك أن نُشير إلى اتِّساع التَّعبير الصَّريح الواقعيِّ. ولم نجد في سبيل ذلك أفضل من أن نأخذ مثلاً واحداً من أغراض الشُّعر وهو تصوير الشُّعراء للأزهار والرِّياحين والبُقول والفاكهة وأن نَتجوَّل معهم في البساتين والحقول، ونُفاجِئهم أحياناً على الموائد في بيوتهم. فلاحَ لنا أنَّ التَّشبيه والاستعارة والمجاز إذا أَبْعَدْنَا من المقصود في الرَّمز لثُحي إلينا به من قريب أو بعيد فإنَّها هنا عند تصوير المحسوس تَرُدُّنا فوراً إلى المُراد لِتَصوُّره تصويراً دقيقاً ولتُمثِّله تمثيلاً جيَّاً ما اسْتَطاعت وسائلها اللَّفْظيَّة.

الزَّهرة أو الثَّمرة أو أيُّ شيء آخر يَعْتَرِض لنا يَسْتدعي مِنَّا التَّفكير فيه وَيَقْتَضِي تَخيلَه لكي يسمو بذلك إلى رتبة رفيق الإنسان.

إنَّ الشَّاعر المُتخيِّل الحالم يُدرك أنَّه يحلم بِخَيِّرات العالم الخارجِيِّ ولا سيَّما أَقرب الخيارات التي يُقدِّمها العالم إليه وهي الأزهار والثُّمار. فالأزهار والثُّمار تعيش في كِيان الحالم.

يقولُ الشَّاعر الفرنسيُّ فرنسيس جم (١٨٦٨ - ١٩٣٨):

«لا أستطيع أن أشعر شعوراً ما دون أن تُرافقهُ صورة زهرة أو ثمرة»^(١).

وقد رَأَيْنَا حين عَرَضْنَا صُوراً من خمائل الشُّعر وَجَّاتَه، خمائله وَجَّاتَه الحقيقيَّة لا المجازيَّة، أنَّها أوسع وأشهى من جميع حدائق الدُّنيا. إنَّها من نوع الكَلِم الطَّيِّب والشَّجر الطَّيِّب، «تَوْقُ أَكُلْهَا كُلَّ حِينٍ بِأَذِينِ رَبِّهَا»^(٢).

ذلك أنَّ الشَّاعر حين يَتَغَنَّى بثمرة من الثُّمرات أو زهرة من الأزاهير يَرفُحُها إلى وجود فِكْريٍّ جديد. ثمَّ جَرَيْنَا مع الشُّعراء فاختَرْنَا طاقات بدِيعَة من أوصافهم ونماذج مصقولة

(١) Francis Jammes, Le roman du lièvre, notes adjointes, P.271.

(٢) إبراهيم ١٤ : ٢٥.

من تصويرهم، قَصَدْنَا فيها إلى عَرَضِهَا لا إلى المُوَازَنَةِ بينها. ذلك لأنَّ المُوَازَنَةَ تحوّل دون مُشارَكة الشّاعر في خياله.

يَبْدُ أنَّ الشّاعر لا يقتصر في وصف الزّهرة أو الثّمرة على تخيّل الصّور الحسيّة كاللون والشّكل والشّذا والطّعم، بل يزيد على ذلك أحياناً عواطف إنسانيّة كِرْفَة العاطفة ونُعمَة الذّكرى وغمُضارة الشّعور وكرَم العطاء وكلّ ما يصحّ أن يُورق ويُورف ويُزهر ويُثمر في النّفس الإنسانيّة. نحن هنا في عالم يَزخَر بألوان البهجة والسّعادة والخِضْب والعطاء. لكلّ صورة شعريّة لذّتها وبهجتها وغبطتها وسعادتها. وأمام كلّ زهرة يَرُدُّنا الشّاعر إلى ولادة سعادةٍ جديدة في المشاعر. الكون كلّهُ بهذا الاعتبار لقاء وفرح وترحيب. على أنّ تلك الأحلام الشّهية في الفنّ لها صفة إيجابيّة، فهي لا تلبّث أن تتجسّد في الصّور والتّعبير والإيقاع الثّابض.

لقد ذَكَّرْنَا أنّا في هذا البحث الذي يعرض تصوير الشّعراء للأزهار وغيرها نُعدّل الاتجاه الرّمزيّ الذي وجَدناه عند طائفة كبيرة من الشّعراء صوفيّين أو غيرهم. ولسنا نكثّم أنّا هنا عندما نلصّق العواطف والأفكار الإنسانيّة بالأمور الحسيّة نجد نوعاً عميقاً من التّعاطف بيننا وبين الموجودات يصحّ أن ننظر إليه من الوجهة الرّمزيّة. لا خلاص لنا إذن من الرّمز. أليست اللّغة نفسها عبارة عن إشارات ورموز؟ ولهذا كان لا بدّ من التّعريف قبل التّأليف، ومن تحديد الموضوع عند مُعالجته، ومن تعيين الغاية قبل السّير، ولم نُغفل ذلك في كلّ فصل.

إنّ الأدب دعوة إلى الحُلُم، إلى الخيال، إلى السّعادة. وبالمقدار الذي كنّا به عُلَمِيّين في كتابنا لم نَمَنع أنفسنا عند عَرَض أشعار الشّعراء وصوّرهم من أن نحلم بأحلامهم وأن نتخيّل أخيلتهم، فنُدرك فوراً طرافة الصّور وجِدّة الخيال ونشعر تلك المشاعر البهيجة التي تأتي من ذلك كلّهُ وتنبّجس من تأمّله. وفي كثير من الأحيان كنّا نلمس طفولتنا الأولى حين ننظر من خلال الشّعر نظراً جديداً إلى أشكال تلك الأزهار والريّاحين والبُقول والثّمرات وصفاتها الآخذة السّابية المتنوّعة. بل كنّا نشعر بأنفسنا كأنّا في عالم كلّ ما فيه يهرّج إلينا جَذلان باسماء، مُحبّين ومحبوباً، في عالم كلّ ما فيه يفتّح لنا ذراعيه ليَتلقّانا أجمل لقاء، في عالم لا عُنف فيه ولا فراغ، بل كلّهُ امتلاء، كلّهُ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾^(١)، ونعيم وسلام، عالم يتداخل فيه الواقع والخيال والحسّ والحُلُم والحقيقة

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٨٩ : ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾.

وَالْوَهْم، وَيَشْتَدُّ التَّدَاخُلُ لِيَتَمَخَّضَ فِي النَّفْسِ فَيَصْبِحُ نَفْيًا وَاضِحًا شَفَافًا وَلِيَقْبِضَ كُلُّ مَا فِيهِ، مِنْ حَرَكَاتٍ وَسَكَاتٍ وَأَصْوَاتٍ وَصَنَتٍ وَأَشْدَاءٍ وَالْوَانِ وَطُومٍ وَأَشْكَالٍ، بِالْمَحَبَّةِ وَالْبَهْجَةِ وَالْأُنْسِ إِلَى حَدِّ النَّشْوَةِ وَالسُّحْرِ. هُنَا نَجِدُ فِي مُتَهَيِّ طَرِيقِ الْخَيَالِ وَالْأَحْلَامِ وَالْفِكْرِ الْمُبْدِعِ كَيْفَ تَقْتَرِبُ الْمَسَافَاتُ وَتَقْصُرُ الْأَبْعَادُ حَتَّى تَزُولَ بَيْنَ الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ وَبَيْنَ الْفَنِّ.

* * *

إِنَّ عَالَمَ التَّصَوُّفِ وَعَالَمَ الشُّعْرِ أَصْفَى سَمَاءً وَأَكْثَرَ تَضَامُنًا وَأَشَدَّ اتِّسَافًا وَأَقْوَى اسْتَوَاءً وَاطْمِئْنَانًا مِنْ عَالَمِ الْفُكَاةِ. وَلَمَّا أَرَدْنَا فِي الظَّاهِرِ أَنْ نَتَسَلَّى لِمَا وَلَهُوُ بَعْضِ اللَّهْوِ عَمَدَنَا إِلَى دِرَاسَةِ أَلْوَانِ الْفُكَاةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَطْوَارِ تَبَدُّلِهَا مَعَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَكُنَّا نَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ كَمْ يَقْتَضِي هَذَا الْبَحْثُ مِنْ جُهْدٍ وَتَوْسِيعَةٍ وَكَمْ يُثِيرُ مِنْ مَسَائِلَ وَمُشْكَلاتٍ تَبْقَى فِي حَيْزِ هَذَا الْكِتَابِ بِلَا حُلٍّ وَلَا جَوَابٍ. إِنَّ عَالَمَ التَّفْكِيرِ وَإِدْرَاكِ النَّشْوِ وَالنَّفَاقُصِ فِيهِ يُلْهِي وَيُنْهَجِ وَلَكِنَّهُ يُثِيرُ الْقَلْقَ وَالتَّنْقِيبَ الطَّوِيلَيْنِ. فَالْهَوُ وَالْبَهْجَةُ فِي الْفُكَاةِ وَقَتِيَّانِ لَا يَلْبِثَانِ أَنْ يَتْرَكََا وَرَاءَهُمَا مِرَارَةً هِيَ مِنْ بَعْضِ الْأَسْرَارِ الدَّاخِلَةِ فِي تَرْكِيبِ مَا هِيَ الْمُضْحِكُ. وَمَعَ ذَلِكَ فَلَقَدْ كَانَ هَدَفُنَا بَعْدَ إِذْ أَطْلَعْنَا عَلَى مَعَانِي الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ أَنْ نَشْرَحَ بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ أَنَّ تِلْكَ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ إِذَا بَقِيَتْ حَقَائِقُهَا هِيَ ذَاتُهَا فِي خِلَالِ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ فَإِنَّ أَشْكَالَهَا تَخْتَلِفُ، وَأَسَالِيِبُهَا تَتَبَدَّلُ، وَدَلَالَتُهَا تَتَغَيَّرُ، وَغَايَاتُهَا تَتَفَاوَتُ.

وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْقِيَمِ مُتَّصِلَةً بِالْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ فَإِنَّ قِيَمَةَ الْمُضْحِكِ بَيْنَهَا ذَاتُ صِفَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ بَارِزَةٍ فَوْقَ كَوْنِهَا إِنْسَانِيَّةً، إِذْ كَانَتْ تَشْفُ عَنْ لَوْنٍ مِنَ الْعِلَاقَةِ بَيْنِ الضَّاحِكِ وَالْمُضْحَكِ مِنْهُ. وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَشَدَّ تِلْكَ الْقِيَمِ تَبَدُّلًا مَعَ الزَّمَانِ وَأَكْثَرًا تَأَثُّرًا بِتَفَاوُتِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ. وَلَقَدْ كَانَ اتِّجَاهُ الْفَصْلِ الْآخِرِ إِلَى دِرَاسَةِ أَطْوَارِ الْفُكَاةِ وَبَيَانِ تَأَثُّرِهَا بِالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَشَدَّ مِنْهُ إِلَى دِرَاسَةِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ نَفْسُهَا. وَلَا بَدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَخْتَارَ هَذَا الْإِتِّجَاهَ إِذْ كَانَ الْفَصْلُ إِلَى الْإِمْتَاعِ وَالْأَدَبِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى التَّنْقِيبِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ وَدَعْمِ الْحُجَّةِ وَمَا تَتَطَلَّبُهُ شُرُوطُ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ. وَلِهَذَا لَمْ نَدْخُلْ تَمَامًا فِي تَطَوُّرِ مَضْمُونِ الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، وَلَمْ نَتَبَيَّنْ بِالتَّفْصِيلِ اخْتِلَافَ أَشْكَالِ السُّلْطَةِ فِيهِ، وَلَا تَطَوُّرَ أُسَالِيبِ الْإِنْتِاجِ، وَلَا تَبَدُّلَ الْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْمُسْتَنْدَةِ فِي بَعْضِ الْعُصُورِ إِلَى الرِّقِّ وَإِلَى الْإِقْطَاعِ. وَلَوْ نَهَدْنَا لِذَلِكَ لَاسْتَحَالَ اسْتِيفَاءُ الْبَحْثِ فِي الْكِتَابِ الْوَاحِدِ لَا فِي الْفَصْلِ الْوَاحِدِ، وَلَأَنْقَلَبْنَا أَنْفُسَنَا بِالْحُجَجِ وَالرُّوَايَاتِ وَأَصُولِ التَّنْقِيبِ. فَاتَّرْنَا أَنْ نَتَلَمَّسَ التَّطَوُّرَ الْاجْتِمَاعِيَّ فِي أَشْكَالِهِ الْخَارِجِيَّةِ. وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ نَسْتَفِيدَ عِنْدُنَا مِنْ مَكَاسِبِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ الشُّكْلِيِّ، وَأَنْ نَجْلُو حِينَ تَقْرِينَا الْفُكَاةَ كَيْفَ انْقَلَبَتْ الْحَيَاةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ مِنْ شَكْلِ

«العشير» الذي يقوم على التضامن والتعاون في فجر الإسلام إلى شكل «المجتمع» الذي يعتمد على التعاقد وعلى سعي الأفراد لضمان مصالحهم الخاصة وتوفير الربح لأنفسهم دون التفكير في الآخرين، بل في كثير من الأحيان على حساب الآخرين.

ومع اعتمادنا النهج الشكلي في هذه الدراسة الاجتماعية الفنية لاح لنا في أغوار البحث، كما يُلوح الماء من خلال الأعشاب والطُحُب، مدى تأثير العوامل الاقتصادية في هذا اللون الأدبي وهو الضحك الهزلي ومقدار توجيهها له حسب مقتضياتها وحوافرها.

وكذلك رأينا كيف غارت الفكاهة في عصور التأخر فلم تكن إلا بصيصاً كائياً يأنس به علماء اللغة والأدباء الذين صانوا كنوز التراث الفكري، فيحكون حتى في نواذرهم ما سبق إليه المتقدمون. ولما حان اقتراب فجر النهضة استيقظت الأساليب العربية الصحيحة وتلامحت في الآفاق شُهب الفكاهة اللاذعة، تومض فتفلق، وتُصيب فتحرق. في تاريخ الفكاهة، على رغم لَهوها الظاهر، جدّ باطن أيّ جدّ. وهكذا شاركت الفكاهة بين مَوَاقِب تاريخ الأدب العربي في تأدية رسالة الفن الخالدة، إن سلباً وإن إيجاباً، ألا وهي خدمة المجتمع ومعالجة قضاياها بطريق الإبداع المُمْتنع.

* * *

إنّ بداية الوحي في أشرف صفحة من صفحات تاريخنا كانت طلب القراءة، قراءة حُرُوف الثور الرّباني، وكذلك الإشارة بكرّم تعليم الإنسان ﴿مَا لَرَيْتُمْ﴾^(١)، أيّ الإشادة بالقبس الإلهي المودع صلصال الإنسان، ألا وهو الفكر الذي يجعل هذا الكائن الثّرابي يتجاوز نفسه.

هذا وإنّ الأدب الصحيح بألوانه المختلفة ليس إلاّ وجهاً من نشاط ذلك الفكر الذي هو سبيل خلاص الإنسان ورفعته ووسيلة سُمُوّه وعظّمته.

(١) سورة العلق ٦٩ : ٥.

فهرسُ الأعلام

- (١)
- آدم (عليه السلام): ١٥٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧، ٣٥٩، ٣٠٦، ٢٥٨، ٣٥٩.
- أبان بن عبد الحميد اللاحتي الرقاشي: ١٨٩.
- أبان بن عثمان بن عفان: ٣٤٣، ٣٤٤.
- إبراهيم الخليل (عليه السلام): ٢٧، ٢١٥، ٢٥٤.
- إبراهيم بن المهدي: ٢٠٨، ٣٢٨.
- أبي بن كعب الموصلي: ٣٩٢.
- ابن الأثير (صاحب المثل السائر): ١٥٨.
- أحمد بن إبراهيم الضبي: ٣١٦، ٣٢٥.
- أحمد بن برد الأندلسي: ٢٨٦.
- أحمد بن حسان: ٣٩٩.
- أحمد بن حنبل: ٢١٨.
- أحمد راتب النفاخ: ٢٦٣.
- أحمد زكي صفوت: ٨٥.
- أحمد شوقي: ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ٢٢٤.
- أحمد بن الطيب: ٣٥٧.
- أحمد بن طولون: ١٧٨.
- أحمد بن عبد الرحمن القرطبي: ٢٨٨.
- أحمد بن عبد الوهاب: ٣٥٠.
- أحمد عبيد: ٣٣٧.
- أحمد بن عجية: ٢١٠، ٢٦٤.
- أحمد بن عربشاه: ١٨٩.
- أحمد بن فارس بن زكريا: ١٠، ١١، ٣٧٠.
- أحمد فارس الشدياق (الفاريق): ١٤، ١٦، ٣٤٤، ٣٤٣.
- ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١.
- أحمد بن فاتك: ٢٠٨.
- أحمد فريد: ٣٥١.
- أحمد بن كامل: ٣٥٢.
- أحمد محرم: ١١٠، ١١١.
- أحمد محمد عيسى: ٢٧٣.
- الأحنف العكبري: ٣٩٣، ٣٩٤.
- أحيحة بن الجلاح: ٣٢٤.
- الأخطل: ٦٣.
- الأخفش: ٩٥، ١٢٣.
- أخنوخ: ٢٥٨.
- الأخيطل الأهوازي الواسطي: ٢٨٤، ٢٩١.
- إدريس (عليه السلام): ٢٥٨.
- الأدفنش: ٢٦٤.
- أدلر (الفرد): ١٩٤.
- الأرجاني (القاضي): ٨٢، ٨٣، ١٦٦، ٣٣١، ٣١٥.
- أرسطو: ٥٣، ٥٩، ٢٢٧.
- أسامة بن منقذ: ١٦٥، ١٨٩.
- أسيينوزا: ٥٦.
- إسحاق الموصلي: ٧٣، ٣٤١.
- أبو إسحاق (الموصلي): ٣٤٧.
- أسعد (الشدياق): ٤٠٩.
- أسماء بنت أبي بكر الصديق: ٣٤٠.
- إسماعيل صبري: ٣٨.
- أشعب بن جبير: ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢.

البحري: ٣٤، ٣٦، ٩٣، ١٤٨، ١٤٩،
 ١٧٩، ١٨٣، ٢١٤، ٢٧٨، ٢٧٩،
 ٢٨٧، ٣٢٢، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨،
 ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٧٦.
 البخاري: ٣٣٨.
 البصري المصري الدمشقي: ٢٩٠، ٢٩٨،
 ٣٠٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢.
 بديع الزمان الهمذاني: ١٦٨، ٣٩٥، ٤١١.
 البراء بن عازب الأنصاري: ٣٨٢.
 براون: ١٠.
 برغشون: ٣٤، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٣٣٥.
 برة بنت سعد بن الأسود: ٣٤٤.
 برهان الدين الباعوني: ٢٩٢.
 بروت: ٢٢٩.
 برو كلمان: ٣٦٢، ٤٠٥.
 بروميثوس: ٣٣١.
 بريسلان: ٢٥٨.
 ابن بسام: ١٥٧.
 البستاني (سليمان): ١٢٢.
 البستي (أبو الفتح): ٣٦٥.
 البسطامي (أبو يزيد): ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦.
 بشار بن برد: ٨٢، ١٦٠، ٣٢٨، ٣٣٠،
 ٣٤٩، ٣٨٤.
 بشر بن المعتمر: ١٨٩.
 بشلار (غاستون): ١٨١، ٤٢١.
 البصير (أبو علي): ٣٥٣.
 البغدادي (صاحب خزائن الأدب): ١١٧.
 ابن بقي: ٩٨، ١٠١، ١٠٥.
 أبو بكر بن حازم: ٢٨١.
 أبو بكر بن محمد بن عمرو: ٣٣٨.
 بلاسيوس (آسين): ٢٣٠، ٢٥٨.
 بنت الشاطيء: ٧٣.
 البهاء زهير: ٣٦، ٩٢، ٩٣، ١٦٤، ١٨٢،

الأشعري: ٢١٨.
 ابن أبي الأصبع: ٤٢.
 الأصمعي: ١٨٢، ٣٩٠.
 ابن الأعرابي: ٧٣.
 الأعشى: ٧٣.
 أعشى همدان: ١٧١، ١٧٢، ١٨٧.
 الأعلم البطليوسي: ٩٨.
 الأعمى التطيلي: ٩٨، ١٠٢.
 أفتكين: ٣٧٧.
 الأفضل (الملك): ٤٠٢.
 أفلاطون: ٣٢، ٢٢٩، ٢٥٠.
 إقبال: ٢٤٨.
 ابن الأكفاني: ٣٢٠.
 إكهارت: ٢٠٢.
 أمبدوقل: ٢٥٨.
 أمجد الطرابلسي: ١١٩.
 امرؤ القيس: ٧٣، ١٦٤، ١٦٥، ٣٣٠.
 الأمين (الخليفة): ٨٧، ١٠٩، ٢٠٨.
 أمين الجندي (الشيخ): ٢٦٨، ٤٠٦.
 أمين الشواربي: ١٠.
 أنس بن مالك: ٣٣٧، ٣٣٨.
 انويس: ١١١.
 أوحده الدين الكرمانلي: ٢٣١.
 الأوقص المخزومي: ٣٤٥.
 أولينشيفل: ٣٩٨.
 أياس (القاضي): ٣٨٦.
 ايجرتر (إيمانويل): ١٩٤.
 إيليا أبو ماضي: ١٥٥.
 (ب)
 الباقلاني: ٣٨٥.
 ابن باكويه: ٢٠٨.
 بترارك: ١٨.
 بشينة: ١٨٢.

ثعلب: ٧٠.
ابن ثوابة (أحمد بن محمد): ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧.
(ج)
جابر بن حيان: ١٨٥.
الجاحظ (أبو عثمان): ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٧٣، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٥.
جالوت: ٣٧٢.
جبران خليل جبران: ١٢٦.
جبريل: ٢٣٦، ٢٣٧، ٣٦٤.
ابن جبير: ٩٢، ٢٣٥، ٣٩٩.
جحاح: ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧.
الجحجلول: ١٥٤.
جحظة (أحمد بن جعفر): ٣٦٠.
جرجي زيدان: ٤٠٥.
جرير: ٤٣، ١٨٣، ٣٧٨.
ابن الجصاص: ٣٠٨، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٧٣.
جعفر الصادق (الإمام): ١٨٦.
أبو جعفر المنصور: ٣٤٥، ٤١٤.
جعفر بن يحيى: ٣٤٧، ٣٤٨.
جلال الدين الرومي: ١٧، ٢٣١.
جلال الدين النقاش: ١٨٩.
ابن جلجل: ٢٥٨.
الجلدكي: ١٨٥.
أم الجَلْدَح: ٣٤٠.
جم (فرنسيس): ٤٢٣.
جمال الدين الأفغاني: ١٠٧.
جمال الدين علي بن ظافر: ٣١٣.
جمال الدين بن أبي منصور: ٢٨٥.
جميل (بشينة): ١٨٢.
ابن جني: ١١.

٢٠٧، ٣٢٧.
بول (ادغار): ١٨١.
بوتول (غاستون): ١٨.
بودلير: ٤٧.
بوران بنت الحسن بن سهل: ١٧٨.
البوريني: ٢١١، ٢٢١.
بولس (القديس): ١٩٥، ٢٥٩.
يونابرت (مدام): ١٨١، ١٩٤.
البيروني (أبو الريحان): ٩، ١٩.
البيضاوي (عبد الله بن عمر): ٢٠٢.
ابن البيطار: ٢٩٦، ٣٦١.
(ت)
تاج الدين الكندي: ٤٠٢.
تامر (عارف): ١٨٥.
أبو تمام (حبيب بن أوس): ٣٥، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٥، ١٨٣، ١٨٧، ٣٧١.
ابن تميم (مجير الدين): ٢٩٢، ٢٩٣.
التنوخي (أبو علي القاضي): ٢٨٧، ٣٦٢.
التنيسي (ابن وكيع): ٢٨٤، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠.
التوحيدي (أبو حيان): ٨، ٥٤، ١٥٩، ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٦.
تونيز (فرديناند): ٣٨٨، ٣٨٩.
تيبو الرابع (كونت دوبري): ٢٨٨.
التيفاشي: ٣٧، ٣٨، ٣٢٠.
ابن تيمية: ٢٤، ٣٢٩، ٣٦٨.
(ث)
الثريا بنت علي بن عبد الله الحارث: ١٧٥.
الثعالبي (أبو منصور): ٥١، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥.

الحسن بن سهل: ٨٧، ١٧٨.
 الحسن بن العلاف: ١٨٨.
 الحسن بن عمر النجيرمي: ٣٥٠.
 الحسن بن محمد بن عنبر: ٣٣٧.
 حسن بن يوسف (المكزون): ٤٢٢.
 الحسين بن الضحاك: ٢٠٧.
 حسين المرصفي: ١١٠، ١٠٧.
 الحسين بن منصور (الحلاج): ١٥١،
 ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦،
 ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٩.
 الحضري القيرواني (أبو إسحاق): ٥٦.
 الحصين بن الحمام: ٧٥.
 ابن أبي حصينة: ٣٨٣.
 الحضرمي (أبو إسحاق): ٢٨٨.
 الحطيئة: ٤٨.
 حفص (أحد القراء السبعة): ١٨٨.
 الحكم بن قنبر: ٤٧.
 الحلاج (انظر الحسين بن منصور).
 حمدة بنت زياد: ٣٥.
 ابن حمديس: ٣١٢.
 حمزة (أحد القراء السبعة): ١٨٨.
 حمزة الأصفهاني: ٢٠٨.
 الحموي (ابن قسيم): ١٧٦.
 ابن حنبل: ٢١٨.
 حندج بن حندج المري: ١٦٠.
 أبو حيان (النحوي الأندلسي): ٣٦٨.
 (خ)
 خالد أخو مهروية: ٦٠.
 خالد بن صفوان: ٢٦.
 خالد بن عتاب الرياحي: ١٧١، ١٧٢.
 خالد بن يزيد (خالويه المكدي): ٣٩٠،
 ٣٩١.
 الخراز (أبو سعيد): ٢٠١، ٢٠٢.

الجنيد: ١٢٩، ١٣٩.
 الجهني (القاضي أبو القاسم): ٢٩٧.
 جوبيتير: ٣٢.
 ابن الجوزي: ٢٤، ٣٨.
 جوستين (القديس): ٢٥٩.
 جونون: ٣٢.
 جيوم (الفرد): ٢١٨.
 (ح)
 أبو حاتم: ٢٤.
 ابن أبي حاتم: ٣٣٧.
 الحاجري (طه): ٣٩١.
 حاجي خليفة: ٢٣١.
 الحارث بن أسد المحاسبي: ٢١٧.
 الحارث (العنبري): ١٧٠.
 الحارث بن همام: ٣٩٥.
 الحارث الإشكري: ١٢٢.
 حافظ إبراهيم: ١١٧.
 حافظ الشيرازي: ١٧، ٤٨.
 الحاكم: ٢٤.
 ابن حجاج (أبو عبد الله): ١١٨، ٣٧٦،
 ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠.
 حجل بن عبد المطلب: ٣٨٢.
 حجل بن نضلة (أحمد بن عمرو): ٣٨١.
 ابن حجة الحموي: ٣٧، ٣٨، ١٧٤، ٢٨٠.
 ابن الحداد: ٢٨٤، ٢٨٩.
 ابن أبي الحديد (عبد الحميد): ٨٥.
 الحريري: ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٦.
 ابن حزم: ٢٨.
 حسان بن ثابت: ٨٥.
 الحسن البصري: ٣٣٧.
 أبو الحسن بن جحدر الأشبيلي: ١٠٣.
 الحسن الجويني: ٩٢.
 أبو الحسن الحلواني: ٢٠٧.

- الخزرجي الينبوعي (أبو دلف): ٣٩٣، ٣٩٥.
الخصيب: ١٠٩.
ابن خطيب داريا: ٣٠١.
الخطيب (محدث): ٣٣٧.
ابن خفاجة: ٣٦، ١٠٥، ٢٨٤.
ابن خلدون: ٨، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٢٥، ١٧٨، ١٨٥.
ابن خلكان: ٤٠١، ٤٠٣، ١٨٨.
الخليل الفراهيدي: ١١، ٩٥.
خليل مردم: ١١٧.
خليل مطران: ١١٧، ١٢٦.
خمارويه: ٣٧٣.
الخوارزمي (أبو بكر): ٢٨٩.
خوفو: ١٤٩.
ابن الخيمي: ٢١٩.
(د)
دارا: ١٤٩.
الدارمي: ٣٩.
داروين: ٥١.
دانتى: ١٠٤، ٢٠٢، ٢٣٠.
داود الأنطاكي: ٣٠٢.
أبو داود: ٣٣٧.
ابن دانيال (شمس الدين محمد): ٣٨٠.
دجين بن ثابت (انظر جحا).
درويش (محمود): ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.
١٣٦.
ابن دريد (أبو بكر): ١١، ١٧٠.
الدسوقي: ٣٨٢.
أبو دلامة: ٣٤٥.
الدميري: ١٨٨.
ابن الدمينه: ٢٦٣.
ابن أبي الدنيا: ٣٣٧.
دوبريل (أوجين): ٣٣٥.
- دوبوفوار (سيمون): ٢٢٩.
دروس (أوجينيو): ٦٧.
دوزي: ٢٩٧.
دوسلان: ١٨.
دون كيخوت: ١٦٣.
ديك الجن: ١٩٣، ٢٨٧.
ديماند: ٢٧٣.
ديموستين: ١٨.
(ذ)
الذروي: ٣٨٣، ٤٠٠.
الذهبي: ٢٤.
ذو الكفائتين (أبو الفتح): ٣٧٧.
ذو النون المصري: ١٩٣، ٢٤٦.
(ر)
الراغب الأصفهاني: ٢٠٨.
ابن رافع: ٢٩٤، ٢٩٩.
الرافعي (مصطفى صادق): ١٢.
رافيسون: ٣٢، ٣٤.
ريحي كمال: ١٠٤.
ابن رشد (أبو الوليد): ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥.
٢٣٦، ٢٥٠.
الرشيد: ٨٧، ٩٥.
ابن رشيقي: ٢٩١.
الرصافي: ١١٧، ١١٨.
أبو الرعمق: ٣٧٨، ٣٧٩.
(رنز) و (شريكل): ٦٨.
روح بن حاتم: ٣٤٥، ٣٤٧.
الروذباري (أبو علي): ١٩٨.
ابن الرومي: ٥٩، ١٤٥، ٢٧٧، ٢٧٨.
٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦.
٢٩٥، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤.
٣٢٦.
ريمون (مؤرخ الفن): ٦٦.

(ز)

- زاهد علي: ١٨٦.
ابن زبنج: ٣٤٣.
زبيدة: ١٨٩.
الزبيري بن بكار: ٣٤٢.
الزبير بن العوام: ٣٣٩.
الزركلي (خير الدين): ٣٦٢، ٤١١.
زفر بن الحارث: ٣٢٩.
ابن الزقاق: ١٠٥.
أبو زكار الأعمى: ٣٤٧.
زكريا (عليه السلام): ١٨٩.
زكي الأرسوزي: ١٢.
الزهاوي: ١١٧، ١١٩، ١٢٧.
ابن زهر (أبو بكر): ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٥٦.
الزهراء (فاطمة): ١٥٤.
زهرة (جارية): ٣٨٨.
زهير بن أبي سلمى: ٤٨، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٨٤، ١٤٦.
الزمرخشي: ١٧٧.
أبو الزناد: ٣٤١.
زياد (توفيق): ١٣٣.
زيد بن أسلم: ٣٣٨.
أبو زيد الأنصاري: ٣٥٢.
أبو زيد السروجي: ١٦٩.
ابن زيدون: ١٠٥، ٢٩٠، ٢٩١.
زيمل: ١٤٦.

(س)

- سارتر: ٢٢٩.
ساسان بن بهمن: ٣٩٠.
سامي الدروبي: ٥٦.
سانشو بانسا: ١٦٣.
ابن السبكي: ١٥٦.
سبنسر: ٣٣.

سحر (زوجة الرشيد): ٣٤٧.

- سرفانتس: ١٦٣.
السري الرفاء: ٣٠٤، ٣١٤، ٣١٩.
سعد زغلول: ١٥٦.
سعدى الشيرازي: ١٠، ١٧.
أبو سعيد: ٢٣٥.
ابن سعيد: ٩٩، ١٠٣.
سعيد الأفغاني: ١٦٨.
سعيد بن حميد: ٢٨٧.
سعيد بن العاص: ٢٦.
سعيد الفرغاني: ٢٢٠.
السفاح (أبو العباس): ٣٤٥.
أبو سفيان بن حرب: ٣٤٠.
السكاكي: ١٢، ١٧٤، ١٧٧.
ابن سكرة: ٣٧٦، ٣٧٨.
سكلتون: ٣٩٨.
ابن السكيت: ١١، ٧٣.
سكينة بنت الحسين: ٢٤، ٢٥.
سلام بن يزيد: ٣٥١.
السلمي (أبو عبد الرحمن): ١٥١.
سليم الجندي: ١٨٩.
أبو سليمان الداراني: ٤٠٣.
أبو سليمان المنطقي: ٥٣.
السمعاني: ٩.
ابن سناء الملك: ٩٩، ١٠١.
ابن سنان الخفاجي: ٣٧.
سنان الكتاب: ٣٩.
السهورودي (أبو الفتوح): ١٩٠، ١٩٨، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣١.
سهل بن مالك: ٩٩.
سهل بن عبيد الله: ٣٦٨.
سهل بن هارون: ١٨٩.
سهيل بن عباد: ٤٠٥.

سهيل بن عبد الرحمن بن عوف: ١٧٥.
ابن سودون: ٤٠٣، ٤٠٤.
سيف الدولة: ٤٣، ٤٤، ٨٩، ١٥٢.
ابن سينا: ١٥٠، ١٥٦، ١٩٠، ٢٢٤،
٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨.
السيوطي (الجلال): ٢٤، ١٦٣، ١٦٨،
١٧٠.

(ش)

الشاب الظريف: ٢٦٥.
الشابي: ١١٧.
بنت الشاطيء: ٧٣.
الشاطبي (أبو الحسن): ٢٨٣.
ابن شاطر: ١٥١.
الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري):
١٢١، ١٣٠.
شبيب (العقيلي): ١٧٥.
الشيبي: ١١٧.
الشريف الرضي: ١٠٩، ١٥٧.
الشطرنجي: ١٨٣.
شفيق جبيري: ١٧١.
شقيق (من بني عمرو): ٣٨٢.
شما لنباخ: ٣٨٩.
أبو شمر: ٣٤٩.
شمس الدين محمد الأيكي: ٢٢٠.
الشمشاطي: ٢٨٨.
أبو الشمقمق: ٣٨٠.
الشتريني الأندلسي: ٣٠٧، ٣١٥.
شهاب الدين الشطنوفي: ٣١٦.
شهاب الدين محمود الحلبي: ٨٣.
شهاب الدين المنصور: ٣٠٠.
الشهرزوري (عبد الله بن قاسم): ٢١٠،
٢٢٧.
الشهرستاني: ٢١٨.

شونهور: ١٤٦، ١٦١.
شيرون: ١٨.
شيرلر: ٣٢، ٣٤.
شيلي: ١٨١.

(ص)

الصابي (أبو إسحاق): ٣٠٩.
الصاحب بن عباد: ٣١٥.
صاعد: ٤١٥.
صاعد بن مخلد: ٣٥٥.
صبحي الصالح: ١٢.
صدر الدين القنوي: ٢٦، ٢٢٠، ٢٣١،
٢٣٧.
أبو صدقة: ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨.
صفي الدين الحلبي: ٣٨١.
أبو الصقر: (إسماعيل بن بلبل): ٣٥٥،
٣٥٧.
صلاح الدين الأيوبي: ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢،
٩٣، ١٤٠، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢.
صلاح الدين الصفدي: ٣٨٠، ٣٨١،
٤٠٣، ٤٠٤.
الصنوبري: ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٣.
الصولي (أبو بكر): ٢٩٦.
الصيمري (أبو العنيس): ٣٥٩، ٣٦٠.
الصيمري (محمد بن الفضل): ٣٦١.
(ط)
طالوت: ٣٧٢.
ابن طباطبا: ٢٩١.
الطبراني: ٢٤.
طراد بن علي السلمي (أبو فراس): ٣٠٦.
الطغرائي: ٣٠٤، ٣٠٧.
ابن طفيل: ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠.
الطوسي (أبو نصر): ١٩٨.

(ظ)

ظافر الحداد الاسكندري: ٢٨٥، ٢٩٤.

ابن ظفر (محمد بن أبي قاسم): ١٨٩.

(ع)

عائشة بنت طلحة: ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨.

عائشة بنت عثمان: ٢٦.

عادل الغضبان: ٢٢٥.

ابن عاصم النبيل: ٣٥٢.

عامر بن شراحيل (الشعبي): ١٧٤.

العاملي (بهاء الدين): ٢٢٥.

ابن عباد: ٣٦٤.

عبادة القزاز: ٩٨.

عبادة المخنث: ٣٦٤.

ابن عباس: ٢٤.

العباس بن الأحنف: ٣٦، ١٥٧.

عباس محمود العقاد: ٤١٦.

ابن عبد ربه: ٩٨، ١٠٥، ٢٩٠.

عبد الرحمن الأول: ٣١٨.

عبد الرحمن بدوي: ١٨٥.

عبد الرحمن الجامي: ١٧، ٢٣١.

عبد الرحيم العراقي الحافظ: ٢٤.

عبد الرؤوف المناوي: ٢٤، ٢٢٥.

عبد الستار أحمد فراج: ٤١٦.

عبد السلام هارون: ١٨٩، ٢٦٤.

عبد شمس: ٢٧٣.

عبد الصمد بن المعذل: ٣١٧.

عبد الغني النابلسي: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢.

٢٦٣، ٢٦٧.

عبد القادر الجزائري: ٤٠٦.

عبد القادر الجيلاني: ٢٠١.

عبد القادر الكوهني: ٢٦٤.

عبد الكريم الجيلي: ٢٤٧، ٢٦٧.

عبد اللطيف حمزة: ١٨٩، ٤٠٢.

عبد الله بن جعفر: ٣٤١، ٣٧٠.

عبد الله بن الزبير: ٣٣٠.

عبد الله عبد الدايم: ٥٦.

عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر: ٢٦.

عبد الله بن عمر بن الخطاب: ٣٣٧، ٣٣٩.

عبد الله بن محمد المرواني: ٩٨.

عبد الله بن المقفع: ٨، ٢٧، ١٨٨، ١٨٩.

عبد المحسن الكاظمي: ١١٥.

عبد الملك بن مروان: ١٨٧، ٢٢٣.

عبد المنعم الأندلسي: ١٤٠.

عبد المؤمن بن الحسن الصباغاني: ١٨٩.

عبد الوهاب القاضي: ٣٦٧.

أبو العبر: ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٧٥.

أبو عبيد: ١١.

عبيد بن الأبرص: ١٦٤، ١٦٥.

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: ٣٥٤.

عبيد الله بن قيس الرقيات: ١٨٧.

أبو عبيدة (الرواية): ٣٥٢.

عبيدة (زوجة أعرابي): ٣٨٧.

عتابة (عتبة): ٣٨٧.

أبو العتاهية: ٣٦، ٩٥، ٢٥٢.

العتبي: ٣٥٢.

ابن أبي عتيق: ٣٤٤.

ابن عثمان (مسجد): ٢١٢.

عثمان بن عفان: ٣٤٠، ٣٤١.

ابن عدي: ٣٣٧.

عدي بن زيد: ٣٢٦.

عرايبي (ثورة): ١٠٧.

ابن عربي: ١٧، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢.

١٧٣، ١٨٨، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢.

٢٠٨، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٩.

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤.

٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٠.

العماد الأصهباني: ٤٠٣، ٩٢.
ابن العماد (عبد الحي): ١٩٦، ٢١١، ٢٣٧.
عمر (أديب الأندلس): ٣٩٦.
عمر بن الخطاب: ٨٥، ٣٣٨.
عمر الخيام: ١٥٧.
عمر بن أبي ربيعة: ٨٢، ١٤٣، ١٧٥، ٣٤٤.
عمر بن الفارض: ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٩٣، ٩٧، ١٤٩، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٦، ٢٦٣، ٢٤٤.
عمر بن عبد العزيز: ٣٨٦.
عمر المختار: ١١٤.
عمر بن الوردى: ٢٨٧.
عمر اليافي: ٢٦٨، ٤٠٦.
عمرو (خياط): ٣٨٤.
عمرو بن السراج: ٢٣٥.
عمرو بن عثمان المكي: ١٩٠.
عمرو بن معد يكرب: ٢٥.
أبو العميثل: ٧٣.
عترة العبسي: ٧٣، ١٢٣.
العنبري: ١٧٠.
العنزي: ١٧١.
العوفي (القاضي): ٣٨٧، ٣٨٨.
ابن أبي عون: ٢٩١.
ابن عياش (أبو الحسين): ٣٧٤.
عياض الأندلسي: ٢٨٠.
عيسى المسيح (عليه السلام): ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.
أبو العيئة: ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٨٨، ٣٨٤، ٣٥٧.

٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٤٢٢.
ابن العربي (أبو بكر): ٢٢٩.
عروة بن سليمان العبدي: ٣٥٢.
عزة الميلاء: ٢٦.
العسقلاني: ٢١٩.
العسكري (أبو هلال): ٣٠١، ٣١٢، ٣١٦.
عفيف الدين التلمساني: ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨.
عفيفي (أبو العلاء): ٢٥١، ٢٦١.
ابن عقيل: ٣٦٨.
العقيلي (عالم بالحديث): ٢٤.
عكرمة: ٣٤٢.
أبو علقمة النحوي: ٣٨٦.
العلوي الحِماني: ١٥٨.
أبو علي البصير: ٣٥٣.
علي بن أبي طالب: ١٨٦.
علي بن أحمد الجوهرى: ٢٩٨.
علي بن جبلة: ٣٦٠.
علي بن الجهم: ٢٨٧.
علي بن حزمون: ٣٧٨.
علي بن داود: ١٨٩.
علي سبط ابن الفارض: ٢٢٠.
علي بن سعيد الخيري الأنصاري: ٣١٣.
علي بن عيسى: ١٨٨.
علي بن محمد الساعاتي: ٩١.
علي بن موسى: ١٨٥.
علي نصح الطاهر: ٢٢٥.
علي بن هشام: ٣٨٥.
علي بن يوسف بن تاشفين: ٢٥٠.

(ق)

- ابن القارح : ٧٣ .
 أم القاسم بنت زكريا : ٢٦ .
 القاسم (سميح) : ١٣٣ .
 أبو القاسم بن هذيل الأندلسي : ٢٨٣ .
 القاضي (أبو عمر) : ٣٧٢ .
 القاضي الفاضل : ٤٠٣ .
 القاضي (منير) : ١٨٩ .
 ابن قانع : ٣٣٧ .
 قتيبة بن مسلم : ٢٦٤ .
 قدامة بن جعفر : ١٧٨ .
 ابن القرطبة (أبو بكر) : ٣١٠ .
 قراقوش : ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ .
 ابن قرمان : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .
 القزويني (أبو يوسف) : ٢٠٨ .
 القسطلي (ابن دراج) : ٢٨٦ .
 ابن قسي : ٢٥٨ .
 القشيري (أبو القاسم) : ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ .
 القصري (غلام الحجاج) : ٣٦٨ .
 قطب الدين الشيرازي : ٢٣١ .
 قطر الندى (ابنة خمارويه) : ١٧٨ .
 القناد : ٢٠٣ .
 ابن القفطي : ٢٥٨ .
 القوصي : ٢١١ .
 أبو قيس بن الأسلت : ٣١٩ .
 قيس بن ذريح : ٨٢ .
 قيس بن الملوح (مجنون عامر) : ٢٠٥ ، ٢٠٩ .
 ابن قيم الجوزية : ٣٢٩ .
 (ك)
 كابول : ٢٥٩ .
 كاسيرر : ١٧٣ .

(غ)

- الغزالي (أبو حامد) : ١٨٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
 غسان كنفاني : ١٣٨ .
 غلهم التاسع : ١٠٤ .
 غوتي : ١٧٩ ، ٢٤٨ .
 غوينزلي (غويدر) : ١٠٤ .
 أبو الغيث : ٣٤٤ .
 غيلان (ذو الرمة) : ٢٥٦ .
 (ف)
 الفارابي : ٨ ، ٢٢٨ .
 الفارقي : ١٦٨ .
 فايسباخ : ٦٦ .
 أبو الفتح الاسكندري : ٣٩٥ .
 فخر الدين الرازي : ١٥٠ .
 فخر الدين العراقي : ٢٣١ .
 ابن الفرات (الوزير) : ١٨٨ .
 أبو فراس : ١١٠ ، ١١٩ ، ٢٩٥ .
 أبو الفرج الأصفهاني : ٢٩٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ .
 أبو الفرج البيضا : ٣٢٣ .
 الفردوسي : ١٠ ، ١٢٣ .
 الفرزدق : ٤٣ ، ٧٣ .
 فرويد : ١٧٩ ، ١٩٤ .
 فريد الدين العطار : ١٧ .
 الفضل بن نوبخت : ١٨٩ .
 فؤاد الخطيب : ١١٧ .
 فوسيون : ٦٧ .
 فولفلين : ٦٧ .
 فيرجيل : ١٨ .
 فيروزان المجوسي : ٣٨٦ .
 فينوس : ٣٢ ، ٣٣ .

- كافكا: ٢٢٩.
- كافور (ممدوح المتنبى): ١٧٦.
- كثير: ١٨٢.
- كر كغرد: ٨٩.
- الكرملی (الأب أنستاس ماري): ٣٢٠.
- الكسائي: ١٨٨.
- كسرى أنو شروان: ٢٩٠.
- كشاجم: ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣١١، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧.
- كليوباترا (باخرة): ١١١، ١٣١.
- كمال الدين محمد (بن عمر بن الفارض): ٢٢٠.
- كنت: ٢٩، ٣٠، ٦٠، ٢٧١.
- كوربان (هنري): ٢٥٨.
- كوزا (نيكولوس فون): ٢٠٢.
- (ل)
- لازاريلو دوتورمس: ٣٩٨.
- لافدان: ٦٨.
- لاند: ١٧٣.
- لالو (شارل): ٣٠، ١٨١.
- لبابة (أم بني ثوابة): ٣٥٦.
- لقمان (وصايا): ٣٩٥.
- ابن لنكك: ٣٣٠.
- لویا (جيمس): ١٩٤.
- لويس التاسع: ٩٢.
- ليبتز: ٤٧.
- ليلی (قيس): ٢٥٦.
- (م)
- مأجوج: ٣٧٢.
- مارسيل (غابرييل): ٢٢٩.
- ماروت: ٣٧١.
- ماري (العالم): ٣٣.
- ماسينيون (لويس): ١٠، ٢٠٤، ٢٠٧.
- ٢٠٨.
- أبو ماضي (إيليا): ١٥٥.
- مال: ٦٦.
- مالك بن زغبة الباهلي: ١٨٢.
- مالك بن نورية: ١٤٧.
- المأمون (الخليفة): ٨٧، ١٧٨، ١٨٩، ٢٠٨.
- المأموني (أبو طلب): ٢٨٨، ٢٩٤.
- المبرد: ٢٧.
- المتلمس: ٣٥٤.
- متمم بن نورية: ١٤٧.
- المتنبى: ١٧، ٢٣، ٤٣، ٤٤، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ١٤٥، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٠، ١٧٥، ١٨٣، ٢٠٣، ٢١٤، ٢١٧، ٤١١.
- المتوكل: ٣٢٢، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩.
- ٣٦٠، ٣٦١، ٣٨٥.
- مجد الدين بن المطلب: ٤٠٣.
- محرز: ٣٨٢.
- المحسن بن علي بن الفرات: ١٨٨.
- محفوظ النقاش: ٥٩.
- محمد ﷺ: ٢٤، ٥٢، ٧٣، ١٧٠، ١٨٥، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠، ٤٠٠.
- محمد بن أسعد الحلبي: ٩١.
- محمد سعيد: ١٤٠.
- محمد بن شرف القيرواني: ٣١٧.
- محمد الطنجي: ٣٦٤، ٣٨٦.
- محمد بن عبد الله بن طاهر: ٢٨٧.
- محمد عبده: ١٠٧.
- محمد الفراتي: ١٧، ٤٨.
- محمد فؤاد عبد الباقي: ٣٣٨.

٣٨٢ ، ٣٦٨ ، ٣٦٠ ، ٣٣١ ، ٣٢٨
 المعتصم : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٧٨ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣
 المعتصم بن صمادح : ٩٨
 المعتضد : ١٧٨
 المعتمد بن عباد : ١٠٥ ، ٣٥٥
 المعري (أبو العلاء) : ٧٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٩
 معز الدولة البويهى : ٢٨٧
 المغيرة بن عبدالله (الأقشير) : ٢٢٢
 المقتدر : ٣٦٨ ، ٣٧٢
 المقرئ : ٢٧ ، ٣٩٧
 المقرئى : ٩٢
 ابن مقلة : ١٠٥
 ابن مكنة : ٣٧٩ ، ٣٨٠
 مكياfli : ٤١٣
 ملارمي : ٢١٦
 ملا علي القاري : ٣٣٨
 ابن مماتي : ١٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣
 المنازي (أبو نصر) : ٣٥
 مندلييف : ٦٤
 المنصور (أبو جعفر) : ٣٤٥
 المنصور بن العزيز : ٤٠٢
 المنصور قلاوون : ٢٢٠
 منكر و (نكير) : ٣٧١
 المهدي (الخليفة) : ٣٤١ ، ٣٤٥
 المهلب : ٣٤٦ ، ٤٢٢
 المهلبى (الوزير) : ٢٨٧ ، ٢٩٧
 مهيأر : ٢٦٣
 موسى بن الزكوري : ٣٦٣ ، ٣٦٤
 موسى الكاظم : ٣٧٨
 الموفق بن المتوكل : ٣٥٦
 مولير : ٣٧١

محمد بن القيسراني : ٩٠
 محمد بن عبد الملك : ٢٢٨
 محمد المبارك : ١٢
 محمد محمد حسين : ١١٩
 محمد مراد الشطبي : ١٤٠
 محمد الهاللي : ٤٠٦
 محمد المويلحي : ٤١١
 محمد بن واسع : ٢٦٤
 محمد بن يسير : ٦٠
 محمود سامي البارودي : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢
 المختار بن أبي عبيدة : ٣٤٠
 المدائني (أبو الحسن) : ٣٤٢ ، ٣٥٢
 مدغليس : ١٠٣
 المراكشي : ٢٦٤
 مرجليوث : ٣٥٣
 المرزباني : ٣٥٢
 مركور (عطارد) : ٢٥٧ ، ٢٥٨
 مروان بن الحكم : ١٤٨
 مريم (عليها السلام) : ١٨٩ - ١٩١
 المزبلي : ٣٦٣ ، ٣٦٤
 ابن مسرة : ٢٥٨ ، ٢٥٩
 مسلم : ٣٣٧
 ابن المسيب (أبي الحسن) : ٢٨٢
 مصطفى زين الدين : ٤٠٦ ، ٤٠٧
 مصعب بن الزبير : ٢٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢
 المطرزي : ٣٩١
 المطيع لله : ٣٩٢
 معاوية بن مروان : ٣٦٨
 المعتز (الخليفة) : ٣٢٤ ، ٣٥٢
 ابن المعتز : ٣٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤

نور الدين النقشواني: ٢٢٠.
 النوري (الصوفي): ١٩١.
 نوشروان البغدادي: ٣٩٧.
 النويري: ٤٢.
 (هـ)
 هاروت: ٣٧١.
 هارون (عليه السلام): ٢٥١.
 هارون الرشيد: ١٩٩، ٢٠٨، ٣٤٨.
 هاشم: ٢٧٣.
 ابن هانيء الأندلسي: ١٠٥، ١٨٦.
 ابن الهبارية: ١٨٩.
 الهذلي (أبو صخر): ١٥٧.
 الهذلي (أبو كبير): ١٧٧.
 هرمس: ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.
 ابن هرمة: ٣٤٣.
 أبو هريرة: ٢٤.
 هشام بن عبد الملك: ١٨٧، ٢٧٢.
 أبو هفان: ٣٥٠.
 هند (حبيبة بشر): ٢٥٥.
 هوميروس: ١٨، ٢٩، ١٢٣.
 هي بن بي: ٤٠٥.
 الهيشمي: ٢٤.
 هيغل: ٦٩، ٧٤، ٧٥، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٣.
 (و)
 الواثق: ٨١.
 ولي الدين يكن: ٣٨، ٤١٣.
 الوليد بن يزيد: ١٨٧.
 الوهراني (محمد بن محرز): ٤٠٣.

مونرو (توماس): ١٧٣.
 موني (المصور): ٣٢٣.
 الميكالي: ٢٨٤.
 مي (حبيبة ذي الرمة): ٢٥٦.
 ميمونة (أم المؤمنين): ٣٤٠.
 (ن)
 النابغة الجعدي: ٣٢٦.
 النابغة الذبياني: ٢٨، ٤٣، ٤٨، ١١٠.
 الناجم: ٣١٩.
 نازك الملائكة: ١٥٥.
 ناصر الدين الأسد: ١٣٨.
 ناصيف اليازجي: ٤٠٥.
 نافع بن لقيط الفقعسي: ٣٢٦.
 ابن نباتة المصري: ١٧٦، ٢٩٠.
 النيل (ابن عاصم): ٣٥٢.
 نجم الدين بن إسرائيل: ٢١٩، ٣١٣.
 نجم الدين بن يعقوب المنجنيقي: ٣٦٧.
 ابن نجيب: ٣٥٢.
 نصر الدين الرومي (جحا الترك): ٤١٣.
 ابن النطاح: ١٧١ - ١٧٢.
 النظام: ٢٥٥.
 نظامي الكنجوي: ١٧.
 النعمان بن حيون التميمي: ١٨٥.
 النعمان بن عدي بن نضلة: ٨٥.
 نعمة الله الجزائري الشوشثري: ٢٢٥.
 نعيمان (الصحابي): ٣٣٨.
 أبو نواس: ٣٦، ٤٧، ٧٢، ٧٣، ١٠٩، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٨، ١٨٣، ١٩٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٨١، ٣٠٦.
 نور الدين بن زكي (العاقل): ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢.

يوسف (عليه السلام): ٣٨٨.
يوسف البلوي المالقي: ٣٢١.
يوسف بن تاشفين: ٢٦٤.
يوسف الخطيب: ١٣٨.
يوسف بن عبد المؤمن: ٢٥٠.
يوسف بن يخلق الكومي: ٢٣٧.
يوشع: ١٥٥، ١٥٦.
يونس (عليه السلام): ١٨٦.
يونغ (كارل غستاف): ١٨٠.

(ي)

يأجوج (ومأجوج): ٢.
ياغي (عبد الرحمن): ١٣٨.
ياقوت الحموي: ٢٨٨، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٧.
يحيى بن معاذ: ١٩٣.
يزيد بن ضبة: ١٨٧.
يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن: ٢٥٠، ٢٦٤.
يهودا الحريزي: ١٠٤.

فهرسُ الكُتبُ

(١)

- ابن المقفع، عبد اللطيف حمزة: ١٨٩.
- أبولوجيا (دفاع عن العقائد المسيحية)، القديس جوستان: ٢٥٩.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين: ١١٨.
- إحياء علوم الدين، الغزالي: ١٩٥.
- أخبار جمعا، عبد الستار أحمد فراج: ٤١٧.
- أخبار الحلاج، أبو يوسف القزويني: ١٥١، ٢٠٧.
- أخبار الظراف والمتماجنين، ابن الجوزي: ٣٨، ٣٣٨.
- أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي: ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٨٧.
- الأدب الصغير، ابن المقفع: ٢٧.
- الأدب الكبير، ابن المقفع: ٢٨.
- أدب المقاومة في فلسطين المحتلة من ١٩٤٨ - ١٩٦٦، غسان كنفاني: ١٣٨.
- إرشاد الأريب (معجم الأدباء)، ياقوت الحموي: ٢٩٨، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦١.
- أزهار الشر، بودلير: ٤٧.
- أساس البلاغة، الزمخشري: ٢٧.
- أساس التأويل، النعمان بن حيون: ١٨٥.
- إستيتيك، هيغل: ١٨٠.
- إستيتيك الرقة، ريمون باير: ٣٥.
- أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق، الصولي: ٣٥٨.
- أشعة اللمعات، عبد الرحمن الجامي: ٢٣١.
- الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ٣٣٨.
- الأعلام، الزركلي: ٤٠٥، ٤١١.
- الأغاني، أبو الفرج: ٣٩، ١٧١، ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٦٠.
- الألفاظ والحروف، أبو نصر الفارابي: ٨.
- الإلياذة، هوميروس: ١٢٣، ١٢٤.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي: ٨، ٣٧٨.
- الإنجيل (الإصحاح الرابع عشر): ٢٥٩.
- الأنساب، السمعاني: ٩.

الإنسان الكامل، عبد الكريم الجيلي: ٢٤٧.
الإيحاء والرمز (مقال في مجلة فنية)، توماس مونرو: ١٧٣.
(ب)

في الباروك، أوخينيو دورس: ٦٧.
الباروك فن معارضة الإصلاح، فايسباخ: ٦٦.
بحث في الإنسان، كاسيرر: ١٧٣.
البخلاء، الجاحظ: ٥٢، ٦٠، ٣٤٩، ٣٩١، ٣٩٥.
بداية العلاج ونهايته، ابن باكويه: ٢٠٧.
بوستان، سعدي الشيرازي: ١٧.
البيان والتبيين، الجاحظ: ٣٥١، ٣٥٢.
(ت)

تاج العروس، الزبيدي: ٣٩٢.
تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي: ١٢.
تاريخ الحكماء، ابن القفطي: ٢٥٨.
تاريخ الفن، لافدان: ٦٨.
تاريخ المشايخ اليازجيين، عيسى المعلوف: ٤٠٥.
تجريد شرح الشيخ ابن عجيبة، عبد القادر الكوهني: ٢٦٤.
تحفة أهل الفكاهة، محمد سعيد: ١٤٠.
تحكموني، يهوذا الحريزي: ١٠٤.
التدبيرات الإلهية، محيي الدين بن عربي: ٢٤١.
تذكرة داود، داود الأنطاكي: ٣٠٣.
التراجم (كتاب)، محيي الدين بن عربي: ٢٤١.
التربيع والتدوير، الجاحظ: ٣٥٠، ٣٥١.
ترجمان الأشواق، محيي الدين بن عربي: ٢٥٥، ٢٦٣.
التشبيهات ابن أبي عون: ٣٣٠.
التصوف، أمانويل إيجرتر: ١٩٤.
التصوف والعفاف، طائفة من الرهبان: ١٩٥.
تفسير اليبضاوي، اليبضاوي: ٢٠٢.
تليس إبليس، ابن الجوزي: ٣٦٧.
تمهيد في علم الاجتماع، عبد الكريم اليافي: ١٨٠.
تنزل الأملاك، محيي الدين بن عربي: ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦٠.
التوهم، المحاسبي: ٢١٧.

(ث)

ثعلة وعفرة، سهل بن هارون: ١٨٩.

(ج)

الجامع الصغير، السيوطي: ٢٤، ٣٣٧.

جحا الضاحك المضحك، عباس محمود العقاد: ٤١٦.

جمع الجواهر في الملح والنوادر (ذيل زهر الآداب)، أبو إسحاق الحصري القيرواني: ٣٤٤، ٣٦١.

الجمهرة، ابن دريد: ١١.

جمهرة رسائل العرب، جمع أحمد زكي صفوت: ٨٥.

(ح)

حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني، الدسوقي: ٣٨٢.

الحجب (كتاب) محيي الدين بن عربي: ٣٠٥.

حديث عيسى بن هشام، المويلحي: ٤١٢.

الحقائق والرفائق، جد المقري صاحب نفح الطيب: ٢٧.

حكم قراقش، عبد اللطيف حمزة: ٤٠٠، ٤٠٢.

حكمة الإشراق، السهروردي: ٢٢٦.

حي بن يقظان، ابن سينا: ٢٢٤.

حي بن يقظان، ابن طفيل: ٢٢٨.

حياة الأدب الفلسطيني «من أول النهضة حتى النكبة»؛ عبد الرحمن ياغي: ١٣٨.

حياة الأشكال، فوسيون: ٦٧.

حياة الحيوان، الدمييري: ١٨٨.

الحيوان، الجاحظ: ٣٤٩.

(خ)

الخراج، قدامة بن جعفر: ١٧٨.

خريدة القصر، العماد الأصبهاني: ٩٢.

خزانة الأدب، ابن حجة الحموي: ٣٧.

خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي: ١١٧.

خلع النعلين، ابن قسي: ٢٥٨.

الخيال المبدع في تصوف ابن عربي، هنري كوريان: ٢٥٨.

الخوف والرجف، كركغرد: ٨٩.

(د)

- دار الطراز في عمل الموشحات، ابن سناء الملك: ١٠٢.
دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح: ١٢.
دراسة الأغاني، شفيق جبيري: ١٧١.
درر الحكم في أمثال الهند والعجم، ابن الهبارية: ١٨٩.
دروس اللغة العبرية، ربحي كمال: ١٠٤.
دون كيخوت، سرفتس: ١٦٣.
ديوان الأرجاني، الأرجاني: ١٦٦.
ديوان البارودي، البارودي: ١٠٧.
ديوان البحري، البحري: ١٨٣.
ديوان البهاء زهير، البهاء زهير: ٣٨، ٢٠٧.
ديوان الحلاج، جمع ماسينيون: ٢٠٤، ٢٠٧.
ديوان الحلبي، صفى الدين الحلبي: ٣٨١، ٤٠٠.
ديوان الخليل، الخليل بن الضحاك: ٢٠٨.
ديوان ابن الدمينه، ابن الدمينه: ٢٦٣.
ديوان ابن الفارض، ابن الفارض: ١٠٨، ٢٢٠.
ديوان ابن المعتز، ابن المعتز: ٢٩٦.
ديوان مهيار، مهيار: ٢٦٣.
ديوان أبي نواس، أبو نواس: ٢٠٨.
ديوان ابن هانيء، ابن هانيء: ١٨٦.
ديوان الوطن المحتل، جمع يوسف الخطيب: ١٣٨.

(ذ)

- ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق، ابن عربي: ٢٥٤.
ذيل زهر الآداب (انظر جمع الجواهر).

(ر)

- رحلة ابن جبير، ابن جبير: ٤٠٣.
رسالة الطير، الغزالي: ٢٢٩.
رسالة الغفران، المعري: ٧٣، ٣٦٦.
رسالة القشيري، القشيري: ١٩٣.
رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، ابن حزم: ٢٨.
رسائل إخوان الصفا، إخوان الصفا: ٢٢٩، ٣٦٥.
رسائل البلغاء، جمع كرد علي: ٢٧، ٢٨.
رسائل جابر بن حيان، جابر بن حيان: ١٨٤.

رسائل الجاحظ، الجاحظ: ٣٨٥.

رغبة الآمل من كتاب الكامل، سيد بن المرصفي: ٢٧.

الروائع، فؤاد أفرام البستاني: ٤٠٦.

الروح الخالدة، عي نصوح الطاهر: ٢٢٤.

روح القدس، ابن عربي: ٢٣٣، ٢٣٧.

(ز)

زهر الآداب، أبو إسحاق الحصري القيرواني: ٣٤٤.

(س)

الساق على الساق، الشدياق: ٥١، ٤٠٨.

سر الليال، الشدياق: ١٤، ١٦، ٤٠٨.

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، محمد بن نباتة: ٢٩٠.

سلوان المطاع في عدوان الاتباع، ابن ظفر: ١٨٩.

السلوك، المقرئزي: ٩٢.

سنن أبي داود، أبو داود: ٣٣٧.

سيكولوجيا التصوف، جيمس لوبا: ١٩٤.

(ش)

شذرات الذهب، ابن العماد: ٢١٠، ٢١١، ٢٣٧.

الشذور (كيمياء)، علي بن موسى: ١٨٥.

شرح الأبيات المشككة الأعراب، الفارقي: ١٦٨.

شرح جوهر النصوص في حل كلمات الفصوص، عبد الغني النابلسي: ٢٢٩.

شرح ديوان ابن الفارض، جمع الدحداح: ٢١١.

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ثعلب: ٧٠.

شرح القاشاني على الفصوص، عبد الرزاق القاشاني: ٢٣٤.

شرح المكتسب. أبو القاسم العراقي: ١٨٥.

شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد: ٨٥.

الشعر والحقيقة، غوتي: ١٨٠.

شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام، أمجد الطرابلسي: ١١٩.

الشماثل، الترمذي: ٣٣٧.

الشهامة، الفردوسي: ١٢٣.

(ص)

- الصادح والباغم، ابن الهبارية: ١٩٠.
 الصحائف السود، ولي الدين يكن: ٤١٢.
 صحيح البخاري، البخاري: ٣٣٧.
 صحيح مسلم، مسلم: ٣٣٧.
 صناعات القواد، الجاحظ: ٣٨٥.
 الصيدنة، البيروني: ٩.

(ض)

- الضحك، برغسون: ٥٦، ٣٣٥.

(ط)

- طبقات الأطباء والحكماء، ابن جلجل: ٢٥٨.
 طبقات الأمم، صاعد: ٢٥٨.
 طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي: ٣٦٤، ٤٠١.
 طبقات الشعراء، ابن المعتز: ٣٦٠.
 طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن السلمي: ١٥١.
 الطراز المنقوش في حكم السلطان قراقوش: ٤٠٢.
 طيف الخيال، ابن دانيال: ٣٨٠، ٣٨١.

(ع)

- عبد الله بن المقفع، سليم الجندي: ١٨٩.
 العبقرية العربية في لسانها، زكي الأرسوزي: ١٢.
 عجيب وغريب، ابن دانيال: ٣٨١.
 العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٣٣٩.
 علم النفس والكيمياء، يونغ: ٤٢٠.
 عنقاء مغرب، ابن عربي: ٢٤٣.
 العين (كتاب)، الخليل الفراهيدي: ١١.
 عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٢٦.

(غ)

- غريب الحديث، أبو عبيد: ١١.

(ف)

- الفاشوش في أحكام قراقوش، السيوطي: ٤٠٢.
 الفاشوش في حكم قراقوش، ابن ماتي: ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢.
 فاكهة الندماء ومفاكهة الظرفاء، أحمد بن عريشاه: ١٨٩.
 فاوست، غوتي: ٣٩٧.

الفتوحات المكية، ابن عربي: ١٧٢، ١٨٨، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٢.

فصوص الحكم، ابن عربي: ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦١.

فضائح الباطنية، الغزالي: ١٨٥.

فقه اللغة، الثعالبي: ٢٩.

فقه اللغة، محمد المبارك: ١٢.

فن الباروك في إيطاليا وفرنسة وألمانية وإسبانية، فايسباخ: ٦٦.

الفن الديني بعد مجمع ترانت، مال: ٦٦.

فن الشعر (الببوطيقا)، أرسطو: ٥٣٠.

الفنون الإسلامية، ديماندا: ٢٧٣.

فوات الوفيات، ابن شاعر الكتبي: ٣٠٩، ٣٦٠.

في شعر النكبة، صالح الأشر، ١٣٨.

فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي: ٢٤، ٣٣٧.

(ق)

القاموس المحيط، الفيروزبادي: ٦١٦.

القرآن الكريم: ٧، ٨، ١٩، ٢٤، ٢٧، ٤١، ٤٢، ٨٥، ١٢٥، ١٥٥، ١٥٩، ١٨٥، ١٨٦،

١٨٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٠،

٢٥٣، ٢٦١، ٢٦٢، ٣٢٠، ٣٤٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٧٨، ٣٨٤، ٤١٧، ٤٢٣، ٤٢٤،

٤٢٦.

القائف، المعري: ١٨٨، ١٨٩.

القرب في محبة العرب، الحافظ العراقي: ٢٤.

قرة الناظر ونزهة الخاطر، ابن سودون: ٤٠٣.

قصة الأرنب البري، فرنسيس جم: ٤٢٣.

(ك)

الكامل، المبرد: ٢٧.

الكبير (معجم في الحديث)، الطبراني: ٢٤.

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة: ٩٢.

كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، عبد الغني النابلسي: ٢١٩، ٢٦٣.

كشف الظنون، حاجي خليفة: ٢٣١.

الكشكول، بهاء الدين العاملي: ٢١٠.

كلستان، سعدي الشيرازي: ١٧.

كليلة ودمنة، ابن المقفع: ١٨٨، ١٨٩.

(د)

- اللزوميات، أبو العلاء المعري: ٣٦٥.
لسان الميزان، العسقلاني: ٢١٩.
لطائف الأسرار: (انظر تنزل الأملاك).
اللمع، أبو نصر الطوسي: ٢٠٨.

(م)

- المبادئ الأساسية لتاريخ الفن، فولفلين: ٦٧.
المثل السائر، نصر الله بن الأثير: ١٧٦.
المثل في القرآن الكريم، منير القاضي: ١٨٨.
المتنوي، جلال الدين الرومي: ٢٣١.
مجلة التحليل النفسي: ١٩٤.
مجمع البحرين، ناصيف اليازجي: ٤٠٥.
محاضرات الأدباء، الراغب الأصبهاني: ٢٠٨.
محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن، ناصر الدين الأسد: ١٤٠.
المخصص، ابن سيده: ٥١.
المدبجات، عبد المنعم الأندلسي: ١٤٠.
المراح في المزاح، محمد الغزي: ٣٣٧، ٣٣٨.
المزهر، السيوطي: ٨، ١٧٠.
المستدرک، الحاكم: ٢٤.
مشكاة الأنوار، الغزالي: ٢٠٩.
مصنف الغريب، أبو عبيد: ١١.
معاهد التنصيص، عبد الرحيم العباسي: ٣٨٢.
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي: ٣٧٩.
معجم الآثار اليونانية والرومانية، دار مبرغ وساليو: ٢٥٩.
معجم أترفلد، أترفلد وغيره: ٢٠٢.
معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٣٤، ٣٥٦، ٣٩٧.
معجم دوزي، دوزي: ٢٩٧.
معجم كابول الديني، كابول: ٢٥٨.
معجم لالند، لالند: ١٧١.
معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس: ١٠، ١٣، ٣٧.
مفتاح العلوم، السكاكي: ١٢.
مفردات ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية). ابن البيطار: ٢٩٦.
مقامات الحريري، الحريري: ١٦٨، ٣٩٥، ٣٩٦.

مقامات الهمذاني، الهمذاني: ١٦٨، ٣٩٥.
 مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون: ٨، ١٨، ٤٢٠.
 منار القائف، أبو العلاء المعري: ١٨٩.
 منتهى المدارك، سعيد الفرغاني: ٢٢٠.
 المنطق (كتاب)، ابن السكيت: ١١٠.
 المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي: ٢٠١.
 مواقع النجوم، ابن عربي: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤.
 موسوعة الفنون، رنز وشريك: ٦٨.

(ن)

نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة، ابن الهبارية: ١٨٩.
 نخب الذخائر في أحوال الجواهر، ابن الأكتفاني: ٥١٤.
 نزهة الأثام في محاسن الشام، البدري الدمشقي: ٢٩٠، ٣٠٥.
 نزهة النفوس ومضحك العيوس، علي بن سودون: ٤٠٤.
 نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، أبو علي التنوخي: ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٩٦.
 نظم السلوك (من ديوان ابن الفارض). ابن الفارض: ٢١٧.
 نفح الطيب، المقرئ: ٢٧، ٣٥، ١٥١.
 النفحات، القونوي: ٢٢٠.
 نقد الحكم، كُنت: ٢٩.
 نقد العقل العملي، كُنت: ٢٨.
 نقد العقل النظري، كُنت: ٢٨.
 نهاية الأرب، أحمد بن عبد الوهاب النويري: ٤٢، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦.
 نهاية الأقدام في علم الكلام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: ٢١٨.
 نهاية الطلب في شرح المكتسب، الجلدكي: ١٨٥.
 نوادر المخطوطات، عبد السلام هارون: ١٨٩.

(هـ)

هياكل النور، أبو الفتوح السهروري: ٢٢٦.

(و)

الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية: ٣٢٩.
 الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: ٣٨٠، ٤٠٣.
 الوسيلة الأدبية، حسين المرصفي: ١٠٧، ١١٠.
 وفيات الأعيان، ابن خلكان: ١٨٨، ٢١١، ٤٠٣.

(ي)

يتيمة الدهر، الثعالبي: ٣١٦، ٣٧٥، ٣٧٨.

فهرسُ المَوْضُوعَات

موضوع	صفحة
استهلال	٥
المقدمة	٧
القيم الجمالية	٢٥
الرقعة	٣٢
الروعة	٤٠
الجمال	٤٦
الضحك	٥٠
ملامح من أطوار الشعر العربي	٦٣
الطور الاتباعي والطور البراق	٦٦
ارتباط التعبير الشعري بحال المجتمع	٨٤
الأوزان المستحدثة	٩٥
إشراق البيان في تباشير النهضة العربية	١٠٧
شعر النضال الفلسطيني	١٣٢
الشعر العربي وفكرة الزمان	١٣٩
الرمز في الشعر العربي	١٦٣
في زي مقدمة	١٦٣
تفاريح	١٨١
الرمز الصوفي	١٩٠
الحلاج ورفضه الرمز	٢٠٣
ابن الفارض والرمز	٢٠٩
الرمز والفلاسة	٢٢٤
ابن عربي ومدرسته	٢٢٩
الأزهار والرياحين والبقول والفاكهة في الشعر العربي	٢٧٠
تطور المجتمع العربي من خلال تطور الفكاهة	٣٣٤
الفكاهة للتجيب والاستجمام	٣٣٧
الفكاهة للفكاهة	٣٤٠

٣٤٥ الفكاهة للكسب والتعيش
٣٤٨ أمير الفكاهة
٣٥٢ الفكاهة سلاح
٣٥٨ التهريج وترف الفكاهة
٣٦١ الفكاهة لدعم الآراء والمذاهب
٣٦٨ المنفلون الكبار وتفاوت الحظوظ
٣٧٤ الشعر الهزلي ومدرسة ابن حجاج
٣٨٢ نتف من صناعة الفكاهة الأدبية
٣٨٤ بعض ميادين الفكاهة
٣٨٨ تصنيف أشكال الحياة الاجتماعية
٣٨٩ الفكاهة وأدب الكدية
٣٩٨ حكم قراقوش
٤٠٢ لا يقلع المسمار إلا المسمار
٤٠٣ تحصيل الحاصل
٤٠٤ لمح من الفكاهة في العصور المتأخرة
٤١٣ جحا ونواده
٤١٨ خاتمة
٤٢٧ فهرس الأعلام
٤٤١ فهرس الكتب
٤٥٠ فهرس الموضوعات

